جان ماري غوستاف لوكليزيو

المؤلف الحائز على جائزة نوبل للآداب 2008

الكرنتينة

رواية

ترجمتها عن الفرنسية:

نهى أبوعرقوب

مكتبة
t.me/soramnqraa

جان ماري غوستاف لوكليزيو

مكتبة
t.me/soramnqraa

الكرنتينة

رواية

ترجمتها عن الفرنسية:

نهى أبوعرقوب

مراجعة:

كاظم جهاد

© مشروع «كلمة» للترجمة بمركز أبوظبي للغة العربية في دائرة الثقافة والسياحة - أبوظبي.

PQ2672 .E25 Q37125 2022
Le Clézio, Jean-Marie Gustave, 1940-
الكرنتينة : رواية / تأليف جان ماري غوستاف لوكليزيو؛ ترجمة نهى أبو عرقوب ؛ مراجعة كاظم جهاد. ـ ط. 1. ـ أبوظبي: دائرة الثقافة والسياحة، كلمة، 2022.
ص 549. ؛ 21 سم.
ترجمة كتاب: La Quarantaine
تدمك: 978-9948-04-061-3
1ـ القصص الفرنسية- مترجمات إلى العربية- القرن 20. 2- القصص العربية- مترجمات من الفرنسية- القرن 20. أ- أبو عرقوب، نهى. ب- جهاد، كاظم. ج- العنوان.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الفرنسي:
Jean-Marie Gustave Le Clézio
La Quarantaine
© Éditions Gallimard, Paris, 1995

لوحة الغلاف: «عاصفة ثلجيّة» لوليام تيرنر William Turner (1775-1851)

صدر بموافقة مكتب تنظيم الإعلام- وزارة الثقافة والشباب- رقم الطلب MC-03-01-8805266 .
طبع في المتحدة للطباعة والنشر- أبوظبي- 80022220

مركز أبوظبي للغة العربية
Abu Dhabi Arabic Language Centre
كلمة
KALIMA
www.kalima.ae

مشروع «كلمة» للترجمة بمركز أبوظبي للغة العربية في دائرة الثقافة والسياحة - أبوظبي غير مسؤول عن آراء المؤلف وأفكاره، وتعبر وجهات النظر الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف وليس بالضرورة عن رأي المركز.

مكتبة
t.me/soramnqraa

انضم لـ مكتبة .. امسح الكود

انقر هنا .. اتبع الرابط

telegram @soramnqraa

الكرنتينة

المحتوى

- مقدّمة المُراجِع 7
- المسافر الأبديّ 21
- واضع السّمّ 43
- الكرنتينة 67
- آنّـا 493

مقدمة المُراجِع

مكتبة
t.me/soramnqraa

ولـد الكاتـب الفرنـسيّ جـان مـاري غوسـتاف لوكليزيـو Jean-Marie Gustave Le Clézio (اسـم اعتـاد كتابتـه مختـصراً في هيئـة J.M.G. Le Clézio)، في مدينـة نيـس الفرنسـية في 1940، وفـاز بجائـزة نوبـل لـلآداب في 2008. نشـأ في بيئـة موسـومة بتعـدّد الأصـول والمشـارب الثقافيّـة، وهـو مـا جعـل منـه شـعار عملـه الأدبيّ الضّخـم ومنطلقـه الأسـاسيّ.

يسـتعيد الكاتـب في هذه الرّوايـة إقامة إجباريّة عاشـها جـدّه لأمّه، ألكسي Alexis ، في جزيـرة صغـيرة مجـاورة لجزيـرة موريشـيوس. الفـرع الأمومـيّ من أسْرة الكاتـب متحـدّر مـن منطقة البروتـاني الفرنسـيّة، وقد هاجر أجـداده إلى جزيـرة موريشـيوس في نهايـات القـرن الثّامن عشر هربـاً من المجاعـة والفقر، واسـتقرّوا هنـاك. نشـأ هـو في مدينة نيـس بجنوب فرنسـا بعد مـا تزوّجت أمّه مـن طبيـب إنجليـزيّ أُرسِـل للعمـل في الكاميرون ثـمّ في نيجيريـا الخاضعتين يومها للاسـتعمار البريطـانيّ، وبقي طيلة سـنوات الحرب العالميـة الثانية محروماً مـن رؤيـة زوجتـه وأبنائه. ولقـد زار الكاتـب أبـاه في نيجيريـا في 1948، وأبهره تعلّقـه بحيـاة الأفارقة السّـود وثقافتهم، وعنايتـه بهم، وكتب عنه لاحقاً سـيرة روائيّة جميلة سـمّاها «الأفريقـيّ» *L'Africain* (2004).

تـردّد لوكليزيـو أيّـامَ تدرّبـه عـلى الكتابـة الأدبية في صباه بـين الإنجليزية والفرنسـية، اللّتـين يحذقهـما سـواءً بسـواء. بيـدَ أنّ شـغفه بالفرنسـية هـو الـذي انتـصر في خاتمـة المطـاف، فاختارهـا لغـة للإبـداع.

عـلى امتـداد عـشرات الروايـات والمجموعـات القصصيّـة والدراسـات الأدبيـة مـرّ مسـار لوكليزيـو الإبداعـيّ بطوريـن، يهيمـن الثّـاني منهـما عـلى الجـزء الأكـبر مـن أعمالـه ويحمـل ميسـمه الخـاصّ الـذي دمـغ بـه الأدب الـسّرديّ الفرنـسيّ والعالمـيّ. في الطّـور الأوّل، لمـعَ مبكّـراً ببضـع روايـات وقصـص ترسّـمَ فيهـا خطـى «الروايـة الجديـدة»، مراهنـاً عـلى تحديـث الشّـكل وموضوعيـة الوصـف وانتفـاء الحكايـة التقليديـة وبسـيكولوجيا الشـخوص، وعـلى التفكـير في مسـتقبل الجنـس الروائـيّ وطبيعـة اللّغـة وعوائـق التواصـل. مـن أعمالـه في هـذا الطّـور روايتـه الأولى «المَحْـضَر» *Le Procès-verbal* (1963)، كتبهـا يـوم كان في سـنّ الثالثـة والعشريـن، وقـد وصلـت إلى قائمـة الترشـيح النهائيـة لجائـزة غونكـور Goncourt للروايـة، وفـازت بجائـزة رونـودو Renaudot للرّوايـة في العـام نفسـه. شـمل هـذا الطّـور روايـات ومجموعـات قصصيـة أخـرى منهـا «الحمّـى» *La Fièvre* (1965) و«الطّوفـان» *Le Déluge* (1966)، و«كتـاب الهروبـات» *Le Livre des fuites* (1969)، و«الحـرب» *La Guerre* (1970).

ثـمّ مـا لبـث أن تملّـك لوكليزيـو الشّـعورُ، لا بـل القناعـةُ بانتمائـه إلى هويّـة متعـدّدة وبكـون روافـد عديـدة تتلاقـى في تكوينـه. فهـو فرنـسيّ بفعـلِ أصـل الفـرع الأومـيّ لعائلتـه، وبفعـل نشـأته الثقافيـة هـو نفسـه. وهـو سـليل موريشـيوس[1] بباعـث مـن هجـرة أجـداده لأمّـه إلى هـذه

(1) موريشيوس: يبدو أنّ البحّارة الفينيقيّين عرفوها، ثمّ العرب حوالى 975، تلاهم البحّارة =

البلاد التي تحمل اسمَ الجزيرة الكبرى فيها، بلاد معتبرَة أفريقيّة، وتطلّ على المحيط الهنديّ، ويتحدّر أغلب سكّانها من أصول هنديّة وأفريقيّة وأوروبيّة وصينيّة، فهي معروفة بتعدّدها الثّقافيّ والإثنيّ. ثمّ إنّه إنجليزيّ من خلال تحدّر أبيه وجزء مهمّ من ثقافته الشخصيّة، وأفريقيّ الهوى، سواء أتعلّق الأمر بأفريقيا السّوداء، بباعث من عمل أبيه طبيباً في الكاميرون ونيجيريا وافتتانه بثقافة هذه القارّة، أم بأفريقيا الشماليّة بفعل زواجه من سيدّة من الصّحراء الغربيّة، اسمها جْميعة لوكليزيو (مع تسكين جيم «جُمَيعة» حسب نطقه في الدّارجة المغربية) Jémia Le Clézio. بفضلها عرف الصّحراء المغاربيّة، فسحرتْه هذه بثقافتها وعاداتها وخصّها بأكثر من كتاب، لا سيّما رواياته الملحميّة «صحراء» *Désert* (1980)، وكتاب «أناس الغيوم» *Les Gens des nuages* (1999) الذي كتبه بالتعاون مع زوجته. وإلى هذه الرّوافد الأوروبيّة والأفريقيّة والمغاربيّة، أضاف مكوّنين مهمّين آخرين: ثقافة الهنود الحمر وحكمتهم العريقة، اكتسبها أثناء عمله أستاذاً في المكسيك طيلة عدّة سنوات وزياراته المتواصلة لقبائلهم في الأمازون، وتخصّصه بدراسة منطقة المشواكان Le Michoacán في وسط المكسيك، وثقافة الهند البوذيّة والمسلمة، قاربها من خلال معايشته لموريشيوسيّين من أصل هنديّ وبفضل قراءاته ورحلاته. هكذا جعل من نفسه كاتب الغيريّة المطلقة وروائيّ التّصاهر والخلاسيّة والتعدّد والانحياز للآخر في اختلافه

= البرتغاليّون في 1507. بقيت البلاد غير مسكونة حتّى جعل منها الهولنديّون بدءاً من 1598 محطّة للتموّن في طريقهم إلى المستعمرات الهولنديّة في الهند، ثمّ استعمرها الفرنسيّون في 1715 وسموّها «جزيرة فرنسا»، وتنازلوا عنها للبريطانيّين أثناء حروب نابليون بونابرت في 1810. نالت البلاد استقلالها في 1968.

المُخصِب مثلما في امتحانه التاريخيّ والإنسانيّ الأليم الذي يستدعي من الكاتب تعاطفاً وفهماً كبيرين. وعليه فإنّ جميع كتب لوكليزيو في طوره الثّاني الذي يشكّل أساس تجربته الإبداعية تزخر برحلات نحو الآخر وتمليها إرادة فعّالة في الانغماس في عالمه العميق والانخراط فيه، بعضها يحيل على جزيرة موريشيوس والثقافة الكريوليّة، كرواية «الباحث عن الذّهب» *Le Chercheur d'or* (1985) و«الكرنتينة» المترجمة هنا و«ثورات» *Révolutions* (2003)؛ والبعض الآخر على نيجيريا مثل «أونيتشا» *Onitsha* (1991) و«الأفريقيّ» *L'Africain* (2004)، وعلى المكسيك وعالم الهنود الحمر، مثل «الحُلم المكسيكيّ أو الفكر اللاّ منقطع» *Le Rêve mexicain ou la pensée interrompue* (1988) و«باوانا» *Pawana* (1992) و«أورانيا» *Ourania* (2006)، إلخ. كما خصّ المأساة الفلسطينيّة برواية «نجمة شاردة» *Étoile errante* (1992)، يصف في قسم منها معاناة الصبيّة «نجمة» في مخيّم لاجئين فلسطينيّين، وفي القسم الآخر ما تتسبّب به هذه المعاناة من عذابِ ضميرٍ لطبيبة إسرائيليّة تجعل منها قضيّة حياتها، وهو أمر يصعب تصوّر وجوده حقّاً في واقع المأساة.

ولتغذية شغفه بالآخر هذا، شكّل لوكليزيو لنفسه سلالة أدبية وفكريّة من كتّاب وشعراء عُرفوا بحسّ التمرّد، وبسعيهم إلى إرساء مفهوم آخر للعدالة والعلاقة بالعالَم والأشياء وتَصوُّر الحياة بالذّات، وعلى رأسهم كونت لوتريامون وآرتور رامبو وهنري ميشو وفرانسيس بونج وصامويل بيكيت، علماً بأن رسالة الكاتب في ختام دراسته الجامعيّة كانت مخصّصة لموضوع «العزلة في عالَم هنري ميشو» *La Solitude dans l'œuvre d'Henri Michaux*.

كلّ شيء في الرّوايـة المترجمـة هنـا مـدروس، ومختـار عـن قصـد وبهـدفِ تحقيـقِ أثـرٍ مـا. وذلـك حتّـى في مـا يُدعـى «عتبـات النـصّ». فالقبسـة الاسـتهلالية مـن «باغهافـات بورانـا» *Baghavat Purana*، التـي قطّعهـا الكاتـب عـلى هيئـة أبيـات، إنّـما ترتبـط ارتباطـاً وثيقـاً بالتجربـة المعروضـة في «الكرنتينـة» وتمهّـد لمآلها ولانحيـاز بطلهـا النهائـيّ إلى «الجهـة الأخـرى»، جهـة المنبوذيـن والمستبعَدين: «مـع أفـول هـذا العـصر،/ آنَ يغـدو الملـوك جميعهـم لصوصـاً،/ سـيولد كالكـي، سـيّد الكـون، ثانيـةً/ طالعـاً مـن مجـدِ فيشـنو»[1]. المفـردة السّنسـكريتية «بورانـا» تعنـي حرْفيّـاً «العتائـق»، وهـي تـدلّ عـلى كتـب الهنـدوس المقدّسـة، وتحـوي تعاليـم أتبـاع فيشـنو Vishnou، أحـد الآلهـة الهندوسـيّين الثلاثـة إلى جانـب براهمـا Brahmā وشـيفا Shiva. يتجسّـد فيشـنو عـبر تحـوّلات أو تقمّصـات عديـدة، ويمثّـل كالكـي Kalki المذكـور في القبسـة تجسّـده الأخـير الـذي يتزامـن مـع انهيـار العـالَم في مـا يشـبه القيامـة المصـوَّرة في الديانـات التوحيديّـة.[2] والروايـة تنغـرس في بُعـد قيامـيّ حقّـاً، بالنسـبة إلى بطلهـا ليـون عـلى الأقـلّ، إذ تتسـبّب لـه الجائحـة ومـا رافقهـا مـن عسـف يمارسـه البيـض عـلى المهاجريـن الهنـود الخلاسـيّين بانهيـار عـالَم كامـلٍ في داخلـه وولادة وعـيٍ آخـر. وهـو مـا يكـرّر الكاتـب أو السّـارد التذكـير بـه في الصفحـات الأخـيرة: «لا نعـرف كالكـي بعـد، لكنّـه آتٍ لا بـدّ. [...] لا أحـد يعـرف متـى سـيأتي، أو مَـن سـيكون، ولكـنْ بـات جليّـاً أكثـر فأكثـر أن مجيئَـه وشـيك، وأنّـه سـيقيم مملكتـه قريبـاً».

(1) القبسـات من الرّواية في هذا التقديم مأخوذة من ترجمة نهى أبو عرقوب، الرّائعة، لهذا العمل.

(2) ندين بهذه المعلومات لمادلين بورغومانو، في دراستها «كرنتينة لوكليزيو ودوار التناصّ»:
Madeleine Borgomano, « *La Quarantaine* de Le Clézio et le vertige Intertextuel », *Cahiers de Narratologie* [En ligne], 13/2006, mis en ligne le 1er septembre 2006.

كما إنّ اقتباس عبارة شفهيّة لصديقة أو قريبة راحلة يهدي إليها الكاتب روايته، اسمها أليس Alice: «هنا ينتهي فردوسُ الأغنياء وتبدأ جحيم الفقراء»، إنّما يفصح بادئ ذي بدء عن انحياز الكاتب إلى الفقراء والمنبوذين، يقرّر النّزول إلى جحيمهم مدفوعاً بقوّة النّشيد الشعريّ (وروايته هذه مضمّخة بالشّعر في كلّ صفحاتها)، مثلما فعل أورفيوس الشّاعر والمغنّي في الأسطورة الإغريقية التي تصوّره هابطاً إلى العالم السفليّ بحثاً عن حبيبته أوريديكه. كما تتردّد في الرواية قبسات شعريّة من بودلير ورامبو والشّاعر الإنجليزيّ لونغفيلو Longfellow ، يشاطر ليون محبّة سوزان لها. هذه القبسات تشكّل قاعدة صلبة للرواية وتذكيراً متواتراً بضرورة السّفر والانزياح عن الأعراف المفروضة والأفكار الجاهزة، وبالتّوق إلى الآخر بما هو مجال اكتشاف ومشاركة. هذا كلّه يمكّنه من الكشف في قلب الواقع عن واقع مغاير، لا يشكّل ما فوقَ واقع (وهذا هو المعنى الحرفيّ للنّعت «سورياليّ»)، بل هو واقع يبطّن الواقع المعيش ويحمل في ذاته بذور تجاوُزه، ويَعِد بتحوّلات عجيبة تتطلّب انتباهاً خاصّاً يمتلكه المتصوّفة وكبار الشّعراء والكتّاب، وأصحاب التجارب الرّوحانية أو الجوّانيّة بعامّة.

يدشّن هذه الرّواية ويختتمها ساردٌ أوّل، قريب إلينا في الزّمن، يستحضر في فصلين أوّلين ذكرياته عن جدّه جاك، وشقيق جدّه، ليون، الذي يحمل هو نفسه اسمه، ثمّ شغفه بسيرة الشّاعر آرتور رامبو، شغف أتاه من ذكريات سلفَيه المذكورين عنه أيضاً. وفي الفصل الختاميّ يسرد رحلته إلى جزيرة موريشيوس، بحثاً عن جذوره، وإلى مِلكيّة أسلافه المسمّاة «عزبة آنّا». هناك لا يجد السّارد الفتى سوى

عمّته آنّا، وقد شاخت وصارت صَموتاً، ومن خلال نُتَف الأحاديث وما بقي من الصّور وصغير الآثار يسترجع عالم الأمس ويلاحظ زواله شبْه الكلّي، ويرصد عوالم الجزيرة ويقدّم أفكاراً ثاقبة عن نتائج التّحديث الزّائف وعمل الزّمن. وبين لحظتَي السّرد هاتين يسلّم ناصية الكلام إلى سارد آخر، هو ليون Léon، شقيق جدّه، يعرض تجربة «الكرنتينة» على امتداد مئات الصّفحات.

تحمل فصول الرّواية تواريخ توضّح لنا مسارها وعائديّة الكلام إلى كلّ من السّاردَين، وتقيم فواصل واضحة بين مختلف مراحل التجربة وأجزاء السّرد. وتتخلّل سرد ليون (الأكبر) لتجربة «الكرنتينة» كما عاشها بنفسه حكاية ثالثة، وضعها الكاتب بسطور أقلّ عرضاً من بقيّة صفحات الرواية لتمييزها، مكرّسة لسيرة العجوز جيريبالا أثناء الاستعمار البريطانيّ للهند. كما تتضمّن بعض الفصول مقتطفات من يوميّات عالِم النّبات جون ميتكالف John Metcalfe، أحد شخوص تجربة الإقامة في الكَرنتينة، مطبوعة بحروف غامقة، تتوالى فيها أسماء النباتات التي يكتشفها، وبعض خصائصها، مطروحة بلغة علمية موضوعية عن قصد. فهي تساهم في إحلال الرواية في غرائبيّة المكان (جزيرة بلات، حيث تقام الكرنتينة، أي الحجر الصحّيّ)، وكذلك، لا بل خصوصاً، في تصوير شغف الاكتشاف العلميّ الذي يتابعه العالم المذكور حتّى يلفظ آخِر أنفاسه بسبب جائحة الجدريّ، وبه يجابه المَوتَ الزّاحفَ المُلقيَ بظلّه على الجميع.

بالرّغم من أهميّة كلّ فصول الرّواية، لا ريب أنّ المحور الأساس لهذا العمل إنّما يتمثّل في السّرديّة الكبرى، التي يضطلع بها الجدّ ليون،

متّبعاً الزمن الفعليّ لما عاشه فيها من أحداث، بصحبة شقيقه جاك وزوجته سوزان. يبحر الثلاثة في 1891 على متن السفينة لافا L'Ava إلى موريشيوس، لاستعادة إرث عائلتهم، آل أرشمبو، الذي استحوذ عليه كبير العائلة، عمّ لهما اسمه ألكسندر، وحرمَ منه الجميع. قبل الوصول، يشيع وباء الجدريّ بين الركّاب وطاقم الملّاحين، وقد التقطه مسافران أثناء توقّف مؤقّت للسّفينة. فيُنقَل المسافرون إلى جزيرة بلات، المجاورة لموريشيوس، والتي أقيمت فيها كرنتينة لجميع صنوف الأوبئة، سرعان ما تزجّهم في معيش جهنّميّ، وتقابلها جزيرة غابريال، حيث يُنقل المصابون المعلَنون بالجدريّ ويُحرَق الموتى من بينهم، بعيداً عن أنظار ساكني الكرنتينة. شيئاً فشيئاً يتحوّل العيش في الجزيرة إلى تجربة اعتقال كاشفة، يزيد من حدّتها السّلوك والتّفكير الاستعماريّان للمسافرين البيض. فتتحوّل الإقامة إلى انحباس في حلقة مفرغة نشهد فيها الحقيقة البائسة لأغلب البشر وهي تتجلّى بسطوع أليم. ليس هناك سوى تماسّات عابرة ومكتنزة بالدّلالات السّلبيّة بين عالمين: عالَم البيض المتغطرسين إلّا بعضاً منهم، وعالَم «الكولي»، العمّال والخدم الهنود من فئة «المنبوذين»، الذين جاؤوا إلى الجزيرة مجبَرين، يقومون فيها بالأعمال العسيرة كتجهيز المؤونة وتنظيف المكان وغسل الموتى أو حرْقهم. وحده ليون الجدّ، الشابّ يومذاك، يخترق الحدود الفاصلة ويضطلع بتجربة انسلاخ، شجاعة، إذ يُغرَم بخلاسية من «المنبوذين» اسمها سوريافاتي («قوّة الشّمس»)، يدعوها على سبيل الاختصار والتحبّب «سوريا». تعرّفه الفتاة على أمّها أنانتا، الخلاسيّة هي أيضاً (إنجليزية-هنديّة)، عثرت عليها في أحد الشّوارع العجوز

الهنديّـة جيريبـالا، طفلـةً جائعـة في حضـن مربيّـة جائعـة هـي أيضـاً، فتبنّتهـا. حـدث ذلـك في ظـلّ ثـورة الـسّيبوي الشّـهيرة التـي قامـت في الهنـد في العامـين 1857–1858 ضـدّ شركـة الهنـد الشرقيّـة البريطانيّـة الممثّلـة لمصالـح الاسـتعمار البريطـانيّ، وتخلّلتهـا مجـزرة وفصـول تهجـير جماعـيّ.

مـن الفتـاة وأمّهـا ومهاجـرات هنديّـات أخريـات، يتعلّـم ليـون محبّـة الطبيعـة وأصنـاف الطّيـور والأعشـاب والنباتـات الشـافية ومبـادئ مـن الفلسـفة الهندوسـيّة. يتعلّـم خصوصـاً الحـبّ وسـلام الـرّوح والجسـد عندمـا تخترقهـما موجـات العشـق اللّاهبـة والمهدّئـة. وهـو يختفـي معهـا في اللّحظـة التـي جـاءت فيهـا، بعـد شـهورٍ مـن الانتظـار، سـفينة تنقـل المسـافرين إلى موريشـيوس. هكـذا هـرب ليـون مـن شـقيقه جـاك، الـذي أعـرب عـن انغماسـه في عـالم البيـض الاسـتعماريّ والمتعـالي، ومـن زوجـة شـقيقه سـوزان بالرّغـم مـن محبّتـه لمُحاوراتهـا المفعمـة بالطّيبـة والشِّـعر، ومـن الآخريـن. ولم يُـرَ لـه بعـد ذلـك أثـرٌ، وصـار يُدعـى «المفقـود».

إنّهـا حكايـة حـبّ تلقينـيّ ومديـح للتصاهـر وشـغف الاختـلاف والبحـث عـن الآخـر المغايـر والشـبيه. وهـذا كلّـه يتفاعـل في الروايـة مـع نقـد حـادّ للفكـر النّابـذ للآخـر المختلِـف، تدعمـه فلسـفة بيئويّـة وأخلاقيّـة رفيعـة تُعـلي مـن الآصرة الإنسـانية الرحبـة ومـن الإخـاء البـشريّ، بديـلاً عـن لحمـة الـدّم عندمـا تلوّثهـا خيـارات أيديولوجيـة وقناعـات خاطئـة. أمّـا تجربـة الكرنتينـة التـي تهيمـن عـلى الروايـة بتعارضاتهـا الحـادّة وظلامهـا الرّهيـب، الـذي تشـعّ فيـه كاللؤلـؤة النّـادرة حـوارات سـوزان وليـون ونضـال عـالم النّبـات جـون ميتكالـف، ولقـاءات ليـون وسـورياڤاتي ووالدتهـا، فتضطلـع بـدورِ مُـسَرِّعٍ لانكشـاف خبايـا أغلـب البـشر ونوازعهـم

الشرّيرة وأنانيّتهم التي تجد في اللّحظات الصعبة وتجارب الحلقات المفرغة مناسبة مثلى لتجلّيها. وإذا بالجائحة الحقيقيّة، كما في رواية جان جيونو المكرّسة لجائحة أخرى، والتي تصدر ضمن الكتب الأربعة التي اخترناها من أدب الجوائح، لا تتمثّل في الجدريّ، أو لا تقوم فيه وحده، بل هي كامنة في الجشع والنّبذ والإثرة والاحتيال والإرهاب، هذا كلّه الذي يتصاعد في تجارب الأقاصي، وهذا العمل إنّما هو رواية أقاصٍ بامتياز.

هو تلقين في تاريخ الهند وثقافتها أيضاً يناله ليون (الجدّ) من ذوات تعيش مثله تجربة المنفى بعنفوان وقوّة: «تحدّثت سوريافاتي عن الهند أيضاً، عن النهّر العظيم حيث غسّلت جدّتُها [والدتَها] أنانتا بعد أن عثرَت عليها. وعن مدنٍ بأسماء جميلة، الله أباد، وفاراناسي، وكلكتّا. قالت إنّها سوف تصطحب أمّها ذاتَ يومٍ إلى هناك، وسوف تذهب إلى كاونبور لترى المكان الذي أُنقِذتْ فيه، والنّهرَ العظيم، نهر يامونا، حيث ولد الإله كريشنا». كما إنّها تجربة أمومة جديدة يحظى بها ليون، ومشاركة فعليّة تنتقل عبر الكلمات والملامسات والإيماءات: «حين ماتت أمّي، كان عمري عاماً واحداً، ويبدو لي كأنّها لم تكنْ يوماً. أمّا أنانتا فهي حاضرة، شعرتُ بدفئها ونبض الحياةِ فيها. وفكّرتُ في كلّ ما مرَّت به، وما قالته لي سوريا عنها، وفي المذبحة التي وقعت في كاونبور، وجيريبالا التي انتزَعتْها من جسد مربّيتها وحملتْها بعيداً، ثمّ غسّلتها بمياه نهر يامونا. فكّرتُ فيما رأته عيناها وما لمسته يداها، وشعرْتُ أنّ كلّ شيء قدْ سرى عبر راحة يدها الناعمة متسلّلاً إلى أعماقِ قلبي».

مكتبة
t.me/soramnqraa

نقف في خاتمة المطاف على انتماء ليون الشابّ هو أيضاً إلى جزيرة بلات، إذ يشكّل له اكتشاف تجربة الكرنتينة واستحضارها مناسبة ولادة ثانية واكتساب وعي حقيقيّ: «أدركتُ أخيراً أنّني إلى هنا أنتمي، إلى هذه الصخور السّوداء المنبجسة من قلب المحيط، وهذه الكرنتينة، كما لو أنّها مسقطُ رأسي. لم أترك شيئاً في المكان، ولم أحمل منه شيئاً. ومع ذلك، أشعرُ الآن أنّني إنسانٌ آخر».

هذا الامتلاك لوعي جديد يعيشه ليون الشابّ بعدَ ما يقرب من قرن، على أثر رحلته إلى موريشيوس بحثاً عن ماضي الأسلاف، فيتماهى مع تجربة شقيق جدّه، سَميّه ليون، ومع عشقه وما عاشه في الكرنتينة: «كنت أريد العثور على أثر المُختفيَين، ليون، ومَن أُسمّيها سورياڤاتي. أردتُ أن أرى بأمّ عيني ما رأياه، المدينة وعزبة آنّا وماهيبورغ وفيل نوار، وكذلك جزيرتَي بلات وغابريال. الآن أدركُ أنّ هذا كلّه لا يزال حيّاً في أعماق آنّا. لقد نجت من ذلك الزّمن، وظلّ كلّ شيء حاضراً الآنَ في نظرتها وصوتها واعتدال قامتها، ووجهها الحنطيّ المليء بالتجاعيد، والمرفوع عالياً على عنقها النّحيل كرقبة سلحفاة». هكذا، أمام تداعي الجزيرة وسقوطها في الاستلاب السّياحيّ، بقيت جذوة الذكرى قائمة، ذكرى حبّ بطوليّ لأنّ حامليه عرفا اجتياز الموانع الطبقيّة والعرْقية وحواجز لون البشرة وطبيعة المعتقدات الفاصلة بين البشر.

في الصّفحات الأولى من الرّواية يشير ليون الشابّ نفسه إلى تماهيه وسلَفَه ليون، حتّى قبل أن يُسلّمه ناصية السّرد ويدَعه يحكي تجربته: «يبدو لي أحياناً أنّني أنا من عاش هذا حقّاً. أو أنّني ليون **الآخر**،

ذلك الذي رحل إلى الأبد...» وسرعان ما يعود ليربط بين سلفه «المفقود» وبين رامبو الذي هجر الشِّعر ورياء مجتمع باريس الأدبيّ واختار الرّحيل والصّمت. ما حدا بعض النقّاد إلى التذكير بهذا الصّدد بمقولة رامبو الشّهيرة «الأنا آخر» *Je est un autre* . فكأنّ بطل رواية لوكليزيو الشابّ يقول هو أيضاً: «الأنا آخر»، وقد يمكن تحوير هذه المقولة على لسانه لتصبح: «أنا الآخر».

ملاحظة:

يصدر هذا الكتاب ضمن أربعة أعمال اخترناها من أدب الجوائح الفرنسيّ، تصدر ترجماتها عن مشروع «كلمة» للترجمة، وتضمّ، إلى جانب العمل الحاليّ، «الخيّال على السّقف» لجان جيونو، و«الحرب الخفيّة» لجان مارك مورا، و«جغرافية البعوض السّياسيّة» لإيريك أورسينا والدكتورة إيزابيل دو سانت أوبان.

كاظم جهاد

«مع أفولِ هذا العصر،
آنَ يغدو الملوك جميعهم لصوصاً،
سيولد كالكي، سيّد الكون، ثانيةً
طالعاً من مجدِ فيشنو».

باغهافات بورانا1، 3، 26

في ذكـرى أليـس، التـي كانـت تقـول في كلّ مـرّةٍ عـلى طريـق إيسـني البحـريّ: «هنـا ينتهـي فـردوسُ الأغنيـاء وتبـدأ جحيـم الفقـراء».

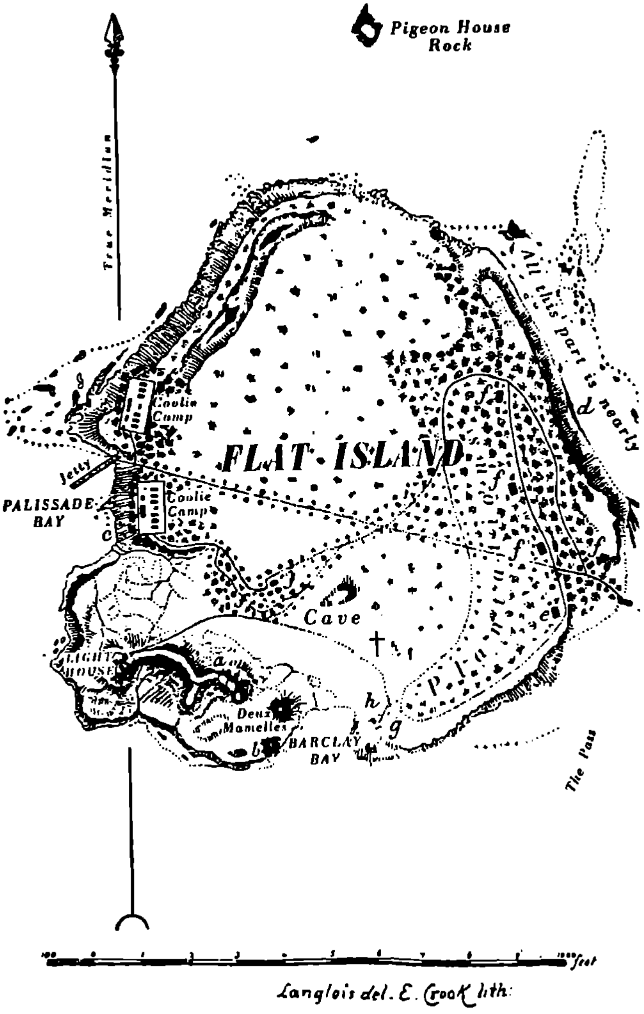

خريطة جزيرة بلات، حيث تُقام الكرنتينة وتدور أغلب أحداث الرواية

المسافر الأبديّ

ظَهَـرَ في القاعـة الغارقـة بالدّخـان والمُنـارة بمصابيـح الزّيـت. فتـح الباب وظـلّ طيفـه عـلى العتبـة، عالقـاً للحظـةٍ في إطـارِ البـاب واللّيـلُ مـن خلفـه. جـاك لم ينـس قـطّ: طولُـه الفـارع حتّـى كاد رأسـه يلامـس الإفريـز، وشـعره الطويـل الأشـعث، ووجهـه النّاصـع ذو القسـمات الطفوليّـة، وذراعـاه الطويلتـان ويـداه العريضتـان، وجسـده المحشـور في سـترته الضّيّقـة المـزرّرة حتّـى العنـق. وفـوق كلّ شيء، تلـك الهيئـة الشّـاردة، والنظـرة العابسـة الممتلئـة شرّاً، وقـد شوّشـها السُّـكْر. ظـلّ متسـمّراً عنـد البـاب، كأنّـما انتابـه شيءٌ مـن الـتردّد، ثـمّ أخـذ يشْـتُم ويهـدّد ملوّحـاً بقبضتَيـه، فخيّـم الصّمـت في القاعـة.

أفكّـر في الطّريقـة التـي رأى بهـا جـدّي رامبـو للمـرّة الأولى. كان ذلـك في بدايـة عـام 1872، في ينايـر أو فبرايـر. أسـتطيع أنْ أتذكّـر هـذا التاريـخ بدقّـة لارتباطـه بوفـاة أماليـا، وبزيـارة الرّائـد وليـام لمتجـر السّـلَع الدينيّـة والخدمـات الجنائزيّـة في الطابـق الأرضيّ مـن عمارتـه في شـارع سـان سـولبيس. فبعـد القطيعـة التـي وقعـت بـين أنطـوان وأماليـا وكبـير العائلـة، وطرْدهمـا مـن عزبـة آنّـا[1]، ومغادرتهـما موريشـيوس في

(1) العِزْبَة: مزرعة فيها قَصْرُ المالِك أَو منزله تحيطُ به بيوت الفلاحين. (المُراجِع، نقلاً عن «معجم المعاني»). (جميع الحواشي في الكتاب من وضع المترجمة، إلّا إذا وردت بذلك إشارة مخالفة).

نهايــة عــام 1871، اســتقرّا أخــيراً في حــيّ مونبارنــاس في باريــس. كان بــرد باريــس قاتــلاً في ذلــك الشــتاء، ونهــر السّــين يجــرّ متثاقــلاً مياهــه المتجمّــدة. وكانــت أماليــا قــد تعافــت بمشــقّةٍ مــن الحمّــى التــي أُصيبــت بهــا بعــد ولادة ليــون. وقــد تكــون شــجاراتها مــع ألكســندر زادتهــا وهنــاً عــلى وهــن، فقضــت بالتهــابٍ رئــويٍّ في الأيّــام الأخــيرة مــن شــهر كانــون الثــاني ولـمّــا يُتــمّ ليــون عامــه الأوّل بعــد. أمّــا جــدّي جــاك فــكان في التاســعة مــن العمــر. وكان برفقــةِ العــمّ وليــام حــينَ اضطُــرَ إلى دخــول ذلــك المقهــى عنــد ملتقــى شــارعَي مــدام وســان ســولبيس. فقــد اعتقــد العــمّ أنّ مَــن هُــم في عمْــر جــاك لا يجــدُر بهــم الدخــولُ إلى متجــرٍ يقصــده النــاس لانتقــاء أكاليــل لموتاهــم. فتركــه في الحانــة، جالســاً أمــام قــدح مــن النّبيــذ السّــاخن.

كانــت هــذه أوّلَ مــرّةٍ يرحــل فيهــا جــاك عــن موريشــيوس. وقــد بــدا لــه كلّ شيءٍ في فرنســا فاتنــاً ومرعبــاً: المبــاني ذات الخمســة طوابــق، وتتابــعُ العربــات عــلى الطريــق، والقطــاراتُ، ومداخــنُ الحمّامــات العامّــة العاليــةُ في مونبارنــاس ومــا تنفثــه مــن دخــانٍ أســودَ في الســماء الرّماديــة، وأكــوامُ الثّلــج عــلى طــول الحدائــق العامّــة، وعــلاوة عــلى هــذا كلّــه النــاس، ذلــك الحشــدُ الكثيــف المــتراصّ. تراهــم يتصادمــون ويتدافعــون، أو يهرولــون، بوجوههــم الشــاحبة التــي تخفيهــا اللّحــى، وقبّعاتهــم الشــبيهة بأنبــوب المدخنــة ومعاطفهــم المبطّنــة، وعكّازاتهــم وجواربهــم العاليــة. كانــت النســاء يرتديــن مــا لا يُحــصى مــن التّنانــير التحتيّــة ومشــدّات الخصرَيــن والفســاتين والمعاطــف، وقــد ثُبّتــتْ عــلى رؤوســهنّ الصغــيرة، فــوق عقصــات شــعورهنّ الضخمــة، قبّعــاتٌ غريبــةٌ ببراقــع مخرّمــة. وكان عــلى جــاك أن

يلتصق بالعمّ وليام، ويده الصغيرة تكاد تنهرس في كفّ العملاق. لم يكن يفهم اللّكنة الغريبة التي يتحدّث بها أهالي هذه المدينة، ولم يكن يعرف كيف يجيب على أسئلة بنات جيرانه الصغيرات. فكنّ يتعجّبن: «أهو أبله! وكنّ ينعتنه بالأحمق، والأرعن. كان جاك، في الأيّام التي سبقت وفاة أمّه، يمضي كلّ وقته مع العمّ وليام. إذ كان يفزعه أنْ يسمع والدته تختَنق، وأن يرى شحوب وجهها وتبعْثُر شعرها الأسود الجميل على الوسادة. أمّا أنطوان فقد هدّه الإعياء. إذ لم تعُد أماليا تعرفُ حتّى ولدَها الصغير ولا طفلها الوليد. كانت تهذي، فتخال أنّها قد عادت إلى منزلِ والدها على ضفّة نهر هوغلي، مترقّبةً قدوم المطر، أسفل الفيراندا[1].

انتقل الرّائد شارل وليام للعيش في شقّةٍ صغيرةٍ في شارع سان سولبيس، فوق متجرٍ للسّلَع الدينيّة، ليكون إلى جانب أماليا، الأوراسية، كما يسمّونها في عائلتي. فمنذ آواها شقيقُه خلال حرب السّيبوي[2]، وكانت من قبلُ هائمةً على وجهها في الغابة المحيطة بمدينة الله أباد، أصبحت جزءاً من عائلته. وبعد موت شقيقه، صارتْ طفلتَه الوحيدة، وحبيبته. فكاد يموت حينَ رحلت في ذلك الشتاء. كان قد مكث في باريس لرعاية الصّبيَّين، إذ لم يعد أنطوان يقدر على ذلك. ثمّ رحل إلى لندن. واليومَ لا يُعرف أيّ شيء عن عائلة وليام. فقد كانت وفاة أماليا مأساةً تفكّكت على إثرها كلّ الأواصر.

---

(1) الفيراندا: شرفة شمسيّة مسقوفة تشكّل أحياناً امتداداً للمنزل ولا تقع في طابق علويّ بالضرورة. (المُراجِع)

(2) ثورة السِّيبوي sepoys وهي الثورة التي قامت في الهند في العامين 1857–1858 ضدّ شركة الهند الشرقيّة البريطانيّة وكانت تمثّل سلطةً استعماريّة تنوب عن التاج البريطانيّ آنذاك.

باتت عائلة أرشمبو قبيلةً ملعونة. والحقيقة أنّه لولا القطيعة مع كبير العائلة لسارت الأمور حتماً على نحوٍ مغاير، لبقيْت أماليا في عزبة آنّا، ولاحتفظنا بأرضٍ وجذورٍ ووطن.

كان كلّ شيءٍ كئيباً في ذلك الشتاء في باريس. فقد اكتشف أنطوان، عند عودته إليها، أنّ جلّ موارده - أيْ نصيبه من أملاك عزبة آنّا - قد تبدّد. إذ كان قد أسرفَ بلا تدبّر في الأعوام التي قضاها في باريس بعد زواجه. أراد أن يبهر أماليا، ويُبهرَ نفسه. وقد راحت ثروته نهباً لبعضٍ من رجال الأعمال الفاسدين وكتّاب العدل والموظّفين. كان أنطوان حالماً، منشغلاً بالشّعر والأدب على وجه الخصوص. وقد استثمر في مشاريع وهميّة، في حدائق وأراضٍ زراعيّة لا وجود لها، وسكك حديدٍ متخيّلة. وبابتعاده عن موريشيوس، فقَدَ عُصبته، والدّرع الذي يقيه، ولم يعد لديه ما يحميه. زِد على ذلك كره ألكسندر أرشَمبو لهذا الأخ غير الشّقيق الذي قدِمَ مثل دخيلٍ عليهم حينَ كان هو ما يزال في السادسة من عمره- هذا الأخِ الخليِّ العديم النّفع الذي لم يكنْ يشبهه في شيء.

ولم يكنْ ألكسندر في حاجةٍ لأنْ يحرّك ساكناً. فعندما بدأ أخوه في السّقوط، ما كان عليه سوى أنْ يشاهده وهو يسقط.

هكذا، ففي نهاية يناير ذاك، عام 1872، وحين كانت أماليا تُحتَضر، صار الرائد وليام يصطحب معه جاك إلى شارع سان سولبيس، ويتركه في الحانة التي تشغل الرّكن المقابل لمتجر السّلَع الدينيّة، فيتوقّفُ جاك عدّة مرّات أمام واجهة المتجر (مؤسسة شوفيه) متأمّلاً كلّ تلك الأشياء المذهلة، والمخيفة قليلاً- الصّلبان وتماثيل العذراء والميداليات

والأكاليل وألواح الرّخام الأسود. حتّى إنّ صاحب المتْجر قد كلّمه ذات يوم بينما هو ينتظر العمّ وليام الذي تخلّف عنه قليلاً. كان رجلاً مسنّاً حليق الرأس، لعينيَه زرقةُ نبتة أذن الفأر، زرقةٌ لم يرَ جاك مثلها من قبل. كان منظر الحانة، على الجهة الأخرى من الشارع، يوحي بشيءٍ مريب. فحينَ يُفتَح بابها الزجاجيّ، تنبعث هبّةٌ من أصواتٍ صاخبةٍ وضحكات. لكنّ الرائدَ زبونٌ معتادٌ، وقد أَلِفَ هذه الأجواء. كان يطيب له الجلوس هناك كي يشرب نبيذه السّاخن ويدخّن غليونه، ممسّداً شاربَيه الأسودَين الطويلَين.

لم يحدّثني جدّي جاك عن هذا الأمر قطّ. فقد صار منذ استقرّ مؤخّراً في مونبارناس رجلاً صموتاً، يدخن سيجارة تلو الأخرى مستغرقاً بلا انتهاء في قراءة صحيفته، غيرَ مكترثٍ بالطّفل الذي كنْته. فكانت جدّتي سوزان هي من أخبرتني بكلّ شيء. وكان سرد القصص أحبّ الأشياء إليها. كانت في معظمها قصصاً مختَلَقةً تدور حول قردٍ ماكرٍ يُدعى زامي. لكنْ كان يحدث لها من وقتٍ إلى آخر أنْ ترويَ قصّة حقيقيّة، فتحذّرني عندئذٍ قائلةً: «انتبه جيّداً، فما سأقصّه عليك الآن حقيقيّ، لم أضف إليه شيئاً من عندي. وحين تُرزَقُ بالأطفال، عليك أن ترويَه لهم مثلما رويْته لك بالضّبط». لقد أحببتُ جدّتي سوزان حبّاً جمّاً. لم تكن بالمرأةِ الفارعةِ الطول، كان لها بالأحرى قوامٌ ممتلئٌ ووجهٌ جميل، بأنفٍ رقيقٍ وفمٍ صغير، وعينينَ رماديّتينَ تُكسبهما نظّارةُ طول النّظر اتّساعاً، وشعرٌ أبيَض قصيرٌ كان يثير الاستغراب في ذلك الوقت. وكانت تقول إنّها أوّل امرأةٍ تتّخذ تسريحة الشَّعر هذه. كنت في الرّابعة

عشرة من عمري حين توفيّت عن أربعةٍ وخمسين عاماً، أي بعد ستّ سنوات من وفاة جدّي. يومها كنت في غاية الحزن. دخلتُ غرفة النّوم ذات الستائر المُسدلة، حيث ترقد في سريرها من النّحاس المشغولِ كأنّها نائمة، نظيفةً ومرتّبةً كما هي دوماً. لمستُ جبينها المتجمّد، ووجنتَيها كذلك. ما زلت أتذكر جيّداً الهالات الكبيرة الدّاكنة تحت جفنَيها، ووددْتُ لو كان في وسعي بعدُ أنْ أرى رماديَّ حدقتيها الفاتح.

كانت هي من احتفظت بالكتب جميعها. فلماّ عاد جدّي إلى موريشيوس عامَ 1919 عودةً أخيرةً لإتمام التّسوية النهائيّة بعد وفاة ألِكسندر، طلبَت منه أنْ يحضر معه جميع الكتب، وكان أغلبها ممّا جمع أنطوان في باريس أيّام شبابه، وظلّت بعد رحيله محفوظةً في مبنى الشّهاب (سمّي بذلك لأنّه بُنيَ خلال مرور الشّهاب العظيم عام 1834، حيث ثُبِّتَت في أعلاه منحوتةٌ خشبيّةٌ تمثّلُ النّيزك الشهير) الذي رُتّبت فيه الكتب في ثلاث مكتباتٍ كبيرةٍ من خشب الماهاغوني. وقد أضافت جدّتي، إلى جميع دواوين الشعر ورسائل الفلسفة وكتب الرحلات، كتبها الخاصّة، وهي دواوين الشعراء الذين أحبتهم: شيلي ولونغفيلو وهوغو وهيريديا وفرلين. وكانت أحياناً تقرأ ليَ القصائد. كان لها صوتٌ رقيقٌ ودافئ بعكس نبرةِ أبي ذي الصّوت الأجشّ. وكانت أمي ّتحب ّالاستماع إليها، وتقول إنّ سوزان كان ينبغي أن تكون ممثّلة. أمّا قصيدتها الأثيرة فكانت **Fata Morgana**[1] للونغفيلو.

(1) بالإيطاليّة في الأصل وتعني الجنيّة مورغان، وهي وفقاً لأساطير آرثر ساحرةٌ ذات قدراتٍ خاصّةٍ تُنسب إليها على وجه التّحديد القدرة على رفع القصور على مياه البحر والتّحكم بحركة الريح. لكنّ المصطلح بات يشير إلى ظاهرةٍ بصريّة تُصَنّف من أنواع السّراب.

«يا أوهاماً عذبةً لأغنيةٍ
في كلِّ مكان تُغويني،
في المروج الموحشة، وبين الحشود
على الطرقاتِ المزدحمة!..».

لم أنسَ. ذات يوم، وبعد أن قرأَت لي جدّتي: «بكاءٌ ينهمرُ في قلبي، كالمطرِ فوق المدينة»[1]، أخبرتني بما حدث ذلك المساء في شارع سان سولبيس، يوم وفاةِ أماليا، ودخولِ جدّي إلى الحانة. كان الوقت مساءً، وقد حلّ اللّيلُ، وربّما كانت تمطر. فلم أعد أتذكّر التفاصيل بدقّة، ويُهيّأُ لي أنّني رأيت ذلك كلّه في منامي، وقد أضفتُ إليه ذكرياتيَ الخاصّة - مخالفاً بذلك وصيّةَ جدّتي. وحينَ أتيت للمرّة الأولى إلى باريس برفقةِ أمّي، هاجرَين مدينة لوريان كي نعود إلى أبي الذي سُرّح من الجيش بعد الحرب، كنّا في تلك الحقبةِ ذاتها، في المدينة المدمّرة نفسها، بشوارعها السوداء التي جرّحها المطر: مزيجٌ من عتمةٍ وفقرٍ، ومن رائحة المواقد التي كان المسنّون المتلفّعون بأرديتهم الثّقيلة يُلقون في نارها كلّ ما يمكنهم إلقاؤه من قطع خشبٍ وأوراقٍ وبقايا فحم الكوك.

يبدو لي أحياناً أنّني أنا من عاش هذا حقّاً. أو أنّني ليون **الآخر**، ذلك الذي رحل إلى الأبد، وأنّ جاك قد روى لي كلّ شيء حين كنت طفلاً. الحانة الدافئة العاجّة بالدخان، ورائحة التّبغ الحادّة وعطر الأبسنت اللّاذع. وهو ما كان، في عمر التاسعة، أشبهَ بعبورك بوابةَ الجحيم.

(1) الإشارة هنا إلى قصيدة فرلين الشّهيرة .«Il pleure dans mon cœur/ Comme il pleut sur la ville»

مضى الرائدُ بجاك إلى طاولةٍ في قلب المقهى، هنالك حيث يتناولون حساء الفاصولياء، والخبز، أو يشربون أقداح النبيذ السّاخن. كان معظم مرتاديه طلّاباً من الحيّ اللّاتينيّ، تلامذةَ طبٍّ أو فنّانين يعيشون في محترفاتهم بالقرب من مونبارناس، في شارع فالغير. ولا بدّ أنّ بينهم أيضاً متسوّلين، وشبّاناً متشرّدين يرتدون زيّ القوزاق، وفتياتٍ ضائعات. لكنْ لم يكنْ ليُقلقَ العمّ وليام أنْ يترك صبيّاً صغيراً في ذلك المكانِ الغريب، وذلك البرد الذي يجمّد العروق. فالرّائد مفكّر حُرّ، مناهضٌ لرجال الدّين. ولم يوافق على زواج ابنة أخيه بالتبنّي من أنطوان إلّا لأنّه لم يكن يشبه **سادة موريشيوس البيض**، الأنانيّين والامتثاليّين.

تزوّج أنطوان من أماليا من دون أيّ تفكير. كان عاشقاً لتلك الجميلة السّمراء، الآتيةِ من بلدٍ غريب، وكان قد التقاها على متن القارب في طريقها إلى فرنسا لتتابع دروساً تؤهّلها للعمل مربيّةً. أوراسيّةٌ إذن، وفوق ذلك تحمل اسماً إنجليزيّاً. ولمّا عادا إلى موريشيوس للاستقرار في منزل آنّا، في جناح الشّهاب بعد أن جُدّد، أدركت أماليا خطأها على الفور. ولم تمكثْ طيلةَ ما يقارب العشرةَ أعوام إلّا لأنّ أنطوان كان يعاند ويرفض أنْ يفهم. كان يعتقد أنّه لا يزال يمتلك حقوقاً، وأنّ في استطاعته أن يقرّر ويختار، وأنْ يفرض نفسه على أخيه، في حين أنّه كان قد خسر كلّ شيءٍ دون أن يدرك ذلك. رُهِنَ مصنع السّكّر، ولن تكفي كميّة المحاصيل القادمة لسداد الديون. ولا بدّ أنّ أماليا فهمت الأمر سريعاً، فقد حدّثتها غريزتُها بأنّه لا أحد هنا - خاصّةً ألِكسندر

وأعضاء مجلس النظام الأخلاقيّ[1] - سيغفر لأنطوان طيشه وإهماله. لم يكن لها مكانٌ في ذلك المجتمع. ولمّا رحلا إلى أوروبّا ثانيةً، وكان ليون طفلاً وليداً بعد، ظنّ أنطوان أنّه سيعود يوماً ما. لكنّها عرفتْ أنّ رحيلهما سيكون إلى الأبد. وكأنّها أحسّت مسبقاً ببرد الموت يسري في أعماقها.

لم أفهم ذلك كلّه إلّا بعد وقتٍ طويل، حين لم تعد سوزان هنا لتروي ليَ القصص. جلس جاك وحيداً على الطاولة، في آخر الحانة، يراقب كلّ ما حوله. غريبٌ أنْ تفكّر بأنّه على الجهة الأخرى من مفترق الطرق ثمّة متجرٌ للسّلَع الدّينيّة، حيث كان الرائد يختار في تلك اللّحظة إكليلاً لأماليا. ولمّا عاد، أحضروا إلى مائدته طبق حساء الفاصولياء وقدح النبيذ الساخن. الرّائد طويل القامةِ جدّاً، قويّ البُنيةِ، وأسمر مثل غجريّ. ولا بدّ من أنّ جوّ الحانة في ذلك المساء قد راقه على نحوٍ خاصّ: الصيّحات، والأصوات الصاخبة من الشّعراء مدمني الكحول، وسخرية طلّاب الطبّ وتجديفهم. لَفَتَ نظرَ جاك إلى شخصٍ يجلس إلى طاولةٍ على الطرف الآخر من القاعة، شابٍّ ممتلئ القوام، أصلعَ قليلاً، ذي لحيةٍ أنيقة، وكان يدخّن غليوناً طويلاً. «هل تراه؟ ذاك الرّجل، هناك. هذا بول فرلين، إنّه شاعر عظيم». وكان في تلك اللّحظة أنْ فُتح باب المقهى بعنف، وظهر على العتبة شابٌّ صغير، صبيٌّ بوجه طفل. كان طويل القامة، ذا هيئةٍ فظّةٍ ونظرةٍ شوشّها السّكر. ظلّ واقفاً على العتبة يصرخ شاتماً ومهدّداً، ويستفزّ

(1) تحيل التّسمية إلى تحالف قوىً يمينيّة محافظة تَشكّلَ في فرنسا ومستعمراتها بعد سقوط نابليون الثالث والحكومة الجمهورية المؤقّتة سنة 1871، بهدف إعادة النظام المَلَكيّ وفرض نظامٍ أخلاقيّ صارم على المجتمع يستند إلى الديّن وسلطة الكنيسة.

الحاضرين ملوّحاً بقبضتَيه مثل مُصارع في احتفالٍ موسميّ. هَمَّ نادلان من المقهى بطرده، لكنّه دفعهما بعيداً، وضربهما. ارتعب جاك، والتصق بالرّائد متحصّناً به. شوّش الجنون نظرة الصبيّ الصّغير الواقف أمام الباب، ورنّ دويّ صيحاته في صمت القاعة. ثمّ نهض الرّجل الملتحي الجالس قبالتهما. كان يرتدي معطفاً طويلاً أنيقاً وربطة عنقٍ مفرطة في طولها. مشى بهدوءٍ إلى الباب، وتحدّث إلى الصبيّ الصّغير. لم يسمع أحدٌ ما قاله له، لكنّه نجح في تهدئته. أخذه من ذراعه ومضيا معاً في عتمة اللّيل. وقبل المغادرة، استدار الصبيّ. كان شعره مبعثراً، وسترته مثقوبةً عند تقويرة الكمّ. جال على الحاضرين مرّةً أخرى بنظرته العابسة المهدّدة، ثمّ ابتعد الرجُلان، ولم يبق سوى نفحة الهواء الجليديّ التي سرتْ للحظةٍ في القاعة. سأل جاك: «- من هذا؟» - «هذا؟ لا شيء، مجرّد شقيّ». كنت متيقّناً من أنّ تلك كانتْ كلمات جدّتي سوزان حين تحدّثت عن رامبو: شقيّ. لكنّها قرأتْ لي عدّة مرّاتٍ الأبياتَ التي كتبها الشقيّ، موسيقى غريبةٌ لم أفهمها جيّداً، مشوّشةٌ مثل النظرة التي جال بها على قاعة الحانة.

في صيف عام 1980، وقبل أسبوع من سفري إلى موريشيوس، فتّشتُ عن الحانة حيث رأى جدّي ذلك الشقيّ. هنالك، في زاوية شارع مدام، ثمّة بالفعل متجرٌ للسّلَع الدينيّة، ذلك الذي كان الرّائد وليام قد استأجر شقّةً أعلاه. وقد لمحتُ على الرصيف المقابل، قبل الزاوية قليلاً، محلّاً متداعياً مهجوراً ببابٍ متطامنٍ وبتلك المصاريع القديمة ذات القطعة الواحدة، التي كان النّاس يُطبقونها على النوافذ

كلّ مسـاء. أردْتُ لهـذا أنْ يكـون محـلّ تاجـر النّبيـذ حيـث اصطحـب الرائـدُ جـدّي، تلـك الحانـةَ السيّئة السّـمعة حيـث كان فرلـين في ذلـك المسـاء عـلى موعـدٍ مـع رامبـو. مشـيْت طـوال ذلـك الأسـبوع الأوّل مـن شـهر يونيـو في شـوارع باريـس كـما لم أفعـل منـذ كنـت غلامـاً يافعـاً. كان الجـوّ مبهجـاً، سـماءٌ لطيفـةٌ تعبرهـا الغيـوم. وكانـت النسـاء في ثيابهـنّ الصيّفيـة، وأرصفـة المقاهـي تعـجُّ بالزائريـن.

ذرعْـتُ جميـع الطّرقـات التـي ذرعهـا رامبـو، ورأيـت كلّ الأماكـن حيث عـاش، شـارع كامبـاني بروميـير الـذي لم يبـق منـه شيء، ثـمّ الحـيّ اللّاتينـيّ، وشـارع مسيو لـو برانـس، وشـارع سـان أندريـه ديـزار، وشـارع سـيربَنت، والبيـت الكائـن في زاوية شـارع أوتفـوي، وفندق «ليـس» بفانوسـه الحديديّ الصّـدئ الـذي لا بـدّ أنّـه أضـاء خطـاه، ورأيـت واجهـات البيوت عـلى نحوِ مـا رآهـا. حتّـى إنّنـي اكتريتُ غرفـةً في آخـر طابقٍ مـن فندق كلوني، في شـارع فيكتـور كوزان، غرفـةً ضيّقة بجـدرانٍ متقاربـةٍ وأرضيّة مهـزوزة. أَمِلتُ في أنْ تكـونَ هـي الغرفـةَ التـي نزل فيهـا رامبـو عـام 1872 ذاك، حـين كان الجميع في باريـس يطردونـه. الجـدران نفسـها، الباب نفسـه، النافـذة العالية نفسـها التي تنفتـح على فنـاءٍ فـوق السـطوح، حيث كانـت توقظه شـمس الظّهـيرة. جبتُ الشـوارع المجاورة، شـارداً، لا أرى السـيّارات ولا أنظر إلى المـارّة، وكأنّي كنت حقّـاً ألمـس بدايةً مـن بدايـاتِ الزّمن.

هكـذا، كان جـاك وليـون متّحدَيـن، شـقيقَين لا ينفصـلان، ناجيَـين وحيدَيـن مـن زمـنٍ غَابـر. وكانـا يلتقيـان في كلّ إجـازة، سـنةً بعـد أخـرى، حتّـى عـام 1891 الـذي شـهد عودتهـما إلى موريشـيوس والقطيعـةَ بينهـما. ذلـك العـام حيـث أصبـح ليـون هـو المفقـود. المفقـود إلى الأبـد.

هنا، في ربيع هذه الشوارع، مشى رامبو قبل أن يذهبَ في ارتحاله اللّانهائي. هنا، في ساحة موبير، ما زال المتشردّون المخمورون يبسطون قطعاً من الورق المقوّى ليناموا عليها مساءً، يهدْهدهم صوت السيّارات. ربّما هم وحدهم من يلمسون في أحلامهم حقّاً الزّمن الذي لم يعد موجوداً. ظلّوا هنا ساكنين بلا حراك، فيما هو، ذلك المسافر، قد اجتاز أقاصي الأرض. وبينما هجرَ كلّ شيء قاصداً عدنَ وهرَر[1]، بحثاً عن السماء التي تحرّقُ حتّى العظم، كان جاك وليون يكبران، ويتعلّمان العيش في عزلة. حفظ ليون عن ظهر قلبٍ «المركب السّكران»، و«حروف العلّة»، و«القاعدون»[2]، وهي القصائد التي نسخها له جاك في كرّاساته المدرسيّة. كان يحلم سلفاً بالرّحيل، وقد عرف أنّه سيفعل. كان يعلم أنّه ذات يوم سيكون هناك، في عزبة آنّا، لا ليستعيد مِلكيّتها، بل ليكون إنساناً جديداً، وليتحرّقَ تحت السّماء وفي البحر، هو أيضاً.

والآن أفهم ما حدث. ففي حانة سان سولبيس، ذات مساءٍ من شتاء عام 1872، بدأ كلّ شيء. وهكذا أصبحتُ ليون أرشَمبو، **المفقود**.

في شارع سان جاك، وفي المبنى رقم 175، عثرتُ ثانيةً على الحانة المسمّاة **أكاديميّة الأبسنت**. بيْت جميل، بجدرانه البالية وأسطحه المتفاوتة المستوى، حيث حلّت محلّ صخر الأردواز في بعض المواضع ألواحٌ من الصفيح. أصبحت الحانة مطعماً باكستانيّاً، وما زال مدخله البابَ المائل

(1) هرّر، وتكتب أيضاً على هيئة هرار: مدينة في شرق إثيوبيا.

(2) جميع عناوين قصائد رامبو بالعربيّة كما وردت في كتاب: آرتور رامبو، «الآثار الشعريّة»، ترجمة كاظم جهاد، منشورات الجمل، بيروت، 2007.

نفسه الذي ينفتح إلى الأسفل على قاعةٍ معتمةٍ طويلة. على إحدى الطاولات، كان الطّهاة الباكستانيّون يقشّرون الكوسا واللّفت فوق قدر. نظروا إليّ في ارتياب. «ما اسم هذا المكان؟ سألت، غيرَ منتظرٍ أنْ يحدّثوني عن أكاديميّة الأبسنت. فأجاب أحدهم، بعد التشاور مع الآخرين: «هنا، من قبلُ، كان يسمّى غران سيل»[1]. ثمّة إلى جانب المطعم بابٌ عريض ينفتح على باحةٍ داخليّة كبيرة مرصوفةٍ ومتداعية، وكان صبيٌّ شديد السّمرة يجلس في إحدى زواياها، شرساً مثل قطّ. في ذلك الشتاء، كان رامبو، ثمِلاً بالأبسنت، قد تشاجر في هذه الباحة مع خصوم وهميّين، ولربّما جلس في الزّاوية نفسها، وظهرُه إلى الحائط، ثمّ ذهب ليَنام على الرصيف، في ندى الفجرِ الأسود.

مشيْت في هذه الشّوارع كلّها، كأنّني نائمٌ وعيناي مفتوحتان، مصغياً إلى صوت تلك الحياة التي لم تنطفئ. كأنّما أبصرُ بعينَي الغضب، وكما لو كنت أحسّ تجهّم الطفولة المدمّرة مرتسماً على وجهي، شعري أشعثُ يبّسه الأرق، وظهري محنيٌّ من التّعب. فبعد كلّ هذه السنوات من التّرحال والقطيعةِ مع أندريا -حيث كلّ ما تبادلناه من حديث، وكلّ ما اقترفه الواحد منّا بحقّ الآخر بات عصيّاً على الإصلاح- ها أنا أمرّ بباريس عابراً، قبل سويعاتٍ من ركوب الطّائرة إلى نهاية العالم. ثمّة طلاّب في الشّوارع حول السّوربون، وعلى أرصفة المقاهي. باريسُ ساحرةٌ في يونيو. سديمٌ ذهبيّ حيثما ولّيتَ وجهك، مِن طَلعٍ ووميض، ومِن وهجِ الشّمس في شعور الفتيات. غير أنّي ما زلت

(1) أي متجر المِلح الكبير.

أحسّ بغبارِ طرقِ كولومبيا ويوكاتان الوعرةِ عالقاً بي، وطينِ أنهار بنما جافّاً في شعري وفي ملابسي، وبمسحوقٍ أحمرَ يصِرُّ بين أسناني. لّما دخلتُ إلى مكتب الشؤون الثقافيّة في العاصمة مكسيكو، متقدّماً لوظيفة أستاذٍ تعاقديٍّ في كامبيتشي (حيث كان من يشغل الوظيفةَ قبلي قد اغتيل مؤخّراً في تسوية حسابات بينْ مثليّين)، قال لي الموظّفُ خرّيجُ المعهد الوطنيّ للإدارة العامّة بهدوء، وهو شابٌّ ببذلةٍ من الطّراز الاستعماريّ وربطة عنقٍ مخطّطة: «نرى أمثالَك كلّ يوم، بحقائبَ على الظهر، يأتون إليّ لطلبِ المال، أو لوظيفة، ثمّ يغادرون ولا أسمع عنهم بعد ذلك».

لم يبقَ أحدٌ ممّن عاصرتهم في الحيّ اللّاتينيّ حين كنت طالباً. باتت الدّروب المرصوفة بالحجارةِ، والتي شهدت أحداث يونيو 68، معبّدةً بالإسفلت، وصارت تعاني من ازدحام شديد. أمّا قطارات الضّواحي فحالتها يُرثى لها. فقد خُطّطت مقاعدُها المغطّاة بالفرو الصّناعيّ بأقلامِ التلوين ومُزّقت بالمشارط. لا أحد يراني، ويُهيّأ لي في لحظاتٍ أنّني غدوْت غير مرئيٍّ. فمَن عساه يحتاجني؟ توجّهتُ، لا أدري لماذا، إلى رْواسي لأشاهد الطّائرات وهي تقلع. فلمّا كنت في العاشرة من عمري اصطحبتني جدّتي سوزان إلى مطار لوبورجيه. كانت تحبّ رؤية الطّائرات تصعد وئيدةً إلى السماء. وما كانت لتستقلّها نظيرَ أيّ شيء في العالم. «لن أدخل في أيٍّ من علب السّيجارات هذه أبداً». لكنّها كانت تحبّ رؤيتها وهي تقلع. أمّا اليوم، فلا يمكنك رؤية أيّ شيء في المطارات، لكنْ في وسعكِ بعدُ أنْ تشتمّ عبق الرّحلات، وتسمع الأسماء: دلهي، بانكوك، بروكسل، ريو، داكار، لكأنّها عزفُ الأمْداء،

أو نشيدُ الفضاء. حلّ اللّيل فنمتُ على مقعدٍ، كما لو كنت سأغادر في اليوم التالي. كما لو كان هنالك حقّاً وِجهةٌ ما. هكذا كان أنْ قرّرتُ الذّهاب إلى موريشيوس.

أمّا هوَ، فكان يسير في شوارع المدينة بالغضبِ الذي يعكّرَ نظرته، وبتلك الشّفة السفليّة الرّقيقة التي يجعل ضمورُها الذّقن أثقل حضوراً (كان عند إيزابيل[1] هذا العيب الخَلْقيّ نفسه) وبشَعره النّابت عشوائيّاً والملموم تحت قبّعةٍ صغيرةٍ مستديرةٍ مثل قبّعات هنود أياكوتشو الحُمر، وبصرير حذائه ذي النّضوات على أرصفة شارعَي فيكتور كوزان وسيربنت. وسرعان ما ضاقت به باريس أيّما ضيق، فالشوارع هي نفسها دوماً، بالمباني نفسها ذات النّوافذ المُحتجبة خلف السّتائر، والملامح المتجهّمة، والرجال الشبيهين ببطاركةٍ جهَلة، وتلك القلنسوات والقبّعات، والشّعور المستعارة، والياقات المثنيّة، والقمصان المنشّاة، ومعاطف الردينغوت والصّداري، والسراويل المشدودة بأحزمةٍ إلى أسفل القدَم، والجوارب العالية الصّفراء، والأحذية الملمّعة المصمّمة حسب الطّلب، وتلك العصيّ المعقوفة والمظلّات السوداء. أوَ ليسَ الشِّعر، في هذه الحالة، شأناً برجوازياً، نوعاً من ضبطِ ميزانيّةٍ، مفكّرةً سوداء تُدوّن فيها **الأصول والذّمم**، والعوائد والنفقات؟ وفيه تحليقٌ أحياناً، وصرخاتٌ وتنهيدات، وتوْقٌ وشغف. ومِن هذا التّحليق تسقط أشياء، قوافٍ مجنّسةٌ وتضميناتٌ وحروفٌ حُذِفت من أواسط

(1) شقيقة الشّاعر آرتور رامبو (1860–1917).

الكلـمات. كان صـوت آرتـور، في مَتجـر تاجـر النّبيـذ الواقـع في شـارع مـدام يـدوزن كلّ مقطـع: «آه، سُـحقاً!» وسرعـان مـا كـفّ عـن أنْ يكون مُسـليّاً، وصـار غاضبـاً مرعبـاً. ينفتـح البـاب عـلى اللّيـل، كوّتُـه ضيّقـةٌ وخفيضـةٌ جـدّاً مثـل بيْـت النمـل. الصبـيُّ واقـفٌ عـلى العتبـة، طفـلاً عملاقـاً ضامّـاً قبضتَيـه، وملامحُـه متواريـةٌ في العتَمـة، وشَـعره أشـعث، وسـترته الفلّاحيّـة الضيّقـة ممزقـةٌ عنـد تقويـرة الكـمّ مـن كَثـرة مـا يتعـارك كلّ مسـاء. أخـذ يصيـح مُجدّفـاً شـاتماً، ويهـدّد كلّ مـن يقـترب منـه بأنّـه سـيطرحه أرضـاً، فصَمَـت الحضـور خوفـاً. وهـذا شـعورٌ حقيقـيّ قـويٌّ وقاتـم. هـو، لا الرّيـح التـي تدير الطواحـين، ولا سـقوطُ القـوافي المُجنّسـة، وصيحـاتُ الـ«آه!» والـ«أوه!»، ولا رائحـة التّبـغ الهولنـديّ العذبـة. وقعَـت نظرتُـه الزّرقـاء الدّاكنـة عـلى عينَـي جـدّي (وتسـلّلت مِـن جـدّي إليّ) ولم تفارقـه منـذ ذلـك اليـوم. البـابُ الـذي انفتـح عـلى اللّيـل، والشّـابُّ الشّـقيُّ المخمـور الـذي يسـتفزّ الحضـور. ثـمّ لا شيء بعـدَ ذلـك، إلى أنْ بلـغ عـدن.

كانـت جـدّتي سـوزان تقـرأ «المركـب السّـكران»، أو «فجـر صيـف» بنـبرة الصّـوت ذاتهـا التـي تقـرأ بهـا قصائـد لونغفيلـو. شِـعرُ شـقيٍّ، وجـهٌ ملائكـيّ، وشَـعرٌ أشـعث، وهـذه النّظـرةُ الشّريـرة المشوّشـة، نظـرةٌ لا تقـوى عـلى التّحديـق في شيءٍ أو إنسـان. شـوارعُ باريـس الضيّقـة المعتمـة التـي تطـرده. سـاحات مبـانٍ كأنّهـا نُـزلٌ، حيـث ينـام النّـاس المهجـورون عـلى بسـطهم مـن الـورق المقـوّى. والضّبـاب الـذي يغطّـي وادي نهـر لاميـز صباحـاً في شـارلفيل. والـبردُ، ورمـاديُّ السّـماء الصّامـت، والغربـان في حقـول الشّـمندر. هـل في وسـعنا أنْ نـبرأ مـن هـذا، أنْ نتحـرّر منـه؟ مِـن

السّماء التي لا نراها، ومِن باريس التي كأنّها مصيدة؟ «آه، ما عساني أفعل هناك؟»[1].

إنّني أفكّر تحديداً بليون أرشمبو، المفقود، الذي تمرّد على **النّظام الأخلاقيّ** والحكومة الجماعيّة، ثمّ رحل مع المرأة التي أحبّها ولم يرجع قطّ. حينَ تُوفّي أنطوان بالتهاب الدّماغ في الثمانينيات (ربّما في 1884) كان ليون يناهز الثانية عشرة من عمره. وكان جاك قد غادر إلى لندن لدراسة الطّب، وأقام على الأرجح عند الرّائد وليام. وأمّا ليون فصار تلميذاً في مدرسةٍ داخليّةٍ في لوريان أولاً، ثمّ في روي ماليزون عند السيّدة لوبير الذّائعة الصّيت. وكان في بعض اللّيالي، حين يجافيه النّوم، يعبرُ رواق المهْجع نحو النّوافذ الكبيرة ذات القضبان، والمطلّة على الفناء الذي جفّت أعشابه، كي يسمع هدير البحر.

هنالك قرأ ليون، متأثّراً بأستاذه م. موورو، الذي كان من قبلُ أستاذ جاك، وحدّثتني جدّتي سوزان عنه كما لو كانت تعرفه، قرأ الشّعراء ريشبان وهيريديا وبودلير، وفرلين، وأشعاراً لرامبو نسخَها له جاك عن أعداد مجلّة «لافوغ»: «الذاهلون»، «المُفلّيتان»، و«سونيتة حروف العلّة، وعن مختارات عام 1888 قصيدة «النّائم في الوادي»، التي قالت جدّتي إنّه هو من أطلعها عليها. أمّا عن كتاب «الشعراء الملعونون»[2] الذي اشتراه م. مورو حال صدوره، فقد نسخ له جاك

(1) عبارة على لسان رامبو قالها لأحد أصدقائه ذات مرّةٍ تعبيراً عن نفوره من مجتمع الصالونات الأدبيّة في باريس.

(2) «الشّعراء الملعونون» *Les Poètes maudits* : كتاب للشّاعر بول فرلين Paul Verlaine صدر في طبعة أولى في 1884، وفي طبعة ثانية مزيدة في 1888. وضع في الطبعة الأولى ثلاث مقالات طويلة عن تريستان كوربيير وآرتور رامبو وستيفان مالارميه، وفي الطبعة الثانية أضاف ثلاث مقالات عن مارسلين ديبورد فالمور وفيليبه دو لِيل آدم وعن نفسه، وقد صحّف اسمه على =

منه على كرّاسه المدرسيّ قصيدة «المركب السّكران» التي أصبحت مثل صلاةٍ يتلوها كلّ مساء. هذا إضافةً إلى قصائد بودلير المحظورة التي قرأها في الرّبيع الماضي، في حصّة البلاغة: «نساءٌ ملعونات»، «ابتهالاتٌ للشّيطان»، و«العدوّ»:

«أيّها الألم! أيّها الألمُ! إن الزّمن يلتهم الحياة
والعدوُّ الغامضُ الذي ينهشُ قلوبنا
على دمنا النّازف يقتات ويقوى».

ضيّقةٌ هذه المدينة على ليون. زوايا البيوت أطرافٌ حادّة تنغرز في جسده، ونقطة التّلاشي في آخر الجادّات سكّينٌ تحزّه، والأرصفة غارقةٌ في صقيع قرمزيّ. لعلّه هو أيضاً، مِثلي، قد أمضى أيّامه في ذلك الصيف حبيس غرفته في الفندق قربَ محطّة سان لازار، لا يخرج منها إلّا ليلاً، كي يهيمَ على وجهه في الشوارع المجاورة وصولاً إلى ساحة بلانش أو صوب حيّ لابوت، فَيرى باريس تختنق تحت وطأةِ أنفاسها. في ذلك الصيف (أوائل أغسطس 1890) جاء جاك ليصطحبه إلى إنجلترا. أراد أن يعرّف سوزان موريل به، وهي امرأةٌ مِن جزيرة لاريونيون تزوّجها حديثاً في لندن. استقلّا القطار معاً إلى شاطئ البحر في هاستينغز. لمْ تُحدّثني جدّتي عن هذا الصّيف سوى مرّة واحدة، ربّما لأنّ السّعادة لا تُقال. فقد وصفتْ لي، مرّةً واحدةً فقط، السماء الصافية، والرّياح الفاترة، والاستحمام في البحر، وكيف كان ثلاثتُهم يسوقون المقصورات المتنقّلة حتّى الموْج، ويمضون اللّيل خارجها، جالسين على رصيف

= هيئة Le Pauvre Lelian (ليليان المسكين). والمقالات مصحوبة بمختارات من نصوص الشّعراء. (المُراجِع)

الميناء حيث تقرأ سوزان بعضَ القصائد، مثل «الطيور المهاجرة» للونغفيلو:

«تسّاقط الظّلال السوداء
من الزّيزفون الباسق،
إذ يرفع عالياً جدارَه الهائل
في وجه السّماء الجنوبيّة...».

ولبودلير:

«أيّها الإنسانُ الحرُّ، سوْف تَهوى البحْرَ دَوْماً!
البحْرُ مرآتكُ؛ إلخ...».

كانت هذه أوّلَ مرّةٍ على الأرجح يشعر فيها بأنّه قويّ، ويحسّ بدفء الحبّ ووحدة العائلة. استلقى ثلاثتُهم على الشّاطئ المفروش بالحصى، حيث سوزان تتوسّط الأخوَين، وليون يسند رأسه إلى كتفها النّاعمة ويستنشق عطر شعرها. كانت لحظةً من ذلك الصيف، حيث شاهدوا آثار النّيازك في السّماء المُدلهمّة فوق البحر، قبل أن يتبعثرَ كلّ شيء.

ومع هذا فإنّ عليّ العودةَ إلى باريس، إنْ أردتُ أنْ أفهم الأمور فهماً أفضل، إلى تلك الحانة الصّغيرة في شارع مدام، والباب الذي انفتح على مراهقٍ مخمور، أشعث الشّعر، يترنّح على العتبة، بفم طافحٍ بالشتائم ونظرةٍ شوّشها الجنون. كما لو أنّ مِن بعده قد بدأ التّيه كلّه:

فقدانُ عزبة آنّا، ونهاية عائلة أرشمبو. وقد باتت تلك الصّورة التي نقلها جدّي جاك إلى ليون، ثمّ إليّ عبر سوزان، مختلطةً بحياتي، حبيسةَ ذاكرتي. ما الذي يبقى من المشاعر والأحلام والرّغبات بعد أنْ يختفيَ صاحبُها؟ أيكون رَجل عدنٍ، وواضعُ السّمّ في هرَر، هو ذاته المراهق الغاضب الذي فتح باب المقهى في شارع مدام ذات ليلة، ووقعت منه نظرةٌ على طفلٍ في التّاسعةِ من عمره هو جدّي؟ أسيرُ في هذه الشوارع كلّها، وأسمع وقعَ كعبَي حذائي يرنّ في عتَمة اللّيل، شارعِ فيكتور كوزان، وشارعِ سيربنت، وساحةِ موبير، وشوارعِ كونترسكارب، مفتّشاً عمّن صار بلا اسم، عمنّ هو أبهتُ من ظَلٍّ، وأقلّ من أثر، وأضأل من طيف. من يعتملُ في نفسي مثل اختلاج أو رغبة، أو اندفاعةِ خيال، أو خفقة قلب، فيدفعني إلى التّحليقِ بعيداً.

وبالمناسبةِ، فإنّي مُستقَلٌّ الطائرةَ غداً إلى نهايةِ العالم، والطّرف الآخرِ من الزّمن.

واضع السّمّ

أفكّر في بحر عدن كما رآه جدّي مع سوزان وليون، مِن متن السّفينة لافا في صباح يوم 8 مايو عام 1891، ذلك البحرِ المصقول مثل مرآةٍ تحت سماءٍ بلا غيوم. كان الجوّ شديد الحرّ حتّى في السّاعة الثامنة: 41 درجة مئويّة في الظلّ، وهو ما كان ينبئ بمجيء الصيف قبل موعده المعتاد. أتخيّل المسافرين على السّطح العلويّ من السفينة، أولئك الذين يحظون بكراسيٍّ طويلةٍ للاستلقاء وبالنسمةِ الرّخيّة التي تموّج مياه البحر. وأتخيّل الآخرين: المهاجرين والتّجار العرب، يتمدّدون على أرضيّة الطّابق السفليّ مباشرةً، مختنقين أسفل الممرّات.

ما الذي حدا بجاك وليون إلى ركوب القارب الذي كان ينقل البضائع ذهاباً وإياباً من الباخرة إلى الشّاطئ؟ مشهدُ الخليج الأجرد، ونقطة التّواهي[1]، والتلّة العارية التي تعلوها ساريةُ الإشارة، ومنحنى الهلال[2]، وصَفٌّ من المباني المبيّضةِ بالجير تنتهي بمبنى شركة التلغراف الفخم، وهذا السّد غير المكتمل في منتصف الخليج، جسرٌ عائم متهدّم مصنوعٌ من جذوع أشجارٍ وكُتلٍ من الحمم البركانيّة رُصّت قوارب الصيّادين على طوله رصّاً.

---

(1) منطقة في محافظة عدن، فيها ميناءٌ يحمل الاسم ذاته، وكانت تُسمّى Steamer Point) la Pointe de Steamer (، أي نقطة التقاء البواخر، خلال الاستعمار البريطانيّ (1839—1967).

(2) حيّ الهلال في منطقة التّواهي، محافظة عدن. وكان يُسمّى أيّام الانتداب البريطانيّ بالـ Crescent.

لعلّه الضّجر، هذا الشّعور بأنّك سجينٌ على متن المدينة العائمة، والرّسوُّ الطويل ثماني وأربعين ساعةً فيما يشرف نائب القبطان على تفريغ البضائع، ورحلةُ الزّوارق ذهاباً وإياباً حاملةً إلى الجسر العائم أكياس الطّحين والبطاطس، وصناديق التفّاح، وأشوِلة قصاصات القطن الإنجليزيّ، وقطع الصابون الثّمينة.

كان قارب الخدمات قارباً كبيراً وسريعاً يقوده ستّة بحّارةٍ صوماليّين. وهو يَتبع للميناء، ويمكنه حمل كميّةٍ كبيرةٍ من البضائع الأكثر هشاشةً، والمعدّاتِ والأدوية. جلس جاك على أحد المقاعد في مقدّم القارب، كما يليق بطبيب، ببذلته الرّمادية الكاملة الأناقة وقبعته «البنما». وكان ليون حاسراً مرتدياً قميصاً، يتّخذ من الصناديق مقعداً ويتأمّلُ الماء ينساب على طول هيكل القارب، أزرقَ معدنيّاً، شبيهاً ببحيرة. وحيث الخطّ الأسود الذي يحدّ السّاحل قريبٌ كلّ القرب.

لم تأتِ سوزان. كانت تعاني بسبب الحرّ الشّديد منذ وصولهم إلى السويس. وكانت تحسّ بالاختناق في تلك اللّيلة، فأرادت البقاء على سطح السّفينة حتّى الصباح، غير آبهةٍ بالبعوض القادم من السّاحل. كانت الرّياح تمرّ فوق السفينة فتحرّق جفنَيها مثل الحمّى. وحينَ طلع الصبح، ربَتَت على ذراع جاك النّائم بجانبها على خشبة السّطح: «شُمَّ هذا، تنفّسْ... إنّه منعش!».

دلفَت السّفينة **لافا** إلى خليج عدن دون أنْ يحسّوا بها، فإذا بنسيم البرّ يهبّ مع الفجر حاملاً نضارة الصّحراء وعبقها. «كم أودّ أنْ تنطلق السّفينة مجدّداً، عائدةً بنا إلى البحر». كانت سوزان، منذ استقلّوا القطار من مرسيليا، تتطلّع بنفاد صبرٍ إلى الوصولِ. ذلك أنّ **لافا**، قبّةَ

الحديد تلك المثبّتةَ بالمحازق، الدائمةَ الاهتزاز والتي تفوح منها رائحة الشّحم، كانت تصيبها بالغثيان. لم تكن تبالي بمحطّات التوّقف، فكلّ ما كانت تتوق إليه هو جزيرة موريشيوس، بقممها الحادّة التي صوّرها لها جاك، إذ ترتفع مخترقةً الأفق عالقةً في الغيوم؛ البلدُ الذي أرادت أنْ يكون موطنَها.

في تلك اللّيلة في البحر الأحمر، أخذَت تتأمّل النّجوم. كانت السّماء ذات لونٍ نيليٍّ ميّالٍ إلى الأرجوانيّ. «إنّها جميلةٌ جدّاً...» أطلعَها جاك على أسماء كوكبات النجوم، وأراها النّجم الأكثر تألّقاً بالقرب من الأفق: نجمَ الدّبران. حتّى إنّه أخبرها باسمه الهنديّ، «روهيني»، الذي تعلّمه في طفولته. ثمّ نامتْ في المقصورة بكامل عُريها تحت الملاءة التي بلّلها العرق. وقبل أنْ يغادرا، عانقت ليون وقالت له: «احذر أنْ تضيع!».

جلس ليون في مقدّمة الزّورق وأحسّ هو أيضاً بعينَيه تحرّقانه. كانت الشّمس قد سمّرت وجهَه ويدَيه. فبدا، مع ذلك الشّعر المجعّد، مثل بحّارٍ هنديٍّ شابّ. كان هو أيضاً يتوق إلى الوصول ولمسِ الأرض التي وُلد فيها. هكذا أتخيّله، بعينَيه السوداوَين كالكهرمان حيث تلمع شرارةُ نظرته، لا نظرة آل أرشمبو السّوداوية، وإنّما ذلك التوقّد الذي كان يضرم النّار في قلب الأوراسيّة، ويشي بتعطّشه للمغامرة.

الشّاطئ دربٌ طويلٌ مُغبرٌّ ينعطفُ صوبَ التّواهي شرقاً. وفيما وراء المباني التّجارية والجمارك والمستودعات والمشفى، تبدأ حافةُ الفوّهةِ البركانيّة السوداء. وتلوح على مبعدةٍ منها، خلَلَ ضباب رماديّ، أولى التّلال الصحراوية من شبه الجزيرة العربية، مبتورةً كأنّما قُدّت بفأس، وصفراءَ بلون الرّمل، يتخلّلها في بعض المواضع شريطٌ أبيضُ

طويـلٌ مـن نتـوءٍ صَلصـاليّ. الحـرّ شـديد. ومـع أنّ السـاعة تقـارب الثامنـة والنصـف، فقـد كان الهـواء يلتهـب فـوق المدينـة وعـلى الأرصفـة المتربـة. بـدأ العـمّال يفرّغـون قـارب البضائـع، مكدِّسـين الحقائـب عـلى الطّريـق أمام الجسر العائـم. غبـارٌ في كلّ مـكان، وذبـابٌ صغـيرٌ، وآخـرُ حـوّامٌ عمـلاقٌ يطـنّ حـول صناديـق التفّـاح. وإلى الخلـف بقليـل، ينتظـر العـمّال بعرباتهـم اليدويّـة، عـمّالٌ مـن قبيلـة عيسـى طـوالُ القامـة سـودٌ، يرتـدون مـآزر باليـة، وأجسـادهم مغطّـاةٌ بقـشرةٍ رقيقـةٍ تشـبه الدّقيـق. ومـن ورائهـم، تُلمـح تحـت مظـلّاتٍ سـوداء كبـيرةٍ أطيـافُ الرّجـال الذيـن يمثّلـون الحضـارة في عـدن: التّجـار العـرب في غلائلهـم البيـض، ومسـؤولو الصّحـة الإنجليـز، وبعـض ممثّلي المؤسّسـات الأوروبيّـة، مثـل لـوك تومـاس، بينينسـولار آنـد أورينتـال، وشركـة النّقـل البحـريّ ميسـاجري.

وبينـما كان جـاك وليـون يتمشّـيان عـلى رصيـف المينـاء، لفَـتَ رجـلٌ انتباههَـما بمظهـره الغريـب، حتّـى في ذلـك المـكان النّائـي. رجـلٌ بديـنٌ في الخمسـينيّات مـن العمـر، يرتـدي سـترةً سـوداء وبنطـالاً رماديّـاً، وصـداراً بياقـةٍ جامـدةٍ، وربطـةَ عنـقٍ رغـم شـدّة الحـرّ. ثـمّ إنّـه الوحيـد الـذي لا يحتمـي بمظلّـة. وكان يعتمـر قبّعـةً مـن القـشّ واسـعة الحـواف ويحمـي عنقـه بمنديـل. لكـنْ مـا لفـت انتبـاه جـاك وليـون هـو لحيتـه. لحيـةٌ خارجـةٌ عـن المألـوف، طويلـةٌ وعريضـةٌ وكثّـة، وسـوداءُ بلـون الفحـم تلمـع فيهـا بعـض خيـوطٍ فضّيـة. كان الرّجـل يقـف عـلى مبعـدةٍ يسـيرةٍ مـن التّجـار العـرب، ويراقـب مشـهد الهبـوط مـن السّـفينة ممسّـداً لحيتـه. لكنّـه في المقابـل لم يصـوّب أيّ نظـرةٍ نحـو هذَيـن المسـافرَين النازلَـين مـن سـفينة لافـا كـي ينشّـطا أرجلهـما.

عـرف التّجـارُ حقائبهـم، وتفحّصوهـا مـع نائـب قبطـان **لافـا**، ثـمّ أصـدروا الأوامـر دون أنْ يرفعـوا أصواتهـم، فردّدهـا أحـد رؤسـاء العـمّال، أو سردار[1] -مثلـما يسـمّيه جـاك - وقـد بـدأ يـوزّع الأحمـال ويرسـلُ الحوذيّـين عـلى طـول الجـادّةِ وصـولاً إلى المخـازن.

كان يسـود في تلـك السـاعة هيـاجٌ في المينـاء، يتناقـض بـلا شـكٍّ مـع صفـاء السّـماء وخـدرِ اللّيلـةِ الفائتـة الـذي لم يكـن يكـدّره سـوى نبـاح الـكلاب، وقـد ضاعفـه صخـبُ أولئـك الأطفـال نصـف العـراة الذيـن كانـوا يركضـون بـين الصناديـق عـلى أمـل الإمسـاك بحبّـة فاكهـةٍ قـد تنفلـتُ مـن أحدهـا، ويشـكّلون حلقـة رقـص حـول جـاك ليطلبـوا منـه بعـض النّقـود صائحـين: «وَن تالـر! وَن تالـر!»[2] أو ربّـما: «وَن دولار!» وقـد وزّع عليهـم بضعـة سـنتيماتٍ فانصرفـوا وهـم يتصايحـون.

وهربـاً منهـم، أو أمـلاً في العثـور عـلى بقعـةٍ أنقـى هـواءً، سـار جـاك وليـون عـلى طـول الخليـج حتّـى بدايـة درب البغـال الـذي يمـضي صعـوداً نحـو الصّخـرة الشّـاهقة ومقالـع الحجـارة. جلسـا في ظـلّ مبنـى شركـةِ **بينينسـولار آنـد أورينتـال** يتأمّـلان مشـهد المرفـأ حيـث ترسـو سـفينة **لافـا**، سـوداءَ سـاكنةً. ولـولا خيـط الدخـان المتصاعـد مـن المدخنـة الطويلـة، لظـنّ المـرء أنّـه أمـام حطـام سـفينة.

وعـلى الجانـب الآخـر مـن شـبه الجزيـرة، يُلمـح جُـرف الـبركان الصخـريّ بفوّهتـه المتصدّعـة. حـينَ وصلَـت السـفينةُ فجـراً، نهـض جـاك

(1) سردار: كلمةٌ من أصل فارسيّ كانت تُستخدم على نطاق واسع في العصر العثمانيّ، وتعني الرئيس أو القائد أو الأمير.

(2) Taler بالألمانية: عملة معدنيّة من الفضة سُكّت عام 1518 واستخدمت في معظم أنحاء أوروبا على مدى 400 سنة أو يزيد.

بهدوءٍ ومشى عبرَ سطحها نحو المؤخّرة. كان القائد بوالو يتّكئ على الدرابزين، فأشار إلى جاك نحو الصّخرة الهائلة الطّالعةِ من البحر: «هذا هو يا سيّدي جبل شمسان، ولعلّه أشهرُ صخرةٍ في العالم بعد جبل طارق». وأردف قائلاً: «وكلتاهما إنجليزيّة».

كان في صمتِ عدنٍ ما يثير الإعجاب ويضمر الشرّ في آنٍ معاً، ولا بدّ أنّ ذلك قد حيّر جاك وليون، كما لو كان مروراً باختبارٍ عصيّ على الفهم.

فبعد انطلاق الرّحلة وما صاحبها من اضطرابٍ محموم: صخبِ رصيف الميناء في مرسيليا، وجلبة المحطّة والقطارات، وهدير محرّكاتِ البواخر إذ تُقلِع في ريح أبريل الباردة، واكتظاظ السفينة، جاء ميناءُ عدنٍ بجبله الأسود ومياه خليجه النّاعمة، ليمنح إحساساً بضخامةٍ غير بشريّةٍ خفق لها قلب ليون بشدّة، وتشوّش بصره. غيرَ أنّ محطّة التوقّفِ هذه لم تكن عند جاك سوى لحظةٍ على طريق العودة. ولعلّ هذا كلّه حاضرٌ في ذاكرته، الأرصفة المتربة، ورائحة الزّيوت، وحركة الزّوارق. أمّا ليون فإنّه يختبره للمرّة الأولى. فهنا يبدأ كلّ ما جاء باحثاً عنه، الحياة الجديدة، والقطيعة مع نُزُلِ روي ماليزون، ونسيانُ الطفولة. هنا يبدأ البحر الذي حدّثه عنه جاك، البحر الذي كانوا يروْنه من عزبة آنّا، يهتاج وينبض عند السّاحل في أو بويّي، والشّعورُ بأنّك على طوفٍ منعزلٍ عن بقيّة العالم. إنّ هذا بلا شكّ ما كان يلمع في نظرة ليون مثل لُغزٍ لا يقوى على فهمه، ويحسّ به في البحر، وفي الضّوء الشّديد الوهج، وحرّ الصحراء. كان يظنّ أنّه على وشك الوصول، أنّه عند بابٍ ما، يعبرُ العتبة الأخيرة قبل أن يطأ أرضه. أخذ يرسم

ما يرى على كرّاس رسم مجلّدٍ بالخيش أهداه له جاك قبل مغادرته: هلالَ الخليج، والتّواهيَ، والمباني البيضاء، وأطيافَ عمّال التحميل والتفريغ، والجسرَ العائم حيث يرسو قارب البضائع وسْطَ الزّوارق وقوارب الصّيادين، والجبل الأسود في البعيد، ذا النّتوءات الشوكيّة كأنّه طَلل. ثمّ في صفحةٍ أخرى، رسم بعنايةٍ صورةً لسفينة **لافا**، ساكنةً في وسط الميناء، تحيط بها أشرعة المراكب.

توقّفَت حركة قارب البضائع المكّوكيّة، وعاد الرّصيف فارغاً بعد أنْ انتعش للحظةٍ. ظلّت الشمس متوهّجةً، وغادر جاك وليون ظِلّ المخازن وسارا إلى طرف الخليج. وكان **غران أوتيل** أوّلَ مبنى يمرّان به، وهو دارٌ من طابقَين وسقفٍ من الزّنك، يقع إلى الخلف قليلاً في نهاية حديقةٍ جافّة. وعلى مبعدةٍ، تبدأ سلسلة الشركات التجاريّة، مكعباتٌ بسيطةٌ من البازلت مطليّةٌ بالجير ذات سقفٍ مستوٍ، من بينها **لوتيل دوروب**، وهو شبهُ قصرٍ لم يكتمل بناؤه. عرف جاك، في ظلّ الأروقة الجصّيّة، الرّجل الذي رأياه توّاً على الرّصيف مرتدياً معطفه الأسود وبنطاله الرّمادي، وممسّداً لحيته الشّبيهة بلحى الأنبياء.

كيف عرف أنّ جاك طبيب؟ لا بدّ أنّه سأل سوساك، نائب القبطان عن ذلك، حتّى وإنْ تظاهر باللّامبالاة تجاه كلّ من يتوقّفون هنا أثناء رحلاتهم. هل عرّفَ بنفسه؟ على أيّ حال، فإنّ اسمه لم يوحِ بشيءٍ لجاك ولا لليون، بل إنّهما لم يسمعاه.

يتكلّم الرّجل بلطفٍ فرنسيّةً لا تشوبها شائبة، ومن دون لَكْنة، ولكن مع تلك اللّمسة المتكلّفة التي يمتاز بها أهل الأقاليم. خاطب

جاك كما لو كان محروماً من التّواصل مع معاصريه منذ شهور. وبعد عبارتَين مبتذَلتين أو ثلاث، تحدّث عن الأزمات السّياسية منذ اغتيال الإمبراطور جان[1] وتمرد مِنِليك[2] ضدّ الحكومة الإيطالية. كان متجره قاعةً كبيرةً مظلمةً يطنّ فيها الذّباب، لكنّها أميَلُ إلى البرودة. جلس جاك على كرسيٍّ للتحدّث مع التاجر، بينما ظلّ ليون في الخارج يراقب حركة العمّال تحت الرّواق. وفي عمق المتجر، لمح جاك الموظّفين العرب أو الهنود منشغلين بتفريغ البضائع وتصنيفها. كان هنالك صندوق خمورٍ فرنسيّة، وكان موظّفٌ يُخرج من صندوقٍ آخر ماكينة خياطةٍ كمَن يستخرج كنزاً. بدا التّاجر فخوراً جدّاً بمِلكيّته: «آمل أن أبيع الكثير منها في الحبشة». ثمّ تحدّث عن رجلٍ من شركائه، فرنسيٍّ، يرقد في تلك اللّحظةِ في المشفى العامّ في التّواهي، منتظراً أنْ يعيدوه إلى مرسيليا. قال: «حالته سيّئةٌ جدّاً، وباخرة الأمازون لن تصل إلّا بعد يومَين، ولا أعرف إنْ كان سيصمد حتّى ذلك الحين». لم يقل جاك شيئاً. عليه أنْ يظلّ متحفّظاً. وقد فهم الآن أنّ التاجر ما تقرّب إليه إلّا من أجل هذا، من أجل أنْ يخبرَه عن شريكه الرّاقد في المشفى، فيستوضح منه عن حالته. كان جاك يكره الاستشارات المُرتجلة، ولم يكن لديْه أدنى رغبةٍ في الذّهاب إلى المشفى لرؤية شخصٍ يُحتضر، حتّى وإنْ كان ابنَ بلده. ثمّ إنّ الحرّ شديد، ومِن شأن زيارةٍ كهذه أنْ تذهب بكلّ خيرات الصباح الذي أمضاه على أرصفة الميناء. ولا بدّ أنّ سوزان كانت في انتظاره. لكنّ التاجر كان مِلحاحاً، فشقّ على جاك أنْ يرفض طلبه. خطرَ في

(1) امبراطور هايتي بين عامي 1804–1806.

(2) الإمبراطور مِنِليك الثاني أعظم أباطرة إثيوبيا (1844–1913).

بالـه أنْ يتـذرّع بقـرب رحيـل لافـا. وأرادَ أوّلاً أن يوصـلَ شـقيقه إلى الزورق، لكـنّ ليـون طلـب مرافقتـه قائـلاً إنّـه سـيبقى واقفـاً عنـد البـاب فقط.

انطلـق التّاجـر وهـو لا يـزال يعتمـر قبّعتـه البيضـاء الغريبـة، وتبِعـه جـاك عـلى مضَـض. لم يطـرح أيّ سـؤال، ولم يحـاول حتّـى معرفـة اسـم الرّجـل التّعِـس الـذي سـيزوره.

ولـمّـا دخـل الغرفـة الضيّقـة الشّـديدة الحـرّ، عـدّل نظّارتـه، وهـي الإيـماءة التـي تعلّمهـا في سـان جوزيـف لمنحـه الثّقـة ورباطـةَ الجـأش في المواقـف الصّعبـة. أذهلـه وضـع المريـض. كان شـاباً فارعـاً وناحـلاً كهيـكلٍ عظمـيّ، ممـدّداً بكامـل قامتـه عـلى السّريـر القصـير جـدّاً عليـه. وجهُـه هزيـلٌ مصفـرٌّ مـن كثـرة مـا تعرّضـت عظـامُ وجنتيـه وقصبـةُ أنفـه للشـمس، وجبينُـه محـزّزٌ بخطـوطٍ عميقـة، ومبقّـعٌ بتلـك العلامـات الدّاكنـة التـي تظهـر عـلى البـشرة الفاتحـة في المناطـق الاسـتوائية. لكـنّ أشـدّ مـا أذهـل جـاك هـي نظـرة ذلـك الرجـل، نظـرةٌ زرقـاءُ رماديّـة، بـاردةٌ وذكيّـة، ومشـحونةٌ بالغضـب. عـرف المريـضُ التّاجـر، وقبـل أن يتفـوّه هـذا الأخـير بكلمـة، نهـضَ متّخـذاً موقف مـن يدافـع عـن نفسـه وطـرده: «انـصرف! هيـا انـصرف! ليـس عنـدي مـا أخـبرك بـه!». لكـنّ التاجـر لم يتراجـع، وقـدّم لـه جـاك بوصفـه طبيباً فرنسـيّاً في طريقـه إلى موريشـيوس، فـردّ عليـه الرّجـلُ متنـدّراً: «ومـاذا تريـد منـه أنْ يفعـل بي؟! خُـذْه وانـصرف معـه! تبـاً لكـما!». أَنهكَتـه نوبـة الغضـب، فخـرّ مُرتميـاً عـلى وسـادته.

تعجّـبَ جـاك مـن أنّ الرجـل لا يرتـدي لبـاس المـرضى، بـل كان لا يـزال في ثيـاب السّـفر، بنطـالٍ رمـاديٍّ بـالٍ ومُغـبرّ، وقميـصٍ عاجـيٍّ بلا ياقـة، ذي أزرارٍ عظميّـة منحوتـة، عـلى طريقـة أهـل الحبشـة.

ولمّا رأى جاك آثار المعاناة في ملامح المريضِ عدل عن نيّته المغادرة في الحال. كانت إحدى ساقَيه ملفوفةً بضمادةٍ حتّى منتصف الفخذ، لكنّ القدم الأخرى منتعلةٌ حذاءً جلديّاً أسود ثقيلاً، يعلوه بعد غبارُ الطرقات، كما لو كان الرّجل يستعدّ للخروج واستئناف رحلته. وكانت عصا متينةٌ من خشب الأبنوس مُسندةً إلى الحائط المبيّض بالجير قرب السرير، وجميع أمتعته جاهزةٌ خلف الباب في انتظاره: حقيبةٌ جلديّة بحزام كتفٍ وحقيبةُ سفرٍ مغلّفةٌ بالجلد شُدّت بالأحزِمة.

جلَس التّاجر على كرسيّ القشّ الوحيد في المكان، عند قاعدة السّرير. بدا مُنهكاً من حرارة الجوّ وأخذ يمسح حول عنقه بمنديله الكبير. ظلّ جاك واقفاً أمام الباب، كما لو كان متأهبّاً للمغادرة. اقترب ليون، صار في الرّواقِ على عتبة غرفة المريض دون أنْ يجسر على الدّخول، مكتفياً بالمراقبة. نطق التّاجر بملاحظاتٍ مبتذلةٍ حول الحرّ والجفاف ونحو ذلك، لم يردّ عليها الرجل المستند إلى وسادته إلّا بتقطيب وجهه، أو بكلماتٍ من مقْطعٍ واحدٍ تمْتَمها بصوتٍ مؤرَّق. هنا، تَرى المعاناةَ محسوسةً في كلّ تفصيلٍ: على بياضِ الجدران المُجيرّة، وفي النّافذة الضيّقة ذات السّتائر نصف المُسدَلةِ، وعُريِ الأرضيّة، والسّرير ذي الأعمدة المعدنيّة المهترئة حيث يرقد الرّجل بكامل ملابسه، متوتّرَ الأعصاب، وصوتُه أجشُّ كأنّه صرخةٌ مكتومة.

هل نطقَ أحدهم اسمَه؟ هل سمِعه جاك؟ وإنْ كان سمعه، فهل بمقدوره أنْ يعرفَ في هذا الجسد المُستنزَف المحطّم، والمتيبّس من الألم، ذلك اليافعَ الغاضبَ الذي دخل حانةً في باريس القديمة ذات مساء، منذ ما يقرب من عشرين عاماً؟ مَن هدّد الناس بقبضتَيه،

ومَن تقاطعتْ نظرتهُ المشوشّةُ مع نظرة ولدٍ صغيرٍ في عمر التاسعة؟ ذلك الفتى الغريبَ الذي قاده الشاعر فرلين إلى الخارج في عتمةِ اللّيل، وغاب عن الأنظار وهو يصبّ اللّعنات، وقال عنه العمّ وليام هذا وحسب: «لا شيء... شقيّ».

أتخيّل الآن جاك واقفاً في الحجرة المُتوهّجة بالشمس، تلك الحجرةِ العارية حيث يرقد الفتى نفسه وقد صار رجلاً، ووجهه متشنّجٌ من الألم. لعلّ جاكَ قد ميّزَ، في لحظةٍ، ملمحاً ما، بريقَ عينَيه الأزرق الفولاذيّ، أو فمَه المزمومَ تحت شاربَيه، وتلك الشّفة السفليّة الرّقيقة كأنّما تآكلت من الغضب، أو ربّما اليدَين، تَينك اليدَين العريضتَين الكثيرتَي العُقَد كَيدَي فلّاح، المهترئتَين والمبقّعتَين من أثر الشمس، اليدَين اللّتَين هدّدتا نادل الحانة الذي أراد طرده، ودفعتاه بعيداً.

لم يتخلّ التاجر عن رغبته في فحص المريض. مال نحوه، وهمس له ببضع كلماتٍ، لكنّ الرّجل أبى بشدّة، وبصوتٍ جافّ، أجشَّ ومكتومٍ في الآن ذاته، وكلماتٍ مجتزأةٍ وغير متماسكة. ثمّ تحدّث عن مؤامرةٍ، وعن أطبّاء يريدون بتر ساقه، وفي الوقت ذاته تحدّث عن تجارته، وعن الأموال التي سُرقت منه في أفريقيا، والإتاوات التي كان عليه أنْ يدفعها إلى الإمبراطور مِنِليك كي لا يهاجم رجالُه القوافل، وعن الكلاب التي تدفعه إلى الجنون بتسكّعها حول المشفى، وحوله، ليلَ نهار. ثمّ هدأ فجأةً، وقال بنبرةٍ ساخرة: «ثمّ إنّه من العبث المطلق إزعاجُ هذا السيّد. فقد تحسّنتُ كثيراً منذ لزِمت الفراش».

في الغرفة الضيّقة، كانت الحرارة تشتدّ فتُمدّد الهواء ضاغطةً على الجدران. ينظر جاك إلى قطرات العرق التي تتبلْوَر على جبين التاجر

ثـمّ تسـيل عـلى خدّيـه وتبلّـل لحيتـه الطويلـة. واضـحٌ أن التاجـر متوتّـر، ويبحـث عـن وسـيلةٍ للانسـحاب، وهـو لا ينفـكّ يمسـح وجهـه بمنديلـه ويحـرّك بعصبيّـة مروحـةً مـن خشـب الصّنـدل الهنـديّ.

ولا يبـدو أنّ المريـض الرّاقـد في سريـره كان منزعجـاً مـن الحـرّ. إذ لا يـزال وجهـه النّحيـف جافّـاً، ولا أثـر للعـرق في يدَيـه ولا في شـعره البالـغ القـصر. كانـت نظرتـه تُشـعّ بطاقـةٍ أذهلـت ليـون. فدلـف إلى الغرفـة عـلى مهـلٍ ودنـا مـن السريـر. بـدا جـاك أيضـاً مفتونـاً بالمشـهد، كـما لـو كان فيـه شيءٌ لا يقـاوَم. ظـلّ الرّجـل يتحـدّث بـلا مداخلـةٍ مـن أحـد، عـن بضاعتـه الخياليّـة، ويـاردات القطـن الإنجليـزيّ، وكبـب الخيـوط النيليّـة «جانـو»، وصبغـة الفـوّة، و«لولـون»، ومسـك الزِّبـاد، والزّبـاد، والقهـوة، القهـوة اللّعينـة عـلى وجـه الخصـوص!

كان ليـون يسـتمع لهـذه الكلـمات الغريبـة يسردهـا الرّجـل كأنّهـا الأسـماء الأهـمّ في العـالم، ثـمّ إلى تلـك التواريـخ، يـومَ مغـادرة القوافـل كأنّهـا سراب، أبريـل ومـارِس، والأيـام الآتيـة أو تلـك التـي مضـت، وكلّ هـذا الخليـط. ثـمّ أخـذ يعـدّد أسـعاراً وأرقامـاً، ويتحـدّث عـن الأسـنان والبنـادق وعملـة التّالـر، كلّ ذلـك بالصـوت المتشـنّج الرّتيـب ذاتـه، كـما لـو كان يتحـدّث عـن مسـألةٍ حسـابيّة غـير مفهومـة. ولّمـا نهـض التاجـر عـن كرسـيّه وهـمّ بمقاطعتـه، رفـع المريـض صوتـه بلهجـةٍ مُنـذرةٍ لهـا رنـين المعـدن، وضرب بيـده عـلى حافـة السّريـر في حركـةٍ قاطعـة.

أراد التاجـر أن يواصـل الحديـث معـه عـن صحّتـه، لكـنّ الرّجـل صرخ قائـلاً: «أجـل، أعلـم، لقـد أقسـمتم جميعـاً أنْ تبـتروا هـذه السـاق!» ثـمّ أراح جِلسـته عـلى السريـر ثانيـةً وعينـاه تقدحـان غضبـاً. «لكنّـني أنـوي العـودة

إلى بيتي بكامل جسدي. يجب أن أتزوج في فرنسا، أتحسبون أني سأجد زوجةً وأنا بساقٍ واحدة!».

ارتدّ ثانيةً إلى وسادته. كان شديدَ الشحوب، ويداه مسترخيتان على جانبَي جسده، كأنّه مُسجّىً. لم يُطِق التاجر صبراً. فانسلّ حتّى دون أنْ يودّع جاك وليون الواقفَين بعدُ في منتصف الغرفة.

«هل الألم شديد؟ أتريدني أن أصف لك الأفيون دواءً؟». كان في صوت جاك شيءٌ غريبٌ غير نبرة الطبيب.

نظر إليه الرّجل باهتمام لحظةً، متفرّساً فيه بعينَيه الرّماديتَين، وكأنّه يفتّش عن ذكرى ما. ونظر أيضاً إلى الفتى الشّديد السّمرة الذي يقف أمام الباب المفتوح. لعلّ شيئاً ما قد حدث خلال تلك اللّحظة القصيرة، ستارٌ انسدلَ مخفّفاً قسوة نظرته، حيرةٌ أو شجن. لم يُجب الرّجل، تراجع أكثر إلى وسادته وأغمض عينَيه. ثمّ قال أخيراً بصوتٍ خفيضٍ مُتعب: «عطشان. أريد بعض الماء». وما كان يطلب سوى ماءٍ من ينابيع موطنه الأمّ، ماء بلدة روش، ماء الشّباب، وليس ماء هذه الآبار القلويّة في عدن، هذه المياه المنفّرة التي أماتتها مراجل تحلية المياه التّابعة للمشفى. وما دام لا يستطيع الحصول عليها، فقد أغمض عينَيه شارداً في حلمه.

بات الوقت ظهراً، ولا بدّ أن سوزان كانت تنتظر على أحرّ من الجمر، وتراقب حركةَ الزّوارق الصّغيرة في المرفأ. انتهت لافا من تفريغ حقائبها وبراميلها، وتصاعدت رجفةُ المحرّكات مُحدِثةً اهتزازاً مكتوماً وصل إلى غرفة المشفى. التّواهي جزيرةٌ ترزح تحت وطأة

الشمس التي تتوهّج أشعتها على جدران المشفى المبيّضةِ بالجير، وعلى سقفها المعدنيّ. كانت سوزان تلمح في البعيد المساحات البيضاء المتشكّلة من مسطّحات الملح، وجبال شبه الجزيرة العربية. قال لها القبطان بوالو منذ قليل: «بشرى سارة. يمكننا الإبحار الليلة». أتُراه أفضى إليها أيضاً بسرّ بهجته الغامرة تلك؟ أي احتمالِ التوقّف المفاجئ في محطّة زنجبار، ولقائه السريّ مع زوجة أحد الضباط البحريّين، من أراد من أجلها أنْ يتحدّى خطَر الوباء والمنع الذي تفرضه شركة النّقل البحريّ ميساجري؟ لكنّ سوزان كانت قد عيل صبرُها، ولم تشأ هي الأخرى أنْ تطرح عليه أيّ سؤال.

في المشفى، كان جاك يستعدّ للانصراف، فأخذ ليون من ذراعه، لكنّ الفتى أبدى مقاومةً ورغبةً في البقاء، لا بل دنا من السرير، ونظر إلى وجه الرّجل النائم. ولم يكن ما سمعه عندها هذيان المريض، بل الكلمات النابضة بقوّةٍ في الكرّاس الذي نَسخ له جاك القصائد فيه، فقط بسبب فرلين.

«أنا الحُرُّ، مَن يتصاعد منه الدّخان وتعلوه سحائبُ ضبابٍ بنفسجيّ،
أنا الذي كنت أثقب السماء المتأجّجةَ كمَن يثقب جداراً،
حاملاً كمِثلِ مربّى لذيذٍ للشّعراء اللّطفاء،
أشناتٍ شمسيّةً ونفاياتِ لازورد»[1].

---

(1) هذه الأبيات من قصيدة «المركب السّكران» لآرتور رامبو بترجمة كاظم جهاد، مصدر سبق ذكره.

كان ليون في السابعةَ عشرةَ من العمر حين غادر روي ماليزون عامَ 1889 والكرّاس في جيب معطفه، حيث هذه الأبيات الموجّهة إليه، لا إلى أحدٍ سواه، إلى هذا الطفل المنفيّ في شوارع باريس، الحالم منذ الأزل بالعودة إلى الجزيرة، موطنه الأمّ، إلى حفيف الريّح في أشجار **الكزورينة**، وتسبيح طيور الزّرزور عند الغسق، وتدفّقُ أمواج البحر ليلاً قُبالة عزبة آنّا.

ولكنْ كيف يمكنه أن يعرف الشّاعر المفقود في هذا الجسد الطويل المطروح على فراش المشفى، هذا الجسد الخفيف المحطّم من الألم، حيث السّاق المضمّدة تبثّ رائحة الموت في الحجرة؟ فتح الرّجل عينَيه مرّةً أخرى. وسأل بصوتٍ واثقٍ، وقد استعادَ بعضَ هدوئه:

- متى ترحلان؟

- في غضون ساعات قليلة.

بدا كمن يفكّر في أمرٍ ما:

- لولا تلك الساق اللّعينة، لرحلتُ معكما.

واستوى جالساً في سريره. تصوّر جاك أنّ القروح قد انتشرت في ظهره وردفيْه بلا شكٍّ، من كثرة ما لازم فراشه. كان عليه، لكي يحرّك ساقه اليسرى قليلاً، أن يحملها بكلتا يدَيه، مثل كتلةٍ خاملة، وقد قُصَّ بنطاله الرماديّ عند منتصف الفخذ لإفساح مكانٍ للضِمادة الضّخمة التي تمتدّ من الرّكبة حتّى القدم. «اللّعنة على الأطبّاء، لقد أقسموا أنْ يُجهزوا عليّ!» وتمتَمَ بأسماء، نوك، ستيبين، وجرّاح المشفى. وكان يريد أنْ ينقلوه إلى الفندق الكائن في منطقة الهلال.

سـأله جـاك في إصرار: «هـل تريـدني أن أفحصـك؟». لكـنّ الرّجل رفض بإيـماءة اليـد الحـادّة ذاتهـا. «كلّا، كلّا، لا جـدوى مـن ذلـك»، متحدّثـاً عـن الأمـر كأنّـه مسـألةٌ ثانويّـة. هـمّ جـاك بالانـصراف، لكـنّ المريـضَ اعتـدل في جِلسـته إلى أقـصى حـدٍّ هـذه المرّة، وقـد لاح شيءٌ مـن القلـق في نظرتـه. كأنّه أراد أنْ يكسـبَ لحظـةً أخـرى عـلى حسـاب الألم والوحـدة.

طَـرح أسـئلةً بصـوت قَلِـقٍ عسـاه يسـتبقي هذَيـن الغريبَـين، الطبيـبَ الشـابّ الخجـول والفتـى ذا العينَـين الدّاكنتَـين الـذي يذكّـره برعـاة هـرَر. لكنّهـا لم تكـنْ أسـئلةً حتّـى، ولم ينتظـر إجابـات، تطـرّقَ إلى الوضع السـياسيّ في فرنسـا، ومذبحـةِ فورمـي، وتنامـي الحركـة الفوضويّـة. وتحـدّث عـن تونكـين، وعـن غـزو الكونغـو، وعـن ضفّـة نهـر السّـانغا حيـث كان ينـوي أنْ يفتتِـح حانـة. وأفْظـعَ القـولَ في مِنِليـك، وفي كلّ مـن شـاركهم تجارتَـه، بـاردي وسـافوري وديشـان، وفي تيـان الـذي أبخسـه حقّـه، وإلْـغ الـذي خانـه. ولم يوفّـر سـوى المستكشـف بوريـلي، رفيـق سـفره. توتّـر جـاك، لكـنّ ليـون كان يصغـي بـشيءٍ مـن الانبهـار إلى هذيانـه العقـلانيّ وصوتـه العـدوانيّ الرّتيـب. ثـمّ غـرِق الرّجـل ثانيـةً في أحـلام يقظتـه. تحـدّث عـمّا يحـبّ، عـن الطريـق إلى أنكوبـار (إثيوبيـا)، وجبـل بـلاد تشرتـشر (آبـيري تشرتشر-تشـاد)، وأوبـورا وسـهل مينجـار ومدينـة أنتوتـو السّريـة (إثيوبيـا). وبـرد اللّيـل، والجليـد عـلى الطرقـاتِ فجـراً، إذ يـصرّ تحـت حوافـر الخيـل. ممـدَّداً في تلـك الغرفـةِ حيـث يسـود هـواءٌ حـارّ مُشـبعٌ بغبـارٍ أحمـر، أخـذ يحلـم بصـوت عـالٍ بهـرَرَ، وبزرقـةِ السّـماء في شـتائها القـارس. ثـمّ إذا بـه فجـأةً، وبـلا تمهيـدٍ، في بلـدة روش، حيـث بيْـت العائلـة، قـربَ أمّـه وشـقيقته، وأمـامَ إبريـق المياه المتجمّـدة عـلى طاولـةِ الزيّنـة في غرفتـه

في الطّابـق العلـويّ، يتأمّـل عـبرَ نافذتهـا الضّبـاب المنبسـطَ فـوق الحقـول، ويسـمع صيحـاتِ الزِّيغـان.

انسـلّ جـاك عـلى أطـراف أصابعـه، وانتظـر لحظـةً في الـرّواق حـينَ لمـحَ غـيرَ بعيـدٍ عـن البـابِ رجـلاً في العشرينيّـات مـن العمـر، شـابّاً أسـود مـن إريتريـا يرتـدي القميـص البنـيّ نفسـه بـلا ياقـة، وبنطـالاً أبيـض. كان يقـف هنـاك متكّئـاً عـلى الحائـط، وقـد نظـر في صمـتٍ إلى جـاك وهـو يمـرّ مـن أمامـه.

في الغرفـةِ، توقّـف المريـض عـن الهذيـان، وارتـدّ ثانيـةً إلى وسـادته، فتبـدّى وجهـه بقعـةً رماديّـة داكنـةً وسْـطَ ذلـك البيـاض الواسـع. مشـى ليـون إلى السّريـر لينظـر إليـه. صـار في ملامـح المريـضِ الآن شيءٌ مـن الوداعـة، كأنّـما انبسـطت أسـاريره بعـد انقبـاض. لعلّـه حلّـقَ بعيـداً في حلمـه بالميـاه وبصباحـات الصّقيـع، ونـسيَ الألم الـذي كان يسـود غرفـة المشـفى ومـا بـرح يتأجـج بوميـضٍ أحمـرَ مثـل وهـج الجمـر.

بعـد ظهـيرة ذلـك اليـوم، عـاد جـاك إلى متـن سـفينة **لافـا**. لم تكـن السـفينة قـد أنهـت اسـتعدادات انطلاقهـا، ولـن تغـادر إلّا فجـر الغـد. اسـتلقى جـاك، وقـد أنهكتـه تلـك الجولـة الصباحيّـة في التّواهـي، في القَمـرة الضيّقـة، عـلى الفـراش الصّغـير اليابـس معانقـاً سـوزان. وقـد تطارحـا الغـرام طويـلاً وغمـرَ العـرق جسـدَيهما في الظّـلّ الأحمـر. بقـي ليـون في المينـاء، يسـير في الشـوارع الخاليـة وكـرّاس الرّسـم في يـده لا يجـد مـا يرسـم. فلعـلّ الصفحـات البيضـاء هـي أبلـغ وصـفٍ لجزيـرة صـيرة البركانيـة.[1]

(1) اسمها غير الرسميّ كريتر، من الإنجلزية crater: بركان.

أستطيع أن أتخيّل عصرَ ذلك اليومِ الثقيلَ الخانق، والضّوء الأحمَر بين جدران القمْرة، والكوّة نصفَ المفتوحة تحجبها السّتارة البالية. يبدو لي أنّني أحمل ذكرى ذلك اليوم معي، بوصفها اللّحظة التي حملتْ فيها جدّتي بأبي. ثِقلُ الحرّ على جسديهما ومذاق العرق وخفقات قلبَيهما المتضاعفة كأنّهما قد غاصا معاً في قاع بئرٍ من نار. ولطالما حلمتُ بأن تكون أمّي قد حمِلتْ بي على متن قاربٍ رسا في ميناءٍ يطلّ على آخر العالم، في عدن.

لم يتحدّث جاك عن رامبو. ومن الأكيد أنّه لم يستطعْ حتّى أنْ يكوّن فكرةً عمّن قد يكونه ذلك المريض الهزيل الذي يقبع في فراش المشفى، مرتدياً كامل ملابسه ومنتعلاً حذاءه مثل مسافرٍ لا يصل أبداً إلى أيّة وِجهة. وقد قال لسوزان هذا وحسب:

- رأيت من فوري رجلاً يُشرفُ على الموت.

نظرَت إليه في دهْشة. إذ لم يكن من عادته يوماً التحدّث عمّا يراه، سواءٌ وهو في لندن أم في مشفى سانت جوزيف، أم في إليفانت آند كاسل. سألَته:

- وليون؟

- ظلّ هناك. أخبرَني أنّه سيعود مع آخر زورق.

أتخيّله يسير على طول الشاطئ. الشمسُ عموديّةٌ، والظّلال بقعُ حبرٍ على التراب، والجدران متوهّجة. ما الذي شدّ ليون مرّة أخرى نحو المشفى العام، ليجتاز ممرّاته الخانقة حيث تطنّ الذّبابير، وصولاً إلى الغرفة الضيّقة التي يرقد فيها الرّجل المريض ذو الوجه الغاضب

المتشنّج، والنظرةِ الزرقاء الرّماديّة التي لا ترمش ولا تخفُّ حدّتها؟ انتهى تفريغ القارب من البضائع، وأُغلقت المخازن جميعها، وهُجرت الأرصفة، وانشغل التّجار بتناول غدائهم. ونام البحّارة قرب المراكب الراسية، في ظلّ أشرعتها المرْخيّة، وتجمع العمّال تحت أروقةِ البنايات على طول الخليج، يلعبون النّرد ويدخّنون غلايين الحشيش. مرّ ليون من أمامهم حتّى بلغ مستودع الفحم التّابع لشركة النقل البحريّ **ميساجري**، ومضى أبعدَ من ذلك، نحو مبنى شركة **لوك توماس**. وكانت تتقدّم على الطريق الترابيّ عربةٌ واحدةٌ يجرّها بغلان هزيلان، صوبَ المُعلاّ وجزيرة صيرة البركانيّة.

وهذه هي علامة الحياةِ الوحيدة هنا. فما من طيورٍ ولا حشرات. لونُ مياه المرفأ خليطٌ من زرقةٍ ناعمةٍ وسوادٍ، يلوح فوقها طيفُ **لافا** مثلَ قصرٍ معدنيّ محاطٍ بالمياه. وقبل نهاية الخليج بقليل، رأى ليون الكلاب، قطيعاً كاملاً منها. كانت تخرج من بعيدٍ، من بين المباني المهجورة، وتمشي بخطٍ مائلٍ، خطومُها إلى الأرض تتضوّر جوعاً، ولها لون الغبار، كأنّها أشباح. التفتَ إلى الوراء فتوارت الكلاب خلف بعض الجدران، ثمّ استأنفت سيرها متّبعةً إيّاه ومقتربةً منه بهدوء، فشعر فجأةً بالخوف. إنّها هي من تحدّث عنها الرّجل المريض في هذيانه، الكلابُ الضّالة الجائعة والمسعورة التي تطوّق المدينة، فتدخل الباحات، وتتجول حتّى تحت نوافذ المشفى، كلابُ هرَر التي كان يرمي لها قطع لحم مسمومةً كلَّ مساء.

ولمّا دخل ليونَ الغرفة مجدّداً، لم يعرفه رامبو. كان الحرّ مُطبقاً، والغبار والألم يصبّانَ على الغرفة وهجاً أحمر مُخضرّاً مثل لهب. وعلى

كرسيّ القشّ الذي شغله التاجر في ذلك الصباح، كان يجلس الشابّ الأسود من شعبِ غالا، ناحلاً فارع الطّول مثل دالية، يرتدي ملابس أوسعَ كثيراً من مقاسه، وتظهر على وجنتيْه علاماتٌ غريبةٌ أشبه ببرادة النّحاس. أراد ليون أن يقترب، لكنّ الرّجل الأسود نهض ومنعه من التقدّم، دون أن ينبس ببنت شفة، بل اكتفى بمدّ ذراعه، ورمقَه بعينَيه الصفراوين، الهادئتَين والواثقتَين، ظانّاً على الأرجح أنّ ليون واحدٌ من أولئك الأطبّاء، جاء ليبتر ساق سيّده.

في عمق الغرفة، وفي غبشها اللّامع، كان المريض يهذي، لا صارخاً، بل مُتمتماً بالصوت الرّتيب نفسه الذي كان يردّد به أرقامه وتواريخه، وبالنّبرة المعدنيّة ذاتها.

كان قابعاً هناك لا يبدي حراكاً، مسنداً ظهره إلى الوسادة، وذراعاه ممدودتان على جانبَيه، وساقه اليسرى متدليّةٌ على طرف السرير، كما لو كان يحاول الوقوف. «إنّها هناك، أمام النافذة. توقّعتُ ذلك. يتكرّر هذا كلّ يوم، ولا أحد يفعل شيئاً. أصْغِ! ها هي هناك، أمام النافذة».

والحقيقةُ أنّ ليون كان يسمع بوضوحٍ نباحها الأجّش وهريرَها في صمْت المدينة الميّتة. إنّها سادةُ عدنٍ الحقيقيّون، من يطوّقونها ويخترقونها، أشباحٌ بلون الرّمل، تخرج إليها من التّلال الجافّة والوديان، وتتجوّل على طول شاطئها بحثاً عن الطّعام. وقد اقتفتْ أثرَ الرّجل إلى هنا، قادمةً من أعماق جبال الحبشة، وشوارعِ هرَر الباردة، وصولاً إلى هذه الصّخرة المهجورة، الكلابُ التي تخطف الصغارَ وتنبش قبور الموتى.

سار ليون في شوارع التّواهي حتّى المساء باحثاً عن شيءٍ ما، وكرّاسُ الرّسم في يده. هل نجح هذا الصبيّ اليافع في اكتشاف الهويّة الحقيقيّة للتاجر الرّحالةِ، طريح الفراش في المشفى العام؟ لعلّه استطاع أنْ يستشفّ من ذلك الجسد الذي عضّه الألم وقضمه الجفاف، نضارةَ الطفل الذي كان يراقص الكلمات، ونظرتَه السّاخرة التي تستطيع أنْ ترى فيما وراء كلّ بَهْرَجٍ زائف، وغضبَه كذلك. لكنّني كنت مخطئاً. فليون لم يعرفه. وما كانَ لأحدٍ أنْ يعرفه. وحدها الكلاب عرفت من يكون، وميزّت رائحته، كما لو أنّها خرجت من أوْكار الأرض وأخذت تركض مُقتفيةً أثراً خفيّاً، كي تعذّبه كلّ يوم بنباحها.

في التّاسع من مايو فجراً، استيقظ ليون على هدير الآلات. سار حافياً عبرْ سطح السفينة إلى البرجِ الخلفيّ كي يشاهد ساحل شبه الجزيرة العربيّة الذي كان ينساب وئيداً في الظّل. ولا بدّ أنّ جاك قد سبقه إلى هناك، متّكئاً على الدّرابزين، وعلى نظّارته أثرٌ من غبش اللّيل، فوقفا يشاهدان معاً الصّخرة الآخذة بالابتعاد، وقمّة التواهي السوداء حيث مصباح الزّيت يلمع بعدُ في الضُّوّة.

كانتْ طيورُ بحرٍ ضخمةٌ تتبع مَخْر السّفينة محلّقةً في كسلٍ ومطلقةً صرخاتِها الكئيبة، والنّهار يسكب ضوءه على الصّحراء والبحر، بقعةً حمراء هائلةً فوق فوهة البركان. هل كانا يفكّران في تلك اللّحظة بالرجل ذي النّظرة الثّابتة المُحرقةِ من الأرق، الذي تركاه في غرفته بالمشفى، ولا بدّ أنّه سمع من بعيدٍ دويّ صافرة **لافا**؟ أقبلَت سوزان أخيراً، مرتديةً برنس الحمّام اليابانيَ، واندسَّت بينهما، لافّةً ذراعَيها

حولهما، فنسيا كلّ شيءٍ لمّا أحسّا بدفء جسدها المحتفظ بعدُ بحرارة النّوم.

وفي اللّحظة التي خرجت فيها **لافا** من المرفأ، لاح طيفُ باخرة الأمازون ببرجِها ومدخنتيها العاليتَين، خُرافيّاً عجيباً يخترق الأفق.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الكرنتينة

27 مايو [1891]

تقع جزيرة **بلات** على خطّ عرض 19° 52' جنوباً وخطّ طول 57° 39' شرقاً. وتمتدّ 20 ميلاً شمال رأس مالورو. وهي جزيرةٌ شبه دائريّة مثل جزيرة موريشيوس وإنْ كانت أصغر مساحةً. وخلافاً لما قد يوحي به اسمها[1]، فإنّ طرفها الجنوبيّ الغربيّ يتكوّن من فوّهةٍ بركانيّة مزدوجةٍ انهارت حوافها من ناحية البحر. وكانت هذه الجزيرة المُنبثقة من الثورة البركانيّة الهائلة التي رفعت قاع المحيط قبل عشرةِ ملايين من السنين، متصّلةً من قبلُ بموريشيوس عبرَ برزخٍ غرق شيئاً فشيئاً في المحيط. تحاذيها من الجنوب الشرقيّ جزيرةٌ صغيرةٌ قاحلة تُسمّى غابريال. وعن أقصى نقطةٍ في طرفها الشرقيّ تنشقُّ صخرةٌ بازلتيةٌ هَرميّة الشّكل، تتّخذها الطّيور البحريّة ملجأً لها، تُسمّى صخرة بيجِن هاوس. وهنالك جزرٌ أخرى تتناثر في عرض المحيط، شاهدةً على ما كان في القِدم رصيفاً قاريّاً: جزيرة روند، وجزيرة أوسيربَان، ثمّ جزيرة غانرز كوين (كوان دو مير) قربَ سواحل موريشيوس.

وصلنا إلى جزيرة بلات عند التاسعة صباحاً وسْط بحرٍ عالي الموج. كان **لودالوزي**، وهو مركبٌ شراعيّ قديمٌ حُوِّل إلى سفينةٍ بخاريّة ترفع علم البحريّة البريطانيّة، قد أقلّنا عند الفجر من مرفأ بور لويس،

(1) كلمة Plate تعني بالفرنسيّة مسطّحة أو منبسطة.

عـن طريـق معبـر متّصـلٍ مبـاشرةً بالطّابـق السـفليّ مـن السّـفينة لافـا. وعنـد الظّهـيرة، رسـا المركـب الشراعـيّ جنـوبَ شرقِ جزيـرة بـلات، لكـنّ الرّيـاح القويّـة والأمـواج أجبرتنـا عـلى الانتظـار حتّـى وقـتٍ متأخّـر مـن بعـد الظّهر. ثـمّ أُنـزِل أخـيراً زورقـان في البحـر لنقـلِ الـرّكاب. وكادا ينقلبـان عـدّة مـرات، فتشبّث الـرّكاب بالرافعـات. نظـر جـاك وسـوزان بقلـقٍ إلى الجزيـرة التـي توقّفنـا أمامهـا، حيـث جـدارُ الـبركان المعتـم، والأجمـات التـي تغطّـي المنحـدرات، وألـواح خليـج باليسـاد البازلتيّـة الكبـيرة التـي تتكسّر عليهـا الأمـواج مزمْجِـرةً كالإعصـار. لم نـرَ أيّ علامـةٍ عـلى وجـود حيـاة عـلى الجزيرة، إلّا مـرورَ طائـرِ نـورسٍ مدفوعـاً مـع الرّيـح بـين الحـين والحـينِ، ولا يلبـث أنْ يختفـيَ مطلقـاً صرختـه. احتشـد الـرّكاب عـلى سـطح المركـب الشراعـيّ حول الرّافعـات. كان عـددٌ قليـلٌ مـن الأوروبّيـين مـن رجـالٍ ونسـاءٍ يتلفّعـون بطّانيّاتهـم، ويحتمـون مـن هبـوب المطـر تحـت مظلّاتهـم السـوداء. وعـلى متـن المركـب، عرفـتُ مـن بينهـم السـيّد ميتكالـف وزوجتـه، ورجـلَ الأعـمال فـيران، وأطيـافَ شـخصيّاتٍ أخـرى لم أتبيّنهـا. أمّـا باقـي الـرّكاب فكانـوا مـن المهاجريـن الهنـود الذيـن وصلـوا إلى زِنجبـار، وكان معظمهـم عابريـن قادمـين مـن الهنـد. وكانـت هبّـاتٌ مـن أصـواتٍ ونـداءاتٍ وبـكاء أطفـال تتناهـى بـين الحـين والحـين مـن عنـبر المركـب الشراعـيّ. وفي ظـلّ تلـك السّـماء الخفيضـة المدلهِمّـة، والمطـرِ المتسـاقط أفقيـاً، والأمـواج التـي تجـري في البحـر الأخـضر مُذيَّلـةً بالزّبـد، بـدا المشـهد وكأنّـه واقعـة غـرق سـفينة.

نظـرتُ إلى جاك بجواري، شـديدَ الشـحوبَ والنّحولِ، ملتصقاً بسـوزان. بـدا كلاهمـا مفتونـاً بمنظـر الجزيـرة الدّاكنـةِ المصحوبـةِ بجزيرتهـا الصغـيرة، لكأنّهـا أنثـى حيـوان بحـريّ عمـلاقٍ جنحـت بهـا العاصفةُ مـع صغيرها.

تنامى في تلك اللّحظةِ الشعور بقربِ الكارثةِ. كانت الرّيح التي تصطدم بجدار البركان تزوبع في الخليج مقتلعةً الزّبد من الأمواج المندفعة في الاتجاه المعاكس، فيما الغيوم السود تعبر بسرعةٍ فائقةٍ نحو الجنوب، فبدا وكأنّ الأرض كلّها تميل إلى الأمام. كان الزّورقان قد عادا من الشاطئ بعد أن أنزلا أوّل المهاجرين. فقد ثُبِّت حبلٌ على الشاطئ بعمودٍ ورُبطَ بزورقٍ إنقاذٍ ومُدَّ حتّى سطح المركب الشراعيّ. ولم يسعفني الوقتُ حتّى لأتساءل عن جدوى هذا الإجراء، إذ سرعان ما نقل مكّوكٌ مرفوعٌ على بَكَرةٍ حمولتَه الأولى فوق الأمواج إلى الشّاطئ.

والغريب أنّ مشهد هذا الحبل الممتدّ بين السّفينة والجزيرة بدا مطمئناً للمسافرين، وكانوا في تلك اللّحظة يتزاحمون حول الباب للوصول إلى المنصّة التي ستُنزِلهم إلى الزّورقَين. النساء والأطفال أوّلاً، ثمّ الرجال. اختلط مسافرو الدّرجة الأولى بالمهاجرين، وفي خضمّ العاصفة لم يعد بإمكان المرء تمييز الأجناس ولا الامتيازات. ولا بدّ أنّ الجميع قد تركوا جُلّ أمتعتهم على متن السّفينة لافا، إذ لم يتوقّعوا أنْ يمكثوا هنا أكثر من بضعة أيام. حتّى إنّ السيّد آلار، أمام قلق الرّكاب، قد تحدّث- دون أنْ يرفع صوته- عن بضع ساعاتٍ من الحجر الصحيّ في جزيرة بلات قبل الإعداد لنقلهم إلى لابوانت أو كانونييه في موريشيوس. ومع ذلك، فقد حمل قلّةٌ منهم مستلزماتهم، فأخذ السيّد ميتكالف وزوجته حقيبتَيهما الجلديّتَين المحتويتَين على أدوات عملهما بصفتهما عالمَي نباتيّات، والمهاجرون صررَ ملابسهم الكتّان وأكياس مؤنهم.

بدأَ الزّورقان حركتهما المكوكيّة بين المركب الشراعيّ والساحل. واضطّر المهاجرون الذين قرّروا أخذ جميع ممتلكاتهم إلى بلات خوفاً من

السّرقة إلى العدول عن قرارهم لمّا رأوا المخاطر التي تنتظرهم، إذ كان على الزّورقين أنْ يبقيا على بعدِ عشرة أمتارٍ على الأقلّ من الشاطئ، كيلا ينقلبا بفعل الأمواج المتلاطمة، فوجبَ على الرّكاب أنْ يقفزوا في البحر بين هاويَتين ويتسلّقوا الحبل المكوكيّ حتّى البلاطات البازلتيّة. وكادَ بعض المهاجرين أن يهلكوا غرقاً وهم يتشبّثون بصررهم، فكان على أحد البحّارة أنْ ينزعهم بالقوّة عن أمتعتهم حينَ رأى الأمواج تجرّهم إلى عرض البحر.

وسرعان ما صار معظم الرّكاب على اليابسة. كان جاك وسوزان آخر الواصلين. وكان جاك يحمل حقيبته الطبيّة وحقيبة سوزان، أمّا أنا فلم أكن أحمل سوى كرّاسٍ وقلم الرصاص الذي ورثته عن إلياسان، وديوان لونغفيلو الذي عهِدت سوزان به إليّ. غمرَنا المطرُ وعجاجُ البحر، والتصقَت ملابسنا بجلودنا كأنّها ملاءاتٌ مبلّلة. لكنّنا لمّا سبحنا مع الأمواج إلى الشاطئ، بدا لنا البحرُ لطيفاً دافئاً، ودفعتنا موجةٌ قويّةٌ إلى الرّصيف البازلتيّ. فتذكّرنا في تلك اللّحظة البحرَ في هاستينغز حيث استحمَمنا الصّيف الماضي.

أضاءت فسحةٌ من الشمسِ بينَ الغيوم خليج باليساد فجأة. كان هائلاً مأساويّاً، ملتفّاً حول سفح البركان، تحدّه نباتاتٌ خضراء داكنةٌ تحميه من الرّيح. وكان رجالٌ يتقدّمون من عمق الخليج، هنودٌ كانوا قد سكنوا الجزيرة من قبل. ربّما كانوا يراقبون مشهد نزول الرّكاب، محتمين من المطر بسعف النّخيل. ظلّوا في منتصف الطريق، فيما كان المسافرون الذين اجتازوا المحنة حالاً يسيرون في اتّجاههم. كانت سوزان تقف ساكنةً على الشاطئ قبالة البحر، تراقب طيف السفينة

الشراعيّة وهو يمضي بعيداً، ومدخنتُه تنفث سحابةً من الدخان وسْط العواصف. وضع جاك ذراعه حول كتفَيها: «تعاليْ، دعينا لا نبقى هنا». تبعَتْه على مضَض، وثوبُها الطويل المبتلّ بمياه البحر ملتصقٌ بساقَيها وصدرها، وكان وجهها متوتّراً من الانفعال. فقد انتظَرَت طويلاً هذه الرّحلة، وعودةَ جاك إلى موريشيوس، إلى منزل آنّا، ولم تتخيّل أنّ هنالَك ما هو أسوأ من هذا الانتظار: جنوح السفينة هذا على جزيرة صغيرة ضربتها الرّياح والأمطار. كانت ترتجف. «تعاليْ، دعينا نلتجئ إلى الدّاخل». اتّكأت علينا وسرنا نحو قرية العمّال[1].

وجد معظم المسافرين ملاذاً في كوخ كبيرٍ مسقوفٍ بسعف النّخيل أعلى الخليج، قريباً من المزارع. وعلى مبعدةٍ، كان هنالك صفٌّ من بيوتٍ أخرى على طول شارع مركزيّ. وكانت أعمدة دخانٍ تتصاعد من فوق أسطحها. وعلى الشاطئ انهمكَ المهاجرون في نقلِ المؤن الغذائيّة التي أُنزلت خلال عمليّة العبور المكوكيّة، وحِفْظِ الصّرر والحقائب تحت سقفٍ من ورق الشجر. حمَلَت الأمواج براميل النّفط إلى الرّصيف البازلتي، ثمّ دفعها الهنود إلى الشاطئ. وقد تمّت العمليّة بأكملها تحت إشراف رجلٍ غريب، طويل القامة نحيلٍ، يرتدي عباءةً طويلة ويعتمر عمامةً لونها أزرق شاحب، متكئ على عصاً أطول منه. كانت هذه هي المرّة الأولى التي أرى فيها السّردار الشّيخ حسين. وقد جرت عمليّة إنزال الركّاب بقدرٍ من الصّرامةِ أثار ارتيابي. إذ لم يكن المقصود التوقّف لبضع ساعات، مثلما أوحى لنا السيّد آلار، بل الإعداد لإقامةٍ لا يمكن لأحدٍ أنْ يتنبّأ بنهايتها.

---

(1) كتب المؤلّف: Coolies، وهي كلمةٌ من أصلٍ صينيّ، وتسميةٌ كانت تُطلقُ في القرن التّاسع عشر على العمّال الصينيّين والهنود الذين كانوا يُجلَبون للعمل في المستعمرات الأوروبيّة.

لن أنسى ما حييت خطواتنا الأولى على جزيرة بلات، ونحن نجتازُ خليج باليساد نحو مخيّم العمّال الآسيويّين. أقبل اللّيل، وقد عجّلت حلولَه الغيومُ التي حجبت آخر خيوطِ الشمس. يقع خليج باليساد في مواجهة الغرب، فكان في وسعي أنْ أرى السّماء متوهّجةً بين شقوق الغيم، والبحرَ بلونِ الحمم الملتهبةِ، متلألئاً هادراً. همس جاك قائلاً: «إنّه مشهد نهاية العالم».

كان المهاجرون قد وصلوا إلى القرية واستقرّوا في الأكواخ. جاء السّردار لمقابلتنا. وكان برفقته مُسنّ هنديّ اسمه ماري. تظاهر السّردار بأنّه لا يتحدّث إلّا الإنجليزيّة (على الأقلّ هذا ما قاله جوليوس فيران على انفراد) وأوضح لنا عبرَ ماري أنّ الوقتَ قد تأخّر، فلن نستطيع الاستقرار في الحيّ الأوروبّي من الكرنتينة، على الطرف الآخر من الجزيرة. وأرانا الكوخ الذي يُفترَض أن نقضيَ فيه اللّيل، كوخاً خشبيّاً بسيطاً على حافة مخيّم العمّال. تتألف قرية العمّال من اثني عشر كوخاً مشتركاً، يفصل بينها شارع رمليّ، ويبعد كلّ منها عن الآخر ما يقارب ثلاثة أمتار. يسكن الأزواج والنساء الوحيدات الأكواخ الأولى. أمّا الرجال العزّاب فيشغلون الأكواخ الواقعة في نهاية القرية.

وفيما وراء ذلك، صوب الطّرف الآخر من الخليج، تبدأ مساكن المنبوذين.

كنا مُنهكين. ارتمى جاك وسوزان على الأرض، وأسندا رأسيهما إلى حقائبهما المبلّلة بمياه البحر، من دون حتّى أنْ يتكلّفا عناء تجفيف محتوياتها. جلبَ المسنّ ماري الطعام. ورفض معظم الرّكاب تناول

الأرزّ المجفّف الممزوج بمرق السّمك. أمّا أنا، فقد أكلت بشهيّة.

وعلى الرغم من استمرار العاصفة، فقد كان الهواء في كوخنا خانقاً وثقيلاً ورطباً، كما في عنبر سفينة. ترك الشيخ ماري قبل مغادرته مصباح زيتٍ شقَّ ضوؤه العتمة، وأنار وجوه من هم في الكوخ على نحوٍ بديع. دخلنا الكوخ فإذا برجلٍ مستلقٍ على حصيرته، عدّل قليلاً جلسته متكئاً على مرفقيه، وقد أضاء فانوسُ الزّيت وجهه الهزيل وعينيه البرّاقتين. ولربّما تحدّث بصوت أجشّ عذبٍ بلغته ليسألني سؤالاً. ثمّ استلقى ثانيةً.

تناوبنا طيلة اللّيل على حراسة الحقائب. فقد خشي جاك أن تُسرق أدواته. وكان علينا مرافقة سوزان إلى المراحيض، في أعلى المخيّم. وهي كوخٌ خشبيٌّ طويلٌ حُفِرتْ في أرضه حفرٌ بسيطة، تنبعث منها رائحةٌ قاتلة، فقرّرنا أنّ الحقولَ المجاورة ستكون أنسب لنا.

انتصفَ اللّيل، فتوقّفت الرّيح واشتدّ الحرّ حتّى أنّ النّوم جافانا. أصيب جاك بعياءٍ جرّاء استنشاقه الرائحة المنبعثة من الأرض والجدران، ورائحة السّخام. فحملْنا الأكياس إلى الباب كي ننام في مجرى الهواء، دون أنْ نصدر أيّة ضجّة (فسلطة السّردار قد أثقلت علينا سلفاً) وفي لحظاتٍ ما، بلّلتنا زخاتٌ من المطر، لكنّها كانت منعشة. ثمّ إنّ الرّياح تكفّلت بصدّ البعوض الذي كان قد بدأ يلسعنا في قلب الكوخ. نمنا هناك، متلاصقين ثلاثتَنا تحت شال سوزان الكبير الذي اتّخذناه ملاءةً، مصغينَ إلى حفيف الرّيح في الأجمة وهدير الأمواج المتواصل على شاطئ البازلت.

وقبل أن أغفو، رأيت طيف جاك في وهج المصباح الخافت المعلّق قرب الباب، كان متّكئاً على حقيبته، مولياً وجهه إلى الخارج،

كأنّـه يحـاول أنْ يـرى السـماء. وسـمعتُ الكلـمات التـي قالهـا لسـوزان، كمـن يهدهـد طفلـةً، كلـماتٍ عبثيّـة: «غـداً سـترَيْن، سـيأتون لاصطحابنـا، سـيحملنا القـارب إلى موريشـيوس ونكـون في عزبـة آنّـا مـع حلـول اللّيـل». ربّـما كان يحلـمُ بصـوتٍ عـالٍ. لكـنّ سـوزان لم تُجِـب.

يوميّات عالِم النّبات

صبيحة 28 مايو

خـروجٌ مبكّـرٌ لتفـادي الحَـرّ. أرضٌ قاحلـةٌ وحصويّـةٌ حـول الكرنتينـة، أنــواع مختلفــة مــن العكــرش[1]، كلّهــا واطنــةٌ، مــن فصيلــة النجيليّــات: بعـض أنـواعٍ مـن الثّـام الكبيـر[2] وعِـرق النّجيـل (الثّيـل)، وكلاهمـا يصلـح علَفــاً.

الأرجمـون (الخشـخاش الشّـائك). ونبـاتٌ شـوكيٌّ صادفـتُ أنواعـاً منـه في جزيـرة ماهيـه: الخبّـازة (البنفسـجيّة) التي يسـمّيها السّـود عشـب المكنسـة. وسـيدا رومبيفوليـا، وهـي نوع من عشـب المكنسـة أيضـاً، ولكن بلا أشـواك.

يبــدو هــذا الجانــب مــن الجزيــرة، في أغلبــه، موطنــاً لعشــبة زويســيا الراتنجيّـة، وهـي ذات جـذعٍ قـويّ وأوراقٍ حـادّة الحـوافّ. تسـود في هــذا الجانــب تربــةٌ فقيــرةٌ ورمــالٌ بركانيّــة وحجــرٌ جيــريّ.

في أقـصى نقطـة في الشـمال، قطفـتُ أنواعـاً مـن عشـبة حشيشـة اللّيمـون، وإذخـر مكّـة ذي الرّائحـة النفّـاذة. جمعـتُ حزمـةً كاملـةً مـزوّدة بجُذْيراتهـا لعلمـي بالفائـدة التـي يمكـن أنْ نسـتخلصها منهـا.

(1) عشبةٌ ضارّة من فصيلةِ النجيليّات.

(2) تَذكُر هذه اليوميّات النباتات بأسمائها العلميّة اللّاتينية إضافةً إلى أسمائها الشائعة. وقد اكتفينا في الترجمة العربيّة بالأسماء الشائعة كيلا نثقل النصّ.

كلّ شيءٍ بديعٌ في جزيرة بلات: السّماء والبحر والبركان وتشكّلاتُ الحمم البركانيّة ومياه البحيرة السّاحليّة وطيف جزيرة غابريال الصغيرة. ليست الجزيرة سوى قمّةٍ سوداء واحدةٍ منبثقةٍ من لمعان المحيط، صخرةٍ بسيطة تضربها الأمواج وتقضمها الرياح، طوفٍ عالق أمام خطّ موريشيوس الأخضر. ومع ذلك، فإنّني لم أرَ من قبل مكاناً على هذا القدر من الاتّساع والغموض، كما لو أنّ حدوده لم تكن تنتهي عند الشاطئ، بل تمتدّ، عندنا نحن الذين كنّا كالسّجناء، إلى ما وراء الأفقِ، لتبلغَ عالم الأحلام.

منذ صبيحة اليوم التّالي، مشينا عبر الجزيرة حتّى بلغْنا الأحياء المخصّصة للمسافرين الأوروبّيين، وكان يُطلق على مباني الكرنتينة بشيءٍ من التّفخيم أسماء المشفى، ومنزل المشرف، والمستودع، إلخ. وهي في مجملها نصفُ دزّينة من البيوت مبنيّةٌ من كتل الحمم البركانيّة المدعّمة بالأسمنت. ولمّا وصلنا، وجدنا مكان إقامةٍ لا يقل سوءاً عن أكواخ العمّال في باليساد: كان يخلو من أيّ أثاث، ومصدرُ الإنارةِ فيه ضوء شمعةٍ أو مصباح بونكا[1]، ومراحيضه بدائيّة غزت الأعشاب أرضيّتها. وكانت المياه الوحيدة المتاحة تأتي من صهريج متصدّع يعجُّ بالصراصير ويرقات البعوض. غيرَ أنّنا هنا نحظى على الأقلّ بالتعرّض للهواء، وبعزلةِ السّاحل الشرقيّ، وهو ما بدا لي ولجاك، بعد اللّيلة الخانقة في باليساد، رفاهيّةً فائقة. كنا ستّةً في المأوى الرئيسيّ. فإلى جانبنا نحن الثلاثة، أنا وجاك وسوزان، كان هناك الزّوجان ميتكالف، وهما

(1) كلمةٌ هنديّة تُطلق على نوعٍ من المراوح والمصابيح المصنوعة من سعف النخيل أو شرائح الخيزران أو الرّتان المجدولة، وتعلّق في السقوف أو على الحيطان. وقد شاع استخدامها في الهند أيّام الاستعمار البريطانيّ.

أستاذان في كليّة مجدّدي العماد في بو باسان، ومفتّشُ بريدٍ سابقٌ يُدعى بارتولي، وجوليوس فيران العصيّ على الوصف. وكان رجلان قد أُنزلا قبلنا ونُقلا مباشرةً إلى مبنى المستوصف بالقرب من رصيف الميناء، قَبالة جزيرة غابريال. إنّهما أحد المسافرين، السيّد تورنوا، ورجلٌ من أفراد طاقم السفينة يدعى نيكولا، وكلاهما حُمِل من زنجبار على نحوٍ غير شرعيّ، وكانا في حالةٍ صحّيةٍ متردّية حتّى أنّ السلطات الصّحية رفضت منح القائد بوالو الإذن بإنزالهما من المركب في بور لويس. وقد أخبرني جاك الذي رأى البحّار نيكولا عن قرب، أنّه كان يعاني من أعراض الجدري المتكدّس جميعها.

أمّا جوليوس فيران فهو النّوع السيّئ بعيْنه من رفقاء السفر، ذلك الذي يتحاشاه المرء. كنت أصادفه كلّ يومٍ على ظهر السّفينة **لافا** منذ مغادرتنا مرسيليا. وهو رجلٌ في الخمسينً من عمره، وسيمٌ مزهوٌّ بنفسه إلى حدّ ما، ذو شاربٍ كثٍّ وشَعرٍ أسود قصير، له هيئة ضابط صفٍّ في الحرس الوطنيّ، أو سائسِ خيول. انتشرت سمعته السيّئة على القارب وأضفَت عليه طابعاً كاريكاتورياً، فهو مقامرٌ وزير نساء، متعجرفٌ ومحتال، ويبدو أنّه كان يتعجّل مغادرة فرنسا ليتابع بعض الصّفقات التجاريّة الفاسدة. كان يدّعي أنّه تاجر، وأنّه في طريقه إلى بور لويس لينشئ فيها شركةً لاستيراد النّبيذ الفرنسيّ. وقد كَره جاك على الفور حبّه للمظاهر ولباقته المفرطة مع النّساء، وطريقته في تقبيل يد سوزان. ولقبّه بالسيّد فيران دو فيرو[1] (فيران الفاسد). وقد قضتْ صلتُه ببارتولي- الرّجل الذي يُشتبَه بأنّه جاسوس البريد

(1) Véreux: تعني الشخص الفاسد أو المريب. وتعني أيضاً الثمرة التي أفسدها الدّود.

الـذي أبلـغ السّـلطات البريطانيّـة عـن توقّفنـا في زنجبـار- عـلى أيّ فرصـةٍ لاسـتلطافه.

ليلـةَ أمـس، وفيـما كان جـاك يحـاول طمأنـة سـوزان، سـمعتُ فـيران الفاسـد يضحـك سـاخراً. ولـمّـا رآني أراقبـه، هـزّ كتفَيـه وذهـب للاسـتلقاء في عمـق الكـوخ، فتبـدّى وجهـه الأبيـض الـذي خطّـه الشّـارب، في ضـوء مصبـاح البونـكا، خاليـاً مـن أيّ تعبـير، لكـنّ عينَيـه الكثـيرتَي الحركـة كانتـا تبرقـان بنظـرةٍ شرّيـرة. بقيـتُ مسـتيقظاً بعـضَ الوقـتِ أراقبـه. ثـمّ شـعرتُ باهتـزازٍ متواصـلٍ في الأرض لم أسـتطع تحديـد مصـدره، بطـيءٍ وعميـقٍ حينـاً، وحـادٍّ يخـترق أذني حينـاً آخـر. سـألتُ جـاك: «أتسـمع؟». رفـعَ رأسـه محـاولاً تبـيُّنَ وجهـي في العتمـة. «هـذا الضجيـج! إنّـه أقـرب إلى «تـشي تـشي، أو بالأحـرى «تشـا تشـا..» فهـزّ كتفيَـه. ثـمّ داهمنـي النّعـاس مثـل تيّـارٍ عـاتٍ محـا كلّ النّظـرات وأخمـد كلّ ضوضـاء.

كان الـسّردار قـد أودع مخزونـاً مـن الأرزّ والأسـماك المجفّفـة والشـحوم والزيّـت والـكاز في مسـتودع الكرنتينـة. وقـد وَعَدَنـا باسـتقدام طـاهٍ في المسـاء، لكـنّ الطّقـس السـيّئ اسـتمرّ طـوال اليـوم ولم يحـضر أحـدٌ. أعطانـا مـاري، المسـنُّ الهنـديّ السـاكن جـوار المسـتوصف، ذو الوجـه الـذي نقّـره الجـدري والنظـرةِ الأشـبه بنظـرةِ ضريـر، قِدرَيـن شـديدتَيّ السـواد، وكان علينـا أن نتعلّـم كيـف نتدبّـر أمرنـا، فأوكِلـتْ إليّ مهمّـة جمـع الحَطـب مـن الأجمـات المحيطـة بالكرنتينـة، واسـتخدمنا إحـدى القِدرَيـن لطهـي الأرزّ والسـمك، والأخـرى لغـلي مـاء الصهريـج الملـوّث. فقـد قرّرنـا الاسـتغناء عـن المسـاعدة التـي وعدَنـا بهـا الـسّردار.

أعـدّ جـون وسـارة ميتكالـف كلَّ شيءٍ بحماسـة البروتسـتانت، فنظّفـا البيـت، وكَنسـا، واقتلعـا الأعشـاب الضـارة، وركّبـا مصراعـاً عـلى النافـذة الوحيـدة وسـتارةً عـلى البـاب. ثـمّ قـرآ مقطعـاً مـن الكتـاب المقـدّس بـلا أيّـةِ طقـوسٍ احتفاليّـة، ذلـك أنّ يومنـا الأول عـلى الجزيـرة كان يـومَ سـبت. أمضيْـتُ هـذا اليـوم في استكشـاف المناطـق المحيطـة بالحجـر الصحـيّ برفقـةِ جـون، بحثـاً عـن التّـوت الـبريّ والنباتـات الصّالحـة لـلأكل. جـون ميتكالـف مشـغوفٌ بعلـم النّبـات. وقـد جلـب معـه، في حقيبتـه، كلّ معدّاتـه: قـارورات الفورمالـين وملاقـط ومقصّـات، ومفكّـرةً كبـيرةً لا تفارقـه أبـداً، حيـث يـدوّن اكتشـافاته. ذهبنـا مـع جـاك وسـوزان لجلـب المـاء مـن الصّهريـج في دلاءٍ صُنعـت كيفـما اتّفـق مـن علـب صفيـحٍ أبيـض، يخترقهـا غصـنٌ يـؤدّي عمـلَ المقبـض.

ثـمّ مضَيْنـا بعـد الظهـيرة إلى الشـاطئ، رغـم هطـول المطـر، كـي نترقّـبَ عـودة المركـب الشراعـيّ. كانـت ميـاه البحـر هائجـةً مُخضـرّة، تعبرهـا أمـواجٌ أشـدّ عنفـاً مـن تلـك التـي صادفناهـا عنـد وصولنـا. وكانـت الريـاح ترشّـنا بعجـاج البحـر مـن فـوق البحـيرة. وبـدت الغيـوم كأنّهـا تنبعـث مـن الأفـق مثـل دخـان حريـقٍ عمـلاق. ثـمّ اجتاحنـا المطـر ممتزجـاً بميـاه البحـر في دفقـاتٍ جليديّـة، فعدنـا أدراجنـا إلى الكرنتينـة، مرتعشـين مـن الـبرد. حاولـتُ أنْ أشـعل نـاراً، لكـنّ الرّيـاح دفعـت الدخـان إلى داخـل المنـزل فكدنـا نختنـق بـه، فتحسـرتُ عـلى حـرّ الكـوخ حيـث قضينـا ليلتنـا الأولى في قريـة العـمّال.

لم تكـن قـد مضـت سـوى سـاعاتٍ قليلـةٍ عـلى نزولنـا جزيـرةَ بـلات، لكنّهـا بـدت لي أيّامـاً، لا بـل أسـابيع. كانـت سـاعاتٍ طويلـةً جـدّاً، كلّ

لحظـة فيهـا تختلـف عـن الأخـرى، وقـد أمضيناهـا مضطّربـين بحثـاً عـن مـكان نسـتقرّ فيـه، كأنّنـا لا نـزال في خضـمّ العواصـف والأمطـار. سـاعات مـن الصّمـت في انتظـار صـوت صافـرة المركـب الشراعـيّ الـذي سـيعلن لحظـةَ اندفاعنـا نحـو خليـج باليسـاد كـي نسـتعدّ للرّحيـل إلى موريشـيوس. صحـا الجـوّ قليـلاً في نهايـة النّهـار، فركضـتُ إلى أقـصى نقطـةٍ في الجنـوب آخـر الشـاطئ، لأشـاهد خـطّ موريشـيوس الـذي لاح لثانيـةٍ مـا بـين الغيـوم، شريطـاً أبيـض عـلى طـول الشّـعاب المرجانيّـة، ولألمـح كذلـك طيْـف الجبـال العاليـة. ثـمّ أطبـقَ كلّ شيء مـن جديـد وحـلّ اللّيـل.

وعـلى مـرّ الأيـام القليلـة التاليـة، فقـدْتُ الاهتـمام تدريجيّـاً بخـطّ الأفـق. كنـت في الصّبـاح، بعـد أن أشرب قدحـاً مـن الشـاي المـرّ المُسـخّن عـلى الموْقـد، أسـلك درب الشـاطئ، وأسـير جنوبـاً في اتّجـاه الـبركان. ليـسَ الطريـق سـالكاً بـما يكفـي، وأغلـب الظّـن أنّـه مهجـورٌ منـذ أعـوام، ويضيع أثـره في بعـض المواضـع في الغابـة، فيكـون عليـك أن تقفـز مـن صخـرةٍ إلى أخـرى محـاصراً بـين الشّـجيرات الشّـائكة مـن جانـب، والأمـواج المتكسّـرة عـلى البازلـت مـن الجانـب الآخـر. فـإذا مـا ازدادت وعـورةُ الصخـور، مضيـتُ أفتّـشَ عـن ممـرّ لي بـين الحشـائش الحـادّة كالسـكين.

بـدّدَت الرّيـح الغيـمَ، وللمـرّة الأولى أرى الشّـمس تتوهّـجُ في حفـرةٍ مـن السّـماء الشـديدة الزّرقـة. فتذكّـرتُ كـم كنـت أتـوق إلى هـذا، إلى الشّـمس والبحـر، أثنـاء شـتاءات رويْ ماليـزون، هنالـك حيـث كانـت النوافـذ في قاعـةِ النـزل المشـتركةِ مقسّـمةً إلى مسـتطيلاتٍ رماديّـةٍ خدّشـتها غصـون أشـجار الكسـتناء المتيبّسـة.

وتذكّرتُ كيف سمعت البحر ذات مساءٍ. حدث ذلك بُعيدَ وفاة أبي. كان هدير البحر صاخباً ملموساً حتّى أنّه أيقظني. عبرت المهجع بقميصي فقط، ومشيت حافياً على الحجَر البارد. علا الهدير في داخلي، واشتدّ صخبُه حتّى أنّني وضعت يدَيّ على أذنَيّ. ربّما كنت أخشى أن يتلاشى الهدير فيتركني وحيداً في عنبر النوم، مثل نَفَسٍ توقّف فجأةً. مشيت إلى الباب، وضغطت على يد المقبض ببطءٍ شديدٍ، مغمضاً عينَيّ لأصيخ السّمع. انفتح الباب على زوبعةٍ باردة، خليطٍ من عزيف الرّيح وهدير البحر وصرخات الطيور، ووقفت بلا حراكٍ في مجرى الهواء أمام الفناء المتجمّد، فإذا بصبيّ يقبل نحوي، ويشدّني إلى الوراء. اسمه فليشو، أتذكّر وجهه ونظرته المذعورة. قال: «ماذا تفعل؟ ماذا دهاك؟» فيما أنا أردّد قائلاً: «أصْغ، أصْغ!» أغلَقَ فليشو الباب، وفجأةً توقّف الصخب، وغاب زمناً طويلاً، إلى تلك اللّيلة التي كان جاك وسوزان يستلقيان فيها أمام الكوخ في باليساد.

لون البحر عند سفح البركان أزرق غامق، مثلما هو في أعالي البحار، زرقةً تصيبك بالدّوار. وهذا هو المكان الذي أُحبّ أن آتيَ إليه كلّ صباح عند الفجر، لكي أجلسَ وأتأمّل البحر، متذرّعاً أمام سوزان بأنّني أراقب وصول قارب العبور. وفي الواقع فإنّني لا آتي إلى هنا إلّا لكي أتأمّل، وأصغيَ إلى الهدير الذي أيقظني حين كنت في الثالثة عشرة من عمري، بُعيد وفاة أبي.

تحلّقُ الطيور البحريّة على طول القناة التي تفصل جزيرة بلات عن ابنتها جزيرة غابريال. وتصبُّ مياه البحيرة المتشكّلةِ بينهما في البحر، متّبعة

حركـة المـدّ والجـزر، أو بالعكـس من ذلك، فـإنّ أمـواج البحر تدفـع إليها الماء عـبر الممـرّ الضيّـق. هنـا كان أنْ رأيت للمـرّة الأولى طيور رئيس البحـر[1] تحلّقُ بمشـقّةٍ ضدّ الريـح، مجرجـرةً خلفها راياتهـا الحمر.

عـدت حـينَ كانـت الشّـمس عـلى وشـك أنْ تلامـس الأفـق، والسـماءُ مليئـةً بالبقـع الحمـراء. أردت أنْ أصعـد شـاقّاً دربيَ بـين الشّـجيرات صـوب المنـارة كـي أرى الطّـرف الآخـر مـن الجزيـرة، حيـث سـاحل باليسـاد وقريـة العـمّال. ووصلـتُ إلى شـفَةَ الـبركان، ظمـآنَ تحرّقنـي آخـر خيـوطِ الشّـمس. كان البحـر أشـبه بحمـم بركانيّـةٍ هائلـة متوهّجـة. أجبرتنـي الرّيـاح القويّـة عـلى التشـبّث بالحجـارة، ومشـيت عـلى حافـة الـبركان حتّـى المنـارة، وهـي بـرجٌ صغـيرٌ مبنـيٌّ مـن كتـل الحمـم البركانيّـة، طُليـت بالجـير قديـماً، والجـزءُ العلـويّ شـبهُ المنهـار منهـا يحمـل بقايـا غرفـة الإنـارة، حيـث يُفـترضُ أنْ يُشـعَلَ مصبـاح الـكاز كلّ مسـاء. ولقـد أتلفتْهـا الأعاصـير، ولا يبـدو أن أحـداً قـد جشّـم نفسـه عنـاء إصلاحهـا. فـلا بـدّ أنّ منـارةَ لا بوانـت أو كانونييـه كافيـةٌ لتحذيـر البحّـارة مـن الأخطـار في هـذه المناطـق. ولا أعـرف لمـاذا أخـذتُ أحلـم منـذ ذلـك المسـاء بـأن أُصلـح الغرفـة، وأعيـدَ الضّـوء إلى المنـارة. ربّـما رغبـتُ فقـط في أنْ أرى ضوءهـا مـن عمـق بيـت الكرنتينـة، وأتهجّـى شـعاعها عـلى صفحـةِ الغيـم.

واصلـتُ السـيرَ نحـو الحافـة الأخـرى مـن فوّهـة الـبركان، فألفيتُنـي مُطـلّاً عـلى خليـج باليسـاد مبـاشرةً.

كنّـا قـد نزلنـا إلى الجزيـرة في مثـل هـذا الوقـت تقريبـاً، وقـد مـضى عـلى ذلـك عـدّة أيّـام (ثلاثـة، أو ربّـما أربعـة). وفيـما أنـا جالـسٌ عـلى حافـة

(1) نوعٌ من الطيور البحريّة له ذيلٌ أحمرُ طويل، ينتمي إلى فصيلة الطيور الاستوائيّة.

الصّخرة البركانيّة، رأيت الجزيرة كما تبدّت لنا من متن قارب العبور في خضمّ العاصفة وعنف الأمواج: جرف البركان الأسود، والشريط الطويل من الأرض الذي تنمو أشجار جوز الهند على امتداده وصولاً إلى الطرف الشمالي، مُنتهياً بصخرة بيجونييه (بيجن هاوس).

نظرتُ إلى الشّاطئ حيث وطِئت أقدامُنا، وإلى ألواح البازلت الكبيرة التي كانت الأمواج تتكّسر عليها. ثمّ عرّجت بنظري عالياً صوب رَحْبة الغابة حيث بلدة العمّال والدّرب الأبيض الطويل الذي يسلكه المهاجرون. ثمّ إلى الأعلى، ناحيةَ المراحيض والكوخ الذي قضينا فيه ليلتنا الأولى. أحسسنا آنذاك وكأنّنا قد وطئنا مخيّماً للنّاجين من غرق سفينة: بضعة أخصاصٍ من أوراق الشجر في زاوية جزيرة بريّة، حيث منبوذون بائسون ما زالوا على قيد الحياة. قال فيران: «لا تذهبوا إلى هناك، وإلّا عرّضتم أنفسكم للهجوم أو لسرقة أموالكم أو ساعات أيديكم أو حتّى ملابسكم». لاحت على وجهَي الزوجَين ميتكالف علامات الشّك، أمّا سوزان فالتصقت بجاك خوفاً، وبدت مباني الكرنتينة بِكُتلتها البازلتية الكبيرة وكُواها الضيّقة كأنّها حصونٌ بُنيَت لمقاومة هجمات الهنود. يختلف الجوّ في باليساد عمّا هو في الكرنتينة. فالرّيح في حمى البركان هادئةٌ، ولا يُسمع صوتٌ لعاصفة.

صرتُ، كلّما سنحت لي فرصةٌ، أذهب لأتأمّل قرية العمّال. وقد بدأتُ أراها بنظرةٍ مختلفة: الأكواخ كبيرةٌ ومتقنة البناء، سُقوفها من أوراق الشجر المجدولة التي لا بدّ أنّها تُخفخف مع الرّيح، وتصلح كغطاءٍ واقٍ من المطر والشمس. ثمّ هنالك تلك الحافة أعلى الأبواب الأماميّة حيث تستظلُّ النساء والأطفال عند الغسق، أيْ في مثل هذا

الوقت، فيثرثرون ويلهون. الشوارع نظيفةٌ ومستوية، تبيّضها الرّمال المرجانيّة. وقواعد أعمدة البيوت مبيّضة بالجير. ثمّة ستائر على كلّ نافذةٍ، وأزهارٌ على طول الجدران. في تلك اللّحظةِ، أعلنت صافرة السّردار نهاية نهار العمل، فعجّ الشارع بالناس أمام كلّ بيت؛ رجالٌ ونساء يتولّون الأعمال اليوميّة من كنسٍ وتنظيف، ومزيّنٌ يحلق لصبيٍّ صغيرٍ أمام أحد الأكواخ المخصّصةِ للعزّاب. ومن مكاني أستطيع أن أشتمّ رائحة الأدخنة المتصاعدة من المطابخ الخارجيّة، الطيّبةَ جدّاً والخفيفة، رائحة الخبز والكاري والبقدونس التي تنتشر في المحيط ولا تبدّدها العواصف. النساء بأثواب السّاري يتحلّقن حول النيران، فتبلغني أصواتهنّ وضحكاتهن، وأسمع أيضاً أصوات حيواناتٍ، وصِبيةً يتصايحون، وديكاً يطلق صياحه الحادّ. وهذا كلّه بديعٌ مذهلٌ، ولا أطيق فراقه.

حلّ اللّيل، فأوْمضَت المصابيح من قلب البيوت، وصولاً إلى الطّرف الآخر من الخليج حيث قرية المنبوذين. وتناهت إليّ من بعيدٍ أصوات موسيقى وتراتيل وصلوات، وتهويدة. توهّجَت آخر النيران، وصعَدت رائحة خشب الصندل إلى كبد السماء. أتذكّر ما كان يقوله لي جاك عن الأمسيات الطويلة في المدينة[1]، بعد الانتهاء من قطع القصب، حيث الأغاني حول النار، ورقص الفتيات. أحسسْت أنّني كنت أحمل هذا كلّه في داخلي، وها أنا أخيراً قد عثرت عليه.

برفقة ل.، عمّقنا استكشافنا في السّاحل الغربيّ (قرب المقبرة القديمة).

---

(1) منطقةٌ في موريشيوس سُمّيت على اسم المدينة المنوّرة.

جمعتُ على الشاطئ عدّة عيّنات جميلةٍ من بلسم جزيرة بلات الشهير: الشّوزم، رؤوسٌ كبيرة وطويلة، 30-40 زهرة في كلّ رأس، خاصة الشوّزم البلسميّ المفضّل، وهو علاجٌ للحروق والالتهابات والجمرة الخبيثة واللّسعات واللّدغات السّامة، إلخ. أوراقٌ بيضاويّةٌ كثيرة العروق، هذا النّوع المنزوع الأعناق عمليّاً. مجموعةٌ متنوّعةٌ تستوطن في بوربون وسيشيل. ثمّة الكثير منها على هذا المنحدر، وقد عاينْتُ أكثر من ستّين نبتةً في غضون ساعاتٍ قليلة. أمّا نوع البلقاء الخماسيّة العروق، فلا وجود له على ما يبدو.

إيقـاع الحيـاة في باليسـاد مضبـوطٌ عـلى صافـرةِ الـسّردار. كنت قد نسـيت هـذا أيضـاً. كان جـاك يحدّثني دومـاً عن المدينـة. وقد وصـف لي ذات يوم، فيما مـضى، ذلـك الصّـوت البعيـد جـدّاً مثـل ضوضـاءٍ خافتة عنـد الفجـر. كانت تتسـلّل إليـه في غفوتـه كلّ صبـاح الصافـرةُ الصاخبـة التـي تنـادي العـمّال في الحقـول، فتبـدأ الحيـاة، ويبـدأ معها نبـاح الـكلاب، وتصايـح الأطفال.

ينطلـق النّـداء الأوّل قبـل الفجـر مـع انحسـار اللّيـل، فتئـنّ الرّيـح في أكـواخ باليسـاد المشـتركة المسـقوفة بسـعف النخيـل. وقـد اخترقـت آذانَنـا الصّافـرةُ منـذ صبـاحِ اليـوم الأوّل، صـوتٌ حـادّ، وضوضـاء بـاردةٌ وشرّيـرة تتصاعـد مدوّمـةً فتخـترق الأحشـاء وتصيبنـا بقشـعريرة. كانـت العتمـة مخيّمـةً بعـد، استيقظت سـوزان عـلى الضّجيـج فأمسـكها جـاك مـن ذراعها: «لا عليـكِ، إنّهـا إشـارة الـسّردار. الآن هـو وقـت اسـتيقاظ النسـاء». غـير أنّـه لم يقـلْ «الآن»، وإنّـما «هالسّـاعة» عـلى الطّريقـة الكريوليّـة[1]. لقـد عـادت إليـه الكلمـة مـن دون أنْ يعـيَ ذلـك.

انتظرْنـا في غبـش العتمـة. كانـت المصابيـح مطفـأة. ولم تمـضِ نصـف سـاعة حتّـى سـمعنا صافـرةً ثانيـةً لإيقـاظ الرجـال أطـول وأكثـر إلحاحـاً.

(1) كلمة كريوليّة (créole) تعني المولَّدة. واللّغة الكريوليّة في موريشيوس هي لغة التواصل المشترك، وقد نشأت من خليط لغات تُشَكِلّ الفرنسيّةُ المحكيّة معظم مفرداته، لكنّه يحتوي أيضاً مفرادت من الإنجليزيّة والعديد من اللّغات الأفريقيّة والجنوب-آسيويّة التي كانت منتشرةً في تلك الجزيرة.

تمكّنا من النّهوض والذّهاب إلى الحقل الواقعِ خلف المراحيض المرعبة. كان صباحاً رماديّاً ماطراً، شتائيّاً بحقّ.

على الطّرف الآخر من الجزيرة، حيث الكرنتينة، يمكنني سماع صافرة الفجر. لست معتاداً الأمر، ولا سوزان كذلك. وفي كلّ مرّة نسمعها نفزّ قائمَين، كما لو كانت تقصدنا نحن أيضاً. تعبر الصافرة الكئيبة التلّ والمزارع محمولةً مع الرّيح وممزوجةً بهدير المدّ، وتصل في الرّابعة والنصف، فيخفق قلبي، ويُهيّأ لي أنّي في باليساد أسمع بكاء الأطفال ووقعَ الأقدام الحافية على الدّرب، وأتنشّق رائحة النار التي يغلي فوقها الشاي المرّ، ورائحة الأرزّ المُسخّن العذبة. هنا على الطّرف الآخر من الجزيرة، حيث الكرنتينة، لا نعرف سوى البرد والوحدة، وصرخات طائر البلشون المخطّط في الغروب، وأحياناً صافرة السّردار، أو نداء المؤذّن الذي يبدو آتياً من عالم آخر.

كلَّ صباح، لحظةَ يغادر الرّجال إلى العمل، أكون في مكاني أعلى البركان. تنطلق طوابير العمّال، بعضهم إلى المزارع فوق القرية، وبعضهم إلى سفح البركان لملء أكياس الخيْش بما برز على السطح من عروق الطّلق، وآخرون يجلبون، تحت إشراف متعهّد العمّال، كتلاً بازلتيّةً لبناء سدّ باليساد الذي سيهدمه من جديدٍ الإعصار القادم. يخيّم صمتٌ طويلٌ على الجزيرة فيما يعمل المهاجرون، وإنّني لأحسد هؤلاء الرّجال على عزيمتهم الهادئة وصبرهم. وأمّا النساء فيخرجْنَ مرتدياتٍ أسمالاً خصّصنها للعمل في الحقول، ينحنين على الأرض فيجمعن منها الحجارة السوداء واحداً تلو الآخر، ويكدّسنها في سلالٍ من الخوص، ويفرّغنها

عند أطراف الحقول. ويوماً بعد يوم، تنمو بقعٌ من الأرض الرّمادية وسْط النباتات البريّة، مثل مرضٍ جلديّ لا شفاء منه.

أمسِ، قُبيلَ المغيب، انضمّ جاك وسوزان إليّ أعلى البركان. وبقيَ جوليوس فيران للحظةٍ هو أيضاً. نظر إلى المزارع والسّد، وقال في ازدراء: «النّمل!» وتساءلت سوزان متعجّبة: «ما فائدة هذا العمل؟ ماذا سيفعلون بالطّلق الذي يجمعونه؟ وهذا السّد؟» فجاءها الرّد من فيران: «علينا أن نُشغلهم طوال الوقت! ينبغي ألا يتوقّفوا!» وتحدّث، على ما أظنّ، عن الإنكا الذي أجبر الناس على جمع القمل[1]. لم تكن سوزان تستمع إليه. كانت تحدّق بشيءٍ من الافتتان والذّعر في مخيّم المهاجرين حيث الأطياف البعيدة تحوم في خليج باليساد. تبدو قرية العمّال حين تُشاهد من المرتفع نظيفةً ومرتّبةً مثل قرية النّمل، هذا صحيح. كانت صافرات السّردار ومتعهّد العمل تتجاوب وتتسارع، حادّةً وملحاحةً تارةً، وعميقةً تارة، ممتزجةً بهدير البحر على الشّعاب المرجانيّة. سمعتُ جاك يهمس، مُشيحاً بوجهه حتّى لا تسمع سوزان: «إنّنا سجناء».

من عصرِ 29 مايو

أرجأ سوء الأحوال الجويّة والظروف الصعبة استكشاف السّاحل الجنوبيّ الغربيّ (خليج المقبرة).

---

(1) إشارة إلى أحد ملوك حضارة الإنكا الذي أجبر الناس في المناطق التي غزاها على دفع الجزية، ولّما ادّعى بعضهم أنّهم لا يقدرون على دفعها، أمر بأنْ يقدّمَ كلّ منهم، مرّة كلّ أربعة أشهر، ريشةً كبيرةً مليئة بالقمل الحيّ. وكانت هذه طريقةٌ لجأ إليها كي يدرّبهم على دفع الجزية ويجعلَهم يعتادونها.

يـؤدي التعـرّض للرّيـاح والعواصـف إلى اقتصـار الغطـاء النبـاتيّ قـرب البحـر عـلى النباتـات الزاحفـة والدّيـداء والعكْـرش. وعـلى مشـارف الـبركان: السّراخـس والنجيليّـات.

مسـتعمرات التوتيّـات: التـين المَـرِنُ (نبتـة المطّـاط) والغاريّـة، والحامـول المتسـلّق بـلا نهايـة (اسـم عـلى مسـمّى، فقـد عاينـتُ واحـدةً منهـا بطـول اثنـي عـشر قدمـاً تقريبـاً، زاحفـةً بـين القبـور). وعشـبةُ لحيـة الرّجـل الأكثـر شـيوعاً عـلى طـول الشـاطئ، أو في النّتـوءات المرجانيّـة. وكذلـك: لحيـة الرّجـل مـن نـوع نـوردوس، الهنديّـة الشـماليّة الشـهيرة، ذات الأريـج القـويّ الأقـرب إلى الزّنجبيـل.

في الشـقوق الترابيّـة ينمـو عـددٌ غـير قليـلٍ مـن عيّنـات البرشاوشـان (الزنجبيـل الـبريّ، والبرشاوشـان الشـائك). النـوع الأوّل أكثـر عـدداً، ويمكـن معرفتـه مـن خـلال أوراقـه الكبـيرة المكسـوّة بزغـبٍ إبـريّ إلى الأسـفل. غيـاب الأشـجار يجـبر هـذه النّبتة عـلى الزّحـف في شـقوق الأرض.

وعـلى مبعـدة مـن المنحـدر والخليـج تنتـشر نبتـة الكاذيّـة الجميلـة بـما فيها نـوع البنـدان الـكاذي الـذي يصـل ارتفاعـه في بوربـون إلى 20 قدمـاً، أمّـا هنـا فـلا يتجـاوز السـبعة أقـدام. الـكاذي النافـع هـو الصنـف المسـتخدم، وقـد لاحظـتُ منـذ هبوطـي إلى الجزيـرة أنّـه شـائعٌ جـدّاً عـلى السـاحل الشـماليّ الغـربي. ربّـما زرعـه المهاجـرون لصنـع الحقائـب والنّعـال.

8 يونيو

مـا عـدتُ منـذ الآن أكـترث للوقـت. أسـبوع، اثنـان، أو أكثـر. أقـلّ مـن شـهر ربّـما. وهـذا يكفـي لتعتـاد مـا لا يطـاق. كنـت أذهـب دومـاً إلى قمّـة الـبركان، لا سـيّما في المسـاء، كـي أتـشرّب وشوشـة الأصـواتِ العذبـة الآتيـة مـن قريـة العـمّال، وأستنشـقَ رائحـة الدخـان. عدلْـتُ عـن مـشروع ترميـم غرفـة المنـارة. فـلأيّ شيءٍ؟ مـن الأجـدى إصـلاح السّـد. ولا بـدّ أنّ مـن انحـازوا إلى بنائـه يعلمـون أنّ قـارب الخدمـات الصحيّـة سـوف يرسـو هنـاك يومـاً مـا.

جئـت أرى قريـة باليسـاد كـي أسـتعيد كلّ مـا قالـه لي جـاك قديـماً في شـتاء روي ماليـزون. اللّيـل إذ يهبـط عـلى عزبـة آنّـا في المدينـة، والضوضـاء والرّوائـح ذاتهـا، والشـمس التـي تميـل عـلى القصـب، وصيحـات العـمّال في طريـق عودتهـم، صيحـاتٌ أشـبه بــ«أووو!» والنسـاء بالمعـاول عـلى رؤوسـهنّ، والصرخـات، وضحـكات الأطفـال، ومداخـن مصانـع القصـب الطويلـة وسْـط الضبـاب كأنّهـا قـلاعٌ بربريّـة، وتحطُّم أمـواج البحـر الصفـراء عـلى السّـاحل الأسـود أثنـاء الغـروب، حيـث ينكـسر خـطّ الشّـعاب المرجانيّـة. لم أكـن أعلـم أنّ ذلـك كلّـه كان كامنـاً في أعماقـي، حقيقيّـاً وقويّـاً إلى أقـصى حـدّ، لكأنّنـي عرفتـه مـن قبـلُ فعـلاً، ألمـاً وذكـرى حلـم تسـعدني وتشـقيني في آن. وإنّنـي لَمِـن هـذا صُنِعـت: مـن خُـضرةِ القصـبً المتراميـةِ المائلـةِ إلى الرّمـاديّ، وظهـورِ العـمّال المحنيّـة فوقهـا، وأهـرامِ الحجـارة التـي بنتهـا النسـاء واحـداً تلـو الآخـر بأناملهـنّ التـي جرّحتهـا الحمـم البركانيّـة وعيونهـنّ الملتهبـةِ تحـت الشـمس، ومـن أريـج عصـير القصـب النفّـاذ الزكـيّ الـذي يعبـق في كلّ مـكان، ويضمّـخ أجسـاد النسـاء، ويعلَـقُ في

شعورهنّ ممتزجاً بالعرق. باليساد هي العودة إلى البدايات. ومن هنا تلك الهِزة التي اعترتنا أنا وجاك في فجر اليوم الأوّل على الجزيرة، لحظةَ شقّت صافرةُ السّردار عتمة اللّيل.

في الصّباح، وبعد أن ارتشفتُ الشاي الأسود الذي صُبّ من القِدْر في القدَح المعدنيّ المبعّج، التحقتُ فوراً بجون الذي مضى يجمع الأعشاب على طول الشاطئ، حتّى دون أنْ انتظر الأرُزّ المسخّن الذي تعدّه سوزان وسارة ميتكالف. لم يشعر جون للحظةٍ أنّه سجين. فمنذ نزولنا إلى الجزيرة، شرع يقطف الأوراق والزّهور والبذور، ثمّ يجفّفها بعنايةٍ في الشمس، بعد أنْ يرتّبها في رفوفٍ ويدهنها بالفورمالين مستعيناً بفرشاةٍ صغيرة. كان يبحث بعنادٍ عن عشبة النيلة الزّرقاء. وتشكّلت لديه قناعةٌ بأنّ الموقعَ مثاليٌّ لزراعةِ محاصيل من شأنها أنْ تُحسّنَ ظروف عيش المهاجرين المحجورين صحيّاً.

سِرتُ على طول الشاطئ، قافزاً من صخرة إلى أخرى. هنالك في البعيد تسود بعض الشجيرات والعكْرش. وفي بعض الأماكن، تكون الحشائش طويلةً جدّاً بحيث يختفي فيها المرء حتّى الخصر. والشاطئ على طول الساحل مغطّىً بالأعشاب الزّاحفة ذات الأوراق الكبيرة والزهور الحمراء الصغيرة[1]، التي يسمّيها المسنّ ماري «البطاطس الحلوة»، فيما يسمّيها جون «نجمة الصباح». وهي نَبتةٌ تنكسرُ فيقطرُ منها ببطءٍ حليبٌ شفّافٌ ولزجٌ قليلاً، وحيثما وُجدَتْ، لا يُسمحُ لأيّ شيء غيرها بأنْ ينمو. التقيتُ جون ثانيةً عند الطّرف الشماليّ، قبالة

(1) أي نبتة الدّيداء.

صخـرة لوديامـو[1] بالضبـط. وكنـت أنـا مـن سـميّتُ هـذا الهـرم الـبركانيّ الـذي ينبثـق عاليـاً مـن المحيـط بهـذا الاسـم، لكـنّ جـون أخـبرني أنّ اسـمها الحقيقـيّ حسـب الخريطـة الأميراليـة[2] «بيجِـن هـاوس روك»، أو «بـرج الحـمام»، وبمناسـبة الحـمام فهنالـك بالأخـصّ طيـور زمّـجُ المـاء الكبير والصغـير التـي تحـوّم باسـتمرار حـول الصخـرة وتبيّضهـا بالـذّرق، ويعلـو حفيـف أجنحتهـا وصرخاتهـا العميقـة كاتمـاً هديـر البحـر عـلى الشّـعاب المرجانيّـة. وهنـا، في ضـوء الصبـاح، يتـلألأ عجـاج البحـر. أتخيّـل ثـورة الـبركان التـي ألقـت هـذه الحصـاة العملاقـة وسْـط البحـر منـذ ملايـين السـنين، حـين خرجـت موريشـيوس مـن أعـماق المحيـط.

تركـتُ جـون ميتكالـف يفتّـش عـن عشـبة النّيلـة البريّـة النّـادرة التـي يرغـب في أنْ يطلِـق عليهـا اسـمه، ومضيـت أتأمّـل لوديامـو، لائـذاً مـن الرّيـح إلى حفـرة صخريّـة. كان البحـر يتدفّـق في اندفاعـاتٍ عموديّـةٍ راسـماً قـوس قـزح. بقيـتُ لسـاعاتٍ سـاكناً، أتأمّـل البحـر وحسـب، مصغيـاً لخفقـان المـوج، ومتذوّقـاً الملـح الـذي يرتشـق مـع هبـوب الريـح. بـدا لي أنّـه لم يعـد للمأسـاويّ أيّ أثـرٍ. ففـي وسـعنا هنـا أنْ ننسـى صافـرات السّـردار الكئيبـة التـي تسـتنهض الرّجـال لتنـاول الطعـام، أو التـي تُطلَـقُ مـع كلّ سـقوطٍ لكتـل الحمـم البركانيّـة في موقـع بنـاء السـدّ. في وسـعنا حتّـى أن ننسـى المريضَـين المحبوسَـين في المسـتوصف، والحمّـى التـي تجفّـف عيونهـما وتيبّـس شـفاههما، وطيـفَ جزيـرة غابريـال الـذي ينتظرهمـا في الجهـة المقابلـة.

---

(1) Le Diamant: الألماسة.

(2) خرائط بحريّة كان يُصدرها مكتب المساحة البحريّة بالمملكة المتّحدة في القرن التاسع عشر.

وعلى الرّغم من الغيوم، كانت الشمس تلتهب في كبد السماء. عاد جون ميتكالف إلى الكرنتينة مع غلّته من الأوراق والجذور. وسيقضي بقيّة يومه في الفرز والفهرسة بمساعدة سارة. كان يشكو من آلام في الرأس وأطراف الجسد. يعتقد جاك أنه قد أصيب بالملاريا منذ اللّيلة الأولى في باليساد. في تلك اللّيلة، كنّا قد نمنا في مجرى الهواء عند عتبة الباب، هرباً من البعوض.

ولمّا عدت إلى لوديامو عند الزّوال، رأيت للمرّة الأولى مَن أسميتها فيما بعدُ سورياقاتي[1]، أو قوّة الشمس. أهو اسمها حقّاً؟ أم أنّني سمّيتها كذلك تيمّناً باسم ملكة كشمير التي قُصَّت عليها حكايةُ أورفاشي وبورورافاس، وفقاً لكتاب سوماديفا[2] الذي قرأتُه في لندن بترجمة تريلاوني في الصيف السابق على رحيلنا؟ كانت تتقدّم على طول الشاطئ، منحنيةً إلى الأمام قليلاً، كأنّها تفتّش عن شيءٍ ما، وعلى الرصيف أمام جزيرة غابريال، من حيث كنت، بدت لي كأنّها تمشي على الماء. رأيت طيْفها الناحل، وفستانها الأخضر الطويل الذي يخترقه الضّوء. كانت تمشي بتؤدةٍ وحذر. فهمتُ أنّها تسير على قوْس الشّعاب المرجانيّة الذي يصل جزيرة بلات بجزيرة غابريال ويتبدّى عند انخفاض المدّ. كانت تتلمّس طريقها بأطراف قدمَيها، كأنّها تتوازن على سورٍ غيرِ مرئيّ. من أمامها يمتدّ عمق البحيرة المعتم،

(1) اسمٌ سنسكريتيّ.

(2) كاتب سنسكريتيّ من القرن الحادي عشر، نظم الكثير من الحكايات الشعبيّة الهنديّة القديمة في قالبٍ شعريّ، جمعها في كتاب بعنوان «محيط الحكايات»، ولا يُعرف عن حياته الشّيء الكثير.

وعلى الجهة المقابلة، يبسط البحر أمواجه ويسرّح غيماتٍ من عجاج البحر نحو السماء.

لا شكّ أنها رأتني. لكنّها لم تلتفت. جلستُ على الرّمل، نصفَ مختبئٍ بين أغصان الدّيداء. راقبتُها وهي تواصل السير على طول الشّعاب وسْط الماء، وكان لديّ انطباعٌ بأنّها تمضي نحو عرض البحر. لا أحدَ هناك، فقد دفعت الرّياح الطيور نحو الطّرف الآخر من الجزيرة، وبدا الأمر كما لو كنّا أنا وهي آخر السكّان.

واصلَت دربها على طول الشّعاب المرجانيّة، وكانت تنزل إلى المياه أحياناً حتّى الخصر، مختفيةً في غيمة عجاج البحر. لمحتُ عصا طويلة في يدها، اتّضح أنّها حربةٌ تستخدمها في الصيّد أو في جمع الأصداف وقنافذ البحر. كانت شمس المغيب ترسم طيفها فوق المياه المعتمة، مثل طائرٍ مضحكٍ يترنّح بغرابة. وفي لحظةٍ ما، تناهى إليّ من الدّغل، على بضع خطواتٍ من خلفي، صياحُ أطفالٍ مصحوباً بثغاء، وما هو إلّا أن رأيت أطياف الصّبْية وهم يطاردون الجديان ويرشقونها بالحجارة. توقّفَت الفتاة في منتصف البحيرة، تردّدَتْ لحظةً، ثمّ سارت نحو الضّفة على سطح الشّعاب المرجانيّة، مواجِهةً الأمواج المتكسّرة، إلى أنْ ظهرَت فجأةً على الساحل، وسرعان ما اختفت في الجانب الآخر من طرف الجزيرة. مكثتُ على الشاطئ طويلاً، راجياً أن تعود. ازدادت مياه البحيرة قتامةً، حتّى أصبحَت مثل مرآةٍ معدنيّة. كنت أتأمّل جزيرة غابريال الصغيرة، الشّديدة القرب والعصيّة على البلوغ في آن معاً، وكان قلبي ينبض كأنّني محمومٌ. ومع حلول اللّيل، انبعث البعوضُ من الدّغل، فقفلتُ راجعاً إلى حيّ الكرنتينة.

9 يونيو

عـدتُ عنـد الفجـر إلى صخـرة لوديامـو. كان جـون ميتكالـف مسـتلقياً في قلـب البيـت، متعبـاً محمومـاً. ولمّـا خرجـتُ، بـدا كأنّـه ينظـر إليّ موبِّخـاً، فأنـا لسـت طالبـاً نجيبـاً في علـم النّبـات، ولم أسـاعده في فـرز عيّناتـه.

أحـبُّ صخـرة لوديامـو، بشـكلها الغريـب، ذي الوجـوه العشريـن، المنتظـم، المنبثـقِ مـن البحـر وسـط دوّامـة طيـورٍ تغطّيـه بالفضـلات فيغـدو مثـل قمـة ثلجيّـة. إنّـه المكان الـذي أسـتطيع فيـه أنْ أنسـى صافرة السـرّ دار، وأجـواء الكرنتينـة الثّقيلـة، وخُطـب جوليـوس فـيران الجوْفـاء. عرضـتُ عـلى جـاك أنْ يرافقنـي، لكنّـه لم يشـأ تـركَ سـوزان وحدهـا. فقـد أصيبـت ليلـةَ أمـس بنوبـةِ حمّـى عنيفـة، وحرَمهـا الصّـداع النصفـيّ مـن النّـوم، كانـت شـاحبةً متعبـة. أعطاهـا جاك مسـحوق الكينـين مخفَفّـاً في مـاء الأرُزّ، تعويضاً عـن الحليـب. وحـين خرجْـتُ، جلـسَ إلى البـاب مواجِهـاً البحـر، لكـنْ مـن حيـث هـو، لم يكـن في اسـتطاعته أنْ يـرى غـير القبّـةِ السّـماويّة السـوداء فـوق جزيـرة غابريـال.

وفيـما أسـير نحـو الصّخرة، سـمعتُ صـوت المدّ. هـذا الاهتـزاز الآتي من قـاع المحيـط، من مركـز الأرض. أعلم أنّه مع انحسـار المدّ، سـتأتي سـورياڤاتي بـلا شـكّ. أنتظرهـا في مكاني، شـبهَ متوارٍ في جـوفٍ صخريّ خلف شـجيرات الدّيـداء. كانـت البحـيرة تسـيل نحـو الغـرب، مثـل خـزّان نُـزع صمّامـه. وما هـي إلّا لحظـاتٌ حتّى تبـدّت حافة الشّـعاب المرجانيّة السـوداء، ونصفُ القمر الرّمـليّ الـذي يحيـط بجزيـرة غابريال، وبانـت صخـرةُ لوديامو عـلى حقيقتها: سـطحٌ مهـترئ له شـكل جؤجؤ. فقـدَت الأمواجُ قوّتهـا، وهدأت الرّيـح. ثمّة مـا يشـبه الصّمت والسـكينة. وقد خطر لي أنّ حرارة سـوزان، في هـذه اللّحظة

ذاتها، قد انخفضت بلا شكّ، فاستلقت على الأرض ورأسُها على ركبتَي جاك. الآن تستطيع أن تغفو.

ظهرت سوريافاقي، وسارت بلا تلكّؤ على الرّصيف المرجانيّ بالرّغم من أنّ المدّ لم ينحسر كليّاً بعد. أخذَت تنبش بين الشّقوق مستعينةً بالحربة، ثمّ التقطَت المحارات ووضعتها في حقيبة معلّقةٍ حول رقبتها. ولكي تُسرّع مِشيتها على البرك، رفعت فستانها وعقدَته بين ساقَيها، مثل سروالٍ داخليّ تركيّ.

كانت تمشي بيسرٍ، متهاديةً بلا عناء. ولمّا حاولتُ أن أتبعها على رصيف المرجان، كان الماء معتماً بلون السماء الغائمة، وقد منعتْني الأعشاب البحريّة التي تدفعها وتقلّبها الأمواج من رؤية القناة، فسرعان ما ضِعت. وصلَ الماء إلى خصري، وفي الوقت نفسه كانت الأمواج المتكسرّة تسحبني إلى الخلف فتعيدني إلى لجّة البحر. عانيت وأنا أحاول العودة إلى الشاطئ متشبثّاً بحواف الشّعاب المرجانيّة الحادّة. بعيداً، في منتصف البحيرة، لاح طيفُ الفتاة خياليّاً رشيقاً. وحلّقت طيورٌ بحريّة فوق الشّعاب المرجانيّة، بما فيها طيور رئيس البحر التي كانت تُطلق صيحاتٍ حادّة. وفي لحظةٍ ما، التفتَت سورياڤاقي. كنت أسير خارجاً من البحيرة نحو الشاطئ، وركبتاي ويداي مخدوشتان. كانت بعيدةً عنّي، وشالُها الأحمر يلقي ظلاًّ على وجهها، لكنْ خُيّل إليّ أنّها كانت تضحك. فلا بدّ أنّني بدوت مثيراً للشفقة بملابسي المبلّلة وبنطالي الممزّقِ عند الرّكبتَين.

كنت أعاني من ألمٍ في باطن قدمي اليُمنى. لا بدّ أنني دُست على قنفذ البحر وأنا أتخبّط وسْط التيار، فقد شعرتُ بلسعةٍ شديدة.

في تلـك اللّحظـةِ عـاد البحـر، وبـدأت الأمـواج تتكـسّر مـن جديـد عـلى الشّـعاب المرجانيّـة. كانـت الريـح تهـبّ مُدومـّةً. ولسـت أدري لمـاذا، وقفتُ عـلى الشّـاطئ وناديـت الفتـاة. صرخـتُ «مرحبـاً!» كـما لـو أنّهـا ستسـمعني. عـادت أدراجَهـا مسرعـةً. إذ رأت هـي أيضـاً العاصفـةَ مُقبلـةً.

خرجـتُ مـن البحـيرة إلى الشـاطئ وأنـا أعـرج. ولمّا قلـت لهـا: «مرحباً!» التفتَـت نحـوي. كانـت ترتـدي ثوبـاً بلـون البحـر بلّلـه المـوج. خلعـتْ وشـاحها فانسـدل شـعرها الأسـود عـلى كتفَيهـا. لمحـتُ في حقيبـة الـكاذيّ المعلّقـة حـول رقبتهـا غَلّتهـا مـن قنافـذ البحـر، ورأيـت الأخطبوطـات التـي ثبّتتهـا في طـرف حربَتهـا مثـل أسـمال. وأكثـر مـا لفـت انتباهـي عيناهـا، لونٌ لم أره مـن قبـل، أقـربُ إلى أصفـر الكهرمـان والياقـوت، عينـان شـفافتان تلمعـان في وجههـا الشـديد السّـمرة. نظـرتْ إليّ هُنيهـةً، بـلا خـوفٍ، ودون أنْ ترمـش، فخفـقَ قلبـي بشـدّة، وانعقـد لسـاني.

دعتنـي لأجلـس عـلى الرّمـل. غرسَـت الحربـة بجانبهـا وتناولـت مـن حقيبتهـا سـكّيناً صغـيرة، مجـرّد نصـلٍ مدبّـب بـلا مقبـض. وحتّـى قبـل أن أعـرف مـا كانـت سـتفعل، أخـذَت قدمـي اليُمنـى وقطعـت الجلـد المتيبّـس مـن أسـفلِ الإصبـع الكبـيرة. ثـمّ أرتنـي السـنّ الصّغـيرة المائلـةَ للزّرقـةِ في راحـة يدهـا. «أنـت محظـوظ، إنّهـا مجـرّد كـسرةٍ مـن مرجـان». وأشـارت إلى الشّـعاب المرجانيّـة: «المـكان هنـا مـليءٌ بالأسـماك الصّخريّـة». نظـرتُ إليهـا فخمّنَـت أنّنـي لا أفهـم الكلمـة. «أنتـم تسـمّونها سـمكة العقـرب، وهـي قاتلـة». نظـرتُ إليهـا ذاهـلاً، فقـد حدّثتنـي بالفرنسـية، ومـن غـير لكْنـة. أردتُ أن أطـرح عليهـا الأسـئلة، أنْ أعـرف اسـمَها، ولمَ هـي هنـا، ومنـذ متـى، لكنّهـا نهضَـت، والتقطَـت حوائجهـا وانصرفـت عـلى عجـلٍ راكضـةً

بين الشجيرات. ثمّ صعَدت المنحدر في آخر اليابسة، ودخلَت غابة الكزورينة الصّغيرة التي تفصلنا عن باليساد.

وعلى الرّغم من قدمي المجرّحة، حاولتُ أن أتبع أثرها، كما لو كانت شريكتي في لعبةٍ ما واختبأتْ خلف أجمةٍ صغيرةٍ لتفاجِئني. أو ربّما تخيّلتُ أنّها جاءت إلى رصيف الشّعاب المرجانيّة لتلقاني، لتعثر عليّ. أعتقد أنّني أنا من كنت أفكّر مثل طفلٍ. شعرتُ بدمي ينبض في شراييني، وأصابني الدّوار من تأثير الرّيح والضوء. اجتزتُ الأجمةَ وأنا أعرج حافياً، واشتعلت النّار في ركبتَيّ ويدَيّ.

قادتني خطايَ إلى المنحدر الشماليّ على الجانب الآخر من غابة الكزورينة، حيث يعيش المنبوذون، فوجدتُ نفسي فجأةً أمام قرية باليساد: عرائشُ من غصون الشجر، معزّزةٌ بكتلٍ من الحمم البركانيّة رُصّت بلا مِلاط، بأسقفٍ مُهلهلةٍ من سعف النخيل. لا بدّ أنّ بعضها مبنيٌّ منذ زمنٍ بعيد، تنال منه العواصف المتتالية فيُعاد ترميمه في كلّ مرّة. كان الدّخان يتصاعد في كلّ مكان، ويدوّم مع العواصف. ثمّة خلف الأكواخ، عند سفح المنحدر، حقولٌ من ترابٍ رماديّ زُرع فيها قليلٌ من الخضروات كالبازلاء والفاصولياء، وبعضِ أعوادِ الذّرة التي حرّقتها الشمس. وكانت الكلاب الجائعة تتجوّل بين الأكواخ. اشتمّت رائحتي فبدأت تزمجر، ودار أحدها دورةً كبيرةً كي يهاجمني من الخلف، مُهدّداً ومكشّراً عن أنيابه.

تذكّرتُ ما علّمني إياه جاك في صغري. قال إنّه أخذه عن الطبّاخ المسنّ توبسي في عزبة آنّا: «حتّى تشنّ حرباً على الكلاب، لست بحاجةٍ

إلى سلاح، بل إلى رمية حجر»[1]. وهو في الأصل مثلٌ يعني: كلٌّ حسب قَدره، وقد وجدتُه ملائماً جداً في هذا الظرف. فالتقطتُ حجراً بركانيّاً حادّاً، وبيدٍ مرفوعةٍ رميْتُ رميَتي وأنا أتراجع إلى منحدر الجزيرة من جهتي. الآن لم يعد السّردار في حاجةٍ إلى حارسٍ يراقب حدوده.

عُدت هذا المساء إلى قمّة البركان لألقيَ نظرةً على قرية العمّال. لذتُ بِطَللِ المنارة وجلست أصغي إلى عزيف الرّيح في الحجارة. كان المطر يهطل في زخاتٍ متقطّعةٍ، والبحر هائجاً مُخضرّاً، مثلما كان يومَ نزولنا إلى الجزيرة. أعتمت السماء حتّى قبل أنْ تأذنَ الشمسُ بمغيب، كما لو أنّ حريقاً شبّ على الجانب الآخر من الأفق. وسمعتُ وسْط أنين الرّيح صافرة السّردار الطويلة تنادي المؤمنين للصّلاة. كانت النيران تتوهّج أمام البيوت في ظلّ الأفاريز، فتنشّقتُ رائحة الأرزّ الذي كان يُطهى مع الكّمون والبهارات. لقد مرّ وقتٌ طويل لم أذق فيه شيئاً، وكنت أحسّ بثقب في معدتي يجعلني أرتعش قليلاً، كأنّما من الرّغبة. أردت أن أُمدّ بصري إلى الطّرف الآخر من الدّرب، حيث تبدأ أكواخ الفقراء، وحيث تعيش سوريافاتي. انتظرتُ لأرى جسدها النّاحل يسير نحو الصهاريج لجلب الماء، وسْطَ نساءٍ وأطفال آخرين. لكنّها لم تظهر. ربّما عرَفَت أنّني أتتبّعها بنظري.

عُدتُ إلى الكرنتينة. شعرتُ للمرّة الأولى بحُمّى تجتاحني، وبألمٍ تولّد من الجرح في قدمي وانتقل إلى أعلى، فاقشعّرت له كلّ شعرةٍ من جسمي وارتعشت عضلاتي. شعر جاك بالقلق: «لستَ مريضاً، أليس كذلك؟» فحص باطن قدمي، ومسحه بالقليل من الميثيلين الأزرق.

(1) بالكريوليّة في الأصل.

وقدّمَت لي سوزان ماءً أحمرّ لونه من إضافة البيرمنغنات إليه، بدل الشاي الذي نفد. وفي اللّيل، لمعَت في ذهني عينا سوريافاتي، صفراوين مثل حدقتَي قطّة. كنت أرتعش ملتفّاً بشال سوزان. وغفوْت حين هدأت الريح واستحالت زمجرةُ العاصفة همساً بعيداً.

10 يونيو، عصراً

بسبب الحمّى والنّوم المضطرب لزمتُ الفراش طيلة يوم أمس. سماءٌ غائمة. العودة إلى الاستكشاف: الساحل الشماليّ الشرقيّ. عند حافة أشجار الكزورينة، غطاءٌ نباتيّ قصير. عددٌ قليلٌ من شجيرات الأكاسيا في منطقة الظّل. وبعض شجيرات بيمفيس أسيدولا على خطّ الصخر الجيري: شجيرةٌ كثيفةٌ يبلغ طولها نحو ثلاثة أقدام، لها أزهارٌ وحيدة عند القاعدة، وسويقاتٌ قصيرةٌ مزغِبة. على الساحل المواجه للريح، ثمّة عددٌ قليلٌ جداً من اللّوزيّات الهنديّة. ليست بتلك الضخامة، ثمارٌ بحجم حبّة الجوز لها قشرةٌ صلبة: الباذان (الهليلج الهنديّ). واجتماعها معاً في حضن وادٍ ضيّق، يوحي لي بأنّها من زرْع الإنسان. يبلغ ارتفاع أطولها اثني عشر قدماً. وعمرها التقريبيّ من ثلاثين إلى أربعين حولاً.

وربّما يعود تاريخها إلى أوّل احتلال للجزيرة (1856: أوّل كرنتينة أُقيمت على جزيرة بلات).

عاد جاك من باليساد منهاراً كَسِيفَ البال. أراد أنْ يقيّم أحوال المهاجرين الصّحيّة، بعد أن زعم فيران الفاسد أنّ وباء الجدري كان ينتشر على الطّرف الآخر من الجزيرة. سار برفقة بارتولي إلى أسفل الفوّهة البركانيّة، وهنالك اصطدم بمتعهّدي العمّال الذين منعوه من التّقدم أكثر. حاورهم جاك طويلاً مستعيناً بالمسنّ ماري، ولكن بلا جدوى. بدأ عمّال المزارع يتجمّعون، فشعر بارتولي فجأةً بالخوف. جرّ جاك إلى الوراء، قائلاً إنّ هنالك أناساً يصيحون مهدِّدين، وإنّهم ألقوا بعضَ الحجارة.

أمّا نهايةُ ذلك النّهار، فكانت مشؤومة. ساد صمتٌ مُطبقٌ في بيت الكرنتينة بعد ساعاتٍ من الجوّ الخانق. كان مصباح البونكا يبثّ ضوءاً راعشاً ينير الوجوه بغرابة. وكان جوليوس فيران يقف في عمق الغرفة، ويتلفّت حوله قلِقاً. ثمّ شرَع في إلقاءِ خطبةٍ حماسيّة طنّانةٍ لم يُصغِ إليها أحد. يريدنا أنْ نتصرّف، أنْ «نتّخذ إجراءاتٍ». وجهُه ناتئ العَظم شاحبٌ، تخطّه فاصلتا شاربيه الأسودين، اللّذين يشذّبهما كلّ صباح بالمقصّ. ولم تسهم الإقامة على جزيرة بلات في علاج صلعه. «صديقنا الوسيم»، كما تنعتُه سوزان. غيرَ أنّ ملابسه البيضاء التي كان يتبخْتر بها في قاعة لافا حالت إلى اللّون الرّماديّ المصفرّ، وتفسّخ جيبا سترته.

تحدّث عن المرض الذي يلوح في الأفق، وعن الحجر الصحيّ الذي من المرجّح أن يطول، والتوتّر الذي يشتدّ في مخيّم العمّال. «يلزمنا وضع قواعد. نحن في ظرفٍ حرج. ولا يمكننا الاعتماد إلّا على أنفسنا».

هزّ جاك كتفيه ساخراً من فيران، فهو يعتقد أنّ هذا المغامر الفاشل المحتال كان واحداً ممّن نهبوا أنطوان حين قدِمَ ليستقر في فرنسا، وباعوه أسهماً في شركات وهميّة، أو أراضيَ لا يمتلكونها حقّاً. لقد كَره فيران من النّظرة الأولى. رأى فيه مجرّد «ثمرة جافّة»، «رجلٍ فاسدٍ». وهكذا كان أنْ عثر له على لقب. وتلك عادةٌ موريشوسيّة.

وكان يتحاشاه ونحن على متن لافا. ففي كلّ مرّة كان يأتي فيها الرّجل ليجلس إلى طاولتنا، كان جاك ينهض ويغادر. حتّى سوزان ضاقت به ذرعاً، لكنْ بدا أنّ فيران لم يتّعظ. قالت إنّه «شيطانٌ شقيّ، على كلّ حال». فأجابها جاك: «شيطان؟ هذا كثيرٌ عليه! إنّه مجرّد عفريتٍ صغير».

تابع فيران الفاسد خطبته موجّهاً الكلام إلى جاك، ساعياً إلى نيْل إعجابه. فقد كان جاك يثير رهبته لكونه طبيباً، ولِاسم العائلة الذي يحمله خصوصاً. فالجميع في موريشيوس يعرف آل أرشمبو. زد على ذلك أسطورة كبير العائلة، ألكسندر، الرّجل الفظيع زعيم مجلس **النظام الأخلاقيّ**، ومؤسّس حزب الحكومة الجماعيّة. وما زلت أتعجّب من أنّ جاك، ورغم كلّ ما فعله بنا ألكسندر، لا يزال متمسّكاً باسم عائلته. لقد أدرك فيران الفاسد على الفور المزيّة التي منحه إيّاها جنوح السفينة إلى جزيرة بلات. فنحن بتنا سجناء على هذه الصّخرة، وجاك لا يستطيع مغادرة المكان. أمّا فيران فيستطيع التّحدث، وهنا يكمُن انتقامه.

– علينا أن ننظّم أنفسنا، إذا أردنا البقاء على قيد الحياة حتّى يعود القارب. وقد يستغرق الأمر أياماً أو أسابيع.

– ماذا تريد؟ أن نفرض حظر التجوّل؟ والأحكام العرفيّة؟

تحدّث جاك ببرود، بينما ذُعِرَ جون ميتكالف، ولم يكن متيّقناً من أنّه يفهم ما يقال. تابع فيران خطبته. وكان منزعجاً من السّخرية. فتحدّث عن اتفاقيّة القسطنطينية، وطلب أن ننشئ ميليشيا، وأن نشكّل حرساً يراقب كلّ ذهابٍ وإياب، وأن نعزل جميع المرضى في جزيرة غابريال.

– هل تتذكّرون الصبيّ الذي أُغرِقَ قبالة جزيرة ماهيه؟ يُقال إنّه مات من التهاب رئويّ. قد نموت من التهاب رئويّ خلال ساعات! وهل تعرفون في أيّ حالةٍ هو البحّار الذي هُرِّب على ظهر السفينة في زنجبار؟ والمسافر الآخر أيضاً حالته متردّية، وفي رأيي أنّهما لنْ يصمدا طويلاً.

نهضَت سوزان على الرّغم من الحمّى التي تحرقها، وقالت غاضبة:

- صه! كيف يمكنك أن تتفوّه بمثل هذه الأشياء!

- أتكلّم عن هذا لأنّه حقيقيّ. وأنت تعرفينه جيّداً مثلي. فعلى الطرف الآخر، هنالك حالاتٌ عديدةٌ بين المهاجرين، كانوا قد أُنزِلوا من القوارب القادمة من الهند وعليهم كلّ أعراض الجدري. هل رأيتَهم يا دكتور؟ (قال مشدّداً على كلمة دكتور).

يعلم جوليوس فيران جيّداً أنّ جاك لم يتمكّن من الوصول إلى باليساد. هكذا حقّق انتصاراً سهلاً.

- أمّا أنا، فقد رأيتهم عند وصولنا. هناك العشرات منهم، وغداً قد يصيرون بالمئات، ولا يوجد لقاح. إنّهم يخبّئونهم في أكواخ، ثمّ يحرقون جثثهم على الشاطئ.

اقشعرّ بدن سوزان. وسمعتُها تسأل جاك هامسةً: «هل ما قاله صحيح؟» لقد أتت إلى موريشيوس مع جاك وفي ذهنها فكرة معالجة المهاجرين الهنود، وإنشاءِ مستوصفات، واحتذاء مثالِ فلورنس نايتنغيل[1]، وفجأةً تخيّلت أنّه، هنا، على الجانب الآخر من الجزيرة، ثمّة أناسٌ مرضى مهجورون، ولربّما كانوا يُحتَضرون. يُتقن فيران الفاسد ضرباً من البلاغة تمتزج فيها السخرية بالرّعب، وبتلك النّظرة التي تشي بالخفّة والمكر، وتطفح بالشّر.

- لا تصغي إليه، فهو لا يعرف شيئاً. إنّه مجنون حقّاً.

قال جاك ذلك حتّى دون أنْ يحرص على خفضِ صوته. هل سمعه

---

(1) Florence Nightingale: مُصلِحة اجتماعيّة بريطانيّة ورائدة التّمريض الحديث (1820– 1910).

فيران؟ فقد توقّف عن الكلام، وخلا وجهه من أيّ تعبير، سوى ذلك العنفِ المجّانيّ، والغضب العبثيّ. ثمّ خرج من البيت فجأةً، وغاب في الظّلام. اجتاحت حلكة اللّيل البيت. وبدا لي أنّنا خسرنا الجدال، وأنّ شيئاً ما في داخلنا قد تزَحْزح وتداعى.

ها قد زرع فيران بذور الشّك فينا. ففي تلك اللّيلة، بقيتُ متنبّهاً لأقلّ جلبةٍ، رغماً عنّي. فماذا لو كان يقول الحقيقة؟ ماذا لو كان الشّيخ حسين قد قرّر سرّاً غزو الكرنتينة وقتلَنا عن بكرة أبينا، تخليداً لذكرى من ماتوا في الجزيرة، وانتقاماً للمظلومين؟

نظرتُ إلى جاك في ضوء المصباح، كان وجهه متوتّراً وقد لاح عليه تعبيرٌ غريبٌ لم أفهمه. فعلى الرغم من كلّ ما قلناه، بدا لي أنّ الحيرةَ قدْ تسلّلَت إليه هو أيضاً، وأنّه استسلمَ للخوف. رأيت يده المتشنّجةَ تحطّ على حجر، وكأنّ قطيعاً من الكلاب يتربّص في الخارج.

أرادت سوزان هذا الصّباح، وعلى الرّغم من الحمّى، أنْ تتوجّه إلى المستوصف مقابل الرّصيف الرّمليّ المؤدّي إلى جزيرة غابريال. ظلّت مستيقظةً قسطاً كبيراً من ليلةِ الأمس. كانت قلقةً منفعلة. تحدّثت عن المريضَين نيكولا والسيد تورنوا، وعن الهنود المهجورين على الطرف الآخر من الجزيرة، والنّساء والأطفال الذين تُركوا بلا رعاية. كانت تريد أن يأتوا ويستقرّوا في الكرنتينة. سيعتني بهم جاك، وتكون هي ممرّضتَهم. لا يمكن للحكومة أن تتجاهلهم، ثمّ إنّ أصحاب المزارع في موريشيوس لا يمتلكون بدائل أخرى. كانت متيقّنةً من ذلك. سوف تقدّم تقريراً للحاكم. وتودّ أن تكتب إلى فلورنس نايتنغيل. ثمّ انتهى

بها الأمر إلى أنْ تنام بيننا، مثلما فعلت أوّل ليلةٍ قضيناها في باليساد.

ولمّا بلغنا المستوصف، كان المسنّ ماري يزاول عمله بوصفه ممرّضاً في مكانه المعتاد، جالساً على حجَرٍ أمام الباب يمضغ ورق التّنبول. سمح لنا بالمرور ولم يقل شيئاً. كانت عيناه مغبّشتين بالزّرَق، ووجهه الأسود مليئاً بالجدري. ولهذا فلم يكن لديه ما يخشاه من الرّجلين المطروحَين على سريريهما داخل المستوصف. قلُت سريرين، وكان عليّ أنْ أقول فراشين حقيرين، لشدّة ما كانت تلك المضاجع بدائيّة؛ مجرّد حشيّاتٍ متفسّخةٍ من القشّ طُرِحت على عددٍ قليل من ألواح الخشب على الأرضيّة مباشرةً.

كِدتُ لا أعرفُ نيكولا، العريف البحريّ الذي أُقِلّ من زنجبار. كان يعاني من حمّى خفيفةٍ منذ صعوده على متن **لافا**، قال القبطان بوالو إنّها نوبة ملاريا. ففي غضون أيّام قليلة، تحوّل هذا الرجل الرياضيّ الموردُ الوجه إلى جسدٍ خائر القوى، بسحنةٍ صفراء وشفتَين متشقّقتَين وودمةٍ في الجبين. وإلى جواره، بدا السيّد تورنوا التاجر الذي حُمّلَ على السفينة في اليوم نفسه، أكثر تماسكاً. ولمّا دخلنا الغرفة، اعتدل في جلسته، وتكلّم بصوتٍ نافد الصّبر ذي جرْسٍ معدنيّ، ظانّاً أنّ قارب الخدمات الصحيّة قد وصل، وأنّهم جاءوا لاصطحابهما.

وبعد سماعه ردّ جاك السلبيّ، استولى عليه غضبٌ مفاجئ أخاف سوزان. نهض ومشى عبر الغرفة إلى الباب. كان يرتدي المنامة الرماديّة ذات الياقة المقوّرة نفسها التي كان يرتديها في عيادة السّفينة **لافا**. سار حافياً مترنّحاً على الأرضيّة الحجريّة، فقد أُحرقت جميع ثيابه في فرن القمامة قبل النزول إلى الجزيرة.

وفي لحظةٍ ما، غرق في نوعٍ من الهذيان. كان يقف على عتبة المستوصف

منبهراً بالشمس والرّيح.

«سأذهب، سأعود إلى بيتي حالاً، إنّهم ينتظرونني!»

وأين هو هذا البيت؟ على بعد آلاف الأميال، أبعدَ حتّى من أنْ يتذكّره.

أعماه الضوء إلى أنْ اغرورقت عيناه، فانهمر الدّمع على أنفه وجرَى على وجنتيه. اقتربَت سوزان وكلّمته بهدوء، أرادت أن تطلب إليه العودة إلى فراشه للاحتماء من الريح. لكنّه مرّ من أمامها دون أن يراها، دار حول نفسه، كما لو كان يبحث عن شيءٍ ما، واتّسع ثوبه مع الريح كاشفاً عن ساقيه النحيلتين. ثمّ خرّ جالساً وظهرُه إلى دعامةِ الباب الحجريّة. كان يتحدّث إلى نفسه بصوتٍ مكسورٍ متقطّع، عن منزله في تارْب بفرنسا وعن زوجته وأطفاله. جلسَت سوزان بجواره تحاول تهدِئته، فيما كنّا أنا وجاك نرى ما يحدث ولا نقوى على فعل شيءٍ. ثمّ نهض تورنوا أخيراً، بمساعدة المسنّ ماري، وعاد إلى فراشه، كما لو كان ملاذَه الأخير.

انعقدت ألسنتنا وانقبضت قلوبنا. عاد جاك وسوزان إلى الكرنتينة، أمّا أنا فابتعدت عن المخيّم بأسرع ما أمكنني.

هكذا، وفيما كنّا نمضي الوقت منتظرين في الكرنتينة، نثرثر ونتشاجر، ونلعب الشطرنج، أو نحلم بيوم تحرّرنا، كان هنالك، على بعد خطواتٍ قليلةٍ منّا، أيْ على الطّرف الآخر من الجزيرة، بشرٌ يُحتَضرون. هيّئ إليّ أنّني ما زلت أسمع صوت تورنوا وهو يطلق لعناته ويسرد ذكرياته المشوّشة، ولم تفارقني نظرةُ نيكولا الثّابتة الشّديدة الصّفاء. وما زال يرنّ في أذني الوقع المكتوم لارتطام جسد الصبيّ لحظةَ

أُغـرق في ميـاه جزيـرة ماهيـه، في المحيـط ذي الزرقـةِ التـي كادت تكـون خارقـةً للطبيعـةِ، واسـتعدتُ معـه صـوت بوالـو وهـو يعطـي تعليماتـه عـلى متـن لافـا بـضرورةِ ألّا يطّلـع أحـدٌ عـلى شيءٍ مـن هـذا، أيُّ مخلـوقٍ عـلى الإطـلاق؛ الأمـر الـذي سـيخلّد اسـمه في سـجلّات شركـة النّقـل البحـريّ (مِسـاجيري) التاريخيّـة.

صعــدتُ بخطــواتٍ أشــبهَ بالرّكــضَ إلى حافــة الفوّهــة البركانيّــة. وجلسـتُ في مـكاني محتميـاً مـن الرّيـح بجـدار المنـارة المتداعيـة الإسـمنتيّ. مــن هنــا، أســتطيع أن أرى كلّ شيء، خليــج باليســاد ومدينــة العــمّال والمـزارع، والشريـط الرّمـليّ الطويـل الـذي يطـوّق جزيـرة غابريـال، وقبّـة الغيـم المعلّقـة فـوق جبـال موريشـيوس آخـرَ البحـر، شـبيهةً بـسراب.

11 يونيو

أخــذ جــاك يتحــدّث إلى ســوزان بهــدوءٍ شــديد كــي يطمئِنهــا. كان الوقـت عـصراً، وكنّـا مسـتلقين عـلى الأرض قـرب البـاب، متّخذيـن مـن الشـال الأبيـض الكبـير ذي الأهـداب غطـاء. كنّـا وحدنـا في البيـت. ففـي تلـك اللّحظـة كان جـون وسـارة منشـغلَين، بـلا ريـب، بدهـن أوراقهـما بالفورمالـين، وبارتـولي وفـيران الفاسـد في مكانهـما أعـلى الـبركان، يراقبـان بـلا كبـيرِ أمـلٍ وصـول المركـب الشراعـيّ.

كان الطقـس معتـدلاً، حيـث تراجعـت العاصفـة تاركـةً المـكان لريـح الصّابيـات، وتغطّـت السـماء بوشـاحٍ أبيـضَ رقيـق. شـعرتُ بـردف سـوزان المـدوّرِ قريبـاً منّـي وأحسسـت بحركـة ضلوعهـا وهـي تتنفـس. هكـذا كان

الأمر في هاستينغز الصيف الماضي. كنّا معاً على الشاطئ، وشاهدنا الغيوم تنساب، ومعها أحلامنا، وبدا لي حينها أنْ لا شيء يمكنه أن يفرّق بيننا أبداً.

لا يزال جاك يحتفظ بصوته الشجيّ ولم يفقد لكنتَه الكريوليّة على الرغم من السّنوات التي قضاها في فرنسا، ثمّ في لندن حيث عمل في مشفى سانت جوزيف. وحين أسمعه، أتذكّر صوت أبي حين كان يتحدّث مساءً مع الرّائد وليام في شقة مونبارناس، فأنام إلى جانب طبقي من الحساء مستمعاً إلى صوته.

أخذ يسرد لسوزان ذكرياته عن المدينة وعن عزبة آنّا في زمنٍ بعيد. ولعلّه كان يختلق هذه القصص كلّها، مثل السيّد تورنوا في هذيانه.

«لا يمكنكِ أن تتخيّلي مدى فرحتي حين كنت أعود من نُزل تورهي في أعياد الميلاد، أو في الشتاء، أعني في يوليو أو أغسطس؛ كنت أعود إلى بيتي، وألقى ثانيةً غرفتي. كان في وسعي أنْ أركض في كلّ مكان في حقول قصب السّكّر، وصولاً إلى السّافانا[1]، وإلى البحر. سوف أريكِ الطريق. كان هنالك صبيٌّ في عمري، اسمه بيير، بيير باستور، وآخر كريوليّ يكبرنا بقليل، ابن مزارع في عزبة آنّا، كنّا نناديه مايوك، لا أعرف لماذا، أعتقد أنّهم كانوا يدعونه بهذا الاسم في صِغره لأنه كان يتقافز ويثرثر طوال الوقت مثل الطيور. واسمه الحقيقيّ عزيز.

«أتذكر أنّه كان هنالك، خلف البيْت في آنّا، طَلَلُ مصنع سكّرٍ قديم، ذي مدخنةٍ سوداء طويلة، وجدرانٍ تكسوها الأعشاب. وعلى مبعدةٍ منه، عند حافة البحر، قَمين الجير. سوف أريكِ ذلك كلّه،

(1) السّافانا: هي حسب المَعاجم أرض عشبيّة منبسطة استوائيّة أو شبه استوائيّة. (المُراجِع)

أنــت وليــون أيضــاً. لا يمكنــكِ إلّا أنْ تحبّيــه، إنّــه أجمـل المناظـر الطبيعيـة في العـالم، حقـولٌ شـديدة الخضرة تترامـى بعيـداً في المـدى ولا تدريـن أيْـن تنتهـي، وكنّـا نخلـط بينهـا وبـين البحـر. وفي العـام الأخـير، كنـت أتجـوّل مـع الصبيّـين في كلّ الأمكنـة، وفي طَلـل المصنـع حيـث نصطـاد اليـمام. لم تكن أمّـي تريـدني أن أذهـب إلى الطّلـل، كانـت تخشـى دومـاً أن تنهـار قطعـةٌ مـن الجـدار. كنـا نذهـب ونختبـئ في الأقبيـة المقوّسـة، وهـي جـدرانٌ سـميكةٌ مــن كتــلِ الحمــم البركانيّــة مدعّمــةٌ بالجـير، جوّهــا بــاردٌ رطــبٌ كأنّهــا كهـف. كنّـا نـصرخ لنسـمع الصّـدى، وكان عزيـزٌ يـروي قصصـاً بقصـد إخافتنـا، فيقـول إنّنـا بصراخنـا قـد نوقـظ الموتـى، وإنّ هنالـك شـعباً مـن الأشـباح، يسـمّيهم الجـنّ. أو كنّـا نذهـب إلى البحـر مجتازيـنَ دربـاً ضيقـاً وسْـط أكـوامٍ كبـيرة مـن الحجـارة، لنُلفـي أنفسـنا فجـأةً عـلى الشـاطئ، أمـام البحـر المفتـوحِ عـلى اتسـاعه، بـلا أيّ حواجز مـن الشّـعاب المرجانيـة. كانت الأمـواج تتلاطـم، وكان ذلـك كلّـه جميـلاً حقّـاً...».

كانــت ســوزان تشــدّ عــلى يــدي وتغمــض عينَيهــا مُصغيــةً. كنّــا نبحـر معــاً عـــلى طــوْف، محمولــين عــبرَ التّيــار الــذي يمــضي بنــا في الاتّجــاه المعاكـس، معيـداً إيّانـا إلى البدايـات.

«كنّـا لا نعـود إلى المنـزل إلّا وقـتَ الظهيرة. أحيانـاً كانت أمّي ترسـل امرأة للبحـث عنا، فنسـمع الصّوت الحادّ ينادي أسـماءنا، مُنشـداً: «مايـوك! زااك! باسـتوو!» فنظـلّ مختبئـين في الطّلـل صامتـين، وتعـود المـرأة خاليـة الوفـاض. «لم أعثـر عليهـم هنـاك، لا أعـرف أين اختفـوا!».[1] وحـين أعود مسـاءً، أكون منهـكاً، وقـدْ جرّحـت سـاقَيّ أوراقُ القصـب، كان والدي يغضـب، فتقول له

(1) وردت العبارة بالكريوليّة.

أمّي: «اتركه، لقد نسي نفسه في اللّعب، هذا كلّ شيء».

«كان موسم حصاد القصب في المدينة أشبهَ بالعيد، بل حتّى بمعركةٍ يُعدّ لها مسبقاً على مدى أسابيع، ويتطلّع إليها الجميع بفارغ الصبر. كنت أذهب مع مايوك إلى قمّة سان بير، وإلى أوبون لنتأمّل الحقول، كانت مثل بحرٍ يتماوج في مهبّ الريح. أو ننطلق في الحرّ الشديد على طول دروب القصب لنتنشّق أريجه، فتحرّق الأرض الملتهبة باطن أقدامنا. كنّا في المدينة أوّلَ من يفتتح موسم حصاد القصب كلّ عام، فالمدينة تقع في الغرب، والقصبُ أسرعُ نضوجاً في تلك الجهة. كان هناك أيضاً حقول فولمار، وحقول مكّةَ في الشّمال، وأحياناً يبدأ الموسم في فولمار أو في ألبيون، قريباً من كامب كريول. كان من الضّروريّ قطع القصب بالتّناوب كي لا يحدث نقصٌ في عدد العمّال المطلوب. وكان السّردارات يدعون الجميع للاجتماع في فناء مصنع السّكّر، ثمّ تنطلق العربات، تتقدّمها عربة السيّد فيريه التي تّجرها البغال، فيصطفّ العمّال على جانبي الطريق، ومعهم سكاكينهم الطويلة، ويعطي رئيسُ السّردارات السيّدَ فيريه سكيناً، ويغادر العمّال إلى الحقول، ويظلّون منتظرين لا يتحرّكون إلّا بعد أنْ يصل السيّد فيريه ويقطعَ أوّل عود قصب، ثمّ يُعطي العودَ لعاملٍ يُلقيه بدوره في العربة، فينطلق الجميع إلى العمل، ولا نعود نسمع طيلةَ اليوم سوى صوت ضربات السّكاكين، وصوت العمّال وهم يحذّرون بعضهم بعضاً، مطلقين صيحاتٍ أشبه بنباح الكلاب: أووا! أووا!

«أمّا أنا، فكنت أركض في كلّ مكان مع الأطفال الآخرين مقتفين أثر العربات على طول الطريق. كانت النساء يرتدين أثواباً واسعةً

باليـة، ويجمعـن عيـدان القصـب ويلقـين بهـا في العربـات. كنّـا، أنـا ومايـوك وباسـتور نقضـم قطعـاً مـن قصـب السّـكر، ونركـض في الحقـول، ونصيـح نحـن أيضـاً مثـل العـمّال: أووا! أووا! وذات مـرّة، وصلنـا أنـا وباسـتور إلى موضـع مـا، فوجدنـا بـه شـاباً أسـود طويـل القامـة مجـدوع الأنـف، أظـنّ أنّـه مصـابٌ بالجـذام، ولـمّا رآنـا رفـع سـكّينه: «مـاذا تفعـلان هنـا؟ هيّـا انصرفـا، يـا لكـما مـن جرذيـن أبيضَـين!». لم أخـفْ يومـاً في حيـاتي مثلـما خفـت آنـذاك».

كانـت سـوزان مسـتلقيةً إلى جانـب جـاك وقـد أراحـت رأسـها في تجويـف كتفـه. لم تـترك يـدي، لكنّنـي شـعرت أنّهـا غطّـت في النـوم. رأيـت وجههـا البالـغَ العذوبـةِ، والطفـوليَ قليـلاً، وشـعرَها الكسـتنائيّ الفاتـح الململـوم في عقصـة، وعينَيهـا المغمضتَـين المحفوفتَـين بأهـدابٍ كثيفـة. وإلى جوارهـا، كان جـاك مسـتلقياً أيضـاً، عينـاه مغمضتـان، وشـعره الطويـل يرفـرف في الرّيـح. ثـمّ توقّـف عـن الحديـث. كان يفكّـر في شيء آخـر، كأنّـه عـلى شـاطئ في مـكان مـا، يمـضي شـهر عسـل. بـدا لي أنّنـي عرفتهـما دائـماً معـاً، وأنّهـما مثـل أبي وأمّـي. أنـا أيضـاً كنـت متمـدّداً عـلى الأرض، أراقـب الغيـوم وهـي تنسـاب بطيئـةً مـع الرّيـح. وحـينَ أسـندتُ رأسي عـلى كتـف سـوزان، شـعرتُ بيدهـا الخفيفـة تتخلّـل شـعري.

مكتبة
t.me/soramnqraa

12 يونيو

أمضيتُ شطراً من الصباح في تصنيف الاكتشافات. رائحة الفورمالين. مُجبرٌ على عزل نفسي في مبنى المشفى.

جمعتُ حتّى الآن أنواعاً من الباذنجانيّات والنجيليّات. قريباً من الكرنتينة، جمعتُ «البقليّات» الصالحة للأكل (علامةٌ أخرى على الحضور البشريّ): البقلة الملغاشيّة، والبقلة السوداء (بقلة مارتن). وأنواعٌ أخرى صالحة للأكل: عنب الثعلب (الباذنجان البنيّ، أو الباذنجان البريّ) وصنفه المزروع (الباذنجان الشّائع)، ربّما جلبه المستوطنون الأوائل: ثمرةٌ بحجم تفّاح رينيت الكنديّ، أرجوانيةٌ شاحبة أو مائلةٌ إلى السواد.

باذنجانيّاتٌ أخرى قيّمة: أصناف الفليفلة (الفلفل البريّ والفلفل الشّجري)، وبدرجة أقلّ الياسمين الأُذيني، وهو بديل للتبغ (أوراقٌ دائمةٌ مغطّاةٌ بزغب رماديٍّ ويمكن أن تحلّ على نحو مفيد محلّ القنّب المستورد أو القنب الهنديّ) الذي جلبته الحكومة للعمّال المهاجرين. عاينتُ في المنطقة المتاخمة لبداية الشّعاب المرجانية، على المنحدر الجنوبيّ الشرقيّ، نبتتَي اللّساس (العوسج) والحرنكش (الكرز الأرضي)، وهي من الباذنجانيّات الصالحة للأكل. توتيّاتٌ عنقوديّة، عصارتها تشبه عصارة الكشمش، برتقاليّةٌ إلى صفراء، معروفةٌ في المحيط الهنديّ بالاسم المستعار Pokepoke .

كان البحر أقربَ إلى الهدوء هذا الصباح، مكتسياً لوناً لم أره من قبل، أخضرَ مُزرقّاً، وكأنّ الضّوءَ ينبجس منه مشعّاً في أعماق السّماء.

كان جميلًا إلى حدّ أنّني لم أعد إلى الكرنتية لأشرب قدح الشاي الأسود وأتناول **اللّامبانغ**، أو طبق الأرزّ المجفّف في القِدْر. ركضتُ على طول الشاطئ نحو قمّة لوديامو. كان المدّ مستقرّاً، وكنت متيقّناً من أنّني سأجد سوريافاتي، سأراها تمشي بمحاذاة الرّصيف المرجانيّ، شاقّةً الدّربَ الذي لا يعرفه أحدٌ سواها، وسْط الأشَنات تحت سطح الماء، لكنّ البحيرة كانت مهجورة.

سكنَت الرّيح أخيراً، فخيّمَ صمتٌ غريب بعد ليالٍ طويلةٍ عاصفةٍ، مثلَ أجراسٍ قُرعت لساعاتٍ ثمّ توقّفت فجأةً.

كان الحرّ شديداً، والرّمل الأبيض يلمع بين الحمم البركانيّة، حادّاً صلْداً. وفي أقصى نقطةٍ من اليابسة، كانت الطيور البحريّة تحلّق حول صخرة لوديامو، منها ما حطّ على جؤجؤ السفينة الأسود الذي كشف عنه انحسار المدّ، ومنها ما أخذ يحوم حولي: النورّس وخطّاف البحر والأطيَش. كانت تطلقُ صرخاتٍ أشبه بالتّهديد. ورأيت أيضاً طيور رئيس البحر، بعددٍ أكبر من المعتاد، تحوّمُ فوق البحر متثاقلةً.

خلعتُ ملابسي، مثلما أفعل في كلّ صباحٍ، متوارياً خلف صخرة، فغطستُ في مياه البحيرة وعُمت قرب الشّعاب المرجانية بعينَين مفتوحتَين. كان الماء خفيفاً، وأبرد قليلاً من الهواء. شعرتُ كأنّني طائر، أنا أيضاً. ثمّة شطٌّ رمليّ غيرُ بعيدٍ عن الحاجز المرجانيّ. هنالك توقّفت، إذ لم يكن تحت قدمَيّ ما أخافه من قنافذ البحر أو سمك العقرب.

وهنالك كان أنْ عاد إليّ كلّ شيء، كلّ ما قاله لي جاك في باريس فيما مضى، وصار كأنّه ذاكرتي الخاصّة. البحر عند الفجر قرب عزبة

آنّـا، ومياه اللّيل الساكنة الباردة على شاطئ الرّمل الأسود، حيث في وسعك أنْ تسبح تحت الماء، دون أنْ تُحدثَ دوّاماتٍ، مادّاً ذراعيك أبعدَ ما يكون أمامك، ثمّ ضامّاً إيّاهما إلى جسدك دون أنْ تتنفّس، مصغياً إلى اعتلاج الأمواج المتكسرة... كنت أدنو من هذه اللّحظة يوماً بعد يوم. البحرُ في فليك أون فلاك، بعد اجتياز فولمار، ومصبّ تماران الأسود. لكأنّني عشت هذا كلّه، حين كان أبي وأمّي يعيشان بعدُ في عزبة آنّا. إنّه حلمٌ قديمٌ كان يراودني كلّ ليلة في روي ماليزون، قبل أن أنام. أمشي مع جاك على طول الشاطئ، شاقّاً الدّرب الضيّق على امتداد الساحل وسْط أعشابٍ بالغة الطّول حتّى أنّها تخترقُ الشفتَين. وأرى طيوراً، ربّما هي طيور الغاق السوداء ذاتها التي تحلّقُ لامسةً سطح الماء، وكأنّها تحثّنا على مغادرة المكان. يبدو لي أنّني عرفتها من منقارها الأحمر، وبريق عيونها الشرير. كان البحر يتلألأ في التجاويف مثل بحيراتٍ من حمم بركانيّة ملتهبة. وقبل أنْ نصله، كان هنالك، على ما أذكر، مستنقعٌ وشجيرات قصب. وكان يُقالُ لجاك: «لا تذهب في هذا الاتّجاه، هذا خطرٌ عليك. وقد تتيه، فهنالك رمالٌ متحرّكة».

وقد صار ذلك الآن بعيداً جدّاً. لكنّني، هنا، في قلب الصّمت، وعلى الشاطئ الرمليّ الأبيض حيث يلامسني البحر، تذكّرتُ كلّ شيء. ولا يمكنني أنْ أضيع بعد الآن. مَرِضَت أميّ، كانت الحمّى تحرّقها كلّ ليلة، وتصيبها بالغثيان. كنت في بطنها لمّا مشت نحو الشاطئ لتحسّ ببرودة المساء، وتسمعَ تسبيح طيور الزّرزور. هبّ إعصارٌ في فبراير فضرب البحر ودمّر كلّ شيء. وذات ليلةٍ، عصفت الريح بالبيت عرضاً وطولاً، فأطفأت المصابيح والمشاعل. كان أبي في بور لويس. وقد وصل

على ظهر الحصان عند الفجر، عبرَ الدروب المفروشة بجذوع الأشجار التي اقتلعتها الريح. وكان في اليوم التالي، بعد الإعصار، أنْ وُلِدْت.

حرّقت الشمس بشرتي، وتخلّل الملحُ شعري فيبّسه وجعله ثقيلاً مثل خوذة. قالت سوزان ذات مرّة: «عليك أنْ تحذر». وأردفَت ضاحكة: «أنت أسود مثل غجريّ، لن يصدّق أحدٌ أنّك من آل أرشمبو». إنّه دم أماليا وليام الذي يجري في عروقي. احتفظ أبي بصورةٍ واحدةٍ لها فقط في شقّة مونبارناس، بباريس، التُقطت لها حينَ قدِمتْ إلى فرنسا في سنّ الثامنة عشرة. كانت نحيلةً سمراء، بوجهٍ بيضاويٍّ وحاجبين مقوسّين يلتقيان مثل جناحين، وشعرٍ طويل فاحمٍ في جديلة واحدة تنسدل كثيفةً على كتفها.

ظهرت سوريافاتي فجأةً، دون أنْ أحسّ بقدومها. كانت تقف في وسط البحيرة، ثوبها الطويل بلون البحر معقودٌ بين ساقَيها، ووجهها متوارٍ خلف الوشاح الأحمر الطويل. كانت تنبش تجاويف الشّعاب بحثاً عن قنافذ البحر والأخطبوطات، وتمشي بهدوء، كأنّني لست هناك. خرجتُ من الماء وارتديتُ ملابسي على عجلٍ خلف صخرتي. عبرَتْ رويداً الشريطَ الرّمليّ إلى الشاطئ، ولمّا صارتْ في مواجهتي، توقّفتْ وأزاحت وشاحها. أضاءت الشمسُ وجهها الناعم، فلمعَت حدقتاها الصفراوان. بدت لي أصغر سنّاً ممّا كانت عليه في ذلك اليوم، طفلةً أو تكاد، بجسدها النحيل اللّينّ، وذراعيها الطويلتين جدّاً، المطوّقتين بأساورَ نحاسية. وكان شعرها الأسود مُسّرحاً بعناية، مفروقاً عند جبينها بخطٍّ مستقيم.

ها هي الآن تقف أمامي، في مواجهة الشمس، فلا أرى إلّا طيفها. تتألّقُ مياه البحيرة من خلفها، وتنبعثُ من البحر، فوق الرّصيف المرجانيِّ، وشوشةٌ مطَمئنةٌ. إنّه أوّل يومٍ يكون كلّ شيء فيه هادئاً بحقّ. تردّدتُ في الحديث إليها فإذا بها تقولُ ببساطة، وبصوتٍ بالغ الصّفاء: «أتشعرُ بتحسّن؟» لا أستطيع أن أتذكّر إنْ كانت هي من رفع الكُلفة بيننا أوّلاً. أحببْتُ صوتها، وأسلوب حديثها المباشر. قالت:

- هل تسكنون في البيوت؟

وأشارت نحو الكرنتينة، في الطرف الآخر من الشاطئ.

قلت أجل، وقبل أن يُتاحَ لِيَ الوقتُ لأردّ عليها سؤالها، أردفت:

- أسكن في الطّرف الآخر مع أمّي.

فظننتُ أنّها تقيم هنا مؤقّتاً، مثلنا. لكنّها قالت:

- نعيش هنا منذ عام. تعمل أميّ لدى من ينزلون هنا، وتبيعهم الأشياء التي يحتاجون إليها، وتطهو لهم أيضاً. لكنّها الآن مريضة. وأنا أصطاد أسماكاً أو أخطبوطاتٍ كي أبيعها.

اعترتني دهشةٌ كبيرةٌ لِما سمْعت، فانعقد لساني. نظرَت إليّ لحظة، ثمّ قالت -ولم يكن سؤالاً وجّهته لي، وإنّما كانت تتحدّث إلى نفسها-:

- أمّا أنتم، فستغادرون قريباً إلى موريشيوس.

واستأنفتْ سيرها على رصيف المرجانِ والحربةُ في يدها. وكما في أوّل يومٍ، حاولتُ اقتفاء أثرها، لكنّ الطحالب البحريّة كانت تحجب الدّربَ، ثمّ إنّ انعكاسَ الشمس على الرّمل قد غشّى بصري. وصلتْ سوريافاتي إلى نهاية رصيف المرجان. كِدْت أسقط في الماء عدّة مرات،

وأعـادت رؤوس الشّـعاب المرجانيـة فتـح الجـرح تحـت إصبـع قدمـي الكبـيرة. فلـم يبـق أمامـي سـوى الرّجـوع إلى الشـاطئ. جلسـتُ عـلى صخـرةٍ أراقـب الفتـاة وهـي تصطـاد وسْـط البحـيرة. وأخـذتُ أنتظـر.

وطـال بيَ الانتظـار حتّـى مالـت الشـمس إلى الجانـب الآخـر مـن السـماء متواريـةً خلـف الغيـوم. بدأ المـدّ يعلـو. وشرعَت الطيـور تحوّم حـول رصيف المرجـان. هـذا هـو الوقـت الـذي تخـرج فيـه الأسـماك مـن جحورهـا، وهـو الوقـت المناسـب لصيـد الأخطبـوط: رأيت سـوريا[1] تغـرز الحربة بـين ثقوب الشّـعاب المرجانيّـة، ثـمّ تنزع منها الأخطبوط وتدسّـه في سـلّتها. تـردّد صدى هديـر الأمـواج في قاعدة الجزيـرة، وأعتمت مياه البحيرة ممتلئةً بعروقٍ سـوداء، وهـذا إنـذارٌ بـضرورة التّراجـع. كانـت الفتـاةُ تتبـع الشّـعاب المرجانيّـة نحـو الشـاطئ شـاقّة دربها بين الأمـواج، ثوبُها يصِف جسـدها، وشـعرُها يرفرف في الرّيـح. أظـنّ أنّـني لم أرَ مثلها من قبـل، إنّها أشـبه بإلهة. كان قلبي يخفق بشـدّةٍ، وعينـاي تحترقـان. لكأنّني كنـت برفقتها على رصيـف المرجان، أحـسّ بعجاج البحـر يلامـس بشرتي وشـفتَيّ، وضربـاتِ الأمواج عـلى الحاجز المرجـانيّ ترنّ بقـوّةٍ في أعماق جسـدي.

ولّمـا بلغَـت الفتـاة الشـاطئ، التفتـت إليّ سريعـاً دون أن تقـول شـيئاً. بـدا وجههـا، قبالـةَ الضـوء، أسـودَ أو يـكاد، لا يـشي بـأيّ تعبـير، وشـعرُها لامعـاً نحاسـيّاً. لا أفهـم لمَ لمْ أُبـدِ حـراكاً، كـما لـو كنـت في حلـمٍ، حيـث لا أقـوى عـلى شيءٍ سـوى النّظـر. كنـت جالسـاً عـلى صخـرتي منحنيـاً إلى الجنـب قليـلاً، أشـبهَ بطائـرٍ فضـوليّ.

رأيـت أطفـالاً يقبلـون مـن الأجمـةِ، عـلى الطـرف الآخـر مـن اليابسـةِ،

---

(1) مختصر اسم الفتاة سوريافاتي.

كانـوا يتراكضـون ويصيحـون: «سـوريا! سـوريا-فاااتي!»

لمحـوني، وتوقّفـوا لحظـةً عـلى حافـة الشـاطئ، إذ أحسّـوا بالخـوف، لكنّهـم مـع ذلـك ظلّـوا يضحكـون ويتحادثـون بأصـواتٍ خافتـة. ولا بـدّ أنهـم قـدّروا أنّنـي لسـت خطـيراً، إذ واصلـوا عدْوَهـم نحـو الفتـاة وتحلّقـوا حولهـا.

أخـذوا يراقبونهـا وهـي تُخـرج الأخطبوطـات مـن سـلّتها، فتقلِبهـا وتغسـلها بمياه البحـر، ثـمّ تعلّقهـا في نهايـة الحربـة، فيسـتولي عليهـا الأولاد كأنّهـا غنيمـة. لم تلتفـت نحـوي، ولا نـدّت عنهـا إيـماءةٌ تقصـدني، وأنـا لم أحـاول اللّحـاق بهـا.

حرّقتنـي الشـمس، فمشـيت مترنحـاً حتّـى بلغـتُ الكرنتينـة. عُـدت إلى عالمـي، إلى حيـث أنتمـي. ولم أبـالِ باسـتجواب سـوزان أو توبيـخ جـاك المُبهـم. كان الهـواء في الكـوخ الضيّـق خانقـاً مـن فـرط سـخونته، فاسـتلقيتُ عـلى الأرض مريحـاً رأسي عـلى كتلـة الحمـم البركانيّـة التـي اتّخذناهـا مقعـداً. وبعينـينَ مفتوحتَـين عـلى اتّسـاعهما في غبـش العتَمـة، أخـذتُ أفكّـرُ بالغيـوم التـي تتكاثـف، راجيـاً أنْ يـأتيَ المطـر.

15 يونيو

في هـدوء الأيـام الثلاثـة الأخيرة، اسـتولت الحماسـة عـلى سـكّان الجزيرة. فصِرنـا ننتظـر في كلّ لحظـة إشـارة وصـول المركـب الشراعـيّ وهديـر محرّكاته ونـداء صافرتـه. سـادَ شيءٌ مـن بهجـةٍ خادعـةٍ في الكرنتينـة، وصـار جـاك يصطحـب سـوزان فجـراً إلى الشـاطئ، عـلى الرصيـف المقابـلِ لجزيـرة غابريـال، فتفتـح مظلّتهـا السـوداء ويحتميـان بهـا مـن الشـمس، مُفترشَـين

الرّمـل، كـما لـو كانـا يقضيـانِ إجـازةً في مـكان مـا، في إنجلـترا أو بروتـاني.

ذهبـتُ لأسـتعيد ثانيـةً مركـز المراقبـة الخـاصّ بي أعـلى الـبركان، قـربَ المنـارة، فكانـت في انتظـاري مفاجـأةٌ غـير سـارّة، إذ وجـدتُ فـيران الفاسـد هنـاك، بصحبـة بارتـولي الـذي يلازمـه دومـاً. وقـد نصـب في المـكان نوعـاً مـن ظُلّـةٍ قماشـيّةٍ مثبّتـةٍ بحجـارةٍ ثقيلـة، ومُجهّـزةٍ بمنظـار. كان يتفحّـص الأفــق الشّــديد الصفــاء، وكانــت هــذه أوّلَ مــرّة تتحــرّر فيهــا قمــمُ موريشـيوس بالكامـل مـن الغيـوم، وتبـدو حافـة الشـاطئ البيضـاء بهـذا الوضــوح.

وعـلى قلّـة رغبتـي في مرافقتـه، فقـد وقفـت طويـلاً عـلى حافـة فوهـة الـبركان أتأمّـل الجزيـرة الأمّ. لم يسـبق لي أنْ رأيتهـا أقـرب مـن هـذا، ولا أكثـر أُلفـةً: طـوْقٌ عظيـمٌ مـن خُـضرةٍ ونعومـةٍ يرسـو عنـد خـطّ الأفـق. شـعرتُ بقلبـي ينبـض بقـوّة والشّـغف يمـلأ جسـدي، حالـةٌ أشـبه بنشـوة السُّـكْر، مثلـما يحـدث حـينَ تجـد نفسـكَ فجـأةً، بعـد أنْ مشـيتَ لسـاعاتٍ، عنـدَ حـدود المـكان الـذي خرجتَ باحثـاً عنـه، فتـدرك أنّ الوصول وشـيك. وأظـنّ أنّنـي لوّحـتُ بذراعـيّ مثـل غريـق، كـما لـو أنّ عينَـين ودودتَـين كانتـا تبصرانـني، وأنّ قاربـاً كان ينسـاب بطيئـاً نحونـا.

علّـق فـيران قائـلاً: «لـن يأتـوا عاجـلاً، سـوف ينتظـرون الجَـزْر الهابـط بعـد ظهـيرة هـذا اليـوم». كان يقـف إلى جانبـي، ويتكلّـم بنـبرةٍ وَدودٍ أو تـكاد. وحتّـى بارتـولي، المتحفّـظ عـادةً، قـد بـدا مبتهجـاً.

تركتهـما يراقبـان في مكانهـما وعـدْتُ أدراجـي إلى مبـاني الكرنتينـة. وفيـما أنـا أهبـط الـدّرب سريعـاً بـين كتـل البازلـت، في وجـه الشـمس الحارقـة، انتابنـي إحسـاسٌ غريـب. وكأنّ هـذا الأمـل قـد ولّـدَ فيّ قلقـاً مـا، أشـبه

ببقعة معتمةٍ أو قشعريرةٍ تسارعت لها دقّات قلبي. لم أفهم ما حدث لي. فما كدتُ أتيقّنُ من قربِ الخلاص حتّى أخذَت صورة سورياڤاتي تتمايل أمام عينَيّ مثل لهب، أو مثل سرابٍ على مياه البحيرة الملساء، صورة وُلدت من الأمواج المتكسّرة على الحاجز المرجانيّ، وها أنذا على وشكِ أنْ أفقدها إلى الأبد.

ركضتُ حافياً عبر الأجمات، دائساً الحمم البركانيّة الحادّة دون أنْ أشعر بالألم، ودنوْت من الساحل فلم يكن هنالك مخلوقٌ، كان الشاطئ الطويل المبهر خالياً. فقد غادر الجميع مباني الكرنتينة وتوجّهوا لمشاهدة وصول المركب الشراعيّ إلى خليج باليساد. وحده مبنى المستوصف الصغير الواقع قربَ الرصيف لم يُهجر، فقد ظلّ تحت حراسةِ عبّار المياه المسنّ الذي لا ينتظر أحداً ولا شيئاً. وفي الغرفة الحارّة، كان العريف البحريّ نيكولا والسيّد تورنوا راقدَين في فراشَيهما، وجهاهما متورّمان من شدّة الحمّى، بعيونٍ محدّقةٍ لا ترمش، وفاهَين فاغرين يتنفّسان بمشقّة.

كنت آمل أن أصادف سورياڤاتي على الشاطئ، عائدةً من صيدها اليوميّ. توقّفت الرياح، وسطَعت الشمس حتّى كادت تغشّي الأبصار، وسْط سماءٍ شديدةِ الزّرقة. فعبرتُ الأجمات بحثاً عن الدّرب الذي كانت تأتي منه، وعن آثار خطواتها في الرّمل. ثمّ عدتُ إلى الشاطئ، كما لو كانت ستظهر فجأة على منحنى الشّعاب المرجانيّة في منتصف البحيرة. أصابني ارتدادُ الضوء بالغثيان والدوار، وتيبّسَ حلقي. سيغادر الجميع ما إنْ يصل قارب موريشيوس، وفق مشيئة مكتب الهجرة. سيختفون، وينتهي كلّ شيء.

اشتدّ ضيقي حتّى أنّني صرختُ باسمها بكلّ قوّتي، مثلما فعل الأطفال في ذلك اليوم: سورياڤاتي! كان اسماً سحريّاً يمكنه أن يوقِف كلّ شيء، ويمكنه أن يُديمَ إلى الأبد اللّحظةَ التي رأيت فيها الفتاة واقفةً على الرّصيفِ المرجانيّ، كما لو كانت تمشي على الماء.

كانت الطيور تحوّم مهتاجةً حول صخرة لوديامو، بما فيها طيور رئيس البحر التي قدِمت من أوْكارها في جزيرة غابريال لتحلّقَ في دوائرَ كبيرةٍ فوق البحر الواسع، ومن حينٍ إلى آخر تهوي مثل حجارةٍ ساقطةٍ كي تغطس في الماء. كان المدّ يعلو بسرعة، فأيقنتُ أنّ سوريا لن تأتي. وأخذت الأمواج تضرب قاعدة الشّعاب المرجانيّة، باثّةً دفقاتٍ كبيرةً من بخارٍ متوّهج. هبّت الرّيح من جديدٍ، نسيماً يتبع حركة الأمواج. واضطّربت مياه البحيرة، فلمحتُ على مقربةٍ من الشاطئ ظلّاً يعبر سريعاً، مثلَ كلبٍ في قاع الماء. كانت هذه سمكةَ الباراكودا، أو التّازور، سيّدةَ البحيرة. لم تكن سوريا تهابها، لكنّ المسنّ ماري أخبرني أنّها تعضّ من لا تعرفهم.

جاء جاك ليأخذني معه. كان يرتدي ملابس الرّحلة العظيمة، سترةً رماديّة، وصداراً وربطة عنق، وقبّعته «البنما» المدعوكة، وقدماه عاريتان في حذائه الأسود الذي انتعله على عجل. كان مضطرباً قلقاً.

- تعال، ماذا تفعل هنا؟ قد نرحل اليوم.

وحين نظرتُ إليه مُستفهماً، كاد يصرخ.

- وصل قارب الخدمات الصحّية إلى باليساد. علينا أن نتحدّث إلى الموظّفين كي نقنعهم بنقلنا. ولا بدّ أنْ يروا أنّك لست مريضاً.

- وسوزان؟

- لقد صارت هناك، مع فيران وبارتولي. هي من أخبرتني بمكانك، اعتقدتُ أنك ذهبتَ قبلنا. ماذا كنت تفعل هنا؟

لم يكن من السّهل عليّ إخباره لمَ أنا هنا. قلتُ له وهو يشدّني من ذراعي:

- وماذا عن الآخرين؟

بدا أنّه لم يفهم قصدي على الفور، فردّد ما قاله من قبل:

- سوف أهتمّ بالأمر. علينا أوّلاً أنْ نخرج من هنا. بعد ذلك، في موريشيوس، سنعالج كلّ شيء، سأطلب من ألكسندر أنْ يتدخّل. لكنْ ما دُمنا هنا، لا يمكننا فعلُ أيّ شيء.

كانت هذه أوّلَ مرّةٍ يتحدّث فيها عن ألكسندر بمعزلٍ عن كونه العدوّ المطلق. كانت عيناه تشيان بقلق واضطرابٍ من خلف نظّارته. التفتَ نحو البركان، علّه يلتقطُ إشارةً ما.

- هل ستأتي في نهايةِ المطاف؟ لا أستطيع انتظارك أكثر!

انطلق راكضاً عبر الأجمات في اتّجاه البركان. ولمّا صار بعيداً، التفتَ إلى الوراء صائحاً:

- ليون! أسرِعْ!

كان جاك قد لَمْلَم أمتعته على عجل. أمّا أنا، فأخذتُ بدوري حقيبتي المحتويةَ على كتاب شِعر سوزان وكرّاسِ رسمي.

وفي الطريق إلى البركان، تحدّث بعصبيّة عمّا كان يحدث على الجانب الآخر.

- إنّنا مقبلون على موجةِ شغب. علينا أن نتصرّف بسرعة قبل أن تسوء الأمور. المهاجرون كلّهم على الشاطئ. لم أتخيّل قطُّ

أنّهم بهذا العدد. لقد فهموا أنّ القارب لم يأتِ من أجلهم، وهم غاضبون الآن، ومستعدّون للقفز في البحر لاقتحامه.

- لكن ألنْ يأتيَ المركب الشراعيّ؟

- لا أعرف. لا أريد أن أنتظره.

أخذ جاك يركض ثانيةً على طول الطريق لاهثاً، وكان يحمل حقيبته الطبيّه وحقيبة سفر سوزان. عبرنا المقبرة القديمة وقفزنا من فوق القبور المدمّرة. توقّفَ لحظةً كي يلتقط أنفاسه. شعر بنخزةٍ في خاصرته، فقطّب وجهه.

- ظلّوا في عرض البحر، ولم ينزل منهم أحد. أتفهم؟ إنّهم لا يريدون حملنا. ولا يريدون حمل أيّ كان. عليك أنْ تكون هناك، فلا بدّ أنْ يرونا جميعاً معاً.

- ولكن لماذا؟

أخذتُ أصرخ أنا أيضاً، إذ لم أعد أقوى على التنفس، وقد خدشَت أوراق الشّجيرات ساقَيّ. انتبهتُ فجأة إلى أنّني كنت حافياً: لقد نسيت حذائي في الكرنتينة. أردتُ أن أعود، لكنّ جاك صاح:

انسَ أمره، ليس لدينا وقت، ستشتري غيره في بور لويس.

كان صوته متوتّراً غريباً. أدركتُ ما كان يحدث في باليساد، إنّه الغضب العامّ.

عبرتُ التّلال التي تفصل بين طرفَي الجزيرة، فتسمّرتُ أمام ما رأيت: تكتّل الحشد على طول خليج باليساد، وقد تجمّع معظمهم في منتصف الرّصيف حيث يعمل العمّال كلّ صباح، واقفين على كتل الحمم البركانيّة، فيما تقدّم آخرون نحو ألواح البازلت الكبيرة على

الرّغـم مـن الأمـواج المتلاطمـة، ومياهُ البحـر تغمرهـم حتّـى الخُصـور. وكان المسـافرون الأوروبيّـون يقفـون عـلى الشـاطئ إلى يسـار الخليـج، بجـوارِ سـقيفة النخيـل التـي اتُّخِـذت مسـتودعاً. احتمـت سـوزانُ بالسّـقيفة، متّكئـةً عـلى إحـدى دعاماتهـا، وكانـت تنتظرنـا هنـاك. التفتَـت نحونـا. لم تومـئ لنـا، لكنّنـي عرفـت أنهّـا رأت جـاك يهبـط راكضـاً الـدّرب المفـضي إلى الخليـج. مكتبة سُر مَن قرأ

ليـس الشـاطئ كبـيراً بـما يكفـي لاسـتيعاب جميـع المهاجريـن. فبقـي كثـيرٌ منهـم في الدّغـل في نهايـةِ الخليـج، متربّعـين عـلى الأرض. وأقبلـت النسـاء بمظلاتهـنّ السـوداء، مِلكهـنّ الوحيـد. لقـد تركـوا جميعهـم العمـل والحقـول، وجلبـوا معهـم عـلى عَجـلٍ بعـض الأمتعـة مـن البيـوت الجماعيّـة، وحـضروا إلى هنـا يراقبـون مركـب خفـر السّـواحل، وهـو سـفينةٌ بخاريّـة صغـيرة تـدور حـول مرسـاتها عـلى بعـد بضعـة أطـوالٍ كَبليّـة[1] مـن الشـاطئ. لا أحـد يتكلّـم، كلّ شيءٍ صامـتٌ خـلا هديـر المحـرّك المنتظـم، ومـن حـينٍ إلى حـينٍ تُسـمع صرخـة طفـلٍ أو صيحـةُ نـداء. حتّـى الـكلاب هـي الأخـرى قـد سـكتت عـن النبـاح. كانـت مُقعيـةً أمـام البيـوت الفارغـة وخطومهـا في الـتراب، كأنّهـا هـي أيضـاً تترقّـب حـدوث شيءٍ مـا.

عـلى الشّـاطئ، غـير بعيـدٍ عـن ركّاب لافـا، رأيـت صُرراً عالقـة، وبراميـل نفـط، وحقائـب عامـت حتّـى وصلـت الشّـاطئ. ولم يتكّبـد أحـدٌ عنـاء سـحبها إلى اليابسـة، وكانـت الأمـواج المتلاطمـة تغمرهـا بالزّبـد وتحملهـا مُلقيـةً بهـا بعيـداً. بـدا أنّ ضابـط السـفينة لا يرُيـد المجازفـةَ بعمليّـة

(1) Encablure: طول كَبليّ، وحدة قياسٍ بحريّة تساوي عُشْر ميلٍ بحريّ.

إنـزال، إمّـا لإدراكـه أنّ أمـواجَ البحـرِ أعتـى مـن أنْ يصمـد أمامهـا زورقُـه، أو لخشـيته مـن هجـوم المتمرّديـن. ولـمّـا دنـوت، لاحظـت أنّ بعضـاً مـن أفـراد الطّاقـم كانـوا مسـلّحين. كانـوا يقفـون عـلى سـطح السـفينة ويحملـون بنـادق شـنايدر الثقيلـة التابعـة للجيـش البريطـاني في الهنـد.

ابتعـدَ جـاكَ عنّـي، صـارَ عـلى الشـاطئ. ولـمّـا اسـتأنفتُ المسـير هابطـاً المنحـدر بـين الصخـور الحـارّة، سـمعت صخبـاً يمـلأ خليـج باليسـاد بأكملـه. كانـت تلـك صيحـةُ ضيـقٍ وغضـبٍ جماعيّـة، تعلـو ثـمّ تخفـت، ثـمّ تُسـتأنف مـن جديـد، وتـسري في جميـع أنحـاء الشـاطئ مـن فـمٍ إلى فـم، يطلقهـا الرجـال والنسـاء معـاً، عميقـةً تـارةً، وصاخبـةً تـارةً أخـرى. لم أسـمع مثلهـا مـن قبـلُ قـطّ. سَرَت رعشـةٌ في جسـدي كلّـه، فقـد كان ذلـك أيضـاً نشـيداً وموسـيقى بقـدر مـا هـو صرخـة غضـبٍ وأنـين. كان ضابـطُ الصّحـة الـذي ينتظـر عـلى سـطح السـفينة بـين الرّجـال- ويميّـزه عنهـم بيـاض زيّـه الرسـمي المُبهـر-، قـد أعطـى القـرار بالإبحـار فـوراً. رفـع البحّـارة المرسـاة عـلى طـول الجؤجـؤ ودخـل الضّابـط بـرج السـفينة الخلفـيّ لإعـادة تشـغيل المحـرّك، فـتردّد صـدى هديـر المحـرّكات في الخليـج. أثـار هـذا الضجيـج ومعـه مشـهد عمـود الدخـان الأسـود غضـب المهاجريـن. فقـد فهمـوا أنّ مركـب خفـر السـواحل يسـتعدّ للرحيـل، وأنّـه سـيتركنا جميعـاً لمصيرنـا.

ولـمّـا بلغـتُ الشـاطئ، كان الحشـد هائـلاً. وكان الرّجـال يهرولـون في كلّ اتجـاهٍ وقـد اسـتولى عليهـم اليـأس والحنَـق. فتركـوا حقائبهـم وأشـياءهم وتوجّهـوا إلى الشـاطئ، وخاضـوا في البحـر رغـم الأمـواج وهـم يصبّـون اللّعنـات. اختفـى متعهّـدو العـمّال وزعيمهـم السـردار الشّـيخ حسـين. ولا

بدّ أنّهم لجؤوا إلى الصّخور أعلى الخليج. فلا أحد يستطيع احتواء غضب الحشود. هؤلاء الرّجال الذين كانوا حينَ رأيتهم أوّلَ مرّةٍ في غاية الهدوء يسيرون نحوَ السدّ في طوابير منتظمةٍ، منحنين تحت وطأةِ سلال الحصى، بدوا في تلك اللّحظةِ ممسوسين، وقد ارتمى بعضهم على الأرض، والدّمُ يقطر من وجوههم. أمّا النّساء والأطفال المذعورون فقد حاولوا الفرار نحو بيوت قرية العمّال، فأجبرهم رجالٌ مسلّحون بالهراواتِ وفؤوس الأدغال على التّراجع. وكنت كلّما دنوْت من المكان الذي لجأ إليه ركّاب **لافا**، شعرتُ بقلقٍ يخنقني: فمِن حيث كنت، لم أستطع أنْ أرى سوى كتلة الحشد المتراصّة تموج في حركةٍ دائريّةٍ حول سقيفة المستودع. أعاد الحصى الحادُّ المتناثر على الرّمل فتح الجرح في قدمي اليمنى فتقدّمتُ بمشقّة. وفجأةً لاحَ لي وجه جاك من خلال ثغرةٍ. كان متشنّجاً من الخوف والغضب. هو أيضاً كان يصرخ ويلوّح بقبضته. أمسك بيد سوزان وحاول التراجع إلى الوراء، لكنّ الحشد كان كثيفاً جدّاً ودفعهما إلى الخلف نحو الشاطئ، فوقف كلاهما للحظةٍ موليَين ظهريهما إلى الأمواج المتلاطمة مغمورَين بزبدها. أمّا ركّاب **لافا** الآخرون، جون وسارة وبارتولي وجوليوس فيران، فقد اختفوا. ربّما أسعفهم الوقت فنجحوا في الفرار إلى جرف البركان. جلتُ ببصري باحثاً أيضاً عن سوريافاتي، حاولتُ أنْ ألمح طيْفها، أو وجهها، لكنْ لم يعد من حولي سوى شبّان فارّين، يركضون شبهَ عراةٍ، وعيونهم تقدح جنوناً. ثمّة نساءٌ بالقرب من موضع بناءِ السّد، وإلى جانبهنّ بعض الصّرر، وأطفالهنّ يتسلقون ظهورهنّ، كما لو كنّ سيركبن قارباً حقّاً ويذهبن بعيداً جدّاً. لم تكن سوريا معهنّ.

فلا بدّ أنّها بقيت مع والدتها في حيّ المنبوذين على الطرف الآخر من الخليج. كان يستحيل بأيّ حالٍ الذّهاب إلى هناك. سرتُ متردّداً أترنّح يَمنةً ويَسرةً بين الناس الذين يركضون، فإذا بي أسمع صوت سوزان يناديني. وفجأةً وصلتُ البحر. جعلنا أنا وجاك من جسدَينا درعاً، وتقدّمنا نحو آخر الشاطئ، وكدنا نتزحلق على الأرض البازلتيّة. هنا، على الأقلّ، لا يمكن للمعتدين أن يطوّقونا. لم يتوقّف الصّخب في خليج باليساد، بل علا وازداد اضطراباً مع تلك الأصوات التي تصيح وتنادي، وتهدّد في الوقت ذاته. كان فتيانٌ بأجسادٍ تتلألأ بالعرق ومياه البحر، عراةٌ سوى من مآزرَ، يركضون في الماء من حولنا ويشتموننا، ويرشقون الحجارة نحو مركب خفر السواحل الذي أخذ يبتعد. استدرتُ، ورأيت الأطياف تقف على متنِه، وقد صارت مجرّدَ ظلالٍ في وجه الشمس. بدّد هبوب الرّيح الدّخان، وما عدنا نسمع هدير المحرّكات. اندفعت السفينة وغابت في تجاويف الموج، وسرعان ما توارت خلف قمّة البركان. وتلاشت الاصواتُ البشريّة في اصطخاب الموج. ودفعت دفقاتُ الموج العالي الشبّان الذين كانوا حولنا، فخرجوا من الماء عائدين إلى الشاطئ. اصطحبتُ سوزان إلى حقل الحجارة البازلتيّة عند قاعدة البركان، ملاذِنا الوحيد، هنالك حيث يتدفّق تيّار المياه العذبة. وإذ كنا نتسلّق الصخور، رأيت وجه جاك ينزف. فقد تلقّى أحد الحجارة التي رشقها الصبيان، أصابَه فوق عينه اليسرى، فتحطّمت عدسة نظّارته. بلغنا منحدر البركان الجنوبيّ في اللّحظة التي كانت فيها سفينة خفر السواحل تبتعد مسرعةً في البحر المخضرّ، جارّةً خلفها زورقها الخالي الذي كان يترنّح في مخرها.

15 يونيو

وجدتُ هذا الصباح مستعمرةً من نبتة الأيْميّة، في أرضٍ قليلة الشجر. الورقة بطول نصف قدم، مدبّبةٌ، تشبه على الأرجح النوع البولينيزيّ الطارئ (جلبه القراصنةً على ما يبدو).

توّغّلتُ في باليساد بهدف التعرف على أشجار النخيل. نخلةِ الإيبورب، من نوع الأماريكاوليس، وهي شبيهةٌ بالنخيل الكرنبيّ، لكنّها غير صالح للأكل كما يبدو لي.

على مقربةٍ من القرية، ثمّة مجموعةٌ من نخيل اللّاتان (حوالى 50 قدماً) ذات أزهار لافتةٍ إبطيّة، وأغصانٍ ذات فرعَين، وكلّ فرع مغطّىً بوعاءِ طَلعٍ مجدوعٍ ومائل.

عاينتُ (من مسافةٍ بعيدة باستخدام المنظار) بعض عينّاتٍ من الصبّار الأمريكيّ، حاول زرعَها على الأرجح المحتلّون الأوائل لأغراضٍ طبّية.

لا أثرً لفاكهة الخبز (بريدفروت)، التي لو توفّرت لكانت ذات نفعٍ للكرنتينة.

16 يونيو

استمرّ الشّغب طوال اللّيل. نمنا في الكرنتينة، سوزان وسارة ميتكالف في عمق الدّار، فيما تناوبنا أنا وجاك وجون على مراقبة المكان. بين الحين والحين كانت الريح تجلب معها من طرف الجزيرة الآخر صيحاتٍ قويّةً أو وقعَ خطواتٍ في الغابة المحيطة. وكانت الكلاب تنبح على الدّوام. انتشرت رائحة دخانٍ لاذعة، وهُيّئ إليّ أنّني أسمع طقطقة ألسنة لهب في مكان قريب، فخرجتُ وسرت بضع خطوات باتجاه الشاطئ. كان اللّيل حالكاً ومُثقلاً بالغيوم، لكنّني رأيت وهج النيران، بقعةً حمراء تومض فوق الأشجار. قضى بارتولي وفيران الفاسد اللّيل عند فوّهة البركان. وبلغ الأمرُ بفيران أن لوّح بسلاحه متفاخراً: مسدّس رسميّ كان يُخفيه بين مستلزماته، ويُخمّن جاك أنّه قد سرقه من جثّة أحد الفيدراليّين[1]. أبهذه الوسيلةِ كان يبتغي احتواء العصيان؟

هدأ التمرّد عند الفجر. توقّفَ مثلما بدأ، بلا سبب. ربّما لأنّ تلك اللّيلة المجنونة قد استنزفت كلّ القوى.

وعاد فيران وبارتولي. قالا إنّ الهنود دخلوا البيوت ليناموا. حُرقَت بعضُ أكواخ المنبوذين حول باليساد. وعلِمنا لاحقاً بما حدث: كان شبّان ثمِلون قد دخلوا بيت عاهرةٍ تدعى رَسامهْ واغتصبوها. ثمّ توقفت أعمال الشّغب عند مشهد العنف العبثيّ والمحتوم ذاك، الأشبهِ بطقوس القتل. وحبَس الشّيخ حسين الجناة في الكوخ الذي نمنا فيه ليلةَ وصولنا.

(1) أُطلقت التّسمية على الجنود الفرنسيّين الذين تمرّدوا والتحقوا بكومونة باريس سنة 1871.

كنت قريباً من سوزان، كانت ترتجف، فقد أدّت أحداث اللّيلة الماضية إلى انتشار نوبة ملاريا، فعُقِد اجتماع تفاهم أمام البيت شارك فيه مبعوثان من طرف الشّيخ حسين. سمعتُ أصواتاً عالية، كان جاك يقول: «وماذا عن الماء؟ ومن سيعتني بهما، وأين سيمكثان؟». وكان فيران يتحدّث عن الصّهاريج كملجأٍ مؤقت. فهمتُ أنّه يريد عزل مريضَينا، نيكولا والسيّد تورنوا، وإرسالهما إلى هناك. استولى الغضب على جاك. كان هو من تحدّث عن الهنود الذين نسيَهم الإنجليز في جزيرة غابريال عامَ 1856، أمّا فيران فكان لا يمانع في إرسال هذين المريضَين إلى الموت كي يتمكّن هو من مواصلة رحلته. سمعته يتحدّث عن حالة الطوارئ، ويردّد عبارةً عبثيّةً فارغة: «إنّها مسألة حياةٍ أو موت». كان متحمّساً منفعلاً. ولمّا اتّضح أنّ الأغلبيّة لا توافقه الرّأي، اقتُرِحَ اللّجوء إلى التصويت. كان متعهّدا العمّال واقفَين أبعدَ قليلاً، لا ينبسان ببنت شفة. فهما لا يفهمان النقاش بين جاك وفيران، لكنّهما حضرا هنا كي يصطحبا نيكولا والسيّد تورنوا. وكان في هذا المشهد شيءٌ شرّيٌر وغريبٌ في الوقت ذاته، لكأنّنا كنّا نشارك في محاكمة هذَين التعسَين طريحَي الفراش في المستوصف.

لم أعد أحتملُ أكثر. عانقتُ سوزان وتركتها مع سارة. مشيت في نسيم الصّبح العليل إلى الشاطئ. وبالقرب من الرصيف، رأيت أنّ المسنّ ماري قد جرّ مسبقاً القارب المسطّح إلى الماء، ووقف ينتظر لحظة المغادرة. كان القمر لا يزال يومض بين شقوق الغيم، وضوء النهار يتلألأ على أعراف الموج.

كنت في حاجةٍ لأنْ أرى سوريافاتي، تملّكتني رغبةٌ قويّة في أنْ ألمح طيفها النّحيل عند البحيرة سالكاً درب الشّعاب المرجانيّة الخفيّ.

أحسست أنّها هي وحدها من تقدِر على محو ما حدث، صخبِ التمرّد في خليج باليساد، والخوف الذي تملّكَ سوزان ونحن نحاول الفرار، والدّم الذي سال على خدّ جاك، وكلّ تلك اللّيلة بجلبةِ أصواتها ووهج نيرانها. لكنّ الشاطئ ظلّ خالياً، ولم تلُح أيّ بارقة أمل.

كنت لا أزال على الشاطئ حين أخذ القارب نيكولا والسيّد تورنوا إلى جزيرة غابريال. حمل متعهّدا العمّال نيكولا على نقّالة مرتجلةٍ من عصوين وملاءة، فيما سار تورنوا خلفهما مرتدياً قميص المشفى الواسع. لم ينظر إلى أحد، ركِب القارب وجلس إلى جانب نيكولا، كما لو كان يرافقه. وكان السّردار قد أرسل معهما اثنين من المرضى الهنود من باليساد، من باب المساواةِ بين الطرفين، كانتا امرأتين، عجوزاً وأخرى أصغر سناً، من حيّ المنبوذين على الأرجح، متلفّعتَين بغطاءيهما. وزُوّد القاربُ بغطاءٍ قماشيٍّ مرتجلٍ لحمايته من الرياح. صعد جاك أوّلاً في المقدمّة، ووقف المسنّ ماري في مؤخّر القارب متكئاً على مُرْدِيِّه الطويل[1]. وفي ضوء الفجر الرّماديّ، أخذ القارب الذي تسلّل إليه الماءُ يبتعد ببطءٍ على صفحة البحيرة، ولم أستطع إلّا أنْ أفكّر في رحلة الملّاح الأخيرة[2]. فكم رحلةً ستتبعها يا تُرى؟

عاد جاك من جزيرة غابريال شاحباً مضطّرباً. لم يرغب في المكوث هناك طويلاً، فقد كان يتعجّل العودةَ إلى جانب سوزان. سِرْنا معاً

(1) المُرديّ: عصا خشبيّة طويلة ينحّي بها الملّاحُ القارب عن الأَرض أَو يدفعه بها.

(2) إشارة محتملة إلى مطوّلة الشاعر الإنجليزيّ صامويل تايلور كوليردج Samuel Taylor Coleridge «قصيدة الملّاح الشّيخ» «The Rime of the Ancient Mariner».

حتّى الكرنتينة، دون أن نتبادل كلمة. كنت قد سخرتُ منه لأنّه أذعن لفيران الفاسد. لكنّني فهمت الآن أنّه كان إجراءً لا مفرّ منه. كانت تلك إرادة السّردار الذي على ما يبدو قد تلقّى الأمر من موريشيوس، حين نزلنا من المركب الشراعيّ.

كانت سارة تجلس بجوار سوزان، وتحاول أن تقنعها بتناول بعض ماء الأرزّ، لكنّ الحمّى كانت قد استبدّت بها، فلم تستطع أنْ تأكل أو تشرب. ما عادَ لدينا سوى ذلك الماء الفظيع بالبرمنغنات[1]. ولم يمتلك أحدٌ العزيمة لصنع الشاي في ذلك الصباح.

لم تفارقنا ذكرى تلك اللّيلة ورحيل المرضى. ذهبتُ إلى الشّاطئ أتأمّل البحيرة السّاحليّة. كانت مياهها صقيلةً كأنّها صفحة بحيرةٍ عاديّةٍ[2]. ارتسمَت حدود جزيرة غابريال في الأفقِ الصّافي، وتبدّت قمّة صخرتها حيث تعيش طيور رئيس البحر، وأطلال منارتها. وقد ضُرِبت خيْمة المرضى على الطّرف الآخر من الجزيرة في مأمنٍ من الريح، فكان يستحيل رؤيتها.

قال جاك، وكأنّه يريد تفريغ غضبه: «كيف بلغ بنا الأمر هذا الحدّ؟» ولم يجرؤ على النّظر في عينَي سوزان. لقد انضمّ، دون أنْ يدري، إلى معسكر فيران، ملقياً باللّائمةِ على السّردار: «أين كان بالأمس؟ لم نَره. كان هو من رتّب كلّ شيء، ولم يحاول تهدئة الأمور. إنّني لم أسمع صافرته اللّعينة ولو مرّةً واحدة!».

(1) permanganate : الاسم العامّ للمركّب الكيميائيّ الذي يحتوي على أيون المنغنات، ويستخدم لأغراض طبيّة.

(2) تختلف البحيرة الساحليّة أو الهوْر (lagune) عن البحيرة العادية (lac) في العمق ونوع الماء ودرجة حرارته، وعوامل أخرى. فالبحيرة الساحليّة أقلّ عمقاً ومياهها أكثر ملوحةً ودفئاً.

كان قوسا حاجبيه قد تورّما، وجفّ الدّم على جفنه. وقد شطر زجاجُ نظّارته المكسور نظرتَه. كان يتحرّك بعصبيّة، ويداه جافّتان لاهبتان. هو أيضاً قد تعرّض لنوبة ملاريا. أتذكّره وهو يصف ليَ الحمّى التي كانت تزوره في المدينة. كان يتحدّث عنها كأنّها ريحٌ تهبّ في الحقول، أو موجةٌ تغزو كلّ شيء في بيت عزبة آنّا، الأروقةَ وغرف النوم، وتسكن الملاءات المبلّلة وماء الأباريق والهواء وظلّ الفيراندا، وتختلط بدخان المطابخ وصرخات الزّرزور في المساء، وحفيفِ أوراق الكزوَرينة، ووشوَشة البحر، مثل غثيانٍ أو خوفٍ يسرّع نبضَ القلب، ويقشعرّ منه البدن، كما يحدث عشيّة العاصفة.

«لماذا لا يُحرِّكُ ساكناً من أجلنا؟». قَدِمَ جاك إلى الشّاطئ محاولاً أنْ يلمحَ خطّ موريشيوس عبر جزيرة غابريال، حيث الغيوم الحلزونيّة معلّقةٌ برؤوس القمم. «لا أحد يهتمّ لأمرنا، أو يدعو إلى إطلاق سراحنا!» لمْ يشأ أن يلفظ اسم ألكسندر. لكنْ لا بدّ أن كبير العائلة يعرف أين نحن. يستحيل أنّه لم يُبلَّغ بالأمر. وإذا كان لا يفعل شيئاً، فذلك لأنّه يبيّتُ أمراً ما. لسنا سوى أشباحٍ في نظره. فبعد أنْ غادر أنطوان وأماليا موريشيوس منذ ما يقارب عشرين عاماً، لم يعد لنا وجود.

ولم يتبقّ سوى محونا، مثلما حدث للعمّال الذين كانوا على متن سفينة ليداريه في ربيع عام 1856.

حاولتُ طمأنته: «كلّ شيء سيكون على ما يرام. إنّها مسألة أيّام». لكنّ الحُمّى منعته من الاستماع إليّ. حدّقَ فيّ دون أن يفهم. ولربّما أخطأتُ أيضاً ورددّت عبارة فيران: «مسألة حياة أو موت». لم أعد أعرف.

ساعدتُ جاك في العودة إلى الكرنتينة. كان يمشي بمشقّة. قال: «كأنّني أحمل شخصاً على ظهري». فخطرَلي **شيخ الجبل**[1]، وقلت له: «فلا تقطع به النّهر!» توارى خلفَ شُجيرةٍ كي يقضيَ حاجته، لكنّه لم يستطع. كانت ساقاه ترتعشان وأسنانه تصطكّ من الحمّى. حاول تمالك نفسه حتّى لا تراه سوزان في هذه الحالة. وأعطيتُه الكينين[2] مع البرمنغنات.

كانت سوزان مستلقيةً، بدت كأنّها نائمة، لكنّها كانت تنظر من بين رموشها، وشعرهُا الكستنائيُّ الجميل مثقلٌ بالعرق ومُرخىً على كتفَيها. لمّا وصل جاك همسَت باسمه. استلقى إلى جانبها، فنظرتُ إليها بعطف. يكبرني جاك بتسعة أعوام، لكنْ بدا لي في تلك اللّحظةِ أنّني أنا شقيقه الأكبر، وينبغي عليّ حمايته، وحماية سوزان بوصفها أختي. كنت أحبّها.

(1) الأرجح أنّ الإشارة هنا إلى حكاية سندباد الشهيرة الواردة في ألف ليلة وليلة: يلتقي المغامر سندباد على جزيرةٍ مهجورةٍ بشيخٍ متعبٍ فيشفق عليه ويحمله على ظهره ليعبر به النهّر، لكنّ الشيخ الشرّير يشبك قدميه بإحكام على رقبة سندباد فيكاد يخنقه، ولا ينجح المغامر في التخلّص منه إلّا بعد أن يسقيَه شراباً مُسكِراً يجعله يتراخى.

(2) Quinine: مركّبٌ شبه قلويّ، أبيض بلوريّ ذو خصائص طبيّة منها خفض الحرارة وعلاج الملاريا.

17 يونيو

استوطن القلق الكرنتينة. شرح بارتولي وجوليوس فيران وضع مخزوننا: عشرون كيلوغراماً من الأرزّ والأسماك المجفّفة لمدّة أسبوع تقريباً. ونفطُ الإنارة سينفد في غضون يومَين أو ثلاثة. كان السّردار قد وزّع ما تركه خفر السواحل من مؤنٍ مستثنياً معسكرنا. لماذا؟ هل يعرف شيئاً نجهله نحن عن موعد رحيلنا؟ أم أنّه قرّر تجويعنا؟ ثمّ إنّ بعض الهنود قد نهبوا المخزون في معمعمة التمرّد، فمُزّقت أكياس المؤن ونُثِرت محتوياتها في البحر، ظنّاً ممّن أقدموا على ذلك أنّ فعلتهم ستجبر القارب على العودة. وما برح جوليس فيران يجترّ كابوسه، كنت أسمعه وهو يستدعي الزّوجين ميتكالف ليشهدا، مردّداً بصوتٍ كئيب: «Remember Cawnpore»[1]. ذات يوم أخبرني جاك بما حدث هناك، في شمال الهند، حين استولى جيش **نانا صاحب**[2] على كاونبور، وقتلوا جميع الإنجليز، رجالاً ونساءً وأطفالاً، وألقوا بهم في مياه نهر الغانج. لكنّ النّظرة التي ردّ بها جون عليه كانت تقول بوضوح إنّه لا يتذكّر شيئاً من هذا.

في الخارج كانت الشّمس تلتهب في تجويفٍ هائلٍ فوق الجزر. ما عدتُ أقوى على المكوث في أكواخ الكرنتينة بعد الآن. كنت أختنق، وكنت أكره وجه فيران الشّاحب، والخوفَ الذي كان يبثّه في نفوس الآخرين، وعنف كلماته. حتّى جاك نفسه استسلم للهوس، ولفكرة المؤامرة. عبثاً حاولوا

(1) بالإنجليزيّة في الأصل: «تذكّرا كاونبور».

(2) زعيّم هنديّ من أبرز قادة ثورة السّيبوي (سبق ذكرها)، وكان أحد حكّام مقاطعةِ كاونبور (1820 - 1859).

لـوم الهنـود والسّردار الـذي أصبـح فزّاعتهـم، بينـما هم أنفسـهم من أرسـلوا نيكولا والسـيّد تورنـوا إلى جزيرة غابريال. وحدهما سـوزان وسـارة ميتكالف نجتـا مـن هذا الوسـواس، وتلك الكراهية. كانت سـوزان تنتظر لحظـةَ تعافيها مـن الحمّى كـي تتوجّه إلى باليسـاد وتقدّم بعـض الرّعاية، محقّقـةً بذلك حلمها الملائكـيّ. حتّـى إنّهـا أقنعـت سـارة بمسـاعدتها. أمّـا جـون ميتكالـف فقـد حرص عـلى استئناف أبحاثـه النباتيّة.

مشـيت عـلى طـول الشـاطئ أمـام الرّصيـف، دون أنْ أشـيح ببـصري عـن طيـف الجزيـرة الصغـيرة. حاولـتُ أن أتخيّـل معسـكرهم، مجـرّد قماشـةٍ واقيـة مرتجلـة، تمنـع تسـلّل الريـح والشـمس، ثُبّـت في ظـلّ الصخـرة.

تبـدو الجزيـرة مهجـورةً عنـد مشـاهدتها مـن هنـا. بضـع شـجيراتٍ وأجمـاتٍ يابسـةٍ مغروسـة في الصخـرة السـوداء. مـا مـن علامـة عـلى الحيـاة، مـا مـن دخـان. لا شيءَ سـوى طيـور رئيـس البحـر التـي تحلّـق عشـوائيّاً راسـمةً دائـرة تطـوّق قمّـة الصخـرة، ومطلقـةً صرخاتهـا المبحوحـة. وكانـت أحيانـاً تـأتي إلى الشـاطئ وتراقبنـي، فتتقـدّم نحـوي مهيبـةً خرقـاء في آنٍ معـاً، تضايقهـا الرّيشـة الحمـراء الطويلـة التـي تطفـو خلفهـا مثـل رايـة. كان الأطفـال الهنـود يأتـون لمراقبتهـا بـين الصخـور، آملـين ربّـما أنْ يمسـكوا بواحـدةٍ مـن تلـك الريشـات الطويلـة. وقـد أخـبرني جـون ميتكالـف أنّ اسـمها العلمـيّ **فينيكـس روبيريـكاودا**[1]، ويبـدو أنّهـم في أفريقيـا يُؤلّهونهـا.

هـا أنـذا في مـكاني بـين صخـور البازلـت، أجلـس في جـوفٍ رمـليّ تنمـو فيـه نباتـاتٌ ذات زهـورٍ ورديّـةٍ صغـيرة. إنّـه المسـاء، البحـر منبسـط سـاجٍ،

(1) phoenix rubricauda.

وحاجز الشّعاب المرجانيّة مختفٍ في عتمة البحيرة. جزيرة غابريال وجرف البركان الأسود من أمامي، ومن ورائي شريط اليابسةِ الممتدّ على مستوى الماء، حيث غصون الديْداء تميل مع الريح. وفي الأفق ما بين شريط اليابسة وجزيرة غابريال الصغيرة، أرى طيفَي جزيرتَي أو **سيربان ورونـد**، مثل حيوانَين طافيَين.

الآن أدركتُ الأمر. لقد صار هذا المشهد عندي أكثر أهميّة من نقطة المراقبة في أعلى البركان، حيث فيران وبارتولي يراقبان بلا كللٍ ساحل موريشيوس. أنا هنا أتطلّع نحو الشرق، في الاتّجاه المعاكس. ولن يأتيَ شيءٌ من البحر من هذه الجهة، لكنّ سورياڤاتي قد تظهر هنا في أيّ لحظة، شاقّةً دربها بين الصخور. يبدو لي أنّي عرفت هذا المكان منذ الأزل، الشاطئ واليابسة الخفيضة التي تتداخل مع البحر، والصخرة العظيمة العامرة بالطيور.

وما هو إلّا أنْ ظهرتْ أمامي على الشاطئ، دون أنْ أحسّ بها. بدت في حالةٍ غريبة، فقد كانت تنظر في قلق، وكأنّها تخاف وجود شخص ما. كانت ترتدي السّاري الأخضر المائيّ ذاته، وشالُها الأحمر الذي أبهَتَه الشّمس يغطّيها بالكامل. وقد رُسِمت على جبينها علامةٌ بلون المَغرة.

– ماذا تريد؟ إلامَ ترمي؟

تحدثت بتؤدةٍ ووضوح، ولكن من غير تكلّف.

دُهِشتُ من سؤالها:

– لا أريد شيئاً، كنت أنتظركِ.

فقالت جادّةً وعيناها تلمعان:

– إذن، أهي أنا من تنتظرها هكذا كلّ يوم؟

جلسَتْ على الرّمل تنظر إلى البحيرة. كانت الشّمس تطلع حيناً وتغيب حيناً، مضيئةً وجهَها وأسنانَها الناصعة البياض. وقد لاحظتُ للمرّة الأولى أنّها تضع زماماً ذهبياً صغيراً في فتحة أنفها اليسرى.

- أين تعلّمتِ التحدّث بالفرنسيّة بهذا الإتقان؟

كان سؤالي سخيفاً استحقّ إجابةً ساخرة:

- مثلك، أعتقد. إنّها لغتي. لكنّها أردفت قائلةً:

- لقد ربّتني الرّاهبات في موريشيوس. لكنّ لغتي الحقيقيّة هي الإنجليزيّة. فأمّي إنجليزيّة.

ثمّ لا أدري لماذا، سألتُها:

- هل يمكنني أنْ أرى والدتَك؟ أودّ كثيراً أن ألتقيَ بها.

- أمّي؟ أتودّ مقابلة أميّ؟

ضحكَت، كما لو كانت تلك أسخف فكرةٍ يمكن أنْ تخطرَ في بال أحد.

- مستحيل.

- لمَاذا؟

تردّدت سوريافاتي. كانت تبحث عن سبب وجيه.

- لأنّ... لأنّ أمي ليست شخصاً يمكنك مقابلته.

وتردَّدَت أكثرَ بعدُ.

- لأنّ أمّي ترفضُ مقابلة البيض.

قالت عنهم «السّادة البيض»، على الطريقة الكريوليّة.

- لكنّني لست من السادة البيض!

لم تسمع. أو أنّها لم تصدّق ما قلت. نظرت إليّ، ثمّ تابعت تقول:

- قبل أنْ تأتيَ إلى هنا كانت في موريشيوس، وعمِلت لدى

السّادة البيض في ألما. كان أبي يعمل أيضاً في مصنع السّكّر. ثمّ تعرضَ لحادث، وتوفّي حين كان عمري سنةً واحدة، لذا عهدَت بي أمّي إلى الرّاهبات. وعادت إلى الهند. ولمّا رجعَتْ، رفضت الرّاهبات ردّي إليها. قُلن إنّني بتُّ الآن لهنّ.

حدّثتني سوريافاتي عن هذا كلّه كما لو كان طبيعيّاً، كأنّها تحكي لي قصّةً كنت سمعتها عدّة مرّات من قبل. وكانت تخطّ على الرّمل بقطعةٍ صغيرةٍ من الخشب بعض رسوماتٍ وعلاماتٍ ودوائر، وحول معصمها أساورُ من كلّ لون، من النّحاس المطليّ بالمينا، واسعةٌ حول الرّسغَين وضيّقةٌ أعلى المرفقَين.

- وماذا فَعلَت؟ هل استرجعتكِ في نهاية المطاف؟

- كلّا، كان ذلك مستحيلاً. فالسّادة البيض لا يتركون ملكيّتهم بسهولة. صارت تراني خِفيةً. إذ حصلَت على وظيفةٍ بجوار الدّير كي تظلّ قربي. وحينَ صرتُ في السادسة عشرة من عمري غادرتُ معها. اختبأنا في موريشيوس، وذات يوم وجدَت قارباً، وأتينا إلى هنا، إلى جزيرة بلات، لأنّها كانت متيقّنةً من أنّ الراهبات بهذا لن يعثرن علينا. والآن هي مريضة. ولا يمكنها أن تغادر.

تأمّلتُ وجهها، وبشرتَها النّحاسيةَ وعينَيها اللّتَين بلون الكهرمان، لون الغسق. لم أرَ مثل هذه الفتاة الجميلة من قبل، إنّني عاشق.

- كيف هو الحال هناك، من حيث أتيتَ؟

كان صوتُها مكتوماً قليلاً. لم تعد تريد الحديث عن والدتها. أرادت أنْ تكون هي من يطرح الأسئلة.

- كيف هو الحال في فرنسا، في إنجلترا؟ أخبرني عن إنجلترا. هل هي جميلة حقّاً، بحدائق وقصورٍ كبيرة، وأطفال يشبهون الأمراء والأميرات؟

أخرجَت من جيب ساريها قطعةً من الورق بسطتها بعناية. لقد أحضرَتها لي، فقد عرفت أنّها ستجدني هنا. هي صفحةٌ من جريدة **أخبار لندن المصوّرة**، وفيها صورة طفلة فظيعة تبتسم، كتُب أدناها: FRY's Finest COCOA (كاكاو فريز الأجود).

لم أستطع إلّا أن أضحك. فهنا، على هذا الشاطئ، وفي هذه الجزيرة حيث نحن معزولان، ثمّة في صورة الطّفلة الجذلى شيءٌ سخيفٌ يفتقر إلى أيّة جديّة. ضحكتْ سوريافاتي أيضاً، مُخفيةً فمهَا بيدها. ضحكنا حتّى لم نعد نعرف لماذا نضْحك. إنّها المرّةَ الأولى التي أضحك فيها منذ أيام، لحظةٌ من سعادة. كانت الطفلةُ في الصّورة ترتدي فستاناً طويلاً من الدانتيلا وقبعةً ظريفة الشّكل.

- الأطفال هناك ليسوا بالأمراء.

حدّثتُها عن الشوارع في باريس أو في لندن، عن المطر والبرد، والشّقق التي تدفّئها مواقد الفحم. وعمّا رأيته في لندن، في حيّ إليفانت آند كاسل، وقد أجفلها هذا الاسم. هناك إذن قصورٌ وأفيالٌ في إنجلترا! لكن سرعانَ ما أدركتُ أنْ ليس هذا ما تريد سماعه، إذ لاحَ على وجهها تعبير حزنٍ وخيبة. لذا شرعتُ أحدّثها عمّا لا وجوّد له، عن إنجلترا التي تجعلها تحلّقُ في حلمها، حيث الطرق الكبيرة التي تصطفّ على جانبَيها الأشجار، والحدائق المليئة بالبحيرات والنوافير، والعرباتُ التي تمرّ على طول الجادّات، حاملةً النساء بفساتينهنّ

الجميلـة. وعـن الأوبـرا والمسـارح وكريسـتال بـالاس في لنـدن والمعـرض العالمـيّ في باريـس. اخترعـتُ كلّ شيء، ووصفـتُ لهـا أمسـياتٍ راقصـةً لم أحضرهـا قـطّ، واحتفـالاتٍ كنـت قـد قـرأت عنهـا في **صعـود المحظيّـات وانحدارهـنّ**[1].

كانـت سـوريا تصغـي بانتبـاهٍ شـديد وهـي تنظـر إليّ بعينَـين صافيتَـين، وتتابـع كلّ جملـةٍ كـما لـو كانت مـن **ألـف ليلـة وليلـة**. تابعـتُ سرد القصص، واخـتراع رجـالٍ ونسـاء مجهولـين. ليـس الأمـر صعبـاً علـيّ إلى هـذا الحـدّ. فلـماّ توفّـي أبي كنـت في الثالثـة عـشرة مـن عمـري، فـكان علـيّ، وأنـا في مدرسـة روي ماليـزون الداخليّـة، أن أخـترعَ كلّ شيء مـن أجـل الآخريـن: أبي وأمّـي ورحـلات إجـازتي وبيتـي. وقـد لعبـتُ هـذه اللّعبـة مـع جـاك أيضـاً. فكنّـا في كلّ مـرّة نلتقـي فيهـا في مونبارنـاس، عنـد العـمّ وليـام، نختلـق المغامـرات، فيصـير لنـا أصدقـاء، ونذهـب معهـم إلى الحفـلات كـي نراقـص فتيـاتٍ صغـيرات مثـل الزهـور، بـل ندخـل حتّـى في علاقـاتٍ مـع نسـاء متزوجـاتٍ غامضـات. كان جـاك مغرمـاً بمينـي موريـل دُوي[2] التـي كانـت تسـافر إلى جبـال الكاربـات متنكّـرةً في زيّ رجـل، مسـلحةً بعصـا ومسـدّس، ومرتديـةً قبّعـةً مثـل شـابٍّ كوكْنـيّ[3].

---

(1) رواية *Splendeurs et misères des courtisanes* للكاتب الفرنسيّ أونريه دو بلزاك.

(2) Ménie Muriel Dowie: كاتبة بريطانية (1867–1945). كانت تنتمي إلى تيّار «المرأة الجديدة» في الكتابة، الذي كان له تأثيرٌ كبير في الحركة النسوية. عُرفت برحلاتها المتعدّدة وأهمّها الرحلة إلى جبال الكاربات، وهي سلسلة جبال تمتدّ في أوروبّا الوسطى والشرقيّة.

(3) Cockney: تُطلق هذه التسمية على فئةٍ من سكان لندن. يشير المصطلح أساساً إلى المتحدّثين بلهجة كوكني المميّزة التي يستخدمها بعض الناس في لندن وحولها، من أبناء الطبقة العاملة والطبقات المتوسّطة الدنيا؛ خاصة سكّان الطرف الشرقيّ من لندن. وكان المصطلح يُطلق تقليديّاً على الناس الذين ولدوا قريباً من كنيسة سانت ماري لوبون في لندن.

ردّدَت سـوريافاتي الاسـم وكأنّـه سـحر: مينـي موريـل دُوي، فقـد افتُتنَـت بـه. شـعرتُ بالخجـل قليـلاً، لكنّنـي كنـت أعلـم أنّهـا سـتنهض وتغـادر إنْ توقّفـتُ عـن الحديـث.

وفجـأة، مالـت الشّـمس إلى الجهـةِ الأخـرى مـن الـبركان، وأصبـح الشـاطئ في الظـلّ. وقـد مـرّ عـصرُ ذلـك اليـوم بسرعـةٍ كبـيرة. سـمعتُ صـوت البحـر المُقبِـلِ نحونـا، وتلـكَ الهِـزّة الخافتـة التـي تبـدو كأنّهـا تنبثـق مـن قاعـدة الجزيـرة. وشـعرتُ أنّ كهربـاء تـسري في أعماقـي، نوعـاً مـن طاقـةٍ جديـدة. وكانـت هـذه أوّل مـرّة، منـذ أيّـام، لا أشـعر فيهـا بالتّهديـد الـذي يخيّـم عـلى الجزيـرة، حتّـى إنّنـي نسـيت التمـرّد الـذي حصـل. وفي تلـك اللّحظـةِ، لمحـتُ عـلى ميـاه البحـيرة القـاربَ المسـطّح، عائـداً مـن جزيـرة غابريـال مـع عـودةِ الطيـور، وكان المسـنّ مـاري يقـفُ عـلى مؤخّـره.

وبقيـتُ وحـدي عـلى الشـاطئ. فقـد ركَضَـت سـوريافاتي عـبر الدّغـل سريعـةً مثـل دخـانٍ يتطايـر. فصحْـتُ قبـل أنْ تبتعـدَ أكثـر: كال![1] – أيْ «غـداً».

(1) بالهنديّة في الأصل.

18 يونيو

نباتات طبّية أخرى:

نبتـة التّيلوفـورا (محميّـةً تحـت غطـاء مـن الفربيـون) المعروفـة باسـم عـرق الذّهـب المقيّـئ.

بحثـتُ بـلا جـدوى عـن أنـواع تيلوفـورا الرّبـو المتسـلّقة. عثـرتُ عـلى فربيـون البحـر الأبيـض المتوسّـط، واسـمه العامـيّ «فانغـام».

عـدّة أنـواع مـن الفليفلـة (الفليفلـة الشـجيريّة) في المـزارع القديمـة. وفي بقيّـة أنحـاء باليّسـاد عنـد نهايـة الشريـط الشرقـيّ مسـاءً، كان هنـاك عـددٌ قليـلٌ مـن أصنـاف عائلـة الخِرمـال، لكـنْ جافـةٌ شـحيحة الأوراق، أغصانهـا متعرّجـة، وأوراقهـا جميلـةٌ ذات عـروقٍ أرجوانيّـة، أو بلـون خشـب الأبنـوس أو البلّـوط.

وعلى الجرف امتدّت عشبة الحثْرة المنتشرة، وتُسمّى عشبة الغِرغر.

القطيفيّـة: بريّـة واطنـة، ومُهمَلـةٌ لسـببٍ أجهلـه (ليـس هنالـك أيّ محـاولات واضحـة لزراعتهـا).

لمْ تكـد تمـرّ بضـع سـاعاتٍ حتّـى نُسـيَت حركـة التّمـرّد في باليسـاد. وفي صبـاح اليـوم التّـالي، تعـرّض مرتكبـو الاغتصـاب للـضّرب في الشـارع الرئيـسيّ، ثـمّ وَضعـت بعـضُ النّسـاء أوراق الهيليكونيـا وبلسـماً عـلى جروحهـم، وعـادت الحيـاة إلى مسـارها الطبيعـيّ، يَضبـطُ إيقاعَهـا أذان الصّـلاة وصافـرة السّردار، عـلى فـرضِ أنّ هـذه حيـاةٌ طبيعيّـة.

شرع جـاك في تطهـير المسـتوصف وأكـواخ الكرنتينـة بمسـاعدة المسـنّ مـاري وحارسـه. وحـضر العمليّـة متعهّـدا عـمّالٍ مندوبـانِ عـن الشّـيخ

حسين. وأُحرِقت الفُرُشُ والأغطية الملوّثة قرب الشاطئ، ورشّ جاك أرضيّات المنازل بسائل كونديز المعقّم. وحين أُضرمت النيران في المفارش، لم أستطع البقاء. شعرتُ بالغثيان في جوفي، فركضتُ لائذاً بطرف اليابسة، في حفرتي بين الصخور. انتظرتُ سورياڤاتي حتّى الظهيرة، بلا جدوى، فلم تأتِ حتّى مع هدْأةِ البحر. وبدَت جزيرة غابريال تحت السماء العاصفة أكبر من المعتاد، تطوّقها طيور رئيس البحر بتحليقها اللّجوج.

ليلةَ أمس، شاهدتُ على ضوء مصباح البونكا الخابي (كانت صفيحة الكاز على وشك النّفاد وقد امتلأت بالخَبَث) طقساً سخيفاً وشرّيراً في مبنى الكرنتينة. وقد تصدّر المشهد كالعادةِ جوليوس فيران: فبعد ديباجةٍ منمّقةٍ ومتحذلقة، تلاها بصوت أبحّ، مدحرجاً الرّاء من حينٍ إلى آخر[1]، قرأ لنا نصّ المرسوم الذي ينوي إيصاله عبر الهيليوتروب[2] إلى الحاكم، السيّد تشارلز كاميرون ليز. أحاول هنا أن أجمع ما علِق منه في ذاكرتي، لكنّ الأصل كان أشدّ تكلّفاً: «اعتباراً من اللّيلة، وإلى أن تُنهيَ السلطات الشرعيّة هذا الوضع، يُفرَض حظر التجوال في الجزيرة بأكملها على السكان جميعاً، من المسافرين الأوروبيين والمهاجرين الهنود في باليساد على حدّ سواء. سيسري حظر التجوال من غروب الشمس حتّى الفجر، وسيعلَنُ عن بدايته ونهايته

(1) ينطق الفرنسيّون عموماً حرف الرّاء غيناً، إلّا في لهجة بعض الأقاليم، حيث يُلفظ راءً مشدّدة، كما في الإسبانية. ويقال لمن يلفظه على هذا النحو إنّه «يدحرج الرّاء»، وهو التعبير الذي استخدمه المؤلّف هنا.

(2) ويُسمّى أيضاً الهيليوغراف، وهو جهاز لإرسال البرقيّات لاسلكيّاً باستخدام الشمس عن طريق انعكاس أشعّتها في مرآةٍ أو مرايا.

عبر صافرةٍ طويلةٍ تُطلَقُ على طرفَي الجزيرة. وسيُعَدّ كلّ من يخالف حظر التجوال خطراً على المجتمع، ويُقبَضُ عليه فوراً. وأخيراً، فإنّه اعتباراً من مساء اليوم، ستُنشأُ حدودٌ على الجزيرة بين الطرف الشرقيّ والطرف الغربيّ، للحدّ من حركة سكّانها وخطر انتشار الأوبئة، ولن يُسمح باجتيازها إلّا في حالاتٍ استثنائيّة».

ثمّ مرّر فيران الفاسد على الآخرين هذا النصّ المكتوب بالفرنسيّة والإنجليزيّة، والممهورَ بتوقيعه وتوقيع بارتولي وجاك، وفي الأسفل منه، توقيعَي كبيرَي باليساد، الشّيخ حسين وآتشنا متعهّد العمّال، بأحرف هنديّةٍ أوّلاً ثمّ بالأحرف اللّاتينية. فيما امتنع الزّوجان ميتكالف عن التوقيع، وأغلب الظنّ أنّ جون لم يطّلع على المرسوم.

وانتهت الأمسيةُ بصلاةٍ مشتركة. كان فيران الفاسد هو من خطرت له فكرة هذه المراسيم التي تشبهه. فتلا، واقفاً في منتصف الغرفة العاجّة بدخان مصابيح الزّيت، صلاةَ «أبانا الذي في السّموات»، ثمّ ارتجل، بصوتٍ متحَشرجٍ قليلاً تردّد صداه على نحوٍ غريبٍ في الأكواخ، بضع عباراتٍ جوفاء عن مصيرنا. فاحتمَت سوزان بجاك، وعيناها تلمعان من الدّمع أو الحمّى. خفق قلبي بشدّة، فقد شعرتُ بما شعَرَت به، شيءٍ أشبه بالكراهية. لقد أفسد جوليوس فيران كلّ شيء. فهذا التّافه اندسّ بيننا، ونجح في جعلنا مثله. ولم أستبعد قطّ أنّه اصطنع تلك الحدود كي يمنع سورياڤاتي من القدوم إلى الشاطئ. ففيما هو يقرأ مرسومه ببطءٍ وتكلّف، حطّت نظرتُه عليّ للحظة، وأظنّ أنّني لمحت فيها بريق خُبثه.

ظلَلتُ أروح وأجيء طيلةَ اليوم بين الكرنتينة وطرف الجزيرة الصخريّ منتظراً سوريا، على عِلمي بأنّها لن تأتي. واكتشفتُ أن أعشاب الدّيْداء والشّجيْرات صارت تحمل آثار خطاي، فمن فرطِ ما خضتُ هذا الدّرب، حفرتُه مثل خطٍّ كالذي تخلّفه حوافرُ حيوانٍ. وقد أخبرني اكتشافي هذا أكثرَ من أيّ تقويم زمنيّ آخر، عن طولِ الوقتِ الذيّ مرّ. وبدا لي أنّني أعرف كلّ حجرٍ على الشاطئ، وكلّ مسلكٍ بين حواف الشّعاب المرجانيّة الميتّة، كلّ خصلة من الأعشاب النجيليّة وكلّ نبتة.

لم تعد طيور صخرة بيجِن هاوس، التي كانت تخافني من قبل، تهرب لحظةَ وصولي. صرتُ أُحضر لها الأعطيات، قليلاً من سمك القدّ المجفّف، وقطعاً من البسكويت مدهونة بالشحم. كانت طيور النورس تدور حول الصخرة المسطّحة التي تعلن بدايةَ الشّعاب المرجانيّة، ثمّ تنكبّ صارخةً على الأعطيات. كنت أرغب بالأخصّ في تدجين طيور رئيس البحر التي تحلّق في مساربها بلا انقطاعٍ بين جزيرة غابريال وساحل جزيرة بلات، مارّة بالقرب مني، فأُحسّ بنظراتها الحادّة تمسح المشهد، وأسمع صرخاتها. وكانت تنساب بعد ذلك نحو البحيرة، مجرجرةً وراءها ألسنة لهبها الحمراء، بطيئةً لامباليةً، مثل الأسياد.

هكذا شُطِرت الجزيرةُ إلى نصفَين بخطٍّ وهميّ، وكان هذا الخطّ هو ما حاولتُ تتبّعه آخر النهارِ حين رافقت جون ميتكالف في جولة بحثه. هبطنا الصخرةَ عبرَ المنحدر المكسوّ بالشجيرات نحو غابة الكزورينة التي تحتلّ وسط الجزيرة. يتبع الخطُّ بعد ذلك المنحدرَ الأملس شاطراً

طرف اليابسة حتّى صخرة لوديامو. لمّا دنوت من المنارة، رأيت أنّ فيران الفاسد قد أقامَ هناك ما يشبه مأوى مؤقّتاً، بناه من خشب الصناديق ومن قماشٍ واقٍ حصل عليه من المستوصف. قالَ إنّه من هذه النقطة يمكنه مراقبة الأفق والتواصل مع موريشيوس باستخدام جهاز الهيليوتروب ودليل شِفرة مورس. لكنّني كنت أعلم أنّه يراقب حدوده مترَصّداً الهنود في ذهابهم وإيابهم بين المزارع والقرية، وأنّه يتلصّص أيضاً على النّساء الذاهباتِ للاستحمام في الجدول مساءً، عند سفح البركان. ولربّما كان الشّيخ حسين، ومعه متعهدو العمّال، يحرسون الطريق على الطّرف الآخر من الجزيرة، عند الحدّ الفاصل، وفي أيديهم عصيٌّ طويلةٌ من خشب النّات[1].

اشتدّ الحرّ عند الزّوال، فاضطّر جون ميتكالف إلى اختصار درسه في علم النبات. كان الجميع في الكرنتينة يفترشون الأرض، وجاك وسوزان يضمّ كلّ منهما الآخر بين ذراعيه، وقد تورّمَ وجهاهما من تفاقم الحمّى. لم أشعر يوماً بهذا القدر من الاختناق. لقد سجنَ ركّاب **لافا** أنفسهم بقبولهم مرسوم فيران الفاسد، ورغبتِهم في تجنّب التواصل مع الهنود من أجل مغادرة الكرنتينة في أسرع وقت.

هكذا قرّرتُ أنْ أتحدّى حظر التّجوال العبثيّ، وأرى سوريا ثانيةً. اللّيلةَ، بعد أنْ ينامَ الجميع، سأتذرّع بالذّهاب إلى المراحيض، وأجتاز الأجمَة عابراً إلى الطّرف الآخر. ولشدّ ما سلّتني الخطّةُ، حتّى أنّني

(1) natte: نوع من الأشجار من الفصيلة السّبوتيّة ينمو في موريشيوس وجزيرة لاريونيون في المحيط الهنديّ.

قبلت طقس الصلاة الجماعية الفظيع، دعاءَ «أبانا الذي في السموات» ذاك الذي ردّده الفاسد قبل الرّجوع إلى موقعه أعلى البركان. ثمّ تقاسمتُ بعض الأرزّ المخمّر والشاي المرّ مع جاك وسوزان. وطلب إليّ جاك أن أجبر سوزان على تناول الطعام وأعطيها الشاي بعدَ أنّ أذاب فيه مسحوق الكينين. كانا يتبادلان الحنان، ويهتمّ كلٌّ منهما بالآخر أيّما اهتمام. تأمّلتهما اللّيلة، فبدا لي أنّهما ينتميان إلى عرقٍ آخر، وعالمٍ آخر. كانا يتحدّثان عن موريشيوس، وعن الحياة التي تنتظرهما هناكً، ووصفتْ سوزان مدرسة التّمريض التي تريد إنشاءها في المدينة. وقد ارتسم في ذهنها بالفعل مخطّط المبنى الذي ستشيده على قطعة الأرض التي تأمل في الحصول عليها. أمّا جاك فتحدّث عن الأشخاص الذين سيتدخّلون من أجل إنقاذنا، وعن موظّفي شركة النّقلِ البحريّ (مِساجيري) الذين لا بدّ أنّهم أرسلوا البرقيّات. كان لا يزال يؤمن بالحكومة الجماعيّة، ولم يتخلّ كليّاً عن احتفاظه باسم العائلة نفسه الذي يحمله كبير الأسْرة.

حتّى جون ميتكالف، ورغم انغماسه في البحث عن عشبة النيلةِ النّادرة، تحدّث هو الآخر عن زملائه في كليّة مجدّدي العماد، وعما سيفعلونه من أجل تنبيه الرأيّ العامّ إلى قضيّتنا، ومن أجل تحريرنا من الكرنتينة.

أمّا أنا، ومثل رَجُل عدْنٍ الذي رأيته طريحَ الفراش في المشفى، وعيناه متيبّستان من الألم، فليس عندي سوى ذكرياتٍ وأحلام. أعلم أنّني لا أتوقّع أيّ شيء خارج هذه الجزيرة. فهنا، في منحنى الشّعاب المرجانيّة هذا، كلُّ ما أملك: طيفُ سوريافاتي السّحريّ يمشي على الماء،

ونـور عينَيهـا، ونـداوةُ صوتهـا وهـي تسـألني عـن مدينتَـي لنـدن وباريـس، وضحكتهـا حـين تندهـش بـما أقـول.

أحتاجهـا أكثـر مـن أيّ إنسـانٍ آخـر في العـالم. إنّهـا مثـلي، فهـي مـن هنـا وليسـت مـن أي مـكان آخـر، إنّهـا تنتمـي إلى هـذه الجزيـرة التـي لا تنتمـي إلى أحـد. هـي مـن الكرنتينـة، مـن صخـرة الـبركان السـوداء، مـن بحـيرةِ الشـاطئ التـي تقصدهـا في هـدأةِ البحـر. ولقـد دخلـتُ في عالمهـا.

انطلقَـت صافـرة حظـر التجـوال حـول محيـط الـبركان، وانضـمّ جوليـوس فـيران إلى بارتـولي أعـلى الفوّهـة. أطفـأ جـاك المصابيـح. واسـتلقيتُ في العتمـة أصغـي إلى الريـح التـي تحمـل هديـر الأمـواج مـن جهـة الشّـعاب المرجانيّـة. كانـت يـد سـوزان النّـضرة في يـدي. وقـد جعلهـا الكينـين تغـطّ في النـوم. في لحظـة مـا، سأتسـلّل إلى الخـارج فأشـعر بالنّسـمة العليلـةِ الآتيـة مـن أعـالي البحـار، وسأشـقّ دربيَ عـبرَ الأجمـة مقتفيـاً آثـار خطـاي عـلى طـول الشـاطئ المتلألـئ تحـت نـور البـدر.

أنـار القمـر الرّمـال والبحـيرة، وغسـلت الرّيـح صفحةَ السّـماء السّـوداء. كان الجـوّ أميَـل إلى الـبرودة. سـلكتُ دربيَ بهـدوءٍ تـامّ، حافيـاً، لا أرتـدي سـوى بنطـالٍ وقميـصٍ بـلا ياقـة، وقـد بعـث نسـيم اللّيـل رعشـةً لذيـذةً في أوصـالي. كان قلبـي يخفـق مثـل تلميـذٍ قفـز عـن سـور المدرسـة. قُبيـلَ لحظـاتٍ، فيـما كنـت أنتظـر أن ينـام الجميـع، اسـتمعتُ إلى دقّـات قلبـي، بـدا لي أنّ صداهـا يـتردّد في كلّ ركـنٍ مـن الكرنتينـة متسرّبـاً إلى أرضيّتهـا، وممتزجـاً بذلـك الاهتـزاز المنتظـم الـذي يوقّـع مـرور الوقـت. فمنـذ نزولنـا إلى هنـا، تعطّلَـت سـاعتي، ربّـما تسـلّل إليهـا مـاء البحـر أو الرمـل الأسـود، أو مسـحوق الطّلـق الـذي يطفـو ثـمّ يتطايـر مـع الريـح. وضعتُهـا جانبـاً لا أتذكّـر أيـن، ربّـما في حقيبـة جـاك الطبيّـة، مـع أزرار كُمَّـيّ أو قلمـي الذهبـيّ الـذي آلَ إليّ مـن جـدٍّ جـدّي إلياسـان. صـار عنـدي الآن مقيـاسٌ آخـر للوقـت، ألا وهـو حركـة المـدّ والجـزر ذهابـاً وإيابـاً، وعبـور الطيـور، والتبـدّلات التـي تطـرأ في السـماء وفي البحـيرة، ودقّـاتُ قلبـي.

خرجـتُ متسـلّلاً مثـل لـصٍّ، فـإذا بعينَـي سـوزان تبرقـان في العتمـة. لم تكـن نائمـة. اسـتدارت نحـو البـاب فأضـاء القمـر وجههـا. قبّلـتُ خدّهـا النـديّ، ووضعـتُ إصبعـاً عـلى شـفتَيها حتّـى لا تقـولَ شـيئاً. كانـت تعـرف إلى أيـن سـأذهب، ولم تسـألني عـن أيّ شيء. إنّهـا أخـتٌ بحـقّ.

مضى بيَ الدّرب حتّى قمّة لوديامو. انحرفتُ شمالاً، مجتازاً حقل الحجارة البازلتيّة الذي يقطع الجزيرةَ مثل عمودٍ فقريٍّ لحيوانٍ زاحفٍ عملاق. إلى الأعلى من حقل الحجارةِ تمتدّ الحدود. هناك، أثناء النهار، يمكنك أنْ ترى الطرف الآخر من الجزيرة وصولاً إلى خليج باليساد. كان هذا هو المكان الذي قصدتُه عند الغسق، كيْ ألقيَ نظرةً خاطفة على مدينة العمّال وحيّ المنبوذين، دون أنْ أتعرّضَ لخطرِ مصادفة السّردار أو لأنْ يلتقطني المراقبان الرّابضانِ أعلى البركان. كنت قريباً جدّاً من بيت سوريافاتي، وقد رأيت أنواره تتلألأ بين الصخور.

كلُّ شيءٍ معتّم وعدائيٌّ في الكرنتينة. أمّا هنا، فثمّة مصباحٌ يومض عند كلّ باب، والهدوءُ يعمُّ الأجواء، إذ لا أثرَ للرّيح. ولكَ أنْ تعدّها قريةً من تلك القرى الواقعةِ في ركن مسالمٍ من العالم، في مأمنٍ من المحن والحروب. ينيرُ القمر الأزقّةَ المُنتظمةَ وسقوفَ النخيل، ويمنحُ أمواج الخليج المتعاقبة بريقاً متلألئاً. ثمّةَ رائحةٌ وديعةٌ تنبعث من القرية، رائحةُ دخان وأريج نُعاس. وبين الحين والحين ينبح كلب، أو يئنّ طفل. كنت وأنا مقرفصٌ بين الصخور أشبهَ بإنسانٍ بدائيٍّ يتجسّس على وادٍ سعيد.

مكثتُ ساكناً لا أبدي حراكاً، أكاد لا أتجرّأ على التنفّس. كنت أتنشّقُ العطر وأصغي إلى الأصوات، كأنّني آتٍ من قاع خندق، من مكانٍ أسود معدنيّ. لست أفهم. لست أفهم ما الذي أضعناه، ما الذي حدث في شرق البركان وغيّرنا. لا أصدّقُ أنّ صوتَ الاحتجاج قد علا مدويّاً في ذلك المساء، وأنّ الرجال كانوا يركضون عبر الجزيرة، يغتصبون ويُحرقون.

هبطتُ المنحدر صوب القرية، داكّاً في طريقي التّراب والحصى، ومُغضباً الكلاب، واحداً أو اثنين منها في البداية، ثمّ ثار القطيع بأكمله وملأ الطرقات. وسمعت تدافع الجديان في الحظائر، ونساءً تنادي. وصلتُ الشاطئ وجلست على الرّمل بجوار بيت سوريا. كان كوخاً خشبيّاً مسقوفاً بسعف النخيل، يقوم على مبعدةٍ من الأكواخ الأخرى. وعند بابه أُشعِلَ مصباحٌ شحيح النّور.

ثمّ استلقيتُ على الرّمل مسنداً رأسي إلى حجر، فاستمعت إلى طنين البعوض. هدأت الكلاب وتوقفت تدريجياً عن النّباح. ثمّ أحسستُ بها تتجوّل من حولي، وتناهى إليّ وقع أرجلها على الرّمل، وصوت أنفاسها اللّاهثة.

تحدّث جاك ذات يوم عن الكلاب قائلاً إنّ علينا توخّي الحذر، لأنّنا كنّا في موسم داء الكَلَب. فاقترح جوليوس فيران مطاردتها وتسميمها. ارتعدت سوزان مردّدةً: «موسم الكَلَب!» لكنْ هنا لن يرغب أحدٌ في قتل الكلاب. أتذكّر هذيان رجل عدن: الكلاب التي تهبط من المرتفعات، وتدخل المدينة، وأتذكّره، هو الذي كان يحلُم بأنّه يذرع شوارع هرَر ناثراً كريات اللّحم السّامة.

على أنّني، هنا، لا أشعر بالخوف. أسمع أصواتاً أخرى، صرير السرطانات البريّة، أو ربّما الرّنة المعدنيّة التي تصدر عن زحف الحريش[1] بين الحجارة، أو وَقع حوافر الجديان. أحبّ هذه الأصوات، فهي تسري فيّ مثل إكسير حياة، وتبرّد حُرقتي مثل بلسم، وترّطب عينَيّ وتُرخي عضلاتي. ها أنا قريبٌ كلّ القرب من سوريا، أشعر

(1) أي أمّ أربعة وأربعين.

بدفء أنفاسها، وأسمع دقّات قلبها في الرّمل، إذ تنام في الكوخ إلى جانب أمّها، مفترشةً الأرض ومتلفّعةً ملاءة. يبدو لي أنّها تعرف أنّني هنا، وأنّها تتحدّث إليّ في نومها. كان نور المصباح يومض عند بابها، من أجلي، وقد حدّقتُ فيه مَليّاً حتّى غامَ بصري فرافقني إلى حلمي.

ثمّ أيقظتني نظرةُ سوريافاتي. كانت تجلس أمامي على الرّمل. رأيت، بعينَين مغمضتَين بعد، وجهَها وقوس حاجبَيها الأسودَين، والعلامة الحمراء الدّاكنة بين عينَيها، وزمامَ الذّهب اللّامع في فتحة أنفها.

- لمَ أنتَ هنا؟

ظلْلتُ لحظةً متسمّراً حائراً، ثمّ لاحتْ بوادر الفجر. لم يكن نوراً حقيقيّاً بعد، بل مجرّد بقعةٍ رماديّة في السماء، حيث غيومٌ، في انسيابها البطيء نحو البحر، قد علِقت بقمم الصخور. أعادت القول:

- لمَ أتيْت إلى هنا؟ إلامَ ترمي.

هو السؤال ذاته الذي طرحَته عليّ حينَ تحدّثنا للمرّة الأولى قرب الرّصيف المرجانيّ. لكنْ هذه المرّة كان في صوتها شيءٌ من قسوةٍ، كأنّه غضبٌ مكتوم.

- لَمْ تأتِي منذ وقت طويل.

- لم أستطع. حدثت أشياء فظيعةٌ هنا، ولم أستطع ترك أمّي. قال الشّيخ حسين إنّه ينبغي ألّا نذهب إلى الطرف الآخر، فهنالك مسلّحون يمنعون المرور.

نظرتْ إليَّ، كانت حدقتاها الصّفراوان تلمعان غضباً ونفادَ صبر. لا تريد الحديث عمّا جرى في تلك اللّيلة، عن الرّجال الذين هاجموا

رسامه. ظلّت صامتةً للحظة. وطلع النهار رويداً رويداً، كاشفاً الشاطئ والأمواج، ومنازل المنبوذين. ثمّة نساءٌ يُقلبّن الجمر أمام البيوت حتّى في هذا الوقت المبكّر. وكانت الكلاب مُقعيةً على الشاطئ، غير بعيدٍ عنّا، وخطومها في الرّمل. همّت سوريا بالنهوض.

- عليكَ أن تذهب، لا يمكنك البقاء هنا.
- بأوامر من الشّيخ حسين؟
- كلّا، لم يأمر بشيء. هو يقول فقط إنّ علينا ألّا نقترب من السّادة البيض، لأنّ بينكم أناساً ماتوا من المرض.
- لا أفهم ما تقولين: هل الحدود التي وضعها فيران وبارتولي لا وجودَ لها؟ ألم يكن الشّيخ حسين هو من أراد ذلك؟
- عليكَ العودة إلى مكانك في الطرف الآخر. لا أريد أن تقع أميّ في ورطةٍ بسببكم، أنتم الآخرين..

قُلتُ محاولاً استبقاءَها:

- ولكن هذا ليس صحيحاً! لم يمت أحدٌ عندنا. هنالك مريضان، وقد نُقلا إلى جزيرة غابريال.
- لقد ماتا. يقول الشّيخ حسين إنكم أحرقتم جثّتيهما وملابسهما في الجزيرة.
- هذا ليس صحيحاً، إنّه يكذب.
- إنّها الحقيقة، وتريد إخفاءها. أنا أيضاً رأيت الدخان.
- أجل، إنّه الدخان المتصاعد من المراتب والملاءات، لكنهما لم يموتا. فأخي يذهب لرؤيتهما كلّ يوم، ويحضّر لهما الطعام. وهناك هنودٌ معهما أيضاً.

- أنت من يكذب! لقد أحرقتموهما كي لا يعرف أحدٌ بالأمر. ذهبتُ البارحةَ إلى الطرف الآخر، ورأيت الدخان على الجزيرة الصغيرة.

لم يكنْ الوشاح الأحمر على رأسها، فكان شعرها الطويل ينسدل على كتفيها، ولوجهها لمعة المعدن. إنّها جميلة جدّاً. ولا أعرف ماذا أقول كي أستبقيَها. همّت بالانصراف، وسأعود أنا إلى عتمة الكرنتينة. لقد قالت الحقيقة. أدركتُ ذلك فجأةً. ربّما وقعت الحادثة أثناء نومي، أو حينَ كنت على طرف اليابسة، أمام الصّخرة التي تسكنها الطيور. أتذكّر نظرة جاك المتهرّبة لمّا عاد من جزيرة غابريال. فحين سألتْه سوزان عن أخبار المرضى، أجابها على عجلٍ: «كلّ شيء على ما يرام». ثمّ آوى إلى فراشه، وكان يرتجف برداً.

أمسكتُ بذراع سوريا، وضغطتُ عليها حتّى آلمتُها. لا بدّ أنّها لاحظت كم كنت يائساً، فقد عادت لتجلسَ على الرّمل، وتحدّثَت بصوتٍ مخنوق.

- ثمّة أمواتٌ هنا أيضاً. هناك امرأة عجوزٌ ماتت أمس، أخذَتها الإلهة الباردة[1]. اسمها نصيرة، كانت تسكن في ذلك البيت هناك.

وأشارت إلى أعلى قرية المنبوذين، حيث أطفالٌ يركضون على طول الممرّات، وأردفت:

- كانت أميّ هي من قامت على رعايتها، وقد أحرقناها اللّيلة الماضية قرب السّدّ.

---

(1) الإلهة الباردة شيتالا: هي إلهة تسبّب الأمراض وتُشفيها أيضاً، خاصّة الجدريّ، وفقاً للمعتقدات الهندوسية. وتُعبد على نطاقٍ واسعٍ خاصّةً في شمال الهند.

بقينا صامتَين، متجاورَين على الرّمل، فيما شمس النّهار تعلو في الأفق. هُيّئَ إليّ أنّني أمضيْت اللّيلة معها على الشاطئ، ملتصقاً بدفء جسدها، أتنشّقُ عطر شعرها، وأسْرح مع النّجوم التي تحوم بطيئةً حول الجزيرة. تُعجبني رشاقتها، وأودّ لو أسمع ضحكتها ثانية، تلك الضحكةَ التي ندّت عنها وهي تنظر معي إلى الصفحة المُقْتطَعةِ من **أخبار لندن المصورة**، أو حينَ حدّثْتُها عن ميني موريبل دوي.

هل ستأتين اليومَ إلى طرف الجزيرة الآخر؟

وقفَت ونظَرت إليّ كأنّها تحاول تخمين ما أفكّر به حقّاً.

- لا أعرف. ربّما.

ابتعدَت مسرعةً لا تلْوي على شيء. ثمّ دخلَت الكوخ وأطفأت المصباح. سمعتُها تتحدّث بهدوءٍ وبصوتٍ شجيٍّ كأنّها تهدهد طفلاً. وما هو إلّا أنْ لاح طيفٌ عند المدخل. امرأةٌ فارعةُ القامةِ نحيلةٌ بثوبٍ طويلٍ شديد الزّرقة. مكَثَت هُنيهةً عند مدخل الكوخ، فلمحتُ وجهها ذا القسمات الحادّة، وذراعَيها الهزيلتَين حيث تلمع أساورُ من نحاس. وضعَت يدها اليمنى فوق عينَيها درءاً للشّمس الطالعة، ورسمت باليسرى إيماءةً صغيرة، كمن يطرُد حيواناً غير مرغوبٍ فيه، وقالت بالإنجليزية: «Go...! Go...!». كانت نساءٌ أخرياتٌ يراقبن المَشهد، سخرن من ملابسي الممزّقة، وشعري المبعثر. وكان الأطفال يركضون على الشاطئ، فأسرعتُ الخطى نحو الصخور على طرف اليابسة، كما لو كانوا سيرشقونني بالحجارة. كانت عيناي تحرّقانني، وللعابي مذاقٌ غريبٌ بسبب البرمنغنات. سمعتُ دقّات قلبي في شرايين ذراعَيّ وعنقي. لا بدّ أنّني كنت منهكاً من شدّة الإعياء. ولمّا بلغتُ الكرنتينة

ورأيـت مبـاني الحمـم البركانيّـة القبيحـة التـي تغزوهـا الشـجيْرات، تـولّاني شـعورٌ غريـبٌ أشـبه بالارتيـاح. كانـت جزيـرة غابريـال تتـلألأ في الشّـمس قبالـة البحـيرة، مثـل جبـلٍ جليـديّ أسـود.

من 19 يونيو

برفقـة ل.، عاينـتُ مـدى انتشـار نبتـة الدّيـداء وتنوّعهـا، أو بعبـارةٍ أخـرى نبتـة «البطاطـس الحلـوة». وحـول أصـل الاسـم: في موريشـيوس، يُفهـم بوصفـه اختصـاراً لبطاطـس دوران[1]. فمَـن هـو دوران هـذا؟ ولمـاذا يُخلَّـد بإطـلاقِ اسـمه عـلى النبتـة؟ يبـدو لي هـذا الاسـم بالأحـرى تنويعـةً كريوليّـة (أو ملغاشـية) عـلى كلمـة بطاطـس، وقـد جلبَتهـا في المـاضي قـوارب العبيـد التـي كانـت تربـط البرازيـل بجـزر الماسـكارين.

أصبـح هـذا الجنـس مـن فصيلـة الديْـداء مسـتوطناً هنـا. وهـو ينمـو في أنـواعٍ متعـدّدة مـن التّربـة، مـن وديـان البازلـت عنـد سـفح الـبركان إلى الشـواطئ المتكلسـة عـلى السـاحل الجنـوبيّ الشرقـيّ. ويشـتهر كعـلاجٍ لمـا يـلي: الحـروق واللّدغـات والأكزيـما واليرقـان. تحتـوي ورقتـه عـلى حليـبٍ قابـض للأنسـجة ورغـويّ.

الديْـداء العثكوليّـة، وهـي درنـةٌ غـير صالحـةٍ للاسـتهلاك. لكـن ثمّـة حضـورٌ لبطاطـس إيدوليـس الصالحـة لـلأكل، وهـي نبتـةٌ في حالـة جيـدة، درنـاتٌ كبـيرة قطفناهـا أنـا ول. هنالـك أيضـاً الديْـداءات البحريّـة، وهـي درنـاتٌ مسـتديرةٌ غـير صالحـة للاسـتهلاك، ذات زهـور حمـراء زاهيـةٍ جـدّاً.

(1) اسـم النّبتة بالكريوليّة: Batatran.

مكتبة
t.me/soramnqraa

عنـد العـصر، وعـلى الرغـم مـن الإرهـاق، عدنـا أدراجنـا إلى منحـدر الـبركان الشرقـيّ. ثمّـة الكثـير مـن عشـبة المكنسـة (مـن فصيلـة الخبّازيـة). العثـور عـلى أمثلـةٍ متنوعـة مـن الكاجـو ولكـن مـن نوعيّـة الشـجيرات (يبلـغ ارتفـاع الصنـف الأفريقـيّ منهـا 20 قدمـاً).

وجـدتُ عنـد سـفح الـبركان نبتـةَ الإنديغـو (عشـبة ذات تويـج أرجـوانيّ) والرّجلـة أو (البقلـة). في انتظـار أنْ أكتشـف قريبـاً النّيلـة النّـادرة.

إنّها الظهيرة. أقف قبالةَ جزيرة غابريال، أزاحتْ أشعة الشمس السّوادَ الذي كان يجلّل السماءَ صباحاً حينَ غادرتُ مع جون ميتكالف. ثمّة شاطئٌ رحيب يمتدّ بين طرفَي الأفق، حيث السماء كأنّها مرآةٌ تنعكس فيها صورةُ بحيرتِنا وضفافها.

اصطحبني جون مبكّراً جداً، عند السابعة صباحاً. لم أنم طيلةَ اللّيل إلّا قليلاً، لكنّني فضّلتُ الخروجَ معه. إذ لمحتُ في عينَي جاك تساؤلاتٍ تنتظرُ إجابتي، فآثرتُ عليها دروسَ علم النبات.

كان جون متحمّساً جدّاً، يمشي بخطىً سريعةٍ شاقّاً طريقه بين الأجمات. عبرنا المقبرة القديمة وصعدنا منحدر البركان سالكَين الدّرب المفضي إلى باليساد، فإذا بنا على خطّ الحدود، لكنْ لم يبدُ أنّ جون يكترث لذلك. كان يبحث بين كتل البازلت. كنّا بعدُ في الثامنةِ صباحاً، غيرَ أنّ الشمس كانت تحرّقُ الوجه والذراعَين. كان جون يعتمر قبّعة البنما الكبيرة، لكنّ الحرّ صبغ وجهه بلون لحيته الصهباء نفسه. كان يمضي قُدُماً في خطٍّ مستقيم دون أنْ يلتفت إلى النباتات التي يدوسها أو الشجيرات التي يدفعها، هو الذي عادةً ما يكون منتبهاً أشدّ الانتباه إلى عالَم النّبات من حوله، كأنّ نوبةَ استعجالٍ قد استولت عليه وجعلته يتحرّك بارتباكٍ وعصبيّة، فكنت أتبعه بمشقّة. وعلى عجلٍ توقّف ليريَني نباتات البقلة اليمانيّة التي تنمو بانتظامٍ بين

صفوف الأحجار الجافّة على نحو يستحيل معه استبعاد أنّها قد زُرعت زراعةً في الماضي: كلّها من الفصيلة الباذنجانيّة، ومن ضمنها مجموعةٌ متنوّعة من الفلفل الشجريّ، ونبتةٌ أخرى قَطَفَ منها ورقةً كبيرةً رماديّة كانت ملفوفةً مثل السّيجار، وناولني إيّاها، قائلاً لي: «لا بدّ أنْ تثير هذه اهتمام أخيك، فهو يقيناً لا يستطيع الاستغناء عن التدخين. إنّها التبغيّة، أو «التبّغ البنيّ» كما يُطلق عليها».

كان يبحث تحديداً عن نبتة النيّلة الزّرقاء، النّيلةِ البرّية، متيقّناً أنّه سيجدها هنا على منحدر البركان، آمنةً من عجاج البحر وعُرضةً لأكبر قدْرٍ من ضوء الشّمس. سيجد هنا العيّنة المطلوبة، الحلقةَ المفقودة من السّلسلة، التي ستوحّد جزيرةَ بلات بموريشيوس ومدغشقر، وبما وراءهما؛ بالقارّة الجنوبيّة.

تبعتُ جون ميتكالف عبرَ حقل الحجارة أسفل البركان طيلة الصباح. كانت الشمسُ تسطع بقوّةٍ حتّى أنّها في لحظاتٍ ما قد غشّت بصري. النباتات الوحيدة التي استطاعت أنْ تنموَ هنا هي النجيليّة، وذلك الصنف من الخبّازى الذي يسمّى هنا «عشبة المكنسة»، ذلك لأنّ خصلاتها الجافّة تصلح لهذا الغرض. عدنا إلى الكرنتينة قُبيل الظهيرة. اشتكى ميتكالف من صداعٍ شديد ودوار. ظننتُ أنّه أصيب بضربة شمس، فتركته في الكوخ مع سارة وتوجّهتُ لأجلب له بعض الماء البارد من الصهريج. ثمّ اضطّجعتُ متكوّراً في مكاني قرب الباب. استغرقتُ في نومٍ عميقٍ فلم أسمع صافرة السّردار التي تعينُّ وقتَ خروج النساء لجَمع مسحوقِ الطلق عند سفح البركان. ولعلّ هذه الصافرات لا تقصدَ أحداً سوانا، لعلّها وسيلةٌ لإبلاغنا من أقصى

الجزيـرة: «نحـن هنـا»، حتّـى لا يغيـبَ عـن ذهننـا للحظـةٍ الطـرفُ الآخـر مـن الجزيـرة، حيـث جَمْـع المهاجريـن الصّامـت، وجوعهُـم وخوفهـم في نهايـة الرّحلـة، ولا حركـةُ النسـاءِ البطيئـة وهـنّ يمضيـنَ صـوب المـزارع في موريشـيوس وعـلى رؤوسـهنّ سـلالٌ مليئـةٌ بالحجـارة، ولا جيـشُ الحاصديـن الذيـن يقطعـون بسـكاكينهم سـيقان القصـب.

ولمّـا اسـتفقتُ ظننـتُ للحظـةٍ أنّنـي كنـت وحـدي في الغرفـة المعتمـة. ثـمّ سـمعت صـوتَ أنفـاسٍ بطيئـةٍ مزعجـة. كانـت سـارة ميتكالـف تجلس مسـندةً ظهرهـا إلى الجـدار في عمـق الغرفـة ممسـكةً بيـد زوجهـا. دنـوْتُ منها بصمـت، فرفعـت بصرهـا مرتعـدةً. بـدت عيناهـا مثـل بقعتـينَ شـاحبتَين في وجههـا الـذي لوّحتـه الشـمس، وكان العـرق يلمـع عـلى بشرتهـا ويبلّـل شـعرها. قالـت: «جـون ليـس بخـير»، هامسـةً بهـدوءٍ شـديد، كـما تفعـل دومـاً، وبابتسـامة متشـنّجةٍ عـلى شـفتَيها. بـدت ذاهلـةً أكثـر منهـا قلِقـةً. سـألتُها، «مـمّ يشـكو؟» فتنحَّـت جانبـاً كـي تتيـح لي رؤيتـه. كان مسـتلقياً بقميصـه نصـف المفتـوح، عينـاه نصـفُ مغمضتَـين، وجبينـه يغـلي.

- هل تناول الكينين؟

نظرَت من دون أنْ تجيب، وبهذه النظرة الفارغة قالت:

- منـذ قليـلٍ أعطـاه أخـوك دواءً، كانـت حالتـه بالغـة السّـوء حـين عـاد.

لم يقـل جـاك شـيئاً حـين عُـدت إلى البيـت هـذا الصّبـاح. كان يعلـم جيّـداً أنّنـي أمضيـت طيلـة اللّيـل في الخـارج عـلى الرّغـم مـن حظـر

التجـوّل، وأنّنـي قـد أعاقـب. سيحبسـونني في قفـص بـلا أبـواب ولا نوافـذ، أو ينفوننـي إلى جزيـرة غابريـال مثـل مجـذوم. وقـد بـدت لي هـذه الفكـرةُ مضحكـةً لفـرط عبثيّتهـا.

- هل تريدين أنْ أحضر له بعض الماء البارد؟

واصلَـت سـارة النظـر إليّ بعينـين فارغتـين. كانـت شـفتا جـون جافّتـين متشـقّقتين. وكان لا يقـوى عـلى الـكلام، ويتنفـس بمشـقّة. وبـين أجفانـه المتورّمـة كانـت عينـاه تتألقـان بتلـك النظـرة المتّقـدة التـي أذهلتنـي عنـد نيكـولا. شـعرتُ بـشيءٍ أشـبه برعشـة. ركضـتُ إلى الصّهريـج، وخلعـتُ السـدّادة القماشـيّة التـي تمنـع البعـوض مـن السـقوط فيـه. أنزلـتُ دلـو الصّفيـح حتّـى آخـر الحبـل إلى أن امتـلأ بالمـاء. كان مـن فضائـل الأمطـار الغزيـرة التـي هطلـت في الجنـوب قادمـةً مـن المحيـط أنّهـا مـلأت الصهاريـج. فـكان المـاء فيهـا أميَـل إلى الـبرودة، خاليـاً مـن الملـح.

حملـتُ الدّلـو إلى سـارة، فغسـلَت وجـه جـون وصـدره. وشربـت هـي نفسـها مبـاشرةً مـن الدّلـو، عـلى الرغـم مـن أنّ جـاك قـد منـع ذلـك. كانـت سـوزان متكئـةً عـلى الحائـط قريبـاً مـن جـون. بـدت مرهقـةً. سـألتُها عـن مـكانِ جـاك والآخريـن، فهـزّت رأسـها، واسـتلقت لتنـام.

مـا مـن أحـدٍ عـلى رصيـف الميـناء. والقـارب المسّـطح في مكانـه عـلى الشـاطئ. يبـدو الرصيـف مهجـوراً وقديـماً إلى أقـصى حـدّ، وقـد صدئَـت دعائمُـه الحديديّـة بـين كتـل البازلـت والوصـلات الإسـمنتيّة المسـودّة. هيّـئ إليّ أنّنـي نمـتُ مائـة عـام، وصحـوتُ فجـأةً لأجـدَني في عـالمٍ شـبحيّ.

مـا زالـت الشـمس تتوهّـج بـين شـقوق الغيـم، فـوق البحـر السـاجي. أرى عــبر ميــاه البحــيرة الــدّرب الهــلاليّ الــذي ينعطــف نحــو جزيــرة

غابريـال. كلّ شيء صامـت. مسـتحيلٌ ألّا تـأتيَ سـوريافاتي الآن. إنّنـا أحـوجُ إليهـا اليـوم مـن أيّ وقـتٍ مـضى.

خلعـتُ ملابـسي وخبّأتهـا بـينْ الصخـور قـرب الرّصيـف المرجـانيّ. هنـا قابلـتُ سـوريا أوّلَ مـرّة، وهنـا عالجتنـي حـين جرحَـت قدمـي إحـدى المرجانيّـات السّـامة. تعلّمـتُ كيـف أمـشي عـلى رصيـف الشـعاب المرجانيّة، وكيـف أخطـو وئيـداً، دون أن أحـاولَ النظـر، كـما لـو أنّني أعـرف عـن ظهر قلـبٍ مـكان كلّ إبـرةٍ وحفـرة. بـرّدَ مـاء البحـيرة حروقـي، وقـد سـبحتُ رويـداً في المـاء الشـفيف بعينَـين مفتوحتَـين، فشـعرتُ بالقـاع يمـسّ بطنـي وركبتـي، وكنـت أسـمع صـوت الأمـواجِ البلـوريّ عـلى الرّمـل. سـبحتُ مُـدّةً عـلى سـطح المـاء، ورأيـت وميـض الشـمس يتدفّـقُ مـن كلّ اتجـاه، ثـمّ تقدّمـتُ عـبرَ الممـرّ الضيّـق الـذي صرت أعرفـه جيّـداً، الممـرّ الـذي يهبـط نحـو منتصـف البحـيرة متّسِـعاً ليصـيرَ واديـاً عميقـاً شـديد الزّرقـة. ولـمّا أصبحَـت الميـاهُ أميَـل إلى الـبرودة علمـت أنّنـي عنـد مدخـل المحيـط، حيـث البحـيرة تفـرَغ وتمتلـئ مـع كلّ مـدّ. هنالـك، بعينَـين مفتوحتَـين عـلى اتّسـاعهما ارتشـفتُ الأزرق اللّامتناهـي، ودوّمـتُ منتشـياً مثـل طائر، باسـطاً ذراعَـيّ وحابسـاً أنفـاسي طويـلاً، حتّـى أصابنـي الـدّوار.

كان جـاك هـو مـن علّمنـي السـباحة بهـذه الطريقـة في الصّيـف الـذي أمضينـاه مـع العـمّ وليـام في بيـل إيـل بروتـاني. وكان يحدّثنـي عـن البحـر في بلـو بـاي، وعـن السّـد حيـث تعلّـم السـباحة في عمـر السّادسـة. كان المـاء خفيفـاً جـدّاً حتّـى أنّ أسـماك إبـر البحـر بـدت طيـوراً. قـال: «تعـال، سـأعلّمك كيـف تطـير!» لكـنْ في بيـل إيـل كان المـاء بـارداً، فخرجنـا نرتعـش، وقـد تجمّـدت أناملُنـا.

سبحتُ على مَهلٍ نحو جزيرة غابريال، مخرجاً رأسي بين الحين والحين. صرتُ الآن في القناة. رأيت التشكّلات الدائريّةَ من الشّعاب المرجانية وقنافذ البحر والطحالب. ومرّت بالقرب منّي أسرابٌ من السّمك، كانت قريبةً جدّاً حتّى اعتقدتُ أنّني أستطيع لمسها بيدي. وفجأةً تسارعت دقّات قلبي. فقد انساب ظلٌّ من بين الشّعاب المرجانية وجعلَ يتبعني مثل كلبٍ مُزمجر، ثمّ عادَ ليختفيَ فيها بحركةٍ سريعة. لكنّني كنت أعلم أنّه يتعقّبني، وأظنّ أنّني شعرتُ بنظرته الشّريرة الفاحصة تحطّ عليّ. كانت تلك سمكة التازور- الباراكودا، سيّدة البحيرة التي حدّثتني سوريا عنها على الشاطئ. إنْ خفتَها، تبعتْكَ وعضّتك. لكنّها حين تعرفُك، تدعك تمرّ.

ويبدو أنَّ سوريا قد حدّثت التازور عنّي، فقد جعلتني أعبرُ البحيرة من غيرِ أنْ تتعرّضَ لي. أنا الآن على الضفّة الرّملية التي تتّصل بجزيرة غابريال. وقفتُ على قدمَيّ ومشيت صوْب الجزيرة الصغيرة. ومع أنّ العبور لم يستغرق أكثر من عشر دقائق، فقد شعرت أنّني وصلت إلى الطّرف الآخر من العالم.

ها هي جزيرة غابريال أمامي، أكبرَ بكثيرٍ ممّا تبدو عليه من شاطئ جزيرة بلات. لِقمَّتها المركزيّة شكلٌ مثاليّ، كما لو أنّ يداً عملاقة قد نحتت هذا المخروط عبر تكديس كتلٍ من البازلت، ولونها داكنٌ أقرب إلى السّواد، تتشبّث بخاصرتَيها نباتاتٌ قصيرة، وتفترِش جزءها الغربيّ القريب من الشاطئ غيضةٌ من الديْداء مشكّلةً جداراً منيعاً. وهنالك، في الجهةِ الآمنةِ من الريح، ثمّة غابةٌ صغيرةٌ من الكزورينة

وشـجيرات الحشـف (التـي يسـميها جـاك «العانسـات»). تبِعـتُ الشـاطئ، وأخـذَ شريـط الرّمـل يضيـق ويضيـق إلى أن اختفـى في حقـل الحجـارة، هنالـك حيـث يهـدُر البحـر عـلى راحتـه.

وفيـما كنـت أسـير منعطفـاً إلى أقـصى نقطـةٍ في الغـرب، لمحـتُ دفقـاتِ البخـار التـي تنبجـس مـن الثّقـوب بـين الصخـور، وسـمعت ضربـات البحـر العميقـة في الكهـوف الخفيّـة. شروق الشـمس هنـا أشـدّ سـطوعاً، فأشـعر بلسـعتها في ظهـري وكتفَـيّ. ندمْـتُ لأنّنـي خلعـتُ ملابـسي، ولم أحتفـظ سـوى بهـذا المئـزر الـذي يغطّـي نصفـي الأسـفل. ولا بـدّ أنّنـي، بهـذه البـشرة المسـودّة، والشـعر الطويـل المتيّـس بالملـح، والشـارب الـذي يُـبرِز شـفتي العليـا، صرتُ أشـبه بعامـلٍ هنـديّ، أو هـذا عـلى الأقـلّ مـا قالـه لي جـاك قبـل أيّـام. إنّنـي أُشـبه أمّـي، الأوراسـية. فأنـا مديـنٌ لهـا بهـذا الشَّـعر الأسـود الشـديد الغـزارة، وهاتَـين العينَـين بلـون الكهرمـان، وقـوس الحاجبَـين اللّذيـن كأنّـما رُسـما بالفحـم، متقاربَـين عنـد زاويـة الأنـف. وهـذا مـا كان يجعـل الأولاد في نـزل روي ماليـزون ينادونـني: «يـا غجـريّ، يـا غجـريّ!» والآن صـحّ مـا كانـوا يقولـون.

توقّفـتُ في جـوفٍ صخريٍّ ظليـلٍ لألتقط أنفـاسي. البحر جميـلٌ هنا، حتّى أنّـه أنسـاني لمَ قدمـت إلى الجزيـرة، يـزرَقّ حتّى يميل إلى السـواد إذا ما انبسـط، ويغـدو أخـضر زمرّديـاً إذا ما اسـتقامت الأمواج على نفسـها، قبـل أنْ تنكسر. أفكّـر في سـوريا. إلى هـذا المـكان ينبغـي أنْ آتيَ لرؤيتهـا، بعيـداً عـن نظـرات المراقبَـين الفضوليّـة، وعن سـلطة السّـردار وصافراتـه. هنا سـنكون حرَّين.

أمامـي مبـاشرةً، ناحيـةَ الجنـوب، أرى سـاحل موريشـيوس كـما لم أره مـن قبـلُ مـن جزيـرة بـلات. إذ لم يبـدُ لي، حتّـى مـن أعـلى بركانهـا، عـلى

نحو ما أراه الآن، شامخاً جميلاً، تضيئه الشمس في بعض النقاطِ فتُسيل زمرّد جباله، وتكشف عن حافته المُزبدة على طول الشّعاب المرجانيّة، بل ترسم حتّى، مثل سرابٍ، سقوفَ المنازل ومداخن مصانع السّكّر البيضاء بين حقول القصب الزّرقاء الرماديّة. وأعلى ذلك كلّه، في قبّة السماء، تنتشر الغيوم مكتنِزةً كثيفةً، ومصطبغةً بطيفٍ من الألوانٍ، من الأنصع بياضاً إلى الأشدّ اسوداداً، تحجبها بالكاملِ أحياناً ستائرُ معتمةٌ، كأنّها حجب العذراء تخترقها الأنوار.

تأمّلتُ المشهد كلّه دون مَلَلٍ، حيث البحر يدفع بأمواجه العاتية نحو الساحل ويتدفّق مثل نهر عملاق، والجزرُ السوداء كأنّها تتراجع معنا إلى الوراء، مأخوذةً بعيداً عن موريشيوس، إلى وجهةٍ غامضة.

أسير الآن نحو قلب الجزيرة، بحثاً عن الملاجئ المؤقّتة حيث حُبس المرضى، فهذا ما أريد رؤيتُه. أتقدّم بمشقّة، مرتعشَ السّاقين لما بي من نفاد صبرٍ وخوف. لا ألمحُ درباً، والحصى المدبّب يؤذي قدمَيّ. ثمّة في كلّ مكانٍ حواجز من نباتاتٍ شائكة تسدّ الممرّات، وكأنّ هنالك من لا يريدني أنْ أصل.

فجأةً وجدتُني أمام صهاريج المياه. وهي متوازيات مستطيلاتٍ من حجارةٍ بركانيّة مدعّمةٍ بالإسمنت، لها سقفٌ منحنٍ، به ثقبٌ مركزيٌّ بلا غطاء. انحنيت فوق الثقب فلم أر الماء، لكنّني شممت رائحته، ماءٌ ثقيلٌ أسود ذو رائحةٍ حمضيّة. الصهّاريج هنا أكبر ممّا هي في جزيرة بلات، لكنّها متصدّعةٌ شبه متداعية، يتسرّب من أحدها خيط ماءٍ نَمَت على طوله نباتاتٌ مفترِشة.

اعتليتُ أحد الصهاريج، وجُلْتُ ببصري بحثاً عن مأوى المرضى. ما من شيءٍ، ما من ممرّ ولا درب، لا شيء سوى صخور البازلت الناتئةِ من بين شجيراتٍ تموج في مهبّ الريح. أريد أن أصرخ، وأنادي أسماءهم، نيكولا، السيّد تورنوا، لكنّ صوتي مخنوق، وأعلمُ جيّداً أنْ لا جدوى من النّداء.

في تلك اللّحظةِ لمحتُ القبور على بعد خطواتٍ قليلة منّي، قبالة الصهاريج. كانت تختلط مع كتل البازلت المتناثرة على طول المنحدر. وإلى الأعلى من الصهّاريج، لمحتُ قطعةَ أرضٍ يبدو أنّها جُرّدت فيما مضى من غطائها النباتيَ ثمّ عادت شجيرات الحشف والديْداء تغزوها من جديد. كانت تحوي زهاء عشرين قبراً، وهي في معظمها صخورٌ بسيطةٌ مربّعة الشكل مغروزةٌ في الأرض. سِرتُ بين القبور باحثاً عن الأسماء والتواريخ. لكنّ الريح كانت قد محت كلّ شيء. إلّا أنّ واحداً منها كان أقرب عهداً ولا يزال محتفظاً بشاهدته، كان هَرَماً بازلتيّاً مبتوراً، وعلى واجهته المقابلةِ للبحر أمكنني فكّ شَفرة الاسم والتاريخ:

هوراس لازار بيغرد

توفّي عام 1887 بمرض الجدري

عن 17 عاماً[1]

كان الصّمت والجمود يطبقان على المكان. ما من شيءٍ سوى طيور رئيس البحر القَلِقة التي تحلّق من فوقي مُطلقةً صيحاتها المتذمّرة. وفيما كنت أهبط نحو الشاطئ، عثرت على ما جئت باحثاً عنه:

(1) بالإنجليزيّة في الأصل.

أكـواخ الكرنتينـة. لم يبـقَ هنالـك أسـقفٌ ولا شـادر، وإنّـما فقـط جـدرانٌ حجريّـة، سـوداءُ دائريـةٌ مثـل حظائـر قديمـة.

تقدّمـت بهـدوءٍ شـديد، كـما لـو كنـت أخشـى إيقـاظ مـن فيهـا. لكـن ليـس هنالـك أيّ علامـة عـلى الحيـاة، والشـمس تسـطع بقسـوة عـلى الجـدران الحجريَـة السـوداء وعـلى أوراق الحشـف، فتُكثِّـف الظـلال. ولّمـا عـبرتُ الجـدران إلى الدّاخـل ارتجفـت. كان الهـواء بـارداً وفي الجـوّ رائحـة نـارٍ مُطفـأة. وكانـت الريـح تُطـيرّ الرّمـادَ المتراكـم عـلى الأرض. لا علامـة تـدلّ عـلى الإقامـةِ في المـكان، مـا مـن أثـاثٍ ولا فَـرش. والكـوخ المجـاور فـارغٌ أيضـاً. شـعرتُ بـما يشـبه الـدّوار، فـكان لا بـدّ لي أنْ أجلـسَ للحظـةٍ أمـام البـاب كـي أسـتجمع قـواي. ثـمّ مضيـتُ سريعـاً نحـو الشـاطئ، شـاقّاً طريقـي بعنـاءٍ بـين متاريـس الشـجيرات. وعـلى حافـة البحـر، في النقطـةِ التـي تنحنـي فيهـا قاعـدة الجزيـرة راسـمةً جؤجـؤ سـفينةٍ قبـل أنْ تنضـمَّ إلى الشّـعاب المرجانيـة، قريبـاً جـدّاً مـن الأمـواج التـي ترشـقني برذاذهـا، هنالـك آثـارُ نـارٍ قديمـة، بقعـةٌ سـوداءُ دائريّـةٌ كبـيرةٌ لا تـزال تتطايـر منهـا ذرّاتٌ مـن مـادّةٍ محترقـة، ذات رائحـة نفّـاذة عنيفـة. لقـد كانـت سـوريا مُحقّة: هـذا هـو المـكان الـذي أُحـرِق فيـه نيكـولا والسـيد تورنـوا والهنديّتـان، بـلا أيِّ مراسـمَ، بـل «خِلسـةً» إنْ جـاز التعبـير.

أتخيّـلُ جـاك يقـف عـلى الشّـاطئ، برفقـةِ فـيران الفاسـد وبارتـولي، وينظـر إلى المحرقـة التـي تلتهـم الجثـث. أتخيّلـه وقـد رشّ الأكـواخ بمعقّـم «كونديـز» السـائل، وأصـدر الأوامـر بنـزع الشّـادر وحـرق كلّ شيءٍ، الثياب والفُـرُش والأغـراض الشّـخصية والحقائـب والأوراق، فلـوّث الدخـان الأسـود سـماء الفجـر، فيـما أنـا مسـتغرقٌ في نومـي.

أيـن جـاك وفـيران؟ أتراهمـا يتفاوضـان في الطّـرف الآخـر مـن الجزيـرة مـع الشّـيخ حسـين حـول المؤن الغذائيّـة. أم يراقبـان الأفـق أعـلى الـبركان؟ وسـوريا، لمـاذا لا تـأتي؟ أتُراهـا تختبـئ بـين الشـجيرات قـرب صخـرة لوديامـو، منتظـرةً أنْ أنـصرف؟ مشـيت عـلى طـول الشـاطئ أمـام جزيـرة بـلات، فهيّـئ إليّ أنّي أحـسّ بنظراتهـا مصوّبـةً نحـوي. أودّ أن أقـول لهـا إنّـني لم أكـن أعـرف شـيئاً، وإنّـني كنـت نائـماً حـين احترقَـت الجثـث، وإنّـه ليـس لديهـا مـا تخشـاه منّـي. كلّ شيء هنـا يخصّهـا، دربُ الشّـعاب المرجانيّـة الـسريّ، وقمّـةُ صخـرة غابريـال حيـث تحـوّم طيـور رئيـس البحـر، وميـاه البحـيرة والأمـواج المتلاطمـة، كلّ هـذا لهـا. تهْـتُ كالمجنـون، عاريـاً متحرّقـاً، أصطـدم بصخـورٍ سـوداء، وتُجـرّحُ سـاقَيّ الشـجيراتُ الشـائكةُ وأوراقُ الحشـف الحـادّة. ثمّـة رائحـةٌ مُسْـكرة، نفّـاذة ولاذعـةٌ، مثـل رائحـة جلدهـا. فتّشـتُ بـين الصخـور عـن شيءٍ مـا، عـن أثـر لرجـالٍ ماتـوا هنـا، أثـرٍ مـن نيكـولا والسـيّد تورنـوا، أو قطعـةٍ مـن قـماش الهنديّتـينْ. لا شيء سـوى الحجـارة السـوداء، والرّمـاد والخشـب المتفحّـم في موضـع المحرقـة. أودّ أن أتـرك علامـةً تأبينـاً لذكـرى أولئـك الذيـن اختفـوا، لكـنّ الجزيـرة مهجـورة، مـا مـن حَجـرٍ يصلـح لوحـاً، ولا مـكانٍ أكتـب فيـه، والصخـور أشـدّ قسـوةً مـن أنْ أحفـر أسـماءهم عليهـا. وكلّ مـا اسـتطعت ارتجالـه أربعـةُ أكـوام مـن الحـصى قـرب موضـع المحرقـة، حتّـى إنّـني جعلـتُ نيكـولا طويـلاً، والسـيّد تورنـوا قصـيراً ممتلـئ القـوام، كـما كانـا في الحيـاة. ووضعـتُ كومتَـي المرأتَـين أبعـد قليـلاً. بـدا لي أنّ هـذا مـا كانـوا يريـدون. فهـا هـم قـرب الشـاطئ، يتأمّلـون البحـر وحـدود موريشـيوس في الأفـق، موريشـيوس الفائقـة الجـمال تحـت قبـابِ الغيـم.

دُرتُ حول قمّة الصّخرة تتبعني طيور رئيس البحر. في البداية زوجٌ، ثمّ اثنان وثلاثة، حتّى صارت دزينةٌ منها تحوّم فوقي بأجنحتها المتثاقلة، قلقةً لأنّ آدميّاً قد اخترق مجالها؛ قمّةَ الصخرة التي تتّخذ منها أوكاراً. لم تكن تكترث بي حينَ كنت على الشاطئ، أمّا الآن وقد دنوْت منها، فقد صارت كأنّما تهدّدني. إنّها شهودي. فلا بدّ أنّها حلّقت فوق المحرقة حين أشعل جاك وفيران النار في الجثث. ظلّت صرخاتُها الحادّةُ المدوّمة، والمتدافعة مثل صافراتٍ، تَنقل إليّ قلقها حتّى أُصِبت بالدّوار. أرجعتُ رأسي إلى الخلف وكنت واقفاً على سفح القمّة، فجرّح ضوء النهار عينَيّ، وخِلتُ أنّني أسقط في بئرٍ بلا قرار، في المركز منه هذه القمّة.

لم أستطع الصمود أكثر. أغمضتُ عينَيّ وتلمّست طريقي عائداً إلى الشاطئ، إلى أقصى نقطةٍ في الجنوب، وهي نتوءٌ صخريٌّ طويلٌ حيث يصطخب الموج طليقاً، وتعصف الرّيح بلا هوادة. من هنا، تبدو موريشيوس شاسعةً وبعيدةً مثل قارّة. وتُلمح إلى اليسار منها الجزيرتان السوداوان: **روند** و**أو سيربان**، ومباشرةً إلى الأمام، تظهر صخرة **كوان دو مير** الأشبه بحطام سفينة. إنّني هنا في بيتي، في المكان الذي طالما حلمت به، وكان يُفترَضُ أنْ أقصده منذ الأزل. لا أعرف كيف حدث ذلك، لكنّني صرتُ أعرف كلّ جزء وكلّ تفصيل، والأمواجَ والتيّارات التي تغير لون البحر، والشّعابَ المرجانيّة. لم أعد أشعر أنّني سجين. فطيور رئيس البحر بتحليقها القلِق، وضربات البحر العميقة في قاعدة الجزيرة، والرّياح، والضّوء الذي يشقّ دربه متوهّجاً عبر الغيوم، ولمعان

الحجارة البرّاق، والرائحة اللاّذعة المنبعثة من البرك التي يخلّفها المدّ، هذا كلّه هو عالم سوريا الذي أتقاسمه معها. ولا صلة له بالحكايات التي كان جاك يقصّها عليّ قديماً عن المدينة وبيت عزبة آنّا، وتموّج القصب، وعبق مصانع السّكّر، وحفلات الشاطئ شتاءً تحت السماء المرصّعة بالنجوم. فهل بقي لهذه الأشياء وجود؟ هنا في عالم سوريا، كلّ شيء مرٌّ وعارٍ. إنّني هنا في أقصى المعمورة، حيث يبدأ عالم الطيور.

ما زلت أشعر بالدّوار نفسه، تُثْملني ضرباتُ الأمواج في الصخور، ووحشة طيور رئيس البحر، ورائحة الرّماد التي تمتدّ حتّى البحر. ارتميت على الأرض السّوداء السّاخنة في أحد التجاويف. كانت كلّ موجةٍ تمدّ لساناً من الزّبد. وأنا، كمِثلِ ضرير، أخذتُ أمرّر يدي على الصخرةِ الصقيلة النّاعمة كالجلد. أستطيع أن أحسّ جسد سوريا في الصخرةِ، نحيفاً طيّعاً، ينفلتُ ثمّ يستسلم. تحتويني في ظلّها ومائها، ها أنا في كهرمانِ مُقلتيَها الشّفيف، يلفّني سيلُ شَعرها الأسود الذي أرخَتْه لي، ناعماً مثل اللّيل. أحسّ على صدري نهدَيها الفتيّينَ الخفيفينَ، اللّذين كنت ألمحهما خلَلَ ثوبها المبلّل وهي عائدةٌ من الشعاب المرجانية، وأسمع موسيقى الأساور حول معصمَيها، وهفيف الريح حين تطوّقني بذراعَيها البالغتَي الطّول، فتتشابك سيقاننا كأنّنا نرقص.

تصاعدَت فيّ الرّغبة حتّى الألم. فحرقة السماء الهائلةِ ووحشةُ الطيور الأبديّةُ لا بدّ أنْ تعثرَ على سبيلٍ لها. هذه الطّاقة التي تختلج فيّ لا يمكن أن تظلّ حبيسةً، لا بدّ لها أنْ تدفُق. قلبي يخفق في صدري، يتّقد بلهيب الشمس ولهيب المحرقة التي التهمت الجثث على الشاطئ، ويتوهّج من الرّغبة. فجأةً اخترق الضّوء عينَيّ، فتحتُ جفنَيّ على صعقة ضوء

الشمس، وشعرت بتدفّق مائي على الصّخرة السوداء الملتهبة والرّمل. تسمّرت في مكاني مُنهكاً، وسمعت دقّات قلبي وضربات البحر في قاعدة الجزيرة، وذلك الاهتزاز الواسع المدى الذي امتزج بالضّوء.

تلاشت صرخات رئيس البحر المبحوحةُ رويداً رويداً. لم تعد الطيور تخافني. صارت تتركني عائدةً إلى أوكارها عند خاصرة التلّة الصخريّة.

أفكّر في سوريافاتي التي تمشي على الطّرف الآخر، ربّما صوب النّبع المتدفّق من بين كتل البازلت جنوب باليساد. يبدو لي أنّني أسمع وقعَ خطواتها وصوتَها وهي تلعب مع الأطفال على الدّرب وتنادي على الجديان، صوتَها المختلط بصخب قرية العمّال، وضحكتَها حين تردّ على ثرثرةِ النساء وهنّ في طريقهنّ لمَلءِ الجرار من النّبع.

الآن أغمضُ عينَيّ، لم يعد بي قلقٌ، ولا خوفٌ من الزّمن. غداً، أو بعد غدٍ، أو فيما بعد، سأظَلّ هنا، في نهاية العالم، بعيداً عن شهوةِ الانتقام. ستجادلني سوريا وأعرف كيف أستبقيها. سأحدّثُها عن إنجلترا وباريس، وعن بلدانٍ لا وجود لها، وأستمع إليها بلا كلَل، ستحدّثني عمّا قرأَتْه في أخبار لندن المصوّرة، أو تقصّ عليّ حكاية أمّها. ستكلّمني بلغتها النّاعمة المرنة، كما لو كانت تغنّي.

دخلتُ الموجة الكبيرة في نهاية الكتلةِ البازلتية، تاركاً الزّبد يغمرني. ربطتُ المئزر حول خصري، وأرجعتُ شعري إلى الوراء. والغريب أنّني في تلك اللّحظة لم أشعر بأيّ خجلٍ. وإنّما بذلك الامتلاء التّام الذي يعقب النشوة، حالةٍ منٍ صحوٍ عصيّةٍ على الوصف.

ولمّا غُصتُ في البحيرة، في نهاية لسان الرّمل عائداً إلى جزيرة بلات، تلقّفني المدّ، كان تيّاراً عنيفاً وبارداً. أخذَت الأمواج تتكسّر على الحاجز المرجانيّ مصدرةً هديراً مدويّاً. وتدفّقَ الماء في كلا الاتّجاهين مثل نهرٍ فيّاض، فكان عليّ أنْ أعوم بكلّ قوّتي منزلقاً تحت الماء، مثلما علّمني جاك في بروتاني، كي أشقّ طريقي بين الدوّامات. وفي لحظة ما، انجرفتُ بعيداً إلى عرض البحر، وانحرَفتُ عن المسار فإذا بي فوق الشَعاب المرجانيّة، فخدشتْ رؤوسُها المدبّبة ركبتَيّ وقدمَيّ. ثمّ صار الرّصيف أمامي، قطعةً سوداء من اليابسة تشكّلُ الوصلةَ مع جزيرة بلات. بلغتُ الطّرف الآخر، مثل ناجٍ من غرقِ سفينة، لكنّي لم أرَ ظل التازور ثانيةً.

21 يونيو

أمضيتُ القسط الأكبر من ذلك النهار نائماً عند طرف غابة الكزورينة. أُحبّ حفيف الرّيح في أوراقها الإبريّة، وأتذكر القصّة التي رواها لي جاك في باريس، حين التقينا في بيت أبي، وكيفَ كان لوقع اسم الكزورينة (فيلاوس)[1] سحرٌ في أذنَي، كأنّه يحيلُ إلى شجرةٍ لا توجد إلّا في الأساطير: «خلف عزبة آنّا، كانت هناك غابةٌ من الكزورينة على طول الوادي الذي يمتدّ حتّى البحر. ذات يوم، جاء صديقُ جدّي من فرنسا ليقضيَ بضعة أيّام معه. وعند العَشاء، جلس إلى المائدة، وبدأَت رياح البحر تصفرُ في تلك اللّحظة. قدّمَ له الجَدّ طبقَ الأرزّ، ولما رآه يسكب لنفسه كميّةً قليلةً منه، سأله: «أتشكو من شيءٍ؟»

(1) Filaos.

قـال الضّيـف: «كلّا، بـل بالعكـس مـن ذلـك، فأنـا جائـع جـدّاً». وأومـأ ليقـول إنّـه يُصغـي إلى «النّشـيشِ» الآتي مـن الخـارج: «وإنّـما أدّخـر نفـسي لطبـق السّـمكِ المقـليّ!» «كانـت القصّـة مثـيرةً جـدّاً حتّـى أنّ العائلـةَ ظلّـت تتداولهـا، وقـد قصّهـا علـيّ جـاك بـدوره، وكـم كان رائعـاً سـماعها في شـتاء باريـس بأشـجاره العاريـة. كان هـذا هـو كلّ مـا تبقّـى لنـا مـن المدينـة ومـن بيْـت عزبـة آنّـا: «نشـيشُ القـلي» الـذي كان يـتردّد في المسـاء حـين تتخلّـل ريـاحُ البحـر أوراق الكزورينـة الإبريّـة. أنـا أيضـاً كنـت أدخّـر نفـسي لتـذوق السّـمك المتلألـئ في الزّيـت الحـارّ.

لم أعـد إلى مبـاني الكرنتينـة طيلـة النهـار. صرتُ لا أحتمـل العتمـةَ الخانقـة وحجـارة الأكـواخ السـوداء، ولا أطيـقُ سـماعَ أنفـاس المـرضى المخنوقـة. كانـت سـارة ميتكالـف أيضـاً خائـرة القـوى. ومـا عـادت تفعـل شـيئاً سـوى أنْ تسـاعد جـون عـلى المشي إلى المرحـاض، أو أنْ تحضرَ لـه المـاء مـن الصّهريـج. منـذ مَـرِضَ زوجُهـا، تغـيّرت ملامحهـا، تشـنّج وجههـا مـن شـدّة التوتّـر وصـارت تقـضي أغلـب الوقـتِ منطويـةً عـلى ذاتهـا في رُكنهـا، والمـلاءةُ حـول كتفَيهـا، لا تُبـدي حـراكاً، ولا تـكاد تنبس ببنـت شـفة. كانـت تهمـسُ أحيانـاً بعبـاراتٍ متقطّعـةٍ نصفهـا بالإنجليزيّـة ونصفهـا الآخـر بالفرنسـيّة، ثـمّ تتنهّـد. قـال لي جـاك: «إنّهـا تهـذي». لكنّـه هذيـانٌ مـن شيءٍ آخـرَ غـير الحمّـى. إنّهـا صحّتهـا العقليّـة التـي بـدأت تتزعـزع. المـرأةُ التـي رأيناهـا في قمّـة شـبابها وحيويّتهـا عـلى متـن سـفينة **لافـا**، وقدّمهـا لنـا جـون قائـلاً: «هـذه سـارة، زوجتـي الصغـيرةُ جـدّاً»، بثوبهـا الأزرق المحتشـم كثـوب المدرّسـات، وشَـعرها الأشـقر الملمـوم في عقصـةٍ،

وعينيَهـا الزرقاويـن زرقـةَ القيشـانيّ، مَـن كان نائـبُ القبطـان سوسـاك يمازحهـا فنسـمع شـلاّل ضحكتهـا الـذي يديـر أعنـاق الجميـع، هـا هـي الآن في حالـةٍ يُرثـى لهـا، فقـد لوحّـت الشـمس وجههـا، واغـبرَّ ثوبهـا، وصـارت تجـول عـلى مـا حولهـا بهـذه النظـرة الفارغـةِ، كأنّهـا عاجـزةٌ عـن استـيعاب مـا يحـدث.

وقـد تغـيّر جـاك أيضـاً. أصبحـت تعابـير وجهـه مشوشّـة. وصـار كثـيراً مـا يخلـع نظّارتـه ذات العدسـة المكسـورة، فتكشـف عـن بـصره الحسـير ونظرتـه الشّـاردة غـير المباليـة. لّمـا عُـدت، وقـد تيقّنـتُ مـن أنّ نيكـولا والسيّد تورنـوا قـد أُحرقـا بالفعـل في جزيـرة غابريـال، خمّـن جـاك غضبـي وازدرائـي، فـأراد أن يتحـدّث معـي ليـبرّئ نفسـه. بـدأ قائـلاً:

- ليون، فلتُصْغِ إلـيَّ...

كان صوتـه غريبـاً، مكتومـاً، قلـت لنفـسي إنّـه صـوتُ رجـلٍ كاذبٍ. وانسـحبتُ بعيـداً:

- دعني وشأني، فأنا متعب.

لم يكـن ثمّـة مـا يقـال، فقـد فـات الأوان. هـزّ جـاك كتفَيـه، كمـنْ أحـسّ بخطئِـه، وعـاد ليجلـس بجوار سـوزان.

ثـمّ هـدأ غضبـي فجأةً. جـاك شـقيقي وليس لي سـواه. فإن لمْ أكُـن في صفّه فمـن عسـاه يكـون؟ ثمّ مـا الـذي كان في استطاعته؟ لمْ تكـن تلـك إرادتَه ولا حتّـى إرادة فـيران الفاسـد، بـل إنّ الـسّردار نفسـه لا يملـكُ مـن أمـره شـيئاً. فالأمـر قـد صدرَ من مـكانٍ آخر، من موريشـيوس. كانت تلـك إرادة الحكومة الجماعيّـة، نـادي كبـار العائـلات، المدفوعـين برعبهـم مـن مـرض مجهـولٍ قد ينتـشر في جميـع أنحـاء الجزيـرة، ومن شـبح السّـفينةِ ليداريه.

رافـق جـاك المـرضى حتّـى النّهايـة. ثـمّ انخـرط بالمهمّـة القـذرةِ المتمثّلـة في التخلّـص مـن الجثـث لمنـع العـدوى، ولم يطلعنـي عـلى شيءٍ مـن ذلـك. كانـت سـوزان هـي عـلى الأرجـح مـن لم ترغـب في أنْ يبلغَنـي بالأمـر. فأنـا في نظرهـا مجـرّد طفـلٍ ينبغـي أن يبقـى بعيـداً عـن مشـهد المـوت. ولطالما فعـل جـاك الـشّيء ذاتـه. فعندمـا أصيـب والدنـا بالتهـاب الدّمـاغ، لم يخـبرني، حـاول إخفـاء الحقيقـة، ولعلّـه هـو نفسـه قـد شـعر بالخـوف. وقـد ظـلّ طويـلاً بعـد وفاتـه يتحـدّث عنـه بصيغـة المضـارع، كـما لـو كان لا يـزال حيّـاً.

ذهبتُ لأجلس إلى جانبه، وأتحدّث إليه كي أطمئنه:

- كيف حالها؟

- لم تـأكل منـذ يومَـين. حتّـى المـاء يجعلهـا تتقيّـأ، ولا يمكننـي إجبارهـا عـلى تنـاول الكينـين.

التفتـتْ سـوزان إلينـا، لكنّنـي أحسسـتُ أنّهـا لم تسـمعنا. كانـت تتنفّـس بمشـقّة وكأنّ ثقـلاً كبـيراً يضغـط عـلى صدرهـا. ثمّـة هـالاتٌ سـودٌ حـول عينَيهـا، وقـد نحـل جسـدها، وجفّـت بشرتهـا واحتقنـت صُلبـةُ عينهـا بالـدّم. ولم يكـن جـون ميتكالـف، في الطـرف الآخـر مـن البيـت، أحسـنَ حـالاً منهـا. وكان يُفـتَرَضُ حتّـى الآن أنّ الأمـر متعلّـقٌ بحمّـى الملاريـا. لكـنّ فـيران جـاء وتفحّـصَ المريضَـين بعـينٍ حـادّة، إذ كان يَشـتبه في أنّ جـاك يخفـي أمـراً أشـدّ خطـورة كـي يجنّـبَ زوجتـه الرّحلـة إلى جزيـرة غابريـال.

انضممْـتُ إلى جـاك في الخـارج. كان يجلـس في ضـوء الشـفق. أخـرج آخـر علبـة تبـغ للـفّ سـيجارته. لم أخـبره عـن نبتـة التبغيّـة، أو التّبـغ البنّـيّ الـذي رآه جـونٌ عـلى منحـدر الـبركان في ذلـك اليـوم. قـال مازحـاً: «حـين

لا يبقى المزيد منها، سألجأ إلى الحشيش، مثلما يفعل الآخرون». بدا واجماً. كان يشعر بالذّنب لأنّه جلب زوجتَه الشابّةَ الشديدة الهشاشةِ إلى هنا، إلى فخّ الكرنتينة، وسْط هذا الوباء. انتفضْتُ من هوْل الكلمة:

- وباء؟ وباءُ ماذا؟

نظرَ إليّ مليّاً. أتراني آخر من يعلم؟

- كلّ شيء، الملاريا، الجدري، الكوليرا.

حدّثَني عمّا رآه هذا الصباح في قرية العمّال؛ النّاس خائرو القوى، يحترقون من الحمّى التي تورّم وجوهَهم. وليس هنالك ما يكفي من الكينين، واللّقاحُ غير متوفّر. ينبغي أنْ يرسلوا الأدوية والغذاء، والأهمّ من ذلك أنْ يرسلوا عِجلةً من موريشيوس. لكنْ من الذي سيشغل نفسه بإرسالِ عِجلةٍ إلى هذه الصّخرة النّائية، في حين أنّهم لا يفكّرون حتّى بالبشر؟ تفاوض جاك مع السّردار للحصول على القليل من الأرزّ والعدس والسّمك المجفّف. ولكن إنْ لم يعد المركب الشراعيّ في غضون أربعة أيام، فقد حُكِمَ علينا بالموتِ جوعاً.

حاولتُ أن أكون متفائلاً:

- لا يمكنهم إلّا أنْ يأتوا ويأخذونا.

هزّ جاك كتفَيه.

- لن يأتوا ما لمْ يُحتوَ الوباء. ثمّ إنّ هناك عاصفة قادمة، حسبَ ما يقولون.

كان المقياس الذي في حوزة جوليوس فيران يشير إلى منخفضٍ متسارعٍ منذ وصولنا. ومع ذلك فالسماء بديعةٌ مثاليّة الزّرقة، ولم تعد الغيومُ سوى مِزَقٍ خضّبَتها حُمرةُ الغروب.

منذ ساءت حالة جون ميتكالف، ابتعد جوليوس فيران وبارتولي قليلاً، إلى مقرّ الإدارة المتاخمة للمستوصف. وهو مبنىً طويلٌ له سقفٌ من الصّفيح، تحوّله الشمس إلى فرنٍ أثناء النّهار. وحينَ لا يكون الرّجلان في موقع المراقبة، أعلى البركان، فإنّهما يكونان في هذا المكان الأشبه بحظيرة، حيث يُعدّان على راحتهما خطَطاً للحرب ضدّ الهنود وتقسيماتٍ مستقبليّةً للجزيرة. ولكن من عساه يهتمّ بذلك؟ لقد سئم الجميع غطرسة المستبدّ الذي يقلّد على نحوٍ يثير السخرية السّادةَ البيضَ أعضاءَ **الحكومة الجماعيّة**، ويحلم بأنْ يؤسّس هو أيضاً **نظاماً أخلاقيّاً** في جزيرة بلات. لكنّه الوحيد الذي يؤمن بذلك. فبعد موجة الشّغب، عاد خمولُ البدايات المحتوم إلى الجزيرة. ولم تعد تُسمع سوى صافرة السّردار التي تُدوّي بثباتٍ معلنةً وقت الاستيقاظ، ومغادرة الرّجال نحو السّد والنساء نحو عروق الطّلْق، أو أذان العشاء الذي تحمله الرّيح مثل نشيدٍ حزينٍ من الماوراء.

يحاذي الدّربُ المفضي إلى باليساد شرمَ الحجارةِ السوداء عند سفح البركان، هنالكَ يبدأ منْجم الطّلق، الذي لم يعد اليومَ سوى مستودع صغيرٍ أبيضَ أعلى البحر، تأتي النساء الهنديّات لملء دلاءٍ منه. وفي الجزء السفليّ من الخليج، تقع كتل البازلت العشوائيّة التي تغزوها النّباتات المتسلّقة، حيث بحث جون عبثاً عن شجرة النّيلة الواطنة. وهو المكان الذي توجد فيه المقبرة القديمة التي تآكلت شواهد أضرحتها بفعل الرّيح، فلا يمكنُ قراءتها. لكنّني لمحتُ على شاهدةٍ مقلوبةٍ أتلفتْها الأشنات الاسمَ التّالي:

توماس ميلوت، توفّي عام 1856[1]

كان جاك هو من حدّثني عن آلاف المهاجرين من كلكتّا على متن السّفينة ليداريه الذين تُخُلّيَ عنهم وتُركوا لمصيرهم في ذلك العام على جزيرة بلات، بعد اكتشافِ حالاتٍ من الجدري والكوليرا على متن السّفينة. ومثلنا، فقد انتظر ركّابها يوماً بعد يوم، مراقبين الأفق الخالي وخطّ موريشيوس، آملين أنْ يروا القارب قادماً لنقلِهم. ولا بدّ أنّهم أرسلوا رسائل يائسةً، وأشعلوا حرائق كبيرةً على الشاطئ لجذب انتباه من هم على الجانب الآخر، أولئك المجهولين الذين حكموا عليهم بالموت البطيء. وهو ما حدث فعلاً، فقد وقع غالبيّةُ المهاجرينَ فريسةَ المرض والفاقة. ومضت ثلاثة أشهرٍ قبلَ أنْ تقرّرَ حكومة موريشيوس أخيراً إرسال المساعدة، فلم يجد القادمون إلى الجزيرةِ سوى عددٍ قليلٍ من النّاجين. وقد تناثرت عظام الموتى على التّراب.

لا أحد يأتي إلى المقبرة. ثمّة في حقلِ الحجارةِ والقبور التي أطاحت بها الأعاصير شيءٌ خارقٌ للطّبيعة، شيءٌ مُربِكٌ جعل قلبي يخفق بقوّة، وكأنّ نظرةَ المهاجرين المخذولين لا تزال حيّة، تخترق الأفق مثل اهتزازٍ طويلٍ يتردّد صداه في قاعدة الجزيرة. كان هذا الاهتزاز هو ما سمعته حين استلقيْتُ وأذني إلى الأرض في ليلتنا الأولى في باليساد.

أردتُ أن أجد المكان الذي أحرقوا فيه الجثث على الشّاطئ فيما مضى، غيرَ أنّ البحر الواسع كان يضرب في السّاحل، وقد حتّت الأمواج الخليج وصولاً إلى القبور الأولى.

(1) بالإنجليزيّة في الأصل.

لكنّني أحبّ القدومَ إلى المقبرة. فهنا أجد سكينةً هائلةً وعذوبة، أشبهَ بما كنت أشعر به أحياناً في الكنائس، هذا الشعور بزمنٍ أبعدَ مدى من حياتي، وبحضورٍ أوسعَ من نظرتي. فكلّما سمعت إشارة السّردار مساءً، تملّكتني رغبةٌ في القدومِ إلى المقبرة المهجورة. وإنّني لا أعثر على تفسيرٍ واضحٍ لذلك.

أجلس على القبور طويلاً وأنا أسمع طنين البعوض حول شعري. يحطّ بعضها على ساقَيّ وظاهر يدَيّ، لكنّني أكاد لا أشعر بلسعاتها حين تكون كثيرة العدد، فأطردها بحركةٍ من يدي أو أنفخ عليها. إنّها متهوّرة وعدوانيّة ولها أجسامٌ مُبقّعة، خفيفةٌ وذكيّة. وهناك أيضاً بعوض الرّمل، والنّمل، وأحياناً تأتي حشرة حريشٍ طويلةٌ فتمرّ على القبور مصدرةً خشخشةً أشبه برنين المعدن المهترئ. يكره جاك هذه الحشرة، ويسحقها بغضبٍ تحت كعبه. أمّا أنا فقد أَلِفتها. إنّها، هي والطيور، سكانُ الجزيرة الحقيقيّون، وستظلّ هنا، حتّى بعد رحيلنا بأمدٍ طويل.

كلُّ شيءٍ صامتٌ هنا. وما من ريح. مضى يومان كنّا فيهما في قلب خليج هادئٍ شاسع، تمتدّ حدوده حتّى الأفق. يقول جاك إنّ هذه عينُ العاصفة، وحين تطْرُفُ العين، سنكون تحت المطر مرّة أخرى.

ما زلت أشعر بآثار الحروق التي خلّفتها على جسدي شمسُ جزيرة غابريال. أمسِ انفتح جرحٌ في ظهري بين كتفَي، هنالك حيثُ لامس جلدي البازلت. كلّ شيء هنا مغموسٌ بنظرات ركّاب ليداريه، الذين يسكنون الآن هذا الخليج، نظراتِهم المتألّمة المُرسَلة نحو البحر الخالي. أو لعلّها الحمّى المتصاعدة التي توتّر أعصابي وعضلاتي

كلّ ليلـة، وتصـبّ ببـطءٍ الرّعشـة في عروقـي. أهمـس باسـم سـورياڤاتي، اسـمِها السـحريّ الـذي يجعـل طيفهـا يتجـلّى فـوق الشّـعاب المرجانيـة، محاطـةً بعجـاج البحـر مثـل إلهـة. أحتاجهـا، بي حاجـةٌ ماسّـةٌ لأنْ تهبَنـي مـا هـو لهـا: قريـةَ العـمّال، والأزقّـة العاجّـة بدخـان الطّهـو مسـاءً، وصيـاح الأطفـال، والجديـان، وصـوت صبـيٍّ يغنّـي في قلـب كـوخ، وعـزفَ نـاي هـادئ، وحتّـى رائحـةَ النـار الرّهيبـةَ حيـث ينتظِـر الموتـى. أشـعر أنّ هـذا هـو المـكان الـذي أنتمـي إليـه الآن، إنّـه الطـرفُ المقابـل، والعـالم الآخـر.

فجـأة وجدتُنـي عـلى الـدّرب الـذي يعـبر منحـدر الـبركان، ركضـتُ عبر السّـيل العظيـم مـن الصخـور البركانيّـة الكبـيرة والمدبّبـة، بـين الشـجيراتِ الشـائكة والحشـف. لأول مـرّة أنـدم عـلى خسـارة حذائـي، فقـد جرّحـت حـواف الحمـم البركانيـة الحـادّة باطنَـي قدمَـيّ عـلى الرّغـم مـن صلابتهـما، وخدشـت الشـجيراتُ كاحـليَّ. ثمّـة رائحـة حيوانيّـةٌ تُشـتَمُّ عـلى مقربـةٍ مـن الـبركان، مُسـكرةٌ مثـل رائحـة تخمـير، وتزيـد مـن حدّتهـا حُمـرةُ الشّـفق التـي تـكاد لا تتزحـزح.

ينحـدر الـدّرب إلى اليمين صـوْب قرية العـمّال. لكنّني تابعـت طريقي عبر سـفح البركان، نحو جدول باليسـاد، حيث تمضي النسـاء الهنديّات للاسـتحمام وجلـب المـاء عنـد حلـول اللّيل. قفـزتُ لاهثـاً بـين الصخـور دون أن أحاول الاختبـاء. أردتُ أنْ أصـل قبـل حلـول اللّيل. ولـمّـا اجتزتُ قمّة الـبركان، ظهر ليَ البحـرُ فجـأةً مـن جهـة الغرب، متلألئاً بشـمس المغيـب التي كانـت لا تزال تـضيء خليج باليسـاد، ببـلاط رصيفـه البازلتيّ المصفـوف مثل قشـور ثعبان.

في سـيل الحمـم البركانيـة، يغـذّي النّبـع سلسـلةً مـن الأحـواض تنعكـس السـماءُ عـلى صفحتهـا وتغطّيهـا النباتـات. بـل إنّ عـدداً قليـلاً مـن

الأشجار نجح في التشبّث بخاصرة البركان؛ تورنفوريّاتٌ فضيّة، ونخلةُ أريكا صفراء ضخمةٌ، داكنة الأوراق. هذا هو المكان الذي تأتي إليه النساء كي يغرفنَ الماء في جرارٍ، أو يغسلن شعورهنّ بالمياه الجارية. هبطتُ من صخرة إلى صخرة، متشبثاً بالأجمات. كان هنالك العديد من النساء، عارياتٍ حتّى الخصر، يتربّعنَ على حافة الماء وأجسادهنّ تتألّق في ضوء الشّفق الذهبيّ. سمعتُ انسياب الماء، وضَحِكاتِهنّ حين يتراشقن بالماء، متخلّياتٍ عن كلّ حشمةٍ، كأنّهنّ في عالمٍ آخر، على حافة نهرٍ في الهند أو كشمير.

سمِعنني. فحاولن رؤيتي بين الصخور وأوراق الحشف، لكنّ الشمس بهرت أبصارهنّ. كانت بشرتهنّ حنطيّةَ اللّون، وقد أثقلَ الماء شعورهنّ السّود وسالتْ قطراتُه على أكتافهنّ ونهودهنّ.

لم تكن سوريا معهنّ. بقينَ للحظاتٍ ملتفِتاتٍ نحوي، وحاولن أنْ يلمحنَني في مخبئي. لكنّني كنت لابداً كالأرنب، لا أبدي حراكاً. ألقينْ الحصى عشوائيّاً، وكُنّ يصحْنَ عليّ كما لو كنت طفلاً قليل التّهذيب. ثمّ التففْن بأثواب السّاري وابتعدنَ حاملاتٍ الجرار الممتلئةَ على أكتافهنّ، وهبطنَ الوادي صوب الشاطئ، واختفَين للحظةٍ بين كتل الحمم البركانيّة، ثمّ سمعت أصواتَهنّ من جديد، ورأيتهنّ يسِرن على طول الخليج صوبَ البيوت المشتركة.

امتلأت السّماء بالخفافيش قبيل اللّيل. أخذتُ أصيح كما في ذلك اليوم: «سوريا! سوريافاااتي!» وتخيّلتُ أنّ صوْتيَ قد وصل إلى قرية العمّال، وإلى نقطة المراقبة حيث يقف جوليوس فيران والمنظارُ في يده. سأصرخ مرّة أخرى، إنّها فرصتي الأخيرة قبل حلول اللّيل. وفجأة

أدركــتُ أنّهــا هنــاك، ســمعت وقــعَ خطوتهِــا الرشــيقة، ورّنــة أســاورها القصــيرةَ. أقبلــتْ مــن الــوادي صاعــدةً عــبرَ ركام الصخــور. لكــنْ لم تكــنْ هــي مــن ســمعتُ أوّلاً، بــل جديــانٌ تتقافــز مــن صخــرة إلى أخــرى مطلقــةً ثُغاءهــا الحــادّ. ثــمّ ظهــرَت هــي، ومعهــا صبــيٌّ صغــير، راعٍ يقــود الجديــان برميــاتٍ مــن الحــصى عــلى طــول الــوادي. كانــت ســوريا ترتــدي شــالها الأحمــر الكبــير الــذي يغطــي شــعرها. أقبلَــت نحــوي، وكأنّهــا تعلــم أنّنــي كنــت أنتظرهــا. نظــرَت إليّ، ولم تبــدُ متفاجئــة بوجــودي. حيّتنــي عــلى الطريقــة الهنديّــة، ثــمّ جلسَــت عــلى حجــرٍ أمامــي، وأخــذَت هــي أيضــاً ترمــي الحــصى عــلى الجديــان المُهرولــةِ عــبرَ الــوادي.

بعدهــا بقليــلٍ توقفَــت الجديــان أمــام حــوض للــشّرب. واختفــى الرّاعــي في الدّغل.

لم أعــرف مــاذا أقــول. بــدا لي أنّ أيّامــاً وشــهوراً مضــت دون أنْ أراهــا. قالــت ببســاطة، «هــل تشــعر بالجــوع؟ أحــضرتُ لــك بعــض الطّعــام». أخرجَــت بعــض قطــع حلــوى الأرزّ مــن حقيبتهــا. كان كلّ شيء غايــةً في البســاطة، حتّــى أنّــه لم يُثــر اســتغرابي. وحــينَ مــددْتُ إليهــا إحــدى الكعــكات، رفضَــت: «لقــد أكلــتُ منــذ قليــل!» قالــت «قليــل» ماطّــةً المقطــع الأول، كأنّهــا تغنّــي.

لا أتذكّــرُ متــى أكلــتُ آخــر مــرّة، ربّــما هــذا الصبــاح، قليــلٌ مــن الأرزّ الملتصــقِ في قــاع القــدر، ممــا تبقــى مــن اليــوم الســابق. ولمّــا تناولــتُ الحلوى، بــدا لي أنّنــي لم أذق في حيــاتي مــا هــو أطيــب منهــا. نظــرت ســوريا إليّ وقــد بــدت شــاردةً قليــلاً، ثــمّ قالــت بصــوتٍ غريــب:

- في شيخوختكَ، سأكون أنا من تحضّر الطّعام لك.

ولمّا فرغتُ من طعامي، مضَت بي إلى أسفل الوادي نحو حوض الماء. مياهُ الينابيع عذبةٌ ونقيّة. أمّا مياه الصهاريج عندنا، في الكرنتينة، فطعمها مرّ، ويلزم أنْ تُصفّى بقطعةِ قماشٍ لتنقيتها من يرقات البعوض.

كان نور المساء الخافتُ يلفّ المكان حول النّبع، والأشجارُ من حولنا عامرةً بالطيور، وقد أخذت الزرازير تتنادى مع دنوّ اللّيل. وكان البركان من فوقنا حادّاً قاتماً منذراً بالخطر؛ فقد أحسستُ بنظرة المراقبَين مسلّطةً علينا، مختبئةً في أنقاض المنارة. هبطنا الوادي صوب البحر، وبحثنا عن مخبأ بين الصخور. عاد الصبيّ الصغير إلى باليساد سائقاً جديانه. وجلسَت سوريا على بسطةٍ صخريّة أمام البحر المعتم.

- حدّثني أكثرَ عن إنجلترا.

لا تزال السماء في أوج صفائها، أتأمّل وجه سوريافاتي وانعكاسَ النّور في عينَيها. شعرُها مُسرّحٌ في جديلةٍ سميكةٍ واحدة. وزمامُ الذّهبِ يلمع في طرف أنفها مثل قطرة ماء.

تريد أن تعرف كلّ شيء، كيف يعيش النّاس هناك، في لندن، وما هي أوصاف ملابسهم، وكيف هم أطفالهم. لا أفهم بالضّبط ماذا تريدني أن أقول لها. ذهبتُ إلى لندن للمرّة الأولى في الصيف الذي أعقب وفاة أبي، كان جاك يقيم مع العمّ وليام في مكانٍ يُدعى بِكنهام، فيه بيوتٌ من الطّوب الأحمر، وحدائق كئيبةٌ إلى حدّ ما، وشجيراتُ ورد. آثرتُ أنْ أصف لها ما قرأته في روايات تشارلز ديكنز؛ السّجن الذي أُرسِل إليه بِكْوِك[1]، بفسحته الدائريّة الكبيرة حيث يتمشّى السّجناء كما لو كانوا

(1) إشارة إلى صامويل بِكوِك Samuel Pickwick بطل أولى روايات تشارلز ديكنز «مذكّرات بِكوِك».

على خشبة مسرح. فتحَت سوريا عينَيها على اتساعهما وضحكت:

- إنّهم غريبون! وبعد لحظةٍ تأمّل قالت:

- لقد وُلِدتْ أمّي في لندن.

ولمعت عيناها كأنّهما اغروْرقتا بالدّمع:

- لا تعرف أمّي من هما والداها الحقيقيّان. إنها لا تعرف حتّى اسميهما. خلال الحرب ضدّ الإنجليز في الهند، كانت في كاونبور. عثرتْ عليها جدّتي جيريبالا، كانت في الخامسة من عمرها، وكانت تتشبّث بعنق مربّيتها ساكنةً، بعدَ أنْ مات الجميع. رأت جدّتي أنّ الطفلة ما زالت على قيْد الحياة، فأخذتها بعيداً. ومنحتها اسماً، سمّتها أنانتا.

فجأة شعرتُ بالخجل من ثرثرتي. فما كانت تطلبه منّي سوريا هو أن أحدّثها عن أمّها، عن المدينة التي وُلِدتْ فيها، وليس عن الأكاذيب. قالت:

- قل لي بعض أسماء إنجليزية، فلربّما يكون من بينها اسم أمّي.

أخذتُ أخمّن، كما في لعبة:

- حسناً: ماري، إميلي، أماليا.

- أماليا، هذا اسمٌ جميل.

لم أجرؤ على إخبارها بأنّه اسم أميّ. بحثتُ عن أسماء أخرى:

- أغاثا، فيكتوريا.

أضحكَتْني صرختُها:

- آه! كلّا، ليس فيكتوريا!

- إذَن ربّما آن، أو أَلِيس، أو جوليا. لكنّكِ على حقّ، ربّما كان اسمها أماليا.

- أحبّ أمّي كثيراً.

لم تُضِف شيئاً. جلسنا متجاورَين على تلك الصّخرة الممتدّة في البحر كمن يجلس على مقدّمة مركب. اقترب اللّيل، وبصعوبةٍ تبيّنتُ ملامحَها، لكنّني تنشّقت رائحة جسدها وشَعرها. وبدا لي أنّني أعرفها منذ الأزل.

حدّثَتني عن موريشيوس، عن ديْر ماهيبورغ، وعن أبيها الذي لا تعرفه. «مات إثر حادثٍ وعمري عامٌ فقط. لم تُرِدْ أمّي أن تحدّثني عنه قطّ، أظنّها تزوّجته وهي في السادسة عشرة من عمرها. كان مسيحيّاً من فيل نوار[1]».

وددْتُ ألّا تنتهي هذه اللّحظة. تحدّثت سورياڤاتي عن الهند أيضاً، عن النهّر العظيم حيث غسّلت جدّتُها أنانتا بعد أن عثرَت عليها. وعن مدنٍ بأسماء جميلة، الله أباد، وفاراناسي، وكلكتّا. قالت إنّها سوف تصطحب أمّها ذاتَ يومٍ إلى هناك، وسوف تذهب إلى كاونبور لترى المكان الذي أُنقِذتْ فيه، والنّهرَ العظيم، نهر يامونا، حيث ولد الإله كريشنا.

في تلك اللّحظة أمالت رأسها على كتفي وكأنّها مرهقة. غمرني عطر جسدها وجعلني أرتجف. أمسكَت بيدي، فأحسستُ براحتَيها الناعمتَين والمستنزفتَين، دافئتَين جدّاً. ثمّ ابتعدَت قليلاً. حاولَت أنْ تتأمّلني في العتمة، وكان صوتُها مكتوماً.

- أحبّ أميّ كثيراً، ليس لي سواها. أريدك أن تُحدّثها يوماً ما عن بلدها، أنْ تعيد عليها كلّ ما قلتَه لي. ماتت جدّتي هنا منذ زمنٍ طويلٍ

(1) قريةٌ في منطقة ماهيبورغ، في جزيرة موريشيوس.

قبل ولادتي. وأُحرقت على الشاطئ، لكنّها لا تزال هنا. تقول أمّي إنّ الموتى لا يذهبون بعيداً، بل يعيشون معنا، وحيثما حُرقت جثثهم فذاك مأواهم.

ضممْتُ سوريا إليّ، وأحسست بوجهها على وجهي، وباختلاج رموشها، وبشفتَيها وأنفاسها. ادْلهمّ اللّيل، لكنّي ما زلتُ أرى طيفها في مرآة السّماء الصافية. ضربت الأمواج بعمقٍ واهتزّ الصّخر من تحتي. كلّ شيء فائق الغرابة والجِدّة، ولا يمكن توقّعه. أشعر بالدّوار نفسه، وبالرّغبة نفسها. بدا لي أنّني محمولٌ في رحلةٍ برفقةِ سوريا على متن طوْفٍ حجريّ، والجبل أمامنا كأنّه موج البحر.

مرّرَت بهدوءٍ راحةَ يدها على وجهي، ثمّ نهضَت ومشَت مبتعدةً. ناديْتُها: «سوريافاتي!» ومشيت خلفها، لكنّها كانت تسير بسرعة حتّى أنّني ضيّعتها. كانت تعرف كلّ صخرةٍ، وكلّ شجيرة. وقد تبعتُها إلى باليساد.

يامونا

يبدو الأمر وكأنّني عشت هذا كلّه، كأنّني رأيته بالأمس في منامي: السّفن راسيةٌ على طول نهر توليز نولّا في حيّ بهوانيبور بكلكتّا، تنتظرُ ركوب المهاجرين. وعرباتُ يدٍ يجرّها عمّالٌ على طول الطريق إلى كلكتّا وعرباتٌ أخرى فُكَّت عن الجياد، وثيرانٌ جاثيةٌ في التراب. والمياه الموحلة تنساب بطيئةً في القناة نحو مصبّ نهر هوغلي، والمراكب السوداء ينبعث من مداخنها دخانٌ خفيف، والأشرعة أعلى الصّواري ترفرف في الرّياح الموسميّة. والسماء تضطّرب فوق صفحة الماء، والمطر الذي انفجر فوق المدينة، غزيراً مثل شلّالٍ رماديٍّ، يمضي إلى عاليةِ النّهر، ويدفع أمامه هبّةَ ريح باردة.

إنّها أنانتا من أفكّر بها. يدُها الصّغيرة المضمومةُ في يد أمّها، وهما تنتظران تحت

ظُلّة المخيّم الدائريّة مع كلّ هؤلاء الناس الذين يتحرّكون من حولها، هؤلاء الغرباء القادمين من جميع أنحاء العالم، من ولاية عَوَض[1] والبنغال وتلال غوند والبنجاب وغوجارات، كي يصعدوا إلى متن مراكب ليداريه وكلارندون وإشكندر شاو.

لا بدّ أنّ صمتاً مطبِقاً كان يسود مخيّم بهوانيبور آنذاك. السماء صفراء مرقّطة بالأسود، كأنّها شفقٌ في وضح النهار. وطيور الشحرور المتغطرسة تتجوّل من شجرةٍ إلى شجرة، مستاءةً من المطر، وتحطّ على أيدي العربات. ثمّةَ أطفالٌ أيضاً، وفتيانٌ عُراةٌ يلعبون بجوار القناة، ويغطسون في المياه الموحلة، ونساءٌ يناديهنهم. إنّه النهارُ يوشكُ على الانتهاء. سرعانَ ما أوقِدت المشاعلُ في المطابخ على طول السّور المحيط بالمخيّم. وجلست النّساء أمام المواقد يطهين الأرزّ، وفي أيديهنّ غصونٌ طويلة. وتجمّع الرّجال عند ضفّة النّهر، وقد احتمى بعضُهم من قطرات المطر الأولى بالمظّلات. كانت الشمس أحياناً تُطلُّ من بين الغيوم، فتلتمع بنورها ثياب النساء وحُليّهنّ النحاسيّة.

(1) «آفد» بالهنديّة، و «Oudh» في النصوص التاريخيّة البريطانية.

كلّ شيء ينساب على مهلٍ. تنحدر المياه من القناة وئيدةً نحو مصبّ النهر، حاملةً أزهاراً من زبدٍ أصفر، وحُزماً من أغصان الشجر، وأحياناً قماشةً باليةً ملتبسةَ الشّكل تدور في الدّوامات إلى أنْ تعلقَ بمؤخّر سفينةٍ.

سألَت أنانتا الصغيرةُ ويدها حبيسةٌ في يد أمها:

- متى سنغادر؟

فجيريبالا لا تريد أن تترك يد الطفلة. بدا لها أنّها إنْ استدارت لحظةً واحدة، فستختفي ابنتها في دوّامات القناة. كانت حبّات العرق تسيل بانتظام على وجه المرأةِ الشابّة، مبلِّلةً رموشها كالدّموع.

- لا أعرف. في القريب العاجل، ربّما فجرَ غدٍ.

ثمّ أشارت أنانتا إلى الدّخان المتصاعد من مداخن السّفن العالية:

- انظري، هل سيغادرون من دوننا؟

ظلّت جيريبالا ضامّةً يد أنانتا بقوّة، حتّى تألّمت الطّفلة، فقد كانت يقينَها الوحيد، وكلُّ ما سواها عدمٌ: القناة والنهر، وهذه الضّفة حيث رجالٌ ونساءٌ مجهولون ينتظرون بلا انتهاءٍ الرّحيل إلى بلدٍ لا وجود له.

19-20 يونيو

كنت مستلقياً على الشاطئ، غيرَ بعيدٍ عن بيْت سورياقاتي، هنالك حيث يلتقي الحاجز المرجانيّ الصغير، الذي يحيط بمخيّم العمّال، بالشاطئ. وقد سمعتُ صوت البحر يضرب في الشّعاب المرجانيّة كما لو كانت جؤجؤ سفينة. أعطتني سوريا ملاءةً لحمايتي من برد اللّيل. وتركَت مصباح البونكا مشتعلاً أمام بابها، كما يفعل جميع المهاجرين. التفتُّ فرأيت كلّ بؤَرِ الضوء تلك تتلألأ في اللّيل كأنّها النجوم، وكأنّني أمام مدينةٍ حقيقيّة.

وتناهت إليّ أيضاً تلك الأصوات المألوفة، الكلاب التي تتبادل النباح، وثغاء الجديان الخافت الحادّ في الحظائر، وصوت طفل، وامرأةٌ تغنّي في مكانٍ ما أغنيةً طويلةً حزينةً تتلاشى من حينٍ إلى حين. وشيئاً فشيئاً داهمني النعاس، وهيّئَ إليّ أنّني على متن قاربٍ يمضي على غيرِ هدى من جزيرةٍ إلى أخرى. حتّى إنّني نسيتُ في لحظاتٍ أنّنا لم نعد على متن **لافا**، وانتابني إحساسٌ أنّنا توقّفنا وحسْب في ميناء مجهول، وأنّنا سنستأنف رحلتنا غداً.

هدأت الرّيح ليلاً. أيقظني الحرّ الشّديد وصمتُ الشّعاب المرجانيّة، فكان القمر في سَمْته، متلألئاً وسْط السماء المعتمة. انطفأ المصباح الصغير في بيت سورياقاتي، وكذلك غالبيّة المصابيح من حوله. فلا بدّ أنّنا صرنا على عتبةِ الفجر.

كان الهواءُ الحارّ يضغط بثقله فوق البحر وفوق المدينة. ثمّةَ آلافٌ من النّمل الطائر من حولي، أراها في ضوء القمر تزحف على الرّمل، وتتعلّقُ بملاءتي الناصعةِ البياض. أحسستُ من جديد بشعورِ القلق والتّهديد نفسه الذي اعتراني ليلةَ نزولنا من المركب الشراعيّ في

قلب العاصفة، فمشيت بهدوء على طول الشاطئ. كان المدّ في ذروته في خليج باليساد، وقد علا موج البحر حتّى بلغَ بلاطات البازلت الكبيرة، ولم يُبقِ سوى شريطٍ ضيقٍ من الرّمل تراكم عليه عشب البحر والأخشاب الطّافية.

أذِنتْ ليَ الكلاب بالمرور، رغم عدوانيّتها المعتادة. تشمّمتني مزمجِرةً، لكنّها ظلّت مُقعيةً على حافة الجرف، وخطومها في التراب. لعلّها ألِفت رائحتي، أو أنّها قد بلغت من التّعب حدّاً أعجزها عن النّهوض.

اقتربتُ كثيراً من القرية. فتنشّقت رائحة الدّخان والنباتات العطريّة التي تنمو قربَ البيوت المشتركة. وكان هنالك رائحةٌ أخرى لم أميّزها من فوري تفوح في الجوّ وتلفّني، رائحةُ رمادٍ وعطورٍ مختلطةٍ لا تخفّ أبداً، بل تتكثّف باطرادٍ إلى حدٍّ منفّر.

وصلتُ إلى نهايةِ الشاطئ، عند النقطة التي تفصل أكواخ المنبوذين عن مساكن المهاجرين المشتركة. هناكَ، قريباً من الحاجز حيث تتكسّر الأمواج، ما يشبه منصّةً حجريّة سوداء، تلتمع بغرابةٍ في ضوء القمر. تبدو كأنّها نصُبٌ تذكاريٌّ قديمٌ صامتٌ قد هجَره البشر، ويقف وحيداً أمام البحر. وفي كلّ نقطةٍ حول هذه الصخرة البحريّة، يمتلئ الشاطئ بحجارة الحمم البركانيّة المدبّبةِ والمغطاة بالزّبد. صعدتُ بمشقّةٍ المنصّة الصخرية مُجرّحاً يدَيّ وقدمَيّ. وأخذتُ أتلمّس الواجهات الحجريّة، وهي سورٌ ضخمٌ بلا ملاطٍ، تشكّل من كتلٍ ناعمةٍ وصقيلةٍ حتّتها أمواج البحر، وظلّت محتفظةً بدفءٍ جوّانيّ.

ولّما صرتُ لِصقَ الجدار، زال عني كلّ قلقٍ، بل إنّني شعرت

بسكينةٍ عظيمة. وقد تغلغلَت فيّ رائحة النار. مررْتُ بيدي على المنصّة الحجريّة، فشعرتُ بغبارٍ فائق النعومة يتسرّب من بين أصابعي، يكاد لا يُلمس. وفهمتُ فجأةً: هنا محرقةُ الموتى، المحرقة التي يراقبها فيران بمنظاره كلّ مساء، ويأتي ليبلّغ عنها في الكرنتينة مثل نذيرِ شؤمٍ: «ما زال هناك وفياتٌ بين المهاجرين».

تُشكّل القمّة الصخريّة نوعاً من شبه جزيرة، تكاد تكون منفصلةً عن السّاحل حيث يعلو المدّ، وحيث ألمحُ، من جهةٍ، الخطَّ المعتم الذي يمتدّ حتّى صخرة لوديامو، ومن الجهةِ الأخرى خليجَ باليساد وطيفَ البركان الشّاهق. إنّه مكان خارج العالم. ليسَ وعراً ولعيناً مثل درب الجمر في جزيرة غابريال، بل رائقاً وادعاً تتراقص من حوله الأمواج.

جلستُ بين الصخور مستنداً إلى الجدار الدّافئ، وأخذتُ أتأمّل البحر. كان الرّماد المتطاير مع الريح يُسكِرني كأنّه دخان أحلام.

وقُبيل الفجر، حين امتزجت السّماء الرماديّة بالبحر، وصلَت سورياڤاتي. رأتني، لكنْ لم أكن أنا من أتت لزيارته. كانت تُمسك بمكنسةٍ من سعف النخيل. وشرعتْ تنظّف مكان المحرقة، وشالُها الأحمر الكبير يخفي وجهها وشعرها. رأيت طيفها في الغبَش مُنحنياً على الأرض، وسمعتُ ضربات المكنسة المنتظمة. ثمّ أخذتْ دلواً كانت قد وضعته عند حافة المحرقة، وبالاستعانة بقرعةٍ مُفرّغةٍ رشّت الماء على الحجارة السوداء.

ثمّ طلع النهار. وجاءت سورياڤاتي لتجلس قربي. وجهها متعب، وعيناها تشيان بتعبيرٍ غريبٍ لم أره من قبل. قالت ببساطة: «أمّي

دوميّـة[1]، وكانـت وظيفتهـا القيـامَ عـلى محـارق الجثـث. والآن لم يعـد في استطاعتها فعـل ذلـك». ثـمّ أردفـت: «الآن كلّ شيءٍ سيكون مختلفـاً». بـدا لي أنّنـي فهمـت مـا تعنيـه، فـلا ألـوان هنـا ولا أعـمار، بـل هـو البحـرُ يحملنـا جميعـاً عـلى أرجوحتـه. «هنـا أُحرقـت جثّـةُ جـدّتي جيريبـالا حـين عـادت مـن الهنـد. أحدُهـم أذكـى نـار محرقتهـا، وآخـرُ ألقـى رمادهـا في البحـر كـي تعـود إلى نهـر يامونـا».

أخذَت يدي، كما فعلَت بالأمس أمام النّبع.

«هـل تخـاف الموتـى؟» ينبغـي ألّا نخافهـم، فهُـم معنـا، لا يتركوننـا. تقـول أمّـي إنّهـا تراهـم في اللّيـل حـينَ يجافيهـا النـوم، تراهـم يمشـون عـلى الشـاطئ بحثـاً عـن مـكان يسـكنونه. إنّهـم في الطيـور، وفي النباتـات، وحتّـى في قلـب البحـر، حيـث الأسـماك».

ثـمّ تناولَـت حفنةً مـن الرّمـاد المختلط بالرمل الأسـود، ومـرّرت أصابعها رويداً عـلى وجهي، وعلى وجنتَيّ وجفنَيّ راسـمةً خطوطاً ودوائرَ، فأحسسـتُ بهـدوءٍ كبيرٍ يسـري في أعماقـي. قالـت بلغتهـا كلـماتٍ أشـبه بصـلاة أو أغنية: **كالالـوغ غايـا، لايـي لـوغ غايـا**... ثـمّ ضمّـت يدَيهـا حـول عنقـي، وأمالت رأسي نحوهـا، وضمّتـه إلى صدرهـا حتّى أسـمعَ دقّـات قلبها. ونادتنـي للمرّة الأولى باسـمي، الاسـم الـذي منحتني إيّـاه إلى الأبد:

- بْهايْ[2]... أتريد أن تكون أخي؟

(1) الدّوميّون أو الدّوم: مجموعة إثنيّة غجريّة تنتسب لمجموعة الشّعوب الهندو-آريّة، يعيش غالبيّتها في الشرق الأوسط ومناطق من وسط آسيا وجنوبها وشمال أفريقيا. ويعتقد بعض الباحثين بوجود صلاتٍ بين الدّوم وإثنيّة الدّومبا الهنديّة.

(2) الكلمة بالهنديّة، وتعني أخي.

أشرقت الشمس على الطرف الآخر من الجزيرة. وكانت طيورٌ تعبر خليج باليساد في طريقها إلى صخرة لوديامو. مشيت برفقة سورياڤاتي نحو خليج المنبوذين. كان الرّجال لا يزالون نائمين في الأكواخ. وفي الخارج ثمّة نساءٌ يشعلن النار، وعددٌ قليلٌ من الأطفال يشْكون متباكين. تولّاني شعورٌ غريب، شيءٌ ما انحلَّ في داخلي وتحرّر، وأحسستُ بطاقةٍ جديدةٍ في جسدي كلّه، رعشةٍ سَرَت في أعصابي وعضلاتي، فلانت مفاصلي، وهدأت أنفاسي، وانجلى بصري.

الدّرب المحاذي للشاطئ ضيّقٌ، يحدّه جرفٌ من ترابٍ أسود. كانت سورياڤاتي تمشي بخطواتٍ واسعةٍ أمامي، ثمّ دلفتْ إلى بيتها من دون أنْ تلتفت إلى الوراء. جلستُ في مكاني المعتاد وسْطَ الحصى الذي كشف عنه انحسار المدّ. كان الفجر يضيء هذا الجانب من الجزيرة، وقد أعلنَت صافرةٌ كئيبةٌ طويلةٌ لحظةَ الاستيقاظ العام. أُذكيَ الجمرُ تحت ضرباتِ المرواح اليدويّة فتأجّجت النيران أمام بيوت باليساد. تنشّقتُ رائحة الزّيت الساخن والدّخان، فعضّني الجوع فجأةً، حتّى أنّني انثنيتُ إلى نصفَين ضاغطاً على معدتي، ويبدو أنّني تأوّهت أيضاً، إذ ما هي إلّا لحظاتٌ حتّى أقبل أحدهم. ظننتُ أولاً أنّها سوريا، ثمّ عرفتُ ذلك الطّيف. إنّها أنانتا. توقّفَت أمامي، ووضعَت على الأرض طبقاً مطليّاً بالمينا به أرزٌّ بالكاري وبعض الخضار. قلتُ لها الكلمة اللّطيفة التي علّمتني إيّاها سوريا لتقديم الشّكر: «شوكريا».

تراجعَت أنانتا قليلاً وهي تنظر إليّ. جسدها شديد النحول، يرفرف حوله ثوبُها الأصفر ووشاحُها. ووجهها الهنديّ بلون التّراب مُضاءٌ بأخضرِ عينيَها المائيّ، الباهت والشّفيف. لم يكن في ملامحها ما يشي بأيّ ريبةٍ أو استياء. أحسستُ أنّ كلّ مخاوفها قد تبدّدت. ثمّ

أقبلت سوريا بدورها، وناولتني كوباً من الشاي المغليّ. «كلْ واشرب، ثمّ عليك أنْ تعود إلى مكانك في الطرف الآخر».

تناولتُ الأرزّ والخضار بأصابعي والتهمته بشهيّة. ثمّ لسعَ الشاي المرّ حلقي ومعدتي.

في تلك اللّحظة أقبلَ أطفالٌ وتحلّقوا حولنا، أولادٌ صغارٌ عراةٌ ببشرةٍ سوداء وابتساماتٍ مُشرقة. كانوا يلهون، وينادونني بلغتهم أو ربّما باللّغة الدوميّة التي يتحدثونها بالمقلوب. فتصيح سوريافاتي عليهم: «جابي! أوتا! أوتا!» كمن يصيح على كلابٍ تقترب منه أكثر من اللّازم.

وحين فرغتُ من طعامي، غسلتُ الطّبق والفنجان في البحر، ووضعتُهما أمام البيت. بدا لي أنّني أفعل ذلك منذ الأزل، مذْ كنت طفلاً. بقيتُ لحظةً واقفاً أمام البيت. عادت أنانتا إلى فراشها، رافعةً طرفَ ناموسيّتها، وجلست سوريا بجانب أمّها، ثمّ أخذت تضفّر لها شعرها بأناملها. تسلّل ضوء الشمس إلى البيت ودفّأ الجدران. كان صباحاً مثل غيره من الصباحات، بطيئاً وادعاً.

في قرية المنبوذين، وقبل الذّهاب إلى العمل في المزارع أو في بناء السّد، يجلس الرّجال أمام البيوت يشربون الشاي ويثرثرون، وتكنس النساء الممرّات بسعف النخيل، فيثِرْن سُحباً من الغبار الأسود تعود لتحطّ أبعد قليلاً. وأمام بيوت المسلمين يُتمُّ الرجّال وضوءهم وصلاتهم. ثمّ ينتظر الجميع رجالاً ونساءً إشارة السّردار، ومع دويّ الصافرة الثّانية، ينطلقون نحو خليج باليساد.

ثمّة أناسٌ يتجمّعون في أحدِ الأزقّةِ على مبعدةٍ يسيرة، نساءٌ مُتلفّعاتٌ بشالاتهنّ، ورجالٌ نحيلو القامة يقفون منتظرينَ، آملين

أنْ تُطلّ أنانتا، فيحصلوا منها على الطعام ويتلقّوا بركتها. إنّها مثل أمٍّ للمنبوذين، عارفةٌ بالنباتات وطرق الشّفاء، ولها قدرةٌ على طرد الأرواح الشريرة «يانغ». أحسستُ أنّها أمّي التي لم أعرفها قطّ، وأنّها قادرةٌ على منحي الدّفء والحبّ. أفهم لماذا يخافها الشّيخ حسين ويحترمها، ولماذا يدعُها وشأنها. إنّها، مِن الخُصّ الذي يؤويها في قرية المنبوذين، ومن غيرِ خطابات ولا أسلحة، تحكم الجزيرةَ بأكملها.

وحينَ مررتُ بآخر البيوت، خرجَت امرأةٌ تمشي متعثّرة، وأمسكَت بي. امرأةٌ في ريعان شبابها لكنّ الكراهيّة تشوّه ملامحها، عليها ثيابٌ ممزّقة وشعرها أغبر. إنّها رسامه، بائعة الهوى التي اغتصبها الشبّان وضربوها ليلة الاحتجاج. كانت تصيح بكلماتٍ غير مفهومة، وتحثّني على التّراجع. وإلى الخلف منها، على بعد خطواتٍ قليلة، رأيت الصبيّ الصغير الذي يعيش معها، كان يضع يده فوق عينَيه ويراقب دون أن ينبس بكلمة. تحرّرتُ من المجنونةِ أخيراً زاجراً إيّاها بحركةٍ من يدي. فتردّد صدى لعناتها من خلفي مثيراً نباح الكلاب. وقد تركَت في ذراعي، حيث ضغطَت بأظافرها، علاماتٍ على شكل هلال.

وإذ كنت وحيداً تماماً على الدّرب المفضي إلى طرف الجزيرة، حانت منّي التفاتةٌ طويلةٌ صوْب البركان، فانتابني في تلك اللّحظةِ غضبٌ مشوبٌ بالخوف. ففي أعلى البركان، كان يختبئ المراقبان، بارتولي وفيران الفاسد. حدسْتُ نظراتهما، وأحسستُ كأنّما ينصبُّ فوقي برودُ العدسة الهازئة وهي تراقب الجزيرة، بدءاً من أزقّة القرية وصولاً إلى الوادي الظّليل حيث تستحمّ النساء مرتعشاتٍ في النّبع.

لم أتخيـل قـطّ أنّ الرّجـوع إلى الكرنتينـة، وعبـور هـذا الحـدّ المصطنـع، سـيكون بهـذه الصعوبـة.

اسـتحممتُ في ميـاه البحـيرة الفاتـرة، دون أنْ أغسـل آثـار الرّمـاد التـي تركتْهـا سـوريافاتي عـلى وجهـي. فـما دمْـتُ أحملهـا، سـأظلّ محتفظـاً بطاقتـي ومرونـة مفاصـلي، وبلمسـة أنامـل سـوريا الرّشـيقة عـلى جبينـي ووجنتَـيّ وجفـوني.

سلكَت المرأةُ الدّرب الجنوبيّ عبر الحقول المتهالكة، صوب نهر يامونا. وفي ولاية عَوَض، كانت مُدن لكناو وكاونبور وفاتحبور تحترق. وقد غطّى دخان الحرائق السّماء مثلَ شفقٍ لا يبرح مكانه، حيث الشمس تسبح خلف الحجاب الرّماديّ الورديّ. واحتشدَت على الطرقات مجموعاتُ الفارّين من شيوخ ونساء، وأطفالٍ يحملون صرر الثياب والمؤن، أمّا الرجال فقد اختفوا. وانتشرت رائحة الدّم والموت في كلّ مكان. وتسمّمت الآبار من الجثث التي أُلقيَت فيها. وعمّ الجوع. جوعٌ ينهش البطون ويُشقّقُ الأرضَ ويجفّف الينابيع.

كانت جيريبالا تسير حافيةً في الطريق المُتربة، ضامّةً الطّفلةَ إلى صدرها. وكانت تحسّ من حين إلى حين بالصغيرة تتحرّك تحت شالها خفيفةً مثل قطّة، لا تبكي ولا تصرخ أبداً. كانت قد رأت الطفلة في

كاونبـور، ممـدّدةً عـلى صـدر مربّيتهـا النـازف، أمـام الجـدران الطينيّـة المتداعيـةِ. ظنّـت في البدايـة أنّ كلتَيهـما قـد فارقـت الحيـاة. ثـمّ فتحـت الفتـاةُ الصغـيرة عينَيهـا ونظـرتْ إليهـا، ففهمـت جيريبـالا أنّ الـدّم الـذي يغطـي جسـدها مـا هـو إلّا دم مُربّيتهـا. وبـلا أيّ تـردّد، اندفعـت جيريبـالا غريزيّـاً وأخـذت الطفلـة بـين ذراعيهـا. فلاحظـت أنّهـا بيضـاءُ، إنجليزيـةٌ صغـيرةٌ في الرّابعـة أو الخامسـة مـن عمرهـا، ذاتُ شـعرٍ ذهبـيٍّ وعينَـين خضراوَيـن، وثـوبٍ ممـزّقٍ محـترق. لم تـصرخ الطفلـة، بـل تشـبثت بهـا بـكلّ قوتهـا، وكأنّهـا تخشـى أنْ تصدّهـا. ركضـت جيريبـالا مـع الطفلـة دون أن تلتقـط أنفاسـها، حتّـى وصلـت الـدّرب المفـضي إلى نهـر يامونـا. وفي لحظـةٍ، لقيَـت عـلى الطريـق مجموعـةً مـن متمـرّدي السـيبويْ، لكنّهـم تركوهـا تمـرّ. بـدتْ مجنونـةً بملابسـها المهترئـة، وشـعرِها المتشـابك المتـدلّي عـلى كتفَيهـا، وبقِـع السـناج عـلى وجههـا. ولم ينتبـه أحـد إلى الطّفلـة التـي تحتضنهـا تحـت شـالها، تلـك الصغـيرة الغريبـة ذات الوجـه المُدمّـى والعينَـين الفاتحتَـين التـي كانـت تدفـن رأسـها في صـدر أمّهـا.

وصلت جيريبالا إلى نهر يامونا عندما بدأ الجنود الاسكتلنديّون من فوج هايرلاندرز 93 بقصْف بلدة لكناو، حيث حَجَب دخانُ الحرائق الأفق مرّة أخرى. كانت الطرقات على طول نهر يامونا مزدحمةً بالناس والعربات وذوي الإعاقات. أخذت جيريبالا تمرّ على بيوت القرى لتطلبَ قليلاً من الحليب والأرز وفطائر العدس للطّفلة. وكانت تتوقّف، خلال ساعاتِ مشيِها الطويلةِ، لتستظلّ بشجرة. وأحياناً لم يكن لديها ما تطعمه للصّغيرة، لكنّ الصّغيرة لم تكن تشكو. كانت تنظر إليها بلون عينَيها الأخضر المائيِّ وحدقتَيها الواسعتَين، دون أن تتكلّم أو تبتسم. كان وجهها بيضاوياً جميلاً، وشعرها البنيُّ المُذهّبُ ملطّخاً بعدُ بدم مربّيتها.

لم تكن جيريبالا تذهب إلى النّهرِ إلّا مساءً، مثل الحيوانات البريّة، أمّا أثناء النهار، فكانت تسلك الدّروب الوعرة. فقد كان يُشاع أنّ الجنود الأجانب يركبون الأنهار في زوارقهم البخاريّة بحثاً عن المتمرّدين. كانت في بعض الأحيان تسمع صوت المدفع من مكان قريب، وكانت تعرف كيف تميّز طلقات

بنادق السيبوي، وصوت المدافع الإنجليزيّة العنيف حينَ تطلقُ الـ«القذائف المعدنيّة»(1).

ذات مساءٍ، قابلَت على ضفّة نهر يامونا مجموعةً من جنود السيبوي المهزومين. كانوا مسلّحين بالسيوف والحِراب، وكانت بِزّاتهم ملطّخةً بالطّين والدّم. رأى أحدهم الفتاة الصغيرة الملفوفةَ في شال. ولا بدّ أنّه لاحظ بشرتها الفاتحة وشَعرها الذهبيّ. فسأل جيريبالا: أهذا ابنُكِ؟ بدا مريباً. قالت جيريبالا بصوتٍ مهزوز: «إنّها ابنتي». وفيما ظلّ الجنديُّ محدّقاً في الطّفلة وهو يمسّد لحيته صاحت به قائلةً: «وأنت، أتكون أباها؟» فضحك الآخرون، وتمكّنت جيريبالا من مواصلة طريقها.

وكان على ضفّة نهر يامونا أنْ عثرَت جيريبالا على اسم للطفلة. فبالرّغم من الحرب، ومن رائحة الموت وطعم الرّماد، وجدت جيريبالا في مياه النهر العظيم السّكينة والسّعادة. اختارت قبيلَ اللّيل موضعاً تظلّله أشجارٌ عالية، ودخلت الماء على مهلٍ، ضامّةً الطفلة إلى صدرها. فبدا لها أنّها تدخل عالماً

(1) بالإنجليزيّة في الأصل.

آخـر، وكانـت الفتـاةُ الصّغـيرة التـي تضحـك وتهتـاج عـلى صدرهـا تقـف عـلى عتبـة هـذا العـالمِ، عـالمِ النهّـر حيـث كلّ شيءٍ وادعٌ، وحيـث لم يعـدَ هنالـَك حـربٌ ولا دمـاء ولا كراهيـة ولا خـوف، عـالمٍ يضمّهـا بقـوّةٍ ويخبّئهـا مثـل حصـاةٍ صغـيرةٍ في كـفٍّ عملاقـةٍ. «الآن صـار لـك اسـمٌ، وعائلـة..».

هكـذا، نطقـت جيريبـالا الاسـم بصـوتٍ عـالٍ، كـما لـو أنّ النهّـر هـو مـن أمـلاه عليهـا: «أنانتـا»، الأبديّـة، الحيّـةُ التـي يتوسّـدها الإلـه[1] حتّـى نهايـة العـالم.

في ذلـك المسـاء، عـلى ضفّـة نهـر يامونـا، صادفَـت جيريبـالا الطّـوْف. كانـت تجـول باحثـةً عـن موضـع آخـر تمـضي فيـه اللّيـل، فـإذا بهـا تسـمع ضجيجـاً. تقدّمـت بـين سـيقان القصـب، فلمحَـت مجموعـةً صغـيرةً مـن النسـاء برفقـة رجـلٍ هَـرِمٍ، كانـوا يسـتعدّون، بعـد أنْ فرغـوا مـن طَعامهـم، للانطـلاق مـن جديـدٍ عـلى طَـوْفٍ مـن أغصـان الشّـجر. ولا بـدّ أنّهـا أحدثـت جلبـةً دلّتهـم عليهـا، ذلـك أنّ بعـض النسـاء جئـن

(1) المقصود هنا الإله فيشنو، حسب المعتقدات الهندوسيّة.

فجـأةً مـن الخلـف، وطرحْنهـا أرضـاً، ودون مراعـاةٍ للطفلـة، انهلْـنَ عليهـا ضربـاً بالأيـدي وركلاً بالأقـدام. اعتقـدَت جيريبـالا أنّ سـاعتَها الأخـيرة قـد حانـت، فبكـت وتوسّـلت، فيـا انتزعـت النسـوةُ الشرسـات الطفلـة مـن حضنهـا وفتّشـنَ أمتعتهـا لنهـب حليّهـا ومالهـا. لم تكـن الحقيبـة تحـوي شـيئاً ذا قيمـةٍ، فالتفتـت واحـدةٌ مـن بينهـنّ، نحيلـةٌ فارعـةٌ، وذات نّظـرة مجنونـة، إلى جيريبـالا قائلـةً: «أتيـتِ تتجسّـسين علينـا، وتشـين بنـا!» كانـت جيريبـالا تتـألّم منهكـةً حتّـى أنّهـا لم تقـوَ عـلى جرجـرةِ نفسـها بعيـداً عـن النهـر. لكـنّ امـرأة أخـرى تحمـل صبيّـاً هزيـلاً عـلى حِجرهـا تدخّلـت وأعانَتهـا عـلى الجلـوس، ثـمّ غسـلت جروحَهـا بميـاه النّهـر وأرجعَـت إليهـا أنانتـا المرتعبـة. «مـا اسـمها؟» نطقـت جيريبـالا اسـم أنانتـا واسـمها هـي. فقالـت المـرأة: «اسـمي لِيـل، والرّجـل المسـنّ، هنـاك، اسـمه سـينغ. أصيـب في الحـرب لكنّـه ليـس شرّيـراً. وتفحّصَـت الطفلـةَ بنظرتهـا المتّقـدة. «إنّهـا لا تشـبهك، لكنّهـا ابنتـك». ثـمّ سـاعدت جيريبـالا في الصّعـود إلى مؤخّـرة الطّـوف. هنـاكَ، عنـد الحافـة، كانـت معـزاةٌ صفـراءُ قـد أوثِقـت

إلى لــوح خشــبيّ. بــدأ الطّــوْف ينســاب وئيــداً عــلى صفحــة النهــر، تحــت رحمــة الدّوامــات، وبقيــادةِ ســينغ الهــرِم الــذي كان يضغــط عــلى مُــرديٍّ طويــل. ســكبَت لِيــل مــن قِربــةٍ جلديّــةٍ ســوداء بعــض حليــب الماعــز في طــاسٍ، وناولتــه لجيريبــالا. كان الحليــب ثقيــلاً ولا يــزّال فاتــراً. قالــت ليــل: «هــذه معــزاتي، وهــي كلّ مــا تبقّــى لي». ثــمّ اســتلقَت عــلى لــوح الطّــوف مســندةً رأســها إلى صرّةٍ مــن الكتــان، وأخــذت تشــاهد جيريبــالا وهــي تســقي ابنتهــا.

- إلى أين تذهبين الآن؟

أجابت جيريبالا:

- لا أعرف،

فقالت ليل:

- نحن ذاهبون إلى فاراناسي.

فردّت جيريبالا:

- ســأذهب إلى أبعــد مــا يمكــن أن يصــلَ إليــه هــذا النهــر.

ضحكَت ليل.

- أنــت ذاهبــةٌ إلى البحــر إذن. فهــذا أبعــد مــا يصــل إليــه النهــر.

تناولَــت ليــل القِربــةَ أيضــاً، وحاولــت أن

تَسقيَ ابنها. لكنّ الصبيّ أغلق فمه. وكانت عيناه تتّقدان من الحمّى. فانسكب الحليب من الطّاسِ وسالَ من زاويتيّ شفتَيه.

قالت ليل في شرود:

- منذ أسبوعين وهو على هذه الحال. وقد يموت».

ثمّ استلقت من جديدٍ على الطّوف مسندةً رأسها إلى الصّرة، وبدأت تغنّي بلغتها الغريبة كي تُنيم ابنها. كانت هذه أوّلَ مرّة تسمع فيها جيريبالا هذه الأغنية، وبدا لها أنّ كلّ كلمةٍ فيها قد سكنتها إلى الأبد، وكانت كأنّها تحمل معنى غامضاً:

«**شورم، كالا، شالو غول لاييه**، أيّها اللّصّ، أيّها اللّصّ، دعنا ندخل هذا البيت، أزِل **الشاكال**»، خذ كلّ شيء، **بهيمْتي**، **باغاليه**، أشعل الغازاي، وأنتَ ليتيرا، ارشق كرةَ الطّين، **لونيولا**، إنْ سمعتَ ضوضاء، **كاجاشاما**! جاسوسٌ يراقبك! **تيبجا**! اختبئ! **باوليه أوخا**! حذارِ! **كينكار كار**! ارشق كرة الطين! **لايي لوغ كايا، كالا لوغ غاييه**، انتهت السرقة ومات اللّصّ!»

انداحَ اللّيل فوق مياه النهر، وما عادَ

بالإمكان رؤية الضفّة الأخرى. على الطّرف الآخر من الطّوفِ، بجوار الرّجل، كانت المرأةُ الشرسة التي ضربت جيريبالا بقبضتها تضغط على مُرديّها وتسير وئيدةً على حافة الطوف لإبقائه في التيّار، وفي كلّ مرّة تنتزع فيها المرديّ من وحل الشاطئ، يصدرُ صوتٌ أشبه بالشّفط. كانت أزهارٌ كبيرةٌ من الزّبد تدور في الدوّامات، وأغصانُ الأشجار المنجرفةُ مع التّيار تغوص وتطفو مثل أعناق الثّعابين. نامت جيريبالا وهي تتأمّل الخفافيش التي تترنّح على طول المياه ثمِلةً بما التهمَتْه من حشرات.

21 يونيو؟

البحث متواصلٌ عن فصيلة البقوليّة. جفاف التّربة يجعل من المستحيل وجود الأتيلوسيا (البازلّاء الهنديّة)، والعرقيص (ديسموديوم). يُرجَّح وجود كليتوريا (البظريّة المُعترِشة)، وكانافاليا (البازلّاء السيّف). التقدّم صعب جدّاً بسبب الأرض المليئة بالحمم البركانيّة. التربة والتعرّض لأشعّة الشّمس مواتيان لنموّ النّيلة. على كتف البركان: النّيلة الفضيّة. واثقٌ من العثور على النّيلةِ الزرقاء.

22 يونيو

نقلوا جون ميتكالف هذا الصّباح. ولمّا دخلتُ الكرنتينة عند الظّهر، كان يسودها صمتٌ مُطبق وجوّ غريبٌ. كانت زرقة البحيرة ساحرة، والشمس تسطع وسْط سماءٍ صافية، وهواء البحر رقيقاً كنسمةٍ هفهافة. كنت لا أزال على الطّرف الآخر أحلُم، وأسمع صوت سوريا، وأحسّ بالرّماد على وجهي ويدَيّ، غبارٍ فائق النّعومة والخفّة. فلم أفهم ما حدث.

كانت سوزان وحدها في بيت الكرنتينة، تتّكئ على الصّرر التي تتّخذها وسائدَ، وكانت في غايةِ الشحوب. رأيت كتابها الأزرق الذي يضمّ قصائدَ لونغفيلو إلى جانبها مفتوحاً ومقلوباً. ولمّا دنوتُ ارتسمَت على شفتيها بمشقّةٍ ابتسامةٌ أقربُ إلى تكشيرة. مدّت لي يدها فأحسستُ برودتها. كانت عيناها تتوهّجان ببريق الشّباب، فظننتُ أنّها شُفيت، وخطر لي أيضاً، لا أدري لماذا، وجهُ أنانتا ونظرتُها حين أحضرت ليَ الطعام.

همسَت سوزان قائلةً: «جون. لقد أخذوه هذا الصباح». ثمّ لمستْ وجهي: «ماذا على وجهك؟» مرّرت أصابعها رويداً على الخطوط، ثمّ مسحَتها بطرف ثوبها. «إنّه رماد». بدا أنّها عرفت مصدره، فارتعدت مشمئزّة: «رماد، كيف لكَ أنْ تُقدِمَ على فعلٍ مرعب كهذا! وجاك الذي كان يبحث عنك في كلّ مكان». اتّقدت عيناها غضباً، لكنّها بدت أجمل، وقد تدفّق الدّم إلى وجنتيَها، وبانت تجعيدة عموديّةٌ بين حاجبيها. «أخذوه هذا الصباح، لقد كان...» اغرورقَت عيناها بالدّموع وأخذت تحرّك يدَيها بعصبيّة. «تشبثَت سارة به كي تمنعهم، وكان جاك ينتظر في الخارج، جرّوه، كانت ترفض ذلك...»

حاولتُ أنْ أفهم:

- أخذوه إلى هناك؟

أجابت سوزان في شرود:

- لا أعرف، لم أستطع... طلب منّي جاك أن أنتظره، سيعود على الفور. لا أعرف، أعتقد... لم ترغب سارة في تركه يذهب، كانت تتشبّث به، كان وجهه... وأنفُه ينزف، كانت تناديه، Dear John, dear, dear[1]. لقد أصابها الجنون. أعتقد أنّها رافقته إلى هناك.

كانت الدّموع تسيل على وجنتيَها، وخصلاتُ شعرها المجعّد تلتصق بجبينها وحول عنقها. ضممْتُها إليّ كي أواسيَها:

- كلّ شيءٍ سيكون على ما يرام، سترين. كلّ شيءٍ سيكون على ما يرام الآن.

---

(1) بالإنجليزيّة في الأصل.

لكنّها ظلّت تردّد بصوتٍ مكتومٍ رتيب:

- سيموت هناك، لقد نسيَنا الجميع.

كانت متعبةً فاتّكأت على الأمتعة، وأغمضَت عينَيها. وشعرتُ بيدها الباردة تنفلتُ من يدي، مثلَ شيءٍ شديد الثّقل.

ركضتُ إلى الرصيف. كان الزّورق قدْ جُرّ إلى الشاطئ، وماري جالساً بعدُ في ظل المستوصف، ببصره مشوّشٌ من إصابته بالسّاد، يمضغ ورق التنبول شاردَ الذهن. وفي الغرفة الضيّقة حيث قضى نيكولا والسيد تورنوا أيامهما الأخيرة، رأيت جون راقداً على حصيرةٍ من القشّ، وإلى جانبه طيف زوجته الهزيل، تجلس على الطريقة الهنديّة ثانيةً ركبتَيها. كان صوت أنفاس جون فظيعاً مفجعاً وهو يستلقي هناك مُرجعاً رأسه إلى الوراء مثل ميّت، ووجهه متورّمٌ خالٍ من أيّ تعبيرٍ وممتلئٌ بالتسلّخات. وقد لمحتُ من بين جفونه المتورمّة نظرة نيكولا نفسها: عينان محدّقتان تلتمعان ببريقٍ ذكيّ.

في تلك اللّحظة جاء السيد بارتولي. وشدّني إلى الوراء بعنفٍ قائلاً:

- أخوك طلب ألّا يأتيَ أحدٌ إلى هنا. فلسوء الحظّ لم يعد باليد حيلة.

وحدّقَ فيّ بقسوة:

- ثمّ، أين كنت؟

سألتُ وقد ارتعش صوْتي بغضبٍ مكتوم:

- أين جاك؟

- في المنارة. يحاول جوليوس فيران أن يُبرق إلى موريشيوس ليخبرهم أنّنا بحاجةٍ إلى المساعدة. وقد عثرَ على مرآةٍ أقوى

لجهاز الهيليوتروب، لكنْ لا جدوى. أؤيّد نقل ميتكالف إلى جزيرة غابريال لتجنّب خطر العدوى، فهو مصابٌ بالجدري المتكدّس وفقاً لتشخيص أخيك.

تجنّبُ العدوى أم تجنّب انتشار الخبر الذي من شأنه أنْ يدفع الإنجليز إلى إطالة مدّة الكرنتينة؟ غادرتُ مضطرباً. في الخارج، كانت الشمس تبهر البصر، وزرقةُ البحيرة جارحةً.

لم أعرف ما الذي عليّ فعله. توجّهتُ نحو طرف الجزيرة لأسمع صخب الطيور. هناك أستطيع أن أسمع في أذني صوت سورياڤاتي وهي تغني أغنية اللّصّ: «**لايي لوغ غايا**»، وأنْ أتنشّقَ، في الأجمات وفي الأرض السوداء التي تلهبها الشمس، عطرَ جسدها وشَعرِها اللّاذعَ، وأحسَّ، على الحجارة، براحتَيها المستنزفتَين مثل راحتَي عجوز. إنّه حلمٌ رأيته ليلةَ أمسِ ولم ينتهِ بطلوع النهار، بل استمرّ في النور وفي احتراق الرّمل تحت قدمَيّ، حقيقيّاً أكثر من كلِّ شيءٍ هنا، أكثرَ من الخوف والموت.

اضطجعتُ قرب حاجز الشّعاب المرجانية منكمشاً على ذاتي، وقد حرّقت الشّمس جفنَيّ كحرقةِ التّعب. وأخذتُ أتأمّل نبتة الدّيداء التي تكسو الأرضَ كالفراء، وترفرف أزهارُها الورديّة مع الرّيح، حتّى نسيتُ ما بي.

أيقظَني الصّخب الذي رافق ترحيل ميتكالف. كانت الشمس قد جنحَت للمغيب فأضفت على المشهد صفاءً خياليّاً. وقفَ جاك على الجزء الأماميّ من الزّورق، ومعه زجاجة محلول التّعقيم «الكونديز». وكان جوليوس فيران وبارتولي يحملان جون على نقّالةٍ مرتجلةٍ من

عصويْـن ومـلاءةٍ قديمـة، محتاطَـين كلّ الحيطـةِ مـن لمـس المريـض، حتّـى إنّ كلّاً منهـما قـد ربـط حـول وجهـه منديـلاً منقوعـاً بالخـلّ. كان جـون ميتكالــف ثقيــلاً في النقالــة، ملابسُــه مبقّعــةٌ، ولحيتــه وشــعره مغــبرّان. دخلَـت سـارة ميتكالـف المـاء حتّـى خصرهـا، فانتفـخ ثوبهـا الأزرق الطويل بالمـاء مثـل تنّـورة الكرينولـين. وكانـت تحمـل بـين ذراعيهـا الحقيبـة الصغيرة حيـث يحتفـظ جـون بعيّناتـه وجميـع مـوادّه النباتيـة، فبـدَت وكأنّهـا ذاهبـةٌ في نزهـة. ولم تكـد النقّالـة توضـع في قـاع الـزّورق حتّـى دخـل بارتـولي وفـيران بدورهمـا الميـاه، ثـمّ أمسـكا بسـارة، ورفعاهـا إلى مؤخّـرة الـزورق. جلسَـت إلى جانـب العبّـار موليـةً ظهرهـا إلى الشـاطئ، بهيئـةٍ بليـدةٍ تتناقـض مـع حالـةِ اليـأس التـي صوّرتهـا لي سـوزان. كان حِمْـل الـزّورق ثقيـلاً بحيـث تعـذّر اصطحـاب فـيران وبارتـولي، فبقيـا عـلى الرصيـف، فيـما المسـنّ مـاري يحـاول عبثـاً الضّغـط عـلى مجذافـه كـي يَخـرج مِـن الشّـطّ الرمـليّ. كان المشـهد سـيبدو هزليّـاً في ظـروفٍ غـير هـذه. وجـبَ عـلى فـيران وبارتـولي أنْ يعـودا إلى المـاءِ كـي يدفعـا الـزّورق في البحـر. ولم أتمكّـن مـن رؤيـة وجـه سـارة ميتكالـف، إذ إنّهـا لم تنظـر إلى الـوراء ولـو مـرّة واحـدة. رأيـت فقـط فسـتانها المبتـلّ ولمعـةَ شـعرها المُسرّح في عقصـةٍ آخـذةٍ في الانحـلال، ولمحـتُ في أذنَيهـا وحـول عنقهـا بريـق حليّهـا التـي لا نفـعَ لهـا ولا قيمـة في هـذه الرّحلـة الأخـيرة. كنـت أقـف عـلى الشـاطئ ودمـي ينبـض بقـوّةٍ في صـدري مـن شـدّة الحمّـى. كان الهـواء لا يـزال حـارّاً سـاكناً، وكنـت أتنفّـس بمشـقّة. فلربّـما أصبـتُ بالمـرض أنـا أيضـاً.

ولّمـا نجـح القـارب أخـيراً في الابتعـاد عن الشـاطئ، اسـتدار جـاك ونظر إليّ. أومـأ ثـمّ جلـس. مـا الـذي أراد قولـه؟ لعلّـه فقـط يومـئ لي بالانـصراف

علـى طريقـةِ سـورياڤاتي حـين تصـدّ الأطفـال الشّـديدي الفضـول: «أوتـا! جـاي!» انسـاب الـزّورق بتـؤدةٍ عـلى صفحـة البحـيرة في طريقـه إلى جزيـرة غابريـال، وبـدا لي أنّنـا لـن نـبرح هـذا المـكان أبـداً.

لم أُطـق المكـوث حتّـى رؤيـة الدخـان الأسـود يتصاعـد في السـماء معلنـاً أنّ أحدهـم قـد قـضى في جزيـرة غابريـال. ولم أرغـب حتّـى في مراقبـة خـطّ موريشـيوس المُـزرَقّ مـن أعـلى الـبركان، تحـت الغيـوم الصّاعدةِ نحـو الأفق. وحتّـى لـو جـاء القـارب الإنجليـزيّ الكبـير الآن فلـن أنتظـره. فلسـت أبالي بعـد الآن. خـيرٌ لي أنْ أمـوت في ركـنٍ مـن الجزيـرة، تحـت فوهّـة الـبركان الجافّـة، وحلقـةُ طيـور رئيـس البحـر المدوّخـة تـدور مـن حـولي. خـيرٌ لي أنْ أستسـلِمَ لتيّـار القنـاة، يجرفنـي فأختفـي في عُـرض البحـر.

لا يمكننـي العـودةُ إلى الطّـرف الآخـر، إلى باليسـاد. يبـدو لي أنّنـي ألبـس المـوت مثـل رداء. لقـد تلاشـت آثـارُ الرمـاد التـي خطّتهـا سـورياڤاتي عـلى وجهـي، وعـدتُ مجـرّد نـاجٍ مـن غـرقٍ يترنّـح في أسـماله. بطنـي متـورّمٌ مـن شرب المـاء الكريـه الملـوّث بيرقـات البعـوض، مـاءِ الصهاريـج الأسـود ذاك الـذي يسـبّب لي الزّحـار ويصيبنـي بغثيـان شـديد. وكلّ مـا أسـتطيعه هـو أن أنظـر أمامـاً، حيـث الصخـور السـوداء وميـاه البحـيرة، وعـلى مبعـدةٍ منهـا، مسـتعمراتُ الحريـش والنمـل.

جـاء جـاك باحثـاً عنّـي. فوجـدني عـلى منحـدر الـبركان فـوق المقـبرة. بـدا متعبـاً. جلـس عـلى الصخـرة بجـواري مـن غـير أنْ ينظـر إليّ. كانـت ملابسـه في حالـةٍ يرثـى لهـا، وقدمـاه عاريتَـين في حذائـه. وكان وجهـه هزيـلاً لوّحتـه الشـمس، وقصبـةُ أنفـه مقشّرةً، ولحيتُـه- المشـذّبةُ بعنايـةٍ في العـادة-

شعثاءَ يخطّها الشيب. إنّه أخي، لكنّه بدا أغربَ ما يكونُ عنّي. هل هو من تغيّرَ أم أنا، أم تُرانا جئنا إلى هنا لنفقد كلّ تلك الحمولة الزّائدة التي تربط بيننا؟ التفتَ إليّ أخيراً، ورأيت نظرتَه المتشظيّة عبرَ العدسة المكسورة.مكتبة سُر مَن قرأ

كنت أنا من بادره بالحديث:

- ألن يأتوا؟

هزّ جاك كتفيه:

- ما الفائدة؟ لا يمكننا فعل أيّ شيءٍ بعد الآن.

رسم دوائرَ في الرّمل الأسود بطرف حذائه. هو أيضاً يفكّر في المرضى، في النساء الهنديّات اللّاتي التحقن بميتكالف على الطرف الآخر من البحيرة. قال جاك: «أنا لست طبيباً، بل كنّاسٌ، وحفّار قبور. أرشّ كلّ شيءٍ بالمطهّر، وأضرم النّار في الثّياب».

- وماذا عنهم؟

- ربّما سيكونون بخير. المسنّ ماري يعدّ لهم الكِمادات. هناك نبتةٌ في جزيرة غابريال، تُسمّى بيفيلاكوا، يقول إنّها جيّدة لتسكين الجروح.

ثمّ قال بشيءٍ من السّخرية:

- بيفيلاكوا! أيْ بوالو، اسم القبطان الذي قادنا إلى زنجبار من أجل موعده الغراميّ، وجلب لنا وباء الجدري. لا بدّ أنّ هنالكَ قانوناً خفيّاً يحكم الأشياء...[1].

(1) الاسم الذي يطلق على هذه النّبتة في موريشيوس (بيفيلاكوا) هو أيضاً اسم عائلة بالإيطاليّة، ويقابله بالفرنسيّة اسم عائلة بوالو Boileau. ويُقصد بها نبتة «كينتيلّا أسياتيكا» المعروفة باسم سرّة الأرض الهنديّة، وهي نباتٌ عشبيّ معمّر من فصيلة الخيميّة.

لم أفهم تماماً ما قال. كلّ شيء يتداعى ويتفكّك؛ المدينة وعزبة آنّا، والفردوس الأرضيّ، كلّ هذا لم يعد موجوداً. كان جاك متوتّراً. فقد نفد التّبغ منذ يومَين، فطلب إلى ماري التحدّث مع المهرّبين، لكنّهم لا يوفّرون سوى التنبول أو الغانجا[1]. كان يتحدّث بنبرةٍ حادّةٍ قليلاً.

- لقد فهمتُ منبع هذا كلّه. الآن باتَ واضحاً أنّ الأمر ليس من قبيل الصدفة. إنّهم كبار العائلات، أوغادُ الحكومةِ الجماعيّة. لقد أعدّوا لكلّ شيء، واتّخذوا القرارات. لم يبدأ الموسم بعد، وهم لا يحتاجون إلى أيّ عمّال. أرسل فيران رسائل، طلب فيها نقلنا إلى غران باي، هناك منشآتٌ تصلح لقضاء فترة الكرنتينة، ومشفىً وأدوية. لكنّ أحداً لم يستَجِب. هم من اعترضوا الرسائل. وألكسندر، كبير العائلة، لا يريدنا أن نذهب ونسوّيَ حسابنا معه. فلا وجود لنا في نظره.

كنت بعدُ طفلاً صغيراً، أتردّد في الإجازات إلى بيت والدنا في مونبارناس. لم أكن أعرف شيئاً عن موريشيوس، ولا عن العالم، لكنّني كنت أعرف كبار العائلات وأسماءهم: ليتاني، لامي، فرانشيفيل، مونتكالم، كيرفوال، كيروبستين، كيرفيرن، بييركوست، دي سان بوتروب، ليغريكس دو نوايال... كانوا يسكنون فيّ، يسيطرون على أراضٍ وهميّة، بألقابٍ مألوفةٍ وغريبةٍ يردّدها جاك على سمعي، وكنت أعجز عن نقلها للآخرين: المدينة، مون ديزير، ريتشي أون أوه، بيلومبر، بوسونغز، كامب دو ماسك، مابو، موريل، تماران، اليمن، ألبيون، سافانا، راما أوبلو، وترو دو دوس... تلك هي الأسماء التي

(1) Ganjah: حشيش بالهنديّة.

عادت إلى ذاكرتي وأنا أهبط عبرَ الشجيرات الدّربَ المفضي إلى المقبرة، برفقة جاك.

أحسستُ أنّ قلبيَ ينبض بقوّة، وقد اغرورقت عيناي بالدّمع، فالتبس الأمر على جاك. إذ وضع ذراعه حول كتفي، كما كان يفعل حين يأتي لاصطحابي من النّزل، وقال:

- انسَ كلّ ما قلته لك حالاً، كنت مُحبطاً. الحال أفضل بكثير الآن. هي بضعة أيّامٍ أخرى وسنكون هناك، سترى، سيكون الحال على خيرٍ ما تصوّرتَ.

ليس حزناً أو قنوطاً ما شعرتُ به، إنّما هو الغضب والغيظ، أردتُ أن أنتقم بلا هوادةٍ من أولئك الذين أرسلونا إلى المنفى. أردتُ أن أعود دون أن يعرفوا ذلك، باسمٍ آخر، ووجهٍ آخر، لأحطّم كبرياءَهم، وأهدِم بيوتهم، وأقوّضَ مجدَهم، على نحوِ ما فعل إدموند دانتيس[1].

قلتُ:

- وماذا عنهم؟ هل سيَرون ذلك كلّه؟

ولم أدرِ ماذا أقول بعدْ. ثمّ أشرتُ إلى منحدر البركانِ، وغابة الكزورينة التي تفصلنا عن باليساد، ومياهِ البحيرة الشبيهة بمرآةٍ من الفيروز، معيداً القول بصوتي الغريب الأجشّ: «وماذا عنهم؟» ماذا سيفعلون؟»

لم يجب جاك. أعلم أنّه يفكّر مثلي، ويشعر بما أشعر به من خزيٍ وغضب. لكنّه قلِقٌ بالأخصّ على زوجته، فمن أجلها يستطيع أن ينسى العالم. قال لي، كأنّما قرأ أفكاري:

- إنّني شديد القلق على سوزان. فهي ليست على ما يرام.

---

(1) Edmond Dantès: بطل رواية «كونت مونت كريستو» لألكساندر دوما.

جلسنا على القبور، والبحرُ أمامنا يضرب في الصخور السوداء منقضّاً على البركان. كان الأفق صافياً، فبدا ساحل موريشيوس قريباً جدّاً، وكذلك صخرة كوان دو مير الغارقة، وأعرافُ الموج على رصيف الشّعاب المرجانيّة في رأس مالورو. وكان البحر ممعناً في الزّرقةِ خالياً من القوارب. كلّا، فلن يأتوا اليوم لاصطحابنا!

قال جاك: «سيكون لدينا نقصٌ في الكينين». تحدّث بنبرةٍ حياديّة كأنّه يصرّح بمعطياتِ مشكلة. «تفشّى وباء الحمّى النّزفية، وهنالك وفياتٌ بالعشرات في باليساد. وعلى ما يبدو فإنّنا ماضون نحو وباءٍ مثل الذي انتشرَ بين عامي 1865–1868، وخلّف خمسين ألف قتيل. لهذا لا يريد كبار العائلات إطلاق سراحنا. خاصّة الآن مع هذه الحالات الجديدة من الجدري التي تصيب حتّى من تلقّوا اللّقاح. إنّهم يعرفون جيّداً ما يجري، ولديهم معلومات».

لم يذكر جاك اسمَه، لكنّه فيران الفاسد. إذ يَشتَبِه في أنّه هو من يوصل الأخبار إلى موريشيوس مستخدماً جهازَه الهيليوتروب. أعتقد أنّنا قد بلغنا جميعاً حدّاً من الجنون.

كان جاك يحدّث نفسه، بدا حائراً، كأنّما يحاول إقناع نفسه بما قال. ثمّ مضيْنا معاً نحو مباني الكرنتينة.

مرّ وقتٌ طويلٌ لم نتجاذب فيه أطراف الحديث، أصبحنا تدريجيّاً غريبَين أحدنا عن الآخر، كما لو أنّ صخرة جزيرة غابريال المحترقةَ قد عرّتنا.

الآن لم أعد أنتمي إلى هذا العالم، أنا من عالم سوريا، من الطّرف الآخر حيث خليج باليساد. رأيت هذا في نظرة سوزان المستجوبة لمّا دخلتُ الكوخ بعد ليلة المحرقة مُلطّخَ الوجه بالرّماد مغبرَّ الثياب، تلك النظرةِ المحمّلة باللّوم، كما لو كنت قد غدرتُ بها...

لكــنّ ذلــك دَمــي، دمُ أمّــي المختَلِــط. هــذا الــدّم الــذي كان يكرهــه العــمّ ألكســندر ويخافــه، وبســببه كان أنْ طَرَدنــا مــن عزبــة آنّــا، ورمانــا في البحــر.

احتجْــتُ فجــأةً أن أعــرف. فذلــك الهاجــس ينهشــني ويؤلمنــي مثــل لكمــةٍ في الخــاصرة. توقّفــتُ في منتصــف الــدّرب قاطعــاً الطريــق عــلى جــاك. ولا بــدّ أنّنــي بــدوْتُ ضائعــاً، لأنّ جــاك ســألني:

- ما خطبُك؟ ماذا تريد؟

أظنّه شعر بالخوف.

- أريد أن أعرف منك. فلا بدّ أنّك تعلم.

- أنْ تعرفَ ماذا؟

- مــن أيــن هــي، أيــن وُلَــدتْ، وإلى أيّ عــرقٍ تنتمــي، وأيّ لــون، ألا تتذكّــر بــما يكفــي؟

مــا كنــت بحاجــة لأنْ أزيــد عــلى مــا قلــت. فحــين توفيّــت أمّــي، لم أكــنْ قــد أتممْــت عامــيَ الأوّل. أمّــا هــو فــكان يناهــز التاســعة مــن عمــره.

- إنّك تتصرّف كالأطفال!

هــزّ رأســه، وعــبرَ أمامــي مســتأنفاً ســيره عــلى طــول الشــاطئ. والحقيقــةُ أنّنــي صرت أعــرف الآن أنّــه يخــاف مــن ذكرياتــه. لم يرغــب قــطّ في الحديــث عــن الأمــر. لكــنْ هــذه المــرّة قــرّرتُ ألّا أســمح لــه بالهــرب. فقــد حدثــت أمــورٌ كثــيرةٌ، أكثــرُ مــن أنْ نمــرّ عنهــا مــرور الكــرام.

لم أعــد طفــلاً. عليــك أن تجيبنــي. أمســكتُه مــن طيّــة ســترته. هــو أيضــاً بــدا مثــل متــشرّد.

- انظــر، كانــت والدتنــا أوراســيّة، وهــذا مــا كان يقولــه الجميــع. وُلِــدتْ في الهنــد، وتبنّاهــا رجــلٌ إنجليــزيّ يدعــى وليــام، وحــين

توفّي اعتنى بها شقيقُه، الرّائد. أقسم أنّني لا أعرف أكثر من هذا، حتّى الرّائد لم يُرِد أنْ يقول المزيد.

- لكنْ ماذا عن اسمها؟ واسم عائلتها، ألم تعرف اسمها الحقيقيّ؟

- لم يُرد الرّائد الحديث عن هذا الأمر. قال إنّها كانت قد نسيَت كلّ شيء. مات والداها خلال التمرّد العظيم، ومنحتها عائلة وليام اسمها. ثمّ أرسلها الرّائد إلى أوروبّا، وكان عليها أن تدرس لتصبح مربيّة، وعلى القارب التقَت بأبي. هذا كلّ ما أعرف.

ثمّ قال وقد ضاق ذرعاً بهذا الحديث:

- هيّا فلنمضِ، سوزان بحاجة إلينا.

ربّما يعرف شيئاً ولا يريد قوله. أو ربّما نسي. لا بدّ من الإمساك بخيطٍ يوصلنا إلى ما هو خفيّ. حثّ جاك الخطى، وكان مُقطّباً جادّاً. حينَ مرِضَ والدُنا فيما مضى، صار هو والدي. كنت أرتجف أمامَه. وكان يسألُني عن درجاتي في الفصل، ويُخضعني لاختبارات. إنّه بالغُ الهشاشةِ، ويشبه أبي، ليس كما عرفتُه مؤخّراً، شيخاً عليلاً يغفو في أريكته ذات الوسادتَين، بل كما كان في الصّور، في بدايات زواجه، متأنّقاً، ذا قسمات حادّة، وشعرٍ أسود غزير ولحيةٍ رومانطيقيّة.

كان هنالك أيضاً صورةٌ لأمّي موضوعةٌ على مكتب العمّ وليام، وهي صورة استوديو، التُقطت في باريس، وتحمل توقيع المصوّر. شابّةٌ ترتدي فستاناً أسود مخمليّاً مزرّراً حتّى العنق، وشعرُها الأسود البديع ملمومٌ في عقصة، شديدُ الغزارةِ حتّى أنّه يتدلّى على جانبَي وجهها. حاول المصوّر أن يخفّف غرابةَ ملامحها، لكنّه أخفقَ في محو تعبيرِ عينَيها المحْميِّ تحت قوسَي حاجبَيها الكثيفَين؛ وَهجِ الحياة ذاك الذي كان يلتمِع في حدقتَيها.

كنت سأمنح كلّ شيء مقابل أنْ أمتلك تلك الصّورة. لكنْ لمّا عاد الرّائد إلى إنجلترا بعد وفاة أبي، أخذها معه، ولم أرها مرّة أخرى. شعرتُ بحاجةٍ لأنْ أتحدّث عنها، فلحقتُ بجاك، وسرت بجانبه.

- هل تتذكّر ما قلتَه لي؟ إنّه أمرٌ غريب ألا يكون هنالك صورةٌ تجمعهما معاً.

- صحيح، كان الصديق كورديه هو من يُفترَضُ أنْ يلتقط لهما صورةَ زفافهما، قال أبي إنّه أفضل اختيار، فقد كان عنده آلة تصوير ألمانيّة. لكنّه حينَ أخرجَ لوحَ الفوتغراف، وجد الصورة مغبّشة.

حينَ كان أبي يسرد هذه الحكايةَ فيما مضى، كان جاك ينفجر ضاحكاً، لكنْ هنا بينَ القبور، على هذا الدّرب المفضي إلى الكرنتينة، بدَت بالأحرى حكايةً كئيبة.

واصل جاك الحديث أثناء سيره. كان صوته مخنوقاً، والريح تُقطّع كلامه. تحدّث عنها كما لم يفعل من قبل. كان يكره المشاعر، ولا يريد أن يكون مثيراً للشّفقة. كان يقول عنها «أماليا»:

- لم تكن أماليا فارعةَ الطول. وقد خفّت غزارة شعرها في أعوامها الأخيرة، قالت إنّها فقدَتْه على إثر إصابتها بالتيفوئيد بعد ولادتي، وبعد قرار أبي الانتقال إلى بيت عزبة آنّا. لكنّه ظلّ محتفظاً بسواده ولمعانه. كان لها شامةٌ على خدّها بالقرب من فمها، يسمّيها أبي «ذبابة». وكانت تحبّ المزاح مع الخدم، وقد تعلّمت التحدّث بالكريوليّة بسرعةٍ كبيرة. لم يَسعَد أبي بذلك، قال إنّه أمرٌ لا يصحّ، لكنّها لم تستطع مقاومته. ولهذا

فـإنّ الجميـع في عزبـة آنّـا أحبّهـا حبّـاً جمّـاً. وحـين اضطُررنـا إلى الرّحيـل، خـلال أعيـادِ الميـلاد، جـاءوا جميعـاً إلى الميـنـاء وكانـوا يبكـون. أتذكّـرُ ذلـك، عانقَتهـا يايـا العجـوز طويـلاً حتّـى لم يعـد بالإمـكان فصلُهـما الواحـدةَ عـن الأخـرى. أمّـا أنـتَ، فكنـتَ في مهـدِك بعـد، لا تـدري شـيئاً.

ثـمّ انكـسر صوتُـه، ولم يُضِـف شـيئاً. وسـار بخطـىً واسـعةٍ، هابطـاً الـدّرب نحـو بيـوت الكرنتينـة السّـوداء.

شـاهدتُه يمـضي مسرعـاً، وقـد انفطـر قلبـي، إذ لم يبـق شيءٌ مـن الرّجـل القـويّ الطويـل القامـة الـذي كان يثـير إعجـابي وأنـا في الثانيـة عـشرة مـن عمـري، الرّجـلِ الـذي قـرّر أنْ يحـلَّ مـكان أبي.

كان أيّامهـا قـادراً عـلى التحـدّث عـن المدينـة وعزبـة آنّـا بصـوتٍ ملـؤه الغضـب. كان يقـول إنّـه سـيعود ليسـوّيَ حسـابه مـع العـمّ أرشـمبو، وإنّـه سـيجعله يُعيـد مـا اسـتولى عليـه. أو إنّـه سـيُلحِق بـه إهانـةً كبـيرة، إذ سيشـتري منـه بيـت عزبـة آنّـا راميـاً بقطـع النقـودِ الذهبيّـة في وجهـه، ثـمّ يعـود أدراجـه. كنـت أحبّـه عندمـا يقـول ذلـك، وكان البريـق في عينَيـه والمبالغـةُ في كلماتـه يعينانـني خـلال الشـهور الطويلـةِ التـي لا أبـرح فيهـا نـزل روي ماليـزون. ثـمّ غـادر إلى لنـدن ليـدرس الطـبّ، ومـا عـاد يحدّثنـي عـن ذلـك كلّـه، كأنّـما قـد نسـيه.

أمّـا أنـا، فـما زلـتُ أحمـل الشّـعلة، ولا أريدهـا أن تنطفـئ. فجـدران الكرنتينـة السـوداء الشـبيهة بسـجنٍ يحـاصره المـوت، ووهـج الشّـمس والبحـر، وكلُّ شيءٍ هنـا يوقـظ فيّ شرارة الانتقـام. ولي بـين الضلـوع قلـبٌ قُـدَّ مـن صخـرِ الجزيـرةِ البازلتـيّ.

أبحَـرَ الطّـوفُ أسـابيعَ وشـهوراً عـلى طـول الشـطآن. كان الوقـت طويـلاً جـدّاً، شـديدَ الرّتابـة، حتّـى أنّ جيريبـالا لم تعـد تتذكّـر بدقّـةٍ كيـف بـدأت رحلتَهـا. تذكـرت اليـوم الـذي ضربتهـا فيـه الدوميّـات، ونهبْـن حقيبتهـا، لكـنّ مـا تبِـع هـذه الحادثـةَ ظـلّ غامضـاً حُلميّـاً مثـل ضـوء الشّـفق.

في الظهـيرة، حيـث الشّـمس تتوهّـج في كبـد السـماء، كان الدوميّـون يدفعـون طوفَيهـما نحـو الشـاطئ في ظـلّ الأشـجار، ويمكثـون هنـاك حتّـى المسـاء. كان بعضهـم يسـتلقي عـلى ألـواح الطوفَـين في ظـلّ قِطَـعٍ عتيقـةٍ مـن قـماشٍ رُميَـت عـلى الأغصـان. وكانـت جيريبـالا ولِيـل تنـزلان إلى اليابسـة، وتبحثـان عـن مـكانٍ تحـت الأشـجار تمكثـان فيـه حتّـى المسـاء. تتشـكّل ضفـاف نهـر يامونـا مـن تلعـاتٍ طينيّـةٍ عاليـةٍ تغـوص فيهـا الأجسـادُ حتّـى الرّكَـب، لكـنّ التربـةَ تحـت الأشـجار ناعمـةٌ جـدّاً، والأوراق المتسـاقطةُ تنفـرشُ فوقهـا بسـاطاً مريحـاً.

كانـت جيريبـالا ولِيـل تـتركان طفليهـما أحيانـاً في رعايـة امـرأةٍ عجـوز، كـي تجوبـا القرى

وتسرقا بعض الثمار وسطَ دخان الحرائق المنتشر بعدُ في الأفق، إذ كان متمرّدو السيبوي ينسحبون شمالاً حارقين في طريقهم الحقول والبيوت. كان هنالك أفواجٌ من الفارّين على الطّرق، وأناسٌ يختبئون في الحقول. وكانت جيريبالا ولِيل إذ تدنوان من القرى، تطاردهما النّساء بحفناتٍ من التّراب والحصى، ويلوّحن لهما بعصيّهنّ شاتماتٍ. لكنّهما، عبر المراوغة، تنجحان في الاستيلاء على دجاجةٍ هرِمةٍ أو سرقة بعض الخضروات، فتطهوانها على الضّفة، قبل العودة إلى الطّوف.

ذاتَ يومٍ، وفيما كانت جيريبالا عائدةً من جوْلة النّهب، التقَت بفتاةٍ صغيرة في عمرِ السادسة عشرة أو السابعة عشرة، ترتدي الأسمال، ووجهُها مسودٌّ بالدخان، وشعرها مُلطّخٌ بالوحل. وكانت تحمل طفلاً على حِجرها، ولداً عارياً حليقَ الرأسِ ذا جسدٍ شديد الهزال ممتلئ بالبثور. جفلت الفتاةُ للوهلة الأولى، لكنّها أدركت أنّ جيريبالا كانت وحيدة، فزايل الخوفُ ملامحها وتقدّمت على مهلٍ شديدٍ متردّدةً، دون أن تنبس ببنت شفة، ويدُها اليسرى ممدودةٌ إلى

الأمـام. تسـمّرت جيريبـالا في مكانهـا لا تبـدي حـراكاً، محدّقـةً في هـذه الشـابة الصغـيرة والطفـل الـذي تحملـه كمـن يقـف أمـام صورتـه.

فجـأةً، أقبلـت لِيـل مـن رَحْبـةٍ بين الأشـجار. وبلمحـةٍ واحـدةٍ رأت كلّ شيء، الفتـاةَ المترنحّـة باسـطةً يدهـا، وطفلَهـا الميـت، وجيريبـالا متسـمّرةً مذعـورة. فالتقطَـت حجـراً، ورفعـت يدهـا كـما لـو كانـت تصـدّ كلبـاً، وسـارت إلى جيريبـالا وشـدّتها بعنـفٍ إلى الخلـف. ثـمّ هـدّدَت الشـابّة المتسـوّلة بنـبرةٍ قاسـيةٍ ولكـن دون أن تـصرخ: «انـصرفي مـن هنـا! إيـاك أنْ تقـتربي!» جـرّت جيريبـالا إلى النهـر، وبعـد أنْ ركـب الجميـع الطوفَـين، دفعَـت بـكلّ قوّتهـا وحـلَ الضّفـة مسـتعينةً بمُرديّهـا، إلى أنْ حملهـا التيّـار بعيـداً. شرحَـت ليـل لهـا الأمـر لاحقـاً: «هـذه المـرأة مـع طفلهـا، عرفـتُ جيّـداً مـن تكـون، إنّهـا شـيتالا، الإلهـةُ البـاردة، وهـي تحمـل المـرض، ولـو لمسَـتكِ، لكانـت تلـك نهايتـك».

كانـت النّسـوة عـلى الطّـوْف الآخـر يثرْثـرن بأصـوات قويّـةٍ ذات نـبرةٍ خشـنة. والآنَ، بسـبب حادثـة الفتـاةِ في الغابـةِ، بتْـنَ يُـردّدن أنّ جيريبـالا سـتجلب لهـنّ النّحـس. لكـنّ ليـل تصـدّت لهـنّ،

خاصّـةً للمـرأة النّحيلـة الفارعـة الطّـول التـي ضربتهـا بقسـوة، وقـد تحدّثـت ليـل مـع تلـك الشرسـة بلغـةٍ أخـرى، تُنطَـقُ فيهـا الكلـمات بالمقلـوب، ويختلـفُ معناهـا، هـي لغـة الـدّوم. ذات يـوم سـألتْها جيريبـالا:

- بأيّ لغةٍ تتحدّثون، فيما بينكم؟

ضحكَت لِيل:

- مـاذا، ألا تعلمـين؟ إنّنـا متـشرّدون، ونتحـدّث لغـة اللّصـوص.

نظـرَت إلى جيريبـالا نظـرةَ تحـدٍّ، فأغْضَـت جيريبـالا خائفـةً. ومـع هـذا فلـم تكـن لِيـل شرّيـرة، وباسـتثناء تلـك الشّرسـة، فـإنّ النّسـاء الأخريـات كـنّ يتقاسـمْن كلّ مـا يسرقـن. وكان هنـاك دومـاً حصّـةٌ لجيريبـالا. وقـد اعتنـينْ بأنانتـا كـما لـو كانـت ابنتهـنّ. وعـلى مـرّ الأيـام، نسـينَ شـيئاً فشـيئاً حادثـة الإلهـة البـاردة.

أخـذ الطّوفـان ينسـابان عـلى طـول الشـاطئ الموحـل مسـاءً بعـد مسـاء، حيـث المطـر يصبـغ النّهـر بالأحمـر. كانـت جيريبـالا، بيدَيهـا اللّتَـين تيبّسـتا ووجههـا الـذي سـوّدته الشـمس، تقـف في مقدّمـة الطّـوف وتدفـع المـرديّ موثِقـةً بشـالها الطّفلـة أنانتـا إلى خصرهـا. كانـت تعـرف تمامـاً

كيف تُلقي بالمُرديّ إلى الأمام وتغرُزه في القاع الموحل، وكيف تمشي على حافّة الطوف حتّى مؤّخرته، ثمّ تنزع المرديّ بحركةٍ سريعة. وكانت تعرف أيضاً كيف تتلمّس الخطر. فقبل الوصول إلى دالمو، وفي انعطافةِ النّهر العظيم، كانت مجموعةٌ من السيبوي قد نصبت كميناً. بدؤوا بإطلاق النار على الدوميّين، فدفعت جيريبالا الطّوْف في التيّار أبعدَ ما أمكنها دون أنْ تُبالِيَ بطلقات الرّصاص التي كان يُسمع دويّها. في ذلك اليوم، عانقَتها ليل ومسحت على وجهها، بل قالت لها أيضاً: «إنّك شجاعةٌ مثل لاكشميباي»[1]. وحكت لها قصّةَ ملكة جانسي هذه التي قاتلت الإنجليز وحدها دفاعاً عن مدينتها، وماتت على ضفّة النهر.

وفي فجرِ أحدِ الأيّام، وصل الطّوفان أمام خليج واسعٍ تقوم عليه مدينة. فرأت جيريبالا في الضباب، عند ملتقى نهرَي يامونا والغانج،

(1) راني لاكشميباي: ملكة ومحاربة هنديّة (1828–1858)، حكمت مدينة جانسي بعد وفاة زوجها، وهي من أشهر قائدات حرب التمرّد ضد الاستعمار البريطانيّ عام 1857، وتعدّ بطلة قوميّة في الهند.

الأبــراج والمــآذن، والســور الكبــير بحُمرتــه الدّاكنــة. وكان في الخليــج أمــام المدينــة جيــشٌ مــن قــوارب صيــدٍ بأشرعــةٍ طويلــةٍ ســاكنة. بــدا كلّ شيء صامتــاً غافيــاً. وانســاقَ الدوميّــون ببــطءٍ جالســين عــلى طوْفَيهــما، محدّقــين في طيــف المدينــة الشــبَحيّ. قالــت ليــل بصــوتٍ خفيــضٍ وكأنّهــا تخشــى أن يســمعَها أحــدٌ هنــاك: «هــذه الله أبــاد» (مدينــة الله). كانــت جيريبــالا تضــمّ أنانتــا إلى صدرهــا. ولم يكــن يخــترق الصّمــت ســوى النّفــسِ المُخشــخِش قليــلاً الــذي كان ينبعــث مــن صــدرِ نــات، ابــن ليــل، ونخــيرِ العنــزةِ الهَرِمــةِ وهــي تحــاول قضْــم لحــاء الطّــوف.

ثــمّ طلعــت الشــمس خلَــل الضبــاب، وصــار الطوْفــان قبالــةَ المدينــة، ودارا وئيــداً حــول نفســيهما أمــامَ السّــور، مثــل حزمــة مــن الأغصــان في دوّامــة. غرســت النســاء المَراديَ في الميــاه العميقــة، محــاولاتٍ التجديــف للوصــول بالطّوْفَــين إلى الضّفــة الأخــرى. وفي كلّ مــرّة تُقتلــع فيهــا المَــرادي مُهتــزّةً، كانــت النّســوة يُطلقــن صيحــةً طويلــةً، «إيّيييــي!...» كانــت جيريبــالا هــي أيضــاً تجــدّف بقطعــةٍ مــن خشــب، مُنحنيــةً عنــد مؤخــر الطّــوف، وتصيــح مثلهــنّ

وتغنّـي، وبجوارهـا أنانتـا ونـات محشـورَين بـين صرر الثّيـاب ضاحكَـين، لِظنّهـما أنّ الأمـر يتعلّـق بلعبـة. حتّـى العنـزة الهَرمـة بـدت مهتاجـةً عـلى نحـو غريـب، وكانـت تتمطّـى وتنفـض رأسـها ثاغيـةً.

كان الهـرِمُ سينغ عـلى طـوْف النسـاء يجـدّف بالمُـرديّ هـو أيضـاً، عـلى الرغـم مـن الجـرح في فخـذه. وبـدا الطّوْفـان من مسـافةٍ بعيـدة، بالعصيّ البـارزة على جوانبهـما مثل أشـواكٍ، كأنّهما حشرتان تكافحـان وسْـط بحـرٍ مـن طـين.

دوّمَ تيّـار النّهرَيـن العملاقَـين فدفـع الطّوفَـين بعيـداً مشـتّتاً شـملهما، ثـمّ، في نهايـة مُنعـرج طويـل، عـادَ ليجمـعَ بينهـما، فتلاصقـت حافتاهمـا، وأخـيراً دخـلا معـاً الميـاه الهادئـة في المنعطـف أمـام مدينـة الله أبـاد. وللمـرّةِ الأولى منـذ أيـام وشـهورٍ تشـعر جيريبـالا بالسـكينةِ في أعماقهـا، كـما لـو أنّهـا وصلـت حقّـاً إلى آخـر محطّـةٍ في رحلتهـا، حيـث لا رائحـةَ للـدّم أو الحرائـق، وحيـث يمكنهـا العيـش بحرّيّـةٍ مـع أنانتـا.

23 يونيو

استقرّت الإلهة الباردة في باليساد، موجةً آتيةً من طرف العالم الآخر، ولن يوقفَها شيء. كان ركّاب **لافا** حبيسي الكرنتينة، متقوقعين فيها، منكمشين على أنفسهم كمن يتهيّأ لاستقبال العاصفة. أمّا أنا، فكنت كلّما هبط اللّيل، توجّهتُ إلى الطرف الآخر من الجزيرة، مجتازاً غابة الكزورينة. وقد تعلّمتُ أن أتحرّك مثل كائنٍ بريّ، هادئاً حافياً بين الحمم البركانيّة والشّجيرات الشّائكة. وكان حفيف الرّيح في أوراق الكزورينة يصيبني بقشعريرة. هكذا صار لي طقسيَ اليوميّ، وكنت أحبّ أيضاً أن أصغيَ إلى هدير البحر وهو يقضم الجزيرة من جميع جهاتها. وأحسستُ أنّ هذا الارتعاش يسكنني، ويختلج في أعماقي.

أبلغُ قمة الجُرف فأمكث هناك لأتأمّل أضواء باليساد. صار الموت الآن يكرّر ضرباته، والنيران تشتعل على طول الخليج، بدءاً من الصخور القريبةِ من السّد وحتّى حيّ المنبوذين. فتصعد إليّ رائحة المحارق، لاذعةً وعذبةً في آنٍ معاً، ممتزجةً بحموضة الزّيت الذي يسكبه الخدم على ألسنة اللّهب لإذكائها.

وإلى الأعلى من بلدة العمّال حيث أنا، لا أسمع أيّ كلمةٍ أو شكوى، لا شيء سوى هدير البحر، وحفيف الرّيح في أوراق الكزورينة الإبريّة.

ثمّ يتبدّى القمر وسط سماءٍ شديدة الصفاء، مكتنزاً يتألّق جمالاً. وتمسح الرّيح السّماء شاقّةً فيها خليجاً أوسع من البحر الذي يحيط بنا. ويضيء نورُ القمر الجزيرة متلألئاً فوق الأمواج. أرى كلّ تفصيلٍ في الخليج، كلّ صخرة وبيْت. ثمّةَ أطيافٌ تحوم بين المحارق على طول أزقّة المدينة. وقد تكون سورياڤاتي وأنانتا من بين تلك الأطياف التي

ترتدي ثياباً من الخيش، وتحمل قوارير من الزّيت، أو تقلّب الجمر بعصيّها الطويلة. لم تمضِ سوى أيّام قليلةٍ على نزولنا إلى الجزيرة، ومع ذلك يبدو لي أنّني أرى هذا المشهدَ منذ الأزل. لم أعد أخاف الموت. وقد أرتْني سورياڤاتي وجهةَ الجنوب، حيث يقيم **ياما**، إله الموتى.

لم أنسَ لحظةَ نطقَتْ اسمه. أخذَت بعض الرّماد من المحرقة ومزجَته بلعابها وبالتّراب الأسود، ورسمَت ببطءٍ علاماتٍ على وجهي، فشعرتُ بشيءٍ أشبه بالنّار يتّقد في جسدي. كان صوتها غايةً في الرّقةِ، مثل لمسةِ أناملها على جبيني، وعلى وجنتَيّ وجفوني. «**ياما** هو ابن الشّمس، وهو ينتظر أخته، **يامونا**[1]، وحين تأتي، ستشعل ناراً كبيرة، وتخطّ بالرّماد جبهة أخيها، كما فعلتُ أنا، حتّى لا ينتهي حبّهما أبداً».

ثمّ أهبط إلى باليساد. لا تزال الحفريّات القديمة التي منحت الخليج اسمها[2] على حالها في بعض المواضع، حيث طُرِحت جذوع الأشجار الضّخمة في مُخمَّسات. يثير الصّوت الذي أُحدثه وأنا أقفز بينها نباحَ الكلاب. لكنّها تصمتُ حينَ أبلغ الشاطئ. لقدْ بدّلتُ رائحتي، فلم تعد تكرهني بعد الآن.

تُشعَل معظم المحارق على الشاطئ، ولا يُسمَع هنا سوى صوت الموج وطقطقة ألسنة اللّهب. البحر طافحٌ كالسّماء، يحتضن هو أيضاً البدرَ في تمامه. إنّني في عالمٍ آخر يغيب عنه الخوف، ويتلألأ فيه ضوء الجمر الملتهب، ويعبق برائحة خشب الصّندل والزيت الزكيّة. أمشي

(1) اسم هذا النّهر مؤنّث، كما في «دجلة» عند العرب. (المُراجِع)

(2) كلمة Palissades تعني أجراف.

نحو ألسنة اللّهب الرّاقصة وأتذكّر فجأةً؛ كان جاك هو من تخيّل هذا منذ زمنٍ طويل ذات أمسيةٍ على شاطئ بيل إيل، في آخر إجازةٍ صيفيّةٍ لنا مع والدنا: أيقظني ليلاً، بدا في هيئةٍ غامضةٍ محيّرة. قال: «تعال، سأريك شيئاً». كان هنالك على الشاطئ مصبٌّ صغيرٌ أسود مختلطٌ بالطّمي. كانت ليلةً صافيةً مثل هذه، بنسيمها العليل وهدير بحرها. انحنى جاك فوق الماء، وأشعل شمعةً ودسّها في عنق زجاجة معبّأة. ثمّ وضع أضواءً أخرى في قواربَ من ورق، وفي عُلبٍ كرتونيّة. أخذتُ أتأمّل الأضواء وهي تنساب على مهْلها في المصبّ، ثمّ تختفي في العتمة وتبتلعها المياه. تملّكتني الرّغبة في العودة إلى الكرنتينة لإيقاظه هو وسوزان، كي ينضمّا إليّ هنا أمام المحارق، فلا يعودا يخشيان شيئاً بعد الآن.

لكنْ لا وقتَ لديّ. تجذبني ألسنة اللّهب، فأسعى بين المحارق، وأقابل الخدم، منبوذين لا يرتدون إلّا السّواد، ورؤوسُهم ملفوفةٌ بالخِرق. لا يبدو أنّ أحداً يراني. على الشاطئ، تَصنع المحارقُ جداراً من دفءٍ، وتطوّح الريحُ باقاتٍ من الشّرر صابّةً فوقي دخانها اللّاذع. أبحث عن سوريافاتي، فأمشي محموماً حتّى طرف اليابسة- هناك حيث انتظرتُها منذ ليلتَين- فلا أرى سوى المنبوذين، رجالٍ ناحلين ذوي عيونٍ متّقدة، دوميّن خدّامَ محارق، يتنقّلون ويدفعون الجمر إلى قلب المواقد، أو ينبشون الرّكام بأغصانٍ طويلةٍ رَمِدَة. وبين الحين والحين يقلّبون الرّماد آملين أنْ يعثروا فيه على شيءٍ ذي قيمة، قطعة نقديّة، أو جوهرة منسيّة. إنّهم يشبهون الجوارح. لكنّ سوريافاتي وأنانتا ليستا

بينهم. بعيداً في العتمة، ثمّة نساءٌ ملتفّاتٌ بشالاتهنّ الحُمر، وبعضُ رجالٍ يراقبون المشهدَ بلا كلماتٍ ولا دموع.

أفكّر في محرقة غابريال، حيث اختفى نيكولا والسيّد تورنوا. نحن أيضاً حفّارو قبور. وددْتُ لو كان جاك هنا، وددْتُ لو يأتون جميعاً، بمن فيهم جوليوس فيران وبارتولي بهيئتيهما المتبجّحتَين، فيقلّبون الجمرات ويصبّون الزّيت على النّار، ويستنشقون الدّخان، ويسمعون أجيج النّيران وهي تلتهم الجثث.

أمّا أنا، فقد جثوْت بدوري جوار محرقةٍ خبا لهيبها، متسلّحاً بغصن طويل، وأخذتُ أقلّب الجمر وأُثير دوّاماتٍ من الشرّر. لم يتوجّس أحدٌ منّي، فأنا مثلهم، بملابسي البالية، وقدمَيّ الحافيتَين وشعري المرمّد، ووجهي المسودّ بالدّخان وكذا ذراعَيّ. أنا مثل الدوميّين خادمُ محارق. فأنّى لي أنْ أعود إلى هناك، إلى الكرنتينة، بعد ما رأيت؟ وهل سيكون بمقدور سوزان أنْ ترى فيّ غيرَ طيرٍ جارحٍ يحمل علامةَ الموت؟

جلستُ طويلاً على الشّاطئ أمامَ المحرقَة الآخذة في الانطفاء رويداً رويداً. كانت الرّيح تهبّ أحياناً، فتشعل بقعاً حمراءَ في الرّماد. وكنت أتنسّم عبق البحر.

وقبيل الفجر، كانتْ أطيافٌ تتمشّى على طول الشاطئ، وتمرّ من أمامي. عرفتُ من بينها الشّيخ حسين وراماساومي. كانا يتقدّمان على مهلٍ، بعكّازَيهما الطويلَين، مثل شبحَين. ثمّ توقّف السّردار للتحدّث إلى الرّجال والنساء الذين كانوا يقفون على مبعدةٍ، وقدّم لهم العزاء أو ربّما تمتَم بدعاءٍ، ثمّ تابع طريقه. كان كلّ شيء صامتاً، فلا يُسمع سوى حفيف الرّيح في غابة الكزورينة أعلى البلدة، وهمسِ البحر عند الشّعاب المرجانيّة.

طلع النهار فإذا بسوريا مقبلةٌ برفقة الرّاعي الشابّ شوتو. كانت تحمل حقيبةً من الكاذي[1] مليئةً بالطّعام لخدّام المحارق، وشوتو يحمل إبريق الشاي. كنت أحسّ بالخدَر من التّعب، وقدْ حرّقت النيران شعري وحاجبَيّ. ولمّا صارت سوريا في مواجهتي، توقّفتْ ونظرتْ إليَّ دون أن تقول شيئاً، ودون أنْ ترتسمَ على وجهها ملامحُ الدّهشة. أعطتني طبق الأرزّ والخُبز المقليّ. وسكب ليَ الفتى الشّاي في كوب. انتظرا في صمتٍ حتّى فرغتُ من الطّعام والشّراب، ثمّ تناول شوتو منّي الطبق والكوب المتّسخَين، وقد أضاء نور الفجر وجهه كاشفاً عن عينَيه الواسعتَين العميقتَين. أومأتُ إليهما معاً - هو الذي لا يسمع، وسوريا - أنّ الطعام طيّب، باسطاً يدي اليُمنى إزاء صدري ثمّ مادّاً إيّاها إلى الأمام. شاهدتُهما يبتعدان ببطءٍ نحو خادم آخر، فشعرتُ بنورٍ ما يولَد في أعماقي. ثمّ بدأتْ أوّل الطيور تصرخ بين الصخور.

كانت طيور البلشون المخطّط تحلّق معاً ماسّةً صفحة البحر في طريقها إلى صخرة لوديامو. لم يكنْ هنالك ما يدعوني للمغادرة. وبدا لي أنّ هذا الصباح لا بدّ أنْ يستمرّ إلى الأبد. تمدّدتُ على الرّمل الأسود مستمعاً إلى حسيس نيران المحارق الآخذة في الانطفاء.

(1) أيْ مصنوعة من أوراق شجر الكاذي.

هنـا كان أنْ رأت أنانتـا النسـاء يرقصـن للمـرّةِ الأولى. كان الأمـر غريبـاً، إذ كانـت الحـرب لا تـزال قريبـةً، وأسـوارُ المدينـة مليئـةً بالثّقـوب التـي أحدثتهـا القذائـف، والبيـوتُ القديمـة شـبهَ متفحّمـة، وأسراب الذبـاب والنسـور في كلّ مـكان. كان البريطانيّـون قـد بنـوْا معسـكرهم عـلى الضفّـة الأخـرى مـن نهـر يامونـا، قبالـةَ المدينـة، ووجّهـوا مدافعهـم صوبهـا.

يقـع الشـاطئ الـذي جنـح إليـه الطّوْفـان قبالَـة المصـبّ، بعيـداً عـن تيّـار النهرَيـن، وهـو خليـجٌ كبـيرٌ تحتلّـه الميـاه الرّاكـدة، حيـث ينمـو القصـب. هنـا، منـذ شـهورٍ، اسـتقرّ بمشـقّةٍ اللّاجئـون الذيـن قدِمـوا مـن جميـع أنحـاء عَـوَض. فمنـذ سـقوط نانـا صاحـب، أقـام جنـود اللّـورد كانينـج الإنجليـز معسـكرهم المنيـع في المدينـة مـن أجـل حملـةٍ لاسـتعادة دلهـي والمقاطعـات الشّـمالية، فأصبـحَ هـذا الشـاطئ بلـدةَ نسـاءٍ وأطفـالٍ، دمّرتهـا المجاعـة والمـرض، بلـدةَ أكـواخ مـن الخـصّ والطّـين، يلـزم إعـادةُ بنائهـا في كلّ مـرّة بعـد موسـم المطـر.

هنـا أوقـدَ الدوميّـون ذات مسـاءٍ نـاراً. وتنـاول الهَـرِمُ سـينغ نايَـه، وصُنعـت طبـولٌ مائيّةٌ

مـن ثـمار القـرع الهنـديّ المفرّغـة العائمـة في دلاء، وانطلقـت الموسـيقى، بطيئـةً في البدايـة، ثـمّ أخـذ إيقاعهـا يتسـارع. فخـرج النـاس مـن أكواخهـم، سـالكين دربَهـم بـين القصـب، وقـد جذَبتهـم الموسـيقى. أطفـالٌ متسّـخون مثـل العناكـب، بأطـرافٍ نحيلـةٍ وبطـونٍ متورّمـة، ونسـاءٌ يرتديـن السّـاري، بشـعورٍ متلبّـدة، وعيـونٍ ذاهلـة، وقليلٌ مـن الرّجـال أيضـاً، عـمالٌ مـن المناطـق المجـاورة، قدمِـوا مـن الشّـمال هربـاً مـن هجـمات أتبـاع عـلي نقـي خـان[1] الانتقاميّـة.

كانـت أنانتـا متكـوّرةً في حضـن أمّهـا، تنظـر بمـلءِ عينَيهـا حابسـةً أنفاسـها. وكانـت النسـاء يرقصـنَ عـلى إيقـاع الطّبـول والنـايّ أمـامَ اللّهب العـالي داقّـاتٍ الأرض الصّلبـة بباطـن أقدامهـنّ، فترِنّ أسـاورهنّ وقلائدهـنّ النحاسـيّة الثّقيلة. كنّ يرتديـن أثـواب السّـاري الجديدةَ بلون مـاء البحر، لـون الفـيروز، ويضعْـنَ عـلى شـعورهنّ السـوداء المضمّخـة بالزّيـت شـالاتهنّ الكبـيرة بلـون النـار.

ثـمّ بـدأت لِيـل ترقـص بمفردهـا، فيما النسـاء الأخريـات الجالسـات حولهـا يصفقـن عـلى إيقـاع طبـول الماء.

(1) وزير الملك الحادي عشر، آخر ملوك ولاية عوَض، واجد علي شاه، بين عامي (1847–1856).

وأخذت جيريبالا تعلّم أنانتا كيف ترقص بيدَيها راسمةً علامة الرّب كريشنا، اليدان أمام الفم والأصابع مرفوعةٌ، كمن يعزف على النّاي. علّمَتها كلّ ما تعرف من حركات: علامة طائر الجارودا، اليدان مفتوحتان مثل جناحَين، وعلامة العَجَلَة، حيث تدورُ كلّ راحةٍ أمام الأخرى، وعلامة ألابالافا، أو زهرة اللّوتس، حيث اليد منبسطةٌ أمام الصدر، وعلامة السعادة، اليدُ أمَام الجبهة، وعلامة الحُبّ وقلب الطائر النّابض، يدان مفتوحتان، متشابكتان بالإبهام والأصابع الأخرى ترتعش.

غمرَت الدّهشة ملامح الطّفلة، تلك هي المرّة الأولى التي ترقص فيها أمام والدتها، بساقَيها الصغيرتَين المرتبكتَين، ملتفّةً بـرداءٍ طويلٍ، ومعصماها مثقلان بأساور من نُحاسٍ. في ذلك اليوم، أعطَت لِيل أنانتا سوارها ذا الخرزات الخمس البلوريّة، الذي يحمل ميدالية بِلامّا إلهةِ الرّقص، وكانت قد حصلت عليها وهي في السادسة من عمرها. لاحظت جيريبالا ولِيل أنّ أنانتا قد رقصت طويلاً، داقّةً الأرض الجافّة بقدَميها الحافيتَين،

وسْطَ رائحة دخان خشب الصّندل المُسكِرة. وبرؤيتها، نسيَت جيريبالا الخوف والحرب، وصدْرَ المربّية الدّامي حيث وجدت الطّفلة، ورحلةَ هروبها عبر الحقول وصولاً إلى النّهر حيث اخترعَت اسم أنانتا.

كانت ليلةً طويلةً جداً، قضتها جيريبالا أمام النّار المشتعلة على الشاطئ، تستمع إلى إيقاع طبول الماء مع كلّ هؤلاء الناس الذين يتمايلون بين القصب. ولمّا هدّ التّعب أنانتا، مدّدتها جيريبالا لترتاح على الصُّرر. واصلت النساء الرّقص طوال اللّيل، ثمّ قصّت ليل على الجمْعِ حكاية لاكشميباي الجميلةِ التي ماتت منذ شهرَين وهي تدافع عن مدينتها ضدّ العدوّ. قلّدت قتالها ضدّ الإنجليز وهي على صهوةِ حصانها حاملةً سيفها ومحاطةً بصديقتَيها العزيزتَين، ماندرا وكاشي. سقطت ماندرا أوّلاً بعد أنْ أصيبت برصاصةٍ في القلب. لم ترغب المَلِكة في التخلّي عنها، فحزّت رأس الرّجل الإنجليزي بضربةٍ من سيفها وفرّت مع كاشي إلى النهر. أسقطت رصاصةٌ ثانيةٌ كاشي أرضاً. فَجُنّت لاكشميباي من الألم، وأخذت تدور وتدور على حصانها أمام النهر، فدارت ليل حول نفسها أمام الجمْع الذي يشاهدها، باسطةً

ذراعيها حتّى سقطت أرضاً، مثل لاكشميباي التي اخترقتها حِرابُ العدوّ.

بقي الدوميّون في فاراناسي طيلةَ موسم المطر. كانت مياه النّهر السوداء تدوّم جارفةً معها نحو الضّفاف جذوع الأشجار المُقتلعة. فباتَ الإبحارُ فيه مستحيلاً. لم يعد النّهر وديعاً، وصار يحمل اسم هارا ساكارا، عُرْفِ الإله شيفا المدمِّر. غرِقت السّهول وضاعت المحاصيل، وبسبب المجاعة، قيل إنّ هنالك قراصنةً على النهّر؛ متمرّدين سابقين ينهبون القرى ويغتصبون النساء.

وصل العنف إلى تخوم المدينة. وذات صباح، استفاقت جيريبالا على صيحاتٍ آتية من وسط المدينة، تتصاعد مثل إعصار. فتذكّرَت ما حدث في كاونبور، وصيحات السّيبوي التي كانت تتعالى عبر الحقول وتطوّق المدينة، فخفق قلبها بشدّة.

كانوا شُبّاناً يرتدون، على سبيل التحدّي، شعارَ بهادر شاه[1]، وكانوا يفرّون عبر المدينة،

(1) أبو الظّفر سراج الدّين محمد بهادر شاه، آخر أباطرة مغول الهند (1775-1862). اتّهمه الإنجليز بتعاونه مع الثورة فحكموا عليه بالإعدام ثمّ خُفّف الحكم إلى النّفي إلى بورما حيث مات حبيساً. وبنفيه سقطت دولة المغول الإسلاميّة في الهند.

تلاحقُهم فرقةُ الخيّالة البريطانيّة، فيركضون على طول الشاطئ ويختبئون في المعابد وأحواش البيوت. ظلّت جيريبالا متسمّرةً في مكانها، تعانق أنانتا المرتعدةَ خوفاً، وتكرّر لها، ناطقةً بهدوءٍ اسمها: «لا شيْء هناك، لا تخافي يا أنانتا».

عاد الهدوء. لكنْ في ذلك المساء نفسه، أقام البريطانيّون منصّةَ شنقٍ طويلةً على ضفّة النهر قرب المدارج[1]، فأعدموا عشرات الفتيان الذين أسرهم السّيخ. كان بعضُهم لا يزالون أطفالاً. كانوا يحملون على ملابسهم ألوان المتمرّدين مثل شاراتٍ وطنيّة: الأزرق والأحمر شعارَ بهادر، والأخضَر والذهبيّ شعار مدينتي جانسي وقاليور[2]، والمَلكةِ لاكشميباي.

أرادَت لِيل وبعض النسوة أنْ يركَبن الطّوف ويهربن، لكنّ الهَرِمَ سينغ لم يؤيّد هذا الرأيّ. قال إنّهم في فارانـاسي، أيْ على أدراجِ المعابد، لذا فهم في أمان.

(1) Ghats: كلمة تُستخدم في جنوب آسيا للإشارةِ إلى الدّرجات المؤدّية إلى أيّ تجمّع مائيّ وخاصّة الأنهار المقدّسة لدى الهندوس.
(2) المدينة التي تحصّنت فيها الملكة لاكشميباي في حربها ضدّ الإنجليز، حيث قلعة قاليور الشّهيرة.

كان طوْفـا الدوميّـين راسـيَين أسـفلَ المـدارج. وكانـت النسـاء تتـولّى العنايـة بالمحارق ليـلاً، لقاء بضـع آنـاتٍ[1] أو قليـلٍ مـن الطعـام، فيشـترين من الفلّاحـين أعـواد حطَـبِ السـفرجل وبلّـورات الرّاتنـج، وينظّفـن أماكـن المحـارق ويكنسـنَها ويجهّزْنهـا، ويعتنَـين أيضـاً بالموتـى، فيلبسْـنْهم، ويَدهنّهـم بالعطـور ويرشُشـنَهم بالصّنـدل. هكذا أمضـت جيريبالا شـهوراً من التّواصـل مع الموتى. فبرفقـة لِيـل وأنالا الشّرسـة (وكانـوا يدعونها أيضاً لَيـا، تذكيراً بالملـك كارداما الذي تحـوّل إلى امرأة، لطـول قامتهـا ونحولها، وشـفتِها العليـا المخطوطةِ بشـارب) كانـت جيريبـالا، مرتديـةً ثوبـاً بلـون الزُّنْجُفْـر الأسـود[2]، تـذرع المـدارجَ بحثـاً عـن محتَضَريـن. كان عليهنّ أوّلاً الوصـول إلى اتّفاقٍ مع العائلـة، ثـمّ يحملـن الجثّـة التـي بـدأت تتخشّـب، ويغسـلنها في ميـاه النهـر ويرطّبنهـا بالسّـمن، ويعلّقـن بأطرافهـا حزمـاً صغـيرةً مـن خشـب الصنـدل. فكانت المحارِق تُشـعَل في أعـلى المدارجِ عنـد الغسـق، فتنتشر فـوق المدينـة سـحابةٌ مـن الدّخـان الـلّاذع تطـرد الذّبـاب.

---

(1) آنة: عملة هنديّة قديمة.

(2) مادّة كبريتيد الزئبق، وهو معدنٌ صخريّ موجود في الطبيعة، مسحوقه أسود اللّون أو أحمر.

كثُرت الوفيات في ذلك الشّتاء من جرّاء الحرب والأوبئة والمجاعة، وكانت الجثث تصل على عرباتٍ أو زوارقَ كبيرةٍ يقودها ملّاحون سودٌ كانت الناس تخافهم. قالت ليل إنّهم «رجالٌ برّيون يسكنون الجبال، لا دين لهم ولا يعرفون الملح. ويأكلون القرود والببغاوات، وحتّى الثعابين».

كانت أنانتا ترافق جيريبالا أحياناً إلى أدراج المعابد. وكانت تشعر بالخوف في البداية، فتظلّ نصف مختبئةٍ، تنظر إلى أمّها والنساء الدوميّات وهنّ يجهّزن الموتى، شعثاواتِ الشّعر، ووجوههن معفّرةٌ بالرّماد. ثمّ تشجّعت مع الوقت. كان الموتى لا يتحرّكون ولا يقولون شيئاً، ولا يقدرون على الإيذاء، دمى كبيرةً ذابلةً، بعيون مسودّة وشفاهٍ مزرقّة. وحدها أسنانُهم كانت تلمع حين يُغسَلون في مياه النّهر.

حتّى إنّ أنانتا اعتادت الرّائحة النفاذة التي تنبعثُ ما إنْ تبدأ النيران تلعق الجلود المرطبَّة بالسَّمن، مُشعلةً كراتِ القار تحت الإبطيْن.

كانت المحارق تظلّ متّقدةً شطراً كبيراً من اللّيل، بينما النساء منهمكاتٌ في الأشغال:

يكنسن ويرشُشن الماء على الجمر، أو يُضفن الأغصان الجافّة. وكانت لحظةُ خُبوٍّ النيران هي الوقت الأثير عند أنانتا، حيث تستلقي جيريبالا على الأرض قرب الجمر، فتتكوّر الصّغيرة في حضنها وتدفن رأسها تحت شالها الكبير -كما فعلتْ أوّل مرّة حين انتزعَتها أمُّها من الموت- فتشعر بدفء جسدها وتستنشق عطره. لكنّها لا تنام، بل تظلُّ منتظرةً طلوع الفجر كيْ يحرّرها أخيراً من خوفها. كانت تسمع أنفاس أمّها النائمة وطقطقةَ الجمر الذي أخذ يبرد. فتعاودها أصوات الماضي: الحيواناتُ وهي تحوم حول السّور في كاونبور، والقتلة الذين يحفرون ببطءٍ الجدار الطينيّ فيما هي تبحث عن صدر مربّيتها. عندها، تتشبّث بحضن جيريبالا بكلّ قوّةٍ فتوقظها. «ماذا بك؟ ماذا تريدين؟» فتشدّ الصغيرةُ على فكّيها كي لا تصرخ أو تبكي.

ويطلع النّهار أخيراً خَلل الضباب. فترى أطيافَ المعابد كأنّها عمالقةٌ يقفون أمام النّهر. ويَصير في وسعها أنْ تنام أخيراً. وحين تستيقظ تجد نفسها على الشاطئ أمام الطوفَين الرّاسيَين في الجوّ المُشمس.

ولمّا انتهى موسم المطر، جمع الدّميّون ما يكفي من المال على أمل أنْ يمكثوا في فاراناسي، لكنْ ذات يوم جاءهم رجلٌ، أرسله كاهُن مَحارقٍ. كان هذا الرسول قد شاهد رقص النساء، وكان يعلم أنهنّ غجريّاتٌ، من طبقة الشامار المنبوذين، نساءٌ بلا أزواجٍ. ولاحظ، بين النساء، الفتاة الصغيرة ذات العينَين الفاتحتَين والشّعر النحاسيّ، ولمحَ قلادة الإلهة يِلامّا حول عنقها. فنقلَ الأخبارَ إلى الكاهن، ثمّ عادَ حاملاً رسالة إلى الدوميّين: يريد الكاهن شراء الطّفلة ذات العينَين الفاتحتَين وإرسالها إلى مدينة ماثورا، على نهر يامونا، لتتعلّم الرقص. لن ينقصها شيءٌ هناك، وستكون زوجةً لهاري[1] وستجسّد الإلهة رادها الدُريّةَ البشرة. وعرَض على الدوميّين مبلغاً من المال، واعداً الأمَّ بقطعٍ من القماش حصل عليها من الإنجليز.

ضمّت جيريبالا أنانتا بقوّةٍ إلى صدرها. كانت ترتجف غضباً وخوفاً:

- لكنّها مجرّد طفلة!

ابتسم مبعوث الكاهن بهدوء:

(1) هو أحد أسماء الإله الأعلى فيشنو وفقاً للمعتقدات الهندوسيّة، ويعني «القادر على جذب كلّ شيء إليه».

- بالضّبط. فهي في سنّ التعلّم. وأشار إلى القلادة:

- وهي تنتمي بالفعل إلى ماهي[1]. وعاد إلى الهيكل في انتظار الجواب.

لم تقل جيريبالا شيئاً. لكنّها لملمَت حوائجها وركبتْ طوفاً مع أنانتا، قابضةً على مُرديّها الطويل، عازمةً على الاستعانةِ به في حال منعها أحدٌ من المغادرة.

وتبعها الدوميّون. صعدت لِيل وابنها على الطّوف. ثمّ ركبت النساء الأخريات الطّوْف الثاني. واكتفى الهَرِم سينغ بالقول: «على أيّ حال، كنّا سنرحل يوماً ما». لكنّه انحنى غاضباً على المُرديّ، وغادر الطَّوْفان الضّفّة ودخلا من جديدٍ في تيّار النّهر.

(1) ماهي أو بْهومي، وتُعرف بأسماء عديدةٍ أخرى: هي الإلهة التي تمثّل الأرض وفقاً للمعتقدات الهندوسيّة.

24 يونيو

لم أعرف تاريخ هذا اليوم إلّا لأنّه صادفَ عيد ميلاد سوزان. حتّى هي نفسها قد نسيَته. لكنّ جاك أراد الاحتفال به. كان قد أعدّ كلّ شيءٍ في الخفاء. فذهب مبكّراً إلى بلدة باليساد، وتفاوض مع عاملٍ على شراء ثمرة بابايا جميلةٍ وبعضِ البيْض.

سخر جوليوس فيران منه بلطف: «بيْض! لم أعد أعرف حقّاً ما هو!».

أمّا أنا، فبعدَ أنْ احترتُ ماذا أُهديها، أحضرتُ لها قطعةً من المرجان كنت قد كسرتها في قاعِ البحيرة، وقد غلّفتُها بورقةٍ من زنبق القنا الهنديّ، نضِرةٍ ونديّةٍ مثلَ منديلٍ معطر. كانت سوريا هي من أرتني كيف أنتزع الورقة من قلب النّبتة دون أنْ أتلِفها، كي أستخدمها كضمادة.

كانت سوزان مستلقيةً في الغرفة المعتمة وعيناها مفتوحتان على اتّساعهما، فقد عادت إليها الحمّى ليلةَ أمس، وكان وجهها محتقناً وذراعاها وساقاها متشنّجةً من تصلّب المفاصل. التمعت عيناها حين رأت الهدايا:

- شكراً، شكراً جزيلاً لكما.

أعجبها البيض والبابايا، ثمّ نظرَت إلى المرجان الأرجوانيّ الجميل، السّام، وهمست:

مكتبة
t.me/soramnqraa

- يا لها من زهرةٍ جميلة.

- نعم، لكن عليكِ ألّا تلمسيها وإلّا حرّقتك.

وضعتُ قطعةَ المرجان على حجرٍ مسطّح، فصبغها ضوء الصباح بلونٍ مائلٍ إلى الزّرقة قليلاً، كما لو أنّها قد تشرّبت ماء البحيرةِ.

بعـد لحظـةِ الفـرح بعيـد الميـلاد، عـاد القلـق إلى جـاك. كانـت سـوزان ترتجـف مضطّربـةً. أرادت النهـوض. وقالـت:

- أنا عطشانة، عطشانةٌ جدّاً.

ناولها جاك الكوب، فتراجعت مرتعشةً من الاشمئزاز:

- لا، ليس ماء الصهريج الفظيع هذا.

قلت:

- سأحضر لك بعض الماء العذب. أعرف مكان النّبع.

أراد جاك أن يأتيَ معي، فقلت له متحدّياً:

- أمتأكّدٌ أنت؟ إنّه على الطرف الآخر من البركان.

تردّد. فشعرتُ بغضبٍ يتملّكني:

- إنّك لن تتركها هكذا، فقط لإرضائهم؟

بحثتُ بحماسٍ شديدٍ عن آنيةٍ ودلاء. ثمّ اتّخذ جاك قراره:

- حسناً، سأرافقك.

اجتزنـا سريعـاً الأجمـات وصـولاً إلى المقـبرة. ثـمّ صعدنـا منحـدرَ الفوّهـةِ الشّـماليّ. كان جـاك يتبعنـي بمشـقّة مُثقَلاً بدلْويه، فكنت أسـمع ورائي أنفاسـه المتعَبـة بسـبب الرّبـو. لكنّني لم أشـعر بالشـفقة نحـوه. كانت الشـمس لاذعة، وشـفةُ الـبركان السـوداء تنتصب جـداراً من فوقنـا. لم يكن يُسـمع أيُّ صوتٍ، سـوى ارتطـام الرّيـح في الصخـور البركانيّـة. بـدا الأمـرُ وكأنّنـي أعـرف كلّ صخـرة وشَـقّ، وكلّ شـجيْرةٍ شـائكة، كـما لـو أنّني مشـيْت في هذا المشـهد من الطّبيعـة أعوامـاً وأعوامـاً، دون أنْ أتوقّـف أبداً.

تسـلّلْنا بصمـتٍ بـين الصخـور، مثـل لصَّـين ذاهبَـينِ لسرقـةِ الميـاه المحرّمـة مـن باليسـاد. لم أسـتطع إلّا أنْ أتصـوّر الأمـر عـلى هـذا النّحـو.

ممّــن كنّــا نختبــئ؟ مــن المســتبدّ فــيران وصاحبــه، القابعَــين في أنقــاضِ المنــارة مســلحَين بمنظارهمــا، وبمسدّســهما المرخّــص وجهازهمــا الهيليوتــروب المزيّــف؟ أمْ مِــن الــسّردار ومتعهّــد عمّالــه اللذّيــن يســيران عــلى طــول الشــاطئ وفي يــدِ كلّ منهــما عصــا، وفي عنقــه صافــرةٌ معلّقــةٌ مثــل تعويــذة؟

لقــد حوّلتنــا الأيّــام القليلــة التــي قضيناهــا في الكرنتينــة إلى مجانــين، نرتجــف مــن أجــل قليــلٍ مــن المــاء العــذب، وقليــلٍ مــن الأرزّ، ونترصّــد ظهــور الأعــراض القاتلــةِ عــلى الآخريــن، البقــعِ عــلى الوجنتَــين والكدَمات، ونزيــفِ الشّــفتين، واتّقــاد العيــون مــن الحمّــى. وحدَهــم المنبــوذون ظلّــوا عــلى طبيعتهــم، أولئــك الذيــن يحيطــون ببيْــت ســورياڤاتي، خــدّامُ المحــارق، مــن يتجوّلــون ليــلاً بأســمالهم الســوداء، مثــل أطيــافٍ شــبحيَةٍ لا تنتمــي إلى أيّ عــالم.

- انظر.

أطلعــتُ جــاك عــلى سرّ المــاء الــذي يتدفّــق بــين البازلــت، تحــت غطــاءٍ مــن أشــجار النيّــمِ الهنــديّ والنبــات المتســلّق والخطميّــة. وكانــت نبتــةُ داتــورا ضخمــةٌ بأجــراسٍ ورديّــةٍ تنمــو فــوق الــوادي باســطةً ظلّهــا الكبــير عــلى المــاء. المــكان جميــلٌ جــدّاً حتّــى أنّنــا توقّفنــا هنيْهــةً، دون أنْ نجــرؤَ عــلى الاقــتراب. لا شيءَ يُــرى عنــد ذلــك الجــزء الســفليّ مــن الــوادي الضيّــق الشــبيه بشــقٍّ بــين صخــور الــبركان، غــيرَ السّــماء الزرقــاء الداكنــة، لا البحــرُ ولا بلــدة باليســاد. وللحظــةٍ هُيّــئ إليّ أنّنــي في عزبــة آنّــا، فيــما رواه لي جــاك عنهــا، ذلــك الــوادي المظلــم حيــث كان الأطفــال يســتحمّون بالمــاء البــارد صباحــاً.

ولا بدّ أن جاك كان يفكّر هو الآخر في عزبة آنّا. ركعَ أمام النّبع، وخلع نظّارته، ثمّ مرّر يدَيه المبلّلتَين على وجهه طويلاً ومسّد شَعره. شربنا معاً، انحنَينا فوق الماء مثل حيوانينَ، وكان عذباً بارداً، وخفيفاً جدّاً في حلقَينا.

ملأنا الدّلاء، وتسلّقنا سفح الوادي عائدَين إلى الكرنتينة، وكان في تلك اللّحظة أنْ لمحتُ طيف سورياڤاتي أسفلَ السّيل في ظلّ أشجار التورنفوريّة. كانت تقف ساكنةً، ووجهُها محتجبٌ بوشاحها الأحمر الكبير. وكانت تنتظر، كأنّها تريد أن تسألَني شيئاً. تركْتُ دلاء الماء على الأرضِ لأركَض نحوها، لكنّ جاك صاحَ عليّ بصوت غاضبٍ قَلِقٍ أوْقفني: «ليون!». ثمّ أردف قائلاً: «ليون! سوزان تنتظرنا، فلنسرع!» وما هي إلّا لحظةٌ حتّى اختفت سوريا.

لم نكن قد تحدّثنا أنا وجاك عن سورياڤاتي قطّ، لكنّني أعرف أنّه يعرفها. ولا بدّ أنّه يعرف أيضاً أنّها ابنة أنانتا، تلك المرأةِ الغامضة التي تحكم بلدة المنبوذين في الطّرف الآخر من الجزيرة، قالت لي سوزان ذات مرّة ممازحةً «راقصتُك الهنديّة». هكذا تُسميّها، لكنّني أحببتُ هذه التسميةَ كثيراً. أعتقد أنّها تليق كثيراً بسوريا، فهي رشيقةٌ مثلها، ومثلَها جميلةٌ أيضاً. ولا بدّ أنّ المسنّ ماري قد تحدّثَ عنها وعن أمّها، وعن بيوت المنبوذين حيث كنت سأقضي تلك اللّيلة.

ممَّ؟ ممَّ يخافون؟ كان جاك يمشي سريعاً متخبّطاً بين الشجيرات، فيتعثّر بالحجارة ويسكب نصف الماء. ثمّ لحقتُ به عند خليج الأضرحة، فوجدته جالساً في المقبرة، وعلى جانبَيه دلوا الماء. بدا مُنهكاً، بلحيته المُهمَلة وشعره الطويل الملتصق بعنقه، وقميصه الممزّق

وحذائـه الـذي ارْمَـدّ لفـرطِ مـا تغـبرّ. إنّـه الآن أشـبه بروبنسـون في جزيرتـه.

- ألستَ بخير؟

- بلى، بلى، أنا بخير. لكنْ أريد أنْ أرتاح قليلاً.

أتذكّـر أزمتـه الصحّيـة الأولى في شـتاء عـام 1881 في باريـس، عندمـا مـرض والدنـا وذهبنـا للعيـش مـع العـمّ وليـام. كان جـاك يختنـق، استفقتُ ليـلاً عـلى صـوت نفَسـه القـويّ. لفّتـه العجـوز مـاري، خادمـةُ العـمّ، ببطّانيـة، وجعلَتـه يستنشـقُ الـدّواء ذا الخلطـة السـحريّة، مزيجـاً مـن القثّـاء الهنـديّ ذي الرائحـة الكريهـة والريحـان، كانـت قـد جلبتـه معهـا مـن موريشـيوس، ثـمّ أخـذَت تفـرك ظهـره. كان شـاحباً جـدّاً، فاغـرَ الفـم مثـل سـمكةٍ تختنـق. خفـتُ كثيراً عليـه. وأتذكّـر مـا أخـبرني بـه لاحقـاً: قـالَ إنّـه أرادَ أنْ يضحـك لمّـا قُلـتْ: «لا أريـده أن يمـوت، لا أريـده أن يمـوت».

جلسـتُ إلى جانبـه عـلى أحـد القبـور. البحـر الأزرق الدّاكـن أمامنـا، والأمـواجُ تنسـاب بهـدوءٍ عـلى حاجـز الفوقـس[1] في قـاع الخليـج، ورائحـةٌ قويّـة مُسـكِرة تعبـق مـن حولنـا.

- عليـك أنْ تـأتيَ معـي إلى باليسـاد. إنّهـم بحاجـة إليـك. أنـت الطّبيـب الوحيـد، وهنـاك الكثـير مـن المـرضى، ليـس لديهـم دواء، ليـس لديهـم شيء.

لم يـردّ عـلى الفـور. مسـح نظّارتـه في حركـةٍ آليّـةٍ بمنديلـه المُتّسـخ، دون أنْ يحـترس مـن زجاجهـا الـذي كسـره المحتجّـون في ذلـك اليـوم.

- أجـل، أعتقـد أنّـي يجـب أن أذهـب إلى هنـاك. ثـمّ نهـض وتنـاول دلوَيـه، وواصـل السـير نحـو الكرنتينـة.

(1) نبات أخضر خفيف يقذفه البحر.

لمّا رأت سوزان الماء، جثت على ركبتَيها وغمست يدَيها في الدّلو وغسلَت وجهها وما وراء أذنَيها بعناية، ثمّ مسحت بطرف فستانها على صدرها وتحت ذراعَيها. كانت شاحبةً هزيلة. قال جاك:

- إنّه نبع. عند الهنود نبعٌ بالقرب من باليساد. عليكِ أنْ تذهبي لرؤيته حين تتعافين، ليون سيصحبك إليه.

- أين هو؟ هل هو بعيد؟ أودّ الذهاب إلى هناك حالاً.

كانت تنتفض من الحُمّى. أجبرها جاك، بإيماءاتٍ بالغةِ اللّطف، على العودةِ إلى الفراش، متحدّثاً إليها كأنّها طفلة:

- ليس بهذه السرعة يا عزيزتي. فهو بعيد جدّاً، والشّمس لاهبة.

فقالت بعينَين دامعتَين:

- من فضلك. فأنا في أمسّ الحاجة إلى ذلك، أنت لا تعرف. أحسّ بشيءٍ كالنّار في أعماقي. أؤكد لك أنّني أستطيع المشي، خذني إلى هناك.

لم أستطع تحمّل صوتها المتوسّل ودموعها. فأشحْتُ ببصري بعيداً نحو الباب. ثمّ قُلت:

- سأحضر لك دلواً آخر إنْ شئتِ.

فغلبها البكاء:

- كلّا لا أريد. ما أريده هو أنْ أذهب إلى هناك وأرى النّبع. سأموت إنْ لم أفعل.

تشبّثَت بقميصِ جاك، متراجعةً كأنّها على وشك السقوط إلى الخلف. أعطاها جاك الكينين لتشربه، ووضع قطعةَ قماشٍ مبلّلة على

جبهتهـا. كانـت ترتجـف. ثـمّ ذهبَت إلى فراشـها وأغمضَـت عينَيهـا. جلـس جـاك بجوارهـا والقماشـةُ المبلّلـة في يـده. وقـد بـدا عليـه التّعـب.

وسـمعتُه يتسـاءل هامسـاً: «متـى سـيأتون لنقلنـا؟» ثـمّ يجيـب في الوقـت ذاتـه: «لـن يأتـوا أبـداً!» كان صوتـه مكتومـاً، يخلـو مـن الغضـب. ثـمّ أوْمـأ إليّ بـأنْ أتوقّـف عـن الـكلام. غطّـت سـوزان في النّـوم. كان قـد خلـط لهـا صبغـة الأفيـون بمسـحوق الكينـين، كـي يخفّـف آلام الحمّـى المتصاعـدة.

غـادرتُ بهـدوء. في الخـارج، كانـت الشـمس تـضيء جـدران بنايـات الكرنتينـة السـوداء المواجِهـة لجزيـرة غابريـال، فبـدت كأنّهـا أبـراجُ مراقبـةٍ قديمـة.

تراجعـت الشـمس، وغطـت الغيـوم السّـماء شـيئاً فشـيئاً. كنـت في مقدّمـة القـارب الـذي كان يجتـاز البحـيرة المتضخّمـةَ بفعـل المـدّ. شـغل جـاك وجوليـوس فـيران المقعديـن، وأخـذ مـاري المسـنّ يدفـع المُـرديّ ببـطء. كان وجهُـه المتـآكل مـن الجـدري خاليـاً مـن أيّ تعبـير، وبـصره المُغبّش مرفوعـاً نحـو السـماء، مثـل ضريـر. وكان يمضـغ بـلا توقّـف ورقـة التنبـول التـي أدمَـت لثّتـه. لا نـراه يـأكل أو يـشرب أبـداً. ولعلّـه لا يقتـات سـوى عـلى جـوز الفوقـل (النّخـل الهنـديّ) الملفـوف في ورقتـه الخـضراء الداكنـة، كنـزهِ الوحيـد المُخبّأ في حقيبتـه الصّغـيرة الباليـة التـي تلازمـه أينـما ذهـب، مانحـةً إيّـاه هيئـةً ظريفـةً؛ هيئـةَ تاجـر رحّالـةٍ غرقـت سـفينته. يقـول جوليـوس فـيران إنّـه يـشرف عـلى عمليّـاتِ تهريـبِ بضائـع غـير شرعيّـة إلى جزيـرة غابريـال، مثـل التّنبـول والحشـيش والكحوليّـات التـي يسـلّمها لـه الصيّـادون في موريشـيوس ليـلاً، ويبيعهـا بالمُفـرّق.

كان هـذا العبّـار المسـنّ، واقفـاً في مؤخّـرة القـارب، وإحـدى قدمَيـه عـلى الحافـة، يضغـط عـلى المُـرديّ طويـلاً كـي يدفـع الجؤجـؤ إلى الأمـام، منحرفـاً بـه قليـلاً ليحـاذي الشّـعاب المرجانيّـة. لم أكـن قـد عـدتُ إلى الجزيـرة منـذ اكتشـفتُ فيهـا، في ذلـك اليـوم، آثـار المحرقـة التـي التهمـت جثتـيّ نيكـولا والسـيّد تورنـوا. وحـين طلبـتُ مـن جـاك الإذن بمرافقتـه، رفـض جوليوس فـيران في البدايـة، قائـلاً إنّ جزيـرة غابريـال ينبغـي أن تظـلّ مقتـصرةً عـلى المـرضى الذيـن لا أمـل في شـفائهم وعـلى مـن يتولّـون رعايتهـم. هـزّ جـاك كتفَيـه وأذن لي بالقـدوم. وشـدّد علـيّ قائـلاً: «يجـب ألّا تدخـل المخيّـم، فهـذا أمـرٌ بالـغ الخطـورة».

انسـاب القـارب رويـداً عـلى الميـاه الشّـفيفة، الزرقـاء والرماديّـة. كنـت منحنيـاً إلى الأمـام أشـاهد الشّـعاب المرجانيّـة تتتابـع كالغيـوم. كانت مسـيرةً طويلـةً جـدّاً، كأنّهـا عبـورٌ بـين عالمـين.

عرفـتُ بمشـقّةٍ ملامـحَ الجزيـرة. لم ألمـس تغيـيراً حقيقيّـاً، لكـنْ ثمّـة شيءٌ مختلـفٌ تعـذّر علـيّ فهمـه. ربّـما لأنّ العـمّال قـد نظّفـوا الـدّرب المفـضي إلى صهاريـج الميـاه. ولمّـا دنوْنـا من الأكـواخ، أقبل هنـديٌّ للقائنـا. فإذا بـه الرّجل نفسـه الـذي حسِـبته مـن قبـلُ متعهّـد العـمّال لـدى الشّـيخ حسـين، رجـلٌ طاعـنٌ في السّـن، نحيـلٌ لا يرتـدي سـوى قطعـة ثيـاب واحـدة يربطهـا مثـل مئـزر، أسـودُ حليـق الـرأس، طُبعـت عـلى جبينه علامـةٌ كبـيرةٌ بصبغـة المُغرة. أمّـا الملمـح الحديـث الوحيـد في هيئته فهـو ارتـداؤه نظـارةً فولاذيّة بعدسـتَين دائريّتـين، منحَـت عينَيـه تلـك النظـرة الحـادّة لطائـر هَـرِم. إنّه راماسـاومي.

حدّثـه جـاك في البدايـةِ بالكريوليّـة: «Ki ou fer?» (كيـف الحـال؟). فـردّ عليـه المُسـنّ بلغـةٍ إنجليزيّـةٍ ممتـازة. اقـتربَ جـاك وفـيران مـن المخيّـم.

كانت خيمةٌ من الكتّان المشمّع قد نُصبتْ إلى الشّمال من الكوخ، محاطةً بالشّجيرات والصخور ومشكّلةً ظُلّة. قال راماساومي إنّ الحرّ شديدٌ أثناء النهار، حتّى أنّ المرضى ينقلون أسرّتهم إلى ظلّ الخيمة لاستنشاق بعض الهواء.

ورغمَ الحظْر، مررْتُ من أمام الحارس، ودخلتُ إلى الظلّة دون أنْ ينتبه لي. فقد كان مُنهمكاً بتسخين الماء في قدرٍ سوْداءَ نُصِبَتْ على أثافٍ. كانت عشرةُ أجسادٍ، أكثرَ أو أقلّ، تستلقي تحت الخيمة، رجالٌ ونساءٌ يتّكئ بعضهم على مِرفَقه ناظراً إلى الأمام، فيما يتلفّع بعضهم الآخر بملاءاتٍ مُبقّعة، كأنّها أكفان. رأيت الوجوه المتورّمة والشفاه المسودّة والكدمات. وكانت رائحةٌ كريهةٌ تنبعث مع كلّ هبّةِ ريح، رائحةُ موت.

كانوا هنوداً كلّهم. ولمّا ولجتُ إلى البيت مجتازاً الظلّة، فقدتُ البصر لبضع ثوانٍ، ثمّ سمعتُ أنفاس جون البطيئة، عرفتها من فوري، إنّه الصّوت نفسه الذي كنت أسمعه ليلاً في الكرنتينة قبل أن يغادر. سرتُ داخل الكوخ، فإذا بصوت فيران الفاسد ذي النبرة البغيضة يرنُّ من خلفي. إذ صاح قائلاً: «توقّف! لا تذهب أبعد من ذلك!» تابعتُ سيري. فلمحتُ ملاءتَين لاحتا في الغبش الخانق بقعتَين شبحيّتَين.

كانا هناك، جنباً إلى جنب: جون ميتكالف مُمدّداً على الأرض. وجهُه مثل قناع، ونظرته تشعّ بلَهبٍ غريب يُذكّر بالجنون. كان رأسه الثقيل مائلاً إلى الوراء، وفمه المتورّم يسحب الهواء ببطءٍ فينبعث منه صوْتٌ أشبه بتمزيق قماشةٍ. وقد تشقّق جِلدُ جبهته وصدرِه ويدَيه في بعض المواضع مخلّفاً نُدباً. ثمّ لمحتُ سارةَ إلى الخلف منه. وجهها

متشنّجٌ مثله، وعيناها نصف مفتوحتينَ قد انطفأ بريقهما. كانت متكئةً إلى الجدارِ لا تبدي حراكاً، فظننتُ للحظةٍ أنّها ميّتة. ثمّ رأيت صدرها يرتفع كأنّها تتنهّد. لم تكن مريضةً وإنّما شاردة الذّهن.

تراجعتُ ببطء. شعرتُ بالدوار وتخيّلت أنّي سقطت، فأمسكَني جاك وقادني إلى الخارج. ساعدني في الجلوس على صخرةٍ، وأسندتُ ظهري إلى أحد أعمدة الخيمة. «سيموتون... سيموتون...» هذا كلّ ما أمكنني قوله. أقبل جوليوس فيران. رأيت حذاءه المغبرّ أمامي. كنت أكرهه كما لو كان متورّطاً على نحوٍ ما بما حدث لجون وسارة. كأنّه منبع ذلك الشرّ.

لم يقل جاك شيئاً. قادني إلى الشاطئ الأبيض حيث يرسو القارب. فترك ماري المسنُّ ظلّ الكزورينة كي ينقلني إلى الطّرف الآخر. شعرت باشمئزازٍ شديدٍ من نفسي، بل حتّى بالغثيان، إذ خانَتني الشجاعةُ فلمْ أقوَ على مواجهة الواقع. تقدّم القارب عبر البحيرة ذات الزّرقةِ المُشعّة، تحت دوّامةِ طيور رئيس البحر في غدوّها ورواحها المُهتاجَين.

بدت ليَ البيوت السوداء في الكرنتينة أشدّ وحشةً وعدوانيّةً من ذي قبل. فقد ألهبَت الشمس الساطعة جدران البازلت، وجفّفتْ أشجارَ الكاذي والصبّار في الأجمات المحيطة. ما من نبتةٍ مألوفةٍ هنا، ما من زهرةٍ ولا شُجيرة عَطِرةٍ. لا شيءَ سوى أوراق الدّيداء الكثيفة، التي تضغط وتخنق مثل الحيوانات.

سرتُ نحو البيوت وأنا أفكّر في بلدة العمّال وأكواخ المنبوذين على الطرف الآخر من الجزيرة، بطرقاتها النّظيفة، وحدائقها المزروعة بالحبق

والبطاطس والقصب وقرع الشايوت والبامية، وبمزارع النخيل وجوز الهند أعلى البلدة. وأحسستُ أنّ موطني هناكَ، لا هُنا في هذا المكان البريّ المهجور، الشبيهِ بمعسكرٍ مؤقّتٍ لناجين من الغرق أبديّين.

كانت سوزان تنتظر في الكوخ المعتم، وتتّطلع نحو الضّوء المتسلّل من الباب. نظرَت إليّ وكأنّها لا تعرفني. وقالت بصوتٍ أجشّ غريب: «هل هم هنا؟ هل حضروا؟» بدت وكأنّها لا تعرف بالضبط عمّن تتحدّث، وكرّرت في انفعالٍ: «حسناً، أجِبني! هل جاؤوا لاصطحابنا؟ أخبرَني جاك أنّ...».

ثمّ سكَتت. كان صوْتها ثقيلاً، فقلتُ في نفسي إنّها صبغة الأفيون. ثمّ بدأَت جملةً أخرى: «الهنود ليسوا خدّامنا ولا عبيدنا». ولم أفهم ما قصدته.

إنّها لا تختلف عن جاك وبارتولي وفيران، فهي تنتظر فقط عودة القارب، ولا تتوقّف عن التفكير في الأمر، هذا هو الأمر الوحيد الذي يعنيها، أن تهرب، وتبتعد عن كلّ شيء. وهذا ما كان يتقّد في عينَيها: حمّى وجنون.

ولمّا رأتني لا أحير جواباً، استوت جالسةً، فتبدّت عُنُقها الرّفيعة بشريانَيها المشدودَين، والتمعت عيناها بشيءٍ من الكراهيّة لم أصدّق أنّها قادرةٌ عليه، كما لو كنت أنا من يقف حائلاً بينها وبين من سيأتون لاصطحابها.

- أنت لا تفهم، لا يمكنكَ... أنت، لا يهمُّكَ، لا تعرف ماذا يعني أن يكون جاك سجيناً هنا، وأنْ يكون عاجزاً عن تقديم أيّ شيءٍ لِمَن يعانون مِن حوله. أنتَ، لا تفكّر إلّا في

تلـك الفتـاة، تلـك الهنديّـة، أنـت تخوننـا معهـا، تخـون جـاك معهـا. إنّهـا تكرهنـا، تريـد لنـا المـوت!

وانفجـرت باكيـةً، ربّـما خجـلاً ممّـا قالـت، ثـمّ اسـتدارَت نحـو الجـدار، فلـم أعـد أرى سـوى كتلـة شـعرها المتشـابك المتلبّـدِ مـن فـرطِ التعـرّق. وسـمعتُ صـوت أنفاسـها المختنقـة. لم أعـرف مـاذا أفعـل، فخرجـتُ متقهْقـراً بهـدوءٍ، وطيـفُ سـوزان يتلاشـى في الضـوء الخافـت رويـداً رويداً، حتّـى لم يعـد سـوى بقعـةٍ شـاحبةٍ عـلى الجـدار الأسـود.

كانـت الشـمس تصـبُّ أشـعتها عـلى أوراق الـكاذي الحـادّة، وعـلى الصخـور والبحـر، وفي البعيـد كانـت تطفـو الجـزرُ العتيقـةُ التـي تشـكّلت مـا قبـل الطوفـان الأعظـم: جزيـرة رونـد، وجزيـرة أو سـيربان، وجزيـرة غابريـال. انتابنـي شـعورٌ بالوحـدة والضّيـق، ولم يعـد في وسـعي البقـاءُ في بنايـات الكرنتينـة. أردْتُ أنْ أكـفّ عـن التفكـير بجـون وسـارة ميتكالـف، وبالأجسـادِ المتلفّعـةِ بأغطيتهـا تحـت الظلّـة. ومـا عـدتُ راغبـاً في مواجهـة نظـرة جـاك الباهتـة، خلـف نظارتـه الزجاجيّـة المكسـورة، ولا أن أرى عبوتـه الأزليّـة مـن مطهّـر الكوندويـز السـائل. ركضـتُ بأقـصى سرعـةٍ عـلى طـول الشـاطئ نحـو المقـبرة المهجـورة. وعزمـتُ عـلى أنْ أواصـلَ الـدّرب حتّـى الكهـف.

أُحـبّ وقـت المسـاء في خليـج باليسـاد، لحظـةَ تعلـنُ صافـرة السّردار نهايـة اليـوم، ويصـدح صـوت الأذان، وتشـعّ السّـماء بلـونٍ أصفـر. هـي لحظـة هـدوءٍ عظيـم، أشـبهُ مـا تكـون بالسّـعادة، أودّ أنْ أنسـى فيهـا كلّ شيء، وأشـعر برغبـةٍ قويّـةٍ في أن أتقاسـمها مـع جـاك وسـوزان، كـما لـو كنـا معـاً عـلى شـاطئ هاسـتينغز، نشـاهد اللّيـل وهـو يرخي سـدوله عـلى البحـر. أودّ

أن أقتلعهما بعيداً عن جدرانِ الكرنتينة السوداء ومن جزيرةَ غابريال، هما، وجون وسارة- وحتّى بارتولي وفيران البغيض.

لمَ يحبسون أنفسهم؟ ولماذا اخترعوا القوانين والمحظورات التي تحرمهم هذه السّكينة؟ الآن أدرك أنّنا احتجزنا أنفسنا بأنفسنا، ولا يدَ لأحدٍ غيرنا في ذلك. لا علاقة للإنجليز بهذا، وإشاراتُ فيران من أعلى قمّته، مسلّحاً بجهازه الهيليوتروب ومنظاره، لم تجلب أيّ تغيير أو تعديل. إنّ خوفنا هو الذي يحتجزنا على هذه الصخرة، وهو الذي يعزلنا. وكلّ مريضٍ جديدٍ يعيدنا خطواتٍ أخرى إلى الوراء، ويُطيلُ لسانَ البحر الذي يفصلنا عن موريشيوس. على أنّني لا أستطيع في الوقت ذاته أن أنسى ما اقترفَته تلك الأقليّةُ الحاكمة، أعضاء الحكومة الجماعيّة أولئك الذين أنشؤوا هذا المخيّم كي يحبسوا المهاجرين فيه. والآن أصبح جوليوس فيران أداةَ العمّ أرشمبو ورسوله. ربّما لن نرحل من هذا المكان أبداً، وربّما قد حُكِمَ علينا بالعيش فيه حتّى يومنا الأخير، منقسمين بين هذه الحدود المصطنعة، بين خطابات هذا الجوفاء، وصافرات ذاك. وما الذي سيكونه فيران والشّيخ حسين إنْ نحنُ رحلنا؟ لا شَيء على الإطلاق، سيعودانَ ما كانا عليه من قبل، الأوّلُ حارسٌ بحريّ عند أصحاب مصانع السّكّر الأثرياء في موريشيوس، والثّاني راكبٌ من بين ركّابِ آخرين على متن باخرة مِساجيري، «ثمرةٌ جافّةٌ» ومغامرٌ فاشلٌ يتحاشاه الجميع.

ما إنْ اجتزتُ الأجماتِ فوق المقبرة القديمة، وعبرتُ حقل الحجارةِ البازلتيّة تحت شفة البركان، حتّى وجدتُني فجأةً في بيتي، في موطني الذي طالما حلمت به، عالمِ سورياڤاتي الذي أرى فيه أوّل ما أرى

الأدخنةَ ومواقد الجمرِ، حيث تُخبَز فطائرُ العدس، وتُطهى قدور الأرزّ، وتعبقُ رائحة الحبق والكزبرة، وكذا رائحة خشب الصندل في المحارق. ثمّ أسمع الأصوات: تصايُح الأطفال ونباح الكلاب وثغاء الجديان في الحظائر. وأعرف جيّداً أين هي سوريافاتي. فإلى الجنوبِ من جرفِ البركان، وعلى مبعدةٍ من الدّربِ، يقع كهفنا. هنالك في وِسعنا أنْ نرى دون أنْ نُرى، بعيداً عن مرمى بصرِ السّردار، وعن العدسة التي يراقب بها المستبدّ حدوده الخياليّة.

إنّه كهفٌ سحريّ. هذا ما قالته لي سوريا حينَ حدّثتني عنه أوّلَ مرّة. وهو تجويفٌ منحوتٌ في البازلت، يحميه جدارٌ من نبات الحشف والشجيرات الشائكة. وقبل الولوج إليه، تُقدّم سوريافاتي القرابين للإله ياما سيّد الجزيرة، ولأخته يامونا. فتضع في ورقةِ شجرٍ كعكاتِ الأرزّ وفطائرَ العدس، أو قطعَ جوز الهند التي تفركها بالفلفل الحارّ. تقول إنّه يجب الخلط دوماً بين الحلو والحارّ، وبين العذب واللاّذع، حتّى يكون القربان جيّداً. يأتي الإله ياما من العالم الآخر عبر فوّهة البركان، وفي كلّ ليلة تمرّ رسولته الخفيفة مثل نسمةٍ، فتقشعرّ أبداننا. وقد أحسستُ بهذا أوّل ليلةٍ جلستُ فيها قرب المحرقة، حين رسمَت سوريا على وجهي علاماتٍ برماد الموتى، فلم أعد أخافهم.

جلستُ مع سوريا عند مدخل الكهف نشاهد دخان المحارق المتصاعد في وجه الشمس. البحر معتمٌ أرجوانيّ، والأفق يشقّ السماء المُبهرة.

هنالك على الدّوام بعض خفافيش تخرج من الكهف متدافعةً. ويبدو لي أنّ رؤيتها لم تسعدني يوماً بقدر ما تفعل الآن. يستهويني

الشّفق حينَ أتأمّله من هذا التجويف، في ظلّ خليج باليساد، ويدُ سورياڤاتي الناعمة القويّة في يدي، فأشعر بدفئها يسري في راحتي ويتغلغل في كامل جسدي.

حدّثتني يومها عن يوم ميلاد أمّها، حينَ غطّستها جدّتها في مياه نهر يامونا لتغسلها من دماء ضحايا كاونبور. في ذلك اليوم وهبَتْها اسمَها، ونطقته عدّة مرّات، أنانتا، أنانتا، أيّتها الأبديّة! تُردّد سورياڤاتي هذا الاسم بلا كَلَل، وتقصّ الحكاية عليّ، مثلما قصّتها أمّها عليها، ومن قبلُ جدّتها على أمّها، الحكايةَ الأصدق والأجمل في العالم.

- جدّتي جيري ما زالت تحيا هنا، فحين أحرقوا جسدها، ظلّت روحها هنا على هذه الجزيرة. لذلك أرادت أمّي أن تأتيَ إلى هنا مثلها، والآن هي على أبواب الموت.

قالت ذلك بلا مبالغةٍ، وببساطةٍ تامّة. وكانت هذه أوّلَ مرّةٍ تتحدث فيها عن موت أمّها.

- لمَ تقولين هذا؟ أمّك لن تموت.

نظرَت سورياڤاتي إليّ. وقد التمع في عينيَها بريقٌ حادّ. ثمّ قالت بنبرةٍ ساخرة:

- ماذا، ألم ترَ بنفسك؟ إنّني متيقّنةٌ من أنّ أخاك الطبيب سيعرف هذا على الفور. فأنتم، أيّها السّادة البيض، تستطيعون رؤية هذه الأشياء جيّداً.

- ماذا تقصدين؟

- أمّي مريضةٌ منذ سنوات، والمرض ينهش أحشاءها. أخبرها الطبيب في مشفى بور لويس أنّه ما من شيءٍ يمكن فعله. قال

إنّ أمامها بضعة أشهرٍ فقط. ذهبتْ لزيارة مداوٍ بالأعشاب، فشرِبَ جُرعةً من البهانغ[1] ثمّ كرّر ما قاله لها الطبيب. لكنّه أعطاها أيضاً بعض أوراق الشّجر لتخفّف آلامها. حدث ذلك العامَ الماضي. فأرادت أنْ تأتيَ إلى الجزيرة، لتكون بجوار أمّها، وتلقاها بعد وفاتها.

بدأَت العتمة تجتاح الكهف. فأشعلَت سوريا مصباحاً أرضيّاً صغيراً.

- وأحضرَتْكِ إلى هنا؟

- لم تكن تريد منّي أن آتيَ معها. أرادت أن أعود إلى الرّاهبات في ماهيبورغ، هنالك حيث نشأْت. لكنّني أردتُ مرافقتها. فكما ترى، ليس لها ابن، وسأكون أنا من تشعل محرقتها حين تموت.

سارت إلى حافة الجرف، لتطلّ على بلدة باليساد. ثمّ قالت فجأةً بنبرةٍ قَلِقة:

- أنتَ وحدَكَ من يعرف بالأمر الآن. أمّي لا تريدني أن أتحدث عنها. فهي لا تريد أن تُؤخَذ إلى الجزيرة. لن تخبرَ أحداً، أليس كذلك؟ لن تؤذيَها؟

أمسكتُ بيدها بدوري، وضممْتُها بشدة. تأمّلتُ وجهها وجبهتها المستقيمة التي تبدو مليئةً بمعرفةٍ غامضة. وقلت جادّاً:

- كلّا يا سوريافاتي، لن أخبر أحداً.

ربّما كانت تتحدّث إلى نفسها، دون أنْ تنتبه إليّ:

(1) Bhang: خلطة غذائيّة في شكل شرابٍ أو مسحوق تُحضّر من أوراق القنّب الهنديّ (الحشيش).

- كـم أودّ أن أعـرف مـن هـم والداهـا الحقيقيّـان، الإنجليزيّـان اللّـذان قُتـلا في كاونبـور. مـا اسـمهما، ومـن أيـن أتيـا؟ هـذا هـو الـشيء الوحيـد الـذي ينقصنـي. يبـدو الأمـر كأن جـزءاً منّـي قـد مـات إلى الأبـد. أودّ لـو ...

لاحظـتُ أنّهـا تبكـي في صمـتٍ، سـاكنةً. وضعـتُ ذراعـي حـول كتفَيهـا وعانقتهـا. لم أكـن أعـرف مـاذا أقـول لأواسـيَها. قلـتُ كلمـةً أعرفهـا باللّغـة الهنديـة، «بِهِـن»، «أخيّتـي»، فأضحكتُهـا. ابتعـدت عـن الحافـة وأمسـكت بيـدي.

- تعالَ، علينا النّزول قبل حظر التّجول.

ولّمـا وصلنـا باليسـاد، تخلّفـتُ عنهـا قليـلاً حتّـى لا يرَونـا معـاً، اعتقـدْتُ أنّ هـذا مـا تريـده. فقالـت لي:

- والآن؟ ماذا تنتظر؟

كانـتْ أوّلَ مـرّة ندخـل فيهـا البلـدة معـاً. سرنـا في الشـارع الرئيـسيّ، سـوريا بقامتهـا المسـتقيمة ومِشـيتها اللّامباليـةِ الشـامخةِ نوعـاً مـا، عـلى طريقـةِ الغجـر في شـوارع مرسـيليا، بوشـاحٍ أحمـرَ كبـيرٍ يهفهـف على شـعرها وكتفَيهـا، وسـترةٍ قصـيرةٍ تُظهـر بـشرة خصرهـا الدّاكنـة، وتنّـورةٍ طويلـة مبرقشـة لوّحتهـا الشـمس. كانـت حافيـةً وكاحلاهـا الدّقيقـانَ مطوّقـان بخلخالَـين مـن نحـاس، وأنـا في ظلّهـا، خلفَهـا مبـاشرةً. إنّنـي لم أمـشِ مـن قبـلُ مـع فتـاةٍ بهـذا الجـمال، كان الأمـر أشـبه بعيـد. وقـد نسـيتُ مظهـريَ الجسـديّ: ملابـسيَ الممزّقـة المغـبرّة، وشـعريَ الطويـل جـدّاً والمتيبّـس مـن العـرق، والشـاربَ النّابـت عـلى شـفتي، ووجهـيَ الـذي لوّحتـه الشـمس كـما لوّحـتْ ذراعَـيّ.

وقـف النـاس أمـام البيـوت يشـاهدوننا نمـرّ. عرفـوا سـوريافاتي، ابنـة شريـماتي[1] أنانتـا. نـادوا عليهـا، ومازحَتهـا النسـاء الثرثـارات ببعـض النـكات، فأجابتهـنّ سـوريا بالطريقـة ذاتهـا. وكان صِبيـةٌ يتبعوننـي ويمسـكون بقميـصي وهـم يصيحـون: «جنـاب»[2]، فـإذا التفَـتُّ اختفـوا ضاحكـين. تظاهـرت سـوريا بأنّهـا سترشـقهم بالحـصى مثـل الجديـان. فتبعونـا مـن بعيـدٍ إلى آخـر البلـدة، عـبر المحـارق، ثـمّ تركونـا عنـد مدخـل حـيّ المنبوذيـن.

في ذلـك المسـاء، وللمـرّة الأولى أيضـاً، اصطحبتنـي سـوريا إلى بيتهـا. كنـت قـد مكثـت عـلى الشـاطئ، كالعـادة، في انتظارهـا، لكنّهـا أخذتنـي مـن يـدي ومضـت بي إلى البيـت. وهـو بيـتٌ مـن غرفـةٍ واحـدةٍ ضيّقـة، جدرانُهـا مـن صخـور بركانيّة وسـقفُها مـن سـعف النخيـل، بالغَـةُ النظافـةِ والترتيب. ثمّـةَ مذبـحٌ صغـيرٌ وُضـعَ فـوق صنـدوقٍ عـلى يمـين البـاب، ومعـه صـورةٌ زرقـاء وحمـراء تمثّـل التريمـورتي[3]، أُشـعِلَ أمامهـا قنديـلٌ صغـير. أرضيّـةُ الغرفـة مفروشـةٌ بحصـيرةٍ مـن خيـوط الـكاذي، وتتـدلّى مـن السّـقف، في عمقهـا، ناموسـيّةٌ بيضـاء كبـيرةٌ هـي علامـة الرّفاهيـة الوحيـدة في البيـت.

دعتنـي سـوريا إلى الجلـوس عـلى الحصـيرة. في الخـارج، كانـت أنانتـا تجلـس متربّعـةً أمـام الموْقـد، تطهـو الأرزّ وتقلّـب فطائـر العـدس عـلى الصّـاج. ذهبَـت سـوريا لتنضـمّ إليهـا. وسـمعتهما تتحدّثـان، تـارةً بالهنديـة،

(1) كلمة هنديّة تعني السيّدة.

(2) كلمة هنديّة تعني السيّد المبجّل.

(3) صورة تمثّل الثالوث الهندوسيّ أو الثالوث الأعظم الذي يجمع آلهة الوظائف الكونيّة: براهما، وشيفا وفيشنو، وفقاً للمعتقدات الهندوسيّة.

وتـارةً بالكريوليّـة، وتضحـكان بـين الفينـة والأخـرى.

تسـلّلَت عتمـة اللّيـل إلى البيـت فـازداد ضـوء القنديـل ألقـاً أمـام صـورة العمالقـة الثلاثـة بعيونهـم المُكحّلـةِ، والنّمـلُ الطائـر يحلّـق حولهـم راقصـاً. وتناهـى إليّ ذلـك الضّجيـج المألـوف: الأصـوات والضحـكات، ورائحـة الأرزّ والجمـر. ثـمّ جـاءت سـوريا لتقـدّم لي شـيئاً آكلـه، طبقـاً مليئـاً بـالأرزّ مـع قطـع الأخطبـوط في صلصـة الـكاري، وأوراق القلقـاس الحاذقـة الدّاكنـة، وجثـت عـلى ركبتَيهـا عنـد مدخـل البيـت تراقبنـي وأنـا آكل.

- ألا تشاركينني؟ وأمّك، ألا تريد أن تأكل؟

- إنّها ليست جائعة. تأكل القليل جدّاً الآن، مثل العصافير.

ولّما أبقيتُ الملعقةَ على الطبق قالت:

- فلتتفضّـل أنـت. فأنـت شـابٌّ بعـد، وأمّـي تقـول إنّـك شـديد النحـول، وإنّـك عـلى مـا يبـدو لا تـكاد تسـدّ رمقـكَ عنـد السّـادة البيـض. وتـرى أنّـكَ سـتحظى بقبـولٍ أكـبرَ في وسـطهم لـو كنـت أسـمن قليـلاً.

بـدتْ مُبتهجـةً، وعيناهـا تلمعـانْ. وكانـت بـين لحظـةٍ وأخـرى تعـود إلى الخـارج، فتغـرف مـن القِـدر مزيـداً مـن الأرزّ والصلصـة وقطـع الأخطبوط، وتمـلأ طبقـي مـن جديـد، ثـمّ تسـكب الشـاي الأسـود في كـوبي.

- أمّي تسأل إنْ كانوا جميعاً مثلك نحيفين في إنجلترا.

ضحِكـتُ، ونسـيتُ كلّ شيء، الكرنتينـة وجزيـرة غابريـال، وحتّـى بـرج المراقبـة حيـث جوليـوس فـيران يراقـب حـدوده.

- في إنجلـترا، هنالـك نسـاءٌ يصُمـن عـن الطعـام ليصبحـن أكثـر رشـاقة، ويرتديـن مشـدّاتٍ ضيقـةً جـدّاً بحيـث تضطّـر الخادمات

إلى وضع إحدى ركبهنّ على ظهور سيّداتهنّ كي يربطنْها، وأحياناً يختنقْن.

فتحَت سورياڤاتي عينَيها على اتّساعها. هكذا أحبّذها، بتعبير البنت الصغيرة هذا على وجهها، وبشفتَيها اللّتَين تكشفان عن أسنانٍ ناصعة البياض. بدا لي أنّها الأخت الصغيرة التي لم أحظَ بها يوماً، وكانت تنتظرني لأرويَ لها، وحدها دون سواها، حكاياتِ الجنيّات والأميرات الإنجليزيات، لأُنسيَها اللّيل في الخارج. ولهذا كنت أسميّها «بِهِن»، الاسم الذي يُضحكها، فتناديني بدورها باسميَ الذي يقطر عذوبةً، مادّةً المقطع الأخير: «بهاييي..».

في تلك اللّحظة دخلَت أمّها، منحنيةً تحت الباب، بدت صغيرةً هشّة، وجسدُها النحيف ملتفٌّ بالأوشحة. جلستْ على فراشها رافعةً طرف ناموسيّتها.

«تحدّثْ إليها بْهاي. أخبرْها بكلّ ما قلتَه لي، عمّا يحدث في لندن وفي باريس. تقول إنّها تتذكّر الحدائق، الحدائقَ الكبيرة، حيث تُعزف الموسيقى ليلاً. بعد لندن، اصطحبَتها أمّها إلى الهند، لأنّ أباها كان في صفوف الجيش، في مدينة كاونبور. حدِّثْها عن الحدائق الكبيرة. هذا ما تريد أن تسمعه».

حاولتُ التحدّث عن المتنزّهات، ونطقت الأسماء كلّها على مهلٍ، معتقداً أنّ ذلك سيعينها على التذكّر، مثل كلماتِ شِعرٍ غامض، وانحنت سورياڤاتي لتصغيَ جيّداً. وظلّت أنانتا ساكنةً.

– هايد بارك، كنسينغتون، هولاند بارك، سانت جيمس، حدائق كيو...

كانت عينا سوريافاتي تبرقان. صاحت قائلةً:

- أنا واثقةٌ من أنّ الأمر يتعلّق بأحد هذه الأسماء. إنّها تتذكره، وتقول إنّه مكانٌ كانت تُعزف فيه الموسيقى.

شدّتني نحو والدتها، وأجلستني أمامها. كانت أنانتا تنظر إليّ بعينَيها الغريبتَين الفاتحتَين جدّاً وسْط وجهها الدّاكن.

فسألْتُ:

- أيّ موسيقى؟ كيف كانت تلك الموسيقى؟

قالت أنانتا بضع كلماتٍ بلغتها، فأوضحَت لي سوريا:

- يصعب عليها أنْ تتذكّر، فقد مضى على ذلك زمنٌ طويل. قالت إنّها تتذكّر أنّ تلكَ الموسيقى لا يُمكنُك سماعها في أيّ مكان آخر، وإنّها موسيقى ملائكة.

ردّدْتُ في دهشةٍ:

- موسيقى ملائكة؟

تحقّقَت سوريافاتي من الكلمة.

- نعم، هذا ما قالته. تقول إنّها سمعتها مرّةً واحدة فقط، في حدائق لندن، ثمّ ركبت القارب إلى الهند.

ظلّت مائلةً نحوي تنتظر. حتّى أنانتا بدت وكأنها تنتظر، لكأنّه بفضل موسيقى الملائكة هذه سأعثر على مفتاح ذاكرتها، واسم أمّها وأبيها، ومسقطِ رأسها، وبيتها وعائلتها، وكلّ ما التهمتْه مذبحة كاونبور. لم أستطع الكذب، فقلت:

- لا أعرف. لم أسمع قطّ موسيقى كهذه في لندن أو في أيّ مكان آخر.

- حتّى في تلك الحدائق التي ذكرتَ أسماءها؟

شرحتُ لها أنّ لندن مدينةٌ شاسعة، بآلاف الشوارع، ومئات الآلاف من الأسماء. ولا يمكن للمرء أبداً العثور فيها على الناس الذين أضاعهم. غضبَت سوريافاتي، إذ لم تستطع قبول هذه الإجابة. وردّت عليّ بنبرة قاسية:

- أنتَ لا تريد مساعدتها، لا تريد مساعدتنا. مثلكَ مثل الجميع، لا تهتم ولا تريد أن أجد اسم عائلتي.

أمسكَت أنانْتا بيدها محاولةً تهدئتَها، وضمّتها إلى صدرها ومسّدت شعرها بلطف. همَمْتُ بالمغادرة، لكنّها ردعتني. نظرت إليّ، وخاطبتني للمرّة الأولى بالإنجليزيّة، طالبةً منّي البقاء. كانت نظرتُها من الحزم بحيث لم أستطع إلّا أنْ أبقى. وأكثر من ذلك، فقد اقتنعتُ لحظتها بأنّها تقول الحقيقة، وأن كلّ شيء قد جرى وفقَ ما أخبرتني به سوريا. لقد فهمتُ أنّ كلّ شيء آخر كان صحيحاً أيضاً، وأنّ أنانتا قد جاءت هنا لتموت.

الطريقة الوحيدة للعثور على اسمَي جدّيكِ هي الذّهاب إلى لندن، إلى مكتب المستعمرات، والعثور على قائمةٍ بأسماء جميع من ماتوا في كاونبور أثناء الحرب.

كان هذا كلّ ما في جعبتي لمواساة سوريا. وقد أشرقَ وجهها لسماعه:

- أتعتقد أنّه يمكنني اصطحابها إلى هناك؟

لكنْ سرعان ما فتَرت حماستها فأردفت:

- كلّا، لندن بعيدةٌ جدّاً. ولنْ يكون في مقدورها الانتظار كلّ هذا الوقت، لن ترغب أبداً في الذهاب إلى هناك، بعيداً جدّاً. وإنْ هي فارقت الحياةَ، فبماذا يفيدني أنْ أعرفَ؟

شدّت على يدي، وزالَ الغضب من عينَيها.

- أنتَ حقاً بْهايْ، أنتَ حقّاً دوجي، «أخي الكبير».

كان اللّيل مُدلهماًّ، بلا قمرٍ، محتشداً بالنجوم. مشيت مع سوريا على الشاطئ الضيّق حتّى رأس الجزيرة. وكان حظر التجوّل قد بدأ منذ وقتٍ طويل، لكنْ ظلّ بعضُ النّاس في الخارج؛ نساءٌ يرتدين الساري، وأطفالٌ يركضون بين الأكواخ. وكانت الكلاب الجائعة تحومُ عند الأبواب شاكيةً.

أَرَتني سوريا كلّ النقاط المضيئة في السماء: الوسيم شوكرا (الزُّهرة) جنديّ الملك راما في المنتصف، وتريشانكو (النجم الثلاثيّ) في كوكبة الجبار، والخطايا الثلاث، في غرب المحيط. وأرتني الموضع مِن السماء حيث تتجلّى نجمة روهيني، والدة الإله بالاراما، التي يسميها البحّارة نجم الدّبران.

كانت تعرف أشياء مدهشة، وتقولها ببساطةٍ بصوتها الطفوليّ كما لو كنت أعرفها أنا أيضاً، وكان عليّ أن أتذكّرها: جانو، الحكيم الذي شرب ماء نهر الغانج، وداتا وفيداتا، العذراوان اللّتان ضفّرتا حبْل القدر، والطائر شاتاك الذي يتكلّم في اللّيل أحياناً دون أن يراه أحد، ولا يشرب سوى قطرات النّدى.

هبّت الريح عند رأس الجزيرة، وملأت آذاننا بنشيدها الحادّ. ولّما دنوْنا من صخرة لوديامو، سمعنا هدير الأمواج المتكسّرة على الصخور. كنّا وحدنا، على جؤجؤ سفينةٍ سوداء كبيرةٍ تمضي بنا شمالاً نحو المجهول.

جلسنا لائذَين بالصخور، بين شجيرات الحشف. كان مخبأً جميلاً، يعبق فيه من حولنا أريج النباتات الفلفليّة، وعلى شفاهنا طعم الملح. كنت أشعر بخفّةِ جسدها ودفء وجهها. أسندَت رأسها إلى تجويف كتفي. بحثتُ عن شفتَيها ووجهها، وكنت أرتعش بقوّةٍ حتّى أنها سألتني:

- أتشعر بالبرد؟

فقلت:

- لا بدّ أنّني محموم.

لكنّها كانت الرّغبة، والإحساس بوجهها وجسدها قريبَين منّي كلّ القرب. وضعتُ شفتي على شعرها. بحثتُ عن دفء عنقها، وأردتُ أن أتشرّب أنفاسها. فصدّتني بشيءٍ من القسوة، ثمّ قالت:

- ليس الآن..

ابتعدتْ عني، وفي الوقت ذاته بقيَت واقفةً أمامي، طيفاً لا يكاد يُلمَح. قالت:

- يجب أن أذهب إلى أمّي، إنّها متعبةٌ. وتنتظرني.

تردّدْتُ. كنت قريباً جدّاً من الحدود، على بعد خطوات قليلة من الدّرب الذي يعيدني إلى الكرنتينة، إلى جاك وسوزان. شدّتني سورياڤاتي من ذراعي، وكانت نبرة صوتها عنيفةً وغاضبة إلى حدّ ما:

- تعالَ، بْهايْ! ماذا تنتظر؟

ولمّا رأتني متردداً بعد، فقدَت نبرةَ صوتها الحازمة وتوسّلت إليّ:

- فلتأتِ يا بْهاي، ولتبقَ معي حتّى الصباح.

لم أعرف ماذا أريد، كنت أخشى الاختيار. لقد أحببتُ التجوّل بين الشجيرات ليلاً، متحديّاً مرسوم المستبدّ ڤيران، وصافرة الشّيخ حسين.

وأحببتُ تنشّقَ العطرِ في شَعرِ سوريا، والإحساسَ بخصرها الخفيف تحت أصابعي، وبراحتيَها الناعمتَين كحجر مصقول، ودفء وجهها، وبالرغبة تهتزّ في كلّ ذرّةٍ من جسدي. ولا أدري لماذا خشيتُ فجأةً أن يصبح هذا كلّه راسخاً وحقيقياً أكثر ممّا ينبغي. كما لو أنّ هنالكَ حدوداً بالفعل، وأنّ عليّ أنْ أعبرها بلا رجعة.

سِرتُ إلى جانبها، يدي في حضنِ يدها، وأقدامنا تخطو على آثارها السابقة.

في تلك اللّيلة، نامت سوريا بجانب والدتها تحت الناموسيّة، ونمتُ أنا عند الباب مُلتفّاً بملاءةٍ ومسنداً رأسي إلى حَجَر، أصغي إلى الرّيح والمطر وهما ينهشانِ بمخالبهما سقف النّخيل.

25 يونيو، في باليساد

استيقظْتُ قبل الفجر، مع أنفاس البحر الباردة والشّقوقِ الورديّة الطويلة في السماء. ظننتُ أنّني سمعت في البعيد، كما في حلمٍ، صافرة السّردار تعلن استيقاظَ النساء وإشعال الأنوار، جاءتني من بعيدٍ جدّاً، محمولةً مع الرّيح كأنّها آتيةٌ من موريشيوس. ويا له من أمرٍ غريب! فالصافرة التي بدت لي كريهةً حين نزلنا جزيرة بلات، أصبحت الآن مألوفة لي ومُطَمْئِنة، مثلها مثل صرخات الطيور البحريّة حين تعبر البحيرة كلّ صباح، وأصواتِ الحياةِ حين تصحو في القرية.

عادت سوريافاتي من النّبع. كانت تمشي على طول الشاطئ حاملةً جرّة الماء العذب على كتفها اليُمنى. خرجَت بهدوء، بينما كنت لا أزال غافياً، خَدِراً من البرد متدثّراً بملاءتي. وصلَت إلى سفح البركان قبل

النسـاء الأخريـات، وصعـدَت بمحـاذاةِ الشّـق حتّـى النّبـع. كان معظـم النـاس يتّجهـون نحـو الأسـفل، حيـث يشـكّل التيّـار جـدولاً قـرب الشـاطئ، لكـنّ سـوريا كانـت تقـول إنّ المياه ليسـت نقيّـة هنـاك.

كنـت أتأمّلها مـن خـلال البـاب. جثـتْ أمـام الأثـافي كـي توقـد النـار موليـةً ظهرهـا إلى الريـح، أمّـا أنانتـا فلـم تنهـض مـن فراشـها. مـضى وقـتٌ طويـلٌ وهـي حبيسـة ناموسـيّتها. أحـضرتْ لهـا سـوريا الشّـاي السـاخن.

وفيـما كنـت أشرب كـوبي، غـادر العمّـال الأوائـل إلى الخليـج كـي يتابعـوا بنـاء السّـدّ. ثـمّ دوّت الصافـرة الثانيـة، أقـربَ وأشـدّ. لا بـدّ أنّ ركّاب **لافـا** قـد اسـتيقظوا الآن في الكرنتينـة، عـلى الطّـرف الآخـر، وألقـوا نظرتهـم الأولى التـي تُسـائِل الأفـق مـن حيـث يُفـترَض أن يـأتيَ مركـب خفـر السـواحل. تلوّنـت السـماء بأصفـر شـديد الشّـحوب، وسرعـان مـا تجلّى قـرصُ الشـمس فـوق الدّغـل.

كنـت مـع سـوريا في الطريـق إلى المـزارع. يقـع حقـل أنانتـا إلى جانـب خليـج الأضرحـة، شرق المقـبرة. وكان الشـابّ الأبكـم ذو البـشرة السـوداء، المدعـوّ شـوتو، يمـشي أمامنـا ويحـثّ حيواناتـه عـلى الرّكـض مسـتعيناً بالحـصى. لم أكـن أرى الجديـان لكنّـي سـمعتها تغْـدو عـلى خـاصرة الـبركان، وتقفـز فـوق حواجـز الأجـراف.

هـذه أوّلُ مـرّةٍ تطلـب فيهـا سـوريا منّـي أنْ أرافقهـا إلى الحقـول. ليلـةَ أمـسِ، روى المطـر التربـةَ، وكانـت آخـر قطراته تسـقط عـن أوراق الحشـف. لكـنّ السـماء صافيـة، وفي ضـوء الصبـاح تبـدّت كلّ الأشـياء بوضـوحٍ اسـتثنائيّ، يـكاد يكـون جارحـاً. كان جـرف الفوهّـة السـوداء ينتصـب جـداراً في وجـه السـماء. لا أحـدَ هنـاك. وغابـة الكزورينـة تقـف عائقـاً أمـامَ

نظـر المراقبَـين في أعـلى الـبركان. وحدهـا طيـور النّـورس وخطّـاف البحـر تعـبر فوقنـا، ولا وجـود لطيـور رئيـس البحـر. فليـسَ هـذا مجالهـا.

- انظر، هذه لنا.

أشـارت سـوريافاتي إلى وادٍ بـين صخـور البازلـت، تحـدّه أشـجار الكاذي مـن الجنوب.

- أمّـي هـي مـن زرعـت كلّ شيء. وقـد اختـارت هـذا المـكان. تقول إنّ والدتهـا كانـت تعيـش هنـا، في هـذا الحقـل، قبـل أن تموت.

في البدايـةِ لم أر شـيئاً. هُيـئ إليّ أنّنـي كنـت أمـام الدّغـل نفسـه، وحقـلِ الحجـارة السـوداء نفسـه. لكـنْ لّمـا شرعنـا في الهبـوط، رأيـت الأسـوار الحجريّـة الخفيضـةَ والحوْطـات. كنّـا بعـدُ في التاسـعة صباحـاً، ومـع هـذا كانـت أشـعّة الشـمس لاسـعةً كألسـنة النّـار.

انكبّـت سـوريا على عملهـا. فلفّت وشـاحها الأحمر حول رأسـها وعينَيها، ومضـت تزيـل الحجـارة مـن أرض الحقـل. كان نبـاتٌ متسـلّقٌ يزحـف عـلى التربـة حامـلاً توتـاً أصفـر وأحمـر. أخـذت سـوريا تقطـف الثـمار وتضعها في سـلّة القشّ. والتفتـتْ إليّ:

- ساعِدني.

سألْتُ.

- ما هذا؟

نظرَت إليّ ذاهلةً.

- حسناً، إنّه تفّاح الحُبّ(1).

جثـوْتُ بجانبهـا لألتقـط الطماطـم الصغـيرة القاسـية مثـل رصاصـات. وإلى الأبعِـد قليـلاً، أَرتنـي ثـماراً أخـرى عالقـةً بـين أغصـان نبـاتٍ متسـلّق:

(1) من الأسماء التي تُطلَق على الطَماطم.

البامية. هنالك أيضاً الفلفل الشجريّ، ومجموعة متنوعة من الباذنجان البريّ، أو (الباذنجان البنّي) كنت لاحظتها خلال جولات البحث عن النباتات مع جون ميتكالف.

اصطحبتني سوريا إلى الأجراف السّفلية التي تغزوها الأعشاب ويملأ الحصى تربتَها. شرعْتُ أزيل الحجارة مقتلعاً الكبيرة منها بعصا، فتعيد بها سوريا أوّلاً بأوّل بناء الأسوار الخفيضة. في الأسفل، كان هناك قطعة أرض مربعةٌ، مغطاةٌ بما حسِبته عشباً، فأوْضحت سوريا:

- إنَّه أرزّ. سأزرع الأرزّ في كل مكان هنا، وسيكون لدينا ما نأكله في الرّبيع.

وأشارت إلى الأبعدِ قليلاً، نحو مشارف غابة الكزورينة، حيثّ تمرّ حدود جوليوس فيران الخياليّة:

- هناك، زرعت أمّي القمح والعدس وقرع الغيرامون. فحينَ قدِمَت إلى هذا المكان لم يكن فيه سوى الحجارة والحشف المقوّس.

في قمّة الجرف، عند النّقطة التي نهبط منها نحو خليج باليساد، رأيت أيضاً أسواراً خفيضةً وحوْطاتٍ، ولمحت بُقع القصب الرماديّة الخضراء، وسيقان الذرة الحادّة، وعرائش قرع الغيرامون. توقّفَت سوريا لتريَني هذه الحقول كلّها.

- ذاكَ، في الأعلى، يعود لراماساومي. وإلى اليسار منه حقل المُسنّ بيهار حكيم، فيه نباتاتٌ تعالج الأمراض. وهناكَ بجانب الصخرة، حقل لسيتاماتي، توفّي زوجها بداء الرّاصّات

البـاردة[1] قبـل شـهرَين، وهـي لا تريـد الرّحيـل. علــيّ أن أحضر لهـا المـاء لـتروِيَ خضرواتهـا، لديهـا أيضـاً نباتـاتٌ عطريّـة.

لم أتعـب قـطّ مـن النظـر واكتشـاف الحقـول والأسـوار الحجريّـة، وقـد جهرَتْنـي الشـمس. وشـيئاً فشـيئاً، أخـذت أسـوارٌ أخـرى تتكشّـف أمـام بـصري، بـرزتْ مـن تلقـاء نفسـها عـلى المنحـدر الأسـود بـين الـبركان والبحـر، ومـا حسـبته أجمـاتٍ يابسـةً كان في الحقيقـة مـزارعَ مـن الريْحـان والباميـة وتفّـاح الحُـبّ والفاصوليـاء. ورأيـت، بـين شـجيرات الدّيـداء، أوراق البقلـة الدّاكنـة وثـمار البطاطـس. لقـد أصـابَ جـون ميتكالـف: النباتـات هـي مـن ينقـذ البـشر.

ثـمّ لمحـتُ بـين كتـل الحمـم البركانّيـة أطيافـاً شـبحيّة تتحـرّك، رجـالاً منشـغلين في إزالـة الحجـارة واقتـلاع الأعشـابِ الضـارة مـن التربـة، ونسـاءً يرتديـن أثوابـاً مـن الخيـشِ بلـون الـتّراب. وسـمعتُ صـوت المعـاول تـدقّ الأرض الجافّـة، ورنّـة السـكاكين الحـادّة تـضرب الحجـارة. تَلاهمـا وشوشـةٌ أكثـر خفوتـاً، أشـبهُ بصـوت الأيـدي والأنفـاس، تتداخـل مـع صفـير الريـح وهديـر الأمـواج عـلى الشّـعاب المرجانيّـة.

كانـت سـوريا منحنيـةً عـلى الأرض تقتلـع نباتـات العكْـرش والديـداء التـي تغـزو الحوْطـات، وتعـزق الأرض بيدَيهـا حـول الـذّرة والطماطـم لتحضـير أحـواضِ الـرّي. كانـت الشـمس تسـطع فـوق الأوراق والحجـارة السـوداء، وتُشـعلَ زُرقـة البحـيرة. وبـدت قمّـة جزيـرة غابريـال المخروطيّـة الشـكل صخـرةً نائيـةً، عالمـاً غريبـاً، وأشـدُّ منهـا نأيـاً بعـدُ خطُّ موريشـيوس

(1) أو فقر الدّم الانحلاليّ، وهو مرضٌ نادرٌ يتمثّل في إنتاج جهاز المناعة لأجسامٍ مضادّة تهاجم كريات الدّم الحمراء بدلاً من مهاجمة البكتيريا.

الأخضر الرّفيع، المكلّل بالغيوم. وكان زورق صيدٍ، ناحيةَ جزيرة كوان دو مير، ينساب وئيداً بشراعهِ المائل، مختفياً في ثنايا الموج. كنت أقتلع الحجارةَ من التربةِ، فأشعر بالعرق يسيل على وجهي وفي عينَيّ. ولا شيء يشغل بالي، لا شيء سوى قطعة الأرض هذه والأجراف المحيطة بها، والأسوار الحجريّة التي ينبغي بناؤها في وجه العواصف.

ربّما كان جوليوس فيران وصديقه في تلك اللّحظة يتفحّصان الأفق من مرقبهما، ويرسلان إشاراتٍ إلى خليج بوانت أو كانونييه في موريشيوس، تطلب منهم أنْ يأتوا بالمركب لنقلنا. وربّما كان جاك ينتظر أمام رصيف الميناء ويدخن سيجارته من الحشيش، ناظراً إلى جزيرة غابريال. حاولتُ ألا أفكّر كثيراً في سوزان، القابعةِ وحدها في بيت الكرنتينة، ولا في جون ميتكالف وسارة، سجينَي مخيّم غابريال. هنا شعرتُ بحريّةٍ قاسيةٍ كهذه الأرض الجافّةِ، لاهبةٍ كالحمّى، وجارحةٍ كشظايا حجر الأباش[1].

كان كلّ شيءٍ هادئاً، فلا يُسمع سوى تلك الأصوات المُنتظمة؛ دبيبِ الحشرات، وخشخشة الأيدي والأنفاس مختلطةً بصوت الريح والبحر، تتخلّلها بين الحين والحين ثغوةُ جديٍ حادّةٌ خافتة، ونقرةُ لسان شوتو[2]، آتيةً من تجويفٍ ما بين الصخور.

سطعت الشمس بقوّةٍ حتّى أنّني شعرت بالدّوار. فاسودّ كلّ شيءٍ من حولي، وسقطتُ على ركبتَيّ ممسكاً بعدُ بالحجر الكبير الذي اقتلعتُه حالاً. أمسكتْني سوريافاتي: «مسكينٌ يا دوجي، لا قِبَلَ لكَ بهذا، فأنت

(1) نوعٌ من الأحجار الكريمة، ويُسمّى أيضاً بالسّبج، والزّجاج البركانيّ.
(2) النَّقْر: صوت اللّسانِ لسوْق الدّواب.

لست عامـلاً حقيقيـاً». ظلّلتنـي بجسـدها، وبسـطت وشـاحها الأحمـر الكبيـر جانبـاً لتحميَنـي مـن الشـمس. شـعرتُ بنبـض قـويٍّ في صـدري وفي شرايينـي. كان المـاء قـد نفَـد، بعـدَ أنْ صبّـت سـوريا آخـر قطراتـه عـلى الخضـروات. لـذا تناولَـت مـن سـلّتها ورقـة شـجرٍ مـرّةٍ لاذعـة ووضعتهـا في فمـي الـذي امتـلأ باللّعـاب قائلـةً: «هـذه ورقـة التنبـول البنـيّ». ثـمّ سـاعدَتني في خلـع قميـصي، وشـقّت بأسـنانها قطعـةَ قـماشٍ كبيـرةٍ ولفّتهـا حـول رأسي مثـل عمامـة، ونظـرَت إليّ ضاحكـةً: «بهـذه، لم تعـد تشـبه السـادة البيـض. صرت مثـل عامـلٍ حقيقـيّ».

بقينـا في المـزارع حتّـى مغيـب الشـمس، وغادرنـا مـع صافـرة السـرّدار في خليـج باليسـاد. في تلـك اللّيلـة بقيـتُ منطرحـاً عـلى أرضيّـة البيـت في نهايـةِ حـيّ المنبوذيـن. كانـت كلّ عضلـةٍ في ظهـري تؤلمنـي، وذراعـاي وسـاقاي مخـدّرةً مـن التّعـب، ومـا برحـتُ أشـعر بنـيران الشـمس عـلى وجهـي وفي جـوْفي. وقبـل أنْ تذهـب سـوريافاتي للانضـمام إلى أنانتـا تحـت الناموسـيّة، دنَـت منّـي. ودون أن تقـول شـيئاً التصقـت بي، ووضعـتْ ذراعَيهـا حـول رقبتـي، مريحـةً رأسـها عـلى صـدري لتسـمع دقّـات قلبـي. لم أجـرؤ عـلى الحركـة. وقـد بـدّد جسـدها الرّشـيق كلّ تعبـي، ودخلـتُ في حُلمهـا حتّـى قبـلَ أنْ يغلبَنـي النّعـاس.

بعد أنْ تركوا فاراناسي، توقفوا في أسافل النّهر في مدن جانغبور وبهاجالبور ومرشد أباد. كان النهر شاسعاً حتّى ليخاله المرءُ بحراً، وقد تلاشت ضفافه في ضباب الفجر. وكان الدخان المنبعث من الحرائق يغطي أحياناً اليابسة والمياه، وفي كلّ مكانٍ رائحةُ حربٍ ومحارق. شعرَت جيريبالا وكأنها على الطوْف منذ الأزل، تتأمّل الضّفاف المنسابةَ بعيداً على إيقاع الهَرِم سينغ وهو يضغط على المُرديّ.

كانت الشمس تسطع بقوّةٍ أثناء النهار فيشتدّ الحر، وكان على جيريبالا أن تغرف الماء باستمرار براحتَيها كي ترطّب جبين أنانتا وشعرَها.

مرّ الطَوْفان عبر بلدانٍ غامضةٍ غزتْ غاباتِها قلاعٌ قديمة، وجفّت المزارعُ في أدغالها. وكانت بنات آوى تتجوّل ليلاً حول المقابر الجماعيّة، فكان لا بدّ من إشعال النيران لإبقائها بعيداً. وفي القرى، كان سينغ يعزف على النّاي والنساء يرقصن، ولِيل تمثّل قصّة ملكة جانسي التي سقطت عن حصانها تحت رصاص الإنجليز. وكان أهل القرى يقدّمون لهم أعطياتٍ من

الطعـام، مـن لبـنٍ رائـب وفاكهـة. صـارت أنانتـا الآن تجيـد الرّقص حقّـاً على إيقاع طبـول الماء، وقد غـدت فتاةً ممشـوقةَ القوام لبشرتها لـون الصّلصال، مثـل دوميّـة حقيقيّـة، لكنّهـا احتفظـت بمِسـحات الذّهـب في شـعرها وبلـون عينَيها الفاتـح. وكانت جيريبـالا تفخـر بها وتسـميّها ديفـي أنانتـا[1].

لم يخطـر في بـال جيريبـالا عـلى الأرجـح أنْ تهجـر الدّوميّـين، لكـنْ ذات يـوم اشـتدّ المـرض بابـن لِيـل ثانيـةً، بسـبب الجفـاف ربّـما، أو نتيجـةَ لدغــةِ أفعــى ســامّة. لم يعــد يقــوى عــلى تنــاول الطّعــام والــشّراب، وتصفّــى كلّ دمــه نتيجــة نزيـف المسـتقيم. ثـمّ غـاب عـن الوعـي وتـوفّي ليــلاً. حفــرَت ليــل قــبره بنفســها عــلى ضفّــة النّهـر، ووضعَــت كوْمــةَ حجــارةٍ كبـيرة فــوق جثّتـه حتّـى لا تنبـش بنـات آوى الـتّراب فوقهـا. دُفِــنَ بــلا مراســمَ ولا صــلاة. كان الهَــرِمُ ســينغ يقــول إنّ الدوميّــين يولــدون ويموتــون مثــل الحيوانــات، دون أن ينتبــه إليهــم أحــد.

ومنــذ ذلــك اليــوم، أُصيبــت ليــل بالجنــون. توقّفَــت عــن الــكلام والاســتحمام وتسريــح

(1) Devi: وتعني بالسنسكريتية الإلهة، التجسيد الأنثويّ للرّبّ الأعلى في الهندوسيّة.

شعرها. وما عادت تقوى على تأدية الرّقصة التي تمثّل بها أسطورة لاكشميباي الجميلة. وكان أهل القرى حين يرونها شعثاء غبراء، يرشقونها بحفناتٍ من التراب.

وصارت تُبدي تجاه جيريبالا كراهيّة ليس لها ما يسوّغها. أخذت تهينها وتضرب ابنتها، وتشدّ شعرها وتسرق طعامها. وفي هذيانها، تخيّلتها المتسوّلةَ الصغيرةَ التي التقَت بها جيريبالا في الغابة وكانت تحمل طفلها الميّت. فأخذت تلعنها وتتّهمها بتسميم ابنها. وكان الهرِمُ سينغ يتدخّل، فيمشي نحو ليل ويمسك بيدها، فتتراجع الشّابة إلى الوراء، والزّبد في فمها، وتنسحب لتجلس منكمشةً على ذاتها في آخر الطّوف، مثل حيوان يئنّ. وكانت تنام طيلةَ النهار ملتفّةً في ملابس ابنها وملاءاته.

وصل الطَّوْفان أمام مدينة إنجليش بازار عندَ مدخل الطريقِ المفضي إلى الجنوب. فقال الهَرِم سينغ لجيريبالا: «لن نمضيَ أبعد. سنعود شمالاً قبل هطول الأمطار. فلترحلي الآن! لعلّ ليل تتعافى».

هكذا جمعت جيريبالا أغراضها وتركت الطّوف. أخذت أنانتا من يدها وتوجّهتا

جنوباً، مع كلّ العابرين إلى الوطن البعيد، إلى ميريش تابو، ميريش ديش[1].

26 يونيو

اليومَ، قبل الثانية فجراً، عاد مركب خفر السّواحل. كنت مع العمّال الذين يعملون عند السّد حينَ أُعطيَت الإشارة. أعلن الخبرَ «كنّاسٌ» شابٌّ يُدعى أوكا، وهو خادم محارق من قرية المنبوذين كان الشّيخ حسين قد أرسله منذ عدّةِ أيّام إلى الطرف الجنوبيّ من البركان، ربّما لمراقبة الكرنتينة وتحرّكات فيران الفاسد ذهاباً وإياباً.

خيّمَ صمتٌ عظيم، وظلّ الجميع متسمّرين في أماكنهم على بلاطات البازلت. كان الطقس بديعاً، حيث الرّيح تجلو صفحة السماء والبحر، والموج العالي يحمل الزّبد حتّى السّد.

تجاوز مركب خفر السّواحل طرف الجزيرة منساباً ببطءٍ على الأمواج. وما هي إلّا صيحةٌ واحدةٌ حتّى هُرِع عمّال المزارع والنساء والأطفال إلى الشاطئ، يلّوحون بأيديهم وينادون. حاوَلت صافرة السّردار وصيحاتُ متعهّدي العمّال استعادة النّظام دون جدوى. فسار الشّيخ حسين بين الحشد، ومرّ من أمامي دون أن يلتفتَ إليّ، وقد ارتسم تعبيرٌ صارمٌ على وجهه المسمرّ كوجه جنديٍّ هرِمٍ، بلحيةٍ بيضاء أنيقةٍ، وعمامةٍ كبيرةٍ صفراء باهتةٍ تتنافر مع سترته الممزّقة. كان يمشي بسرعة، وعصاه الطويلةُ من خشب الأبنوس في يده، مثل قائد جوقةٍ أو نبيّ. ومن خلفه لاح طيفا راماساومي وبيهار حكيم، هشّين، شبه عاريَين

(1) العبارتان بالهنديّة في الأصل ومعناهما: جزيرة موريشيوس، موريشيوس الوطن الأمّ.

ونحيلَين، يلفّ كلٌّ منهما قطعةَ قماشٍ باليةٍ حول رأسه. وقد أجبرتني حركة الحشد على التراجع، فلجأتُ إلى أعلى نقطةٍ من الشاطئ.

توقّف مركب خفر السّواحل في الخليج قبالةَ السّد الجاري إنشاؤه. رفع الموج جؤجؤ القارب جاعلاً إيّاه يدور حول طرف قَلْسه. وكنا نسمع هدير المحرّك، تحمله الرّيح أحياناً مع حلقات الدخان الأسود. كانت الأطياف تتحرّك على ظهر القارب، موظّفو الصحّة، والبحارة القُمريّون. ثمّ انفصل الزّورق عن مركب خفر السواحل، وألقى البحارةُ بحبلٍ على الشاطئ، وعلى الفور غاص الأولاد الصغار في البحر لالتقاطه. جلستُ على الشّاطئ، وأخذتُ أنتظر. لم يأتوا لحَملنا، بل ليقيموا جسر إمداداتٍ لتفريغ الطّعام وبراميل المياه العذبة وحسب. إذ لم يشأ أعضاء الحكومةِ الجماعيّة أنْ يخاطروا بتركنا نكابد الجوع والعطش على صخرتنا.

كان الجمْع على الشاطئ كثيفاً متراصّاً. وبدأَت تُسمع صيحات غضبه واستيائه. جُلْتُ بنظري بحثاً عن سوريا، لكنّني لم أرها. لم تأتِ إلى الشاطئ، فعودة سفينة خفر السواحل لم تكن من أجلها على أيّ حال.

بدأ إنزال المُؤن في شيءٍ من العجلة والتخبّط. ألقى البحّارة الصناديق في الماء، حتّى من دون أن يربطوها بالحبال، فتحطّم بعضها بعد رمْيه على بلاطات البازلت. ودخل الأولاد المياه حتّى الخصر، بكامل عريهم، وأخذوا يلاحقون الصناديق والبراميل ويدفعونها نحو الشاطئ. كانت الأمواج بطيئةً قويّة، والزبدُ يتلألأ على الصّخور السوداء، والبحرُ ممعنٌ في زرقته. وكان المشهد ينطوي على شيءٍ من اليأس والمأساويّة؛ الناس المتجمهرون على الشاطئ تحت أشعة الشمس، وطيف القاربِ

المُعتم الذي ظلّ في عرض البحر قبالة الساحل. ولمّا جُمِعت المؤن كلّها من الشاطئ ووُضِعت تحت الظُّلّة، بدأ الزّورق يتراجع نحو أعالي البحار، فعَلِم سكّان الجزيرة أنّ الأمر قد انتهى. عاد أغلبهم إلى المدينة أو إلى المزارع. غيرَ أنّ عدداً قليلاً من الرجال ظلّوا قربَ السّد، وأخذوا يلقون الحجارة صوبَ البحر ويهتفون بتهديدات عبثيّة. كان مركب خفر السّواحل لا يزال واقفاً أمام الخليج، يدور ويترنّح مع الموج. وبين الحين والحين يُسمَع هدير محرّكه، ويتصاعد دخانٌ أسودُ من مدخنته تشتّته هبّات الريح. وفجأةً رأيت أوكا الكنّاس عند نهاية السّد. بدا أنّه يعاني نوعاً من انهيارٍ عصبيّ، إذ وقف على حافة ركام من الحجارة متوازناً في وجه الريح، وذراعاه مبسوطتان مثل طائرٍ كبيرٍ داكن. أخذ يدور حول نفسه ونظرتُه تتقّد جنوناً. ثمّ ألقى بنفسه في البحر واختفى في الزّبد، وما هو إلّا أنْ رأيته يسبح بغضبٍ نحو الزّورق. وقف الجميع على الشاطئ وعند السّد يراقبونه. وفي تلك اللّحظةِ هدأ التمرّد، وخيّم صمتٌ طويلٌ لا يخترقه سوى هدير الأمواج المتلاطمة.

تفاجأ بحّارة الزّورق لبضع دقائق وتوقفوا عن التجديف. وشاهدنا جميعاً وجه أوكا يختفي ثمّ يعود للظهور وسط الأمواج، كما لو أنّه قد حقّق هدفه بالفعل وتمكّن من الهرب. ثمّ انطلقت شرارةٌ من متن الزّورق، سُمع في إثْرِها دويّ انفجار. كان بحّارٌ يقف في مؤخّرة الزّورق حاملاً بندقيّة، فيما أطلق بحّار آخر النار. وعلى الفور غادر جميع الرّجال الذين كانوا على السّدّ ولاذوا بالشاطئ، مُحتمين بالصخور. واصل أوكا العوم باتجاه مركب خفر السواحل، وسرعان ما اتّضح أنّه لن يقدر على الوصول إليه. أخذ البحّارة يجدّفون من جديد، وما هي إلّا لحظاتٌ حتّى وصل الزورق إلى

حافة القارب، وبدا أوكا مجرّد نقطةٍ وسْط الخِضمّ، فَضلةٍ تتقاذفها الأمواج. لوّح مرّةً أخرى بذراعَيه، كمن يطلب النّجدة، ثمّ استسلم خائرَ القوى، تاركاً الأمواج تعيده إلى الشاطئ.

وفي تلك اللّحظةِ لمحتُ جماعةً تصل إلى الشاطئ هابطةً منحدر البركان، في مقدّمتها بارتولي، يليه جوليوس فيران ومسدّسه في حزامه. وفي الخلف، عرفتُ طيف جاك. اقترب الرجال الثلاثةُ من السّدّ، فيما كان العمّال يجرّون أوكا من الشاطئ المغمور بالضّوء والزبّد، متّجهينَ به نحو الظُّلّة وسْطَ صمتٍ غريبٍ. وعلى بعد أقل من مائة متر، كان الزّورق يدور حول مركب خفر السواحل مترنّحاً، كمن يحاول الاقتراب من لعبةٍ بعيدة المنال.

جرّب فيران أنْ يلفّ قطعة كرتونٍ ويتّخذها مكبّر صوتٍ كي يتواصل مع ضبّاط خفر السواحل. لكنّه صاح بكلام لم يكن مفهوماً، إذ تلاشى صوته في هدير الموج. وما هي غير ثوانٍ حتّى تكثّفَ عمود الدخان، وسُمعَ صوت سلسلة المرساةِ وهي تدور في الرّافعة، وتعالى هدير المحرّك. انحرف مركب خفر السواحل للحظة، كما لو كان متجّهاً إلى الشاطئ، لكنّه تراجع من جديد، دار ببطءٍ ثمّ تقدّمَ في الخِضمّ، وسرعان ما تجاوز قمّةَ البركان التي أخفته عن أعيننا. وفي الأثناء، ظلّ الجميع متسمّرين على قمّة الشاطئ، وكان بعضهم لا يزال كامناً خلف الصّخور احتماءً من طلقات النار. أمّا مجموعة ركّاب لافا فظلّت تنتظر تحت الظُّلّة، وكأنّ القارب سيعود على أيّة حال. ووقف الشّيخ حسين على الشاطئ غارساً عصا قيادته في الرّمل. بدا كأنه تمثالٌ قديم، محاربٌ في ملابس رثّة. ثمّ استدار، ووضع طرف صافرته في فمه مصدراً صوتاً طويلاً جدّاً أخذ يتّسع ويتّسع

ويـزداد حـدّةً، إلى أنْ هـدأ أخـيراً ليصـيرَ نغمةً خفيضـةً أشـبهَ بالأنين.

وقـد رأيـت مشـهداً لـن أقـوى عـلى نسـيانه مـا حييـت. كان صامتـاً بالـغ القسـوة: اصطـفّ العـمّال أمـام الـسّردار في طابـورٍ طويـلٍ كـي ينقلـوا المـؤن مـن ظُلّـة النخيـل إلى أكـواخ باليسـاد المشـتركة. كانـت الحركـة في المشـهدِ شـديدة البـطء تخلـو مـن أيّـة حـدّةٍ، حيـث الشّـيخ حسـين بقامتـه النحّيلـة يقـف عـلى الشّـاطئ متوكّئـاً عـلى عـكّازه الأبنوسيّ، وحيـث العـمّال أطيـافٌ داكنـةٌ، ينحنـونَ تحـت ثقـلِ الصناديـق، وأكيـاسِ الأرزّ، وبراميـلِ الزّيـت، وقواريـرِ الميـاه العذبـة، لا يتحدّثـون ولا يجولـون ببصرهـم، كأنّهـم طالعـون مـن قـاع الزّمـن السّـحيق ماضـون نحـو نهايتـه القصيّـةِ، حاملـين معهـم زادَ رحلتهـم التـي لا تنتهـي.

لم يكـن ركّاب لافـا الثلّاثـة يتحرّكـون. كانـوا متسـمّرين في مكانهـم، ومعهـم كلّ أدواتهـم السّـخيفة، فـيران بمسدسـه ومكـبّر الصّـوت الكرتـونيّ الـذي بـدأ يتفسّـخ، وبارتـولي يمسـك بكلتـا يديـه بالهيليوتـروب الـذي يومـض لا إراديّـاً بـين الفينـة والفينـة، وجـاك مـع حقيبتـه الطبيّـة التـي أحضرهـا دون جـدوى، ربّـما ليـداري بهـا الانطبـاع السّـيئ الـذي قـد تتركـه ملابسـه الممزّقـة ونظارتـه المكسـورة.

لكنّـه هـو الآخـر لم ينبـس بكلمـة، ولم يفعـل شـيئاً لمنـع جماعتـه مـن احتجـاز المـؤن للأسـابيع القادمـة. ولا شـكّ أنّـه كان أوّل مـن هـزّ كتفَيـه مستسـلماً، كعادتـه حـين يقـدّر أنّ مسـألةً مـا تسـتعصي عـلى الحـلّ. ثـمّ عـاد إلى الكرنتينـة، وفي إثـره المراقبـان العاجـزان.

مـرّوا قريبـاً مـن الجـرف حيـث أقـف، ورفـع جـاك نظـره إلي، فأغشـت الشّـمس بـصره. رأيـت وجهَـه الـذي كاد يكـون غريبـاً عنّـي، شـاحباً تغـزوه

لحيـةٌ كثّـةٌ، والغبـار الرّمـادي يعفّـرُ شـعره ونظّارتـه. فضـلاً عـن سـترته العبثيّـة التـي كان يزرّرهـا حتّـى العنـق مانحـةً إيّـاه هيئـةَ حانـوتيّ. أردتُ أن أنهـض وأركـض نحـوه وأعانقـه، لكنّـه عـاد والتفـت بعيـداً ففهمـت أنّـه لم يـرَني، أو لم يعرفْنـي. لقـد بتنـا منـذ الآن بعيدَيـن جـدّاً أحدنـا عـن الآخـر، كـما لـو أنّنـا لم نكـبر يومـاً معـاً. كان فـيران يسـير خلفـه متبوعـاً ببارتـولي، وفجـأةً بـدوا لي مجموعـةً مـن مُشـاةٍ عاديّـين، متنزّهـين قدمـوا مـن مدينـة مـا ليتيهـوا في هـذا الريـف المغـبرّ المحـروق، ثـمّ هامـوا عـلى وجوههـم باحثـين عـن عربـة أجـرةٍ تعيدهـم إلى ديارهـم.

لم أكـن أعـرف إلى أيـن أذهـب. جُلـت ببـصري عـلى طـول الخليـج بحثـاً عـن سـوريا. كان الشـاطئ خاليـاً. خِلـتُ أنّنـي لمحـتُ الفتـاة الشّـابة أمـام أحـد البيـوت المشـتركة، بـين جمْـعٍ مـن النسـاء والرجـال كانـوا يجرّون جسـد أوكا نحـو الظّـلّ. لكننّـي لمـا دنـوت مـن المـكان، لم يكـن الجسـد هنـاك.

مشـيْت إلى الكهـف حيـث توقِـد سـوريا المصبـاح كلّ ليلـة ليامـا وأختـه يامونـا، سـيديّ الجزيـرة الحقيقيَّـين. لكنّنـي لم أجـرؤ عـلى الاقـتراب. وحدها سـورياڤاتي مـن يمكنهـا اصطحـابي إلى هنـاك. فكّـرتُ أيضـاً في الـوادي الضيّـق حيـث يتدفـق النّبـع. وكنـت كلّـما وصلـت إلى مـكانٍ، سـمعت صافـرة السّـردار وقـد عـادت تضبـط بإيقاعهـا عمـلَ ناقـلي الحجـارةِ، كأنّ شـيئاً لم يحـدث. ومثلـما أفعـل كلّـما اسـتبدّ بيَ شـعور القلـق والكراهيـة، ذهبـتُ إلى قمّـةِ الطيـور، تلـك التـي تطـلّ عـلى مـا وراء صخـرة لوديامـو نحـو الهنـد ومصـبّ الأنهـار العظيمـة. وهـو موضـعٌ أشـبه بمقدّمـة **لافـا** التـي تعـبر المحيـط إلى صخـرة عـدنٍ وصـولاً إلى الأراضي الخرافيّـة.

مكثتُ طيلة العصر أشاهد الطيور وهي تدور حول صخرة بيجِن هاوس تحتَ سماءٍ أحالت الرّيحُ غيومها إلى أشلاء. كان هنالك النورس وخطاف البحر، وخطّاف الذباب الفردوسيّ الناصع البياض. وكانت تصرخُ معاً وتحطّ على الصخرة، ثمّ تنطلق من جديد، فأسمع حفيف أجنحتها الشّبيه بأزيز مِرجل.

وفي آخر النهار، قبلَ حتّى أنْ أسمع صافرة السّردار، عُدت إلى قرية المنبوذين. كانت أسراب البلشون المخطط تحلّق ماسّةً مياه الخليج ومطلقةً صيحاتها الحزينة. تنشّقتُ رائحة الأبخرة العذبة، كما هو الحال في أيّ قرية في العالم حين يجلس العمّال حول النار بعد يومِ عملٍ شاقّ، ويثرثرون في انتظار وجبة المساء.

ولمّا دخلتُ القرية، رأيت مرّة أخرى بائعة الهوى رسامه جالسةً أمام بابها. بدت بهيئةٍ غريبةٍ، ووجهها المحتفظُ بعد بطفولته مثقلٌ بالمساحيق. وكان مسحوق الطلق الذي تضعه كبودرة أساس يمنح بشرتها مِسحةً مِن اخضرار. وقد حدّدَت شفتَيها باللّون القرمزيّ، ورسمتْ دائرتين باللّون الأحمر على وجنَتيها. وكانت ترتدي فستانها الأحمر، وشعرُها مُسرّح بعناية ومنعّمٌ بزيت جوز الهند، وفي يدها سيجارة حشيش، فبدت بهذه الهيئةِ كأنها آتيةٌ من عالم آخر. وعلى مبعدةٍ منها، كان شقيقها اليافع يقفُ متوازناً على ساق واحدةٍ، ويرمقني في ارتياب.

لم تقل شيئاً في البداية، لكنّني حين واصلتُ طريقي نحو بيت أنانتا، صاحت في وجهي ساخرة مستهزئة كما فعلَت في ذلك اليوم. حتّى إنّها التقطت الحصى ورمتني به، كما يفعل الأطفال مع الكلاب الضّالة. هل كُنت واقعاً تحت تأثير هلوسات؟ فقد بدا لي أنّ المجنونة كانت

تصيحُ باسمي مقلّدةً صرخة الطاووس، كما كانوا يفعلون في نزل روي ماليزون: «لي-وون! لي-وون!»

كانت أنانتا تستريح على حصيرتها في الكوخ المعتم، مسندةً رأسها إلى حجر، وقد رفعت طرفاً من ناموسيّتها لتنعم بنسمة اللّيل العليلة. وكان شعرها المُرسل منبسطاً حولها وشاحاً من حريرٍ، دافئاً نضِراً يتنافر مع وجهها الهزيل الهرِم. استقبلتني بنظرةٍ طويلة تخلو من الدّهشة. وبدا أنّ حدقتيَها الفاتحَتين تخترقان عتمة الكوخ. لم أجرؤ على الدخول، لكنها أومأت لي بيدها داعيةً إيّاي للجلوس إلى جانبها. همسَت ببعض كلمات بلغتها الشجيّة، أسئلةٍ ربّما، أو أدعية. ثمّ أشارت إليّ أن أعطيَها يدي. شدّت عليها طويلاً فأحسسْتُ براحتها الذابلة الفائقة النعومة، مثل حصاةٍ صقلها البحر.

لم أكن أعرف ماذا تريد. بدأتُ أتحدَّث إليها بالإنجليزيّة، كما أتحدث إلى سوريا، لأخبرها بما أعرفه عن لندن، عن الحيّ الذي عاش فيه جاك وهو يدرس في مشفى سانت جوزيف، في إليفانت آند كاسل. ردّدت هذا الاسم ببطء، كما لو كان مألوفاً، إليفانت آند كاسل، وأظنّ أنّها بفضل سحر هذا الاسم، استطاعت فجأةً أنْ تتخيلَ تلك المدينة على صورةِ عواصم الهند الرئيسيّة، حيث تتمشّى الفيَلة في الحدائق على ضفّة الأنهار، تحت شرفات القصور.

وفيما أقصّ عليها هذا كلّه، تذكّرْتُ الرّبيع في لندن بصحبة جاك، أيّامَ كان يعِدُّ لزواجه. كنت مريضاً بالالتهاب الرّئويّ القصبيّ، فحصل

جـاك عـلى إذنٍ لي مـن السـيدة لـو بـير بمغـادرة النّـزل كـي أقـضيَ فـترة النّقاهـة معـه. كان هـذا مـا أردتُ أن أتذكّـره، تلـك الشّـهور التـي أخـذت الآن تتلاشـى مـن الذاكـرةِ حتّـى باتـت كـذرّاتِ الغبـار يتعـذّر الإمسـاك بهـا. الأشـجار المزهـرة في الحدائـق، والسـماء المتلألئـة عـلى الرغـم مـن زخّـات المطـر، ونهـر التايمـز حيـث تنسـاب المراكـب بطيئـةً. كنـت أهيـم عـلى وجهـي في الشـوارع وسْـط المدينـة قـربَ سـانت بـول، حيـث يحتشـد النـاس عـلى الأرصفـة، وفي سـانت جيمـز أيّـام الأحـد، حيـث الفتيـات الجميـلات يتجوّلـن بمظلّاتهـنّ في الأزقّـة، تحـت المطـر الخفيـف.

لم أكـن أعـرف إنْ كانـت أنانتـا تصغـي إليّ. فقـد أغمضَـت عينيهـا، وكان وجههـا النحيـل يلتمـع بخفـوتٍ في الظّـلّ، لكنّهـا لم تـترك يـدي، كانـت تمسـكها بإحـكام في يدهـا، كأنّهـا تريـد أن تتسـلّلَ طاقتـي إليهـا. إنّنـي لم أختـبر شـيئاً مثـلَ هـذا مـن قبـل. لقـد جعلتْنـي أرتجـف. حـين ماتـت أمّـي، كان عمـري عامـاً واحـداً، ويبـدو لي كأنّهـا لم تكـنْ يومـاً. أمّـا أنانتـا فهـي حـاضرة، شـعرتُ بدفئهـا ونبـض الحيـاةِ فيهـا. وفكّـرتُ في كلّ مـا مـرَّت بـه، ومـا قالتـه لي سـوريا عنهـا، وفي المذبحـة التـي وقعـت في كاونبـور، وجيريبـالا التـي انتزَعتْهـا مـن جسـد مربّيتهـا وحملتْهـا بعيـداً، ثـمّ غسّـلتها بمياه نهـر يامونـا. فكّـرتُ فيـما رأتـه عيناهـا ومـا لمسته يداهـا، وشـعرْتُ أنّ كلّ شيء قـدْ سرى عـبر راحـة يدهـا الناعمـة متسـلّلاً إلى أعـماقِ قلبـي.

بـدأ اللّيـل يهبـط في الخـارج. توقفـتُ عـن الـكلام فسـحبَت أنانتـا يدهـا. وأسـدلتْ طـرف النّاموسـية دون أن تنظـر إليّ. لـذا أشـعلتُ المصبـاح الصغـير أمـام بابهـا وخرجْـت. ولم يمـضِ وقـت طويـلٌ حتّـى عـادت سـوريا مـن النّبـع. أخـذت المصابيـحُ تومـض في معظـم البيـوت، والنـيران

تنطفـئ رويـداً رويـداً. فكّـرْتُ في جـاك وسـوزان في الكرنتينـة، وفي جـون وسـارة اللّذيـن يصارعـان المـوت في جزيـرة غابريـال. لقـد نفـدَ عندهـم زيـت المصابيـح، ولا بـدّ أن العتمـةَ قـد غمـرت كلّ شيء. ثـمّ إنّـه لم يتبـقّ لديهـم سـوى القليـل مـن الأرزّ وميـاه الصّهاريـج المُـرّة.

أقبـلَ الأطفـال إلى الشـاطئ. لم يعـودوا يخافون منّـي بعد الآن، بـل صاروا يتجـرّؤون ويجلسـون جـواري عـلى الرّمـل وينادونـني. وكان الرّاعـي الصغير الأبكـم شـوتو الـذي يتجـوّل دوماً مـع سـوريا، يقف على مبعـدة منّا، ويسـلّي نفسـه برمـي أشـياءَ في الرّمـل، مثل العظـام. «ما هذا؟» سـألته حـينَ أراني أحدَ تلـك الأشـياء. كانـت مجـرّد قطعـة مـن الحديـد الصـدّئ، ربّما مـن بقايا السـدّ القديـم، أو مـن حطام قـارب. وقد حـتَّ البحر قطعةَ المعـدن تـاركاً إيّاها مثل عظـم أحفـوريّ. وفيـما كنـت أتفحّصهـا أغلـق يـدي وأشـار لي أنْ احتفـظ بها لنفسـي. كان وجهه يُشـعّ نعومةً تحـت كتلة شـعره المجعّد، ولعينَيـه بريق حجر الأبـاش. إنّـه شـبيهٌ بِكَنزِه، غريـبٌ وعـاديٌّ في آنٍ معـاً، قطعةٌ من هـذه الجزيرة التـي تُخبّر عـن الزمـن والموت.

أذِن لي بالجلـوس إلى جـواره عـلى الرمـل. فتسـلّينا بعـض الوقـت بكِسَر العظـامِ التـي جمّعهـا. مـرّر أصابعـه بخفّـة عـلى ذراعـي متحسّسـاً شـعرها، والعتمـة تـكاد تخفـي ملامحـه، لكـنّ عينَيـه كانتـا تلتمعـان ببريـقٍ أصفـر.

ثـمّ وصلـت سـوريافاتي أخـيراً، وقـد جلبـت المـاء الـذي ستسـتحمّ بـه أنانتـا بمسـاعدتها. تفـرّق الأطفـال، ولم يبـقَ سـوى شـوتو الـذي بـدأ يعـزف عـلى النّـاي بهـدوء، فانسـابت أنغامـه عـبر اللّيـل، قادمـةً لا أدري مـن أيّ مـكانٍ عـلى طـول الشـاطئ. حتّـى هـو نفسـه لم يكـن يسـمعها، بـل كان يعـزف وحسـب، متذكّـراً الحـركات التي عليـه أنْ ينفّذهـا بأناملـه.

بـدأت المحـارق تشـتعل في خليـج باليسـاد، لا مـن أجـل أحـدٍ، وإنّـما فقـط مـن أجـل أنْ يسـعد الـرّب يامـا برائحتهـا. واختلطـت رائحـة خشـب الصنـدل والزيـت بعبـق البحـر، وبموسـيقى النّـاي وصـوت سـوريا وهـي تهدهـد أمّهـا. كنـت لا أزال أفكّـر في سـوزان التـي تنتظـر عـلى الطّـرف الآخـر ميـاه النّبـع، ولربّـما كنـت أهـذي مـن الحمّـى.

أحـضَرت لي سـوريافاتي طبـق الأرزّ. كان في حركاتهـا شيءٌ مـن توتّـر وفـراغ صـبر وغضـب. وضعَـت الطّبـق عـلى الأرض، فـوق حجـرٍ منبسـط، وجلسَـت عـلى مسـافةٍ منّـي ووشـاحها الكبـير يغطـي كامـل وجههـا. ولّمـا فرغْـتُ مـن الطّعـام قالـت:

عليك أنْ تنصرفَ الآن.

كان صوتها مرهقاً، ونبرتها غريبةً علـيّ:

- لا يمكنكَ البقاء أكثر.

- لماذا؟

نهضُـت. كانـت العتمـة قـد أطبقت عـلى الشـاطئ، وغـادر الأطفـال، فيما واصـل شـوتو عـزف موسـيقاه البسـيطة الخالية مـن الهموم.

- لماذا تريدينني أن أذهب؟ هل الشّيخ حسين هو السبب؟

قالت غاضبةً:

- كلّا، لا علاقـة للشّـيخ حسـين بذلـك. أنـا مـن تطلـب منـك ألّا تعـودَ إلى هنـا بعـد الآن.

كان صوتها يرتجف قليلاً، كأنّها تبحث عن كلماتها.

- أنتـم، السّـادةَ البيـض، كلّكـم كاذبـون. تقولـون إنّكـم تحبّوننـا ثـمّ تنسـوننا. أمّـي سـتموت، لا أريـدك أن تزعجَهـا، لا أريـدك أن تؤذيَهـا.

ولمّا حاولتُ الاحتجاج، نهضَت بدورها، وشالها يرفرف في الريح، وقد استطال ظلّها في غبش العتمة. لم أفهم ما كانت تقول. وفي الوقت نفسه، كنت أعرف جيّداً أنّ ما حدث في باليساد، وما تخلّله من إطلاق البحّارة المسلحين الأعيرةَ الناريّة، وصراع أوكا المسكين مع الموج، هذا كلّه قد غيرّ شيئاً ما. قالت مُحتدّةً:

- تأتي إلى هنا وتُحدّث أميّ بلطفٍ في غيابي، بينما أنتم هناك ترسمون الخطط فيما بينكم - أنتم السّادةَ البيض - كي يخرجِوكم من هنا وحدكَم، من دوننا، ويُتخلّى عنا كما حدث من قبل، فنُترَكَ لنموتَ هنا عن آخرنا.

- عن أيّ خططٍ تتحدثّين؟ لا أعرف ماذا تقصدين.

لكنْ كان هناك شيء كاذب في صوتي، فقد كنت على علم بالرسالة التي أراد فيران وبارتولي إرسالها إلى الحاكم يطلبان فيها نقل ركّاب **لافا** وحدهم إلى لابوانت أو كانونييه.

خفقَ قلبي بشدّة، لم أعرف بماذا أجيب كي أدافع عن نفسي. قُلت:

- ولكن ما المطلوب منهم أنْ يفعلوه؟ لقد صادر الشّيخ حسين كلّ الطعام. لم يبقَ لديهم ما يأكلونه على الطرف الآخر!

ندّت عنها ضحكةٌ خافتة مزدرية. وكان صوتها بارداً لا مبالياً. فهمتُ فجأةً كم تمقتهم جميعاً، هؤلاء السّادة البيض الأنانيّين والقساة، من عَمِلتْ والدتُها في خدمتهم طيلة حياتها وما كان منهم إلّا أنْ تخلّوا عنها.

- لكنْ... ألا تفكّرون إلّا في الطعام! تريدون أنْ تأكلوا طوال الوقت! اختنقَت الكلماتُ في حنجرتها، وكادت تنفجرُ باكيةً.

- أمّـي... أتعلـم كـم من الوقت مـضى عليهـا دون أنْ تـأكل؟ إنّها على وشـك الرّحيـل، وأنت قلـقٌ لأنّه لا يتوفّـر كلّ ما تريـد من أرزّ!

كانـت ظالمـةً ولئيمـة، لكنّنـي أحببتُهـا أكثـر. شـدّت يـدي وقادتنـي إلى الطريـق حيـث تُـرى أكـواخ المنبوذيـن وهـي تومـض جميعـاً بنـور المصابيـح.

- انظـر! هـل يـأكل هـؤلاء؟ هـل كان لديهـم أرزّ حـين تركهـم السّـادة البيـض هنـا لشـهورٍ، خوفـاً عـلى أنفسـهم مـن الأمـراض، ومـن حـرب الكاونبـور؟

ثمّ أردَفَت في نوبة غضبٍ:

- أنتم الذين تأكلوننا، أنتم من تقتاتون على فقرنا.

تركَتنـي وعـادت إلى البيـت مندسّـةً تحـت الناموسـيّة، لتمنـح أنانتـا بعـض الـدّفء.

غمـر الدّخان المتصاعد من المحارق الشّـاطئ، فأحسسـتُ بطعـم الرمادِ في فمـي، وطعـم المـوت. وأخذتُ أركـض نحو طـرف الجزيرة. لم أعـد أرغب في استنشـاق تلـك الرائحـة بعـد الآن. أردتُ أن أكون كما يكون المـرءُ على جؤجؤ سـفينة؛ يشـقّ الريح والمـوج، ويلتحم بعالم البحـر والطيور.

كانـت الريـاح تهـبّ محمّلـةً بالمطـر البـارد، وقـد عـلا المـدّ فـوق الشّـعاب المرجانيـة هـادراً بـلا كلـل. جلسـتُ في مـكانيَ الأثـير بـين تجاويـف البازلت، أمـام صخـرة بيجِـن هـاوس، وشرعـتُ في رحلتـي البطيئـة لعبـور ذلـك اللّيـل الطويـل.

استفقتُ عنـد الفجـر عـلى دويّ انفجـارات. كان قريبـاً جـدّاً، قادمـاً مـن جهـة الصّهريـج. اعتقـدتُ للحظـة أنّ أعـمال الشّـغب قـد اسـتؤنفت، وأنّ

الشّيخ حسين قد أطلق قوّاته ضدّ الكرنتينة. فتسلّلتُ عبر الأجمات.

ولمّا بلغتُ الصهريج، سمعتُ صوتَ عدْوٍ. مرّ أحد جديان شوتو من أمامي هارباً بأقصى سرعة. لا بدّ أنه أصيب بجرحٍ، فقد لمحتُ دماءً على الأرض حيث كان. ومن فرجة الشّجيرات قربَ الصّهريج، رأيت في ضوء الفجر الشاحب طيف بارتولي الثّقيل، يتبعه جوليوس فيران حاملاً مسدّسه في يده. ولمّا رأياني، قفَلا راجعَين دون أن ينبسا ببنت شفة. كانت هذه المطاردة شديدة الهزليّة والوحشيّة في آنٍ معاً، وما كان منّي بعد مشاهدتها إلّا أنْ هربت إلى الشاطئ وغُصت في مياه البحيرة. وقد بدا ليَ الآن أنّنا تخطّينا عتبة الجنون.

27 يونيو

في طريق عودتي إلى الكرنتينة عصراً، بدت المباني في ضوء الشمس شبه جديدة، تُزيّنها باقات الرّيحان التي زرعها المسنّ ماري حول المستوصف، والدّيداء الشديدة الخضرة الزّاحفة حتّى البحر مثل سياجٍ شجريّ إنجليزيّ. وإذا تجاهلنا السّبب الذي جعلنا سجناء على هذه الجزيرة، فإنّ هذا الوصف يكاد يكون هو ذاته الذي رسمه جاك لفردوس طفولته. البناياتُ في عزبة آنّا، والبيتان، بيت الشّهاب وبيت كبير العائلة المحاطان بحديقة كبيرة سريّة. هناك، كما قال، لا يُسمَع سوى هدير الموج حين يضرب في رمل الشّطآن الأسود، حيث تلتحم السّماء بزرقة البحر الوسيع.

من أجل هذا عدتُ إلى الكرنتينة، أردتُ أنْ أصغيَ إلى جاك ثانيةً وهو يتحدّث عن ذلك الزّمن. فلم يعد هنالك ما من شأنهِ أنْ يغيّر

حياتي، لا شيء آخر يمنحني الأمل في الغد. أردتُ أنْ نتحدّث ونتحدّث، كما كنّا في إنجلترا حين اصطحبني جاك وسوزان في رحلةِ هاستينغز بداية الصّيف حيث قضيا شهر العسل. كنّا آنذاك نبقى معاً، تحت بطانيّة كبيرة، نتحدّث عن المدينة وعن عزبة آنّا. كنت أنا وسوزان نصغي، وعيوننا تلمع دهشةً، كان ذلك ساحراً: حقول قصب السّكّر الممتدّة بلا نهاية حتّى الجبال، والطريقُ على طول البحر إلى أوه بويّيي، وخليج فلْيك أو فْلاك، ثمّ شمالاً، حيث نهر بيل آيل ومدينتا طِيبة ومكّة. كانت هذه الأسماء تُعيّن أماكن لا يمكن أن توجد إلّا في الأحلام.

دخلْتُ البيت. كانت سوزان وحدها، وكانت أحسنَ حالاً. لقد تعافت وأشرقَ وجهُها، واستعادت ابتسامتها وعينَيها السّاخِرتين.

- ليون؟ ألم تعرف؟ سيأتون لأخذنا. سوف ينقلوننا إلى موريشيوس، وإلى لا بوانت أو كانونييه. جاك ذاهبٌ لتسليم رسالةٍ إلى الحاكم، سيأتي قاربٌ ليقلّه.

لم أجب. فكّرتُ فيما قالته سوريافاتي بالأمس، وفي غضبها.

- ما بكَ؟ تبدو غريباً. هل رأيْتَ جاك؟ أين كنتَ؟ لقد استبدّ بي التّعب بالأمس، ولا أتذكّر أيّ شيء.

قلت بلا حماسةٍ:

- يمكنني أن أحضر لك بعض الماء العذب من النّبع.

أخذت يدي. وكانت راحتاها حارّتَين كالجمر. قالت في توتّر ونفاد صبر:

- كلّا. كلّا. لا داعي لذلك. غداً سنكون في موريشيوس، سيكون لدينا كلّ الماء الذي نريد. يقول جاك إنّ هناك نهراً صغيراً

غير بعيدٍ عن المدينة، ماؤه باردٌ في الشتاء، وبحيرةً صغيرةً أيضاً تأتي إليها الطيور لتشرب أثناء تحليقها، مليئةً بالأسماك الذهبيّة، وتقصدها النساء الهنديّات مساءً للسباحةِ. أريد أن أذهب للسّباحة هناك أيضاً، حتّى لو لم يعجب ذلك العمّ أرشمبو. سأذهب للسّباحة في النّهر، لقد سبحتُ قبل ذلك في النّهر، فأنا أتقن السّباحةَ كما تعلم، وفي المدرسة الدّاخلية كنت الفتاة الوحيدة التي تجيدها، كنت أذهب سرّاً إلى النّهر، وكان الماء بارداً، وعذباً، لا تتخيّل...

لم تستطع التوقّف عن الحديث. كانت تهذي إلى حدّ ما. وعلى الرغم من المرض، فقد استعادت تعبير وجهها الذي طالما أحببْت، ولمعةَ عينَيها الزرقاوَين الضاربتَين إلى الرّماديّ، وحمرة وجنتَيها، وشفتَيها اللّتين تكشفان عن أسنانٍ ناصعة البياض. تذكّرتُ كيف أُغرمتُ بها حين زارت العمّ وليام في باريس أوّلَ مرّةٍ، وقد قدّمها جاك للعم قائلاً: «سوزان موريل، من جزيرة لاريونيون، مقيمةٌ في باريس، يتيمةٌ مثلنا». وكان هناك عشاء كريوليّ، كستناءٌ وشاي، وكعكة الفلفل.

كانت تلمسُ كلّ شيءٍ وتضحك وتحتضن أخي، لا أعتقد أنّني رأيت أحداً مثلها. نسيَت يومها حقيبتها ومنديلها في الحمّام، فدفنْتُ وجهي في منديلها لأستنشق عطرها، وشعرْتُ بالخجل لاحتمال أنْ تراني. بدا لي أنّني أشتمّ هذا العطر الآن أيضاً، عطراً عذباً مدوّخاً، ولاذعاً نوعاً ما.

- أتذكُرُ هاستينغز؟

لم أنسَ شيئاً. وكأنّها قرأَت ما يجول في ذهني.

- لّما رأيْتكَ، اعتقدتُ أنّك أصغر سنّاً ممّا أنت عليه، وكان

شعرك أسودَ مثل الغجر، ولكي أناكِفَك قلتُ لك إنّ لك عينَين خاملتَين، ورموشاً عجيبةً من فرْط طولها وانحنائِها.

كانت جالسةً بجوار الباب تحيط ركبتَيها بذراعَيها، مثلما كانت تفعلُ دوماً عندما نذهب إلى شاطئ البحر. إذ لم تكن تحبّ الجلوس على المقاعد، فكانت تختار مرْجاً أو ركناً من الشاطئ بعيداً عن الرّيح. وكان جاك يقول إنّها مثل أمّي، لا تكترث لأقاويل النّاس.

- أتَذكُر؟ ذاتَ مساءٍ قبّلتُ جاك على الشّاطئ، فدنت منّي امرأةٌ وأهانتني. قالت لي بالإنجليزيّة: فلتمضِي إلى فندقٍ تقترفين فيه قذارتك!

ثمّ ضحكَت، أمّا أنا فكان قلبي ينفطر حزناً لِيقيني أنّ جاك لم يكتب تلك الرّسالة، وأنه حتّى لو كتبها، فلن يتمكّن على أيّ حالٍ من تسليمها إلى الحاكم. كان فيران وبارتولي في تلك اللّحظة على قمّة البركان، بين أنقاض المنارة، يحاولان مثل أخرقَين تشغيل الهليوتروب المرتجل مع آخر خيوط الشّمس، ملتفتَينَ صوب ساحل موريشيوس البعيدِ اللّامبالي والضارب إلى الرّماديّ، حيث تتكاثف الغيوم.

شعرَت سوزان بالعطش. ناولتُها كوباً من مياه الصّهريج السوداء الفظيعة، التي كان لا بدّ من استخراج يرقات البعوض منها واحدةً واحدةً بساقِ عشبة. همسَتْ قائلةً:

- آخرَ مرّة...

كانت متعبة جدّاً. وثِقلُ عينَيها يرهق وجهها. قالت مستعيدةً للحظةٍ روحها السّاخرة، وابتسامة عينَيها:

- وماذا عن حبيبتك، راقصتِك الهنديّة تلك؟ عليك أنْ تعرّفني بها.

قلت:

- سوريا؟

فحرّكت شفتيها كأنّها تعيد الاسم بهمس. ثمّ خطر لها أمر:

- قال لي جاك أمس: لن أتخلّى عنهم أبداً. وطلب في رسالته أن يُنقَلَ الجميع إلى لا بوانت أو كانونييه، وقال إننا لن نرحل من دون المهاجرين.

- أعرف...

- إنّه يدافع عنك دوماً. ليلة البارحة، لم تكن هنا، كنتَ معها... قال فيران إنّه ينبغي أن تُسجَن، وتُمنَع من الذّهاب إلى هناك، وأنك أصبحت خطيراً. فغضب جاك وصرخ في وجهه: مَن تظنّ نفسك؟ ووصفه بالمجنون، والمحتال.

كانت تحاول أن تقول شيئاً مضحكاً، لتسلّيَني، وتبقيَني برفقتها، مثلما فعلت حين أتت إلى بيت العمّ وليام، وكنت أترقّب كلّ نكتةٍ من نكاتها.

- حسناً، سيكون لديهم ما يثرثرون به في موريشيوس إذا أتيتَ معها! ستجعل حياتهم صعبة!

وتَلَتْ قصيدة بودلير:

«حين، مُغمضَ العينَين، في مساءٍ خريفيٍّ حارّ
أتنشّق عَبير نهدِكِ الدّافئ،
أرى شواطئَ هانِئةً تنبسطُ أمامي،
تتلأْلأُ تحتَ نيرانِ شمسٍ رتيبة».

أصابني الذهول. فهي التي عاشت لأيّام لم تعرف فيها سوى الحمّى والماء، كانت أصفى منّي ذهناً. وكانت عيناها تلمعان في غبش العتمة.

- هل نسيتَ يا ليون؟

قلت بصوت خافت:

- كلاّ، لم أنسَ.

- حدّثتَني عن بودلير فكرِهْته. وجدتُه رجلاً شرّيراً، زد على ذلك رعبَه من النساء! فقلت لكَ لا أريد سماعه. ومع ذلك، فقد قرأتَ عليَّ الخادمة ذات القلب الكبير:

«الموتى، الموتى المساكين، ما أعظم ألَمهم!»

فاقشعرّ بدني، أتذْكُر؟ فألقيتُ بدوري قصيدة أغنية هيواثا للونغفيلو. كان الأمر أشبه بمعركة، كلماتُك مقابلَ كلماتي. أمّا جاك الذي لم يكن يفهم ما يجري، فقد همّ بقراءة قصيدة لامارتين «البحيرة». أيّ فظاعة!

لقد أصبح هذا كلّه بعيداً جدّاً الآن. وقد بدا هنا، بين جدران الحمم البركانية، وفي هواءِ الغروبِ الحارّ والعزلة، شديد الغرابةِ، عصيّاً على الإدراك أو يكاد.

- قرأتَ لي قصيدة بودلير الدّعوة إلى السّفر. ولم أُرد أنْ أخبرك بما شعرتُ به آنذاك. إنّني لم أسمع قطّ أجمل من ذلك.

كنّا نفكّر في الشيء ذاته، في اللّحظة ذاتها.

- تتذكّر عندما نزلْتَ إلى اليابسة في عدن؟ كنت على ظهرِ السفينة، متمدّدةً على كرسيٍّ طويل أستنشق بعض الهواء النقيّ. كان الحرّ شديداً، وكان القائد بوالو حاضراً. عاد

جـاك شـاحبَ الوجـه وقـال لي: «لقـد رأيـت قبـل قليـلٍ رجـلاً يُحتَـضر». وكان صوتُـه يـشي برغبتـه في البـكاء.

ثـمّ تراجعَـت إلى الـوراء، وتمـدّدت عـلى الأرض السـوداء مغمِضـةً عينَيهـا. أمسـكتُ يدَهـا، كانـت ناعمـةً ودافئـة وممتلئـةً قـوّةً. شـدّت عـلى كفّـي وقالـت بحسـرة، كأنّهـا عرفـت حقّـاً مـن يكـون ذاك الرّجـل:

- يا إلهي، كم كرهتُ رامبو هذا!

كانـت الرّيـح تهـبّ عـلى جـدران البيـت، فتناهـى إليّ صـوت جـاك. كان قـد وصـل إلى رصيـف الميناء عـلى زورق مـاري. سـمعتُ كلماتـه في نفحـاتٍ متقطّعـة مترنّمـة، كـما لـو كان يتحـدث الكريوليّـة. أردتُ أن أذهـب وأختبـئ، لكـنّ سـوزان أمسـكتني مـن يـدي، وتكلّمَـت سريعـاً، كـي تنهـيَ حديثهـا قبـل أنْ يصـل جـاك.

- صاحبُـك رامبـو هـذا رجـلٌ شرّيـر، لكنّـه كتـب قصائـد جميلـة. ربّـما عليـك أن تكـون شرّيـراً كـي تنظـم قصائـد جميلـة.

- أو ربّما العكس، فلعلّه أصبح شرّيراً لأنّه كتب أشياء جميلة.

- كلّا، لا أعتقـد أنّ هـذا صحيـح. ثـمّ نظـرتْ إليّ، وقالـت بصـوتٍ يـكاد يكـون همسـاً:

«بينا أَنزل أنهاراً واجمةً
لم أعد أَحسُّ بي مقطوراً من لَدُنْ ساحبي الحبال
كان هنودٌ حمرٌ قد تخِذوهم أهدافاً
بعدما سمّروهم عراةً على الأعمدة الملوّنة».(1)

---

(1) من قصيدة «المركب السكران» لآرتور رامبو بترجمة كاظم جهاد، مصدر سبق ذكره.

كان ذلـك أيّـامَ هاسـتينغز، حيـث كنـت أحمـل معـي، أينـما ذهبـتُ، الكـرّاس الـذي كُتبـت فيـه هـذه القصائـد. لقـد وُهِبَـت سـوزان ذاكـرةً استثنائية. إذ لم أكـن قـد قـرأت لهـا هـذ القصيـدة سـوى مـرّةٍ واحـدةٍ، وقـد أصغـت إليهـا بجديّـة الأطفـال.

غـادَرتُ الغرفـة. كان الشّـفق في الخـارج مبهـراً، واعـتراني إحسـاسٌ بأنّنـي أسـمع صـوت الضـوء، كأنّـه ارتعـاشٌ مُتّصـل. دخـل فـيران وبارتولي مُلحـق المسـتوصف، وأقبـل جـاك نحـوي.

- كيف حالها؟

- تبدو أفضل. فهي تتحدّث كثيراً.

لم أسـتطع التقـاط نظـرة جـاك في ضـوء النّهـار. لكنّنـي رأيـت طيفـه الهـشّ، وانحنـاءة ظهـره، ولحيتـه وشـعره الأشـعثَين، وصلعتـه الناشـئة، وهـي العلامـةُ التـي تميّـز عائلـةَ أرشـمبو وتسـخر منهـا سـوزان. كان صوتـه متعبـاً مـتردّداً:

- لم يتبـقّ عندنـا شيءٌ تقريبـاً، لا مـن الكينـين ولا مـن المطهّـرات، فـكان علـيّ أن أذهـب لتسـوّل المـؤن مـن باليسـاد. كان فـيران يفكّـر بالسّـطو عليهـا بمسدّسـه! لقـد أصبـح خطـيراً.

نظرَ حوله تائهاً.

- سيتعيّن علينا صنعَ الجير، الكثير من الجير.

- هل استطعت التّواصل مع المحافظ؟

هزّ جاك كتفَيه.

- سوزان من أخبرتْك؟

جال ببصره بحثاً عن فيران الفاسد.

- إنّها فكرة هذا الوغد المتبجّح. ظنّ أنّهم سيرسلون قارباً لنا بناءً على طلبه. ما كان ينقصه إلّا أنْ يشترط أنْ يكون قاربَ أفيزو![1]

بدا في غاية اليأس حتّى أنّني كنت أنا من حاول تهدئته هذه المرّة، مستعيداً العبارة القديمة: «قلقٌ ورجاء...» وإنْ كنت لا أؤمن بها أقول.

ونظرتُ إلى وجهه في ضوء السّماء الصافية: اللّحية والأنف المعقوف والجبين العالي الأصلع. إنّه هو، وإنّه كلُّ ما تبقّى لي من أبي، أستطيع أن أتخيّل كيف كان لمّا التقَت به أميّ عام 1860 على متن السفينة البخارية إنديا، في الطريق إلى إنجلترا. كان في عمرِ جاك اليوم، أكملَ دراسة القانون في لندن وصار محاميّاً لامعاً، شاباًّ رومنطيقيّاً في مُقتَبَلِ العمر، يثيرُ إعجاب النساء. وقد وقع على الفور في حبّ هذه الفتاة الغريبة الأوراسيةِ، الجريئة والمتحفظّة في آنٍ معاً، التي كانت ذاهبةً للعمل في الطرف الآخر من العالم. احتفظ جاك بالورقة الكبيرة حيث كتبت أماليا الاستبيان الطويل الذي كانت الفتيات الشابّات في ذلك الزّمن يطرحنَه على من يخترنَه ليكون فارسهنّ في السّهرة:

- ماذا تحبّ اللّيلةَ؟
- أنْ أنظر إليكِ.
- ماذا تكره؟
- أنْ ينظر الآخرون إليكِ.

(1) نوعٌ من السّفن الحربيّة الفرنسيّة السريعة.

- رقصتكَ الأثيرة؟
- لا شيء، لا أعرف الرّقص.
- بطلُك؟
- ألكسندر.
- بطلتك؟
- جولييت.
- بماذا تحلم؟
- بالأرض البعيدة.
- في أي بلد تودّ أن تعيش؟
- لا أعرف. ربّما في لابي[1]
- الصّفة التي تفضلها في الرّجل؟
- الصّراحة.
- في المرأة؟
- الرّقة.
- لو كانت لك أمنية؟
- أنْ أراكِ كلّ يوم.
- حالتكُ الذّهنية في هذه اللّحظة؟
- قلقٌ ورجاء.

مكتبة
t.me/soramnqraa

لم أعـرف قـطّ مـا الـذي فعلـه جـاك بتلـك الورقـة. لكننـي نسـختها بـدوري، وحفظتهـا عـن ظهـر قلـبٍ لأتلوَهـا عـلى نفـسي ليـلاً، مثـل

(1) مقاطعة ممتدّة على عدّة بلدان في شبه الجزيرة الاسكندنافيّة.

مسرحيّة، في نزل السيدة لوبير في روي مالميزون، وأكثر ما أحببته فيها، وكان يجعلنا نضحك دوماً أنا وجاك حين يقرأها كلّ منّا للآخر هو هذه الإجابة الأخيرة: «قلقٌ ورجاء»، وكلّما واجهتْنا عقبةٌ في الحياةِ، أو خشينا أمراً ما، كان يخلُص أحدنا دوماً إلى القول: «قلقٌ ورجاء».

ابتسم جاك ابتسامةً طفيفة. فقد تذكّر هو الآخر.

خيّم اللّيل على الكرنتينة. وبعد أيّام من المطر والريح، انجلت السماء وتألّقت. لا أستطيع النّوم من فرطِ الضوء، ومن هذه الهِزّة الآتية من قاعدة الجزيرة مثل موجةٍ تسري في البازلت لتتسلّل إليّ فتجعلني أرتعش على ساقيّ. لكأنّ الجزيرة بأكملها ذاكرةٌ تنبثق من قلب المحيط، حاملةً في ثناياها شرارة الولادة الدّفينة.

حين كنا معاً في فرنسا، في حيّ مونبارناس، كان جاك يحّدثني طيلةَ الوقت عن جزيرتنا، عن بحرها الذي تُرى فيه زرقةُ العالم كلُّها، معتماً غاضباً تارةً، وشفيفاً عذباً وساجياً تارةً، مثل نهر دائريّ يتدفّق عبر البحيرة حاملاً أزهاراً من الزّبد. وعن سمائها أيضاً، والنجوم التي تشعّ في ليلها. ومن كثرة ما استمعت إليه انتهى بيَ المطاف إلى الاعتقاد بأنّني رأيت هذا كلّه حقّاً، وأنّني أتذكّره الآن بعدَ أنْ جلبْتُه معي مثل كنز حينَ رحلتُ عن موريشيوس. وفكّرتُ في سوريا. فقد عاشتْ هي أيضاً حياةً عبرَ أمّها، ومثلي تحمل ذكريات تختلج في أعماقها وتمتزج بحياتها، ذكريات الطّوْف الذي أبحرَ بأنانتا وجيريبالا على طول الأنهار، وذكريات أسوار مدينة الله أباد ومدارج المعابد في فاراناسي، واهتزازات السفينة التي اجتازت بهما المحيط نحو المجهول، نحو الطرفِ الآخر من العالم.

هـو ذاك، وأعلمُـه الآن جيّـداً: إنهـا الذّاكـرة التـي تهتـزّ وترتعـش في أعماقـي، هـي الأرواح الأخـرى والأجسـاد المحترقـة المنسـيّة التـي تصعـد ذكراهـا إلى سـطح الجزيـرة. هكـذا تحدّثـت سـوريا عـن جدّتهـا التـي اختفت في النـار، في مـكان مـا عـلى شـاطئ باليسـاد، وظلّـت روحُهـا المُنعتِقـة تتنقّـلُ بـين الحجـارة السـوداء والأجمـات الشـائكة ممتزجـةً بأنفـاس الريـح، جاعلـةً طيـور رئيـس البحـر تحـوّم فـوق بحـيرة غابريـال مثـل حـراس أبديـين. وحـين تمـوت أنانتـا، سـتعودان معـاً إلى نهـر يامونـا.

نمـتُ في الكرنتينـة عنـد البـاب، وهـو المـكان الـذي اخترتُـه منـذ البدايـة كـي أتجنّـبَ لدغـات البعـوض. واسـتعدت وسـادتي، الصخـرةَ البركانيّـة القديمـة التـي حتّهـا المطـر والريـح. وأخـذتُ أسـتمع إلى حفيـف الريـح في أوراق الحشـف المقـوّس وسـعف النخيـل. كانـتْ ليلـةً أشـبهَ بأمسـيةٍ صيفيّـة، حيـث كلّ شيء يعـزف لحنـه الخـاصّ. سـمعتُ بوضـوحٍ أزيـز السرطانـات البريّـة، وصريـر الفئـران الخفـيّ بـين النخيـل الكرنبـيّ، وحتّـى دبيـب الحريـشِ بقشرتهـا الحديديّـة. لم أسـتطع النـوم عـلى الرغـم مـن التّعـب الـذي يحـرّق جفنَـيّ. سـمعتُ أنفـاس سـوزان الهادئـة، وشـخير جـاك في عمـق الغرفـة. وفي لحظـة مـا، خرجـتُ لقضـاء حاجتـي، فرأيـت البـدر يلمـع في مـرآة البحـيرة. كان المـدّ يعلـو ويعلـو، لا في موجـاتٍ كبـيرةٍ عاتيـةٍ مثـل تلـك التـي أحاطـت سـوريافاتي بهالـةٍ وهـي في طريقهـا إلى الشّـعاب المرجانيـة، وإنّـما بلطـفٍ، غامـراً بهـدوء كلّ تجويـفٍ وثلـمٍ بـين الشّـعاب. وتناهـى إليّ مـن بعيـد، مـن جهـةِ صخـرة بيجِـن هـاوس، هديـرُ المـوجِ المتـكسّر عـلى الرصيـف المرجـانيّ. ثـمّ سـمعتُ وقـع خطـىً فخفـقَ قلبـي

بشدّة لظنّي أنّها سورياڤاتي. ولمّا دنا الطيف منّي، عرفتُ أنّها سوزان. كانت تقف بقميصها الأبيض الطويل، وشعرُها المُسرّحُ يرفرف في الريح مثل مُسرنَمةٍ. قلت بِنبرةٍ ساخطة. وقد أحسستُ أنّ مشاعري قد استبدّت بي.

- إلى أين؟

بدت خائفة. كانت بيوت الكرنتينة تلمع في ضوء القمر. لم تُرِد أنْ توقظَ جاك.

همست قائلةً:

- لا إلى أيّ مكان، لست ذاهبةً إلى أيّ مكان، كنت أبحث عنك.

كانت متردّدة. انتَظَرَت أنْ أمسك بذراعها وأُعينها على المشي.

- ليون، لن تذهب، أليس كذلك؟ لن تتركنا؟ ليس لجاك أحدٌ سواك، ولا لي أيضاً.

بقيتُ ساكناً. وكنت أشعر بالبرد.

- كلّا بالطبع، إلى أين تريدينني أن أذهب؟ عودي إلى فراشك، سيقلق جاك عليك.

أرادت التوجّه إلى المرحاض، لكنها لا تقوى على المشي بمفردها، ولا تجرؤ على قول ذلك. أمسكتهُا مِن تحت ذراعيْها وكأنها مصابةٌ بالشلل، وجعلتُها تخطو خطواتٍ صغيرةً فوق الحفرة. أردتُ أن أساعدها في الجلوس لكنّها طلبت منّي الانصراف.

- كما ترى! فما زال بي بعض قوّة لأتدبّر أمري.

في طريق العودة، كادت تسقط أكثر من مرّة، وكانت تتصبّب عرقاً. ابتعدتُ قليلاً كي لا استنشق أنفاسها. ولكي لا تحسّ بذلك حاولتُ

أنْ أمازحها.

- هيا، خطوة أخرى، أنتِ أحسن حالاً مما كنت عليه قبل يومين أو ثلاثة. لم تكوني قادرةً حتّى على الوقوف.

أمسكتُ بها.

- هذا فظيع يا ليون، إنّني... إنّ ركبتَيّ تنثنيان إلى الوراء.

- ماذا تقولين؟ مستحيل!

- بلى، بلى. أؤكد لك إنّها الحقيقة. لم أكن أعرف أنّني وصلت إلى هذا الحدّ.

غلبها البكاء. وتهالكت على الأرض أمام جدار البيت.

- لا أريد العودة إلى البيت، لا يمكنني تحمّله بعد الآن. رائحته الكريهة والجدران وكلّ شيء، أرغب في التقيّؤ. أشعر أنّني إنْ عدت إليه، فسأموت اللّيلة.

استيقظ جاك.

- ماذا يحدث؟ ما بها؟

فاجأني أنْ يتحدّث عن سوزان بضمير الغائب، كأنها لم تعد موجودة.

- ليون، ساعدني كي نحملها إلى الداخل.

غضبتْ سوزان وقاومت، ثمّ انفجرت باكيةً.

- اتركاني وشأني، لا أريد العودة إلى البيت، أنتما شرّيران، ابتعدا عنّي!

تراجعتُ، وقد انعقد لساني. لكنّ جاك أكّد قائلاً:

- لا يمكنها البقاء هنا في مجرى الهواء، فقد تتعرّض لالتهابٍ رئويّ مع هذه الحمّى.

أثارت الجلبة انتباه جوليوس فيران وبارتولي. فوقفا أمام ملحق

المستوصف محاولَين معرفة ما يجري. حتّى أن فيران صاح متسائلاً:

- من هناك؟

وفجأة استعادت سوزان شيئاً من قوّتها وشجاعتها، فصاحت:

- ولكن ماذا تريدان؟ انصرفا، دعاني وشأني.

استطاعت النهوض بمفردها متشبّثة بحافّة السلسلةِ الحجريّة. وعادت إلى البيْت.

ذهب جاك لجلب الماء من الصهريج، وأذاب مسحوق الكينين في القدح. وسمعته يقول لها بهدوء كمن يتحدّث إلى طفلة:

- اشربي أرجوك يا عزيزتي، اشربي، وإلّا فلن تتعافي أبداً.

قالت وصوتها لم يزل مختنقاً:

- كلّا، اتركني، اتركني، إنّني منهكة.

لا أعرف إنْ كانت قد شربت في نهاية الأمر. فلمّا دخلتُ البيت بعد هنيْهة، رأيتهما على ضوء القنديل، متعانقَين، ساكنَين، كما لو كانا نائمَين.

كم يوماً مضى من دونك يا سوريا؟ مُذ طرَدتِني إلى الطرف الآخر لم أقترب، ولم أحاول معرفة ما يجري، ولم أعدّ الأيام. كنت أسير كلّ صباح على الدّرب المفضي إلى خليج الأضرحة عند سفوح البركان. من هناك، أرى في الأفق الساحل الأخضر الباهت جليّاً في الأفق، وألمح الزّبد على قمّة مالورو. لم أعد أعرف إنْ كانت موريشيوس بعيدة أم قريبةً، فمن فرط النظر إليها، صارت تبدو لي أحياناً طوفاً هائلاً آخذاً في الابتعاد عنّي، منساباً تحت أشرعة الغيم التي تسوقها الرّيح.

كانت الأخبار الوحيدة التي نتلقّاها من الطّرف الآخر تأتينا عبرَ المسنّ ماري، ثمّ يردّدها ويضخّمها بارتولي وفيران الفاسد.

وقد تحدّث جوليوس فيران مساء أمس بعد تناول الطّعام (أرزٌّ وعدس مسوّس)، عن شابّ من المنبوذين بنى طوفاً من جذع شجرة جوز هندٍ متعفّنٍ ومن خيوط الكاذيّ، كي يمكّنه من الإبحار إلى موريشيوس. وانطلق إلى البحر من جهة خليج باليساد. تحدّث فيران عن هذه المحاولة كأنّها مشهدٌ هزليّ. انجرف الفتى إلى البحر للحظة ضارباً بيدَيه وقدمَيه كي يدفع طوْفه إلى الأمام، لكنّ موجةً دفعته من جديد نحو الرّصيف البازلتيّ، وكادت تغرقه.

- ما اسمه؟

بدا فيران متفاجئاً بسؤالي.

- وما أدراني؟ فتىً صغيرٌ من المنبوذين.

لم أكن بحاجة لسماع المزيد، أعلم أنّه كان أوكا، الكنّاس، الذي كاد يغرق في ذلك اليوم وهو يحاول السّباحة إلى القارب.

قلتُ بشجاعةٍ مُتحدّياً:

- أنا أيضاً سأفعل مثله.

هزّ فيران كتفَيه.

- إذا أردت، فلن أمنعك. لكنّك لن تصل أبداً. هناك الكثير من التيّارات. لماذا تعتقد أنّ رجال موريشيوس سجنونا في هذه الجزيرة؟ وأردف قائلاً:

- ولا تنسَ أيضاً بعض أنواع سمك القرش البيضاء الجميلة!

لم يكلّف جاك نفسه حتّى عناء الإصغاء إلى هذا الحوار. لكنّ سوزان نظرتْ إليّ مرتابةً. كانت تخشى أنّني سأنفّذ حقّاً هذه الخطة، تحدّياً فقط لهذا الرّجل الذي أمقته. قال بارتولي:

- هذا غير عمليّ. فلو كان هناك أدنى فرصة، لأقدمَ كثيرون من قبلك على ذلك.

رمقَني فيران بنظرةٍ غريبة، وكأنّ هذه الفكرة المجنونةَ أغْوَته في نهايةِ الأمر.

- سنحتاج إلى قاربٍ حقيقيّ. وعلى كلّ حالٍ، فقد نجح فرانسوا ليغوا في الإبحار من رودريغز إلى موريشيوس على جذع شجرة.

كان يفكّر بصوْت عالٍ.

- سنحتاج إلى خشبٍ متين، وإلى أنْ نبنيَ سطحاً وعوّاماتٍ وصاريَةً مع قائمِها. ثمّة بالفعل خشبٌ من الصناديق، ورافعةُ حبلٍ مكّوكيّ في باليساد، إلّا إذا ألقى بها العمّال في محارقهم. هناك أيضاً زورق غابريال. وهذا في مجموعه سيسمح بنقل ما يقارب عشرة أشخاص.

كان بارتولي متشكّكاً:

- أوَتُسمّي هذا قارباً حقيقيّاً؟ وحافته لن ترتفعَ، بطبيعةِ الحال، سوى قدر أصبعَين عن سطح الماء، وأقلّ دوّامة يحدثها سربُ أسماكٍ ستجعله ينقلب؟

قال جاك:

- وعلى افتراضِ أنّنا وصلنا، ما الذي سيحدث؟

- سيجبَرون على الاستماع إلينا، وتلبيةِ مطلبنا بأنْ نُنقَلَ إلى لا بوانت أو كانونييه. لن يعيدونا إلى هنا بأيّ حال!

- إليك ما سيفعلونه بالضّبط. قبل أنْ تجتازوا كوان دو مير، سيكون مركب خفر السّواحل هناك بالفعل، وعندها لكم أنْ تختاروا: إمّا أنْ تصعدوا على متنه عائدين إلى هنا، وإمّا أن يلقوا بكم في عمقِ المحيط بطلقاتٍ ناريّة.

واختتم بارتولي حديثه قائلاً:

- إذن فقد كان المنبوذ على حقّ. لم يكن مجنوناً إلى هذا الحدّ على أيّ حالٍ. فالحلّ الوحيد هو أنْ تبنيَ عوّامتك وتنطلق سابحاً بمفردك، على أمل ألا تقابلك أسماك القرش.

لم يكن هذا الحوار مطَمئِناً لسوزان. وحين خرجتُ من الكوخ، شعرتُ بنظرتها مسلّطةً عليّ، كما لو كنت في تلكَ اللّيلةِ سأرمي نفسي في الماء حقّاً.

منذ عودتي إلى هذا الطرف من الجزيرة، صرنا نمضي أغلب الوقت محبوسين في مبنى المستوصف، حيث يعدّ المسنّ ماري الطعام. ولّما كان جاك يقطع دوره في لعبة الشطرنج كي يذهب ليعود المرضى

في جزيرة غابريال، كنت أمكث في رفقةِ سوزان، ونظلّ جالسينَ عند العتبةِ لأنّها كانت ترتعب من عتمة الغرفة وجوّها الخانق. فأسلّيها بالحديث قليلاً، وأساعدها في الوصول إلى المرحاض. وكانت تأتيها لحظاتٌ من جلاء بصيرة عميقة ومتّقدة. فتلتمع عيناها ببريق ثابتٍ يقلقني، إذ يذكّرني بنظرة نيكولا. وكانت بشرة وجهها مشدودةً جدّاً، خاليةً من أيّ ثنيةٍ، إلى حدٍّ منحها تعبيرَ دمية، حيث الألم والخوف كأنّما أزيلا بممحاة.

عصرَ أمس، طلبَت سوزان من جاك أنْ يقصّ لها شعرها. ظلّت أسابيع غير قادرةٍ على غسله أو تصفيفه. لم يكن عند جاك مقصّ، فتناول موسى الحلاقة الذي يشذّب به لحيته وأخذ يُقَطّع به الشَّعر الكستنائيّ الغزير الدّاكن ذا اللّمعة الذهبيّة الذي كنت أعشقه. لكنّ هذا المشهد الذي كان سينطوي على مأساويّةٍ لا تُطاق، قد أصبح بفضلها مبهجاً وجنونيّاً نوعاً ما. كانت تجلس على حجرٍ أمام الكوخ، بقميص نومها ذي التقويرة الواسعة، وعلى كتفَيها شالٌ هنديٌّ اشتراه لها جاك أثناء توقّفنا في عدن. وكانت تضحك كلّما أسقط جاك خصلةً غليظةً من شعرها. ولمّا فرغ من المهمّة، وقفَت شادّةً قامتها أمامي كي أنظر إليها. بدت أشبه بفتاة صغيرةٍ هاربة من دير، جبينُها متورّم، وعنقها مستقيمٌ، وأذناها شديدتا الاحمرار. وفكّرتُ أنّه، من أجلها، ومن أجل كلّ ما هي عليه، لن يكون في وسعي أنْ أغادر، لن أقدر على الهرب. وبسبب وجهها وجبينها ونظرتها الزّرقاء الرماديّة، سأبقى سجين الكرنتينة. لماذا عليّ الاختيارُ بين شقيقتَين؟

كانت الحُمّى تعاودها عصرَ كلّ يوم حين يتلاشى الضّوء فوق البحيرة. وهي الساعة التي تكون فيها في ذروةِ صفائها الذّهنيّ. تبدأ ترتجف، وأرى الخوف يتصاعد في عينَيها مثل موجة، فأخلط لها في القدح مسحوق الكينين مع ماء الصهريج الفظيع، وأعطيها إيّاه لتشرب. كان جاك هو من كلّفني بهذه الخدمة، لأنها كانت ترفض ذلك منه. ثمّ على سبيل المكافأةِ، أفتح كتابها الصغير الذي أكل العفن غلافه الملوّن بالأزرق والأسود. فتلمع نظرتُها تَوْقاً.

قرأتُ أغنيةَ **هيواثا** كما لو كانت حكاية أطفالٍ، وهي قصيدةٌ بلا معنى خفيّ، مجرد موسيقى كلماتٍ تبعث على الحلم. وكان يبدو لي أحياناً أنّني أقرأ هذا المقطع نفسه إلى ما لا نهاية.

«أتُراها شمس المغيبِ
تحطُّ فوق صفحة الماء؟
أم البجعة الحمراء تعوم وتحلّق
وقد أصابها السّهم السّحريّ
صابغةً الموج كلّه بالقِرمزيّ
قِرمزيّ دمها النّابضِ بالحياة..».

كانت سوزان تتأمّل تحوّلات الضّوء على البحيرة، فيما طيور البلشون المخطط الكئيبة تحلّق ملامسةً رصيف الشّعاب المرجانيّة.

لا تهمّ الكلمات. ما يهمّ هو البريق في عينَي سوزان. بريقُ الترقّب.

في ذلك المساء، ذهبتُ لأتمشّى على طول الشّاطئ في انتظار عودة جاك من جزيرة غابريال بأخبار جون وسارة. راقبتُ أولى علامات

المدّ على الحاجز المرجانيّ. كان البحر هادئاً، سوى من بعض غيماتٍ من عجاج البحر ترسم من حينٍ إلى حين قوس قزح، وهبّات من الرّيح الشرقية بمذاق الملح. بدت الجزيرة أمامي جرداء قاتمة، بلا حياة. كنت بالضّبط في المكان الذي رأيت فيه سوريافاتي أوّلَ مرّةٍ، بطيفها الواقف في منتصف البحيرة أشبه بطائر بلشون أبيض. أمّا الآن فرصيف الشّعاب المرجانية خالٍ، والدّرب الذي يحاذيه يكاد لا يرى، لقد هُجِر المكان. فمنذ صبيحةِ اليومِ الذي أطلق فيه فيران نيران مسدّسه على جدي ضالّ، في مشهدٍ هزَليٍّ دراميّ، لم يعد الأطفال يأتون لجمع الأصداف البحرية. والآن يبدو لي أنّ الحاجز المرجانيّ باتَ يمثل الحدود الحقيقيّة بيننا وبين الطرف الآخر من الجزيرة.

تناهت إليّ مع هبوب الرّيح صافرةُ السّردار الطويلة وصوت الأذان. وأحسست أنّ ترتيلَ المؤذّن هذه المرّة أقرب إليّ من أيّ وقت مضى. وللحظةٍ، حلمتُ بأنْ أكون هناك على الطرف الآخر، أقربَ ما يكونُ إلى هذا الصوت.

ولّما عدتُ إلى الكرنتينة، رأيت جاك يتحدث مع بارتولي وفيران. بدا صوت هذا الأخير عنيفاً، يوشك أنْ يكون خطيراً، وكان جاك مرعوباً. قال بصوتٍ خفيض وكأنّه لا يريد أنْ تسمعَ سوزان:

- يريدون مني أن آخذ سوزان صباح الغد.

لم أفهم.

- إلى أين تأخذها؟

- إلى جزيرة غابريال، في الجهةِ الأخرى، إلى مخيّمِ المصابين بالعدوى.

فما كان منّي إلّا أنْ صرخت:

- لكنّها محمومةٌ فقط!

قاطعني جاك بشيءٍ من الفظاظة.

- سوزان مصابة بالجدري المتكدّس. لا شّك في هذا.

كان يتحدّث بيأسٍ شديد حتّى أنّ عينيّ اغرورقتا بالدّمع. لم أعرف ماذا أقول أو أفعل. خرجتُ أتمشّى حول الكرنتينة متأمّلاً آخر أنوار المغيب الآخذة في الانطفاء فوق البحيرة، وكتلةَ غابريال السوداء في البعيد، وأصغي إلى هدير البحر وهو يضرب في الساحل. كيف سمحنا بأنْ تقع سوزان في هذا الفخ؟ تعاظم الشعور بالخواء في نفسي، في نفسَينا، خواءٍ لا شيء يقْدر على ملئه. وتذكّرتُ فجأةً كلّ ما سبقْ: التهيّؤ للرّحيل، والقطار إلى مرسيليا، والصّعودَ على متن **لافا**، وأمسيةَ الوداع، والقناديل المعلّقة على حبال الأشرعة، والشرائط الملوّنة، والأوركسترا التي عزفت لحنَ رقصةٍ رباعيّة لركّاب الدرجة الأولى، وجاك وسوزان متعانقَين يرقصان في فضاء الدّرجة الأخيرة، وأحواض المياهِ الناعمة السوداء في المرفأ، وانعكاسات أضواء المدينة القديمة، وزوارقَ الصّيد ذات المصابيح تنساب وئيدةً قبالةَ السّاحل.

اعتصر الألم قلبي حين دخلتُ الغرفة. كان جاك يجلس بجوار سوزان، وكأنّه ينتظر حدثاً أو قراراً. وعلى ضوء قنديل الكاز، لاحظتُ لأول مرّة ما رآه جوليوس فيران بلمحة واحدة: وجهَ سوزان المتشنّج، وجفونها الثقيلة، وشفتَيها الجافّتَين المتورّمتَين، وتعبيرَ الألمِ المكتومِ والذهول ذاته الذي طالعته في وجه جون ميتكالف قبل نقله إلى جزيرة غابريال.

وشعرتُ بغضبٍ مفاجئ حين فكّرتُ كيف أنّ فيران الفاسد كان يأتي كلّ يوم لرؤية سوزان، مدّعياً بوقاحةٍ أنّه لم يأتِ إلّا ليسأل عن حالها، فيما هو في الواقعِ قد جاء يعاين عليها أولى علامات المرض كي يُرسلها إلى جزيرة غابريال، وينفيَها بعيداً عن الأحياء. لم أعد أستطيع السيطرة على نفسي، ارتجفتُ غضباً، ومشيت نحو المستوصف بحثاً عن الطاغية، فلم أجد سوى ماري جالساً في مكانه أمام الباب، يدخّنُ غليونه مثل فيلسوف. ولمّا سألته عن مكان فيران، بالفرنسية أولاً، ثمّ بالكريولية، نظر إليّ بعينَيه اللّامباليتَين دون أن يجيب، لكنّني لم أكن في حاجة إلى إجابته. ركضتُ عبر الصخور إلى خليج الأضرحة وصعدتُ سفح البركان دون أن ألتقط أنفاسي. أردتُ أن أبلغ القمّةَ قبل حلول الظلام، هناكَ حيث حقلُ الحجارةِ البازلتية الذي يحضر إليه فيران كلّ مساء ليراقب باليساد. وجدته جالساً على صخرة مسطّحةٍ أعلى النّبع مباشرةً. وفي الأسفل، حيث ينبسط الظلّ، كانت النّساء الهنديّات يغرفْنَ الماء، بعضهنّ عارياتٍ حتّى الخصر، يغسلن شعورهنّ الطويلة.

لمحتُ ملابسهنّ الصفراء والحمراء تجفّ على الصخور السوداء. تملّكني الغضب. إذ لم أستطع أنْ أتقبّل نظراته الفاسقة في هذا المكان الحميم، وعلى هذه المياه النقيّة. وفكّرتُ فيما اقترفه، في الرّصاصات التي أطلقها على جذْيِ شوتو، وفي يأس أوكا.

وما كان منّي إلّا أنْ هجمتُ عليه بوثبةٍ واحدة. أدار رأسه وأنا أضغط على عنقه بثنيةِ ذراعي. تفاجأ للحظة وانحنى للأمام فضربْته بقبضتي اليسرى. ثمّ استقامَ، فصرت تحته، وقد اصطدم رأسي بالصخرة. «أيّها الوغد الصغير، سوف أربّيك!» ووضع ركبةً واحدة

على ذراعي. كان قويّاً شديد الثقل فلم أستطع حراكاً رغم محاولاتي المسعورة، ثمّ حاولَ، بغضب باردٍ، أنْ يخنقني. ضغطَت يداه على عنقي وسحقت حنجرتي. نظرتُ إلى وجهه فوقي، مجرّد قناعٍ بعينَين سوداوين غائرتَين، شنّجَه تعبيرُ الكره والجنون. لم ينبس ببنت شفةٍ ولم يتزحزح، كان يضغط فقط بيديه على عنقي ويخنقني. ولمّا كدتُ أفقد وعيي، سمعتُ صوت بارتولي الأجشّ. كان يشدّه من كتفَيه إلى الخلف محاولاً أنْ يفكّ قبضته وهو يصيح قائلاً:

- اللّعنة، فلتتركه! إنّه مجرّد طفل، سوف تقتله!

فانفتحت أصابع يده واحدةً تلو الأخرى، وأرخى قبضته في نهايةِ الأمر.

- اتركه! لقد جُننتَ!

صار في وسعي أنْ أتنفّس ثانيةً. نهض فيران مستنداً إلى بارتولي. كان شديد الشحوب، وآثار تورّطه في جريمة قتلٍ باديةٌ بعدُ على وجهه.

سرتُ مترنّحاً بين الصخور، وكلّما استنشقتُ الهواء حرّقتني أنفاسي وملأ الدّمع عينَيّ، دون أنْ أعرف ما الذي كان يوجعني أكثر، اختناقي أم غضبيَ العاجز.

مضيتُ لا ألوي على شيءٍ، هابطاً المنحدر نحو المقبرة. صبغَت شمس المغيب البحيرة بلون الدّم، وبدت الجزر مثل تخثّراتٍ دمويّة سوداء غيّبتها الغيوم وطواها اللّيل. وفيما أعبر المقبرة القديمة، رأيت سوريا. كانت تقف وسْط الصخور ملتفتةً قليلاً إلى الوراء، وكأنها تتأهّب للهرب. إلى الأعلى يمتدّ حقل أنانتا حيث عَمِلْت، والمدرّجات والحوْطات. كلّ شيء صامتٌ خاوٍ. أقبلتْ سوريا نحوي ومرّرت يدها على وجهي. كان الدّم قد ألصق

شعري بصدغَي، في موضع اصطدام رأسي بالصخرة. قالت، كما لو أنّ شيئاً لم يحدث بيننا، وكأنّنا التقينا البارحة:

- ماذا بك؟ هل تشاجرت مع أحدهم؟

سارت معي إلى الشاطئ. ثمّ تركتني كي تعود إلى والدتها. وقبل أنْ تغادر همست قائلةً:

- سأنتظرك اللّيلة هناك.

وأشارت إلى المنحدر حيث يقع الكهف.

في تلك اللّيلة لم ننم. كنّا وحدنا نحن الثلاثة في الكرنتينة، محاطين بالرّيح ووشوشة البحر. إنّه آخر مساءٍ لنا هنا. فقد اتّخذ جاك قراره. وغداً سنكون في جزيرة غابريال.

كانت سوزان مستلقيةً في آخر الغرفة، وبجانبها مصباح البونكا يضيء وجهها. كانت نظراتها تتسرّب من بين جفونها، وشفتاها متشقّقتَين. لربّما غاصت في حلمها المحموم، منتقلةً إلى عالمٍ وزمنٍ آخرَين، إلى مروج هاستينغز اليانعة الخضرة، أو إلى رصيف النزهة البحريّ حيث تَعزف الأوركسترا افتتاحيّة فليديرماوس[1]، وتحلّقُ طيور البحر مدوّمةً.

أحسستُ كأنّها تستمع إلينا من عمق نومها. فقلت لجاك:

- احكِ لنا المزيد عن بيت عزبة آنّا.

نظر إليّ حائراً. خلع نظّارته فبانت علامة الأنف المعقوف التي يمتاز بها أبناء أرشمبو.

(1) أوبربت «الخفّاش» ليوهان شتراوس.

- هل وِلدْتُ في بيت عزبة آنّا؟

- أجل وُلدتَ فيه، في غرفةٍ بالطابق العلويّ على ما أذكر. كان ذلك خلال عاصفة رهيبة، وكان الجميع يخشى من قدوم إعصار. لم يكن هنالك طبيب، كان لا بدّ من إحضاره من **كاتر بورن**، انطلقَ أبي في عربة يجرّها حصان تحت المطر الغزير، وعبرَ الطريق الذي يمرّ بين الجبال. هبط اللّيل، وكان الجميع في انتظار عودة أبي، وكم طال الانتظار! أتذكّر أنّه انتهى بيَ المطاف إلى النّوم أمام الباب، وقد وُلِدْتَ وأنا نائم، فلمّا عاد أبي مع الطبيب، كنتَ قد جِئتَ إلى الدّنيا.

كانت هذه هي المرّة الأولى التي يخبرني فيها عن يوم مولدي، وعن العاصفة. لقد آلمني ذلك، وفي الوقت نفسه، ملأني قوّةً ودفئاً. فكرّتُ في سوريا، وبما همسَت لي به عند مغادرتي. فتمنّيتُ أن يمضيَ اللّيل سريعاً.

سمعتُ صفير الرّيح، وكان على شفتي طعم البحر، كما في أوّل يوم وصلنا فيه إلى الجزيرة. وبدا لي أنّني أسمع صافرة السّردار على الطرف الآخر، ولكن كيف؟ فالفجر لا يزال بعيداً، واللّيل طويل.

- وكان في اليوم التّالي أنْ رأيتك للمرّة الأولى، أو ربّما في الأسبوع التّالي، فقد قال الطبيب إنك وُلِدتْ مبكراً، وكنت هشّاً. أتذكرك جيّداً، طفلاً رضيعاً بوجهٍ جميل، ليس مثل حديثي الولادةِ المعتادين على الإطلاق، شعرُك أسود فاحمٌ وغزير. وكنتَ كأنّما وُلدتَ بعينَين مفتوحتين، فعلى الفور حدّقتَ في كلّ شيءٍ من حولك بانتباهٍ كبير.

لم تُبدِ سوزان حراكاً، لكنّني متيقّنٌ من أنّها كانت تسمع. كانت تتنفّس ببطء وعناء. لم أرِد أن أسمع صوتها المخنوق، أردتُ سماع المزيد من هذه الكلمات.

- هل حصلتُ على غرفتي حالاً؟

- كلّا، ليس كما تعتقد! لم ترغب أمّي في تركك، حتّى في اللّيل، أرادت أن تبقى بجانبها، فحصلْتَ على مهديَ المصنوع من الخشب والكتّان الخام، وكان يُصرُّ كلّما حرّكه أحد.

لم تشأ أميّ أنْ يأتوا لها بخادمة، أرادت أن تعتني بك بنفسها. كانت تُبقيكَ تحت ناموسيّتها، وكانت تخشى عليك كثيراً من الحمّى. وقالت أيضاً إنّها سمعت الفئران تتجوّل في البيت.

كان جاك يتمايل قليلاً وهو يتكلّم، كما لو أنّه يحاول إنعاش ذاكرته. وكان العمّ وليام يقول إنّ أبي كان يفعل الشيء ذاته، مثل الأطفال حين يُستَجوَبون.

- وهل كان هناك فئرانٌ في آنّا؟

- نعم، فئران كبيرة. فانتهى الأمر بأبي إلى شراء كلب أوْكارٍ[1]، وكانت هذه هي الوسيلة الوحيدة للتغلّب عليها. كانت تركض بين أشجار النخيل الكرنبيّ، فنسمع صوت مخالبها ليلاً وهي تخدش العوارض الخشبيّة في مخزن الغلال، حتّى أنّ أبي كان يطلق عليها النارَ من بندقيّته، لكنّه كان يسيء التصويب، فيُحدِث ضوضاء كبيرة.

ضحكنا. غريبٌ أنْ نتحدّث عن عزبة آنّا كما لو كان كلّ ما يجري طبيعيّاً، لكأنّنا كنا نستعدّ للعودةِ حقّاً إلى ديارنا بعد رحلةٍ إلى الطرف الآخر من العالم، وكأنّ كلّ شيءٍ يمكن أن يبدأ من جديد.

جَلَت الريح صفحةَ السماء، فائتلقت النجوم، وطلع القمر فوق البحيرة، هلالاً متناقصاً مائلاً مثل ثمرةٍ مقضومة. ثمّ تحدّث جاك

(1) Fox-terrier: كلب صيدٍ صغير الحجم، مدرّبٌ على ملاحقةِ الطّرائد حتّى في أوْكارها.

عن سوزان. لكنّه لم يذكر اسمها، وإنّما تابع حديثه ببساطةٍ، بل يُمكنُ القول بلا انتباهٍ، عائداً إلى الصّيف الذي أقاما فيه حفل زفافهما في هاستينغز.

- كانت تصرّ على الاستحمام كلّ صباح رغم الرياح والمطر، فتحملُ ملاءةً كبيرة لتتّخذ منها ما يشبه خيمة، وكنت أرافقها إلى الماء... حتّى أنّ الصحيفة المحليّة قد تحدّثت عنها، مطلقةً عليها لقبَ «**الجمال المستحمّ!**»

بدتْ ليلةً بلا نهاية. هبطَ المدّ، فانبسطت مياه البحيرة وتلألأت تحت القمر. كان مشهداً فائق الجمال والسّكينةِ، يستحيلُ معه التّصديقُ بأنّ شبح الموتِ كان يحوم من حولنا. فكّرتُ في أنانتا، في جسدها الذي تنسلُّ منه الحياةُ شيئاً فشيئاً.

سكَتَ جاك عن الكلام، وأشعل سيجارته الأخيرة من التّبغ الإنجليزيّ، فتبعثرَ خيطُ الدخانِ الرّقيق مع هبّةِ الريح القادمة من الباب. كان يحلم بتلك الجنّة القريبة جدّاً، على الجانب الآخر من ذراع البحر، حيث حقول قصب السكّر تتماوج في الريح، والبيوت ذات الحدائق، والممرّاتُ المحفوفة بأشجار الكزورينة، وشوارع المدينة النابضة بالحياة أيّام الأحد، وبيت عزبة آنّا، والمكان الأثير عند أمّي، في نهاية الدرّب المفضي إلى البحر، الذي كانت تسمّيه مسرحَها، وتقصده كلّ مساء قبيل اللّيل، فتجلس لتصغيَ إلى شدو طيور الزّرزور.

اختفى طيف جاك في عتمة اللّيل، ولم أعد أرى سوى جمر سيجارته. اعترتني هِزّةٌ، فما زلت أشعر في أعماقي بذلك الارتعاش الشّبيه بهدير محرّكات **لافا** حين غادرنا ميناء مرسيليا، منذ أمدٍ بعيد، منذ الأزل.

سرتُ ليـلًا إلى المقـبرة القديمـة. أردتُ أن أصـل إلى قمّـة الجـرف، فقـط كـي أتنشّـقَ رائحـةَ خشـب الصنـدل في دخـان المحـارق، وأسـمع نبـاح الـكلاب، وقـد أضـاء القمـر الـبركان والقبـور البازلتيّـة. اسـتدرتُ كـي أنظـرَ إلى البحـر فيـما وراء جزيـرة غابريـال، كان هائـلاً بلـون المعـدن، وبـدت الجـزر كأنّهـا حجـارةٌ نيزكيّـة.

ثـمّ شـعرتُ بحضورهـا وبنظرتهـا القريبـة جـدّاً، متواريـةً في الظّلمـة. وأحسسـتُ بتنهيـدةٍ، رعشـةٍ اختلطـت بوشوشـةِ الرّيـح والبحـر، كان ذلـك صوتهـا حـين همسـت باسـمي: بْهـايْ...

بعيـداً إلى الأعـلى، تألّـق القمـر فـوقَ الشّـجيرات التـي تُخفـي مدخـل الكهـف. تسـلّقتُ الصخـور فرأيـت سـوريافاتي. كان المصبـاح مشـتعلاً عنـد مدخـل الكهـف، لكـنّ ضـوء القمـر هو مـن كشـف عنهـا. كانت جاثيـةً على الأرض ترتـدي شـالها الكبـير، وشـعرُها الأسـود مرسـلٌ مفـروقٌ إلى نصفين. بقيـتُ واقفـاً بـين الصّخـور، فنادتنـي مـرّة أخـرى بنفـاد صـبر: «تعـال!»

جلسـتُ بجانبهـا عنـد مدخـل الكهـف. الرّيـح هنـا سـاكنةٌ، ومصبـاح الـكاز يتـلألأ مثـل نجـم، وانبعثَـت مـن قلـب الكهـف رائحـة بخـور بالغـة العذوبـة ومدوّخـة. تحدّثـت سـوريافاتي معـي بلغـة أمّهـا، كأنّهـا تهمـس بأغنيـةٍ تتسـلّلُ إلى أعماقـي. وكلّمتهـا أنـا أيضـاً. لا أدري مـا قلـت، ربّـما أخبرتهـا عـن إنجلـترا، وعـن المدينـة التـي كانـت تحلـم بهـا، ليـس لنـدن ولا باريـس، بـل مدينـةٌ مليئـة بالحدائـق والنوافـير، حيـث «إليفانـت آند كاسـل» هـو اسـم بيـت الـ«راو صاحـب»[1] في جانـسي، وبهـا ممـرّاتٌ تصطـفّ عـلى

(1) راو صاحب: لقب تشريفيّ كان يُمنح لشخصياتٍ قدّمت خدماتٍ جليلةً للعرش البريطانيّ خلال حقبة الاستعمار في الهند.

جانبيها الأشجار، حيث قاومت الملكةُ لاكشميباي الإنجليز على صهوة حصانها مع صديقتيها العزيزتين، ماندرا وكاشي، وشالاتهنّ الطويلة الملوّنة ترفرف خلفهنّ مثل راياتٍ، هنالك عند ضفّةِ النّهر الفائضِ، حيث فارقن الحياةَ معاً، مؤثراتٍ الموت على الهزيمة.

كان صوت سوريا غريباً، خفيضاً وأجشّ:

- أمّي ذاهبة إلى يامونا.

ولمّا نظرتُ إليها نظرةً مستفهمة أردفت:

- عندنا، لا نقول عن أحدٍ إنّه يُحتضَر. بل نقول إنّه ذاهبٌ إلى فريندافان، أرض نهر يامونا.

أردتُ أن أقول لها شيئاً، عبارةً مبتذلةً، أو أنْ أعرض عليها مساعدتي، لكنّها أمسكت يدي ووضعتها على فمي. كنّا متقابلَين، وكان القمر يضيء وجنتَيها، وبياضُ عينَيها يبرقُ بين الحين والحين. تنشّقتُ عطر جسدها الدافئ وأنفاسها، كما في اللّيلة التي قضيناها معاً على الشاطئ حيث كان شوتو يعزف موسيقاه. كان اللّيل بديعاً، لم أختبر مثله في حياتي، وكنت متيقّناً من أنّه لن يتكرّر. كانت الرّيحُ قد جلت السماء، وأحالَ نور القمر الصّخور والشّجيرات وأوراق الكاذي نصالاً من معدن. تخيّلتُ القبور من حولنا منتصبةً كأنّها كائناتٌ حيّة. وأصغيتُ للريح، ولنبضِ دمي، وهمس البحر، وذلك الاهتزاز الذي بدا آتياً من قاع المحيط، وأخذ يشتدّ في أعماقي كأنّه اختلاج الذاكرة.

وضعت سوريا يدَيها على كتفي، وبحركةِ مصارعٍ طرحتني على أرضيّة الكهف، لم أستطع مقاومتها. غمرنا عطر خشب الصندل ودخان

البخور، وشعرتُ بطعم الملح والرّماد في فمي. كنّا مثل عصفورَين على قمّة جرفٍ، أعلى من البحر وطيوره، ولا شيء فوقنا، معلّقَين في الفراغ. قبّلتُ سوريا، يدَيها أولاً، ثمّ وجهها وجفونها وزاويتَي فمها. وعانقتُ جسدها الرّشيق. أدارت وجهها بعيداً للحظة، ثمّ قبّلتني.

استنشقتُ رائحة الرّماد على عنقها، وعند جذور شعرها، وفككْتُ عرى ثوبها كي أقبّل نهدَيها. ارتعشتُ من الرغبةِ حتّى أنّني لم أقوَ على التنفّس، فظننتُ أنّني مريض. كان ذلك بسبب ما حدث منذ عودة خفر السواحل، حين أطلق البحارةُ النار على أوكا، وصادر الشّيخ حسين المياه العذبة والطّعام. لم أفهم ما كان يحدث لي. كنت أريدها، وأتوقُ إلى لمسها، وأنْ أغمر نفسي بعطرها، وأتذوق شفتيها وبشرتها متوحّداً بها، وفي الوقت ذاته كنت خائفاً منها، شعرتُ بما يشبه الكراهية. أحسّتْ سوريافاتي برجفتي، فابتعدت.

- ماذا بك؟ ثمّ بشيءٍ من الترفّع أردفت:

- ماذا تريد منّي؟

كنت يائساً. خطر لي أنّني لم أعرف ما الذي عليّ فعله، وأنّني سأضطر إلى العودة إلى الكرنتينة، إلى سجننا الأسود. عدّلَت ثوبها، وكان شعرها الأسود ينبسط وشاحاً أسود كبيراً على كتفيها. ورأيت الخطّ المصبوغ بحمرةٍ داكنةٍ أعلى جبينها.

أجلستني قبالتها، قريباً جدّاً منها حتّى أنّ ركبتَينا تشابكتا.

- انظرْ إلي.

أعطتني قرعةً مليئةً بماء جوز الهند اللاّذع الحلو. شربتُ طويلاً، وقد هدّأ الماء المنعش رجفتي. أردتُ أن أكلّمها، ربّما لأقول لها-

بالنبرةِ المتهدّجة عندَ من فتنهم الشعر في مثل سنّي-، إنّي أحبّها، لكنها أشارت إليّ أن أصمت. وضعَتْ قطعاً من الرّاتنج على الموقد بجوار المذبح، فتحوّل اللّهب إلى اللّون الأصفر الفاقع. وقالت مّرة أخرى:

- انظر إليّ، هذه هي المرّة الأولى التي تراني فيها.

على ضوء المصباح، كان وجهها قناعاً من ذهب وعيناها بئرين من عتْم. شعرتُ بنظرتها كما لو كانت مادّةً نابضةً بالحياةِ، موجةً، أو لمسةً مُداعِبةً تخترقني وتملأ كياني مصحوبةً بصورتها وعطرها. تذكّرتُ الصخرةَ السّوداء عصر ذلك اليوم حيث كنت وحدي على جزيرة غابريال، وملمسَ غُبارها، ونشوتي تحت الماء.

لم أعد في حاجةٍ لأنْ أكلّمها أو تكلّمني. فهمتُ كلّ شيء عنها، تسلّل كلّه من قلبها إلى قلبي، ربّما ترنّمَت به في عمقِ حنجرتها لحناً امتزج بعزيف الريح، أو قالته بإيماءةٍ من يدَيها، مثلما فعلت تلك اللّيلة قرب المحرقة، مردّدةً اسمها وهي ترقص رافعةً يدها اليمنى، وإبهامُها وسبّابتُها متشابكتان، وراحتها اليسرى منبسطة، وأناملها ممدودةٌ مثل ريش البلشون الأبيض. كنت ثمِلاً، وعيناي متقدّتين كالجمر، واللّيل بلا بداية ولا نهاية.

أحسستُ بلمسةِ يدها على جلدي؛ على وجهي وصدري وكتفي. كانت تمرّرها على جسدي راسمةً دوائر وخطوطاً، يدَها الناعمة المُستنزَفة مثل يدِ عجوزٍ، يدَها الجافة الحارّة، والمعفّرة بالرّماد والكركم. فكّت عرى ثوبها فرأيت نهدَيها الرّشيقين في غبش العتمة، والعلامة الغريبة التي رسمتها على نهدها الأيمن، على شكل قرصٍ أو عجَلة، زهرةٍ أرجوانيّةٍ أشبهَ بحلمة نبتت على بشرتها الصافيةِ.

أمسكتْ بيدي اليمنى ووضعتْها على صدرها لأشعرَ بدفئه ونعومته، وبرجفةِ قلبها العميقة.

كنت أعلم أنّ اللّحظة قد حانت. كانت أهمَّ لحظةٍ في حياتي. ولم أكن أعلم أنّه كان من أجل هذه اللّحظة أنْ أبحرتُ على متن **لافا**، ومن أجلها أرسى القبطان بوالو السفينة في زنجبار على الرغم من الحظر، لِيُتَخلّى عنّا في جزيرة بلات. لا شيء كان رهين الصدفة، لقد فهمتُ أخيراً.

كنت قد عدت إلى الكرنتينة ظانّاً أن الأمر قد انتهى، وأنّني لن أرى سوريافاتي مرّة أخرى، وأنّني سأعود قريباً إلى عالمي، إلى موريشيوس، أو فرنسا، فأنسى هذا كلّه: النّهارات واللّيالي في باليساد، والدخانَ المنبعث من محارقها، ومياه النبع العذبة، وصيحاتِ الأطفال في القرية، وموسيقى شوتو، وكوخَ أنانتا، وأُصبح واحداً من آل أرشمبو، فأدير مكتب أعمالٍ في شارع **الرومبار**، وأتسوّق في **شو دو مارس**، وأقع في حبّ فتاةٍ صغيرةٍ من زُمرةِ الحكومةِ الجماعيّة، وأكتب قصائد في صحيفةِ سيرنيان، ومقالاتٍ انتقاميّةً ضدّ كبير العائلة في **لا كوميرسيال غازيت**. كنت سأغدو شخصاً آخر، غيرَ مبالٍ، ابن صاحب مصنع سكّر، حفيدَ تاجرِ رقّ. لكنّ سوريا كانت قد رسمت بالرّمادِ على الأرض نجمتَين بستّة فروع (علامة الثالوث الأعظم)، وشارةَ إله الحرب **سوبرامانيا** الذي يطرد الأرواح الشريرة، ويلغي قانون كبار العائلات، ويحطّم كبرياء آل أرشمبو. كانت نظرة سوريا لا تقاوم، تلمع بالحقيقة الصافية، مانحةً عتمةَ اللّيلِ شمساً صغيرة.

شعرتُ بموجة جسدها تغمرني. وبشظايا البازلت القاسيةِ والتراب والرّماد تحت جلدها، وطعم الملح على جفنيها، وصوت الدّم في

شراييني، ونغمة صدرها؛ سمعت أنفاسها تختلط بأنفاسي، وأحسست بجسدها عذباً مثل مياهٍ جارية، صرتُ النار، صرتُ الحمّى والدّم، فضمّتني إليها بقوّة.

لقد عرفت هذا كلّه منذ الأزل، ورأيته في منامي ألف مرّة. بلّل العرق جبهتي، وسال على ظهري، وأحسست أيضاً بعرق سوريا عند تجويفَي خاصرتَيها. وشعرتُ بدقّاتِ قلبي، وبالهزّة الطويلةِ الآتية من قلب الكهف متسلّلةً أيضاً إلى قلبها. تذوّقتُ أنفاسها، وطعم الرّماد والبحر في شعرها. وتأمّلتُ وجهها وقوْس حاجبيها الأسود، كجناحَي السّنونو، وحدقتَيها اللّتَين بلون النّحاس، حيث تتداخلُ عروقٌ زرقاء وخضراء. لم أعُد وحيداً، كنت متحدّاً بها، وكانت هي البحر، تموج من حولي عذبةً هادئةً، ورقةَ زنبقٍ تحتضنُ حجراً. تذكّرتُ لعبة الحجر والورق. وتذكّرت يدَي سوريا في اللّيلة التي رقصت فيها من أجلي قرب المحارق، ونورَ عينَيها، وشارة الإله التي رسمَتها أمامي، وقبضتُها اليُمنى ذاتُ الإبهام الممدود متّكئةٌ على راحتها اليسرى.

لم أعد من كنْتُه، صرت آخَر، صرتُ هي، وقبلَها، كنتُ جيريبالا التي هربت على طول النّهر حاملةً الطفلة أنانتا على ذراعيها، واجتازت بها الرّيف المشتعل مختبئة في القصب نهاراً، إلى أنْ غطّستها في مياه يامونا الموحلة هامسةً لها باسمها.

ندّت عن سوريا صرخةٌ، أحسستُ بجسدها يرتجف كما لو أنّ الموجة ذاتها تسللت منّي إليها، متدفّقةً من العالم، من صخور البركان السوداء، ومن رصيف المرجان حيث يضرب البحر. انتابني خوفٌ، خوف ممّا كان يحدث، ومن هذه الطّاقة التي لا تقاوم. نظرتُ

إلى وجهها الذي كدّرته تكشيرة، إذ بدا أنّها تألّمت. سمعتُ حشرجة أنفاسها، وأحسستُ بالعرق ينهمر على كتفيها وظهرها وصدرها، مثبّتاً شعرها بصدغَيها. ربّما هي أيضاً شعرت بالخوف ذاته. أغمضَت عينَيها وشبكت يدَيها حول عنقي وشدّتني، كمن يتطاولُ بجسده. ثمّ همست باسمي، الاسم الذي منحتني إيّاه بلُغتها: بْهايْ، الأخ، الاسم الذي قالته ونحن نسير عبر الشّجيرات، وشوتو يتقافز أمامنا ويسوق قطيع جديانه برشقاتٍ من الحصى، وكنت أحبّ الطريقةَ التي تنطقه بها.

استلقينا في ظُلمة الكهف متعانقَين، قريبَين جدّاً من المصباح الآخذ بالانطفاء. لم يكن لنا سوى إهابٍ واحدٍ، ووجهٍ واحدٍ، وكانت عيناها المتّسعتان بئريْن من الكهرمان أُبصرُ بهما، وكنت أتنفّسُ بفمها. لن يكون خوفٌ بعد الآن ولا ألمٌ ولا شعورٌ بالوحدة. لفّنا هدير البحر وعزيف الرّيح وضاعفانا، وكان البعوض يطنّ حول شَعرنا، وضجيج قرية العمّال على الجانب الآخر من البركان يتناهى إلينا. كان هذا كلّه يختلج فيّ وفيها، ويمتدّ ويتّحد في الفضاء. لم يكن موجةً بل رعشةً، هي أنفاس شيتالا الباردةُ المنذرة بالموت، أو العاصفة قبل المطر. هي الحمم البركانيّة السّوداء، طوْف الحمم السوداء هذا العائم في المحيط المتأجّج، وهي السّماء والنّجوم البعيدة، والنّاس البعيدون جدّاً، هناك، في فردوسهم المحاط بالبحر، النّاس في مدنهم المنيعة، لندن وباريس، وشوارع إليفانت آند كاسل، وأرصفة مرسيليا، وشارع سان بيير المفضي إلى لاكونسيبسيون، وعلى متنِ قواربهم الرّاسية عند مصبّ نهر توليز نولا، وأمام نهر هوغلي الذي تموّجه الرياح الموسميّة، منتظرين

يـوم الرّحيـل إلى الطـرف الآخـر مـن المحيـط، إلى ميريـش ديش، وديمـيرارا، وجـورج تـاون، وترينيـداد فيجـي، تلفهّـم عـلى الـدوام سـحابات الدخـان التـي تنبعـث مـن المحـارق فتغمـر ضّفـاف الأنهـار، أو تَجـرّ نفسـها بتكاسـل فـوق الشـطآن، مُذيعـةً عطرهـا العـذب المـدوّخ.

أردتُ أن أحـسّ إلى الأبـد بمـذاق الـدّم والرّضـاب والعـرق، فهـو مـذاق سـوريا، ورحيـقُ حياتها. أردتُ ألّا أكفَّ عن الإحسـاس بالرّعشـة التي تسري فيهـا، صاعـدةً مـن باطـن قدمَيهـا إلى راحتيهـا النديّتـيْن، حتّـى منبت شـعرها المتعـرّق، وأنْ أغـرق في عينيهـا. كان صوتها ينطق بهدوء اسـمي «بْهـايْ» كما لو كان مُسـتجوباً أو شـاكياً، ويداهـا تطوّقـان عنقـي لا تتركانه، وجسـدها يرتفع عـلى مهلـه خارج البحـر، بينما هي تتنفّـس بعمق. كنا ننسـاب معـاً عائِمَين، بل محلقَـين عاليـاً عـلى جناح اللّيـل الأسـود، كناّ طيرَيـن حقّاً.

ثـمّ هبطـتُ رويـداً رويـداً. وشـعرتُ بحـواف الحجـر الحـادّة كشـظايا الأبـاش. كان الكهـف حـارّاً ورطبـاً، والعـرقُ يتصبّـب جـداول عـلى ظهـري وبـين كتفـيّ. ثـمّ نهضَـت سـوريافاتي، ورأيتهـا تلّـف نفسـها بشـالها الأحمـر الكبـير وتنسـلّ إلى الخـارج عـبر الشـجيرات. غـادرَتْ، فصرخـتُ في صمـتِ اللّيـل المطبـق مناديـاً اسمها بحماقـةٍ، قلـت أنـا أيضـاً: «بِهِـن»، أُخيتّـي! كانـت شـعلةُ المصبـاح قـد انطفـأت، فـلاح أمامـي سـفحُ الـبركان بصخـوره الفسـفورية الصّلبـة، ولمحـتُ النجـومَ تتـلألأ بـين مِـزَقِ الغيـم. عـادت سـوريافاتي لتسـكِتَني. ثـمّ جلسَـتْ عنـد مدخـل الكهـف، وكان وجههـا مبلّـلاً بالمـاء البـارد، وكـذا يداهـا.

مشـينا في صمـتٍ حتّـى غابـة الكزورينـة الصغـيرة، بمحـاذاة المـزارع. كان صـوت الريـح يـدقّ كالمطرقـة والبحـر يـضرب في الشّـعاب المرجانيّـة.

كنّا على بعد خطوات قليلةٍ من بيوت الكرنتينة، نسير على طول شريطٍ من الرّمل الفسفوريّ تحت سماء متألّقة. كلّ شيءٍ هنا باردٌ ومنذرٌ بالخطر. الآن فهمتُ لِمَ لا يرغب شوتو والأطفال في المغامرةِ بالمجيء إلى هنا. لم يكن ذلك بسبب مسدّس جوليوس فيران فقط. فكلّ شيء هنا يذكّر بالموت. هي بضع تلعاتٍ فقط، وجذوع الكزورينة السوداء التي تفصلنا عن خليج باليساد القريب جدّاً، حتّى أننا نسمع نباح الكلاب. هنا الساحلُ مهجورٌ، متروكٌ نهباً للرّيح وعجاجِ البحر، لا يعرف سوى أقدام مُغرقي السّفن وناهبيها.

مررْنا بالقرب من المراحيض والصّهريج، وسْط سحابةٍ من بعوض ينفذ إلى الحلق. كانت سوريا تمضي مسرعةً، عارفةً بدقّةٍ مواطئ قدمَيها على حجارة الطريق، ومنسلّة بين الأغصان دون أن تلمسها. ولمّا بلغنا الشاطئ، نزلَت إلى الماء دون أن تنتظرني وغطست فيه. كان البحر عاليَ الموجِ أشبهَ ببحيرةٍ سوداء. وعلى الجانب الآخر من الحاجز، كانت الأمواج المتكسّرة تضرب بشدّةٍ فترجُّ قاع البحيرة، وكنت ألمح أحياناً، في ضوء القمر، نفثاتِ البخار بين الصخور السوداء أعلى قمّة لوديامو.

نزلتُ أنا أيضاً إلى الماء البارد الفائق النعومةِ، بحثتُ عن سوريا. ثمّ شعرتُ بجسدها أمامي، كان ثوبها ملتصقاً بجسدها، وشعرها منبسطاً في الماء كعشب البحر. لم أشعر يوماً بمثل هذه الرّغبة، وهذه السعادة. وقد زال عنّي كلّ خوف. كنت إنساناً آخر، إنساناً جديداً.

«انظر يا بْهايْ، لقد طلع النهار».

كان الموجُ يتهادى من حولنا مثل نهر، رماديّاً متلألئاً، يتدفّقُ عبر قناةِ الشعابِ المرجانيّة الشماليّة والمضيق بين الجزيرتين، نحو القناةِ الجنوبيّة.

بحَثَت شفتاي عن فم سوريا. عانقتُ خصرها اللّيّن، فضحكَت. ثمّ عدنا لنغطسَ في الماء معاً، وشعرتُ بساقيها تلتفّان حول ساقَيّ، وذراعَيها تطوّقانني. كنّا نختنق. ثمّ استقمنا لحظةً نلتقط فيها أنفاسنا. عدنا طفلَين من جديد. لقد وُلِدتُ ثانيةً في ماء البحيرة الجاري، بلا ماض ولا آتٍ.

لم يعدْ للموت وزنٌ، ما هو إلّا أنفاسُ الإلهة الباردة حينَ تعبرُ فوق الجزيرة. قالت عنه سوريا ذاتَ مرّة: «إنّه مثل النّهر الذي وُلدتْ فيه أمّي».

كانت تقف أمامي يغمرها الماء حتّى خصرها، وتشعّ بجاذبيّةٍ غريبة. أخذت السّماء تصفو شيئاً فشيئاً، لكنّني لم أرَ من سوريا غير طيفها وشعرها المُثقل بالماء. غسلتني البحيرة بعذوبتها وأراحتني، فشعرت بالسّكينة، وبما يشبه البراءة.

قالت:

- لقد منحتْني أمّي بركتها. أخبرَتْني إنّه يمكنني أنْ أكون زوجتك. هي راحلةٌ الآن إلى فيندافان.

كان قلبي ينبضُ ببطءٍ، وكلّ شيءٍ ينساب سلساً مثل الماء. أخذ النور يكشفُ عن ملامح سوريا، ويتلألأ على شعرها وكتفَيها. ثمّ عدنا إلى الشاطئ. كانت ضربات الأمواج على الحاجز المرجانيّ مكتومةً بقدر ما هي بطيئةٌ ومتّصلة. سكَنت الريح، وأخذ البعوض يحوم حول شَعرنا. كان النسيم عليلاً أميَلَ الى الدّفء، وقرصُ الشمس على وشكِ أنْ يتجلّى فوق صخرة لوديامو.

رمَت سوريا شالها الكبير على شجيْرات الديداء كي يجفّ. وأرخْتُ رأسي على صدرها. ثمّ سألتها هذا السؤال مثل طفلٍ شكّاء:

- هل ستأخذينني؟ هل سنبقى دائماً معاً؟

لم تُجب. فسألتُها مثلما سألتني يوماً عن لندن:

- هل تأخذينني معك حتّى يامونا؟

وضعتْ يدَيها الدافئتين على وجهي. ربّما أرادت أن تقول لي إنّ هذه مجرّدُ كلماتٍ، حكاياتٌ لا حقيقة لها.

غفوْتُ وخدّي على صدرها مصغياً لدقّات قلبها التي اختلطت باهتزاز الموجِ في قاعدة الجزيرة. وقُبيل انبعاث الشمس من الأفق، نهضَت على مهلٍ وأسندَت رأسي إلى ذراعِيَ المطويّةِ وهمّت بالانصراف. أمسكَتْ بيدي للحظة، فحاولتُ وأنا نصفُ غافٍ أنْ أستبقيَها، فكان عليها أنْ تفكّ أصابعي واحدةً تلو الأخرى.

إنّها هي من أفكّر بها الآن: تلك الفتاة الصغيرة التي كانت تتشبّث بيد أمّها، وهما تعبران سلّماً للصعود إلى متن القارب الرّمادي الذي كانت مدخنته العالية تنفث دخاناً سميكاً، وكان على وشك أنْ يبحرَ بهما إلى ميريش تابو، إلى موريشيوس، البلد الذي لا يعود المرء منه. كانت تمطر، فقد وصلت الرّياح الموسميّة بعد شهورٍ من الحرّ والجفاف على طول النهر، بعد تلك الأيّام التي لا نهاية لها في مخيم بهوانيبور، على قناة توليز نولّا، في كلكتّا.

كانت القوارب كلّها قد غادرت بالفعل إلى الطرف الآخر من العالم. ولم يبق راسياً أمام المخيّم سوى قارب «**إشكندر شاو**» الذي سيحمِل المهاجرين إلى موريشيوس، كانوا زهاء مائتي رجلٍ وستيّن امرأة، ومعهم الأطفال والأغنام والدّواجن.

فيمَ كانت البنتُ تفكّر وهي تجتاز الجسر الخشبيّ المتهالك على سطح القارب؟ أتُراها التفتَت كي ترى المخيّم للمرّة الأخيرة، كما لو أنّ شيئاً منها ظلّ عالقاً بذلك المشهد، حيث الجدار الطينيّ الذي يسدّ المخيم، والبوابة الخشبيّة العالية، وبيوت العمّال

المشتركة بجدرانها الخشبيّة التي بلا نوافذ وأسقفها المصنوعة من ورق الشّجر، والأكواخ الممتدّة على طول الجدار محاذيةً إيّاه في قوسٍ نصفِ دائريّ، حيث يعدّ الرجال والنساء العزّاب الطعام كلّ صباح، وصهريج المياه، وبضع شجيراتٍ هزيلة يجلسُ الرّجال تحتها عند المساء كي يثرثروا. كانت أنانتا تشدّ على يد أمّها وتنظر إلى المخيّم دون أن تنبس بكلمة. ولسوف يبقى ماثلاً في ذاكرتها حتّى المهات.

أفكّر في أنانتا كأنّني عرفتها، كأنّها واحدةٌ من الأجداد الذين أحمل دمهم وذاكرتهم، وظلّت روحه حيةً فيّ. لا أعرف عنها غير اسمها، وأنّها انتُزعت من صدر مربّيتها القتيلة في كاونبور أثناء تمرّد السيبوي العظيم عام 1857. هذا كلّ ما أخبرتني به جدّتي سوزان حين كنت طفلاً عن أسطورة شقيق جدّيّ المفقود.

لكنّي لا أعرف شيئاً عن المرأة التي أنقذت حياتها وأسمّيها جيريبالا تذكاراً لرابندرانات طاغور[1]. لقد صارت رحلةُ أنانتا وجيريبالا

(1) جيريبالا: عنوان قصّةٍ قصيرة للشّاعر والكاتب الهنديّ الشّهير رابندرانات طاغور.

أصدق عندي من أيّ مغامرة أخرى، حيث ضياء الفجر المُشعّ رغم الغيوم التي تُراكمها الرياح الموسمية عند مصبّ نهر توليز نولاّ، وتحليق طائر «أبو منجل» على صفحة المياه متمايلاً مع انحناءاتها، وسُلّم القارب الذي لم يكن سوى لوح خشبيٍّ لَزِق، أخضر ضارب إلى الرّماديّ، تجازفانِ بالسير عليه، متشبّثة كلٌّ منهما بيد الأخرى، وأنانتا تنظر وراءها نحو المخيم كي لا تنسى أبداً.

انزاح اللّيل حاملاً معه رائحة الموت وصرخات النّساء اللاّتي طعنهنّ القتلة بحدّ السيف، وأطيافَ الأطفالِ المروّعةَ على مشانق فاراناسي، وراياتهم حول أعناقهم. وذلك النّهر الشديد الاتّساعِ حتّى أنّ ضفّته الأخرى تتوارى خلف الضباب، ومياهه الفيّاضة الموحلة التي تهبط وئيدةً كثيفةً يوماً بعد يوم، وشهراً بعد شهرٍ، وصولاً إلى كلكُتّا، وإلى معسكر بهوانيبور.

التفتت جيريبالا هي الأخرى، وتوقّفت لثانيةٍ على الرغم من تعليمات متعهّدي العمّال الرّادعة على سطح القارب. ولعلّها في تلك الثانيةِ قد فكّرت هي أيضاً في كلّ ما بقي

على الشاطئ، وفي سقيفةِ المهاجرين، كما لو صارَ فجأةً فصلاً من حياةٍ ماضية.

في مدينة جانبور، التقَت بمتعهد العمّال الذي باعها وابنتَها للفرنسيّ لومير، ممثّلِ شركة **بيرد وشركاه**، وهو شابٌّ بدين، يرتدي بذلةً مثاليّة من الكتّان، ويعتمر قبّعةَ «هِلمت» على الطريقةِ الإنجليزيّة، يلازمه تُرجمانه الذي لا يقلّ عنه كذباً ومكراً. كان يروي القصّة نفسها لكلّ النساء القادمات؛ عن العمل الذي ينتظرهنّ هناك في جزيرة المعجزات، في قصور «السّركار»[1] الإنجليزيّ بحدائقها وأنهارها، وعن المال الذي كنّ سيدّخرنه كي يصنعن لهنّ حياةً جديدة، ويتزوّجن. كان هو من نظّم الرّحلة إلى هوغلي وكلكتّا، مستخدماً جاذبيّته للترغيب تارةً، ومهدِّداً تارةً أخرى كلما عدلت امرأةٌ عن رأيها وحاولت الانصراف، فيطالبها، بلسانِ الترجمان، بأنْ تُرجع له كلّ شيءٍ، من الروبيّة المدفوعة إلى المتعهّد حتّى تكلفة رحلة القارب، زد على ذلك البطّانيّة التي حصلت عليها، وكلّ الأرزّ المقشور والأسماك المجفّفة التي تناولتها منذ وصولها إلى المخيّم.

(1) كلمة من أصلٍ فارسيّ وتعني السيّد أو الزّعيم.

لكـنّ جيريبـالا لم تبـكِ ولم تشـكُ. وبلا تـردّد، وضعـتْ بصْمتهـا بالحـبر الأحمـر في سـجلّ شركـة بـيرد وشركاه في الخانـة التـي كُتب فيهـا: «برفقـة طفلـةٍ تبلـغ مـن العمـر زهـاء سـبعة أعـوام».

وقـد حصلـت لقـاء ذلـك عـلى «القـلادة»، أو الميداليـة النحاسـيّة التـي كُتـبَ في زاويتهـا الرّقـم 109، وعـلى علبـةٍ صغـيرة مـن الصّفيـح كـي تحفـظ فيهـا جميـع أوراقهـا: عقـد العمـل وجـواز السّـفر الـذي يسـمح لهـا بمغـادرة المسـتعمرة. وقـد سـمعت للمـرّة الأولى اسـم المبنـى الـذي كانـت سـتعمل فيـه، وهـو اسـمٌ غريـبٌ أخـذت تـردّده في ذهنهـا حتّـى ألِفتـه كـما لـو كانـت تعيـش فيـه منـذ الأزل: ألمـا.

في ذلـك المسـاء، تجمّعـت النسـوة بعـد أنْ وقّعـن العقـود قـرب مطابـخ المخيـم المحميّـة مـن المطـر، وشرعـن يرويـن قصصـاً لا تصـدّق عـن أطفـال اختُطفـوا كـي تُعـصَر جماجمهـم مثـل جـوز الهنـد ويُسـتَخرج منهـا الزيـت، ومسـنّين رماهـم البيـضُ طعامـاً لكلابهـم، وعـن الأطعمـة الفاسـدة التـي كان يخلطهـا الإفرنـج في طعـام العـمّال، كـي يعذّبوهـم.

كانـت جيريبـالا تسـتمع إلى هـذه الخزعبـلات

هــازّةً كتفَيهــا. فــلا شيءَ منهــا كان يضاهــي في فظاعتــه مــا رأتــه في كاونبــور؛ النســاء والأطفــال الذيــن قتلــوا بضربــات العــصيّ عــلى يد الســيبوي، وانتقــام الإنجليــز الذيــن كانــوا يربطــون الرجــال في فوّهــات المدافــع ويســحقونهم فــوق الحقــول.

كانــت تضــمّ ابنتَهــا، ملكَهــا الوحيــد، وكنزَهــا، إلى صدرهــا. كانــت مســتعدّةً لأنْ تفعــلَ أيّ شيء مــن أجــل أنانتــا ديفــي، أنْ تعــبرَ بهــا المحيــط وتتحمــل مخاطــر الرّحلــة وشرور البــشر. فمِــن أجلهــا، وكرمــى لعينيْهــا اللّتــين بلــون الياقــوت، وشــعرِها الطويــل ذي اللّمعــةِ الذهبيــة، كانــت ســتذهب إلى الطــرف الآخــر مــن العــالم، إلى ميريــش تابــو، ميريــش ديــش.

الأوّل من يوليو

انطلقنا إلى جزيرة غابريال هذا الصّباح. أسند جاك سوزان حتّى الرصيف المتصدّع، وكنت على يمينها ممسكاً بيدها. كانت الحمّى تحرّقها، وفي منتصف الطريق تباكتْ قليلاً: «لا أستطيع، لا أستطيع، انظر! لم أعد قادرةً على السيرّ!» جلستْ على صخرة. كانت الشّمس صفراء ساطعةً تعبرها بعضُ خيوطٍ من غيم. بدت الجزيرة على الطرف الآخر من البحيرة، أمامنا، قاتمةً عدوانيّة مثل هرم جنائزيّ. وكانت طيور النورس والبلشون الأخضر تحلّق ملامسةً صفحتها، لكني لم أرَ سادة الجزيرة الحقيقيّين، طيورَ رئيس البحر ذات الذّيل الأحمر.

«هيّا، فلنمضِ، ها نحن على وشك الوصول». لم تستطع المشي فحملها جاك بين ذراعيه. بدتْ خفيفةً مثل دميةٍ من قماش، بقميصها الأبيض الطويل الذي ينسدل حتّى الأرض مثل مروحة، وشعرها القصير المتجعّد من شدّة الحرّ. كانا وكأنّهما يحتفلان بالذكرى السنويّة الثانية لزواجهما. لكنّ وجه جاك كان متشنّجاً، وكان بزجاج نظّارته المكسورة، ولحيته المفرطة الطول، وملابسه المغبرة، شبيهاً بمتشرّد. لمحتُ على الرصيف طيف جوليوس فيران الضّخم، وإلى الأبعدِ قليلاً، كان الشّيخ حسين ومتعهّد العمل يقفانِ في وضعيّةِ من يراقب المكان. ولمحتُ أيضاً بضعَ نساءٍ لم أكن أعرفهنّ، وجوههنّ مغطاةٌ بالأوشحة، وأطفالاً شبه عُراة. كان مشهداً صامتاً مهيباً، ومُنذِراً بالخطرِ على نحوٍ غريب. سوزان تمشي مثل محكومٍ بالإعدام نحو القارب البائس الذي كاد ينقلب، إذ كان الماء ينفذُ إليه بسرعة فيلزم نَزْحُه طوال الوقت خلال العبور القصير إلى جزيرة غابريال.

كان المدّ لا يزال عالياً، لكنّ الجزر الهابط بدأ يتدفّق عبر الممرّ الجنوبيّ. وفيما كنت منشغلاً بنزح القاربِ، كان المُسنّ ماري وجاك يكافحانِ ضد التيار، أحدهما على المجذاف الخلفيّ، والآخر (جاك) يقف في مقدّمة القارب يبحث عن موضعٍ يغرسُ فيه المُرديّ. ولمّا صرنا على مقربةٍ من القناة، عشنا لحظة ذعرٍ. إذ لم يعد جاك يعثر على القاع، فانجرف القارب نحو القناة. كان قد وضع قدماً واحدة على الحافة وحاول التجذيف بالمُرديّ، لكنّه لم يفعل سوى أنْ أدخل المزيد من الماء إلى القارب. فصاح عليه المسنُّ ماري: «هاتِ المُرديّ يا بُنيّ»! هات!»[1] في ظرف آخر غير هذا، كان المشهد سيبدو هزلياً حقّاً، لكنّه في تلك اللّحظة بدا فظيعاً مأساوياً. كانت سوزان تجلس شاحبةً تماماً تحت مظلّتها الباهتة وقد أسندت رأسها إلى الصُّرر والفُرُشِ المطويّة. تذكّرتُ رحلة جون وسارة ميتكالف، وكان قد مرّ عليها وقتٌ طويل حتّى أنني لم أعد أتذكّر التاريخ بدقّة. ربّما يومان أو أسبوع، وربّما عامٌ أيضاً. فكم من أشياءَ حدثت منذ ذلك الحين!

مرّر جاك المُرديّ لماري المسنّ في نهاية المطاف، وبقليل من الدّفعات القويّة هبطنا إلى ضفة جزيرة غابريال الرمليّة. استغرق النزول والسير إلى المخيّمات وقتاً طويلاً. لكنّ سوزان استعادت فجأة شجاعتها، وكأنّ هذا العبور مثّلَ لها أولى علامات رحيلنا إلى موريشيوس. حملتُ الفراشَ بمعونة ماري. وقد سارت سوزان أمامنا وذراعها حول كتفَي جاك، ومظلّتها السّوداء مفتوحة خلفنا، كما لو كنّا في نزهة.

نُصِبت خيمات المرضى عند سفح القمّة المركزيّة، محميّةً من رياح

(1) بالكريوليّة في الأصل.

الصابيات، غيرَ بعيدٍ عن فرجة الدّغل التي أُحرقت فيها جثّتا نيكولا والسيد تورنوا، وحيث بنيْتُ نُصْبَي الحجارة تخليداً لذكراهما. لم أعد إلى هنا منذ ذلك اليوم، والآن تبدو ليَ الجزيرة أقلّ رعباً. كانت هناك الخيمة الأولى، تلاها ملجآن مرتجلان يؤويان جون وسارة والعمّال المرضى. أمّا الكوخ الذي يُفترَضُ أن تقيم فيه سوزان فكان جداراً من الحمم البركانيّة جُعِل له على عجلٍ سقفٌ من القماش وأوراق الشّجر. كان جاك قد أعدّ كلّ شيء ونظّف المكان. فقد رُشَّت الأرض بالمعقّم، وطُليَت قاعدة الجدران بالجير وأزيلت الحجارة والحشائش من أرضيّته بعناية. لقد جهدَ على مدارِ أيّام، ودون أنْ يحسّ به أحدٌ، ليُضفيَ على هذا المكان المشؤوم شيئاً من القبول.

ولمّا وصلنا المخيم، لاح طيفٌ بين الأجمات، بدا شرساً برّياً، عرفتُ فيه بمشقّةٍ سارة ميتكالف. دنت لتعانق سوزان. لكنّها على ما يبدو لم تتذكّرنا أنا وجاك. كانت في غايةِ النحول، وقد اسودّ وجهها ويداها من الشمس والسناج. بدت مسرورةً إلى حدّ الابتهاج برؤية سوزان من جديد. وكانت تفوح منها رائحة غريبة من درنٍ ودخان، رائحةٌ لاذعةٌ قليلاً جعلتني أبتعد. ثمّ عرفتْني. لم أدرِ ماذا أقول لها. قادتني من يدي، وكانت تتحدّث بصوت عالٍ ووضوحٍ على الرّغم من ثقلِ نبرته:

- تعالَ، كمْ سعدتُ بقدومك، أتمنى أن تأتيَ لرؤيته، فهو يسأل كثيراً عنك.

تذكّرتُها يومَ غادرَت مُلتصقةً بجون، وشعرتُ أنّ ذلك قد حدث منذ زمن بعيد.

- إنّه هنا، سيُسرُّ برؤيتك. قال لي إنّك في مقام أخيه.

تبعْتُها عبر الأجمات، إلى رحبةٍ ثانيةٍ بينَ الأَشجار حيث أُقيمت أكواخ المرضى. كنّا على طرف جزيرة غابريال تقريباً. ومن هناكَ تراءى بين الصخورِ خطُّ الأفق، وشريطُ موريشيوس الطويل الأخضر.

- هو ذاكَ، قربَ الباب، هنا يمكنه أن يرى فردوْسه طيلة الوقت؛ يمكنه رؤية جزيرته، ولا بدّ أنّ هذا يفرحه، كما تعلم.

كان الكوخ في نهاية الرّحبة خالياً، وفي حقل الحجارة، ثمّةَ لوحٌ منصوبٌ مُثَبّتٌ بكوْمةٍ صغيرة من الحجارة السوداء، يتأرجح مع الرّيح المتواصلة، وقد تمكّنتُ من قراءةِ ما كُتب عليه بحجر الفحم وبالخطّ المائل:

جون ميتكالف 5 سبتمبر 1847/ 28 مارس 1891.

فهمت فجأةً ولم أفهم. كان هذا التاريخ على وجه الخصوص هو ما أفزعني، وكأنّه لا يصحُّ ولا يُحتمل ولا يُطاق. أعدْتُ قراءته بانتباهٍ كما لو كان أهمّ من حقيقةِ موت جون ذاتها. فالتّاريخ الذي كتبتْه سارة على اللّوح بوصفه تاريخ وفاته هو بالضبط تاريخُ اليوم الذي وصلنا فيه إلى الكرنتينة. هل هذا نابع من جنونها المحض؟ أم أنّها تتذكّرُ حقّاً اليوم الذي تركَنا فيه خفرُ السواحل على الجزيرة كما لو كنّا نقضي عقوبةً؟ وهل ثمّةَ فرقٌ حقّاً؟

جلست سارة ميتكالف عند القبر في مهبّ الريح التي طوّحت شعرها وأسالها. طلعت شمسُ الصباحِ على البحر الجميل، مقرِّبةً إلى أقصى حدّ الجزر الصغيرة وصخرة كوان دو مير النيزكيّة الغائرةِ

في المياه. ولاحَ أمامنا ساحل موريشيوس أخضر رحيباً، وقممُه الزرقاء معتمِرةٌ قبّعاتٍ من غيم.

تبادَر إلى ذهني بيت هوغو: «الجبلُ الرّاعي بقبّعته من الغيم»، كما لو كان في وسع سارة أنْ تفهم قصدي، وكذلك كلمات المركب السّكران التي تتلوها سوزان بإتقان:

«أعرف السموات المتفجّرة بروقاً وخراطيمَ مياه
والأمواج المرتدّة والتيّارات: أعرف المساء،
والفجرَ الطّائر كمثْلِ سربِ يمامات». [1]

ثمّةَ أسفلَ القبر، بين الصّخور التي حتّتها الرياحُ وعجاج البحر، ملجأٌ من أغصانٍ جافّةٍ رُصّت كيفما اتّفق، وغُطّيت بقطعةٍ من الكتّان المُشمّع مثبّتةٍ في مكانها بالحجارة، شيءٌ أشبه بجُحر، أو بخيمة متشرّدين عُلِّقت بين دعامتَي جسر. هذا هو المكان الذي دلفتْ إليه سارة بسرعة، زاحفةً على أربع، ولم تعد تنظر إليّ بعدها، كأنّها نسيَتني فجأةً. وحين عدت إلى كوخ الكرنتينة، لم أكن في حاجة لأنْ أسأل جاك، فقد بادرَ بالقول، وبصوتٍ شِبْهِ مكتوم حتّى لا تسمع سوزان: «لقد مات في اللّيلة التي وصل فيها إلى هنا. لم يكن هنالك ما يمكن فعله». كنت قد سمعت جوليوس فيران يقول ذلك، ولم أشأ أنْ أصدّق الأمر: لقد أصيبت سارة بالجنون.

سرتُ نحو القمّة الوسطى. كانت الشمس تسطع بقوّة فينعكس بريقها على حواف الصّخور البازلتيّة. فجزيرة غابريال أشدّ حرّاً

(1) آرتور رامبو، «الآثار الشعريّة»، ترجمة كاظم جهاد، مصدر سبق ذكره.

وقسوةً من بلات. وتبدو كأنها المخطّط الأوليّ لجارتها، أو رسمها البيانيّ. تكثر فيها الزوايا والصّدوع وانهيالات الصخور البركانيّة، فضلاً عن غابةِ الأشجارِ ذات الأوراق الإبريّة. ويطوّقها هدير الأمواج المتكسِّرة على الساحل الجنوبيّ الغربيّ، بينما يحدّها من الشمال البحيرة الزمرديّة التي يخترقها شريطٌ طويلٌ من الرّمل الأبيض.

لا أعلمُ لماذا انتابني إحساسٌ بالارتياحِ ما إنْ نزلنا إلى شاطئ جزيرة غابريال. بدت سوزان مرتاحة البال أيضاً، كانت تمشي متّكئة على جاك، وتضحك تقريباً. إذ مثّل لها العبور إلى جزيرة غابريال الخطوة الأولى على طريق العودة. فهُم عزلونا كي يصبح بالإمكان حملُنا في سفينة خفر السّواحل وإعادتنا إلى أوروبا. لكنْ لعلّها شعرت بالنشوة لاكتشاف هذه الصخرة الجرداء، وعزلةِ البحر القصوى، وعنف الرياح، حيث لا مأوى سوى هذه الأكواخ المحفوفة بالخطر، بعيداً عن نظرة فيران وصافرات السّردار. وكأنّ لسعات الصّخور الملتهبة ووخْزات الأغصان يمكن أن تُبرِئنا من المرض والحمّى والخوف. ولعلّنا سنستسلم للجنون تباعاً، منضمّينَ إلى سارة ميتكالف في وهمها، بوجوهٍ سوّدها الدّخان وعيونٍ مبهورةٍ من فرطِ التحديق في خط موريشيوس الذي يلوح في الأفقِ عصيّاً على الوصول!

بلغتُ القمّة من ناحيةِ الشمال. بدا لي أنّني روبنسون لحظة اكتشافه حدودَ ملكيّته، يطوّقُه المحيط اللّانهائيّ! كانت الريح العاصفة تدفعني وتخنقني. اتّكأتُ على منصّة اسمنتيّة قديمة حيث نُصِبَ فيما مضى عمود الإشارة، وقد هدّمت الأعاصير الصّاري، ولم يبقَ منه سوى حطام دعامته الصّدئة مثل هيكلٍ عظميٍّ نخره البحر. ينحدر سفح

القمّة إلى البحيرة، ومن مكاني أستطيع أنْ ألمح بوضوحٍ وشفافية هلالَ الحاجز المرجانيّ حيث الدّرب المعتم الذي يمكّن سورياڤاتي من المجيء إلى جزيرة بلات، تلك الجزيرة التي تراءت أماميَ وحيدةً مهجورة، وبدت فيها بيوت الكرنتينة السوداءُ المكعّبة الشّكل أشدّ خواءً. كم هو مضحك أنّ جوليوس فيران أراد الدفاع عن هذا بوصفه مملكته، هذي الصّخور القاحلة حيث الرّيح تلوي غصون الشجر، وحيث الشاطئ القاسي، والأكواخ ذات النّوافذ العارية المطلّة على الخلاء. أمَا زالوا في تلك البنايةِ المحرومةِ من النوافذ بجوار المستوصف؟ إنّني لا أرى أيّ علامة على الحياة. حتّى المسنّ ماري قد اختفى. ولا بدّ أنّ المراقبَين قد عادا إلى موقعهما في أعلى البركان، مسلّحَين بالمنظار والمسدّس تأهبّاً لحربٍ ما! أَنظر إلى جزيرة بلات من غابريال، فأراها أكبر مساحةً، مثل أرضٍ مجهولةٍ بلا حدود، لا سيّما مع هذا الشّريطِ الطويل الممتدّ نحو الشّرق بمحاذاة البحر، منتهياً بصخرة لوديامو العشرونية السّطوح، والمتوّجة بهالةٍ من الطيور.

أتأمّل البركان، وأحاولُ أنْ أحدس بحركةِ الحياة حوله: شوتو يراقب الجديان مختبئاً بين الشّجيرات، والنساء العاملات في المزارع ناحيةَ المنحدر يسقين الأرزّ والبطاطس، والعجائزُ والأطفال منهمكون في البحث عن أعواد الحطب من أجل إشعال النّار. وعلى الجانب الآخر من فوّهة البركان، تجويفُ البازلت الرّطب الدافئ، والعاجّ بالحشرات، حيث تغسل النساء ملابسهن في ماء النّبع البارد بين شجيرات القُلقاس والديداء، مستظلّاتٍ بشجرة الداتورا العظيمة.

أتذكّر ساعة العصرِ مع جون، حماستَه ونحن نهبط الوادي «هذا المكان هو الجنّة!» كان يأخذ العيّنات، ويفصل الجذور حافراً برفق حول الجُذيرات، واضعاً كلّ ورقة بين الرّفوف المبطّنة باللّباد الرّطب. وفي المساء، على ضوء السّراج، يفتح جرّة الفورمالين وتفوح رائحته في جميع أنحاء الغرفة، فيصيح جاك في وجهه قائلاً: «ميتكالف، إنّك تجعلنا نستنشق رائحة الموت!» فيما هو منحنٍ بجسده الضخم إلى الأمام، ورأسُه الأحمر يتصبّب عرقاً من حرارة المصباح، يدهن الأوراق والجذور بفرشاة الحلوى بعد أنْ يغمسها في إكسير الخلود، ثمّ يُملي الاسم على سارة ببطء، فتكتبه بحجر الفحم في دفتر الملاحظات، مثل عبارةٍ سحريّة.

في ذلك المساء، عِوَضَ شجرة النيلة الواطنة، اكتشفنا في صدع قرب النّبع عيّنةً نادرةً من السرخس، نبتةً عارشةً طويلة ومرقّطة، لمْ أنس اسمَها العلميّ (Adiantum caudatium)[1]، ومجموعة متنوّعة من حشيشة اللّيمون ذات رائحةٍ حادّة مثيرةٍ للحواسّ، غرِقت بدورها في رائحة الفورمالين.

وأتأمّل شِعْبَ البركانِ حيث مشينا طويلاً حتّى اللّيل، مثل الباحثين عن الذّهب، دون أنْ نبالي بلسعةِ الشمس. كنا قريبَين جدّاً من باليساد حتّى أنّنا سمعنا أصوات النساء والأطفال في البيوت. كان راماساومي هو من طردنا، ليس بعنفٍ على طريقةِ السّردار، وإنّما بظهوره فقط في نهاية الطريق، محدّقاً فينا دون أن يقول شيئاً. وكان في ذلك المساء نفسه أنْ لحقتُ بسوريا عند المحارق.

---

(1) أي البرشاوشان المُذيّل.

أتأمّل جزيرة بلات، فيبدو لي أنّها تحمل شكل الماضي عيْنه، كما لو أنّني، جاثماً على مرقبٍ خارج الزمن، قد دخلتُ حياة أخرى. أرى المشهد بكامل تفاصيله، وكل حجرٍ وشجيرة تشهد على ما عشت. أو كما في الأحلام حيث يرى المرء نفسه يحيا ويتحرّك في قلب الغرفة المجاورة، عبر فتحةٍ في شبّاكٍ صغير.

ما أودّ رؤيته هو السّفح الآخر، الجهة الأخرى من البركان، أي خليج باليساد، حيث كلُّ ما بات يعنيني الآن: سورياقاتي وأنانتا، وكلّ ما يخيفني ويجذبني في آنٍ معاً. أشعر بالجوع، جوع الذهاب إلى هناك، لأتمتّعَ بروائح أدخنة المساء من جديد، بأريج خشب الصندل والكركم. جائعٌ لسماع الأصوات والضحكات، واللّغة الهنديّة التي تنساب بعذوبةٍ، وموسيقى البنغاليّة والأُرديّة والتامول، وعذوبةِ ناي شوتو قبالة البحر.

ليس سوى هذا المضيق الرّفيع يفصلني عمّا أُحبّ، سوى لسان الرّمل والشّعاب المرجانيّة التي يغمرها المدّ. أجلس على جدارِ عمود الإشارة الإسمنتيّ. وفيما ورائي، وعن يميني وشمالي، البحرُ المفتوح الهائج وساحل موريشيوس. أرضي على مرمى حجرٍ منّي. فَلِمَ أنا هنا في المنفى؟ ينتابني شعورٌ بأنّني عشت طوال حياتي على جزيرة بلات، هي أرضيَ الأمّ، فيها تعلّمت كلّ شيء، لم يكن شيءٌ من قبل، ولن يكونَ مِن بعد.

امتلأت عيناي بالدّمع، وأحسست بدوار وغثيان وجوع شديدٍ، وقد حطّمت الحمّى أوصالي وبعثت نفحاتٍ باردةً في أحشائي. أعلم أنّ الإلهة الباردة شيتالا هي التي تحكم هذه الجزر وتبشّر بقدوم الإله ياما.

تملّكتني رغبةٌ في أنْ أغوصَ في المياه الشّفيفة وأسبح حتّى الطرف الآخر. وكنت أعلم في الوقت ذاته أنّني لم أعد أمتلك القوّة، وأنّه يتعذّر عليّ اجتياز السيل الذي يتدفّق في القناةِ. فإنْ فعلْت، حملتني الأمواج ورمت بي على حوافّ الشعاب المرجانية. ثمّ إنّ قارب العبّارِ بعيدٌ عن الأنظار، متوارٍ خلف شجيرات الديداء قرب الكرنتينة. صحيحٌ أنّه مجرّد سطح خشبيّ قديم ومتهالك تنفذ إليه المياه من كلّ جانبٍ، لكنّني من دونه لا أستطيع الوصول إلى الشاطئ الآخر.

لا بدّ أن المسنّ ماري يجلس في ظلّ المستوصف ويمضغ ورقة التنبول. أشعرُ بنظرته الفارغة التي غبّشها الزّرَق، نظرتِه التي لا تنتظرُ شيئاً. ربّما كنا جميعاً مخطئين، فليس السّردار ولا فيران، ولا حتّى كبير العائلة من يحتجزوننا هنا. إنّه العبّار من يفعل ذلك، بعناد الضّرير.

أنا أيضاً أحلم في أعلى مرقبي، وقشعريرةٌ بطيئةٌ تسري في أوصالي بسبب الحمّى. أحلم بسوريا، كما رأيتها أول مرّة، تمشي على ماء البحيرة بمحاذاة الرّصيف البركانيّ، أمام جدار الزّبد، نحيلةً رشيقةَ الخطوِ مثل إلهةٍ. أودّ أنْ أراها الآن تتجلّى أمامي، أودّ أنْ أصرخ باسمها، حتّى تحمل الرّيح صوتي إليها. عساها تعود إلى هناك، إلى شاطئ بلات المتلألئ بضوء الشّمس، وعسى أن يبدأ كلّ شيء من جديد.

أتُراني صَرخْت؟ أخذتُ أترنّح أعلى القمّة، ثمّ هبطتُ من صخرةٍ إلى صخرة نحو البحيرة، حتّى بلغتُ أعلى الصهاريج، الذكرى الوحيدة الباقية من العمّال الذين تُركوا على الجزيرة عام 1856. وهي صهاريج كبيرة الحجم، أحسنُ حالاً من مثيلاتها في بلات، فقد احتفظ كلّ منّها

بغطائه من الحديد المصبوب الذي عُلّقُ به دلوٌ من الصفيح. جاثياً على السطح، أدرتُ الغطاء الثقيل، وأرخيْت الدلو إلى قاع الصهريج. الماء باردٌ، عذبٌ أو يكاد، وخالٍ من يرقات البعوض التي تجعل الناس في الكرنتينة يتقيّؤون.

عببتُ منه كثيراً كي أُطفئ النار التي تحرّقني، والبردَ الذي يهبُّ في أحشائي. فكّرت في جاك وسوزان، عليَّ أنْ أساعدهما وأعتنيَ بهما، أنْ أجلبَ لهما الماء، وأعدّ لهما الطّعام.

كان جاك ينام في الخيمة وقد أنهكته الحمّى. لكنّ سوزان لم تكن نائمة. كانت مستلقيةً على الأرض بقميصها الطويل المُترِب. في البداية لمحتُ قدمَيها الحافيتَين النّاصعتَي البياض وذراعَيها. كانت ساكنةً تماماً ويداها منبسطتان على الأرض، فتملّكني للحظةٍ خوف شديد. نطقتُ اسمها: «سوزان!» ففتحتْ عينَيها، وابتسمت ابتسامة خفيفة. كان وجهها متشنّجاً متورّماً، وجفناها ذابلَين، وشفتاها المتيبّستان تكشفان قليلاً عن أسنانها الأماميّة، لكنّ نظرتها كانت تلمع ببريق مُقلِق، ولم أكن في حاجةٍ لِلَمس جبهتها كي أعرف أنّها تحترق من الحمّى.

- أتريدين بعض الماء؟ أتشعرين بالظّمأ؟

نظَرَت إليّ دون أن تجيب. حرّكت جفنيها وحسب. كانت تتنفّس بألم ومشقّة، وقد وظهرت بعض التقرّحات عند زاويتَي فمها وعلى عنقها وثنيتَي مرفقيها.

هُرِعتُ إلى الصّهاريج، وملأتُ قربةَ الماء من الدلو، ثمّ أعدتُ الغطاء. وانتابني وأنا أقوم بذلك شعورٌ بأنّني بين العمّال الذين ماتوا هنا، بين أبناء باليساد، ومع سوريافاتي وأنانتا.

استطاعتْ سوزان أنْ تشرب قليلاً، متّكئةً على كتفي. كانت تتحدّث بصوتٍ خفيضٍ كيلا توقظَ جاك. شَكتْ من آلام الظهر والدّوخة. وقالت بهدوء، بلا تبرّم ولا مبالغة:

- أتعتقد أنّني سأموت مثل جون؟

- لا أدري.

ما عدتُ أعثر على كلماتٍ أواسيها بها، لا أستطيع أن أكذب عليها بعد الآن.

ثمّ تحدّثَت عن سارة.

- أتعلم؟ لقد أرادت أن تموت، لكنها لم تستطع. ربّما تكون قصّة الإلهة التي تأتي كلّ ليلة وتبثّ أنفاسها في وجوه الناس حقيقيّة.

أخبرني جاك عن النساء الهنديّات اللاّتي يعبرن كلّ صباح في قارب ماري كي يُحضرن الطعام للمرضى، ويصلنَ حتّى إلى جحر سارة، حاملاتٍ الأرزّ وخبز البراتا الهنديّ، فيضَعْنه على حَجرٍ مثل قربانٍ ويذهبن. وحين يبتعدن تخرج سارة من مخبئها قرب القبر، فتأكل بسرعة وتعود إليه ثانيةً.

هل تعرف سوزان ذلك؟ رأيت دموعها تنهمر على وجنتَيها وتبلّل شعرها، لكنْ ربّما هو التورّم الذي يسدُّ القناة الدمعيّة. إنها جميلةٌ بهذه النار التي تحترق داخلها ماحيةً كل أثرٍ للمعاناة. دنوْتُ منها بهدوءٍ شديد وقبّلت جبينها كطفلة. رفّ جفناها لكنّها لم تقل شيئاً.

لا أستطيع أن أنسى الصيف في هاستينغز، والحفلات اللّيليةَ على الرصيف البحريّ، والأوركسترا التي تعزف ألحان الرّقصة الرّباعيّة،

والسّـادة الذيـن يرتـدون بـذلاتٍ فاتحـة اللّـون، والشـبّان المتأنقّـين، والفتيات بفسـاتينهنّ الطويلـة وقبعاتهـنّ المصنوعـة مـن القشّ، وسـوزان التـي أخذتني مـن يـدي، وأرادت بـإصرارٍ أن تعلّمنـي رقصـة الفالـس. «واحد اثنـان ثلاثة، واحـد اثنـان ثلاثـة!» ذات مسـاء كنّا في السـيرك أمام الشـاطئ، حيث فرسـانٌ ببـذلاتٍ سـوداءَ وقبعّـاتٍ عريضة يسـيرون عـلى إيقاع موسـيقى الماريـاشي[1].

استبدّ التعـب بسـوزان في تلـك اللّيلـةِ حتّـى أنهّـا نامـت عـلى كتفـي، لم أجرؤ عـلى التحـرّك، استنشـقتُ عطرها، وأحسسـت بخفّة شـعرها، ويدهـا الآخذة في الارتخـاء. وقـد ظننـُت أنّ ذلـك كلّه صارَ بعيـداً جدّاً، فـإذا به هنـا، بالضبطِ تحـت جفنيهـا المُثقَلـين بالنّعاس.

أتذكّـر جـاك ببذلـةٍ رماديّـةٍ جديـدةٍ تمامـاً، وقميـصٍ أبيـضَ، وربطـة عنقٍ سـوداء مـن الحريـر، وقبّعـة عاليـةٍ يحملهـا في يـده، وتلـك العصا-السّـيف مـن خشـب الكزورينـة التـي نُحِـتَ عـلى مقبضهـا رأس كلـب درواس، عصـا جدّنـا أرشـمبو، الـشيءِ الوحيـدِ الـذي احتفَـظ بـه مـن زمـن عزبـة آنـّا في موريشـيوس، وصـار يسـتعين بهـا في الشّـجارات في إنجلـترا (كان قـد حدّثنـي، في روي ماليـزون، عـن أشـقياءِ إليفانـت آنـد كاسـل). ولإضحـاك سـوزان في ذلـك اليـوم، اسـتلّ السّـيف عـلى الشـاطئ ووجّـه طعنـةً مزيّفـةً إلى حزمـةٍ مـن الفوْقـس. كان يرتـدي هـذه النّظـارة المسـتديرة نفسـها ذات الإطـار الفـولاذيّ التـي تتنافـر مـع لحيتـه وشـعره البنـيّ الدّاكـنِ ذي المسـحةِ الرومنطيقيّـة، وتُظهـره، عـلى نحـوٍ غريـبٍ، بـما هـو ليـس عليـه؛ شـاعراً ربّـما أو موسـيقيّاً. هـذه النظـارة التـي كُسـرِ زجاجهـا الآن، وكلّـما خلعهـا مـن أجـل النّـومِ، بـان الخـطّ الـذي حفرَتـه عـلى قصَبـة أنفـه.

(1) نوعٌ من الموسيقى المكسيكيّة التقليديّة، مُدرَجٌ ضمن قائمة التراث الإنسانيّ.

يـا لهـما مـن كائنَـين بالغَـي الجـمال والهشاشـة، كلاهمـا! لا أسـتطيع أن أهجرهمـا، فـلا أعـود أراهمـا أبـداً. أحسسـتُ أنّنـي إنْ رفعـت بـصري عنهـما ولـو لسـاعةٍ واحـدة، تلاشـيا، التهمتهـما الإلهـة ذات الأنفـاس البـاردة.

جلسـتُ في الظـلّ طويـلاً إلى جانبهـما. كانـت الرّيـح تعصـف بالخيمـة وتصفِـر في الشّـجيرات. صـوت البحـر هنـا ليـس همسـاً بعيـداً مثلـما هـو في جزيـرة بـلات، بـل دويّ متّصـلٌ قريـب، يهتـزّ لـه الصّخـر والـتراب. ربّـما كانـت هـذه الضوضـاء هـي مـا أفقـد سـارة ميتكالـف صوابهـا. ضوضـاءُ تبعـثُ عـلى الخـوف، وتمحـو مـن داخـلي كلّ مـاض ومسـتقبل، تاركـةً إيّـاي بـلا ذاكـرة. والآن يُخيّـلُ إليّ أنّنـي أصبحـت صلْـداً معتـماً، مثـل جزيـرة غابريـال.

الشـمس عموديّـةٌ والهـواء لافـحٌ. مشـيت إلى مخيّـم العـمّال. ولمحـت في حقـل الحجـارة مـا يشـبه تجويفـاً واسـعاً، في قلبـه كـوخٌ كبـيرٌ مبنـيٌّ مـن الحجـارة الجافّـة والخشـب، سُـدّت فجواتـه بالجـير. مـا مـن أثـرٍ للبيـوت التـي سـكنها المهاجـرون في ذلـك العـام حـين تخلّـت الحكومـة عنهـم وتركتهـم عـلى الجزيـرة.

عـلى العتبـة، تحـت ظُلّـة البـاب، ثمّـة عجـوزٌ سـوداء ضامـرةٌ ملتفّـةٌ في ساريها الباهـت. دنـوتُ منهـا فحدجَتْنـي بنظرتهـا اللّامعـة، وعـلى وجههـا تعبـيرٌ وحـشيّ- أو ربّـما خـوف- سـمّرني في مـكاني. ثـمّ نهضـتْ وعـادت إلى الكـوخ مُدمدِمـةً.

انحنيْـتُ لأدلـف إلى الكـوخ. كان معتـماً فلـم أرَ شـيئاً، وقـد كـدّر غيـابُ الضـوء جـوّه، فغـدا أقـرب إلى سَـلْع. رأيـت امرأتـين ملتفّتـين بوشـاحيهما. ثـمّ لمحـت صبيّـاً شـبه عـارٍ يركـض إلى الخـارج ويرمقنـي بنظـرةِ خـوفٍ

وتحـدٍّ: إنّـه بوتـالا، شـقيق بائعـة الهـوى. والمرأتـان همـا رسـامه وأمّهـا مُريامـه، العجـوز التـي لم أعرفهـا.

نهضَـت رسـامه، ومشـت إلى البـاب. رأيـت في ضـوء الشـمس وجههـا الجميـل المتناسـق وعينَيهـا العسـليّتَين. كانـت تضـع العلامـة عـلى جبينهـا، وشـعرها الأسـود مسـرّح بعنايـة، ومَفرقُـه مصبـوغ بالكركـم. ارتسـم عـلى وجههـا، هـي أيضـاً، تعبـير قلـقٍ وريبـة. كانـت شـديدةَ الوهـن حتّـى أنّهـا عـادت وجلسـت إلى الأرض، ثـمّ تقدمّـت إلى الأمـام زاحفـةً عـلى أربـع، وباسـطةً يدهـا كأنّهـا تريـد التحـدّث معـي. أتذكّرهـا حـين كان الشّـيخ حسـين يذهـب لرؤيتهـا في كوخهـا. وأتذكّـر نظرتهـا المتغطرسـة، ثـمّ لعناتهـا في اليـومِ الـذي تـلا أعـمال الشّـغب. كانـت مُريامـه واقفـةً في آخـر الكـوخ وعيناهـا تلمعـان كالجمـر في غبـش العتمـة. لقـد نُفيـت العائلـةُ عـلى إثـر مـا حـدث، ونبذتْهـا قريـة باليسـاد.

كان ثمّـة نسـاءٌ أخريـات مـن الهنـود عـلى قـارب مـاري. فـإلى أيـن مضَـين؟

وكـما لـو أنّهـا خمّنـت سـؤالي، وبالصـوت الأجـشّ القبيـح نفسـه الـذي شـتمتني بـه، والمتناقـض مـع جمـال وجههـا، ردّدت قائلـةً: «ماتـوا جميعـاً، ماتـوا جميعـاً». لم تُبـدِ أَمّهـا حـراكاً. كنـت لا أرى سـوى البريـق المتّقـدِ في عينَـي رسـامه، مزيـج مـن غضـب وخـوف وكراهيـة. أتذكّـر أيضـاً مـا أخبرتنـي بـه سـورياً عنهـا. فقـد بيعـت إلى متعهّـد عمـل، وضُرِبـت وأُجـبرتْ عـلى البغـاء في كلَكُتّـا، حتّـى اختطفتْهـا والدتهـا وحملتهـا إلى القـارب ذاهبـةً بهـا أبعـد مـا يكـون. وأتذكّـر هـذه الكلـمات التـي قالتهـا لسـوريا، ولـن أقـوى يومـاً عـلى نسـيانها: «**لمـاذا وهبنـي الإلـه هـذا الوجـه**

وهـذا الجسـد ليجعلنـي أعيـش في مسـتنقع؟» صاحـتْ مـرّة أخـرى بصـوتٍ قـاسٍ: «ماتـوا جميعـاً!» ثـمّ فتّشـتْ في كلّ زاويـةٍ عـن حصـاةٍ ترمينـي بهـا، مثلـما فعلـت ذلـك الصبـاح حـينَ مـررْتُ أمـام بيتهـا في قريـة المنبوذيـن.

كانـت الرّيـح تُزَوبـع عـلى طـول الشـاطئ حيـث يسـطع الضـوء. عبثـاً ابتعـدتُ، ماضيـاً إلى أقـصى نقطـةٍ في الجنوب، فقد ظـلّ صوت رسـامه يتناهى إليّ. وكـما هـو الحال مع سـارة ميتكالـف، كانت النسـاءُ الهنديّات يأتـين إلى هنا أيضـاً كلّ صبـاحٍ ويقدّمـن الطعـام، مثل قربـانٍ صامـتٍ، لعائلةِ رسـامه.

في الخيْمـة، اسـتيقظ جـاك. وضـع طاسـاً مطليّـاً بالمينـا قـرب الفـراش، ووسّـع فتحـةَ قميـص سـوزان وأخـذ يغسـل بهـدوء جلدهـا المجـرّح. لمحـتُ صدرهـا الأبيـض وقـد ظهـرت عليـه بقـعٌ داكنـةٌ بلـون الـدّم الجـافّ. ولـمّـا دخلـتُ الكـوخ، أدارت سـوزان رأسـها نحـوي ونظـرت إليّ محاولـةً الابتسـام. وكان هـذا أشـدّ مـا آلمني: ذهولهـا عـن كلّ حيـاءٍ، متمـدّدةً عـلى الأرض عاريـةً حتّـى الخـصر، وجسـدُها لامـعٌ ومُجـرّح.

عـصَر جـاك قطعـة قـماشٍ مشرّبـة بمحلـول البوراكـس[1]، ثـمّ مسـح عـلى جسـدها برفـق شـديد، بحـركاتِ عاشـقٍ لا طبيـب. وحـينَ أحـسَّ بوجـودي، توقّـف وقـال:

- سيستغرق الأمر بضعة أيام، بضعة أيام فقط.

ولمّا لم أفهم أردف قائلاً:

- ينبغـي منـع التسـمّم. وإذا اختفـى الطّفـح الجلديّ، فسـتكون بخير. لقـد اكتسـبتْ مناعةً وسـتقاوم. إنّها مسـألة يومَـين فقط.

---

(1) أو البوْرق: من مركّبات عنصر البورون. واسمه العلميّ بورات الصوديوم أو رباعيّ بورات الصوديوم، ويدخل في صناعات متعدّدة مثل مساحيق الغسيل والأصباغ.

رجعتُ إلى الصهاريج لملء مزيد من الماء العذب. الخّزان هنا لا ينضب، وماؤه أجوَدُ من ماء الصهاريج في جزيرة بلات. أحبّ أن ألمس إسمنت الصهاريج الحارّ، وأشعر في الوقتِ ذاته ببرودة أعماقها. يبدو لي أنّني أرى لمحاتٍ من حياة العمّال الذين عاشوا هنا قبلنا، عابري سبيلٍ مهجورين. هم من بنوْا هذه الآبار، وجلبوا الحجارة كلّها، ورصّوها بعضها إلى بعضٍ بالمِلاط. إنّهم ما زالوا يعيشون هنا، في هذه الصّخور السوداء عند سفح القمّة، أمام أزرق البحيرة الخياليّ وأمواجِ البحر المتهادية. أشعر بنظراتهم إليّ في ارتداد الضوء. كم راقبوا يوماً بعد يوم خط موريشيوس في انتظار القارب الذي لا يأتي أبداً! إلى أنْ أحُرِقوا واحداً تلو الآخر على الشاطئ، وذُرَّ رمادُهم في المحيط. وها أنذا الآن في المكان نفسه أمشي على رفاتهم، طعمُ رمادهم في حلقي، وغباره النّاعم يختلط بشَعري، وينساب على جسدي.

جنحَت الشمس للمغيب. واستأنفت طيور رئيس البحر تحليقها الدّائريّ حول قمّة الصخرة، وشرائطُها الحمراء الطويلة ترفرف خلفها مثل راياتٍ صغيرة.

أبحـرَ مركـب **إشـكندر شـاو** عنـد الفجـر، وانسـابَ عـلى طـول نهـر توليـز، وهـو لا يـكاد يصـدر ضجيجـاً، نحـو مصـبّ نهـر هوغـلي. كان المطـر ينهمـر فـوق النّهـر وسـطْح المركـب، فتَتَسـلّلُ قطراتـه إلى القـاعِ عـبرَ ثغـرات الألـواح الخشـبيّة وخراطيـم التهويـة.

كانـت جيريبـالا في الجـزء الخلفـيّ مـن الدّرجةِ الأخـيرةِ المخصّصـةِ للنسّـاء الوحيـداتِ والأزواج، تتلـذُّذ بعذوبـة الهـواء النقـيّ ورذاذ المـاء المتسـرّب مـن الكُـوى التـي لم يُحكَـم إغلاقهـا. فبعـد كلّ تلـك الأيـام تحـت الشـمس الحارقـة عـلى طريـق مدينتَـي جانبـور وإنجليـش بـازار، والانتظـار الطويـل في معسـكر بهوانيبـور، جـاءت الريـاح الموسـميّة كأنّهـا فـرَجٌ بعـدَ ضيـقِ. وكان هديـر الآلات مكتومـاً أيضـاً مثـل موسـيقى، فنامـت أنانتـا أخـيراً، متكـوّرةً عـلى ركبتَـي أمّهـا.

كانـت الجزيـرة الموعـودة عـلى مسـافةِ أيـام وليـالٍ أمامهـا، بعيـدةً جـدّاً حتّـى أنّ أحـداً لا يسـتطيع القطـعَ، يقينـاً، بوجودهـا. كانـت عـلى الطّـرف الآخـر مـن هـذهِ اللّيـالي الطـوال التـي سـتقضيانها قابعتَـين في بطـن **إشـكندر شـاو**، كـما لـو أن وحشـاً بحريّـاً ابتلعهـما، وحيـث

الستارة المُشمّعةُ تتأرجح فوق الكُوى، مُرسلةً رشقاتٍ من المطر.

عثرت جيريبالا على مكانٍ لها قرب أضلاع المركب، مع المهاجرين الآخرين. كان كلّ منهم قد بسط حصيرته (التي قدّمها لهم السيّد لومير مع حزمةٍ من ملاءاتٍ شكّلت «عُدّة العمّال» الوحيدة) ووضعَ صّرة ثيابه على رأسه، حذَرَ السّرقة.

كان في مقدّمة المركب، على الناحيةِ الأخرى من مرجل البخار، حيزٌ مخصّصٌ للعزّاب من الرّجال، وفيه أيضاً منفذٌ يوصل إلى عنبر السفينة حيث يُحتَجَز أفرادٌ من السيبوي مقيّدين بالسّلاسل، وذلك لإرسالهم إلى سجن الأشغال الشاقّة في موريشيوس، ليشيّدوا الطرق والسكك الحديديّة. دخل **إشكندر شاو مياه هوغلي** مطْلعَ النهار، فتجمّعت نساءٌ أمام النوافذ المغبّشة القليلة أملاً في إلقاء نظرةٍ على مدينة كلكتّا وقصر الحاكم. كانت شفاههنّ مزيّنةً بالوشوم. قالت ماني إنّهن برّيّاتٌ (دوغليج لوكيه)، لا يعرفن البحر. كنّ يتحدّثن بلغةٍ لا تفهمها جيريبالا، يهمسنها همساً، وكانت تندّ عنهنّ أحياناً ضحكاتٌ

مكتومـة، فقـد تلاشـى قلـق الرّحلـة مفسـحاً المجـال لحالـةٍ مـن تشـوّفٍ طفـوليّ.

كانـت جـارةُ جيريبـالا تُدعـى مـاني. وهـي شـابّةٌ أذبلـت الحمّـى وجههـا، تحمـل طفـلاً صغـيراً وتلفّـه بوشـاحها. كانـت تتحـدّث بضـع كلـماتٍ بالإنجليزيّـة. وقـد تعاطفـت عـلى الفـور مـع جيريبـالا التـي تحمـل طفـلاً مثلهـا. وهـي مـن أشـارت لهـا بمـكان المرافـق: صنبـورٌ نحـاسيٌّ متّصـلٌ بمـوزّعٍ قـرب المحـرّكات، ينقـل خيطـاً مـن المـاء فاتـراً لا طعـم لـه إلى طـاسٍ مـن الصّفيـح. أمّـا المراحيـض فتقـع عـلى يسـار المحـرّكات، وهـي كـوخٌ خشـبيّ ذو فتحـةٍ جانبيّـة في خـاصرة المركـب، مـزوّد بلـوحٍ مثقـوب ودلـو لغـرف الميـاه مـن البحـر. وعـلى الرغـم مـن وجـود دلـو المـاء، فقـد كانـت الرائحـة كريهـة وتنتـشر في جميـع نواحـي الطابـق السـفليّ. أمّـا الرّجـال فكانـوا يقضـون حاجتهـم في مقدّمـة المركـب، مبـاشرةً عـبرَ أحـدِ منافذهـا، ولم يكـن يُسـمح للسـجناء المقيّديـن بالسلاسـل إلّا بدلـوٍ في قعـر السـفينة.

اسـتغرق عبـور هوغـلي نهـاراً كامـلاً. وكان الحـرّ يشـتدّ ويشـتدّ داخـل المركـب كلّـما ارتفعـت

الشّمس، فيستلقي غالبيّة المهاجرين على حصرهم ويغطّون في النّوم.

وُزِّعت وجبات الأرز والسّمك المجفّف عند الخامسةِ صباحاً، لكنْ لا جيريبالا ولا أنانتا استطاعتا أنْ تأكلا شيئاً منها. فأكلت ماني حصّتهما ثمّ أبرزت من ثوبها ثدياً مُشقّقاً وألقمَتْه لابنها.

اشتدّت الرياح فجأةً مع قدوم المطر. وسُمِع صوت البّحارة وهم يركضون على سطح السّفينة، وبدأ الشراع الرئيسيّ يصطفق مع الريح محدثاً أصواتاً كالانفجار كانت تهزّ أضلاع المركب، فيزداد تأرجُحه.

وعلى الرغم من الحظر، صعدت جيريبالا إلى الكوّة لكي تنظرَ من تحت الستارةِ المُشمّعةِ رافعةً أنانتا على السلّم، وأخذتا تراقبان معاً. كان النّهر ينبسط أمامهما في نهايةِ المركب فضاءً شاسعاً بلونِ الطّين، بحراً لوّنه الغروب بالذّهب. وكان الأفق يمتدّ بلا حدودٍ، ويتلاشى في دوّاماتٍ من سحبٍ سوداءَ عظيمةٍ يحزّزها البرق، وفي القلبِ منه، مباشرةً أمام السفينة، امتدّت شجرةُ المطر باسقةً مثل عملاق يتقدّم فتهرب من أمامه الطيور. لم ترَ

جيريبـالا في حياتهـا مـا هـو أروع مـن هـذا ولا أشـدّ رعبـاً. كانـت تتشـبّثُ بأنانتـا ضامّـةً إيّاهـا بقـوّة إلى صدرهـا، وعيونهـا تحملـقُ بمشـهد النهرِ الوسـيعِ مثـل بحـر. كانـت ضفّتـاه تتباعـدان إلى أنْ اختفتَـا في سـحابة المطـر، ولم تعـودا سـوى شريطَـين طويلَـين مـن رمـلٍ رمـاديٍّ يطفـوان ويتلويّـان، ويبـدّلان هيئتهـما مثـل ثعبانَـين. وفجـأةً، ارتفعـت موجـةٌ ضخمـةٌ سـاكنةٌ أمـام مقدّمـة المركـب مباشرةً، ثـمّ أخـذت تتكسّر في نقطـةِ التقـاء ميـاه هوغـلي بالمـدّ. بـدت مقدّمـة المركـب كأنّهـا تنجـذب مستسـلمةً للزوبعـة، وارتجّـت محرّكاتـه كلّهـا في محاولـةٍ للتغلّـب عـلى الدوّامـات، وشرع البحّـارة المسـلّحون بمـراديَّ طويلـةٍ يجسّـون المـاء في جنـونٍ وهـم يصيحـون: «رام رام!»[1] سـمعَت جيريبـالا دقّـات جـذوع الشـجر المكتومـة وهـي تـضرب الجؤجـؤ، وصريـرَ أرينـة[2] المركـب عـلى الضفـاف الرمليّـة، ولم تسـتطع أنْ ترفـع بصرهـا عـن الموجـة التـي كانـت تتقـوّس أمـام المركـب. أخـذت بعـضُ

(1) صيحةُ استغاثة بالإله رام أو راما، وهو إلهٌ هندوسيّ وبطل الملحمة الهنديّة الشهيرة رامايانا.

(2) رافدة القَصّ في السّفينة: أي الجسر الممتدّ على طول قعر السفينة وتستند عليه. واسمها الشائع أرينة.

النسـاء أنانتـا وأرجعنهـا إلى الـوراء لتكـون في مأمـنٍ، لكـنّ جيريبـالا لم تكـن تسـمع صيحاتهـنّ، كانـت تحـدّقُ في الكـوّة برعـبٍ ودهشـة ووجههـا يلتمـع بقطـرات المطـر. اصطـدم **إشـكندر شـاو** بالموجـة، فأخـذ الهيـكلُ بأكملـه يـصِرّ ويئـنّ في محاولـةِ اجتيـاز الجـرف الرمـليّ، ومـا هـو إلّا أنْ وجـد نفسَـه في البحـر يـدور ويتأرجـح، فانحنـت جيريبـالا وتقيّـأت طويـلاً عـلى سـطح السـفينة، دون أنْ تسـمع سـخرية البحّـارة.

عـادت مـاني بعـد هُنيهـة مـن المطبـخ. وقـد حصلـت، لقـاء قطعـةٍ نقديّـة واحـدة، عـلى إنـاءٍ مـن المـاء السـاخن نُقعـت فيـه أوراق الزعـتر. «اشربي هـذا، فسـوفَ يشـفيك».

كان الـشّراب سـاخناً مـرّاً، لكـنّ جيريبـالا اسـتطاعت أخـيراً أنْ تسـتلقيَ عـلى الحصـيرة بجـوار أنانتـا، وسرعـان مـا غطّـت في النّـوم، كأنّـها حُرمـت منـه شـهوراً وأعوامـاً.

مكتبة
t.me/soramnqraa

2 يوليو، فجراً

استيقظتُ في السادسة صباحاً، مع طلوع النّهار على قمّة الصخرة. أمضيتُ لياليَ عند مدخل الكوخ في ظلّ الخيمة. تكاد جزيرة غابريال تخلو من البعوض، وذلك بفضل ريح الصابيات التي تهبّ دوماً فوق البحيرة، ولنُدرة المياه والغطاء النباتيّ. والليلُ فيها نديٌّ بقدر ما هو في بلات، وأقربُ إلى برودة الصّحراء. هنا لم تعد نوباتُ الحمّى تزورني. وصرت أنعمُ بنوم عميقٍ ومريح، في فراشٍ هو في الواقع قماشةٌ بسيطةٌ ألتفُّ بها وحجرٌ أسند إليه رأسي. لكنْ ليست خشونة الفَراش ما كان يعذّبنا في جزيرة غابريال، بل الجوع. فكلّ ما لدينا هو الحد الأدنى من الحصص الغذائية التي منحها لنا الشّيخ حسين، حصّتينْ من أرزّ سايغون لكلّ شخص، وحصّةٍ من دقيق الذّرة، وكوبٍ من العدس، وقليلٍ من الدّهن.

كان جاك قد جلب معه علب شايٍ وقطعَ صابونٍ استهلكها باقتصادٍ شديد. وكنّا نتناوب على الطّهو على موقدٍ بدائيّ، حيث الأغصان والأخشاب الطافية وقودنا الوحيد. كنت أجمعها من على الشاطئ، وكان ينبعث منها دخانٌ أخضرُ كريه. كانت مُريامه تطهو في المخيّم الآخر، وفي الصباح، رغم العزلة والشّح، كنت أتنسّم عبقَ حضارةٍ ما يصل إلينا. وكنت حالما أفرغ من وجبة اليوم الوحيدة، أذهب إلى موضعٍ أعلى البحيرة كي أتأمّل جزيرة بلات، وشريطَ الرّمل الطويل الذي يصل إلى صخرة لوديامو. ولكي أنتظر سورياڤاتي.

في تلك اللّحظاتِ تصفو السّماء بعد أنْ تجلوها الرّياح، وتسطع الشّمس ما إنْ تجتاز الأفق. ومن ناحية الشطّ الشماليّ، ينفتحُ البحر

أمامنا بأزرقه الضّارب إلى السّوادِ، مفروشاً بالزّبد. كلّ شيء هنا هادئٌ ساكنٌ، خلا الأمواج التي تنساب وئيدةً، وطيور رئيس البحر التي تمرّ من حينٍ إلى حينٍ لتراقبنا، مطلقةً صرخاتٍ أشبه بصرير البكَرة.

في غابريال، لا نعرف شيئاً عمّا يحدث على الطرف الآخر. فلم يعد ممكناً سماع صافرات السّردار وأذان الصّلاة فجراً، ولا ترنيمة المؤذّن مساءً. لم نعد نرى شيئاً من الحياة في باليساد، أو عمل النّساء في المزارع، أو العمل الأبديّ في بناءِ السّد، أو جمع الطّلق من عروق الصّخر عند سفح البركان. أحاول أن أتذكّر الوادي الضيّق حيث تتلألأ المياه العذبة في البرك المخبّأة بين أوراق القلقاس والداتورا الضخمة السّامّة، قرب الموضعِ الذي تقصده النساء للاستحمام وغسل ملابسهن. أجلسُ الآن في مكاني بين الصّخور، أفتّش بعينَيّ المبهورتينَ بالشّمس والريح عن علامات الحياة. تبدو مباني الكرنتينة مهجورةً، مثل أطلالِ قرْنٍ آخر. جوليوس فيران وبارتولي في موقعهما على قمة البركان لا يبرحانه، ربّما تحسبّاً لهجوم نهائيٍّ لن يأتي أبداً. أما المسنُّ ماري، فبعد أنْ ينقل النساء الهنديّات اللّاتي يجلبن القرابين كلّ صباح، يقضي بقيّة نهاراته قرب الرصيف، في ظل جدار المستوصف، يحلمُ يقِظاً ويدخّنُ، مثل حارسٍ منسيٍّ.

اليوم، مع انحسارِ المدّ، جاءت سوريا إلى الشّعاب المرجانيّة معلّقةً حقيبتها من الكاذي على كتفها، ومتّكئةً على حربتها الطويلة. توقّفَت للحظة في القناةِ وسْط البحيرة، والمياهُ تصل إلى خصرها. ثمّ صعدت صوب جزيرة غابريال حتّى بلغت المنعطف الرمليّ المفضي إلى الشاطئ. كانت ترتدي السّاري ذا اللّون الأخضر المائيّ الذي ارتدَته ليلة

ذهابنـا إلى الكهـف أعـلى باليسـاد، وكان يمتـزج بلـون البحـيرة. نزلَـت إلى الشـاطئ، فأحسسـتُ أنّ نبـضيَ يتسـارع، وحـواسّيَ تتضاعـف، رأيـت وجههـا بوضـوح، والجديلـةَ الغزيـرة المنسـابة عـلى كتفهـا اليسرى، والنقطـة الحمـراء عـلى جبهتهـا، وزِمـام الذّهـب في أنفهـا، وهالتَـين سـوداوَين حـول عينَيهـا. كانـت آيـةً في الجـمال.

صـارت أمامـي عـلى الشـاطئ، وبحـركاتٍ شـديدة البسـاطة وضعَـت حقيبتهـا الكاذيّـة عـلى الرّمـل وفتحتهـا لترَينـي مـا جلبـت: بعـض الفطائـر، وحبّـاتِ طماطـم مـن حديقتهـا، وحزمـةً صغـيرةً مـن الأعشـاب والأوراق الجافّـة.

- هــذه مــن أمّــي، إنّهــا جيــدة لشــفاء جــروح الرّاصــات البــاردة وتطهـير الجلـد.

ولـمّـا تفحّصـتُ الأوراق عرفـتُ فيهـا البيفيلاكـوا التـي وجـد جـون مزرعـةً كاملـة منهـا عـلى المنحـدر قـرب باليسـاد، يـوَم منعنـا راماسـاومي مـن الدخـول. حتّى أنّنـي تذكّـرت اسـمها اللّاتينـي (Hydrocotile asiatica).[1]

خبّـأتْ سـوريا حقيبتهـا داخـل شـجيرة ديـداء ضخمـة. ثـمّ أخذتنـي مـن يـدي. وكـما لـو أنّ شـيئاً لم يحـدث، وكأنّنـا قـد التقينـا البارحـةَ، قادتنـي نحـو القمّـة. «تعـال، سـأقطف بعـضَ النباتـات التـي تصلـح مرهمـاً».

تسـلّقنا الصخـور معـاً. كانـت الرّيـح تعصـف بعنـفٍ فتجعلنـا نترنّـح ونحبـس أنفاسـنا. حثّـت سـوريا الخطـى. كانـت تقفـز برشـاقةٍ مـن صخـرة إلى صخـرة وهـي تجـول ببصرهـا مفتّشـةً، إلى أنْ عثـرَت عـلى مُرادهـا في صَـدعٍ بازلتـيّ، فقالـت بفرحـةٍ تـكاد تكـون طفوليّـة: «تعـال وانظـر!».

(1) صُحِّح الاسم العلميّ لهذه النبتة ليصبح «Centella asiatica».

كان هنـاك نبتـةٌ تلتمـع في الشـمس ذات أوراقٍ خـضراء داكنـة، مسـننةٍ وشـائكة قليـلاً. وفي قلبهـا رأيـت عنقـوداً مـن زهـيْرَاتٍ خـضراء شـاحبة. قطفَـت سـوريا كلّ شيء بسرعـة كبـيرة، الأوراق ومجموعـة الأزهـار، وربطتهـا في طَـرفِ سـاريها.

بلغنـا القمّـة أو كدنـا، فصرنـا تحت عمـود الإشـارة الاسـمنتيّ. جلسَـت سـوريا في ظـلّ صخـرة، آمنـةً مـن الريـح. البحـر مـن حولنـا صاخـبٌ وبهـيّ. وفي الأفـق يلـوح الخـطّ الـذي يحـدّ أرض موريشـيوس، وعُـرفُ الزّبـد عـلى رأس صخـرة مالـورو، وأخـضرُ حقـولِ القصـبِ الضـارب إلى الرمـاديّ، وحتّـى أطيـافُ البيـوت وأبـراج قمائـن الجـير. إنّهـا قريبـةٌ جـدّاً، في الطـرف الآخـر مـن العـالم!

اقتربـت منّـا طيـور رئيـس البحـر وقـد أقلقهـا حضورنـا، فأخـذت تطـير بعصبيّـة منعطفـةً نحـو القمّـة. وأقبـل زوجـان منهـا نحونـا مبـاشرةً، ثـمّ انحرفـا وهمـا يصيحـان، وريشـتا ذيلَيهـا الأحمريـن الطويلَـين تترنّحـان في الريـح. عـبرا قريبـاً جـدّاً منّـا حتّـى أنّنـي رأيـت بوضـوح منقاريهـا الأحمرَيـن، وأرجلهـا المزرقّـة، وحدقاتهـا الصلبـةَ المصوّبـةَ نحونـا مثـل ماسـاتٍ سـوداء. كانـا يضطّربـان في الريـح مطلقَـين صرخـاتٍ طويلـةً مبحوحـةً، ممتلئـةً تبرّمـاً وغضبـاً. أومـأتُ بيـدي لأبعدَهمـا، لكـنّ سـوريا دفعـت ذراعـي إلى الخلـف.

- لا تفعـل. إنّهـا خائفـة، فنحـن قريبـان جـدّاً مـن أعشاشـها، وتظـنّ أنّنـا نريـد إيذاءهـا.

وقادتني إلى طرف القمّة الآخر، من جهة الريح.

- تعالَ، سأريك عشّها.

سرنـا وئيـداً منحنيَـين إلى الأمـام كـي لا نكـون مرئيّـين بوضـوح. الرّيـح أقـلّ عنفـاً عـلى هـذا المنحـدر، والغطـاء النبـاتيّ أكثـر سـمكاً، حيـث تكثـر شـجيرات الديـداء والفِربيـون والحشـف. كانـت صرخـات الطيـور تـزداد إلحاحـاً وحـدّة كلّـما تقدّمنـا، وصـارت أربعـة أزواج منهـا تحـوّمُ حولنـا، فدفعتهـا الرّيـح نحـو عمـود الإشـارة، لكنّهـا عـادت للظهـور مـن خلفنـا.

وقفـت سـوريا، وهمسـت في أذني كأنّهـا تبـوح لي بسرّ: «انظـر يـا بْهـايْ، هـذا بيتهـا».

كانـت أمامنـا تلعـةٌ يبـدو سـفحها كأنّـما حُـرث واستُصلح للزراعـة، وقـد تناثـرت في مواضـع مـن تربتـه السـوداء بعـض حفـرٍ كأنّهـا مداخـل أوكار، لكـن لا يمكـنُ رؤيتهـا مـن الشـاطئ. وكانـت شـجيرات الحشـف تسـدّ تلـك المداخـل، فبـدت مثـل جحـور الأرانـب. أحصيْت مـا يزيـد عـلى الخمسـين منهـا. لقـد كنّـا أمـامَ قريـة طيـور رئيـس البحـر.

واصلنـا التقـدّم زاحفَـين عـلى أربـع، دون أنْ نحـدث أيّـة ضجّـةٍ أو حركـةٍ فجائيّـة. همسَـت سـوريا في أذني: « لقـد فقَسَـت بيوضهـا وصـار لهـا أفـراخ، ولهـذا تـصرخ علينـا، تطلـب منّـا أنْ ننـصرف».

صرنـا عـلى بعـد عـشرة أمتـار فقـط مـن الأوكار، أسـفل التّلعـة. كانـت طيـور رئيـس البحـر تحلّـق عشـوائيّاً فـوق رؤوسـنا. سـمعتُ مِـن كثـبٍ حفيـفَ أجنحتهـا ممتزجـاً بـما يشـبه صفـيراً مكتومـاً يصـدر مـن مناقيرهـا المفتوحـة عـلى اتّسـاعها، كأنّهـا صرخـة غضـبٍ بكـماء. كـم هـي سـاحرةٌ وخرقـاء بريشـها الـذي بلـون الزّبـد وراياتهـا الحمـر الطويلـة. كانـت تتصـادم فيسـقط بعضهـا عـلى الأرض أمامنـا. وقـد مشـى أحدهـا نحونـا وهـو يحـدّقُ فينـا بطـرف عينـه بهيئـة مُهـدِّدة، وريـشُ حوصلتـه منتصـبٌ.

كان يريـد إخافتنـا، لكـنّ مِشـيته كانـت مهـزوزةً مضحكـة. وبـدا أشـبه بدجاجـةٍ غاضبـة.

نظـرتُ إلى سـورياقاتي. كانـت متمـدّدة عـلى الأرض، وعـلى وجههـا تعبـير دهشـةٍ طفوليّـة. «انظـر يـا بْهـايْ، هـذه هـي الأمّ. إنّهـا مسـتعدّة للقتـال دفاعـاً عـن صغيرهـا».

وإلى الخلـف منهـا، أبعـد قليـلاً، كان طائـرٌ آخـر يزعـق. قالـت سـوريا: «إنّـه الأب». كان يسـير ذهابـاً وإيابـاً بـشيء مـن الغضـب، ويشـحذ منقـاره بـالأرض. هـذه الطيـور التـي تبـدو في السـماء كبـيرة جـدّاً، بأجنحتهـا البيضـاء الطويلـة الشـبيهة بأنصـال المناجـل الكبـيرة، وتحـوم حـول القمّـة وتسـقط في البحـر كالحجـارة، باتـت الآن عـلى الأرض صغـيرةً عاجـزةً، ولا تـكاد تفـوق اليـمام حجـماً.

اقترَبـت سـوريا أكثـر مـن الأوكار، زحفـت مسـتندةً إلى مرفقيهـا، ونظرَتُهـا مصوّبـةٌ إلى العمـقِ مثـل قطّـة مُسـتنفَرة. وحـين صـارت أقـرب مـا يكـون، طـار واحـدٌ مـن رؤسـاء البحـر زاعقـاً، لكـنّ واحـداً آخـر واجههـا ومشـى نحوهـا مِشـيةً منحرفـةً إلى حـدّ مـا، بحوْصلـةٍ منتفخـة ومنقـارٍ نصـف مفتـوح، وأصـدر صفـيراً يَـشي بكراهيـة وخـوف، ثـمّ أخـذ يحـوم في مكانـه ويتظاهـر بأنّـه عـلى أهبـةِ الهجـوم. فحـان دوري كـي أزحـف، عندهـا أدرك الطائـر أنّـه لـن ينتـصر في هـذه الحـرب، ففَـرّ فجـأة مصفّقـاً بجناحيـه بـكلّ مـا أوتيَ مـن قـوّةٍ، ولكـن بـلا زعيـق، وارتفـع عاليـاً في السـماء مجرجـراً خلفـه شُـعلته الحمـراء، الباذخـة والعديمـة النّفـع.

صرنـا عنـد مدخـل الوكْـر. في بدايـةِ الأمـر لم أتمكّـن مـن رؤيـة شيء في العتمـة، سـوى بقايـا طعـام وبعـض الأصـداف وعظـام الحبّـار. ثـمّ لمحتُ في

عمقِ الحفرةِ فرخاً أشعث مرقّطاً، شبه متوارٍ في العشّ الملوّث بالذرْق، رأسه كبير مُثقلٌ بمنقاره الأسود، وجلد جمجمته مزرَقٌّ. كان يُسقسق في تبّرمٍ محاولاً الوقوف على رجليه في العشّ، لكنّ ثقل رأسه الضخم جعله يتعثّر. كان دميماً مُحزناً. أنّى لهذا الجهيضِ أنْ يستحيلَ واحداً من تلك الآلهة المجنّحة المتغطرسة والناصعةِ البياض، التي تنساب وتحلّقُ فوقَ المحيطِ، مؤرجحةً ذيلها النّاريّ الطويل، كما لو كان لا يجدر بها أنْ تستريح أبداً؟

عادَ الزوجان يحوّمان فوقنا، مطلقَينِ صرخاتٍ مروّعة، فما كان من الطيورِ الأخرى، وقد جذبها المشهد الفاضح، إلّا أنْ انضمت إليهما: النوارس، وطيور النوء، وحتّى طيور الأطيش. كان ضجيج أصواتها يصمّ الآذان. شدّتني سوريا إلى الخلف، وهبطنا معاً المنحدر نحو البحيرة ذاهلَين من صرخات الطيور، مبهورَين من شدّة الضوء والريح. ثمّ وصلنا إلى الظّل عند أشجار الكزورينة، فاسترحنا طويلاً على الرّمل. مِلتُ بخدّي على صدْر سوريا، مصغياً إلى دقّات قلبها مرّة أخرى، فانتابني الإحساسُ بأنّنا لم نفترق يوماً.

ثمّ أكلنا من الزّاد الذي جلبتّه. شعرتُ فجأةً بجوعٍ شديد، والتهمتُ فطائر العدس من فوري.

وخجلتُ من نفسي لأنّني لم أفكّر في تقاسمها.

فقلتُ مشيراً إلى مخيّمِ جاك وسوزان، ومخيّم النساء الهنديّات:

- ربّما عليّ أن أُبقيَ شيئاً للآخرين، هناك؟

نهضَت سوريا متردّدة. وتطلّعت نحو البحيرة.

- ينبغي أن أعود قبل المدّ.

وقفَت قبالةَ الشمس والرّملُ من حولها يبهر البصر. ثوبُها بلون الماء، ووجهها نحاسيٌّ داكن. شعرتُ بالاستياءِ، بل بالغضبِ ربّما.

-لا يمكنكِ الذّهاب الآن. لا بدّ أنْ تقابلي أخي وسوزان. لا يحقّ لأحدٍ أن يفرّق بيننا.

تبعتني على الدّرب المفضي إلى المخيّمَين لافّة شالها الأحمر الكبير على وجهها. كانت مثل أيّ امرأة من قرية المنبوذين. وقد سمعتُ رنّة خلخالها وحفيف فستانها الطويل، وكان قلبي يخفق بشدّة، فهذه أوّل مرّة ترافقني فيها إلى بيت أخي.

أنا أيضاً كنت حافياً. ولكي أتقّيَ الشمس، لففْتُ قطعةً من القماش الأبيض حول رأسي.

كان الحرّ خانقاً تحت الخيمة، وأسرابُ الذّباب تنتشرُ في المكان. وحينَ وصلنا، نهض جاك ونظر نحونا. أدركتُ أنه لم يعرفني. فقد سأل:

- مَن حضرتُك؟ وعمّن تبحث؟

فهو بخلاف السّادة البيض، لم يعتد مخاطبة الهنود برفع الكلفة.

ثمّ عدّل نظّارته ليرى على نحوٍ أفضل. أمّا سوزان فعرفتني. وقد شقّ عليها الابتسامُ بسبب تورّم وجهها، لكنْ بدا لي أن عينَيها تلمعان بالبريق الجميل نفسه الذي لمحتُه فيهما حين رأيتها للمرّة الأولى عند العمّ وليام.

وقفت سوريا عند مدخل الخيْمة، مثل تلميذةٍ لا تجرؤ على نطق اسمها. فدعَتها سوزان للاقتراب وشفتاها المتيبّستان تحاولان الكلام بمشقّة، وصوتُها متخدّرٌ متثاقل. لكنّها قالت على كلّ حال: «ما

أجملها!» وحاولَت أنْ تسأل متشوّقةً: «ما اسم...» دون أنْ تقوى على إنهاء جملتها. فأجبتُها، «اسمها سوريافاتي».

كنت أقفُ أمامها، فأزاحتني سوزان بحركةٍ غاضبةٍ قليلاً كي تتمّكن من رؤيةِ سوريا بوضوح! قالت مرّة أخرى «ما أجملها... تعالَي، أرجو المعذرة، فأنا لا أستطيع... لا أستطيع النّهوض».

غيرَ أنّ الجهدَ الذي بذلته في الكلام قد أنعشها قليلاً.

وفجأة هالني حالُها. كانت نحيلةً جدّاً، وبشرتها جافّةٌ تتناثرُ فيها بقعٌ حمراء دميمة. كانت الجروح حيّةً عند قاعدة العنق وثنيتَي مرفقيها. استنزفت نفسها محاولةً الترحيب بسوريا. ثمّ تراجعَت إلى الخلف وهي تلهث، جبينُها ملتهبٌ ويداها متجمّدتان، وكان جاك يجلس بجانبها، وبالقرب منه قليلٌ من الماء الملوّث في طاسِ المينا، والقماشة التي اتُّخِذت ضمادة.

قال في هدوءٍ يائسٍ أوجعني:

- لقد نفذ البوراكس، لم يعد هناك شيء.

ثمّ أردف:

- ولن أذهب لأجلب لها مسحوق الطّلق على كلّ حال!

اقتربَت سوريا من الفراش. ودون أن تنظر إلى جاك، أخذت حفنةً من ورق الشجر، ونقعتها في ماء الطاس، ودعكَتها بين راحتَيها، فسال منها خيطٌ رقيقٌ من عصارةٍ أقرب إلى السّواد. وحين صارت الأوراق عجينةً، وزّعَتها بعناية على القروح. ولا بدّ أنّ الضمادة كانت باردة، لأنّ سوزان ارتجفت.

وسألَتْ سوريا بصوتٍ واهنٍ:

- ما هذا؟

فأجابتها بالاسم فقط:

- بيفيلاكوا.

وأعدّت كمادات أخرى. وجثت ثانيةً أمام سوزان، وفكّت أزرار ثوبها العليا كي تغسل الجلد المتضرّر بالطّفح، بإيماءاتٍ شديدةٍ اللّطف. وكانت بالطريقةِ ذاتها تعتني بأنانتا، حيث تحمّمها كلّ صباح لتخفّف من قروح الفراش.

ابتعدنا أنا وجاك قليلاً، وقفنا في الخارج أمام الباب، وقد خفّت وطأةُ الحرّ، وتناهى إلينا حفيف أوراق الحشف معلناً قدومَ رياح المدّ.

ثمّ سمعنا وقع خطى، فاعتقدتُ للحظةٍ أن فيران أو السّردار قد جاءا للتّفتيش. لكنّهما كانا بوتالا وأمّه. كان الولد الصغير شبه عارٍ، لا يرتدي سوى مئزرٍ حول خصره. وظلّ واقفاً أمام الكوخ، هازّاً ساقه وعاقداً ذراعيه. ودخلَت مُريامه بصمت. وألقت وشاحها البرتقاليّ. كان لها وجه إلهة إغريقيّة، شائخةٍ برونزيّة البشرة، وشعرُها الرماديّ مصفّف في ضفيرتَين طويلتَين. وقفتْ أمام سوزان ونظرت دون أن تنطقَ بكلمة.

التَفَتَت سوريا، وجالت ببصرها بحثاً عن شيءٍ ما، ثمّ أخذت إحدى الملاءات التي تُستخدم كناموسيّة وثبّتتها بمساعدة مُريامه بدعامتَي الخشب على جانبَي الكوخ، مثل ستارةٍ. ثمّ التفتت إلى جاك وقالت له: «ينبغي أنْ يُغسلَ الجسد بكامله». قالت هذا بإيجاز، كأنّه أمر، حاثّةً إيّانا على مغادرة الكوخ. لم يعترض جاك. خرج أولاً، وجلس في الخارج على حجر. بدا في ضوء الشمس أشدّ إرهاقاً، أشعثَ

الشّعر واللّحية، مغبرّ الملابس، عاريَ القدمين في حذائه الممزّق. وكان يُحدّث نفسه بصوت رتيب.

- هذا الصباح كانت الانتكاسة مخيفةً... لم تكد تعرفني. علينا أنْ نكسب بضعة أيام، بضع ساعات.

ثمّ لفّ سيجارةً بطريقةٍ آليّة. فبثّ الدخانُ المتطاير مع الرّيح رائحةً غريبةً مُسْكِرة. كان جاك هو الآخر يتعامل مع رجال المسنّ ماري من الصيّادين المهرّبين، فقد كان يدخّن الحشيش.

بقي بوتالا واقفاً على مقربةٍ منّا بين الصخور، بمئزره الأبيض وشعره الأشعث، نحيلاً مثل داليةٍ سوداء. وقد ذكّرني بماوكلي. حاولتُ التحدّث معه عدّة مرات، وكان يصغي باهتمام، لكنّه يظلّ على تجهّمه، ولا يجيب إلاّ بكلماتٍ قصيرة. وبين الفينة والفينة يهتزّ بدنه بنوبات السّعال القصبيّ.

في تلك اللّحظة أنهت سوريا ما بدأت به. وفكّت الستارة. دخل جاك أولاً، وجثا إلى جوار سوزان. تسلّل شعاعٌ ذهبيّ إلى الكوخ عبرَ شقوق السقف وأنار وجهها. بدت هادئة، وكانت تلتفّ بملاءةٍ تلتصق بجسدها المبتَلّ وترسم شكل نهدَيها وورِكَيها، وكانت تردّ شعرها القصير إلى الخلف. ولمّا دنوتُ منها بدوري، مدّت لي يدها النديّةَ المرتخية، وهمستْ: «يا لها من ملاك!»

لكنّ مهمّةَ سوريا لم تنتهِ بعد. فقد أخذتها مُريامة من ذراعها وقادتها نحو المخيّم الآخر. مشت أمام سوريا ملتفتةً بنصف جسمها، على طريقةِ من لا مكانَ لهم في أيّ طبقةٍ من المجتمع. لم يكن صعباً تخمين ما تريد. فرسامه كانت في أسوأ حالاتها، إذ أصابها داء الرّاصات الباردة وخلال ساعاتٍ انتشر في سائر جسدها.

حين دخلتُ إلى ملجئها، صدّتني رائحة عنيفة، رائحة موت. كانت رسامه مستلقية على حصيرة في هواء الكوخ الحارّ. وعلى الرغم من الغبش، أمكنني رؤية وجهها المسودّ الذي شوّهه التورّم، كان فمها نصف فاغرٍ، وعيناها تلمعان بين جفنَيها المتورّمَين ببريق الحياة والذّكاء القاسي نفسه. لكنّ شفتيها لا تقويان على النّطقِ بكلمة.

بقيتُ على العتبة مع بوتالا. كانت سوريا جاثيةً أمام رسامه. طلبت من مُريامه أن تقترَبَ وتحضر بعض الماء، لكنّ العجوز لم تستطع الحركة. ظلّت واقفة في زاوية الكوخ، ونظرتها مثبتةٌ على ابنتها، كما لو كانت أمام مشهد لا يُحتَمل ولا يُقاوَم في آنٍ معاً.

كان جاك بجواري أمام الكوخ. نظرَ طويلاً هو أيضاً دون أن ينبس ببنت شفة. ثمّ عاد إلى المخيّم. ولمّا حاولتُ استبقاءه، هزّ رأسه: «لم يبقَ ما يُمكنُ فعله». وتمتم شيئاً، وحينَ لم أفهم، كرّر بهدوءٍ أخافني: «ينبغي أن نجهّز المَحرقة في أسرع وقت». تملّكني الذهول. وفكّرت بأنّنا جميعاً نفقد صوابنا شيئاً فشيئاً، لقد أصبحنا مثل فيران الفاسد، مستعدّين لإراقة الدماء من أجل القليل من الطعام، أو من أجل القتال وحسْب. سمعتُ في لحظةٍ صوتاً خفيّاً قادماً من بين الشجيْرات، خلف مخيّم مُريامه. وأظنّ أنّي لمحتُ طيف سارة ميتكالف وهي تهرب نحو جحرها في الطّرف الجنوبيّ، وبوتالا يلاحقها بالحجارة. لقد جُنّ الجميع.

عادت سوريا إلى البحيرة. غادرت دون أن تنظر خلفها، وسرعان ما اجتازت الصخور نحوَ الشاطئ. كان وجهها النحاسيّ الدّاكن يخلو من أيّ تعبيرٍ، وكانت تردّ طرفاً من فستانها الأخضر على شعرها.

ارتفع الموج عالياً واختفى مسار المرجان، وغرقت الشواطئ الرّمليّة. لم تكن سوريا في حاجةٍ لأنْ تلوّحَ أو تومئ. فقد عبر قارب المسنّ ماري البحيرة منحرفاً قليلاً بسبب التيّار. وقبل حتّى أن يلمسَ الجؤجؤُ الشاطئ، قفزت الفتاة إلى متنه، ووقفت في المقدّمة، ثمّ اتكأت على المُرديّ ومضت صوب بلات، كأنّها لن تعود أبداً.

كان الغروب بديعاً مثل كلّ مساء، حيث سكنت الريح، وخُطّت السماء بخيوطٍ أرجوانيّة وبنفسجيّة. وانسابت مياه البحيرة حريريّةً باهرةَ الزُّرقة، كأنّ ضوءاً يطلع من أعماقها. كلّ شيء هادئٌ تماماً هنا، سوى من هدير الموج المتكسّر على الحواجز في الطرف الآخر من الجزيرة، وعبور الطيور البطيء نحو الصّخور عند قمّة لوديامو. أمّا طيور رئيس البحر فقد عادت باكراً إلى أوكارها أسفل عمود الإشارة.

هذه هي السّاعة التي أجلس فيها بجوار سوزان، فيما ينشغل جاك بغلي الماء على نار الحطب. إنّها لحظاتٌ أشبه بطقسٍ، حيث أقرأ بصوت عالٍ القصائد التي تحبّها سوزان من كتيّبٍ أزرقَ داكنٍ ملطّخ بالرّماد والطين، وقد بات عندي أهمّ كتاب في العالم. فقد بدا لي أنّ كلّ كلمة وكلّ عبارةٍ فيه تحمل معنى غامضاً ينير عتمةَ واقعنا. وكنت كلّما بدأتُ أقرأ منه، تألّقَ وجه سوزان واشتدّ بريق عينَيها، وأحسستُ أنّها تتنفّس بارتياح أكبر.

قرأتُ **المدينةَ والبحر**، فإذا بالكلمات التي كتبها لونغفيلو في 12 مايو 1881، تتسلّل إلى أعماقها، فتخفّف أوجاعها وتجلو ذهنها. ولمّا شرعتُ في القراءة، سمعتُ خطى جاك تدنو من المدخل، وحركة

بوتـالا الخفيفـة تتقـدّم عـبرَ الدّغـل، أو ربّـما تكـون سـارة التـي توقّفـت لتصغـي وهـي تختبـئ بـين الصّخـور حابسـةً أنفاسـها:

«شكت المدينة اللّاهثة إلى البحر قائلةً:
الحرّ أضناني، فأنعِم عليّ بأنفاسك!
قال البحر: هاكِ! انظري ها أنا أتنفّس، لكنّ أنفاسي
للبعض ستكون حياةً، وللآخرين موتاً
هكذا، مثل بنات أوقيانوس[1]
إذ يأتين إلى بروميثيوس
لِيواسينه في ألمه
أتت ريح الشرق إلى المدينة
المشتعلةِ بلهيب شمسٍ لا ترحم
أتتها طالعةً من أعماق اليمّ الجيّاشة
صامتةً مثلما هي الأحلام، مباغتةً كالنّعاس
أتُراكِ ستمنحين الحياةَ أمٍ الموت
أيا أنفاس البحر الرحيمة والقاسية!»

(1) حوريّات مياه، بنات أوقيانوس إله المحيطات والبحار. (المُراجِع)

بعد أنْ عبر مركب إشكندر شاو مصبَّي نهرَي الغانج وهوغلي مساءً، دخل المحيطَ العظيم تحت سماءٍ خفيضة، في ليلةٍ اشتدّ برقُها. كانت رحلةً كالنّعاس أو الخدر الذي يعقب مرضاً طويلاً، اجتازها المسافرون يوماً بعد يوم، ليلةً بعد ليلة، محمولينَ على الأمواج البطيئة التي كانت تدحرج المركب وتهزّه، فتئنّ أضلاعُه، وتهدرُ مروحته كلّما اخترقت الموج، بينما يُثقِلُ هبوبُ الريح شراعه، ويكبح ترنّحه.

أخذت جيريبالا تعدّ الأيام، وتدوّنها في كرّاسٍ مدرسيّ صغير كانت قد اشترته من دكّان المخيّم في بهوانيبور. كانت لا تعرف الكتابة إلّا بالإنجليزيّة، وكلّ ما تعرف كتابته بها هو أيّام الأسبوع. فهذا ما بقي لها من زمن المدرسة الإرساليّة في كاونبور. وقد دوّنت بحماسةٍ قبل يوم من إبحارها على القارب كلمةَ: **الاثنين**. ورسمت خطّاً تحتها.

كانت كلّ صباح، حين تستيقظ، تتناول الكرّاس من صرّة ثيابها وتسجّلُ اليوم الجديد، راسمةً خطّاً تحته، ثمّ تغلق الكرّاس وتعيده إلى مكانه بعناية. كان هو الشيء الثمين الوحيد

الـذي تملكـه.

في الخامسـة والنصـف صباحـاً، كان متعهّـد العـمّال يطلـق صافـرة طويلـة معلنـاً وقـت الاسـتيقاظ. فيطـوي كلّ عامـلٍ حصيرتـه، ويسـارع إلى وضـع المـلاءة وملابـس النـوم بـين متاعـه، ويـدسّ صرّتـه في الفجـوات بـين أضـلاع السـفينة. وفي السادسـة يبـدأ الطاهـي بتوزيـع الأرزّ، عـلى النسـاء الوحيـدات أوّلاً، ثـمّ عـلى الأزواج، فيتقـدّم كلّ منهـم بـدوره أسـفل السـلّم حامـلاً قصعتـه ليتلقّـى حصّتـه، وهـي كـرةٌ مـن الأرزّ تُغـرَف بمغرفـة. وكان المتعهّـدان يشرفـان عـلى التوزيـع للتأكّـد مـن أنّ الأشـخاص لا يكـرّرون أدوراهـم. كان كلّ شيء يتـمّ بالترتيـب وفي أقـصى درجـات الصمـت. وكان كل منهـم يتلقّـى قدحـاً مـن الشـاي الأسـود يُصَـبُّ مـن وعـاء سِـماوَر[1] نحـاسيّ كبـير. وبعـد الوجبـة التـي تـؤكل سريعـاً عـلى ضـوء المصابيـح، تنتظـم النسـاء في طابـورٍ لاسـتخدام المرافـق، حيـث يدخلـن اثنتَـين اثنتَـين في كـوخ المَراحيـض، وسْـط الطابـق السـفليّ.

(1) كلمةٌ روسيّة تشير إلى نوع من الأباريق لغلي الماء وإعداد الشاي، وكان يُستخدم أيضاً في أوروبّا الشرقيّة والشرق الأوسط.

وكانت جيريبالا في بدايةِ الأمر تشعر بالحرج من قضاء حاجتها والاستحمام أمام ماني. فحتّى عند السّفر مع الدّوميّين، كانت كلّ امرأةٍ تذهب في اتّجاه مختلف وتجلس القرفصاء في النهر، والمياه تتدفّق حتّى عنقها. ثمّ اعتادت الأمر مع الوقت. كانت تغسلُ جسد أنانتا بعناية، لكنّ ماء المضخّة المالح كان يترك قشرةً لزجةً على البشرةِ ويدبّقُ الشَّعر. وكان لا بدّ من انتظار لحظة الصعود على سطح السفينة أملاً في الاغتسال تحت المطر.

ثمّ يحين وقتُ الصّلاة: المسلمون، في القسم المخصّص للرّجال في وسْط السفينة، يركعون باتّجاه مشرق الشمس، ويعلو صوت متعهّد العمّال مُرتّلاً، فتدنو أنانتا من الباب لتشاهد المصلّين دون أن تطرح أسئلة، فيما رجال ونساء آخرون على السّطح الخلفيّ يقدّمون أولى القرابين للشّمس، غارفين قليلاً من الماء براحاتهم.

وكان جدالٌ قد اندلع في مقدّمة السفينة بعد لحظاتٍ من الانطلاق. إذ أراد مهاجران هنديّان إشعال شمعةٍ أمام صورة يسوع النّاصريّ. كانا مسيحيّين من بونديشيري،

الأوّل يُدعى لازار والثاني جوزيف. همّ متعهّد العمّال بإطفاء الشمعة ومصادرة الصّورة، فتشاجر الرّجلان معه، فأمرَ القبطان بوضع الأغلال في أيدي الرّجلين، وأرسلهما إلى العنبر حيث يُحتجَزُ متمرّدو السيبوي.

كلّ صباحٍ، تبدأ النزهةُ في الهواء الطلق على سطح السفينةً. فبعد الإفطار والصلاة يتناوب المهاجرون في مجموعاتٍ من عشرين على الصعود إلى السطح لاستنشاق الهواء النقيّ مدة نصف ساعة. كان الفريق الأول، الذي يتغير يومياً، يُكلّفُ بغسل سطح السفينة بماء البحر والصابون الأسود. أمّا الفِرَق التالية فتتولّى مهماتٍ أخرى، مثل تعقيم الحصائر والمراتب بمحلول كونديز السائل، أو غسل أدوات المطبخ، فيما ينهمك آخرون بإصلاح الأشرعة وجدْل الحبال أو ترميم خشب الدّرابزين.

وعلى الرغم من العمل، فقد كان جميع المهاجرين يتطلّعون إلى لحظة الخروج من جوّ الطّابق السفليّ الخانق، كي يتسنّى لهم استنشاق الهواء ورائحة المطر، أو تشرّب دفء الشمس. ولم يغِب عن هذا النشاطِ سوى رجلين من الشمال يرتديان ملابس بيضاء،

فقد بدآ منذ اليوم الأول يلعبان الشطرنج، وكان ذلك يشغلهما حتّى المساء.

كان فريق النساء العازبات الذي تنتمي إليه ماني وجيريبالا يصعد إلى السّطح في نهاية الصّبيحة بين العاشرة والحادية عشرة، ضمن الجولة الثامنة، فتكون جميع أعمال التّنظيف قد أُنجزت، والسطح المغسول يتلألأ مثل رخام مصقول، والملابس وآنيةُ المطبخ مصفوفةً في صناديق لتجفّ، والصّنبور النحاسيّ المتّصل بموزّع المياه العذبة يلمع كما لو كان من ذهب.

ولم تكن النساء يأخذن معهنّ سوى غسيلهنّ، فيغسلنه بمياه البحر المسحوبة بمضخّة، جاثياتٍ مباشرةً على سطح السفينة. كان لهنّ الحقّ في شطفه بماء الصّنبور العذب الفاتر، إلّا إذا كان وابل المطر كافياً لإذابة الملح، ثمّ يعلّقنه على سطح المركب وينتظرنه حتّى يجفّ، بإشراف متعهّد العمّال الذي يراقبهنّ من تحت مظلّته السّوداء الكبيرة. وفي أغلب الأحيان، يكون عليهنّ تعليقه في الطّابق السّفليّ، على حبلٍ مثبّت قرب المرجل.

كانت جيريبالا تحبّ هذه اللّحظات كثيراً، حيث تجلس مع أنانتا قرب الغسيل، وساقاها مثنيّتان كما لو كانت لا تزال في بيت خالتها في كاونبور. وكان الضّوء الحادُّ يبهر بصرهما ما إنْ تخرجا من الطابق السفليّ، فتمتلئ عيونهما بالدمع وتتعثّر خطواتهما، فتحمي جيريبالا وجه أنانتا بطرف ثوبها، شاقّةً طريقها إلى مكانها على ظهر المركب، في ظلّ الشراع.

وشيئاً فشيئاً تألفان الضوء، فتجولان ببصرهما، حيث لا شيء على مدّ النّظر سوى المحيط بزرقته الدّاكنةِ، مائجاً متلألئاً. كان المركب كأنّه متوقّفٌ لا يتقدّم، يعلو ويهبط فقط في تجاويف الموج، وشراعه الأحمر الهائل ينتفخ مع الرّيح الشرقيّة. وكانت مدخنته في البرج الخلفيّ تنفثُ موجاتٍ من الدّخان الأسود تنحرف مدوّمةً باتجاه المقدّمة، وكلّما هبّت عاصفةٌ أعادت سحابةَ الدّخان إلى المؤّخرة، فتغطّي جيريبالا رأسها ورأس أنانتا بشالها. كان الدّخان يترك نقاطاً متوهّجة صغيرةً على سطح المركب تحرّق الجلد إذا ما وقعت عليه، وتترك بقعاً من السّناج على الملابس التي غُسلت حالاً.

في الأيّـام الأولى، رفضـت نسـاء «دوغليـج لوكيـه» البريّـات الخـروج مـن الطابـق السّـفليّ. كـنّ يتشّـبثن بأضـلاع الهيـكل ويصِخْـن، كـما لـو كانـوا سـيُلقونهنّ في البحـر. لكـنّ مـاني تحدّثـت إليهـنّ بهدوء شـديد، مسـتعينةً بالإيـماءات. وذاتَ صبـاحٍ، وافقـن عـلى صعـود السّـلّم والسّـير عـلى سـطح المركـب في الرّيـح. لكنهنّ ذهبـن للجلوس مقابـل الـبرجِ الخلفـيّ أبعـدَ ما يكـون عـن الحافة، وتسـمّرن في مكانهـّن متراصّـات، دائخـات البصر مـن فـرطِ الذّهـول.

كانـت الأيام طويلـةً في جوف السـفينة. أرادت جيريبـالا أنْ يـدوم مشـهد البحـر الممتدّ بـلا نهاية، بزرقتـه التـي تحـرّق العينـين، ورياحـه التـي تضـع الملـح عـلى الشـفاه، وتوقُّـدِ شمسـه، والـشراع الأحمـر الكبـير الـذي يرفرف منتفخـاً. كانـت أنانتا تتشـمّم الغسـيل الـذي جـفّ على سـطح السـفينة مفتّشـةً عـن رائحـة المحيـط فيـه، ثـمّ تسـتلقي على شـال أمّهـا، وتريـح خدّهـا عـلى القـماش البـالي، وتنسـلُّ إلى حلمهـا يهدهدهـا ترنّـح السـفينة، فتظـنّ جيريبـالا أنّهـا نائمـة، فتأخـذ تُهـوّي عليهـا بمروحـةٍ مـن القـشّ كانـت قـد ضفّرتهـا خـلال أيـام الانتظـار في مخيّم بهوانيبـور. وكانـت تغنّي لها

بهـدوءٍ ترانيـم الأطفـال، وكأنّ أنانتـا مازالت تلك الطفلـةَ الرضيعـةَ التـي انتزعتها عن صـدر مربّيتها النـازف.

لكـنّ أنانتـا كانت تحلـم حلـماً غريباً جـدّاً حتّى أنّهـا لم تسـتطع أنْ ترويَـه لأحـد، وبعيداً جـدّاً حتّى ليخيّـل إليهـا أنّه قـد ابتدأ قبـل ولادتها.

كانــت تحلــم بمركــبٍ آخــرَ، لا بهيــكل إشــكندر شــاو القديــم هــذا، ذي المؤّخــرة المرفوعـة كأنّـه كَرافيـل[1]، والـشراعِ الأحمـر الـذي رُقِّـع ألـف مـرّة، والمحـرّك الـذي يسـخن حتّـى الغليـان فيتعطّـل كلّ مسـاء، بـل بمركـبٍ عمـلاقٍ بحجـم مدينـة، غـارق كلّـه في الضـوء، بصاريـاتٍ ثـلاثٍ تحمـلُ أشرعـةً عاليـة مثـل جبـال، وهـي عـلى متنـه، تعـبرُ المحيـط بهـدوءٍ مسـتلقيةً عـلى سريـر أبيـض كبـير، يظلّلهـا قـماشٌ رقيـقٌ شـفيفٌ مثـل غيمـة، فتنسـاب بـلا نهايـةٍ، وبـلا عنـاءٍ، كمـن يبحـر في حلـم طويـل، في الاتّجـاه المعاكـس.

وكانــت تســمع في حلمهــا أحيانــاً موســيقى فائقـةَ العذوبـة لم تسـمعها مـن قبـلُ في أيّ مـكان، ولم تكــن تعــرف مــا هــي. وفي تلــك اللّحظــات

---

(1) سفينة شراعيّة سريعة من القرنين الخامس عشر والسادس عشر.

لا تعــود في المركــب، بــل في حديقــة شاســعةٍ يانعــة الخـضرة، حيــث تتدفّــق شــلّالات الميــاه، وترفــرف آلاف الطيــور والفراشــات، وتتــلألأ آلاف الأزهــار العطــرة في ضــوء الشــمس.

أثنـاء إقامتهـا في مخيـم بهوانيبـور عنـد مصبّ النهــر، اســتيقظت أنانتــا ذات ليلــةٍ، وأرادت أن تخــبر أمّهــا بــما ســمعته في حلمهــا. اســتمعت جيريبــالا إلى حديثهــا، ثــمّ عانقتهــا قائلــةً: «مــا تســمعينه إنّــما هــو موســيقى الملائكــة». فطمــأَن هــذا التفســير أنانتــا، وعــادت إلى النّــوم بســلام.

هكــذا كان صــوت الموســيقى يعلــو ويقــترب أكثــر فأكثــر كلّــما تقــدّم إشــكندر شــاو وانســاب مترنّحــاً في المحيــط، كــما لــو كانــت كلّ موجــة تجتازهــا مقدّمتــه عــلى طريــق ميريــش ديــش، تدنيهــا خطــوةً مــن حديقــة حلمهــا، ومــن الملائكــة.

4 يوليو

مرّ يومان لم تأتِ فيهما سوريا. أوّل أمس، كانت قد عبرت البحيرة باكراً، مستقلّةً القارب مع النساء اللاّتي يجلبن الأرزّ والدّهن. وقد أحضرت في حقيبتها الكاذيّة بعضَ الفاكهة وأوراق البيفيلاكوا لسوزان. مكثتْ في الكوخ مدّةً، وعلى وجهها تعبيرُ قَلَقٍ غريب. وكانت تتحدّث إلى سوزان بصوت خفيضٍ أثناء تحضير الكمادات. ولمّا غادرت، رافقتُها إلى الشاطئ، وفي لحظةٍ ما، عبر زوجٌ من طيور رئيس البحر فوق البحيرة، وراياته الطويلة ترفرف في الريح. قالت: «إنّهما مثل البشر. ليس لديْهما سوى صغيرٍ واحد». ثمّ سألتني عن سوزان، أرادت أن تعرف أين التقيا هي وجاك. وأتت على ذكر إنجلترا. ولم أفهم لمَ ترغب في معرفةِ ذلك كلّه.

بعد عودةِ سوريا إلى القارب مع النساء الأخريات، أدركتُ أنّ أنانتا قد ماتت. فقد مكثَت سوريا طيلة اليوم على التّلعة بالقرب من جدار عمود الإشارة الإسمنتي. أردتُ أن أراها، أنْ أناديَها. ظلّ المدّ منخفضاً حتّى منتصف العصرِ تقريباً. وكان الشاطئ الرّمليّ يرسم منحناه الضخم الممتدّ إلى مضيق القناة المائيّة، حيث أناسٌ يسيرون على الضّفة الأخرى، باحثين عن المحار، وأطفال يصطادون الأخطبوط في البرك السّوداء. وهذه هي المرّة الأولى التي يغامرون فيها بالقدوم إلى هذا المكان. فلا بدّ أنّ شيئاً ما قد تغيّر.

لم يظهر فيران. خرج بارتولي وحده من المستوصف، وأخذ يتطلّع ناحيتنا واضعاً يده على جبهته، ثمّ عادَ إلى المبنى. تُرى كيف يُمضي

وقتـه؟ أتصـوّر أنّـه يلعـب مباريـاتِ شـطرنج متخيّلـةً، موليـاً ظهـره إلى الحائـط، أو لعلّـه يحلـمُ يقظـاً مثـل مـاري، ويدخّـن الحشـيش.

انتظـرتُ سـوريا. ثـمّ لم أعـد أنتظرهـا. فقـد تيقّنـتُ الآن: رحلـت أنانتـا، «عـادت إلى نهـر يامونـا»، كـما تقـول سـوريا.

بحثـتُ عـن بعـض أوراق النبـات بـين الصخـور قريبـاً مـن القمّـة. فـدروس جـون ميتكالـف لم تذهـب هبـاءً. وجـدتُ عـلى المنحـدر الغـربيّ أوراق الشـوْزم ذات الأطـراف المسـنّنة الكبـيرة، والمفيـدة كمرهـم للجلـد. بـل إنّنـي عثـرتُ في ركـنٍ محمـيٍّ عـلى بعـض القطيفـة الرّيفيـة التـي تسـميها سـوريا «بقلـة مالبـار»، وعـلى نبتـة الأملـج أيضـاً. وإلى الأبعـد قليـلاً، أسـفل المنحـدر الـذي يحـوي أوكار طيـور رئيـس البحـر، عثـرتُ عـلى حشيشـة اللّيمـون، التـي أسـتطيع أنْ أصنـع منهـا الشـاي لسـوزان.

وقـد تسـنّى لي بفضـل سـوريا أنْ أميّـز آثـار النـاس الذين عاشـوا شـهوراً هنـا، العـمّال مـن ركّاب السّـفينة ليداريـه الذيـن تُرِكـوا لمصيرهـم عـلى جزيرة غابريـال قبلنـا. وجـدتُ في كلّ مـكان قِطعـاً مـن الحديـد الصدِئ والفخّـار، وحتّـى مـن العمـلات القديمـة، الهنديّـة والصينيّة.

وفي تجويـفٍ بـين الصّخـور، وجـدت علامـاتٍ غريبـةً محفـورة بحجـارة الحمـم، دوائـرَ ومثلّثات، وبعض أشـكالٍ أشـبه بالزخـارف الورديّـة. مَن ترك هـذه العلامـات؟ تخيّلـت امـرأةً، بوجـهٍ لوّحتـه الشّـمس، تخـطّ هذه الرّسـوم عـلى مهـلٍ يومـاً بعد يوم مثـل صلاة، وهـي تتأمّل خـطّ موريشـيوس الأخضر الـذي يطفـو في البعيـد مثـل سراب. أو رجـلاً مُلَثّـماً بقطعـةِ قـماشٍ، يجلس على الصخـرة سـاكناً أمـام البحر، مثـلَ حـارسٍ أبديّ.

هـمُ مَـن زرعـوا القطيفـة وحشيشـة اللّيمـون ولسـان الحمَـل التـي يُعثـر عليهـا في الأسـفل، قـربَ الصّهاريـج. ويبـدو لي أحيانـاً أنَـنـي أسـمع وقـع خطاهـم وصـدى أصواتهـم وأسمائهم تـتردّد حـول قمـم الصخـور مختلطـةً بصرخـات طيـور رئيـس البحـر، مثلـما هـو الحـال في باليسـاد مسـاءً، حـين يتنـادى الأولاد صائحـين: **شـوتا، أوكْلهـا، سـابرا آم! أوي!**

كانـت الطيـور السّـاحرة تحـوّم في الريـح حـول عمـود الإشـارة. وحـين أقـترب كثـيراً مـن أوكارهـا تصفـع شـعري مطلقـةً صرخاتهـا المكتومـة. ربّـما كان الجنـون هـو مـا يتربّـصُ بي هنـا، في هـذه الجزيـرة الصغـيرة، حيـث أنـا أسـيرُ شـظايا البازلـت والزّبـد، واهتـزاز المـوجِ الدّائـم في أعـماقِ جسـدي!

مـا مـن أحـدٍ غـيرَ سـوريافاتي. هـي وحدهـا مـن تربطنـا بعـالم الأحيـاء. بنظرتهـا، والنـور في عينَيهـا، ودفء يدَيهـا. في البـدء، كانـت سـوزان تقـول لي، بتلـك السـخرية التـي تتنـاول بهـا دومـاً كلّ مـا يخصّنـي: «راقصتـك الهنديّـة». وهـا هـي الآن تنتظرهـا كلّ يـوم، ونظرتُهـا مصوبّـةٌ دومـاً نحـو البـاب، نظـرةٌ محمومـةٌ يشـتدّ بريقهـا كلّـما تجـاوز أحدهـم العتبـة.

في المسـاء، أخـذ قلبـي يخفـق بقـوّة، شـاعِراً بذلـك الارتعـاش العميـق في داخـلي يمتـزجُ بصـوت البحـر عـلى الشّـعاب المرجانيّـة، وبسقسـقة الطيـور المتواصلـة. وشـعرتُ بالحمّـى تعـود إليّ، وبقشـعريرةٍ تـأتي مـن بعيـدٍ جـدّاً، وتتصاعـد رويـداً. نظـرتُ إلى وجهـي في زاويـة المـرآة التـي وضعهـا جـاك قـرب البـاب لتشـذيب لحيتـه. مـرّ وقـت طويـل دون أنْ أرى نفـسي في المرآة، ربّـما لأنّـني لم أعـد أبـالي، أو لكثـرة الانشـغالات اليوميـة. وقـد أدهشـني مـا طـرأ علـيّ مـن تغيـير؛ اسـودّت بـشرتي مـن حـرّ الشّـمس، وصـار شـعري

لُبدةً داكنة. وبدا لي أنّني أنا أيضاً اكتسبتُ هيئة مجنون. قالت لي سوريافاتي أنّني أبدو مثل أنغولي مالا، قاطعِ الطريق الذي كان يبتر أصابع الناس في الغابة، إلى أنْ أبرأه بوذا من جنونه. لكنّني لم ألحظ عليّ أيّ بقعةٍ أو علامة على المرض.

غادرتُ البيت فتبعتني سوزان بنظراتها، وعلى وجهها تعبير القلق ذاته الذي لمحته حين تسلّلتُ في اللّيل ذاهباً إلى باليساد. لكنْ، هنا، أين عساي أهرب؟

عدتُ إليها. قالت شيئاً بصوتٍ خفيض حتّى لا تزعج جاك الذي كان ينام متكوّراً في آخر الكوخ. ظننتُ أنّها بحاجةٍ إلى شيءٍ ما، القليل من الماء مثلاً، أو أنْ أساعدها في الذهاب إلى المرحاض. لكنّها قالت فقط هذه الكلمة: «أنقِذنا». ثمّ استدارت نحو الجدار.

نزلتُ إلى البحر جذِلاً. كانت مياه البحيرة سوداءَ ساكنةً، تحت سماءٍ لا تزال صافيةً. مشيت على طول المنحنى الرّملي، ثمّ قفزتُ إلى التيّار وكدت أنجرف معه. ولمّا غصتُ سمعت تلاطم الأمواج قريباً في أذني. سبحتُ على مهلٍ، آخذاً نفساً عميقاً كي أنسلّ بين ممرّين مائيَّين، عيناي مفتوحتان في العتمة، ولا هاديَ لي غير هدير البحر.

كانت رحلةُ العبور طويلةً. وفي لحظةٍ ما، عرفتُ أنّني أمام قاعدة جزيرة بلات، وصخور بركانها المقدّدة. كلّ ما فيها ساكنٌ معتم، كأنّها حيوان ضخم يرقُد على البحر.

بلغتُ اليابسة قرب الرّصيف المتداعي، أرضِ السمك الصخريّ المرجانيّ ذي الأشواك السّامّة، حيث عالجتني سوريا أوّل مرّةٍ عندما جرحَت قدمي كِسرةُ المرجان.

كانت الرّياحُ باردةً حين خرجتُ من الماء، وقد انتشرت في الجوّ رائحةُ مطر، مصحوبةً بها ما يشبه سحابةَ ضبابٍ تعبرُ أمام القمر. ركضتُ عبر الأجمات، على طول دربيَ المعتاد، حتّى وصلتُ طرف الجزيرة. مازلتُ قادراً على تخمين مساري، فقد عثرتْ قدماي على آثارهما، وتبيّنَت العوائق التي تعترضها. لم أنس شيئاً. مررتُ ببيوت الكرنتينة المهجورة؛ حيث لا يأتي فيران وبارتولي إلّا نهاراً من أجل النّوم، بينما يقضيان لياليهما أعلى البركان يراقبان وصول أعداء وهميّين، محتمين بالجدران الحجريّة التي شُيّدت بلا ملاط. حتّى الصهريج بدا منسياً، وقد زحفَت إليه نباتات الحشف. تقدّمتُ مبتعداً عن رائحة الماء الفاسد ودوّامات البعوض. هكذا فقد أصبحت الحدود التي اخترعها المستبدّ حقيقيّةً، كما لو أن كلّ شيء على هذا الطرف من الجزيرة قد تسمّم.

هربتُ من تلك الأطلال. كان هناك ما يشبه نفحةً باردة جعلتني أرتعش. أخطأتُ الدّرب مرّتين في اللّيل مصطدماً بممرّاتٍ شائكة، ثمّ وجدتُ نفسي فجأةً على الطّرف الآخر، فوق المُنحدر الذي تبدأ عنده مزارع جوز الهند. كنت أمام قرية المنبوذين، ورأيت خليج باليساد.

كانت الأضواء تشعّ في كلّ مكان، في البيوت وأمام الأبواب. وكانت المحارق على طول الشاطئ تتوهج باللّون الأحمر. استنشقتُ رائحة طعامٍ خفيفةً، مختلطةً بدخان المحارق، أخذتُ أتشمّمها من أعلى الجرف مثل كلب. كم من أسابيع وأشهر مضت من دونها! لقد صرتُ أنتمي إلى عالمٍ من الحجارة والرياح، عالمٍ بلا عِطرٍ، ولا حركةَ فيه سوى تحليق الطيور ذات النّظرة القاسية، ولسعات البحر والشّمس.

خشيتُ النزول، فسلكت منعطفاً كي لا أنبّه الكلاب، ولكي أمشي مع الريح. رأيت كوخ مُريامه في قرية المنبوذين. كان خاوياً، لكنّ مصباحاً صغيراً كان يومض عند بابه.

وكان بيتُ أنانتا خاوياً هو الآخر، ينوس المصباح عند مدخله وقد أوشك زيته على النفاد. وفي الموضع الذي كانت تستلقي فيه أنانتا، كانت الأرضيّة نظيفة ومكنوسة. لم يعد هنالك ناموسيّة ولا ملاءات. واختفى صندوقها المصنوع من خشب الصندل وتصاويرها الدينّيّة ومبخرتها. ركضتُ بقلبٍ خافقٍ على طول الشاطئ حتّى بلغتُ المنصّة وسط البحر، لم أرَ سوريا من فوري، لكنّي لمحتُ أطيافاً على ضوء المحارق، نساءً منهمكاتٍ بإشعال النيران، ورجالاً يقلّبون الجمر بغصونٍ طويلة. وعلى المنصّة، كان هناك جسدٌ مُسجّى، ملفوفٌ في رداء.

ثمّ لمحتُ سوريا. كانت جالسة على حافة المنصّة والدخان يحجبها بالكامل كما لو كانت هي أيضاً تحترق. وكانت أنانتا ممدّدة أمامها، جثّةً صغيرةً كأنّها لطفلة، وقد بدأت تتفحّم في اللّهب. وعند قدميها وُضِع صندوق خشب الصندل الذي يحوي كلّ ما امتلكت، حياتها كلّها، ومجوهراتها وأمشاطها وأدوات زينتها. لكنّ سوريا احتفظت بصندوق الصفيح الذي يحمل علامة شركة بيرد، ويحوي بطاقة الهجرة الخاصّة بجدّتها، والقلادة النحاسية ذات الرّقم 109، التي كانت أنانتا تضعها حول عنقها حين صعدت إلى القارب في بهوانيبور.

وصلتُ في اللّحظة الأخيرة. لم أقترب من سوريا، بل بقيتُ على الطّرف الآخر من المحرقة أسفلَ المنصة، حيث قضينا ليلتنا الأولى أمام البحر.

كان رجـلٌ يقـف إلى جانـب سـوريا، وبـين الحـين والحـين يصـبّ الزيـت علـى النـار فتشـبّ وتطقطـق. عرفـتُ فيـه المسـنّ راماسـاومي، الـذي حسـبته خطـأً مسـاعد الشّـيخ حسـين، فيـما هـو في الواقـع زعيـم باليسـاد الحقيقـيّ. لم يكـن يتكلّـم، كان يصـبّ الزيـت فقـط، والدخـان يحـوّم حـول طيفـه النّحيـل.

كان كلّ شيء صامتـاً، سـوى مـن زفـيرِ ألسـنة اللّهـب في مهـبّ الرّيـح وطقطقـة الـشرر.

وعـلى مبعـدةٍ يسـيرةٍ، في الشـارع الكبـير، كان هنـاك أنـاسٌ يروحـون ويجيئـون، وأطفـال لا ينامـون، وكلابٌ تتسـافد ثـمّ تتناهـش مطلقـةً نباحـاً حـادّاً. وكانـت خفافيـش الكهـف، وقـد جذبتهـا الأضـواء، تحـوم مترنّحـةً في تلافيـف الدخـان. وانتـشرت رائحـة بخـور خفيفـة منفّـرة، ورائحـة عـرق أيضـاً. كنـت أرتجـف. فقـد كانـت الحمّـى تتصاعـد شـيئاً فشـيئاً، وتصيبنـي برعشـة الـبرد. جلسـتُ بالقـرب مـن ألسـنة اللّهـب مسـتدفئاً. كان صبـيٌّ يجلـسُ عـلى إحـدى الدّرجـات سـاكناً كتمثـال. تبـيّنَ لي أنّـه شـوتو، عـازفُ النّـاي الـذي كانـت أنانتـا تحبّـه. كانـت سـوريافاتي تشـاهد النـيران، سـاكنةً مثلـه، وإنْ كانـت بـين الحـين والحـين تفـرك عينَيهـا اللّتـين هيّجهـما الدخـان.

اسـتلقيتُ عـلى الأرض في دفءِ المحرقـة. توقّفـت الضوضـاء تدريجيـاً، فغُصـتُ في سـباتٍ عميـقٍ ثبّتنـي إلى الأرض. ولمّـا فتحـتُ عينَـيّ عنـد الفجـر، كان الجمـر قـد خمـد. وغـدا كلّ شيءٍ رماديّـاً، كأنّ طبقـةً رقيقـةً مـن رمـادٍ غلّفـت الجـوّ والبحـر.

ذهبـتُ لقضـاء حاجتـي مقرفصـاً في الدّغـل. ثـمّ مشـيت إلى الشـاطئ لأغتسـل. كان المـدّ منخفضـاً والمـاء فاتـراً. وكانـت الـكلاب تتسـكّع حـول

الشـاطئ بحثـاً عـن بقايـا تنهشـها. وقـد نبحـثْ في وجهـي، فمشـيت رافعـاً ذراعـي والحجـر في يـدي. كانـت شـوارع قريـة المنبوذيـن خاليـة. بينـما لاحـت عـلى الشـاطئ أطيـافُ رجـالٍ ونسـاءٍ يقفـون في المـاء مـن أجـل الصّـلاة، وقـد انطفـأ مصبـاحُ الـكاز في كـوخ أنانتـا.

سـلكتُ درب الجديـان نحـو المنحـدر. كان وهـج النـار يُشـعّ خلـف البيـوت هنـا وهنـاك، حتّـى في ذلـك الوقـت المبكّـر. هـي لحظـةٌ وتنطلـقُ صافـرة السـرّدار طالبـةً مـن النّسـاء تحضـير المـاء لـلأرزّ والشـاي، ثـمّ تمـضي فِـرَقُ الرجـال والنسـاء إلى المـزارع، رافعـينَ المعـاول بثبـاتٍ عـلى رؤوسـهم، أو حاملـين سِـلال الـكاذيّ لنقـل الحجـارة السّـوداء إلى السّـدّ.

وحـين صرتُ أسـفل الكهـف، رأيـت نجمـة الصّبـح تتوهّـج. كانـت سـوريافاتي قـد وصلـت. تخيّلـتُ أنّهـا تنـامُ ملتفّـةً في مـلاءةٍ، ورأسـها مرفـوعٌ نحـو السـماء الرّماديـة، مُنهكـةً مـن التّعـب والحـزن.

انتظـرتُ لحظـة، لم أجـرؤ عـلى الاقـتراب. أردتُهـا أن تشـعر بوجـودي، وأن تناديَنـي مثلـما نادتنـي في سرّهـا، في اللّيلـة التـي قضيناهـا معـاً.

لم تكـن نائمـةً. كانـت تنتظـرني. بـدت ملامحهـا في ضـوء الفجـر شـائخةً. وقـد تناثـرت بقـعٌ مـن رمـادٍ عـلى وجههـا، وعـلى يدَيهـا وثوبهـا. ولمّـا بلغـتُ الكهـف، أطفـأتْ ذبالـة المصبـاح بـين أصابعهـا، وقادتنـي إلى أسـفل المنحدر نحـو المقـبرة المتداعيـة. كانـت فوّهـة الـبركان تنتصـب فوقنـا جـداراً أسـود منـذراً بالخطـرِ، غارقـاً بعـدُ في الضبـاب. هُيّـئَ إليّ أنّنـي سأسـمع في أيّ لحظـةٍ صـوت فـيران وهـو يتوعّـد ويُنـذر صائحـاً: «مـن هنـاك؟» وكأنّـه مـازال في الحـرس الوطنـيّ، أيّـامَ المتاريـس.

تقدّمنا مدفوعَين بزخّاتِ المطر. وعبرنا غابةَ الكزورينة الصّغيرة وسط عزيف الريح. استلقينا في حُلكةِ اللّيل تحت الأشجار مفترشَين أوراقها المتساقطة. ودنت سوريافاتي منّي وعانقتني. كنت أشعر ببردٍ شديدٍ حتّى أنّني ما برحتُ أرتجف. وضعتُ شفتي على جفنَيها، وذُقْت دموعها. لم أعد أتذكّر ما قلته لها، لكنّها أسكتَتني. «انتهت القصّة، ولن أعود كما كنت أبداً». ثمّ هدأَت ونامت قليلاً، فبقيتُ مستيقظاً أحرسُ نومها. ولمّا بانت الشمسُ خلفَ الغيوم، حملَت حقيبتها الكاذيّة حيث تضع ملاءاتها وحاجياتها وعلبة الصفيح التي احتفظت بها من أنانتا. كان ماري المسنّ يقف على الرّصيف. بدا أنّه لم يكن ينتظر أحداً سوانا. فعبرَ بنا إلى الطّرف الآخر، إلى جزيرة غابريال.

كنت مع سوزان في الكوخ عندما ظهر فيران الفاسد. ربّما علِمَ بمجيء سوريا معي إلى غابريال، وكان يبحث عنها ليمنعها من تكرار ذلك. قال إنّه جاء للاطمئنان، وإنّه يأمل أنّ المرضى يتماثلون للشّفاء. لكنّه كان يحمل مسدّساً في حزامه، مثلَ جنديٍّ مشؤوم من جنود الجيش الشعبيّ. ومن فرطِ اليقظةِ ليلاً والنوّم نهاراً، صار وجهه بلون التّراب. كانت نظراته حاقدةً مستجوِبة، وحينَ دخل الكوخ، أراد جاك طرده، لكنّ فيران دفعه إلى الجدار. عندها استوت سوزان جالسةً في فراشها، وكان وجهها يتّقد غضباً، ونظرتُها تلتمع ببريقٍ داكنٍ:

– هل تريد أن تعرف كيف حالي؟ عمّ تبحث؟ ألاً يكفيك هذا؟ هل تعتقد أنّ موتنا تأخّر أكثر من اللاّزم؟

حاولـتُ تهدئَتهـا، فيـما بقـي جـاك لِصـقَ الجـدار، عاجـزاً عـن الإتيـان بحركـة.

اسـتبدّت بسـوزان في تلـك اللّحظـة نوبـةُ غضـب ضاعفـتْ قوّتهـا. فاسـتجمعت همّتهـا ناهضـةً بمفردهـا، ومشـت بضـعَ خطـواتٍ في الغرفـة وهـي تختنـق. وفجـأةً شـقّت قميصهـا بيدَيهـا مـن فتحـة العنـق حتّـى الخـصر. وفي غبـش العتمـة، شـعّ نصفهـا العلـويّ عـلى نحـوٍ غريـب، وكان جلدهـا الأبيـضُ ممتلئـاً ببقـع الجـروح السـوداء في المواضـع التـي تيبّـس فيهـا الـدّم.

- تريـد أن تعـرف؟ حسـناً، هـا قـد عرفـتَ الآن! ورأيـت! فلترحـل! انـصرف! ولتبعـث رسـائلك إلى موريشـيوس، إلى الحكومـة وكبير العائلـة! أخـبره أنّـه لم يعـد أمامنـا وقـتٌ طويـل!

تراجـع فـيران. كان وجهـه يتـلألأ بالعـرق، وعينـاه الضيّقتـان طافحتَـين بالخـوف والكراهيـة. ثـمّ خـرج مـن الكـوخ متقهقـراً وهـو يتمتـم «لقـد جُنّـت المـرأة».

وحـين رأيتـه يهـرب عـبر الأجمـة متّجهـاً إلى الرصيـف، فعلـتُ مـا فعـلَ بوتـالا. رميتُـه بالحجـارة صائحـاً: شـودا حافـظ[1]! كـما لـو كنـت مجنونـاً، أنـا أيضـاً.

رأيتـه يصعـد إلى قـارب مـاري ويمـضي بعيـداً عـبرَ البحـيرة، منعطفـاً قليـلاً، إلى أنْ اختفـى في الغابـة، عنـد سـفح الـبركان.

أخـذتْ سـوريا يـدي. كانـت راحتُهـا ناعمـةً دافئـة. وجلسـنا معـاً أمـام كـوخ جـاك وسـوزان، تحـت ظُلـة الكتّـان.

---

(1) Shuuda hafiz!: عبارة باللّغة الأرديّة تعني «في حفظ الإله».

وجاء بوتالا ليصحبنا. وقف ببساطةٍ أمام الخيمة، دون أنْ يقول شيئاً، وقد علا وجهه تعبيرٌ جامد. حاول جاك عبثاً حثّه على الدّخول، وتقديم بعض الأرزّ له. لكنّه لم يقترب. وحين سرنا نحوه ولّى هارباً. بدا طيفه أمام الشمس نحيلاً مترنّحاً، ظلّاً مستطيلاً. تبعَتْه سورياڤاتي إلى المخيّم الثاني، وسرنا أنا وجاك خلفها. وقُبيل وصولنا، رأيْت سارة ميتكالف. كانت نصفَ مختبئة خلف الدّغل تراقبنا أثناء مرورنا. أردتُ التحدّث إليها، لكنّها عادت لتختفيَ في الدّغل مطلقةً صيحاتٍ عاليةً غريبة، مثل حيوان مذعور. كان بوتالا قد وصل المخيّم، وجثا عند الباب محدّقاً في الداخل.

ثمّة مصباحٌ صغير مضاء في عمق الكوخ، حيث تجلسُ مُريامه ثانيةً ركبتَيها، تتأرجح قليلاً يمنةً ويسرة. كانت تهمس همساً غريباً أشبه بطنين حشرة، دون أنْ تفتح فمها. ولّما دخلت سوريا التفتَت العجوز نحوها، فرأيت العلامات التي رسمتْها على وجهها بالرّماد. كان في نظرتها تعبيرٌ متثاقلٌ فاتر. وتراجعَت قليلاً كما لو كانت خائفة. مشت سوريا إلى الجدار، ولمحْتُ جثّة رسامه مسجّاةً على الأرض، ملفوفةً في ملاءةٍ قديمةٍ قذرة. كان وجهها شديدَ النّعومة، نضِراً مثل وجه طفلة. ولم تظهر عليها علامات المرض إلّا في زاويتيّ الفم وأسفل العنق.

كانت الرائحة لا تطاق، على الرغم من عطر البخور في المواقد. قادنا جاك أنا وسوريا من ذراعَينا إلى الخارج. لم أستطع رفع بصري عن وجه رسامه: جبهتُها العالية الملساء، وخطُّ أنفها الجميل، والظلّ على جفنَيها، وفمها نصف المفتوح حيث تلمع أسنانها، وهيئة جسدها الشّابة تحت الملاءة العتيقة المبقّعة، وذراعاها الممدودتان. وبدا لي أنّني

سمعتُ الكلمات التي قالتها لي سوريا، الكلماتِ التي كلّما سمعتها ارتجفت، كأنّها عبارة في مسرحيّة تراجيديّة: «لماذا وهبني الإله هذا الوجه وهذا الجسد ليجعلني أعيش في مستنقع؟».

جمعتُ أنا وسوريا، بمساعدة بوتالا، ما أمكننا العثور عليه من الأعواد الجافّة، والأخشاب الطافية على الشاطئ، وقطع الصناديق المتبقيّة من سفينة غارقة، متآكلةٍ بفعل الملح. كانت سوريا ملتفّةً بالشّال الأحمر الكبير الذي ارتدته ليلةَ شاركت في خدمة المحارق. كم تغيّرت منذ وفاة أنانتا! اكتست ملامحها شيئاً من القسوةِ، وصارت تبدو شاردةً، أو حالمةً ربّما، لم أعد أعرف.

لم يسعفنا الوقت لبناء مذبحٍ قبل حلول الظّلام. قال جاك بصوتٍ بارد:

- ينبغي أنْ نعجّل، علينا أنْ نحرق كلّ شيء في مكانه.

ساعدَني في إزالة الشّادر المشمّع، الشيءِ الوحيد ذي القيمة، وطويْناه على الأرض. وبزوال السّقف، لم يعد يحيطُ برسامه غير الجدران الحجريّة السوداء، وقد بدت صغيرة هشّة في ذلك الإطار العبثيّ، كأنما حُبِست مسبقاً في تابوتٍ حجريّ.

بدأ الرّماد يغطّي وجهها، وأخذنا نلقي فوقها الأغصان الجافّة. كانت الرياح الدافئة تلفّ الجزيرة جالبةً إلينا هدير البحر. صبّت سوريافاتي الزيت على جسد رسامه. كنّا في آخر لحظات الغروب، حيث السماء شاحبةٌ، والبحر أزرق ميّالٌ إلى الأرجوانيّ. ثمّ أعطت سوريا الشّعلة لبوتالا، وأرته أين يضعها. لم يحدث شيءٌ لبضع دقائق، لأنّ ملح البحر العالق بالخشب حال دون احتراقه. سمعتُ ضربات

مروحـةٍ قويّـة، وهـي قطعـةٌ مربّعـة بسـيطة مـن القـشّ المجـدول أخـذت مُريامـه تلـوّح بهـا، فنتـج عنهـا صـوتٌ مألـوفٌ شـبيهٌ بذلـك الـذي كان يُسـمَع كلّما أوْقـدتْ نـاراً تحـت قـدر الأرزّ. ثـمّ اندلـع لهـبٌ شـديدُ الحمـرةِ وسـطَ دوّامـةِ الدّخـان. تابـع جـاك المشـهدَ لحظـةً أخـرى ثـمّ عـاد إلى سـوزان في المخيّـم الآخـر.

لم أسـتطع رفـع عينـيّ عـن اللّهـب. أطبقـت عتمـةُ اللّيـل وخفّـت حـدّة الرّيـح. وأخـذت الخفافيـش تحـوم حـول النـيران وتطـارد الحـشرات. كانـت سـوريا منهمكـةً في إذكاء النّـار، فترمـي العيـدان وتقلّـب الجمـر. وكانـت مُريامـه قـد أحرقـت أغـراض رسـامه جميعهـا، حتّـى المجوهـرات ومسـاحيق التجميـل. كأنّهـا قـرّرت ألّا يبقـى منهـا شيءٌ عـلى الأرض. ظـلّ بوتـالا سـاكناً متسـمّراً عـلى الطـرف الآخـر مـن الكـوخ. وفي لحظـةٍ مـا، رأيتـه وقـد اسـتلقى عـلى الأرض في مكانـه، ثـمّ استسـلم للنـوم.

وأنا أيضاً غرِقتُ في النّوم مراقباً الشّرر المتطاير.

لمسَـت سـوريافاتي كتفـي لتوقظنـي. لم أفهـم مـا كانـت تقولـه لي. ردّدتْ: «سـوزان تريـد رؤيتـك». عُـدت مترنّحـاً إلى الكـوخ. كان جـاك ينتظـرني أمـام المدخـل، وقـد منـح ضـوء المصبـاحِ وجهَـه تعبـيراً غريبـاً، وكان داخـل الكـوخِ مغمـوراً بالنـور الخافـت نفسِـه الـذي رأيتـه في غرفـةِ رسـامه. كانـتْ سـوزانَ ممـدّدةً عـلى فراشـها، وبـدتْ منهكـةً للغايـة. قـال جـاك:

- إنّهـا تهـذي. تقـول اسـمك باسـتمرار، وتقـرأ القصائد التـي علّمتها إياهـا، قصائـد رامبـو وبودلـير. إنّها تريـدك، تطلـب رؤيتك.

وحينَ تردّدتُ في الاقتراب، أضاف جاك ببرود:

- ربّما لن تموت، وستقاوم.

أتذكّر أنّه حين كان متدربّاً في مشفى سانت جوزيف في لندن، أخبرني عن امرأةٍ كانت تشرف على الموت من حمّى النفاس:

- لعلّها تنجو، بعكس ما يتوقّع الأطباء.

لا أتذكَر إنْ كانت قد تعافت، وكأنّ لهذا التفصيل صلةً ما بحياة سوزان.

وضعتُ يدي على جبينها الحارّ. أدارت رأسها ببطْء ومشقّة. كان لها نظرة رسامه نفسها، حيث المعاناة التي تشحذ الذّكاء أضعافاً. قالت هذا بصوت خافت حتّى لا يسمعها جاك:

- هل سأموت، هل حانت اللّحظة؟

شددْتُ على يدها. أردتُ أن أمنحَها قوّتي. وتذكّرتُ جيّداً حين كنّا نحن الثّلاثة في هاستينغز، نتقدّم على الشّاطئ في مواجهة الريح. تلك الرّيحِ المنعشةِ التي حمَلت إلينا أريج البحر موقظةً فينا الرغبةَ في السّفر. فقد كان في ذلك اليوم أنْ قرّرنا الرّحيل إلى موريشيوس. ولربّما كانت هي تفكّر في الأمر ذاته.

كانت تقول كلماتٍ غيرَ واضحة، كما لو أنّها ثمِلة. استلقى جاك بجانبها ونام من فوره. واستمعتُ إلى خشخشة أنفاسه، وإلى عبارات سوزان المتداخلة، وأصواتِ اللّيل، وصراخِ الطّيور بين الصخور. ثمّ علا المدّ، وعصفت الرّيح.

استفقتُ عند الفجر. كانت سوزان تتنفّس بهدوء. لقد اجتازت الأزْمة. ولم يعد وجهها متورّماً، وقد ألصق العرق خصلاتِ شعرها بجبينها.

تلاشت رائحة الحريق في الخارج. وبعثرَت الرّيحُ الرّماد. رأيْت طيف مُريامه وبوتالا، وعلى مبعدةٍ منهما كانت سوريا تنام في ظلّ

صخـرة. كانـت الرّيـح بـاردةً كأنهـا خارجـةٌ مـن أعـماق المحيـط. لمسـتُ وجـه سـوريا، فالتفتَـت وشـدّتني إليهـا في تجويـف الرّمـل الدّافـئ. شـعرتُ بشـفتَيها عـلى شـفتَيّ. وتوحّـدت أنفاسـنا.

في اليـوم السـابع مـن الرّحلة، كتبـت جيريبالا: **الأحـد**. ورسـمت الخـطّ الكبير تحـت الكلمة. وفي ذلـك اليوم، دخلت الإلهةُ الباردةُ شيتالا السـفينة. فعندمـا نـزل البحارة إلى العنـبر فجراً، كـي يختاروا اثنـين مـن السـجناء لتنظيف سـطح السـفينة، كان أحـد أفـراد السـيبوي منحنيـاً عـلى هيكل السـفينة في هيئـةٍ فظيعـة، وقـد رُبطـت سـاقه بسـاق رفيقه. حـضر الطبيـب، السـيّد سِـن، ووضـع مـرآةً أمـام فـم المحكـوم عليـه فلاحـظ أنّـه ميـت. ولم تـترك الرائحـة الكريهـة التـي انتـشرت في العنـبر وقذارة الجسـد شـكّاً حـول سـبب الوفـاة. نقـل الطبيـب الأخبـار السـيّئة إلى القبطان الذي استشـاط غضباً، واسـتدعى متعهّـدي العـمّال وسـألهم لمَ لمْ يحيطـوه علـماً بالأمـر. الآن صـارت الكولـيرا عـلى متـن السـفينة، وكان هـذا يعنـي تأخُّـرَ الرحلـةِ، ومزيداً مـن المـرضى والوفيـاتِ عـلى الأرجـح. وسـيكون القبطـان مسـؤولاً أمـامَ شركـة بـيرد وشركاه عـن حملـه رجـلاً مريضـاً عـلى متن سـفينته.

فـكّ البحّـارة وثـاق الجُثّـة، ولفّوهـا بخِـرَقٍ مشـبّعة بالأمونيـوم، ورفعوها إلى سـطح السـفينة. وفي تلـك اللّحظـة بـدأ المهاجـرون يتحدّثـون عـن الإلهـة البـاردة.

وكان هناك بدايةُ ثورةٍ في الطّابق السفليّ، طالب بعضهم بالعودة إلى الهند، وأراد آخرون ترك الطابق السفليّ والذهاب إلى الهواء الطلق هرباً من الجوّ العفِن. وتنامى الخوفُ في ركن النساء أيضاً، فتكدّس معظمهنّ في الخلف، ليبتعدْن قدر الإمكان عن المراحيض وعن مكان احتجاز المساجين. وحدهنّ نساء «دوغليج لوكيه» لم يبدين حراكاً، وقد اتسعت أعينهنّ من الخوف غير مدركاتٍ ما يحدث. بقيت ماني وجيريبالا معاً. ولمّا سمعت أنانتا تلك الجلبة المتعاظمة عانقت أمّها، كأنّها أحسّت بأنّ زمن كاونبور قد عاد.

أخذ البحّارة، مسلّحين بالعصيّ، يفكّون قيود متمرّدي السيبوي الباقين ويقودونهم إلى سطح السفينة. وسُمِع دوّيٌّ ناجمٌ عن ارتطامِ جسدٍ في البحر، وعاد الصمت التامّ إلى الطابَق السفليّ. بعدها بقليلٍ أحضر البحارة دلواً وعبوةً من الكونديز لتطهير العنبر. وأوضح واحدٌ من بينهم لمهاجرٍ تكفّل بإذاعةِ الخبر، أنّه من الآن فصاعداً سيُنقَلُ المحكوم عليهم إلى سطح السفينة، ويحتجزون في غرفة المستوصف الضيّقة، لتجنّب العدوى.

هزّت ماني رأسها قائلةً: «الآن صارت الإلهةُ الباردة على متن القارب، وسيكون هناك وفياتٌ على أيّ حال». وعلّقت تميمةً حول عنق ابنها: بذرة سوداء وقطعة من خشب الصندل لحمايته. أمّا أنانتا فما كانت تملك سوى القلادة ذات الميدالية النحاسيّة التي تحمل رقم تسجيل والدتها.

سادَ نوعٌ من البلبلة في قلب إسكندر شو؛ مزيجٌ من تهديدٍ وخوفٍ علِقَ في كلّ شيء: استقرّ في عتمة الطابق السفليّ، وملأ الهواء، وأخذ يهتزّ مع هدير المحرّكات. كان حاضراً في ترنّح المركب، وفي أدنى صرير تصدره أضلاع السفينة. وقد طبعَ مرورَ السّاعات، وتبدُّلَ لون السّماء إذ يُلمَح من بين فجوات الستائر المشمّعة.

كانت الإلهة الباردة تتجوّل أثناء اللّيل خاصّةً، فتظلّ جيريبالا مستلقيةً على الحصيرة وهي تعانق ابنتها. كانت تسهر مترقّبةً، وعيناها مفتوحتان في الظّلام، فتغفو للحظةٍ كمن يسقط من علٍ، ثمّ تستيقظ فزعةً بقلبٍ خافقٍ ووجهٍ يتصبّب عرقاً، فتضمّ أنانتا إلى

صدرها. تسأل الصغيرةُ هامسةً:

-متى سنصل يا أمي؟

- قريباً يا عزيزتي، ربّما غداً، أو بعد غد.

لكنها كانت تعلم جيّداً أنّ الأمر سيستغرق وقتاً طويلاً، نهاراتٍ وليالِيَ، وربّما شهوراً.

كان يسري في العتمة أحياناً صوت نَفَسٍ أو تنهيدةٌ، نفحةٌ باردةٌ يقشعرّ لها البدن، فتحسّ جيريبالا أنّها تعبر فوقها وفوق أنانتا، فلا تجرؤ على الحركة أو التنفّس. كانت تلك أنفاسُ شيتالا التي تعلن وصول الرّب ياما، سيّد الموت. تذكّرَت جيريبالا اليوم الذي صادفَت فيه بين شجيرات القصب على ضفاف يامونا الشابة الفارغة العينَين التي كانت تحمل طفلها الميّت بين ذراعيها وتتقدّمُ نحوها مادّة يدها، دون أنْ يردعها رادعٌ، إلى أنْ جاءت ليل وشدّت جيريبالا إلى الخلف منقذةً إيّاها من نظرات الشابّة.

وصار المهاجرون حين ينهضون كلّ يومٍ في ضوء الفجر الرماديّ، بعد سماع صافرة المتعهّد، يتفقدّون بعضهم بعضاً بالنظرات، ليروا من سقط منهم في اللّيل، ومن مسّته أنفاس الإلهة.

ذات صباح لم يستفق طفلٌ من نومه. كان ممدّداً على كومةٍ من الغسيل المتّسخ على بعد خطوات قليلةٍ من أنانتا، شفتاه زرقاوان شديدتا الشحوب، وعيناه مفتوحتان، وكانت أمّه تحاول إيقاظه هازّةً إيّاه بنواح رتيب.

كان المرض قد تفشّى سريعاً في جسد الطفل، اخترقه البردُ حتّى ازرقّت أصابعه وشفتاه، ونزفَ كلَّ دمه في بِضع ساعات. ولمّا حضر الطبيب، كان الطفل يُحتَضَر. حمله أحد البحّارةِ بعيداً، ملفوفاً في خِرَقٍ مثل دُميةٍ قديمة. ولم يبقَ سوى نواح الأم، تلك التّرنيمةِ التي صارت كأنّما تتدفّقُ من كلّ صوب دفعةً واحدة، في غبشِ الطابق السفليّ، يتخلّلها دويُّ ارتطام الجثث بالماء، وصوت البحر حينَ يُطبق عليها.

لم يعد سطح السفينة، في الهواء الطلق، كما كان. ظلّت جيريبالا وأنانتا -كلّما جاء دورهما- تشعران بالانبهار نفسه أمام زوبعة السماء والبحر، والرياح الحارّة التي تدفع الشراع الرئيسي، ودوائر الدّخان المتدفق من المدخنة العالية فوق برج السفينة، لكنّ الخوف قد تسلّل إلى النفوس الآن، خوف

يشبهُ نظرة الفتاةِ على ضفّة نهر يامونا، ورائحة جسدها الباهتة، وأنفاسها الجليديّة.

ظلّت النساء على سطحِ السفينة يعملن ويغسلن ملابسهنّ، لكنْ في صمتٍ تام. وقد وُضعت علامةٌ بجانب الزّوارق في الموضع الذي تُلقى منه في البحر كلّ صباحٍ الجثث التي أخذتها الإلهة.

حتّى ليل نفسها قد توقّفت عن الكلام. كانت تقبع في مكانها طوال الوقت، بين أضلاع السفينة، وشالها منسدلٌ على وجهها، ضامّة ابنَها بقوة إلى صدرها المتجعّد.

كان أفراد الطّاقم يعملون في صمتٍ هم أيضاً. فمنذ حُبس أفراد السيبوي في غرفة المستوصف، صار البحّارة ينامون على سطح السفينة الخلفيّ تحت المحرّكات. لم يعودوا ينزلون إلى الطابق السفليّ. وكان الطّاهي يضع قِدْرَ الأرزّ الكبيرة أسفل السلّم، فيتناوب المهاجرون على تناول حصّتهم تحت أعين متعهّدي العمّال السّاهرة. وحدهما الرّجلان القادمان من الشمال، بردائيهما الأبيضَين الطويلين، وعمامتَيهما العاليتَين، واصلا لعبة الشطرنج على منديلٍ كبيرٍ بمربّعاتٍ حمراء،

كما لو أنْ لا شيء آخر في العالم يهمّ. وكانت أنانتا تتسلّل عدّة مرّاتٍ لتشاهد لعبهما، ولم يكونا حتّى يلحظان وجودَها.

كانت جيريبالا قد ملأت ثماني وعشرين صفحةً من الكرّاس. وفي اليوم الذي كتبت فيه للمرّة الرابعة كلمةَ **الاثنين**، حدث أمر جديدٌ أذهلَ جميع المهاجرين. وقع ذلك في الصباح الباكر، حيث كانت الرّيحُ قد هدأت، ولم يعد للبحر تلك الأمواج الطويلة التي أرهقت هيكل السّفينة وجعلت عوارضها تئنّ، بل باتت أمواجاً قصيرة، كتلك التي عبروا بها مصبّ نهر الغانج، عند رأس **لو سابل**.

وفجأةً تناهى إلى الأسماع ضجيجٌ غريبٌ، مثل صريرٍ أو أنين، حتّى أنّ جميع النساء، وعلى غير المعتاد، رغبنَ في التطلّع عبرَ زجاجِ الكُوى المبقّع بالزّيت. كانت ماني هي من عرفت الصّوت. ضغطت على ذراع جيريبالا، وأشرق وجهها بالفرح: «اسمعي! اسمعي! نحن قريبون جدّاً من اليابسة! اسمعي!»

شقّتْ طريقها إلى النافذة جارّةً معها جيريبالا التي رأت من خلال الزّجاج البحر بلونه

الزّمرّديّ، وخطَّ الجزر، وأطيافَ شجر جوز الهند البديعة. أمّا الضجيج الأشبهُ بالصّرير فاتّضح أنّ مصدره طيور البحر التي كانت تتبع المركب، محوّمةً في السماء قريباً من سطحه.

لم تحْن لحظةُ الخروج، لكنّ جيريبالا وأنانتا هُرِعتا إلى أعلى السلّم، تتبعهما ماني والنساء الأخريات. كانت الجزر على ميسرتِهنّ، تنساب وئيدةً أمام مقدّمة المركب. لقد مرّ وقتٌ طويل لم يرَين فيه اليابسة حتّى أنّ هذه الجزر بدت لهنّ خياليّة بعيدةَ المنال مثل مصبّ نهر عملاق. وفي الأفق كان هناك برٌّ آخر يمتدّ أمامهنّ مباشرةً، ويحجبه جزئياً الشراع والمدخنة. بدا أرضاً بلا نهاية، مغطّاةً بالزبد، تبرزُ منها جبالٌ شاهقةٌ ضاعت قممُها في الغيوم. أشارت ماني إلى خطّ اليابسة: «ها هي هنا. لقد وصلنا. إنّها ميريش ديش».

اغرورقت عينا ماني، من فرطِ الانفعال ربّما، أو بسبب الضّوء الساطع. شدّت أنانتا على يد جيريبالا. «هل وصلنا حقّاً يا أمّي؟» لكنّ جيريبالا كانت عاجزةً عن الكلام. لم تستطع إلّا أنْ تتأمّل هذه الأرض الممتدّةَ طويلاً، الناصعة البياض، الكثيرة الجبال

والغيوم، ففاضَ الدّمع من عينَيها أيضاً. إذ لم تستطع أن تصدّق أنّهم قد وصلوا حقّاً.

بدأ المهاجرون الآخرون يصلون شيئاً فشيئاً إلى سطح المركب، ومن قبلهم ركّاب الدّرجةِ الأولى، وصعد متعهدّو العمّال أيضاً، ووقفوا على المقدّمة في منطقةِ التّشغيل، ولكنّ البحّارة لم يفكّروا في إخلاء السطح. كان **إشكندر شاو** قد أنزلَ شراعه بالكامل، وتقدّم وئيداً مستعيناً بمحرّكه البخاريّ فقط، كما لو كان يستعرض قوّته للمرّة الأخيرة.

ظهرت أمامهم ثلاثُ جزرٍ معتمةٍ تبدو كأنّها تنجرفُ ببطء مثل حيوانات جانحة، وعلى مبعدةٍ، في منتصف الخليج الصغير، شوهد طرفُ صخرةٍ بارزٌ من المحيط. عندها استعاد القبطانُ حَزمه، فأصدر الأوامر لمتعهّدي العمّال الذين أطلقوا صافراتهم مجبِرين الجميع على العودةِ إلى الطّابق السفليّ. وعلى الرّغم من برودة الصباح، فقد كانت الشمس تدفّئ الجزء الدّاخلي من المركب. كان الهواء في الخارج ساكناً، والبحر هادئاً. أسرع المهاجرون إلى طيّ أمتعتهم وربط صُرَرهم، وعلَت الأصوات: صراخٌ واندفاعٌ وتطلّعٌ محموم. لقد وصلوا.

تواصل هبوب الرّيح بلا انقطاع، مبعداً أيّ تهديدٍ بالعاصفة. كانت زرقةُ السّماء تجرّح البصر، والبحر معتماً قاسياً يتعذّر ركوبه. أقمنا أنا وسوريا خيمتنَا على سفح القمّة في أقصى الجنوب، تحت أوْكار طيور رئيس البحر. هي من اختارت المكان. قالت إنّها تريد العيش قرب الطيور وترى الأفقَ مثلها، الطيورِ التي ترى من بعيدٍ ساحل الجزيرة الكبيرة ولا تصلُه أبداً.

أعطتْ كلَّ ما لديها قبل أنْ تغادر جزيرة بلات، النّاموسيّة وآنية الطّبخ. واحتفظت فقط بحقيبتها الكاذيّة. وأحرقَت دفاترها المدرسيّة وصفحات أخبار لندن المصوّرة التي تحكي عن لندن وباريس. وحينَ أدركْتُ الأمر؛ حين عرفتُ أنّه لم يبقَ لديها شيء، شعرتُ برعشةٍ، الرّعشةِ التي يُحدثها الإحساس باقتراب الحقيقة.

كانت الرّيح تعصفُ فوق حواف البازلت وتُبعثر أوراق الدّيداء والشجيرات، ريحٌ آتيةٌ من بعيدٍ، لها مذاق أعالي البحار. وكانت الشمس تتقّد منذ شروقها إلى لحظة انغماسها في البحر، فتتلألأ بنورها صخورُ البازلت، وحتّى أشجار الكاذيّ كانت تمتلئ بالشّرر. وأحياناً تطير حشرةٌ إلى النور، دبّورٌ تحمله الرّيح إلى البحر.

وكانت القمّة تهتزّ طوال الوقت. في البداية، لا يشعر بها المرء. يظنّ أنّه يسمع هدير البحر، أو تكسّر الأمواج على الشّعاب المرجانية السوداء عند طرف الجزيرة. لكنّها هِزّةٌ شبيهةٌ بالرّيح، تأتي من أعمق

أعماق الأرض، وتصعد إلى الصخرة التي نعتليها، ونظلّ نسمعها حتى عندما نستلقي على الأرض في عمق التجويف. أخذت سوريافاتي يدي، وضغطت عليها بقوّة «سنبقى دوماً معاً، أليس كذلك؟ بْهايْ...» ولعلّ الحمّى هي التي تهتزّ على هذا النّحو، صاعدةً إلى أجسادنا من الأرضِ؛ الإلهِة البارِدةِ التي نعيش عليها.

غيرَ بعيدٍ عن ملجأنا، تسكنُ سارة ميتكالف.

منذ وفاة رسامه، صارت سوريا هي من تعدّ لها الطعام، أُعطيةً من الأرزّ وبعض الفاكهةِ والمحار. حاولتُ التحدّث إليها، لكنّها أصبحت شديدة الفزع حتى أنّها لم تعد ترغب في الخروج من مخبئها. وكانت طيور بلشون القطعان هي من أتت على طبق الأرزّ والأسماك المجفّفة هذا الصباح. لكنّ سارة لا تخاف سوريا. وحين لا يكون أحدٌ في المكان، تجلس على حجر وتأكل بسرعةٍ دون أن تنطق بكلمة، وتشرب من الصهريج، مباشرةً من الدلو. كانت ترتدي أسمالاً ورائحتها منفّرة. ممّ تخاف يا ترى، أو ممّن؟ تقول سوريا إنّها تختبئ كي لا يجبسها فيران. تقضي اليوم كلّه مختبئةً في جحرها مثل وحشٍ طريد. ولا تخرج إلا عند المغيب، للشّرب أو البحث عن المحار في البرك عند انحسار المدّ.

أطاحت الرّيحُ اللّوح الذي كتبت عليه سارة اسم جون، لكنّها لم تعد تهتمّ بإعادة نصبه. ومع ذلك، فقد كنت أراها أحياناً قرب الأهرام التي نصبتُها تخليداً لذكرى موتانا الأوائل، نيكولا والسيّد تورنوا والهنديّتَين. لكنْ لعلّها لا تذهب إلى هناك إلّا للاحتماء من الريح. وظلّ بوتالا يرميها بالحجارة على الرّغم من تحذيرات جاك،

ربّما لأنّه يخافها. وكانت تهرب منه مطلقةً صيحاتٍ حادّة مثل الطيور.

وبالمناسبةِ، فالطيور تعيش هنا. كانت سوريا تصحبني عند الفجر إلى القمّة، إلى أوكار طيور رئيس البحر. كنّا نزحف عبر الشّجيرات الجافّة في صمت، حيث الرّيح تصفر في الصخور، والبحر شديد الزرقةِ طليق! صرنا نراه الآن بنظرة الطيور، نظرةٍ ثاقبةٍ تتفحّص كلّ عمقٍ وتيّار. هذا الصباح، أشارت سوريا إلى خيالٍ داكنٍ ينساب على السّطح في عرض البحر: «انظر! «انظر!» كان دلفين **أوركا** يتقدّم جاعلاً المياه تفور من حوله، ثمّ ينقلب على ظهره، كاشفاً عن بطنه الأبيض.

كانت طيور رئيس البحر تحوم بحثاً عن فرائس. وقد عبرَ واحدٌ من بلشون القطعان قرب القمّة زاعقاً، وبسطةُ جناحيه الواسعة ذات الأهداب السود ترفرف في الريح. رأى سمكةً فهوى عليها مثل حجر، فتبعَته طيور رئيس البحر التي أخذت تهوي واحداً تلو الآخر، وكنّا نسمع اصطدام الأجسامِ في البحر والمعركة التي تلي ذلك. إذ لا أحد يستطيع اختراق حِماها دون أنْ يلحق به العقاب.

كنّا نعرف كلّ وكْر. وكانت سوريا تتقدّم أولاً، زاحفةً حتّى المدخل. الآن صارت طيور رئيس البحر تعرفها، فلم تعد تهاجمنا، بل تكتفي بالمشي عرجاء بمحاذاةِ التّلعة، وتزمجر فاتحةً مناقيرها. تحدّثها سوريافاتي بهدوء، بلغةِ الدوميّين النّاعمة الانسيابيّة، اللّغة السرّية التي علّمتها إياها أنانتا. قالت: «إنّهم مثلنا متشرّدون ولصوص». وقد علّمتني بضع كلماتٍ كي تسمعني وأنا أردّدها: **شورم** «أيّها اللّصّ»، **كالا غول لاييه**، «فلندخل البيت». لكنّها لم تكن تأخذ من الطيور شيئاً. كانت تستلقي على الأرض لتتأمّلها طويلاً في غدوّها ورواحها،

بينـما أبقـى إلى الـوراء قليـلاً، بـين الصخـور. أُحـبّ اللّحظـة التـي تنطلـق فيهـا الطيـور نحـو البحـر، حيـث تتـماوج راياتهـا الطويلـة مـع الريـح، وتلمـع أجسـامها مثـل عِـرق اللّؤلـؤ.

لم نكـن نتحـدّث، كنّـا فقـط نتبـادلُ بضـعَ كلـماتٍ كأنّهـا أغنيـة. وأحيانـاً حـين نكـون متكوّرَيـن في كهفنـا، والريّـح تصفـر مـن حولنـا، وأنفاسـها تمتـزِج بأنفـاسي، تنظـرُ إليّ بعَينهـا الواسـعةِ وتـردّد بهـدوءٍ اسـمي: بْهاييـيْ...

أهبـط المنحـدرَ عـصر كلّ يـوم، وأذهـب لأجلـب المـاء مـن الصهاريـج في قربـةٍ مـن الجلـد أعطـاني إياهـا مـاري. ثـمّ أعـرّج عـلى المخيّـم لآخـذ حصتنـا مـن الأرزّ. بـدأت سـوزان تقـف عـلى قدمَيهـا، ناحلـةً جـدّاً، وثوبُهـا الطويـل يرفـرف حولهـا. وصـارت تسـاعد جـاك في طهـي الأرزّ، وتـأكل بشـهيّة جيّـدة. لهـا طريقـةٌ فائقـة الأناقـة في التقـاط الأرزّ بثلاثـة أصابـع. كانـت سـوريا هـي مـن علّمتهـا إيّاهـا. ضحكـتْ عندمـا لّمحْـتُ إليهـا بذلـك. وقـد مـضى وقـتٌ طويـلٌ لم أسـمع فيـه ضحكتهـا.

نقلَ لي جاك بعض الأخبار:

- زارنـا بارتـولي. يدّعـي أنّ سـفينة خفـر السّـواحل سـتأتي لاصطحابنـا اليـوم أو غـداً. ويقـول إنّ العـمّال يحتشـدون عـلى الشـاطئ منتظريـن.

كنـت أصغـي إليـه شـارداً وأنـا أمـلأ طبـق المينـا بـالأرزّ. تُحـبّ سـوريا **اللّامبانـغ**، أيْ قـشرة الأرزّ الملتصقـة في قـاع القِـدْر. كنـت أغـرف منهـا بعنايـة.

- لقـد جـنّ فـيران عـلى مـا يبـدو. إنّـه يحبـس نفسـه في أعـلى الحفـرة،

ويراقب طوال اللّيل، ويقول إنّها اللّيلة الكبيرة، حيث سيقتلوننا عن آخرنا.

علّقت سوزان قائلة:

-ولكن ألا يهبط من وقتٍ لآخر كي يأكل؟

هزّ جاك كتفَيه:

- لا بدّ أنّ لديه ما يكفي من الزّاد، مع كلّ ما سرقه منا. ثمّ إنّ النّبع قريبٌ منه، تحت قمّته مباشرةً.

وقال بصوتٍ خفيضٍ حتّى لا تسمع سوزان:

- يُقال إنّه نحرَ جدياً اللّيلة الماضية كي يجمع دمه ويحاول نقله إلى جسمه بغرزِ أنبوبٍ في فخذه. لقد جُنّ الرّجل، ولم يعد أحدٌ يجرؤ على الاقتراب من عرينه بعد الآن.

قبل أيّام، كان لأخبار جنون فيران أنْ تملأني بهجةً: فيران ملطّخاً بالدّم يتحصّن في أطلال المنارة والمسدّس في يده، منتظراً هجوم الأشباح. أمّا الآن فما عاد يعنيني أيّ شيء من هذا. إنّه مثل حلم مزعجٍ مُستَهلَك، يعاود المرءَ أثناء تعافيه من مرضٍ طويل، ويتبخّر مع العَرق.

أخذتني سوزان من يدي. بدت شاحبةً في نور المغيب، وبعيدةً. قالت في خجل:

- لمَ لا تأتيان إلى هنا معنا؟

لم تجرؤ على نطق اسم سوريا. وكانت تشعر بالخجل من قولها ذات مرّة: «راقصتك الهنديّة».

لكـنّ ريـاح غابريـال كنسـت كلّ شيء. مـا عـاد هنـاك شِـعرٌ، ومـا عـدتُ أرغـب في قـراءة عبـارات لونغفيلـو الطويلـة، والمفخّمـة إلى حـدّ مـا. حتّـى كلـمات رجـل عـدن العنيفـة بـدت لي كأنّهـا اختفـت في الفضـاء، طوّحتهـا الرّيـح وابتلعهـا البحـر. سـأجمع الأرزّ وأمـلأ القربـة بالمـاء البـارد، وأسرع نحـو التّلعـةِ حيـث تنتظـرني سـوريافاتي مسـتلقيةً تحـت دوّامـةِ الطيّـور- النيّـازك، في تحليقهـا المحمـوم.

شـعرَت سـوزان أنّ شـيئاً مـا كان يتسـرّب مـن بـين يديهـا، ولم تـدرِ مـا تفعـل، أرادت أن تستبقيَني. حاولَـت التحـدّث معي كما في السّـابق، عن لندن وهاسـتينغز، وعـن أغنية هيواثـا. وودّت لو يسـتأنف جـاك سرد القصص عن موريشـيوس وحقـول المدينـة وبيـت عزبة آنـّا. قالت:

- هل سمِعْت؟ غداً أو بعد غد، سنكون هناك أخيراً.

أتُراهـا نسـيَتْ حقّـاً؟ لقـد مـرّتْ عليهـا فكـرة الانتقـام مـن كبـيرِ أرشـمبو دون أن تـترك عندهـا أيّ أثـر.

ثمّ خطرت لها فكرةٌ أخرى، بمثابة حلٍّ لجميع مشكلاتنا.

- سـوف نذهـب إلى ريونيـون بـدلاً مـن ذلـك، يبـدو أنّهـم في حاجـة إلى أطبّـاء وممرضـاتٍ في لا رافـين أجـاك[1]. إنّـه اسـم يناسـبنا - وهـي بلـدي عـلى كلّ حـال. في الصيـف سـنذهب إلى المرتفعـات، إلى سـيلاوس، سـننتقل إليهـا في كـراسيَ محمولـة. إنّ طقسـها بارد، وفيهـا شـلّالاتٌ جليديّـة، وغابـاتٌ مليئـةٌ ببسـاتين الفاكهـة، إنّهـا الجنّـة.

دبّـت الحيـاة فيهـا مـن جديـد، فتدفّـق الـدّم إلى وجنتَيهـا واتّقـدت

---

(1) الاسم Ravine-à-Jacques يعني سيل جاك، أو وادي جاك.

عيناهـا. وعـادت لتضـع الخطـط، وتسـتأنف أحلامهـا. وكان جـاك إلى جانبهـا يحتضنهـا ويقبّلهـا. وقـد شـوّش قِـصر النّظـر بـصره. حـاول أنْ يقـولَ شـيئاً، لكنّـه لم يعـد يسـتطيع الحديـث عـن موريشـيوس كـما كان يفعـل سـابقاً. يبـدو كأنّـه لم يعـد يؤمـن بذلـك كلّـه. التفـتَ نحـوي، وللمـرّة الأولى أرى في ملامحـه تعبـير الـبرود هـذا، بـل حتّـى الكراهيـة، تجاه كبـير آل أرشـمبو، وأدركـتُ أنّـه قـد عقـدَ العـزمَ عـلى ألّا يديـن بعـد اليـوم بـشيء، ومهـما حصـل، لاسـم هـذه العائلـة.

ركضـتُ إلى قمّـة الصخـرة قاصـداً مكانَنـا أنـا وسـوريا. وصادفْـتُ في طريقـي بوتـالا هائـماً عـلى وجهـه في الدّغـل، أسـودَ شـديد النحـول، بجسـدِ طفـلٍ وعينَـي راشـدٍ قسّـتهما التّجربـة. أسـتطيع أن أتخيّـل مقـدار مـا عاشـه منـذ غـادرَ كلكُتّـا.

حاولـتُ اسـتمالته ببعـض الطعـام، فقدّمـت لـه صحـن المينـا الـذي يحتـوي عـلى قطـع أرزّ اللّامبانـغ. كانـت عينـاه تتّقـدان ببريـق مـن يتضـوّر جوعـاً، لكنّـه كان يتراجـع كلـما دنـوْت منـه. قلـت لـه بالفرنسـية: «تعـال، تعـال، لا تخـف! لـن آكلـك! إنّـك هزيـلٌ جـدّاً». لم يكـن يتكلّـم أيّ لغـة. تقـول سـوريا إنّـه ووالدتـه «غجريّـان»، **كولهاتيـس** مـن جبـال الهنـد، وهـؤلاء مشـعوذون ولصـوص، يسرقـون الأطفـال، ويدرّبـون القـرود عـلى دخـول المنـازل، ولهـم ثعابـينُ تحرسـهم مثـل كلاب حراسـة.

الآن وقـد احترقَـت خيمتُهـما، لم يعـد لهـما مـكانٌ يؤويهـما. وهمـا عـلى قـدرٍ مـن الشراسـةِ لا يمكّنهـما مـن العيـش مـع جـاك وسـوزان. ولكـيْ يحتميـا مـن حـرّ الشـمس نهـاراً، كانـا يلجـآن إلى غابـة الكزورينـة قـرب

الشاطئ، ويظلّان مختبئَين بين شجيرات الديداء، فألمحهُما بين الأوراق. وفي المساء، ينامان في رحبة الغابة، قريباً من الصهاريج والمراحيض. وكانت مُريامه تأتي كلّ صباح للحصول على حصّتها من الأرز، دون أن تنبس ببنت شفة. فجزيرة غابريال تجفّف الكلام. وقد غدت الرّيح وقساوة الحجارة وهدير الأمواج على الشّعاب المرجانية هي كلماتنا الحقيقيّة.

جاء جاك أيضاً إلى الطرف الجنوبيّ ليلقي نظرةً على خطّ الجزيرة. أخذ يحدّقُ وعيناه تكادان لا ترمشان. بتُّ أعرف كلّ تفصيلٍ وكلّ علامةٍ في هذا الخطّ. ويمكنني رسمه على الرّمل وعيناي مغمضتان. على اليمين مباشرةً، هنالك جزيرة كوان دو مير الأشبهُ بمقدّم سفينةٍ غارقٍ، ومن ورائها شريط الرّمل الطويل الذي يمتدّ شرقاً ملتحماً بالسّماء والبحر، ثمّ منحدراتُ القصب الخضراء، وسلسلةُ القمم الاثنتي عشرة التي تتلاشى ذراها في الغيوم، قمم ريفيير نوار، وجبل الرومبار وكور دو غارد، وجبل أوري، وبوس، ودو ماميل، وبيتر بوث ذي القبّعة، وجبل كلاباس، والجبل الأبيض، وجبل بامبو، وكامب دو ماسك.

كان جاك هو من علّمني أسماءها، كنت أتلوها مثل ابتهالٍ كلّ مساءٍ، مستلقياً على فراشي في نزل مدام لو بير في رُوي. وقد دوّنتُها في كرّاس. وكنت أتخيّلني وأنا أتسلّق قمّة بيتر بوث. كان ذلك مثل وعدٍ قطعناه على نفسَينا أنا وجاك.

«كان أبي قد قال لألكسندر: «أراهن أنّك لن تستطيع مجاراتي إلى القمّة». رافقه ألكسندر حتّى قبّعة الجبل، هناك حيث ثُبّت سلّمٌ من حبال. لكنّه شعر بالدّوار. فصعد أبي إلى الأعلى بمفرده، وجلس على

القبّعة الحجريّة. وقال إنّه لم يرَ في حياته أجمل مما رآه في تلك اللّحظة».
أعلم الآن جيّداً أنّنا لن نذهب إلى قمّة بيتر بوث. لقد حدثت أمورٌ كثيرة. ويبدو الأمر كأنّ هذا الجبل لم يعد له وجودٌ منذ الآن. أصبح بيتر بوث مثل أيّ جبلٍ آخر، مجرّد سنّ بارزةٍ على هذا الخطّ المزرقّ الذي لفرطِ ما تأمّلته أُصبتُ بالدوارِ حتّى الغثيان.

لكنّ جاك لم يأتِ ليرى المناظر الطبيعية، ولا ليرى كيف هي خيمتنا، بل جاء يستجوبني. سألني:

- ما هي نيّتك؟

فأجبته:

- ماذا تقصد «بنيّتي»؟
- أنت تعرف ما أعنيه. غداً أو بعد غد، سيكون القارب هنا. عليك أنْ تحسم قرارك.
- إذا كان هذا ما تريد معرفته، فلن أبقى هنا.

لم تُرضِه نبرتي السّاخرة:

- أتحدّث عن تلك الفتاة. بماذا وعدتَها؟

جاء دوري الآن لأغضب.

- بلا شيء! بماذا تريدني أن أعدَها؟ وهل في وِسع المرء أنْ يعِدَ بأيّ شيءٍ هنا. في هذا المكان؟

غضب جاك بدوره. وهو حين يغضب يخلع نظّارته ويمرّر إصبعه على قصبة أنفه. يبدو أنّ أبي وعمّي أرشمبو كان لهما هذه الحركةُ نفسها، وكم كانت تسليني. أمّا الآن، فأجد مشقّة في التّعامل مع هذا التشنّج اللّاإرادي.

تحدّث جاك ببطءٍ، فصارت له هيئةُ طفلٍ حردان.

- ما أعنيه، وما ينبغي أن نخبرك به أنا وسوزان، هو أنّك لست بالنّكرةِ في موريشيوس، فأنت تنتمي إلى عائلةٍ، إلى آل أرشمبو، وهم أناسٌ أقوياء، يشكّلون جزءاً من الأقليّة المتنفّذة، تلك الدائرةِ الذائعة الصّيت داخل الحكومة الجماعيّة.

قاطعتُه.

- هل تقصد كبار العائلات؟

- أجل، كبار العائلات إن شِئت. أنت تنتمي إلى هذه الطّبقة رضيت بذلك أم لم ترضَ. ثمّ إنّك لا تستطيع أنْ تنكرَ أنّ هذه الشابّةَ تنتمي إلى طبقةٍ أخرى. هذا لا يهمّ هنا. فهذه أرضٌ محايدة، جزيرةٌ مُقفِرة. ولكن بمجرد الخروج منها، سيعود كلّ شيء كما كان من قبل. هل فكّرت في الأمر؟ عليك أن تكون صادقاً معها، عليك أن تصارحها بالحقيقة.

نظرتُ إلى خطّ الجزيرة في الأفق. كان كلّ شيءٍ يتغيّر بين لحظةٍ وأخرى. ارتفعت الغيوم في البعيد سقفاً مائلاً يزداد ثقلاً كلّما تقدّمَ غرباً نحو جزيرة كوان دو مير، واختفت الجبال في ضباب المطر. هبّت رياحٌ أشدّ برودةً مبعثِرةً شَعر جاك ولحيته، فلمحتُ خيوط الشّيب التي خالطتْها عند فكّيه.

أساء جاك تأويل صمتي. لفّ ذراعه حولي بحركةِ وصيٍّ مخادِعة. هل نسيَ أنّ سوريا قد أنقذَت زوجته؟

قلت:

- ربّما أنت على حقّ. لقد أصبحنا غريبَين.

لاحظتُ أنّه لم يفهم ما قلته. أشار لي نحو الأفق:

- انظـر، إنّـه وطننـا. لم يكـن لدينـا، في أيّ وقـت، وطـنٌ آخـر غـيره. لقـد وُلدنـا هنـاك، في عزبة آنـّـا.

بسـطَ يـده وكأنّـه يشـير إلى قـرىً وبيـوتٍ خياليّـة، رأيـت بعينَين رامشـتين أكـواخَ الصّيـد تتـلألأ في غـران غـوب ومنـارة لابوانـت أو كانونييـه، وأبراج قمـين الجـير ناحيـةَ أنيـون، وهاريل.

كنـت أعلـم أنّـه مخطـئ. حدّثَني عـن سـوزان، عـن مشروعهـا الـذي يلامـس الجنـون: أنْ تصبـح فلورنـس نايتنغيـل الموريشوسـيّة، وعـن إنشـاء مسـتوصفات، وتحسـين ظـروف العمّـــال. سـيكون جـاك طبيبَهـم. لا أدري لمـاذا بـدا كلّ شيء بعيـداً عنّـي الآن، ومـا عـدتُ أؤمـن بـه.

- ألا تفهم عمّ أحدّثك؟

نظر جاك إليّ ذاهلاً. فقد صار لي صوتٌ لا يعرفه، قاسٍ وحازم.

- لقـد أصبحنـا غريبَـين واحدنـا عـن الآخـر، ولم نعـد ننتمـي إلى العـالم نفسـه.

بكلـماتي هـذه، وبوجهـي الـذي لوّحتـه الشـمس، وشـعري المتشـابك الـذي زاده الملـح كثافـةً، أَحـسَّ أنّـه يـراني للمـرّة الأولى:

- هل جُنِنت؟

- لكـن، انظـر إليّ. انظـر إلى نفسـك. لم يعـد لدينـا مـا يجمعنـا. لـن نكـون كـما كنّـا مـن قبـل. سـتمضي أنـت وسـوزان في درب، وأنـا في دربٍ آخـر. وقـد لا نلتقـي مـرّة أخـرى. سـيأتي القـارب ليقلّكـما، سـتذهبان إلى المدينـة، وبـور لويـس، أو لا أدري أيـن. وسـتظلّ أنـت دومـاً واحـداً مـن آل أرشـمبو. قـد تعود إلى فرنسـا

أو إلى إنجلترا. أمّا أنا فباقٍ مع سوريا، وسأظلّ دائماً معها، هي الآن عائلتي. حتّى كبيرُ آل أرشمبو لن يجد إليّ سبيلاً.

كنت واقفاً بين الصخور، مولياً ظهري إلى البحر، وقد استبدّ بيَ الغضب، كنت مستعدّاً لأنْ أمسك بجاك وأصفعه. لم أتخيّل قطّ أنّني يمكن أن أكرهه، ليس لذاته، ولكن لما يمثّله، روحِ كبار العائلات التي تسكنه. إنّه مثلي في أسماله، شاحبٌ يتضوّر جوعاً، تنهشه الحمّى والزّحار، قدماه عاريتان في حذائه، ونظارته مكسورة، وها هو مع ذلك يَنهى ويأمر، ويتحكّم مثل سيّد:

- ما تقوله غيرُ معقولٍ، بل إنّه سخيفٌ. كيف يمكنك التنكّر لعائلتك، لنفسك، لي ولسوزان، وكلّ ما فعلناه من أجلك...

قاطعتُه، واندلق فجأةً ما طفح من حقدٍ لديّ:

- فلتفتح عينَيك جيّداً! إنّ كبار العائلةِ هم من فعلوا هذا كلّه. كبار العائلةِ هم من تخلّوا عنا، مثلما تخلّوا من قبلُ عن ركّاب ليداريه، وتركوهم شهوراً لمصيرهم على هذه الجزيرة. أنت لا تعني شيئاً لهم! فلا شيء يهمّهم سوى حقول قصبهم. إنّك تتحدث باسم آل أرشمبو، لكنّك ابنُ رجلٍ أهانه آل أرشمبو، وطردوه! أنت عندهم مجرّد ثمرة جافّةٍ! هذا ما قاله لأبيك العمّ أرشمبو بعد مطالبته بتسوية الحسابات. ولمّا حصل على ما يريد، طردَنا جميعاً، وأرسل أمّي إلى الموت، لأنّها لم تكن من علية القوم، لأنها أوراسيّة! وأنت تريدني الآن أن أعود إليهم متظاهراً بأنّ شيئاً لم يحدث؟ إنّك أنت المجنون حقّاً. لن يقبلوك أبداً، لا أنت ولا سوزان. أمّا أنا،

فلـن أكـون يومـاً مـن أجلِهـم. لـن يعرفـوا حتّـى مـن أنـا. لـن ألقاهـم أبـداً، إلّا وهُـم يمضـون مسرعـين في عرباتهـم، فأنحـدرُ إلى الرّصيـف كـي لا يدهسـوني.

شـعرَ جـاك بخيبـة أمـلٍ عظيمـة. ولم يُجـب. جلـس عـلى صخـرةٍ ووجهـه يلتمـع بنـور الشـمس، وقصبـةُ أنفـه المكسـورةُ شـاحبةٌ قليـلاً. كان يحـدّق بعيـداً في غمـوض، ناحيـةَ الأفـق حيـث تمّحـي الجبـال تحـت المطـر. خجلِـتُ مـن نفـسي لأنّنـي استسـلمتُ للغضـب:

- انظر، عليك أن تعرف هذا: لم يعد لدينا شيء هنا، لا بيتٌ ولا عائلة.

أعلـم أنّنـي آذيتـه، فقـد قلـتُ مـا كان يستشـعره هـو نفسـه منـذ وقـتٍ طويـلٍ. وكأنّـه لم يـأتِ إلى هـذه الجزيـرة برفقـة سـوزان إلّا ليُنفـى مـن موريشـيوس إلى الأبـد.

انضمّـت إلينـا سـوزان عـلى الطّـرف الآخـر. وصلَـت مترنّحـةً، وفسـتانها الطويـل يرفـرف فـوق جسـدها الشـديد النّحـول. كانـت واهنـةً، لكـنّ وجههـا مـشرقٌ بابتسـامة. خمّنَـت أنّنـا نتشـاجر. وكـما كانـت تفعـل في المـاضي، عـلى شـاطئ هاسـتينغز، مالـت عـلى كتـف جـاك وأخـذت تمسّـد شـعره. كانـت تـودّ أنْ تعثـرَ ثانيـةً عـلى تلـك الإيـماءات التـي اعتاداهـا حـين كانـا عاشـقين، وكانـت الحيـاة كلّهـا أمامهـما. أمسـكَت بيـدي، وحاولَـت أنْ تشـدّني كـي أجلـس معهـما.

- لمـاذا لا تـأتي للعيـش معنـا؟ قريبـاً سـوف نجتمـع مـن جديـد هنـاك، كلّ شيء سـيكون رائعـاً كـما خطّطنـا لـه؟

لكنّهـا قالـت ذلـك بنـبرةٍ متسـائِلة، كـما لـو أنّها هـي نفسـها لا تصـدّق ما تقـول، كما لـو أنّ ذلك كلّـه مجرّد حلـمٍ مكتوبٍ في دفـتر ذكرياتها. ثـمّ أردفت:

- سوف نذهب ونلاقي أفراد العائلة. ولن نفترق أبداً، أليس كذلك؟

لم يُجب جاك. كنت أعرف ما يجول في خاطره، طالعتُه في برود نظرته حين حدّق فيّ. لم يعد لدينا عائلة، وربّما لم يكن لدينا عائلةٌ أصلاً. كان مجرّد حلم أداوم عليه في وحدتي، في عنبر النوم البارد في نزل لوبير، لأخادع به جوعي. حين ماتت أمّي، محى العمّ أرشمبو كلّ شيء، حتّى أبسط آثارنا. أوْصد في وجهنا باب عزبة آنّا، وفقدْنا كلّ شيء، الأرضَ الزّرقاء، وبحرَ القصب الزمرّديّ، والقممَ حيث تولَد الغيوم، وحتّى جبلَ بيتر بوث. كانت تلك إرادتَه. ولو كان الأمر غير ذلك، فهل كنّا لنُتركَ لمصيرنا على جزيرتَي بلات وغابريال؟

كانت سوزان ترتجف.

- إنّني متعبة، أسنداني كي نعود إلى سقيفة المجانين تلك.

كانت تنجح دوماً في إضحاكنا، حتّى حين يكون كلّ شيءٍ من حولنا مأساويّاً.

وما كِدنا نسلك درب العودةِ حتّى سمعنا صوتاً في الدّغل، وحركة حيوان متخفٍّ. كانت تلك سارة ميتكالف. خرجَت من مخبئِها وقد جذبها على الأرجح صوت سوزان. كانت تقف بين الصخور وعيناها تطرفان في الضّوء الساطع. وقد احمرّ وجهها الفتيُّ بسبب الشمس، وتبعثر شعرها، وامتلأ بالعُقَدِ والقشّ. أومأَت سوزان مناديةً إيّاها. ولكنْ سرعان ما تورات المجنونةُ في الدّرب المفضي إلى جُحرها.

انعطفنا حتّى لا نمرّ أمام الأهرام السّوداء. وفي لحظةٍ، شعرتُ برجفة سوزان تسري في ذراعي. كانت تبذل جهداً كبيراً.

- قلبي يخفق بقوّة، لم أعد أحتمل.

شبكنا أنا وجاك أيدينا لنصنع لها كرسيّاً محمولاً، وبهذه الوسيلةِ أوصلناها إلى «سقيفة المجانين». وكانت تلفّ ذراعَيها حول أكتافنا. كنّا، بهذه الوضعيّةِ، لنشكّل لوحةً بديعةً على غرار بول وفيرجيني في خليج تومبو[1]. وعلى مبعدةٍ يسيرة منا، كان بوتالا يشاهد مرورنا، متوارياً بين نبتاتِ الدّيداء.

وصلنا إلى المخيّم. كنت أشعر بالخزي لأنّني استسلمتُ لغضبي وخُنت ثقة سوزان. تذكّرتُ وصولنا إلى جزيرة بلات، حينَ رأينا، من متن سفينة خفر السّواحل، الشاطئ القاسي، وألواح البازلت حيث تتكسر الأمواج، والزورق الذي بدأ برحلة النّقل المكوكيّة. انتابني انطباعٌ أنّ ذلك قد حدث في الطرف الآخر من حياتي، وفي الوقت نفسه، كنت أحفظ كلّ تفصيلٍ فيه، وكلّ نبضة. ثمّ تذكّرتُ جاك وسوزان على متن لافا، هو في قمّة شبابه وأناقته، مرتدياً بذلة الفلانيل الرّمادية وصداراً، ومنتعلاً حذاءه الأسود الملمّع بعناية. وهي في فستانها الطويل من قماش الأورجانزا، المزرّر حتّى العنق، وقبّعتها البيضاء المثبّتة بمشبكٍ في عقصة شعرها الذهبيّة السّميكة.

وما هي إلّا لحظاتٌ حتّى خرجت سوزان من الكوخ. كانت قد اغتسلت وسرّحت شعرها القصير، فكان مُبتلّاً بعدُ. وكانت تمشي حافيةً على الأرض، متحمسّةً واثقةً، فبدت مثل شابةٍ أمريكيّة من

(1) إشارة إلى الرّسوم واللّوحات التي زيّنت طبعاتٍ مختلفةً من الرواية الشّهيرة «بول وفيرجيني» للفرنسيّ جاك هنري بيرناردان دو سان بيير Jacques-Henri Bernardin de Saint-Pierre أو استُلهِمت من مشاهدها وأحداثها التي تدور في خليج تومبو بجزيرة موريشيوس.

المستوطنين الأوائل، أو مثل فتاةٍ من البوير[1]. وبينما كنّا نتجادل أنا وجاك، كنسَت ورتبّت كلّ شيء. وعلّقت قطعة قماش عند المدخل كستارة، وأشعلت النّار، ووضعت فوقها بعض الأرزّ. كم هي رائعة! لقد نجحت في منح هذا الرّكن من التعاسة أجواءَ كوخٍ إنجليزيّ. وقد لمس ذلك كلّه قلب جاك، فذهب ليجلس بجانبها في ظلّ الخيمة. ثمّ طلبت إليّ بإيماءةٍ أنْ أنضمّ إليهما.

- تعال، اجلس هنا، أين سوريا؟

كان لصوتها نبرةٌ مرحةٌ كأنّ كلّ ما عشناه كان طبيعيّاً.

- لا أعرف. ربّما عبرَت إلى الطرف الآخر.

شعرتُ بالقلق ثانيةً، خشيتُ أنّ كلّ شيء قد ينهار في أيّة لحظة، وأنّ سوريا قد ترحل إلى الأبد.

وسرعان ما نسيَتْ سوزانُ أمرَها. وبدأَت تتحدّث عن شيء آخر، عن موريشيوس، وعن العائلة، وآنّا، ابنة لويس، حفيدة كبير العائلة، التي وُلِدت في أبريل الفائت، ويقولون إنّها سمراءُ مثلي.

كنت أستمع إليها، وتذكّرت أنّ هذا كلّه، قبل شهرٍ واحدٍ فقط، كان يبدو غايةً في الأهميّة عندي. كنت أنظر إلى ألبوم الصّور أيّام شبابها، وصور عائلة موريل، والبيت في سيلاوس[2]. وكان جاك يحتفظُ بصورتها وهي تتناول القربان المقدّس للمرّة الأولى، إلى جانب رسالةٍ صادقةٍ كتبتْها إليه، وإنْ شابتها بعض الأخطاءِ الإملائيّة: «سترى يا

(1) Boers: جماعةٌ من المستوطنين المسيحيّين الهولنديّين والألمان والفرنسيّين الذين هاجروا إلى جنوب أفريقيا بين القرنَين السابع عشر والتاسع عشر. وظلّت التّسمية تُطلَقُ حتّى اليوم على أحفادهم.

(2) Cilaos: اسم بلدة في جزيرة لاريونيون.

حبيبي، حين نذهب إلى هناك، ستكون ساعة المصالحة قد حانت».
كانت طفلةً صغيرةً عاقلةً، جادّةَ النّظرةِ، بشعرٍ طويلٍ وجبينٍ عالٍ.

إنّني لستُ هنا إلّا من أجلها. وقد بقيتُ كرمى لها. إنّها عائلتي الوحيدة، هي التي لم تكنْ سوى أجنبيّة، طالبةٍ في مدرسة بنات المحاربين القدامى ممّن حصلوا على وسام جوقة الشرف، ترتدي زياً مخطّطاً بألوان قوس قزح؛ شابّةٍ ريونيّةٍ هاجرت إلى باريس، إلى حيّ مونبارناس، وقطعت على نفسها عهداً بأنْ تكون لأخي وهي لا تزال في الرّابعة عشرة من عمرها. أُحِبّها ولن أقوى على نسيانها. وهذا ما يغضبني، ويملأ عينَيّ بالدّمع.

مكتبة
t.me/soramnqraa

حين ينحسر المدّ، تمضي سوريا للصّيد على طول الرّصيف المرجانيّ. هذا هو الوقت الذي يخبو فيه الضّوء وتهدأ الريح. هي الآن مع الطيور؛ النوارس والمَكاو وبلشون القطعان الآتيةِ من صخرة لوديامو. تمشي سوريا بينها على الشّعاب المرجانيّة، محاطةً بصرخاتها، مثل إلهة بحر، كما رأيتها أوّلَ مرّة، ناحلةً طويلةَ القامة تمشي بخفّةٍ على صفحة الماء، وتلوّح بالحربة، وتضرب في الماء لتسحب منه الأخطبوط فتلتفّ أذرعه حول عصا الحربة. وبحركاتٍ دقيقة، تفعل ذلك الشيء الرّهيب المتمثّل في قلب الأخطبوط كما يُقلَب الجَيب، ثمّ تربطه بحبل الكاذي حول خصرها، مثل علم ملوّن. كلّ شيءٍ جميلٌ هنا، وحيدٌ وصامت إلى حدٍّ يمزقُ أعماقي. إنّها صورةٌ هشّةٌ ستمّحي عمّا قريبٍ ولن أتمكن من إنقاذها.

على الطّرف الآخر من البحيرة، في جزيرة بلات، أضحت بيوت الكرنتينة أطلالاً عبثيّةً. ثمّةَ عددٌ قليلٌ من الأطفال يسيرون على طول الشاطئ المرجانيّ. وإلى الأبعد قليلاً، لمحتُ رفيق سوريا الأثير شوتو، عازفَ النّاي الذي تسميه «الرّب كريشنا». وفي نهاية الشاطئ، ثمّة طيفٌ طويلٌ، أخرقُ المِشيةِ نوعاً ما يجمع الأخشاب الطّافية من أجل النار. عرفتُ فيه أوكا الكناس، الذي أراد أن يسبح عبر المضيق، ويختفيَ في البحر. وهناك أيضاً نساءٌ يرتدين أثواب الساري، منكبّاتٌ على ملء أكياسهنّ بالصّدف كي يصنعن به ماء الجير.

أشعرُ بالسّكينة والسّعادة. لقد كان فيران الفاسد مخطئاً، ولم يفهم شيئاً. إذ لجأ إلى أعلى حِصنه مسلحّاً بمسدّسه في انتظار الهجوم، لكنّ الهنود استولوا على الجزيرة بلا ضجيج، ودون أن يطلقوا صيحةَ تهديدٍ واحدة، بل، ببساطة، عبر حركةِ النساء بإيقاعها البطيء، ولَهوِ الأطفال. تفحّصوا المنحدرات كي ينشئوا حقولاً جديدةً لزرع خضرواتهم، وسحبوا المياه من الصّهاريج لسقْيِ مشاتل الأرُز. هكذا تحوّلت شفةُ البركان السوداء إلى جزيرةٍ داخل الجزيرة، ولم يعد بإمكان فيران الخروجَ منها.

عبرَ قاربُ المُسنّ ماري البحيرة وئيداً في الشّفق. كان رجلٌ يقف في مقدمّته والمُرديّ في يده. عرفتُ فيه طيف بارتولي. أوقفَ ماري القارب وحانت لحظةُ إنزالِ الرّاكب وممتلكاته. وضعَ بارتولي قدمه على لسان الرّمل الذي عرّاه المدّ. رآنا لكنّه لم يلوّح ولم يومئ. كان يحمل كيس الأرُزّ على كتفه ويتّجه إلى المخيمّ. الآن صار فيران وحيداً أعلى بركانه، متمترِساً خلف جدار الحجارة المرصوفة المتآكل بفعل الرّيح، يترقّب حلول اللّيل واشتعال النيران في خليج باليساد، موقداً هو الآخر ناره من حطام الصناديق والأخشاب الطافية التي جمعها من تجاويف الصخور البازلتيّة. لقد نسيَ أمرَ جهازه الهيليوتروب، ولم يعد يرسل إشاراتٍ إلى موريشيوس ولا بوانت أو كانونييه. صار يجلس هناك كلّ ليلة، يشاهد ألسنة اللّهب وهي تتمايل في العاصفةِ مطلقةً وابلاً من الشّرر. كان يراقب بنظرتِه الفارغة، كأنّ النّار تقف جداراً منيعاً أمام خوفه، وأمام جيش العمّال، وقُطّاع الطرق، يسهرُ والنار تحرّقُ حاجبيه، ومسدسُه على صخرةٍ، في متناول يده. لقد تسلّلت

النـار إليـه، النـارُ هـي حُمّـاه وجنونُـه الـذي يلتهمـه ويغذّيـه في آنٍ معـاً.

عـادت سـوريافاتي مـن الشّـعاب المرجانيّـة وحـول خصرهـا حزامُهـا مـن أسـماك الأخطبـوط. وفي عينيَهـا نظـرةٌ غريبـةٌ بلـون قـرص الشّـمس نفسـه حـين يغـرقُ في الأفـق بـين الجـزر. وضعَـت صيْدهـا. فانبسـطَت الأخطبوطـات عـلى الرّمـل، وتفتّحـت أزهـاراً ملوّنـةً، بينـما كان سربٌ مـن ذبـاب الشَّـعْراء يطـنّ حـول السّـكين. إنّـه مشـهدٌ عنيـفٌ وعـاديّ. قطّعـت سـوريا الأخطبوطـات، ثـمّ نزلـت إلى المـاء كـي تغتسـل، كأنّهـا تـؤدّي صـلاة. وسرعـان مـا التفتَـت نحـوي ونادتنـي: بْهايـي، مـيرا بْهايـي[1]....

وحـينَ لاحظَـت تـردّدي، أخذتنـي مـن يـدي وجرّتنـي إلى المـاء. لم يكـنْ ثمّـةَ فـرقٌ بـين الهـواء والمـاء، كلاهمـا خفيـفٌ عديـم اللّـون، وبالـغ العذوبةِ. انزلقنـا معـاً إلى البحـيرة، يغمرنـا المـاء الشّـفيف بضبـاب الأحـلام.

هبـطَ اللّيـل، فاجتـاح المـدّ البحـيرةَ بأنفاسـه. لم يسـبق لي أنْ شـعرتُ بـه عاتيـاً إلى هـذا الحـدّ. كان تيّـاراً مندفعـاً يجـرفُ كلّ سـدٍّ. عانقَتنـي سـوريا، وسـاقاها ملتفّتـان حـول سـاقَيّ، ويداهـا معقودتـان حـول عنقـي. كان وجههـا قريبـاً كلّ القـرب منّـي، فتأمّلـتُ عينيَهـا الواسـعتَين، وشـعرها إذ يطفـو حولهـا وينسـاب عـلى وجهـي مثـل عشـب البحـر. كانـت تتحـدّثُ بهـدوءٍ، بلغـة الدوميّـين السريّـة، هامسـةً بكلـماتِ اللّصـوص الذيـن يدخلـون البيـت، بأغنيـة **لايـي** التـي كانـت أنانتـا تهدهِدهـا بهـا **(شـورم، كالا شـالو غـول لايـه،** أيّهـا اللّـصّ، أيّهـا اللّـصّ، فلندخـل هـذا البيـت...)

شـدّتني إلى قـاع المـاء فيـما يشـبه لعبـةً، وأنا أيضـاً غمـرت رأسـها في الماء، إلى أنْ شـعرنا بالاختنـاق. بـدت جزيـرة بلات من طـرف البحـيرة الآخر مجرّد

(1) Mera: ضمير الملكيّة للمتكلّم في اللّغة الأرديّة.

صخرةٍ داكنةٍ تقوم في وجه السماء الذهبيّة. كانت موجة المدّ تدفعنا بلطف على طول الضّفة الرّملية، وسْطَ تيّارٍ أشبه بنهرٍ كبير.

غَرُبت الشّمس فتخيّلتُ أنّني في يامونا، حيث غطّست جيريبالا أنانتا بعد أنْ انتشلتها من الموت. كانت سوريا تمضي بي في النّهر، في مياهه العذبةِ المتدفّقةِ بين أنقاض العالم، ملتصقةً بي، وجذعُها يمتدّ باستقامة خارج الماء. جنحنا نحو الضّفة الرّملية فشعرنا بلمسة أسماك الرّمل التي تجرّأت وعضّتنا. كنّا وسْط الماء في قلب البحيرة، فوق لسان الرمل، والجُزرُ تمتدّ في البعيدِ أمامنا ظلالاً سوداءَ تنساق مع التيّار. مرّت بعضُ الطيور قادمةً من صخْرة بيجن هاوس: البلشون المخطّط الحزين الذي حلّقَ ملامساً صفحة الماءِ، وأسرابٌ مُسرعةٌ من الكروان والمَكاو كانت تتقلّب في الفضاء ثمّ تفترق زاعقةً، كما لو كنّا وإيّاها آخرَ سكّان الأرض.

دفع المدّ أنفاسه إلى البحيرة. ففاض الماء فوق الشّعاب المرجانيّة ولم نعد نلمس القاع، وسبحنا من غير أنْ نفترقَ نحو شاطئ غابريال.

ثمّ خرجنا من الماء إلى عتمة اللّيل الحالكة، كنا نرتجف على الشاطئ. وفي ظلّ غابة الكزورينة أوقدتُ ناراً بالخشب الجافّ وأوراق الشّجر الإبريّة. ابتلّت أعواد الثقّاب التي بحوْزة سوريا، فكان عليّ أن أركض إلى المخيّم للعثور على المزيد. وحين وصلتُ تعثّرتُ ببعض آنية المطبخ، فخرج أحدهم من الكوخ. ظننتُ للحظةٍ أنّه جاك، ثمّ تبيّن لي أنّه بارتولي. نسيتُ أنّ جوليوس فيران بقيَ على قمّة البركان، فعدّلتُ قامتي متأهّباً لأيّ طارئٍ. سأل بارتولي:

- مَن هناك؟

أتراه هو الآخر مسلّحاً وأتى ليقيم هنا نقطةَ مراقبةٍ ضدّ الهنود؟ أيّاً كانت الإجابة فقد دمْدَمْتُ:

- أعوادَ ثقاب!

لم يبدِ اعتراضاً:

- آه! حسناً!

ثمّ سمعته يتوجّه إلى جاك.

- إنّه أخوك، جاء يطلب أعواد ثقاب.

هل كانت سوزان نائمة؟ للحظةٍ ظننتُ أنّها قادمة، ثمّ سمعتُ صوت جاك يستأنف محادثةً متقطّعةً مع بارتولي. كانا يتحدّثان عن المغادرة، والإجراءات التي ينبغي اتّخاذها، والرسالة الشّهيرة التي سيرسلانها إلى الحاكم. ثمّ تابعا لعبة الشّطرنج التي كان قد قطعها جنونُ فيران ورحيلُنا إلى غابريال. سمعتُ جاك يقول بفتور: «كِش مات»، وكأنْ لا شيءَ ذا بالٍ قد حدث.

ركضتُ عائداً إلى غابة الكزورينة بقلبٍ منفطر. أحسستُ أنّ أمراً ما يوشك أنْ يقع، حدثاً يُستَشعَرُ قدومُه رغْمَ أنّه عصيٌّ على التحقّق، رعشةً، أو تغييراً ما. وهذا ما يجعل قاعدة الجزيرة تهتزّ ليلَ نهار، ويمنعني من النّوم.

كنت مشوّش الذّهن إلى حدّ أنّني لم أهتدِ إلى سوريا. وخشيتُ للحظةٍ، وبخلاف ما هو متوقّعٌ، أنْ تكون قد غادرت، وأنّ العبّار جاء ليقلّها في قاربه ويعيدَها إلى الطّرف الآخر.

مشيت عبر الشاطئ، دون أن أُبصر، منادياً بصوت حزين: «بِهِن! أوهيه، بِهِن!» أسكتتْني: «ششش!» كانت جاثيةً قرب مياه المدّ تغسل الأخطبوطات.

وحين تأجّجت النار، وضعَت أطراف الأخطبوط على شبكٍ أخذ يُطقطق في اللّهب. فجذبَت رائحتُه مُريامه وبوتالا. اقتربا بصمت، وَرَبضا أمام النّار وعيونهما تلمع مثل الجمر. كانا يتضوّران جوعاً. تقاسمنا الأطراف المشويّة والملتوية مثل قصاصات من الجلد، بعد خلطها بالأرزّ البارد، وأكلنا في صمتٍ تامٍّ قرب الموقد. وبعد أنْ تلقّينا بردَ البحر، لفحَنا لهيب النّار وقِطع الأخطبوطِ المشتعلةِ فوقه. كانت وليمةً لم أشهد مثلها قطّ.

لم تتكلّم مُريامه. كانت تنظر إلى النّار وهي تخبو، وبين الفيْنة والفْينة تدفع بأصابع قدمَيها الفحم المتناثر. ولمّا فرغ بوتالا من طعامه، عاد ليجلس في الدّغل، مُستنفراً مثلما هو على الدّوام.

لفّت سوريا نفسها بشالٍ أحمرَ كبير غطّى شعرها ووجهها. وما زال ثوبُها الذي بلون البحر مبللاً وملَطخاً بالرّمل والرّماد. ولمّا انتهت، ذهبت لتغسل وعاء الأرزّ في البحر، ثمّ ملأته مرّة أخرى بالأرزّ وقطع الأخطبوط، وناولتْني الطبق «هاكّ بْهايْ، هذا لأخيك وسوزان»، قالت بهدوء تامٍّ، وكأنّه الشّيء الأكثر طبيعيّة في العالم. ثمّ وضعت بعض الأرزّ وآخر بقايا الأخطبوط في قطعة قماشٍ أحكمَت ربطها من الزوايا الأربع، ووضعَتها كأعطيةٍ على الحجر المنبسط، عند عتبة جُحر سارة ميتكالف.

ذهبتُ لأنتظر سوريا في مكاننا المعتاد، تحت التّلعةِ حيث طيور رئيس البحر تتّخذ أوْكارها. وصنعتُ ما يشبه حَشِيّةً مُستعيناً بورق الكزورينة. وقد شكّل هذا، مع خيمة الشّادر، كهفاً معتدل الحرارة،

أشبه ما يكون بعشّ الطيور. من هنا، أسمع بوضوح الاهتزاز المتصاعد من قاعدة الجزيرة، تلك الضجّةَ الشبيهة بطرقٍ الحديد، أو حتّى بفوران الدّم. كانت طيور رئيس البحر قد عادت إلى أوْكارها فوقنا، على سفح التّلعة، وقد اهتاجت مع وصولِ سوريا، فأخذت تصفّق بأجنحتها وتسقسق، واحدٌ أوّلا ثمّ اثنان، ثمّ انتفضت مستعمرة الطيور بأكملها في غابريال.

تسلّلَت سوريا إلى الملجأ، وتمدّدت ملتصقةً بي، فشعرتُ ببرودة البحر في صدرها وساقَيها. قالت: «هي لا تريدنا، تطالبنا بالرّحيل، والعودة إلى حيث كنّا!»

كانت تعلمُ أن يوم العوْدة قد اقترب. لم نتحدّث في الأمر، لكنّي أحسستُ أنّها تخشاه مثلي.

بقينا ساكنَين متعانقَين، لا نكاد نتنفّس، إلى أنْ هدأَت الطيور.

كان ليلاً بارداً. أحسستُ برعشةٍ تصعد من الحجارة السوداء. كنّا محاطَين بعالمٍ من جمودٍ، حادٍّ وصلب، ونحنُ فيه فائقا الهشاشة. وحدَها الطيور مَن يحقّ لها العيش هنا، بعيونها الحادّة التي لا ترمش أبداً. فهي لا تنام ولا تحلم البتّة.

شعرتُ برأس سوريا المتثاقلِ على كتفي وسمعتُ أنفاسها المُتراخية. نامَت على صدري كطفلةٍ مهجورةٍ في هذا الملاذ الضيّق الشبيه بتجويف الزّورق. كان ذلك فائق العذوبةِ، ولست أدري لماذا كان في الوقت ذاته يخنقني ويسرّع نبضات قلبي. قالت هامسةً حتّى لا تنبّه جيراننا: «بهايْ، لقد هدّني التّعب. ما الذي سيحلّ بنا؟ أتمنّى لو تدوم هذه اللّحظة إلى الأبد».

أنـا أيضـاً كنـت قلقـاً خائفـاً ممّا سـيأتي؛ مِـن القـارب الـذي سـيغادر يومـاً مـا، لا أعنـي مركـب خفـر السّـواحل الصّحـيّ، وإنّـما بواخـر ميسـاجري الضخمـة، تلـك المُـدُن المعدنيّـة ذات المداخـن، تلـك المراكـب التـي تحمـل أسـماء الأنهـار وكانـت فيـما مـضى تُلهـب مخيّلتـي، **لافـا، أمـازون، جيمنـا، يانـغ تـسي، بيهـو، وإيـراوادي**. كنـت أحفـظ عـن ظهـر قلـبٍ محطّاتهـا ومواعيـد انطلاقهـا. والآنَ صرت أرتعـش كلّـما تبـادرت إلى ذهنـي.

ربّـما لم يبـقَ أمامـي سـوى أنْ أسـتقلّ السّـفينة مـن جديـدٍ عائـداً إلى أوروبّـا، إلى المـدن الصّاخبـة، مرسـيليا وبـوردو وباريـس ولنـدن. لم تبـكِ سـورياﭬاتي حـين ماتـت أمّهـا. ولم تقـل أيّ شيء. لكنّهـا لّمـا قَدِمـت إلى غابريـال وصـارت زوجتـي، أتـت عـلى ذكـر لنـدن، فقـط لتعلمَنـي أنّهـا مـن دون أنانتـا، لـن تذهـب إلى أيّ مـكانٍ أبـداً.

ولكـن إلى أيـن سـأمضي؟ إلى لنـدن؟ هـل لهـا وجـودٌ مـن دون سـوريا؟ ومـع ذلـك، فقـد حلمـت أنّنـي أصطحبهـا إلى هنـاك، وأنّنـا نسـير في شـوارع المدينـة، مثـل السـيدة آوودا بـين ذراعـي فيليـاس فـوغ(1)، وسـوريا ترتـدي فسـتانها الطويـل بلـون البحـر، وشـالُها الـذي بلـون اللّهـب عـلى رأسـها، وقطـرةُ الذّهـب في طـرف أنفهـا، وأسـاورها النحاسـيّة حـول ذراعيهـا، تسـير مثـل أمـيرةٍ بـين هـؤلاء النـاس المتشـابهين جميعـاً، المُطرِقـينَ تحـت مظلّاتهـم السـود، وسْـط العربـاتِ، ودخـان الحمّامـات العامّـة، والمصانـع عـلى طـول الشـوارع المكسـوّة بالثلـج، في شـيفردز بـوش، وبايزوتـر، وإليفانـت آنـد كاسـل.

(1) إشارة إلى شخصيّة أوودا، الأميرةِ الهنديّة الأوروبيّة في رواية «حول العالم في ثمانين يوماً» لجول فيرن، والعلاقة التي ربطتها ببطل الرّواية فيلياس فوغ.

لكنّي لا أريد التّفكير في الأمر بعد الآن. أريد فقط أن أعيشَ هذه اللّحظة، وأشعرَ بأنفاس سوريا قربي، وبرأسها المتثاقل على كتفي، وأستنشق عطرَ جسدها المرهَف، مصغياً إلى هدير الموجِ الذي لا ينقطع، وحفيفِ الرّيح، وسقسقةِ طيور رئيس البحر التي تسهر مراقبةً.

ما من آتٍ ولا غدٍ. لا بدّ أنّ اللّيل أبديّ، يدور وئيداً مع النجوم حول المحور المغروس في قلب الجزيرة، مثل صاري عمود الإشارة القديم.

أنانتا هي من أردتُ رؤيتها وما زلت. كما لو أنّ كلّ شيءٍ هنا قد بدأ بها.

في ذلك الزّمن كانت بنايات الكرنتينة في جزيرةِ بلات جديدةً تماماً: جدرانُ الحمم البركانيّة المتماسكةُ قبالةَ البحيرة، والرصيفُ أمامها، والصهاريجُ المهيّأة لاستقبال مياه الأمطار، والمنارةُ المضاءة كلّ ليلة في أعلى البركان. وفي خليج باليساد، كان مخيّم المهاجرين نظيفاً مثل معسكرٍ، بشارعه الطويل المستقيم الذي يصل بين ساحتَين، كلّ منهما يتكوّن من ستة بيوتٍ مشتركة، مساحةُ الواحد منها زهاء عشرين قدماً في عشرة أقدام، وتفصل بينهما حجرةُ المطبخ، وتحيط بهما ظُلَلُ سعف النخيل التي تُستخدم كمستودعات، وحيثما وليّتَ وجهك ثمّة مزارعُ جوز الهند وقصب السّكّر، وبساتينُ متدرّجة، نظيفةٌ ومخدومةٌ بممرّات. وبين شطريّ المخيم، يمتدّ الرصيف المنحني المشيّد من كتلٍ كبيرةٍ من البازلت، ليتيحَ النزول إلى الشاطئ في أيّ وقت. وعلى الجانب الآخر من البحيرة، وفي أعلى قمّة جزيرة غابريال، كان صاري عمود الإشارة يرتفع عالياً حاملاً شعلةَ الإمبراطورية البريطانيةّ الحمراء.

لكنْ، أليسَ منَ المحتَمَل أنّ شيئاً من هذا كلّه لم يوجدْ حقّاً؟ أيكون مجرّدَ رسمٍ على أوراق جغرافيٍّ حكوميٍّ يُدعى كوربي، كي يمحوَ به من الأذهان المشهد الرّهيب للرّجال والنساء الذين تُركوا وحدهم ليواجهوا مصيرهم على الجزيرة قبلها بعامٍ واحد؟

في الأيام التي تلت نزول المهاجرين على الجزيرة، ظلّت السماء محتفظةً بصفائها، والرياح تهبّ برفق. عاشت جيريبالا وماني في البيت الأول المُخصّص للنساء الوحيدات في المخيّم، في ظروفٍ أفضلَ ممّا وجدتاه في بهوانيبور. وكانت أنانتا تردّد من وقتٍ إلى آخر: «متى سنغادر؟»

فقد كانوا ينتظرون قرار الحكومة.

تَوقّف الوباء. وعُزِل أفراد السيبوي في غابريال على الطّرف الآخر من البحيرة، في ملاجئ أُعدّت من الأغصان والأوراق. كانت جيريبالا تصطحب أنانتا مساءً إلى الجهة الأخرى من البركان، فتريا النيران المشتعلة على الشاطئ في إشارةٍ إلى وجودِ المحكومينَ هناك. كانت الأخبار المتداولَةُ جيّدة. قالت ماني إنّه قبل نهاية الأسبوع سيقلّهم القارب إلى موريشيوس لبدء العمل في حصاد القصب.

متى أدركَت جيريبالا ما حدث؟ هل وُجِدَ في الجزيرة شاهدُ عيانٍ عليه، عجوزٌ مجنونةٌ مثلاً، كانوا قد نسوها، واختبأَت في الغابة حينَ جاء القارب بحثاً عن الناجين؟ سارت جيريبالا برفقةِ أنانتا على طول الشاطئ، عابرةً الّدروب وسْط الشجيرات. كانت هناك آثار محارق في كلّ مكان على امتداد الشطآن، وصولاً إلى شمال الجزيرة. وكان الناس في المزارع القديمة يدوسون على رفاتِ العظامِ أثناء سيرهم.

لم تعد ماني ترغب في الخروجِ من مخيّم باليساد. فقد رأت هياكل عظميّة نصف محترقة، وشقوقاً انفتحت في العاصفة كاشفةً عن جماجم بشريّة. وحتّى في المقبرة، جنوبَ الجزيرة، كانت هناك عظامٌ محترِقةٌ وسط القبور.

ذات مساء، ذُكِرَ اسم السفينة ليداريه. كانت امرأةٌ قد التقت بالمجنونة واستمعت إليها، فرَوت ما حدث قبل ثلاثة أعوام: حكايةَ النّاس الذين تركتهم السفينة على الجزيرة، ربّما بسبب عواصف هوجاء، أو لأنّ أصحاب المزارع في موريشيوس خشوا موجةَ

تمرّدٍ مثل تلك التي كانت قد بدأت توّاً في الهند. ظلّ المهاجرون في الجزيرة ينتظرون يوماً بعد يوم، وأسبوعاً بعد أسبوع. لم يكن لديهم ما يقتاتون عليه، فحفروا الأرض بأظافرهم لاقتلاع درنات البطاطس الحلوة. وكان أطفالهم يغرقون قرب الشّعاب المرجانيّة وهم يبحثون عن المحار. ثمّ استقرّت الإلهة الباردة على الجزيرة، وأخذت تحصد الجثث كلّ ليلة.

وبدأ الناجون يشعلون النيران على الشاطئ لإحراق الموتى، ولإرسالِ إشارةٍ بطلب المساعدة من سكّان موريشيوس. لكنّ أحداً لم يأتِ. إلى أنْ مات أغلب المهاجرين في الجزيرة، إنْ لم يكنْ جميعهم.

كانت جيريبالا تصغي إلى هذه القصّة مرتعدةً، فضمّت أنانتا بشدّة. إذ أحسّت كما لو أنّها أوقعَتها في فخّ. ومنذ تلك اللّحظة باتَ لكلّ شيءٍ من حولها طعمُ الرّماد ولونُه.

إلّا أنّه بعد أيام قليلة، جاء قارب الخدمات الصحّية. وصل في البحر الهادئ عند الظّهيرة تقريباً، ورسا أمام خليج باليساد، وأرسلَ أحدَ زوارقِه إلى السّد، وعلى متنه ضابطٌ

إنجليـزيّ، رجـلٌ طويـل القامـة متـين البُنيـة، ذو لحيـة شـقراءَ جميلـةٍ تلتمـع بنـور الشـمس، وبذلـةٍ بيضـاءَ غايـةً في الأناقـة. أخـرج دفـتراً أحمـر كبـيراً مـن حقيبتـه، ووقـف عـلى السّـدّ، وأخـذ يتلـو الأسـماء والأرقـام التـي كان متعهـدو العمّـال يردّدونهـا وراءه صائحـين.

وفجـأة، ولسـببٍ غـير معـروف، هربَـت أنانتـا. انطلقَـت تركـض عـبرَ الشّـاطئ الملتهب شـاقّةً طريقهـا بـين النـاس المنتظريـن، لاهثـةً دامعـةَ العينَـين. سـمعتْ صـوتَ والدتهـا تناديهـا، وتصيـح باسـمها مطيلـةً المقطـع الأخـير أنانتـاااا! كانـت تجـري عـلى طـول الـدّرب نحـو الـبركان، وتقفـز مـن صخـرة إلى صخـرة، سريعـةً مثـل جَـدْي، وسـيقانُ الحشـف تجـرّحُ وجههـا. كانـت تجهـلُ أيـن تقودهـا خطواتُهـا، وتجهـلُ سـبب هروبهـا. وبحثَـت عـن مـكانٍ تختبـئ فيـه، تجويفٍ بـين الصخـور، أو حفـرةٍ في الأرض تتـوارى فيهـا، فـلا يهتـدي إليهـا أحـدٌ. فكـم مـن أمـورٍ خطـيرةٍ حدثـت؛ الكثـير مـن الموتـى، وهـذه الشـمس الحارقـةُ عـلى شـاطئ باليسـاد، ومـن قَبلهـا الانتظـارُ في قلـب المركـب. تتذكّـر أنانتـا، بقـدرِ مـا تسـتطيع الرّجـوعَ في ذاكرتهـا، أنّهـا

لم تتوقّف يوماً عن التنقّل والهرب وانتظار القوارب والسيرّ على الطرقات. والآن لم تعد تريد أن تسمع هذا الرّجل ينادي الأسماء، لم تعد ترغب في ركوب القارب بعد الآن، ولا في الذهاب إلى ذلك البلد، ميريش ديش، تلك الجزيرة التي لا يعود منها أحدٌ.

ولعلّ ما أرادته حقّاً هو أن تأخذها الإلهة الباردة كما أخذت الصبيّ على متن إشكندر شاو أثناء نومه، معيدةً إيّاها إلى الطّرف الآخر من البحر، عند مصبّ النّهر العظيم، إلى صدر مربيّتها حيث يمكنها أنْ تغفوَ أخيراً، بينما صيحاتُ القتَلةِ تبتعد وتبتعد، حتّى تختفي إلى الأبد.

عثَرت أنانتا على باب الكهف، في أعلى الجرف بين صخور البازلت. كان جوفاً مُعتماً بين سيل الحمم البركانيّة، مدخلُه نِصفُ مسدودٍ بالشجيرات الشائكة. تسلّلَت أنانتا إليه وقلبها يخفقُ بشدّة، تعَباً من الرّكضِ عبرَ التلّة، وخوفاً. وما كادت تدلف إليه حتّى اعتادت عيناها غبشَ عتمَته. وقد لاحظت أنّ الكهف مسكون. إذ كان هناك ما يشبه مذبحاً في نهايته، صخرةً منبسطةً وُضِعت

عليها بعضُ فاكهةٍ وفطائر، وإلى جانبها إناءٌ من الطّين مملوءٌ بنشارةِ خشب الصندل. وكان ثمّة قنديلٌ مُطفأٌ عند قاعدة المذبح.

كان الكهف هادئاً بارداً، يعبقُ برائحة الدخان والأعشاب، ويُسمع فيه ما يشبه خريرَ ماءٍ خلف الصخرة. شعرتْ أنانتا، بعد هذه السّاعات من الانتظار على الشاطئ الملتهب، والجرْيِ عبر الشجيرات الشائكة، كأنّها وصلت إلى مدخل القصر الذي طالما انتظرته، حيث السكينة والدّعة. أرادت أن تناديَ أمّها، لتطلب منها أن تنضمّ إليها، وأن تأتيَ وتستقرّ في هذا الكهف بعيداً عن القوارب والغرباء، لكنّها خشيَت أن يعثرَ عليها متعهّدو العمل، ويعيدوها إلى السّد. كانت ترتجف من التّعب، والدّموع ملءُ فمها. ثمّ نامت على أرضيّة الكهف قرب المذبح. ولمّا استفاقت، كانوا جميعاً قد ابتعدوا، وكان قارب الرّجل ذي اللّحية الذهبيّة قد حملهم استعداداً لنقلهم إلى الجزيرة الكبيرة على الطرف الآخر. وفكّرت أنانتا أنّ أمّها ستأتي باحثةً عنها، وستعرف كيف تجد الطريق إلى الكهف، فتمكثان فيه إلى الأبد دون خوفٍ من المستقبل.

وكانت السيّدة العجوز التي نعتَها مهاجرو السّفينة **إشكندر شو** بالمجنونة، هي من عثرت على أنانتا في الكهف قبلَ المغيبِ. فجثتْ بجوارها ولمسَت وجهها كي توقظها، ولمّا رأت أنّها خائفة، طمأنَتها قائلةً:

- إنّك تشبهين ابنتي.

فقالت أنانتا حين طالعت الحُزن في ملامح العجوز:

- هل ماتت؟

حكتْ لها العجوز ما حدث، حكايةَ الناس الذين أتوا إلى هنا على متن المركب وتُركوا وحدهم، والإلهةِ الباردةِ التي أخذتهم واحداً تلو الآخر. كانت ابنتُها من بين أوائل الموتى، وقد أَحرَقَت جثّتَها على الشاطئ. ثمّ لجأَت إلى الكهف. ولمّا عاد القارب بعد شهور، لم تشأ المغادرة من دون ابنتها. فاختبأَت كي لا يعثروا عليها.

لم تعد أنانتا خائفة. أخذتْها المجنونة إلى خليج باليساد، فتبعِتْها البنتُ دون اعتراض. كانت السماء ذهبيّة، والبحر برّاقاً، حيث كلّ موجةٍ فيه تلتمع كأنّها شرارة. وكان آخر الرّكاب ينتظرون أمام الزّورق، على السّد.

عرفت أنانتا طيف أمّها. فهبطت المنحدر على مهلٍ، زامّةً عينْيها بسبب الضوء، ثمّ ركَضَت عبر الدّغل، قافزةً من صخرة إلى صخرة. ولمّا وصلت إلى الشاطئ، عانقتْها جيريبالا بقوّة. نفد صبر الضابط الإنجليزيّ الواقف على السّدّ، فصعدتا أخيراً إلى الزّورق وجدّف البحارةُ مندفعين في الموج. جالت أنانتا ببصرها على الشجيرات عندَ سفح البركان. لكنّ العجوز لم تكن هناك.

لم أستَطع النوم. وفي لحظةٍ ما، تسلّلتُ خارج الملجأ، من دون أن أوقظ سوريا. زحفتُ ببطءٍ شديدٍ عبر الصخور كي لا أستثير الطيور. كانت الرّيح عاتيةً، فبحثتُ عن مأوى وسْط حقل البازلت لأتأمّل السّماء والبحر في صفاء اللّيل المزيّن بالنجوم. وقد لمحتُ في الأفق وميضاً متقطعّاً ينبعث من منارة لابوانت أو كانونييه، وإلى اليسار منه توهّجت البيوت في غران غوب. بدا كلّ شيءٍ قريباً مألوفاً، وخياليّاً في الوقت ذاته مثل خريطةٍ فلكيّة. وفي نسيم اللّيل الذي صقلَ صفحة البحر، أخذتُ أُصغي إلى صوت ارتطام الموجِ في الشّعاب المرجانية، وانسياب البحيرة وهي تصبّ في القناةِ. وودتُ لو أُمسك بهذا كلّه وأحتفظ به إلى الأبد. فقد صار مِلكِي، وحياتي، وأصلَ وجودي. كانت عيناي تتحرّقان من التّعب أو الحمّى، ووجهي قاسياً كحجر. سمعتُ نبضَ الدّم في شراييني مختلطاً بهدير المدّ والجزر. وتذكّرتُ انبهاري أوّل مرّةٍ زرتُ فيها هذه الجزيرة، ومائي الذي سالَ على الصّخرة السوداء ممتزجاً بالزّبد.

يبدو ليَ الآن أنّني ما عشتُ إلّا من أجل هذا، من أجل العثور على سوريا والعيش معها في هذا الصدّع بين صخور غابريال، جارَين لشعبٍ من الطيور السّحرية، ذاتِ العيون التي لا يُطبقُ لها جفنْ، نترقّب معها لحظة انبعاث الشمس من البحر.

انتفضْتُ حين لمستني سوريافاتي. فقد جاءت دون أنْ تحدث أيّة ضجّة. ربّما باتت طيور رئيس البحر صديقتنا، وتقبّلت وجودنا في نهاية الأمر. ربّما أصبحنا في عدادها.

جلسنا في اللّيل طويلاً نتأمّل البحر. ثمّ عدنا إلى الصّدع تحت الخيمة. «أتَرى كم أشعر بالحرّ، بْهاي!» مرّت سوريا براحتها على

وجهي وعنقي كي أحسَّ بحرارتها. غضبت الطيور من حركتنا جيئةً وذهوباً، فعادت تصفِق بأجنحتها مُتجاوبةً، واحداً تلوَ الآخر، حتّى سرى الجنون في المستعمرة بأسرها. فبقينا ساكنَين لا نبدي حراكاً، متلاصقَين، مُتّحِدَي الأنفاس، لا نجرؤ على الضّحك أو الهمْس، حتّى هدأ الصخب.

عِشقُ سوريافاتي متّقدٌ كالشمس، بطيءٌ هادر كالبحر، حقيقيّ كالريح. كنّا في عشّنا، في موقعنا، متكوّرَين مثل عصفورَين.

لم أشعر قطّ بمثل هذه السعادة من قبل. ما عادَ شيءٌ بعد الآن أسيرَ العقلِ أو الحلم: تكفي حركةُ البحر الذي يقضم قاعدة الجزيرة ويضربها، وحركةُ المدّ والجزر الكّوكيّة البطيئة، وطعمُ الملح على شفاهنا، وفي حلقَينا، والصخرةُ السوداء الفائقة النعومةِ، والغبار الذي ينساب على جلدَينا، ويتسرّب بخفّةٍ بين أناملنا مثل رمادٍ عتيق جدّاً. وصرخاتُ الطيور على القمّةِ، حادّةً، مبحوحةً ونزقةً. إنّها لسانُ الجزيرة الوحيد، في أوكارها تسهر الأزواجُ مراقبةً، وتتطلّع بعينٍ واحدةٍ نحو عتمةِ السماء، منتظرةً طلوع الفجر.

عرفتُ ذلك الارتعاشَ الذي هزّ جسدي. كان هو ما شعرت به منذ اللّيلة الأولى، حين كنت مستلقياً بجوار جاك وسوزان في كوخ باليساد لا أقوى على النّوم. إنّه لا يشبه الضجيج، بل هو خفيضٌ وبطيء مثل ضربات القلب، أو نبضِ الدّم في الشرايين، مثلَ هدير البحر أو حفيف أجنحة الطيور حول صخرة بيجن هاوس. ولا اسم له.

أرخْتُ أذني على صدر سوريا، في تجويف نهديها الفائق النعّومة، فسمعتُه. كان يأتي، ثمّ يتوقّفَ للحظةٍ، ثمّ يعود ويرتفع متدفّقاً على

طـول شرايـين الأرض، إلى شَـفةِ المحيـط البـارزة، ثـمّ إلى جسـد سـوريا. فأرتشـفُ الحيـاة مـن شـفتيها، وأستنشـقُ أنفاسـها، وأغـرفُ مـن دفء يدَيهـا. تضمّنـي إلى حضنهـا، فتحضننـا الصخـور وتيّـارات البحـيرة.

فجـأةً زالَ خـوفي مـن القـادم، فعـلى شـفتي طعـم رمـاد المحـارق، طعـم الملـح الأبـديّ. لم أعُـد وحـدي، إنّنـي أسـكن سـوريافاتي. هـي أنـا وأنـا هي، توّحّدنـا طاقـةٌ شـديدة القـوّة والعذوبـة. نغـدو نحـنُ أيضـاً قـشرةَ الجزيـرة السّـوداء، ريحَهـا وبحرَهـا وأرواحَ طيورهـا التـي تترقّـب أوّل خيـوطِ النـور. يطوّقنـا ليلُهـا مسـتلقياً عـلى الجبـل والدّغـل، ليلُهـا الملتحـم مـع الريـح، حيـث قطـرات المطـر تـدقُّ عـلى قـماش خيمتنـا في زخّـاتٍ متتاليـة، وتندفـع الريّـح إلى الصّـدع ممـرّرةً يدهـا البـاردة فوقنـا.

أشـعر بضربـات قلبهـا تـدقّ في صـدري، أختبـئ تحـت جلدهـا، فيسري نبـضُ حياتهـا في وريـدي رعشـةً عميقـةً حقيقيّـة. وسرعـان مـا تبلغنـي أنفاسُـها، وأشـعر بقطـرات العـرق النّاعمـة حـول عنقهـا، وعنـد مفـرق شـعرها، وفي تجويـف خاصرتيهَـا، وأسـفل ظهرهـا. يسـيلُ عرقُنـا واحـداً. أنـا فيهـا وهـي فيّ، كأنّنـا الحجـر والورقـة، كأنّنـا القبضـة والرّاحـة التـي تضمّهـا. لا يمكـن أنّ شـيئاً قـدْ كان مـن قبـلِ هـذا أو سـيكون مـن بعـده، غـير هـذه الصخـور السـوداء، العاريـة الخشـنة، والريّـح التـي تصفـر في الدّغـل، والبحـر الـذي يكـسّر أمواجـه. لا شيء غـير البازلـت والغبـار والرّمـاد، والسّماءِ حيـث تسـيلُ الغيـوم ملتحمـةً بالنجـمات، وطيـور رئيـس البحـر في أوكارهـا تترقّـب الشـمسَ بعيـونٍ لا يُطبـقُ لهـا جفـنٌ.

تـصرخُ تـارةً وتئـنّ تـارةً. وتمـشي أيضـاً، وأسـمع اصطـكاك مناقيرهـا أحيانـاً، وانتفـاضَ ريشـها. تتعـالى أصواتُهـا، تتحّـد ثـمّ تخفُـت. طوّقتنـي

سوريا بذراعَيها، مشيحةً بوجهها قليلاً. وفجأة اندلع ذاك اللّهب، كما لو أنّ القلب توقّف ومات الزّمن. مجرّدُ نقطةٍ في الأعماقِ، نجمةٍ من ألم. أنّت دافعةً إيّاي قليلاً براحتَيها. تغلغَلتُ فيها، مشدوداً، لاهثاً. واستمرّ الخفقان، ثمّ تراجع، وابتعد. سقطنا جنباً إلى جنب في صدع الصخرة، وخيّم صمتٌ عميقٌ لا يقطعه سوى زمجرة البحر. وصمتت الطيور بدورها، ولربّما توقّف الاهتزاز. كما لو أنّه لسانُ الأرَض قدّ مُدَّ ثمّ عاد إلى جوْفها، غائراً في دهاليزها. هكذا تلاشى الاهتزاز متباطئاً مبتعداً نحو كبدِ السماء، بين النّجوم المنسيّة.

عانقتني سوريا. كنت في حاجةٍ إلى دفئها. همستْ في أذني «اللّيلةَ، صار لي طفلٌ منك». لا يمكنها أن تُثبت ذلك، لكنّني كنت متيقّناً من أنّها تقول الحقيقة. لدينا الآن طفل.

كان ليلاً طويلاً. نهضَت سوريافاتي وانسلَّت إلى الخارج. لم تصرخ طيور رئيس البحر. كنت أنتظر والعرقُ يجفّ على جسدي. اشتممتُ رائحة الطيور اللاّذعة، رائحةَ بولٍ وذرْق، ممتزجةً برائحة الحشف الحرّاقة. ثمّ غفوْتُ قليلاً. لكنّ جسد سوريا النديّ أيقظني. اغتسلتْ في البحيرة، وكان ثوبها مبلّلاً وشعرها مثقلاً بملح البحر، والقشعريرة تسري في ذراعَيها.

قُبيل الفجر، شملِ الهدوء المكان. حتّى طيور رئيس البحر كفّت عن السّقسقة. وبدأ البحر يهبط، وكان للبحيرة وهي تصبّ في القناةِ خريرُ نهرٍ خافتٍ. نامت سوريا في الصّدع البازلتيّ ملتصقةً بي، طيفاً يفيضُ حياةً ودفئاً في بردِ الصّباح.

7 يوليو، صباحاً

عـاد المركـب الشّراعـي. كان جـاك قـد توقـعّ ذلك: سـيبدأ موسـم حصاد القصـب في موريشـيوس، وسـيحتاج أصحـاب المـزارع إلى كلّ الأيـدي. وقد غـادرت الإلهـةُ البـاردةُ شـيتالا الجُـزر. ربّما لأنّـه لم يبـقَ لها مـا تلتهمه.

لم أشـهد قـدومَ المركـب. كان راسـياً منـذ الفجـر في القنـاةِ، قبالـةَ خليـج باليسـاد. لا أتذكّـر أنّـه كان كبـير الحجـم. وحـينَ لمحنـاه أوّل مـرّةٍ، مـن أعـلى متـن السّـفينة **لافـا**، عـصر ذلـك اليـوم المطـير في مينـاء بـور لويـس، تـراءى لنـا قاربـاً عاديّـاً، أقـرب إلى زوْرقٍ صيـدٍ مهـترئ. وبشراعـه المسـتطيل وغيمةِ الدخـان السـوداء الطالعـةِ مـن مدخنتـه التـي لا تتناسـب مـع حجمـه، بـدا أشـبه مـا يكـون بالقاطـرات البحريّـة القديمـة في مينـاء لنـدن.

كان يـدور ببـطءٍ حـول المرسـاة أمـام الـبركان. وكان ثمّـة مـا يثـير القلـقَ في هيئتـه. فهـو معتـمٌ جـدّاً، بـلا لوحـةِ تسـجيلٍ ولا رقـم، وبـلا علَـمٍ بحـريّ أيضـاً. يـدور محرّكـه ببـطء، ومـع هـذا كنّـا نسـمع ضربـاتِ أذرعِ التوصيـل يـتردّد صداهـا في كلّ اتّجـاه عـلى طـول البحـيرة، كأنّـه قاطـرةٌ في وضعيّـة انتظـار. لكننّـي سرعـان مـا نسـيت ضوضـاءه. إذ كانـت أذني ممتلئـةً بصـوْت الأمـواجِ المتكـسّرة عـلى الشّـعاب ليـلَ نهـار، وصراخِ الطيـور، وعزيـفِ الرّيـح المتّصـل في الصخـور. أمّـا هـذه الضوضـاء فهـي ميكانيكيّـة، ضوضـاءُ بشريّـةٌ، غريبـةٌ وجبّـارة، لم تألفهـا جزيرتنـا.

ذُعـرت الطيـور. كانـت هـيَ مـن تنبّـه لقدومـه أولاً، قبـل حتّى أن نشـعر بهديـر محرّكـه. طـارت جميعـاً معـاً، دارت وحوّمـت فـوق القنـاةِ زاعقـةً. فظننـتُ في لحظـةٍ أنّ عاصفـةً في طريقهـا إلينـا، أو أنّ التمـرّد قـد اسـتؤنف في باليسـاد، وأنّ العـمّال عـلى وشـكِ عبـور البحـيرة كـي يقطعـوا أعناقنـا.

كان جاك وبارتولي في حالة تأهّب قصوى، وهَمّا بوضع الحواجز. تقدّمتُ إلى الشاطئ فرأيت مُريامه وبوتالا متسمّرَين لا يبديان حراكاً، وسورياڤاتي واقفةً أمام البحيرة تنظر إلى القارب.

عندها وصل العبّار، دافعاً قاربه القديمَ بمُرديّة. لم يغرس طرفَ القارب في الرّمل، لكنّه غرس فيه المُرديّ فقط، كي يثبّتَه أثناء الانتظار.

كنت على الشاطئ بجوار سوريا. وكانت مباني الكرنتينة في الجهة المقابلة، على شاطئ بلات، لا تزال مهجورة. لمحُت أطفالاً يتراكضون على طول السّاحل، ونسوةً ينادين. قالت سوريا:

- حانت اللّحظة، اليوم سنرحل عن هذا المكان.

قالت ذلك بصوتٍ مكتوم، كأنّها خائفة. أنا أيضاً شعرت بالخوف، وبالرّغبةِ في أنْ أختبئ مثل سارة في الطرف الآخر من الجزيرة، في صدْعنا بين الصخور. بدا المركب الشراعيّ ضخماً وسْطَ البحر ذي الزّرقة الشّفيفة، كأنّه صورة خياليّة، بلا أيّ طيفٍ على متنه، لولا الدخان المتصاعدُ من مدخنته الطويلة ودويُّ محرّكه الهادر؛ قعقعتُه المخيفةُ تلك، الشبيهةُ بأنفاس وحش خرافيّ.

ردّدت سوريا: «سنرحل...» شادّةً على يدي بقوّة. كانت نحيفةً هشّة، أقربَ إلى الطفولةِ، وقد أبهتَ القلقُ وجهها الدّاكن. لكم تشبه أنانتا! خطرت لي فجأةً فكرةٌ صبيانيّة، وأعتقد أنّني قلتها بصوت عالٍ: «وماذا لو بقينا؟ سنختبئ في الصّدع، عند السفح، حيث أعشاش طيور رئيس البحر، ولن يبحث عنّا أحدٌ هناك. وفي صخب الحشد، سيعتقدون أنّنا صعدنا إلى متن القارب. سيكون الجميع في عَجَلةٍ من أمرهم متشوّقين إلى الصّعود».

لم تحب سوريا.

سمعتُ صوت جاك يصيح بنفاد صبر، كان يجمع كلّ أمتعتهما. لا بدّ أنّ سوزان تبحث عن حقيبة سفرها وقبّعتها ومظلّتها. وعلى الطرف الآخر من البحيرة، أسرعت النّساء إلى المزارع يلتقطن البابايا والقرْع، وجمع الأطفال القناديل من البيوت الفارغة في الكرنتينة، والأطباق القديمة المطليّة بالمينا، والقوارير الفارغة، وكلّ ما أمكنَهم العثورُ عليه.

وصل جاك وسوزان أخيراً إلى الشاطئ، وكان هو يحمل حقيبة الطّبيب التي تحتوي على مشارطه وسمّاعته، ومعه حقيبة سوزان. أتخيّل أنهّا وضعت فيها على عجل، وكيفما اتّفقَ، كلّ أوراقها، ودسّت كتاب قصائد لونغفيلو الأزرق الصّغير بين الملابس. ساعدها جاك في الصعود إلى قارب العبّار. وكان بوتالا ومُريامه قد جلسا في عمقِ القارب الذي يتسلّل إليه الماء. راكبٌ إضافيّ واحدٌ وسيغرق حتماً. دفعه جاك إلى البحر، وكان حافياً، وبنطاله مدعوكٌ حتّى ركبتَيه، وحذاؤه معلّقٌ حول رقبته، كما كان يفعل وهو يركض في الحقول حوْل عزبة آنّا. كان ينتظر بفارغ الصّبر رؤية القارب يغادر حتّى أنّه لم يعبأ بمصير سوريا. لكنّني طالعتُ على وجه سوزان تعبيراً متكلّفاً في شمس الصباح، وكأنّها تريد الاعتذار عن مغادرتها بهذه السرعة.

وها هو بارتولي يستعدّ لرحلته الثانية. لم يأخذ شيئاً معه، وترك كيس الأرزّ في الكوخ. كان وجهه السّميك يتصبّب عرقاً، وكان يتطلّع حوله في قلق. وحينَ صرنا جميعاً وسْط القارب، صعد جاك إلى المقدّمة، وأمسك بالمُرديّ الطويل. وكان المسنّ ماري يوجّه القارب بالمجداف الخلفيّ.

ورغم انحسار المدّ، كان التّيار قويّاً جدّاً حتّى أنّ القارب ظلّ مائلاً. حاول جاك أن يجدّف بالمُردِيّ ولم يتقدّم إلّا قليلاً. أخذ ماري الواقفُ في المؤخرة يجدّف على مهلٍ، ونظرتُه التي لضرير مصوّبةٌ نحو أعالي البحار. وكما هو الحال في العبور الأوّل، فقد كان ثمّةَ شيءٌ هزليٌّ في هذه الرّحلة العوجاء أيضاً، حيث كلّ شيءٍ يمكن أنْ يتحوّل إلى حطام سفينة في أيّة لحظة. لم تكن صيْحات العبّار الحادّةُ كافيةً لتصويب وِجهة القارب، فكانت سوريا هي من أمسكت بالمُردِيّ هذه المرّة. وجلس جاك إلى الخلف قليلاً دون أنْ يبديَ اعتراضاً. وقفَت سوريا على الحافة، وأخذت تغرس المرديّ بعمق، وقد نجحت في مهمّتها، حيث أعادتنا بدَفعةٍ واحدةٍ إلى الطريقِ نحو شاطئ بلات.

كانت سوزان في انتظارنا على الرّصيف المُتهالك، مستظلّةً للمرّة الأولى بمظلّتها المذيّلة بالدّانتيلا التي كانت معها على السّفينة لافا خلال إبحارنا عبر البحر الأحمر. كانت تقفُ هناك، بثوبها الطّويل المزرّر حتّى العنق، وشعرها القصير، حاملةً حذاءها بين يديها. لم يعد فيها أثرٌ من المرض الذي كانت سوريا تعالجه بالمرهْم كلّ مساء في جزيرة غابريال، حيث كانت ترتعش على عتبةِ الحياة. أمّا الآن فتبدو كأنّها شابّةٌ مغامرة، مستعدّةٌ للذّهاب إلى نهاية العالم، مثل ميني موريل دوي. أخذت تضحك وتصفّق حينَ لمسَ القارب حجارة الرّصيف. ووضعَت مظلّتها وحذاءها جانباً لمساعدتنا في تفريغ أمتعتنا: حقيبةِ السّفر وقارورة الكونديز السائلة التي لم يرغب جاك في تركها في غابريال. أمّا أنا وسوريا فلم نكن نملك سوى ملابسنا، وحقيبة الكاذي الصّغيرة وحربة صيد الأسماك. حتّى إنّه لم يكن لي حذاءٌ. كنت

مثل ناجٍ من الغرق، بلا ماض ولا أمتعة، شبيهاً بحجارة غابريال، بَرَتْني الرِّيح والملح، وسوّدتني الشمس ويبّست بشرتي.

كان جاك لا يكاد ينظرُ إليّ. أمسك بذراع سوزان وقادها على الدّرب أعلى المنحدر حيث يتجمّع المهاجرون. التفتَت إلينا، بدا لي أنّني لمحتُ في نظرتها أثراً من ندم وحسرةٍ وهي تبتعد عن البحيرة. لكنْ ربّما أنا من أسقطَ عليها هذه المشاعر.

مشينا أنا وسوريا على الدّرب نفسه. لم يبق أحدٌ على شاطئ الكرنتينة غيرَ المسنّ ماري. فالسّفر لا يعنيه. عليه أن يبقى هنا للتّرحيب بالمهاجرين القادمين. كان يجلس على صخرته في ظلّ جدار المستوصف القديم، ويمضغ ورق التنبول مسرّحاً نظرته المائلةَ إلى الزّرقةِ صوب البحيرة.

استدارت سوريافاتي فجأة. وحدّقت مليّاً في جزيرة غابريال، للحظة اعتقدتُ أنّها تريد أن تتأمّلها قبل الرّحيل. ثمّ قالت:

- سارة؟ هل هي مع الآخرين؟

توقّف جاك في منتصف الطريق، وكان يتحاور مع بارتولي. ولمّا دنوْت منه، قال بنبرةٍ قلِقةٍ:

- سيبدأ صعود الركّاب، عليكَ أن تأتيَ حالاً. يبدو أنّ فيران قد صار بالفعل على متن المركب».

لم يكن مصير ركّاب **لافا** ما يقلقني. بل كنت أفكر في سوريافاتي، وشعرتُ للمرّة الثانية بغضب وعجز. فلمّا أخبرتُ جاك عن سارة ميتكالف التي ظلّت سجينةً في جزيرة غابريال، هزّ كتفيه.

كانت عيناه مغبّشتين بضباب نظّارته، ويداه ترتعشان.

- ينبغي العودةُ بسرعةٍ للبحث عنها، فالمركب لن ينتظر أكثر.

التفتَ إلى سوزان محاولاً إقناعها بأنْ تمضيَ إلى خليج باليساد من دونه. ابتعدتْ عنه على مضضٍ وهي تحملُ حقيبة سفرها الضّخمة، ومظلّتُها الشمسية مائلةٌ على كتفها، ومضت مع بارتولي ومُريامه، فيما بقي الصبيّ بوتالا معنا. كانت نظرته تلمع بوميضٍ غريب، وقد جذبتْه فكرة مطاردة المجنونة.

عُدنا إلى القارب الذي تولّت سوريا قيادته، فيما أمسك بوتالا بالمجداف الخلفيّ وأخذ يجدّف بقوة، فتخيّلتُ أنّه ابن صياد بنغاليّ. بقي ماري جالساً في ظلّ جداره. حتّى إنّه لم يلتفت بنظرته الشاحبةِ حين دفعنا القارب نحو القناة.

وما كدنا نطأ جزيرة غابريال حتّى مضينا أنا وجاك وسوريا راكضين نحو الطرف الجنوبيّ بحثاً عن سارة. اتّبع بوتالا مساراً آخر عبر الأجمات. لم نَصِح كي لا نخيف المجنونة المسكينة. كان المركب الشراعيّ لا يزال قبالة جزيرة بلات موثَقاً إلى المرساة، مغطى بعمود من الدخان الأسود، ومحرّكُه متوقّفٌ عن العمل. وكان الصّعود قد بدأ على الأرجح. في غابريال، لم تكن تُسمَع أيّ ضجّة، لكأنها جزيرة ميتة. فقد هربت طيور رئيس البحر إلى مكانٍ آخر، ولا شك أنّها انضمّت إلى الطيور الأخرى حول صخرة بيجن هاوس. أو اختبأت في أوْكارها خوفاً من خفر السّواحل.

صار بوتالا الآن في الطّرف الجنوبيَ. وكان رابضاً على صخرة. أتخيّل أنّه لا بدّ قد ولج إلى الجُحر، كما لو كان يصطاد وحشاً. مرّت سورياڤاتي من أمامه دون أن تقول شيئاً، وهبطت حقل الحجارة شاقّةً الممرّ الشوكيّ وهي تصيح: «سارة!»

لا يوجد أحد. الجُحر فارغٌ. وعلى الحجَر المبسوط عند المدخل، لا يزال هنالك بقايا الأرزّ الذي تركته سوريا أمس. إذ لم تلمسه الطيور. تقدّمتُ مُنحنياً فرأيت فراش سارة، ملاءةً ملطّخةً بالرّماد والأوساخ، وحقيبةً نصف مفتوحةٍ تحوي آثارها القليلة: مشط هنديّ، وبعض الروبيّات وحفنة من الآنات، ونسخة مهترئة من العهد القديم، وحزمة من الرّسائل مبقّعة برذاذ المطر. كان مشهد هذه البقايا مثيراً للسخرية ومحزناً في آنٍ معاً، مثل تلك الأشياء العديمة الجدوى التي نعثر عليها في بيتٍ يشهد حداداً. لفَت انتباهي دفترُ يوميّاتٍ أسودُ ملقىً على الأرض قرب الفراش، ومُغلقٌ بشريطٍ أحمر. كانت تلك المفكّرة الثمينة التي كان جون ميتكالف يصطحبها معه أينما ذهب، ليسجّلَ فيها كلّ ملاحظاته واكتشافاته. وعلى الغلاف ملصقٌ خَطّت عليه يد سارة المائلةُ المثابرة، التي كانت تنسخ أسماء النّباتات الغريبةِ كلّ مساء، ما يلي:

«Flat Island, 28, May, 1891» [1]

بينما ظلّت الخانةُ المخصّصة لتاريخ إغلاق المفكّرةِ بيضاء.

كان هذا تاريخ دخولنا الكرنتينة، وهو ذاته التاريخ الذي كتبته سارة باليد نفسها على اللّوح الذي غرزته في التّراب، هناك حيث صار جون رماداً.

تركتُ النّقود والرسائل وأخذتُ المفكّرة السوداء. تخيّلتُ أنّ جون قد تركها لي، لا لأحدٍ سواي. أرادني أنْ أتذكّر كلّ ما كان، وأواصل دروس علم النّبات من بعده. لا أنسى ما قاله لي حين كنّا نبحث عن شجرة النّيلة: «النباتات هي من ينقذُ البشر».

---

(1) بالإنجليزيّة في الأصل: جزيرة بلات، 28 مايو، 1891.

كانت الرّياح عند الطرف الجنوبيّ تثير رشقاتٍ من الزّبد، والأمواجُ القويّة تتكسّر على الرّصيف المرجانيّ كاشفةً عن جوفها الأخضر الزمرّديّ. أحسستُ أنّ علينا الإسراع، فلا بدّ أنّ المركب قد بدأ يتأرجح بين قُلوسه، ولن ينتظر أكثر. فأين هي المجنونة؟

مضَت سوريافاتي تبحث عنها بين رُكام الصّخور السوداء، قرب الموضعِ الذي اتّخذنا فيه ملجأنا. كانت تمشي بصمتٍ كأنّ سارةَ طائرٌ ينبغي عَدمُ إخافتِه. ربّما تودّ هي أيضاً أن تختبئ وتتركَ القارب يرحل بكلّ هذا الجمع من البشر. فلعلّ سارة محقّة، علينا أن نعود إلى صدع صخرتنا ونعيشَ بقيّة حياتنا مع أسراب طيور رئيس البحر، وأنْ ننسى موريشيوس، مثلما نسيتْنا.

سمعتُ صوت جاك. لم يعد يطيق صبراً. نزل من قارب العبّار وصعد منحدر القمّة ليطلب منّا العودة. شتّتت الريح كلماته، فتناهت إلينا أصواتاً غير مفهومة: هيه!... هو!... تخيّلتُ سوزان، واقفةً على الشاطئ تتطلّع نحو الدّرب المفضي إلى المقبرة في انتظار عودتنا، فيما النّاس يصعدون إلى الزّورق.

طُفْتُ جزيرةَ غابريال بأكملها، يتقدّمني بوتالا مفتّشاً بين الأجمات مثل كلب الصّيد. لم نعثر على سارة في أيّ مكان. ربّما لجأت إلى أعلى القمّة، أسفل جدار عمود الإشارة. لكنّ هذا مستحيل، وإلّا لأخافتها الطيور، ولاهتاجَت وصرخت عليها فاضحةً مكانها. وصلْتُ قربَ التّلعة. فأخذت طيور رئيس البحر تحوّم فوقي وتهدّدني. ولم يجرؤ بوتالا على الاقتراب أكثر. لقد عادت لترانا غرباء وأعداء. وكانت هي من طردَتنا هذه المرّة.

نسيَ بوتالا أمر سارة، وزحف بين الصخور بحثاً عن الرّيش الأحمر الرائع. ولو استطاع لقبضَ على واحدٍ من الطيور كي ينزع ريشته.

هبطنا عائدين إلى الشاطئ، وصعدَ جاك إلى القارب ثانيةً صائحاً:

- ماذا؟ هل وجدتموها؟

هززتُ رأسي نافياً. فقال بنبرةٍ قاسية:

- ليس في وسعنا الانتظار أكثر. وأضاف شاعراً بوخزة ضمير:

- لعلّها غادرت الجزيرة.

وما هو إلّا أنْ ظَهرت سوريا على الدّرب المفضي إلى المخيّمات، مُسندةً سارة ميتكالف. كانت المرأةُ الشابّة تمشي بخطىً وئيدةٍ غير متوازنةٍ، فالحرّ وقلّة الغذاء أصابا ساقَيها بالشلل. حتّى أنّها لم تستطع الصمود حين رفعها جاك على متن القارب، فسرعان ما استلقت على ظهرها ملتفّةً بأسمالها.

وكانت سوريافاتي آخرَ من صعد على متن القارب، وبينما هو يعبر القناة منحرفاً لثقل حمولته، ظلّتْ مُلتفتةً نحو صخرة غابريال الدّاكنة. انتابني انطباعٌ بأنّ نظرةً ما أخذت تتبَعنا من جهة المخيّم والصّهاريج. لعلّها ليست سوى عينْ الطيور القاسية التي تحوّم حول عمود الإشارة. وفي صخب البحر الهائج الذي كان يُعلي ماء البحيرة، سمعتُ الاهتزاز الآتي من بعيدٍ مثل أنفاسٍ، لكأنّ كلّ منْ تخلّينا عنهم في هذا المكان ما زالوا على قيد الحياة.

كانتْ دواماتٌ كبيرةٌ تدور في القناة، فشقّ على بوتالا الحفاظ على مسارنا نحو رصيف بلات. وفيما كنّا ننزلق فوق غابة الشّعاب

المرجانيّة السّوداء، لمحتُ في لحظةٍ ظلاًّ يحوم ويتبعنا مثل كلب غاضب. عرفتُ فيه سمكة التازور، سيّدة البحيرة. وبدا لي أنّ أبديّةً بأكملها قد مرّت منذ سمحتْ لي أنْ أخترق مجالها. واليوم، عُدْت لأصير غريباً في نظرها.

وصلنا إلى باليساد قُبيل الظّهيرة، وفيما كنّا نهبط المنحدر صوب الخليج شعرتُ أنا وسوريا بالخدَر، لم نعد نقوى على السّير، كان قلبانا يخفقان بسرعةٍ وقوّة. وكنّا نرغب، مثل سارة، في الهروب عبر الدّغل.

كان خليج باليساد يعجُّ بالنّاس بدءاً من منحدر البركان حتّى البيوت المشتركة. فقد جاء الهنود من جميع أنحاء الجزيرة، مِن الأكواخ والحقول وغابة الكزورينة، وتجمّعوا على الشّاطئ الأبيض أمام الرّصيف غيرِ المكتمل. ولقد نسيتُ ذلك، غابَ عن ذهني أنّهم كُثْرٌ إلى هذا الحدّ. كانوا حشداً من ألفٍ أكثر أو أقلّ. وقد شكّلوا كتلةً متراصّةً، معتمةً وصامتة. وحدها أثواب النساء كانت تلمع هنا وهناك. كانوا يقفون أمام البحر المبهر تحت أشعة الشّمس اللاّذعة، بلا فيءٍ يستظلّون به. حتّى أنّ جاك نفسه قد توقّف للحظةٍ، محاولاً أنْ يتمالك نفسه. ولم يكن يريدني أن أنتبه إلى ما كان يختلج في قلبه من مشاعر.

- أين سوزان؟ لا أرى سوزان.

منعه ضعفُ البصر من فهم ما يجري، لكنّه لمح جمعاً من البشر مصطفّين على الشاطئ مثل جيش صامت.

وفي أقصى يسار الخليج، قريباً من السّقيفةِ التي كانت تُحفَظُ بها المؤن، لمحتُ سوزان في ثوبها الخفيف، وإلى جانبها طيفُ بارتولي البدين، بشعر رأسه المنتوف الذي يتنافر مع شعور الهنود الغزيرة.

- زوجتُكَ هناك، تنتظرك.

كانت سوريا هي من تحدّثت إليه بصوتها العذب، وقد أخذتْه من ذراعه وأرتْه أين ينظر. إنّها أكثرُ قدرةً على الصّفح منيّ.

هبط جاك أولاً، فتبعتُه على نحوٍ كاد يكون آليّاً. هبطنا نحو الخليج عبر الدّغل، وسْطَ عصفاتٍ من رياح حارّةٍ تجلو السماء والبحر. وكان دخان المركب الشراعيّ يتدفّقُ ويرتدّ نحونا. فتنشّقْتُ فجأةً رائحة المحرّك النفّاذة، رائحة الفحم والزيت الحارّ. كِدتُ أنسى أنّ هذه أمورٌ موجودةٌ حقّاً، لذا أخذتُ أتشمّم الهواء مثل حيوانٍ، وأتذوّقه بلساني. ثمّ اشتدّ الاهتزاز، واجتاز البحرَ ليتسلّل من تحت قدمَيّ الحافيتَين، فتسارعت نبضاتُ قلبي. أتذكّر المرّة الأولى التي صعدتُ فيها على متن لافا في مرسيليا، وبدأت السّفينة في الإبحار. كان هو الصّوت القويّ والمزعج ذاته.

واصلتُ الهبوط دون أنْ أنظر ورائي، متخلّفاً كثيراً عن جاك.

ولمّا بلغنا الشاطئ، أدركتُ أنّنا كنّا نهرول من أجل لا شيء: لم يبدأ الصّعود بعد. واصل المركب الشراعيّ دورانه حول محور السلسلةِ موثَقاً إلى المرساة العائمة. كان يدور كثيراً، وكان الضّابط الإنجليزي يقفُ على مقدّمه محاطاً بطاقم البحّارة. وبين الحين والحين يوجّه نحونا منظاره. لا بدّ أنّه يقيّم الموقف. إذ يستحيلُ بأيّ حالٍ حملُ جميع المهاجرين على المركب الشراعيّ. سيحتاج الأمر إلى قوارب أخرى، وعدّة رحلاتٍ على مدى يومَين أو أكثر ربّما.

كان على المقدّمِ أيضاً بحّارةٌ من جزر القُمر يرتدون بذلاتٍ فاتحة اللّون، مسلّحون ببَنادق شنايدر الشّهيرة التي رأيتها يوم الشّغب. ولو

رآها فيران لقال: «بهذه، يُمكنني أنْ أصرع رجلاً على بعد خمسمائة متر».

وبالمناسبة، أين ذهب هذا المحتال؟ ظننتُ للحظة أنّه يقف على قمّة البركان، وحيداً في معسكره المنيع مثل قبطان يغرقُ بسفينته، فإذا بي أراه بين مجموعة مسافري لافا. لم يحتفظْ بشيءٍ من أُبّهته. كان يجلس على الرّمل مُحتمياً بدعامات مستودع المؤن الخشبيّة، شديدَ الشّحوب مُنهكاً من الأرق، حاله حال بارتولي. والآن مع اقتراب الرّحيل، عادَ ليكون رجل الأعمال المثابرِ المستغلّ، التاجرَ الدّائم الإفلاس الذي لا يستطيع إلّا أنْ يكونه. وحينَ اقترب ليجلسَ إلى جانب سوزان، لم تُعِره انتباهاً، حتّى إنّها لم تلتفت نحوه.

كان الحشد متراصّاً على الشّاطئ، فوجدنا مشقّةً في العبور. وكان الرّجال يقفون والعَرَق يتصبّب من وجوههم ويبلّل ملابسهم. وصل جاك حاملاً حقيبته الطبيّة وعبوة محلول الكونديز، فأفسحوا له دون عداء. لم يعودوا يشبهون في شيءٍ أولئك الرّجال الذين ألقوا عليه الحجارة. كانت ملامحهم تشعّ طيبةً وعيونُهم الجميلةُ تشي بعمق نظرتهم. ربّما اعتقدوا أنّ جاك هو من سينقذهم، ويمكّنهم من مواصلة رحلتهم. أمّا أنا فعبرْتُ من بينهم بسلاسة. كانوا صامتين، وكان بينهم فتيانٌ صغار، أطفالٌ بأذرعَ وسيقانٍ طويلةٍ، وأجسادٍ ليّنة مثل داليات، عارينَ سوى من مئزرٍ أبيض حول خصورهم. ولكنْ أين أوكا، وأين الرّاعي شوتو؟ هناك أناسٌ آخرون لم أرهم من قبل، يقفون في الشمس بملابس سفرهم، كما لو كانوا على رصيف محطّةٍ في انتظار القطار، يرتدون المعاطف والسّترات فوق ثيابهم، وينتعلون

أحذيّـة ملمّعـةً، ويحتمـون مـن الشـمس بمظـلّاتٍ سـوداء كبـيرةٍ، مثـل السّـادة النّبـلاء في وسـط لنـدن.

سـمحوا لي بالمـرور، ولم ينظـروا إليّ، بـل كانـوا ينظـرون إلى المركـب الـرّاسي أمـام الخليـج وهـو يـدور حـول سلسـلته ويتأرجـح في المـوج. خيّـمَ صمـتٌ طويـلٌ عـلى الشـاطئ، تحـتَ الشّـمس الحارقـةِ، لا يتخللـه سـوى هديـر محـرّكات المركـبِ الـرّاسي.

فجـأةً انتبهـتُ إلى أنّ سـوريافاتي ليسـت إلى جانبـي. لقـد جعلتنـي أذهـب مـع جـاك، وبقيَـت بـين الصّخـور. همَمْـتُ أنْ أعـود للبحـث عنهـا، لكـنّ سـوزان أقبلـت نحـوي وعانقتَنـي:

- خفتُ كثيراً، ظننتُ أنّكم لن تصلوا أبداً.

ثـمّ ضمّـت سـارة إليهـا وأجلسـتها في الظـلّ بجـوار جوليـوس فـيران، وطوّقـت جـاك بذراعَيهـا. كانـت تتحـدّث بسرعـةٍ لمـداراة قلقِهـا، وبـدت، في ضـوء الظّهـيرة الحـادّ، شـديدةَ النحـول، وبـشرةُ وجههـا الجميلـةُ متيبّسـة، فقـد لوّحتهـا الشّـمس مثلـما فعلَـت بسـارة. لم يكـن جـاك يسـمع مـا تقـول، لكنّـه حـاول طمأنَتهـا: «أعتقـد أنّ صعودنـا إلى المركـب لـن يتأخّـر». كانـت كثـرةُ النـاس عـلى الشـاطئ تثـير خوفـه:

- علينا حتماً أنْ نكون أوّل من يصعد. ثمّ أردف وكأنّه يشعر بالخجل:

- أعتقد أنّهم سيرسلون قارباً ثانياً.

هزّ بارتولي كتفَيه:

- إذا غادروا مثل المرّة الماضية، ستكون ثورة.

تيبّسـتْ شـفاهنا من الحـرّ والريـاح، ومع هـذا لم يفكّر أحـدٌ في الذهاب إلى الصهاريـج أو تسـلّق الصخـور نحـو النّبـع. كان الشّـيخ حسـين يقـفُ على ما

تبقّى من الرصيف متكّئاً على عصاه-عصا السّردار-، ثيابه باليةٌ، وعمامتُه الممزّقة ترفرف في الريح، محتفظاً مع ذلك بهيئته المتكبّرة. لم يكن يبدي حراكاً، وكان يميلُ قليلاً إلى الجنب اتّقاء الشمس، متخذاً موقف المزدري اللّامبالي، ومترفّعاً حتّى عن النظرِ إلى ركّاب **لافا**. لقد كنا على أيّ حالٍ سننتقلُ في غضون لحظاتٍ قليلة، أو ساعاتٍ، إلى عالمٍ آخر. لكنّ الشّيخ حسين قد نسيَنا سلفاً.

فجأةً، ومن غيرِ تفسيرٍ واضح، بدأ تشغيلُ المركب استعداداً لتحميل الرّكاب. انفصل الزّورق عنه، واتّجه مباشرةً إلى خليج باليساد مدفوعاً بالأمواج. كان على متنه أربعةُ بحّارةٍ قُمريّين ذوي بشرةٍ شديدة السواد في زيٍّ ناصعِ البياض. أبقى اثنان منهم الزّورق ثابتاً فوق خطّ الأمواج المتكسرة مستعينَين بالمجاديف، فيما عُنِيَ الآخران بحركة النّقل ذهاباً وإياباً، فأوصلا طرفَ حبلٍ إلى الشاطئ، ورُفعَ أوائلُ النّاجين إلى متن السفينة عبرَ هذا الجسر المُرتَجلِ، تُبلّلهم الأمواج بالكامل. كانوا عدداً قليلاً من العمّال الذين اختارهم الشّيخ حسين من بين كبار السنّ، وكانوا يحملون صررهم المعقودة فوق رؤوسهم. ثمّ تبعَتهم مجموعةٌ من النساء، مُريامه وابنها بوتالا، ونساءٌ هنديّات أخرياتٌ، وقد رشقَ الموج أثوابهنّ الطويلة الملوّنةَ فالتصقت بأجسادهن. وعلى الرّغم من الأمواج والخطر، فقد جرى هذا كلّه دون أنْ تُطلَقَ صيحةٌ واحدةٌ، إذ لم يكن يُسمَع سوى أنين الصّغار وهم يتشبّثون بأمّهاتهم كلّما تكسّرت موجةٌ أمامهم على رصيف البازلت محدثةً دويّاً. وأخيراً جاء دور ركّاب **لافا**. كان الشّيخ حسين هو من أصدر الأمر، فتنحّى الهنود جانباً طائعين.

تقدّمت سوزان أولاً جارّةً معها سارة ميتكالف، وقد رافقهما جاك إلى البحر متشبّثاً بالزّورق المكّوكيّ، مرّر أولاً حقيبة السّفر وممتلكاته الخاصة، بما فيها عبوة الكونديز الشهيرة. ثمّ عاد إلى المرأتين، وظهرُه إلى الأمواج، فمدّ يده إليهما. تمكّنت سارة ميتكالف من الوصول إلى حافة الزّورق، ولكن لمّا تقدّمت سوزان بدورها، غمرَتها موجةٌ أعتى. وحين عادت للظهور، انْفلَتت منها الحبل ولم تعد تعثر على القاع. سَبحت في الزبد، وفقدَت قبّعتها ومظلّتها. فقفز جاك في الماء، وللحظةٍ سبحا معاً طليقَين في البحر المتلألئ، تُدافعهما الأمواج، كما في ذلك الصيف عندما تحدَّت سوزان كلّ المحظورات واندفعَت في البحر الأخضر في هاستينغز، أسفل رصيف الميناء. أمسكَ بهما البحّارةُ القُمْريون ورفعوهما واحداً تلو الآخر على متن الزّورق. ولا أدري لماذا اعتصرَ قلبي مشهدُ صعودهما إلى الزّورق جذِلَين. إذ لم يعودا سوى طيفَين بين أطياف أخرى، محمولَينِ على الأمواج في زورقٍ ما. ثمّ نزل بارتولي وفيران بدورهما إلى البحر، وانزلقا على طول جسر الحبل المكّوكيّ. التفتَ بارتولي نحوي قبيلَ مغادرتهما وقال لي: «هل ستأتي؟» لاح على وجهه المتجعّد مثل وجه جنديّ هرم تعبيرٌ جادّ. فجأة لم أعد أكنّ له أيّةَ ضغينة. فقد كان في عينَيه الصافيتَين بريقٌ عاديّ ومألوفٌ، وكأنّني عرفته منذ زمن بعيدٍ دون أنْ أتحدّث إليه. هززتُ رأسي ولم أُجب. دخل البحر، ودون أن يمسك بالحبل، سبح حتّى بلغ الزّورق.

حدث كلُّ شيءٍ بسرعةٍ. وامتلأ الزّورق الصّغير عن آخره، ولفرط حمولته كانت الأمواج تعلوه كلّما مال. ثمّ رفع البحّار الحبل، وأخذ المجدّفون يضغطون للابتعاد عن الشاطئ. كنت أقف أمام الرّصيف

مـع الهنـود. ولم أفكّـر حتّـى في التّلويـح لجـاك وسـوزان. ابتعـدَ الـزورقُ مترنّحـاً، ومـضى وئيـداً نحـو المركـب الشراعـيّ. لم أعـد أعـرف مـكان جـاك وسـوزان، فقـد غابـا عـن نظـري. ولا بـدّ أنّ الرّيـاح وسـط البحـر كانـت قارسـةً، فتخيّلـتُ جـاك يحتضـن سـوزان بـين ذراعيـه ويحميهـا مـن أمـواج البحـر. ربّـما حاولَـتْ أنْ تلمحنـي عـلى الشـاطئ، فلـم تـرَ غـيرَ جمْـع المهاجريـن الأسـود، يقـف كأنّـما عـلى ضفّـة نهـرٍ عظيـم.

كيـف اسـتطاع النّـاس عـلى الشـاطئ أنْ يحتفظـوا بهدوئهـم؟ جعلـتُ أمـشي عـلى طولـه بحثـاً عـن الوجـوه التـي أعرفهـا، عـن النّـاس الذيـن التقيـتُ بهـم حـينَ ذهبـتُ إلى بيـت أنانتـا، كبـارِ السـنّ الذيـن يعـودون مـن بيتهـا محمّلـين بالأعشـاب السـحريّة، والعـمّال ذوي العمامـات، وهنـودِ الشـمالِ بنعالهـم المدبّبـة، والصِّبيـة الذيـن ينطلقـون في مغامـراتٍ عـبرَ الجزيـرة، متاعهُـم الوحيـد منديـلٌ معقـودٌ يخفـون فيـه بضعـة دولارات، والنسـوةِ بأوشـحتهنّ الحمـر، وقاماتهـنّ النحيلـةِ المتينـة، وبشرتهـنّ التـي بلـون الصلصـال، وزمـام الذّهـب الكبـير في فتحـة أنوفهـنّ، وعـلى جبينهـنّ علامـة الـرّب يامـا. سِرتُ عـلى طـول الشـاطئ، سـمحوا لي بالمـرور دون أنْ يقولـوا شـيئاً، ولا كادوا ينظـرون إليّ. ربّـما لأنّنـي أصبحـتُ مثلهـم حقّـاً، بـلا عائلـةٍ ولا وطـن. فقـد اغتسـلتُ مـن كلّ ذكـرى، ولم يبـق في داخـلي شيءٌ مـن الرّجـل الأبيـض الـذي كنتُـه، وحـرّرت نفسي مـن اسـم أرشـمبو. والآن أحمـل معـي علامـات حيـاتي الجديـدة، رمـادَ المحـارق، وغبـارَ غابريال الأسـود ورائحـةَ الطيـور. لي بـصرٌ جديـد، ولـن أكـون مـن كنتـه مـن قبـل، ذلـك الـذي تسـلّق سـلّم السّـفينة لافـا، تَحْـدوه فكـرةٌ عبثيّـة؛ فكـرةُ العثـور عـلى جزيرتـه وأسـلافه.

ذرعتُ ضفّة باليساد كلّها. أردتُ أن أرى أوكا الكنّاس، الذي كان معي قربَ المحارق. أُحسّ أنّه هو من صار أخي منذ اليوم الذي نزلَ فيه للسباحة إلى موريشيوس. خِلتُ غيرَ مرّةٍ أنّني ألمحه بين مجموعات النّاس، لكنّي لم أكن أرى سوى شبّان بوجوهٍ لا تبالي بي، ولا تلتفتُ نحوي.

سوريافاتي ليست هنا. خشيتُ أن تكون قد صعدت إلى المركب دون أن تنتظرني. أخذَت رحلاتُ الزّورق تتكرّر بانتظامٍ وبالطقوس نفسها: يُلقي البحّار بالحبل فيعلّقه صبيّ على صارية الرّفع، فينزلق الرجال والنساء عبر زبدِ الأمواج إلى الزّورق. أُنجزَت ستُّ رحلات، وربّما عشر، نُقلَ خلالها أكثرُ من مائة مهاجر. فصار المركب الرّاسي في عُرضِ البحرِ قبالة باليساد، مزدحماً بالناس، يتأرجح بهم على نحوٍ خطير، ودخانه الأسودُ يندفع مع العواصف فيحجبهم كليّاً في بعضِ اللّحظات. وعلى الشاطئ، دوّخت الشمس والرّياح من تبقّى منهم، وكان الزّبد يغشّي أبصارهم كالثلج، وخطُّ الأفق يبهر أنفاسهم. لكنْ لا أحد منهم فكّر بالانصراف. وكنت ألتفتُ بين الفيْنة والفيْنة نحو المنحدرِ أعلى الشاطئ، آملاً أنْ ألمح طيف سوريا، لكنّ بصري كان يرتدّ رغماً عنّي نحو البحر.

تحرّكَ المركب الشراعيّ أخيراً مع حلول المساء، انطلقَ فجأةً دون سابقِ إنذار، حيث ارتفع هدير الآلات ببساطة، ورفع البحّارة أشرعة الصاريَين فأخذت ترفرف في الريح وتتوارى في سحابة الدخان. وعلى الشاطئ، استنشق الجميع رائحة الفحم النفاذة، الرّائحةَ الفائقة العذوبة التي أخذت تتلاشى في الفضاء.

ولمّا بات واضحاً أنّ المركب قد رحل، حدثَ تململٌ يائسٌ بين الحشد الذي بقي. كان كثيرٌ من الهنود لا يزالون هنا. وانتشرت شائعةٌ أنّ مركب خفر السواحل لن يعود أبداً. أو ربّما هو تعب الانتظار طويلاً تحت الشمس والريح. أخذ بعضُ الرّجال يركضون على طول الشاطئ واعتلوا الرّصيف وهم يصيحون ويلوّحون للسّفينة، ونزل بعضهم الآخرُ إلى البحر وخاضوا فيه حتّى الخصر، مترنّحين بينَ الأمواج. ولم يعد المركب الشراعيّ سوى طيفٍ أسود يتلاشى في تجاويف الموج، ساحباً في مَخره الزّورق الشّبيه بقشرة الجوْز القاسية.

جلس آخرون على الشّاطئ قرب صُررهم، وكانوا ينظرون إلى البعيد شاردين حالمين، كأنّهم يُصلّون. عرفتُ من بينهم المُسنّ الحكيم، الرجلَ الذي قابلته في الطريق إلى باليساد يومَ رافقتُ جون ميتكالف في إحدى مغامراته الاستكشافيّة: إنّه راماسوامي. كان يجلس متربّعاً على بلاطات الرّصيف البازلتيّة، مولياً ظهره إلى البحر، وعصا القيادة إلى جانبه.

لم يكن معه أمتعةٌ، ولا حتّى منديلٌ مربوطٌ من زواياه الأربع. كان يرتدي فوق مئزره الأبيض سترةً إنجليزيَّة مهترئةً من بذلةٍ قديمة الطّراز، بياقةٍ عالية وصفٍّ مزدوج من الأزرار، وقد جلسَ الرّجال الآخرون على طريقته، واحداً تلو الآخر، متحلّقين حوله على الشاطئ. وكانت تشعّ منه طاقةٌ غريبةٌ، لكأنّه الوحيد الذي يدرك ما هو قادم. كنت أسيرُ على الشاطئ قريباً منه، متّجهاً نحو المنحدر حيث تنتظرني سوريا. صوّب نظراته عليّ، وبدا لي أنّني تلقّيت بعضاً من نوره ويقينه. كان داكن البشرةِ، شعرُه قصيرٌ جدّاً، ولا تبدو عليه علامات

الكِبرَ، وفي نظرته الصّفراء شيءٌ من الرّقةِ والحدّة معاً. ولا أدري لماذا خطرَ لي فجأةً رجلُ عدن، في عتمة غرفته الخانقة في المشفى المدنيّ، ونظرتُه التي اخترقتني في صمت. كنت أرغب في الجلوس معهم والانتظار أنا أيضاً. لكنّني، قبل كلّ شيء، أردت العثور على سوريا.

عاد أكثر العمّال إلى البيوت المشتركة، فيما واصل آخرون التّجوال على طول الشاطئ، متجمّعين على الرّصيف المتهالك، كما لو أنّ قارب أحلامهم سيعود في أيّ وقتٍ من النّهار أو اللّيل.

لكنْ باتَ واضحاً أنّ الأوان قد فات اليومَ، فقد اصطبغت السّماء بلون الغروب الذهبيّ. وبدأت الطيور التي استعادت جرأَتها منذ رحل المركب الشراعيّ تحلّقُ من جديدٍ على طول الخليج. وفي الموضعِ من خاصرة البركانِ حيث يضرب البحر، رأيت زوجاً من طيور رئيس البحر يصطاد في تيّار الماء. كان يحلّق بعيداً في الأعلى، ثمّ يهوي في الموج. وكانت هذه أوّلَ مرّةٍ أرى فيها طيور رئيس البحر في سماء جزيرة بلات. لا شك أنّها علمت برحيلنا الوشيك، الذي سيعيد لها مِلكيّة البحيرة.

أعرف أين سأجد سوريافاتي. تسلّقتُ المنحدر قبل أنْ يهبطَ اللّيل، فسمعتُ هرولةَ الجديان في الأجمات، لكنّ شوتو لم يعد هنا ليحبسها في الحظيرة، وكانت الكلاب الضّالة تلاحقها في الدّغل. تلك الكلاب التي سرعان ما عادت متوحّشةً مثل بناتِ آوى، وحينَ اخترقتُ دربها، سمعتُها تزمجر، فتسلّحتُ، تحسّباً، بحجرٍ بركانيٍّ حادٍّ كالفأس.

عبرتُ المزارع. فإذا بالجديانِ قد عبثتْ بالحقولِ بعدما تركتْها النساء الهنديّات. فاقتلعَت الشّتلات، ورعَت البقلة اليمانيّة، وحشّت

الخضروات عن وجه التربة الجافّة. حتّى الأسوار الحجريّة الصغيرة انهارت في بعض الأماكن. وأخذت الشّمس ترسم أثلاماً طويلةً في الأرض، هنالك حيث كانت النساء تصبّ كلّ مساء دلاء الماء لِتروي عرائش القرع وحقول الأرزّ. فبدا الأمر وكأنّ أيّاً من هذا لم يكن، أو كأنّه كان منذ مائة عام.

بلغتُ أعلى المنحدر، حيث ظلُّ فوّهة البركان. دفعتني ريحٌ عاتيةٌ إلى الوراء، ريحٌ تأتي عبر المحيط فتُعلي أمواج المدّ، هبّةٌ قويّةٌ محمّلةٌ بهدير البحر وأريج الشّعاب المرجانيّة. حينَ نزل الهنود إلى الجزيرةِ استقرّوا في خليج باليساد، وبنوا منازلهم وزرعوا حقولهم هناك في الجهةِ الآمنة من الرّيح. أمّا هنا، فالرّيح العاصفة تمحو كلّ شيء، تمرّ فوق الجدران وصهريج المياه والأسوار والقبور، كما تفعل في غابريال، فتحُتُّ كلّ شيء، ولا تخلّف سوى النّدوب.

كانت سوريافاتي تجلس منتظرةً في المقبرة القديمة، عند قبر توماس ميلوت، متأمّلةً البحر وطيف جزيرة غابريال. وكانت ترتدي السّاري الجميل بلون البحر، وتضع الوشاح الأحمر الكبير على رأسها، فبدت مثل أنانتا، وإلى جانبها حقيبتها الكاذيّة التي تحتفظ فيها بقلادة جدتها القصديريّة، ورقم تسجيلها كعاملةٍ في قطْع القصب. كان هذا المتاعَ الوحيدَ الذي جلبتْه من جزيرة غابريال.

حلّ اللّيل، لكنْ لمّا نظرت سوريا إليّ، رأيت النّور في عينَيها، ذلك الوهج الكهرمانيّ الذي أذهلني أوّلَ مرّةٍ عند البحيرة. كنت أرتعش شوقاً لما ستقول، كما لو أنّ حياتيَ كانت تُصنع أمامي في تلك اللّحظة.

دنَـت منّـي، ووضعـت ذراعهـا حـول خـصري قائلـةً:

لقد رحلت سوزان. ماذا سيحلّ بك الآن، بهْايْ؟

كانـت نبرتُهـا متهكّمـةً. تتحـلّى سـوريافاتي بنـوعٍ مـن رضـا طفـوليّ لمستُه فيهـا حـين كنّـا وحدنـا عنـد القمّـة، قـرب أوكارِ طيـور رئيـس البحـر. قادتنـي إلى أسـفل المنحـدر بمحـاذاةِ المقـبرة. لم يبـقَ أمامنـا سـوى دقائـقَ معـدودةٍ لنـزور ملجأنـا، ونلقـيَ نظـرةً أخـيرةً عـلى كلّ شيءٍ، ونلملـمَ كلّ مـا كان لنـا، لا لأحـدٍ سـوانا: انعـكاسَ السّـماء في البحـيرة، وطيـفَ الجُـزر الأسـود، وانكسـارَ مـوْج البحـر، وأريـجَ الحشـف المقـوّس المحمـول مـع الرّيـح حـينَ تهـبّ بـاردةً كالمـاء تـارةً، وفاتـرةً مثـل أنفـاسٍ تـارة، وآخـرَ عبـورٍ لأسراب طيـور رئيـس البحـر في وهـج الشـمس، مُجرجـرةً خلفهـا شـعارَ مَلَكيّتهـا العديـم الجـدوى، مثلَـه مثـل علامـة الشّـهاب عـلى واجهـة البيـت الأخـير في عزبـة آنّـا.

وقفنـا وسْـط الأضرحـة نتأمّـل الغـروب وهـو يمحـو معـالمَ جزيـرة غابريـال، أجمـاتِ الدّيـداء، وصـدوعَ الحجـر الأسـود، وجـذوع الكزورينـة. أنـا أيضـاً لم آخـذ معـي أيّ متـاع. بـل لم يعـد لي حـذاءٌ حتّـى. كنـزي الوحيـد هـو المفكّـرة السـوداء الصغـيرة ذات الشّريـط الأحمـر، حيـث روى جـون آخـر أيّـام حياتـه: بحثَـه عـن نبتـة النّيلـة الجنوبيّـة، وحلمَـه بعـالمٍ أفضـل حيـث النباتـات ستُشـفي الإنسـانيّة مـن كلّ جروحهـا. وحتّـى لا أُضيّعَـه، خبّأتُـه تحـت حجرٍ مسـطّح عنـد مدخـل خليـج باليسـاد.

ركضـتْ سـوريا بـين القبـور، قافـزةً فـوق الشّـجيرات الشـائكة. إنّهـا أرشـقُ منّـي، لكنّهـا كانـت تلعـب عـلى أيّ حـال، فـلا أكاد أقـترب منهـا لأمسـكَ بهـا، حتّـى تصيـحَ قافـزةً أبعـد فأبعـد.

هبطنا لاهيَين هكذا، حتّى بلغنا الشاطئ مروراً ببيوت الكرنتينة. كنا نركضُ في حُمرةِ الشّفقِ لاهثَين والقلبُ يخفقُ بقوّة. وقد نسينا خطرَ المركبِ وهدير المحرّكات، والبحّارةَ المسلّحين على متن الزّورق.

ومن وراء الصّهاريج، حيث لا تكاد تُلمح جدرانُ البيوت السّوداءُ، عبرنا أطلالاً متناثرةً بين أجمات الدّيداء. وركضنا نحو طرف اليابسةِ، إلى النّقطةِ التي لا شيء فيها سوى الريح المُسْكِرة. هنا، لا ينقطع أبداً خيط دخان المحارق. هنا، لا وجود للذّاكرة أبداً.

ووصلنا إلى صخرة بيجن هاوس حيث تلتقي الطيور جميعها محدثَةً ضجيجاً كالذي يصدر عن مشغلِ حدادة. إنّه عيد البحر الذي لا يتغيّب عنه أحد: المكاو والنورس، وبلشون القطعان، وخطّاف البحر، وزُمّجُ الماء الكبير، والأطْيَش، والفرقاط أحمرُ الجِراب. كانت السّماء باهرةً، وعجاج البحر يتلألأ بألوان قوس قزح. وفي الماءِ كانت ترتفع أعمدةُ الرّذاذ التي تنفثها الدّلافين.

ومن بِركةٍ معتمةٍ بين الشّعاب المرجانيّة، اصطادت سوريا آخر وجبةٍ لنا على الجزيرة، بعض قنافذ البحر ذات اللّون المائل إلى البنفسجيّ، وحلزون البحر، وحتّى محارةً منسيّة. كانت قد تركتْ حربتها في المقبرة، فلجأت إلى حصاةٍ حادّةٍ فتحت بها الصدفةَ كي تستخرج منها ثمرتها المُرجانيّة اللّون.

كانت تتقدّمُ بلا وَجَلٍ وسْط عجاج البحر، وتُرشدني عبر الصخور، كأنّها تخمّن كلّ موجةٍ آتيةٍ وكلّ ارتداد. «سأريكَ كيف تصبح صياداً. سنشتري زورقاً في ماهيبورغ. خرجَت من الماء ضاحكةً، وثوبُها الطويل ملتصقٌ بجسدها، وشعرُها مثقلٌ بالملح. وقد ذقتُ

البحر على شفتَيها وكتفِها. «سننطلق للصّيد في جميع الجُزر، وسنذهب حتّى إلى سان براندون، حيث لا يُسمح للنّساء بالذهاب، سأرتدي زيّ رجل وننطلق إليها معاً». بدت كأنّما ترقص على الشّعاب المرجانيّة، ثمِلةً بموج البحر الآخذ في الارتفاع، وبالرّياح، وبكلّ هذا الضّوء الذهبيّ الذي يحيط بنا، وحيث تمتدّ البحيرة أمامنا، صقيلةً عصيّةً على الاختراق مثل مرآة. إنّني لم أشعر يوماً بهذا القدر من الحريّة. ما عاد لي ذاكرةٌ. ما عاد ليَ اسم.

أقبل اللّيل وئيداً. وبعد أنْ فرغنا من تناول المحار وقنافذ البحر، نزلْنا إلى مياه البحيرة، للمرّة الأخيرة. كانت ناعمةً وخفيفةً مثل دخان، منسابةً مثل سيل، وقد بثّ المدُّ الحياة فيها، فجلب إليها أسماك إبرة البحر، وأسراباً أخرى من السّمك. استلقينا على لسان الرّمل الطويل الذي يمتدّ منعطفاً صوب جزيرة غابريال، قريباً من الشّعاب المرجانيّة، كي نصغيَ في عتمةِ اللّيل إلى الأمواج المتكسّرة خلفنا، ونحسّ بعضعَضة سمكِ الرّمل.

ولّما خرجنا كان الجوّ أقرب إلى البرودة. مشينا في قلب اللّيل صوب بلدة المنبوذين، تحت سماءٍ مرصّعةٍ بالنجوم.

بدا لي أنّني لم أعرفْ شيئاً في العالم مثلما عرفتُ هذا الدّرب الممتدّ من الكرنتينةِ إلى خليج باليساد، هذا الدّربَ الذي حفرتُه وصرتُ أسلكه كلّ ليلة عبر المنطقة المحظورة التي اصطنعها فيران والسّردار.

كمْ مرّ بنا من أشياء. وكمْ من الأشياء تفكّك وأعيد بناؤها على نحوٍ مختلف، مشاعرنا وأفكارنا، وحتّى الطريقة التي ننظر بها ونتحدّث ونمشي وننام. مِنّا مَن ماتَوا، ومِنّا مَن فقدوا صوابهم. ولن

نعـودَ مـن كنّاهـم أبـداً.

يـد سـوريا في يـدي، راحتهـا دافئـةٌ نابضـةٌ بالحيـاة. أرى قسـماتِ وجههـا بمشـقّةٍ في غبشِ العتمـة، لكنّنـي اتنشّـقُ عطرهـا الحـاذقَ والحُلـوَ قليـلاً مثـل أريـج الحشـف، فيـما نسـير عـلى طـول الـدّرب الضيّـق تدفعنـا هبّـاتٌ مـن ريـح الصابيـات.

بلغنـا حافـة التّلعـةِ حيـث اعتـدتُ الوقـوفَ لأتأمّـلَ بيـت أنانتـا. كان حـيّ المنبوذيـن خاليـاً مهجـوراً في تلـك اللّحظـةِ. لكنّنـا حـينَ دنوْنـا مـن بلـدة العـمّال، سـمعنا جلبـةً، وأخـذت الـكلاب تنبـح علينـا في الطرقـات المهجـورة، وتحـوم خلفنـا مُزمجـرةً.

كان خليـج باليسـاد فاتنـاً: النّـار مشـتعلةٌ في كلّ مـكان عـلى الشـاطئ، حتّـى عـلى سـفح الـبركان. خمسـون موْقـداً أو سـتّون تخـترقُ اللّيـل بلهبهـا الأحمـر. وللمـرّة الأولى يُرفَـع حظـر التجـوّل. فقـد ألغـى الشّـيخ حسـين في تلـك اللّيلـة القانـون الـذي فرضـه حـزب النظـام ورئيـس الحكومـةِ الجماعيّة في موريشـيوس. ولم يكـن أمامـه عـلى كلّ حـالٍ إلّا أنْ يفعـل. فمنـذ عـودة المركـب الشراعـيّ، لمْ يعـد الـسّردار، بـل صـار مهاجـراً مـن بـين آخريـن. وهـو بنفسـه قـد أراد ذلـك. فحـين غـادر المركـبُ الشراعـيّ، وضـع عصـاه مـن خشـب الكزورينـة عـلى الشـاطئ، وجلـس مـع الآخريـن المتحلّقـين حـول راماسـامي، مُرسـلاً نظـره نحـو البحـر مثـل جنـديٍّ مهـزوم. هـا هـو الرّجـل الـذي كرهـتُ، مَـن يخافـه الجميـع، ومـن حكـم علينـا بالمنفـى وأسـلمنا للجـوع، يحـرّك مشـاعري فجـأةً. فحـينَ رأيتـه عـلى الشـاطئ، تذكّـرتُ مـا كان يرويـه جـاكْ عـن التمـرّد العظيـم في الهنـد، عـن السـيبوي أنصـار نانـا صاحـب الذيـن هزمهـم الإنجليـز، وعـن سـيرِهم في طوابـير

طويلـةٍ بـين الأنقـاض، وخطـر لي السّـجناءُ المكبّلـون بالسلاسـل والمحمولون علـى متـن القـوارب مـن أجـل إرسـالهم إلى موريشـيوس للعمـل في بنـاء السـكك الحديديّـة والطـرق. هكـذا، فقـد اسـتعاد الشّـيخ حسـين قوّتـه ومجـده هنيهـةً مـن الزّمـن صـار أثناءهـا حاكـماً لهـذه الجزيـرة الواقعـةِ في آخر العـالم. والآن، عـاد ليصـير لا أحـد، وسـينضم قريبـاً إلى حشـد العـمّال عـلى أرصفـة بـور لويـس، في معسـكر بـاودرز مِـل[1]، حيـث سـيدوِّن مراقبـو المـزارع اسـمه في قوائمهـم، ويلتقطـون صـورةً لـه ويمنحونـه بطاقـة عامـل.

اللّيـلُ ثمـلٌ تحـت هـذه السـماء، وبهـذه النـيران المشـتعلةِ عـلى الشـاطئ. قادتنـي سـوريافاتي إلى مكاننـا، حيـث منصّـةُ المحـارق. كانـت الريّـح تهـبّ جالبـةً عبـق المحيـط وهديـره. تناولَـت جمـرةً، حملَتْهـا في كفّيهـا مثـل جوهـرة، وأضرمنـا سريعـاً النـار بأغصـان الكزورينـة وأوراقهـا الإبريّـة. فانبعـث أريـج خشـب الصنـدل وراتنـج البلَسـان فـوق الخليـج، وحجبـت سـحابةُ الدّخـان الرقيقـةُ النجـوم.

أخـذ الجميـع يراقبـون ويتأمّلـون رغـم تعـبِ الأمـس. امتـدّ خـطّ النيران في كلّ اتجـاهٍ راسـماً منحنـى خليـج باليسـاد الطويـل، فبـدا أشـبه بقريـةٍ أمـام البحـر. كان وجـه سـوريا في وهـج النـار قناعـاً عتيقـاً تحفـره الظّـلال ويزيّنـه قوسـا حاجبـين بديعـان. كان شيءٌ أشـبهُ بالشـوقِ، والرغبـةِ، يرفـرف مـن حولنـا، وكأنّنـا بدأنـا احتفـالاً كبـيراً. وتناهـت إلينـا الأصـوات: همهـماتٌ وضحـكاتٌ تختلـط بهديـر المـوج، ووشوشـةِ الريـح، وطقطقـةِ الأغصـان

(1) Powder's Mill: أحد مصانع السّكر القديمة في موريشيوس بين القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. وقد أنشئ إلى جانبه معسكر للعبيد الذين جُلبوا للعمل فيه.

حينَ تلسعها النيران. وسرعانَ ما تشكّلت حلقاتٌ من عائلاتٍ وأصدقاء، وأخذوا يدّخنون أو يروون قصاصاً من الماضي. ومن حينٍ إلى حينٍ كان لحن أغنيةٍ يرتفع فيغطّي على أحاديث الناسِ، صوتٌ صافٍ يعلو ويهبط مثل موسيقى ناي، أو أنينٍ طويل، حتّى أنّني لمحتُ، في وهج النار، طيفاً يرقص على الشاطئ، جسداً مرناً كأنّه جسد صبيّ، وسمعتُ أياديَ تصفّقُ بإيقاع مضبوطٍ متسارع. إنّها النشوة تتصاعد وتعبر فوق الخليج مثل هبّة أنفاسٍ آخذةٍ في التمّدد، ثمّ تخبو، ثمّ تولد من جديد. فقد أوشكَ الانتظار الطويل على نهايته، غداً أو بعد غد سيبدأ المهاجرون عملهم، سيُفتَح بحر الحقول أمامهم، وسيتقدّمون تحت الشمس وسكاكينُهم الطويلةُ في أيديهم، سيحسّون بغبار الترّاب الأحمر تحت أقدامهم الحافية، ويستنشقون أريج القصب النفاذ. أجل، إنّها شوقٌ ورغبة. أستلقي وأذني إلى الأرض فأسمع الاهتزاز ذاته. أعرفه الآن جيّداً، كنت أحسّه كلّ ليلةٍ على جزيرة غابريال، مثلَ نبضِ حياةٍ أزليّ يخفقُ أقربَ ما يكون من سطح العالم، عند شفةِ البركانِ وحَدِّ البحر. إنّها الرّغبةُ بعينها التي تختلج في أجساد الناس هذه اللّيلة، وتبقيهم يقظين. كما في تلك اللّيلة التي أُشعلت فيها جميع المحارق معاً إرضاءً للرّب ياما. وهي أيضاً ما يختلج في أجساد الطيور، في قلب أوْكارها، وفي بصرها الذي لا ينخفض، وعينها التي لا ترمش.

وضعَت سوريا أذنها على الرّصيف البازلتيّ: «أصغِ؟ أتسمع ذلك؟» لم تصفْ ما سمعَت. لكنني متيقّنٌ من أنّه الاهتزاز ذاته. خلعت وشاحها، فلمحتُ بريقَ عينَيها ولمعةَ أسنانها في ضوء الجمر. ابتسمَت وشرعَت ترقص من أجلي طوال اللّيل، بإيقاعٍ بطيءٍ أوّلاً

ثمّ متسارع. كانت تدور وتدور حول نفسها باسطةً ذراعَيها وممسكةً بطرفَي شالها، والنارُ ترقصُ من خلفها وتلفّها بدخانها، والرّماد يحطّ على شعرها وكتفَيها. ولمحتُ ماسةَ السّماءِ، نجمةَ الرّب شوكرا، تتلألأ من فوقها، وتميلُ وئيدةً نحو الغرب. كانت ترقصُ من أجلهِ أيضاً، ومن أجله تتّقد النيران في خليج باليساد. تعاظمت موجةُ الانتشاء لتصير لُجةً عارمةً منبثقةً من أعماق البحر إلى جزيرتنا، حاملةً إيّانا إلى الطرف الآخر، إلى الأرض التي تنتظرنا.

خبت النيران فجثَت سوريا على الأرض تقلّب الجمر بيدَيها، وتضيف بعض الأغصان.

وتوهّجَ الخليج بأكمله في عتمة اللّيل. ولا بدّ أنّهم على الطرف الآخر، هنالك في كاب مالورو، وغران بيه، وغران غوب، يروْن هذه الأضواء تَلوح في الأفق مُحَدّثةً عنّا وعن انتظارنا وتوْقِنا. فها هم أصدقاءُ مجهولون يشعلون النيران في موضعٍ ما من تلك الشطآن، تجاوباً معنا.

أيّ ليلٍ جميلٍ بلا نهاية! حيث نحن على حافة الأرض، في نهاية العالم. ننساب مبحرين على طوْفنا البازلتيّ رويداً رويداً، نحو حياةٍ جديدة، إلى حضن أمّنا. فنحن أبناءُ الحلم، أحرارٌ أخيراً، وقد سقطت أغلالُنا.

في عتمةِ اللّيل أناسٌ يتمشّون على طول الشاطئ، ورجالٌ يطوفون عليهم بفناجين وإبريقٍ نحاسيّ كبيرٍ من الشاي الأسود. وقد شرب الجميع، كلٌّ بدوره.

شربَت سوريا أولاً، ثمّ ناولتني الفنجان نصف الممتلئ. الشاي مرّ وفاتر، لكنّني لم أذق يوماً ألذّ منه شراباً. كان الرّجل الذي يوزّعه ناحلاً طويل القامة، ووجهه نصف مخفيٍّ بعمامته المهترئة. لمحتُ إلى جانبه أوكا، الكنّاس المنبوذ. وكان يمدّ فناجين الشاي إلى رجال آخرين بالقرب منّا. وسمعتُ أصواتاً تناديه، وضحكات. في تلك اللّيلة اختفت الحواجز، أصبح الناس كلّهم متشابهين، محمومين منتشين بالشّمس والريح، عيونهم متّقدةٌ وأجسادهم معفّرةٌ بالرّماد، كالحجر الذي يتوسّدونه، ويتحدّثون جميعاً اللّغة ذاتها، اللّغة المحفورةَ في القلب، ولا تحتاج إلى شفاه.

أيّ ليلٍ مديدٍ متلألئ، عاجٍّ بالأنغام والدّخان!

استلقَت سوريا إلى جانبي فشعرتُ بأنفاسها الهادئة ودفء جسدها. وفي لحظةٍ ما نهضتُ وذهبتُ لأمشيَ على الشّاطئ وسْط النيران. كان بعضُ الناس يلتفتون نحوي، رأيت وجوهاً، واستجوبتني كلماتٌ، ولمستني أياد. كان السّواد يغشى المزارع فوق الخليج، وسعفُ النخيل يتماوج مع الرّيح فيبلغني حفيفُه. لم أرَ البركان، فهذه أوّلُ مرّةٍ لا تُرى فيها نارٌ عند فوّهته حيث كان فيران يداوم على الحراسة. كانت ليلةً رائقةً بلا عدوٍّ ولا خوف. سمعتُ جلبة الأصواتِ على الشّاطئ مصحوبةً بالأنغام، واستنشقتُ رائحة النار. سنرحل غداً، وستعود الجزيرة إلى حالتها الطبيعيّة. في الدّغل حول باليساد، كانتْ تُسمَع زمجرةٌ، وعدْوٌ. إنّها الكلاب وقد عادت إلى توحشّها بعد أنْ هجرَ معظمُ الناس الجزيرة، ومضت تتسكّع وتطارد الجديانَ في حقل الحجارة. وعمّا قريب سيدخل خليجُ باليساد ضِمن مملكتها.

أيّ ليلٍ عتيقٍ كأنّه البدايات! كانت ألسنةُ اللّهب تضيء خفيفاً الأكواخ المشتركة حيث أمضينا أوّل ليلةٍ لنا في العاصفة. وقد بات هذا كلّه بعيداً جدّاً، وغامضاً مثل حلم.

وجدتُ في جيبي قطعة الحديد الصّدئ التي أهدانيها شوتو حين دخلتُ قرية المنبوذين أوّل مرّة. لا أعرف لماذا احتفظتُ بها كأنّها تعويذة. لقد بات كلّ ما عشتُه من قبلُ يبدو لي غير واقعيّ، أسطورةً، أو إشاعةً تتبدّد. أمّا الآن، فَلي يقينُ هؤلاء الناس الجالسين على الشاطئ، وبي ما بهم من سعادة، وعلى كلّ شيءٍ أنْ يكون جديداً.

أيّ ليلٍ لا ينتهي! حيث كلّ لحظةٍ تغرق في الأخرى كما لو أنّ النّهار ينبغي له ألّا يطلعَ أبداً. تتضاءل ألسنة اللّهب، تنوسُ ثمّ تشبّ ثانية، ويتوهّج لونها الأخضر المائيّ قرب الجمر، باثّةً حلقاتٍ من الدّخان. وإلى الأبعدِ قليلاً، على طول الشاطئ، نيرانٌ تشتعلُ وأخرى تنطفئ. وبين هذه وتلك أطيافُ رجالٍ ونساءٍ تروح وتجيء من موقدٍ إلى آخر. تلاشى الصوت الشّادي للحظةٍ، ثمّ عادَ يترنّمُ بالشكوى ذاتها. كانت النجّوم تدور ببطءٍ فوقنا. لمحتُ الشُّعرى اليمانيّة قريباً من الأفق، وقد أفِلَت نجمةُ الرّب شوكرا. أتذكّر ونحن في الكهف حينَ رسمت سوريا على جلدي بالرّماد نجمة بنات نعش الكبرى[1] التي يراها المرء على مستوى الأفق، وقد أخبرتني أيضاً عن «جنات»[2]، وعن الباياسا،

(1) تسمّى في الهنديّة ساباتاريشي، أيْ نجمة الحكماء السّبعة.

(2) Jinnats: أجسامٌ سماويّة يفترض أنّها غير مرئيّة للبشر، تعدّ حاميةً للعائلات ورؤوفاً بها وفقاً للمعتقدات الهندوسيّة.

طبقِ الخالدين: أو الأرزَ بالحليب. في تلك اللّيلة كنّا نحن من صنعَ كوكباتٍ على الشاطئ، لكأنّنا قلبنا الكون رأساً على عقب، ثمّ أخذنا ننساب رويداً، وبلا وِجهةٍ، على طوْف الحمم البركانية، بعيونٍ متحرّقةٍ من فرطِ ما طالعَت المستقبل في ألسنة اللّهب. أين هم الآن من أبحروا على المركب الشراعيّ هذا اليوم؟ أتراهم ينامون في مخيّمهم، هناك على الطرف الآخر؟ أم يجلسون في مقرّ الإدارة، تحت شجرهِ العملاق الخانق الذي حدّثني عنه جاك، أم على أرصفةِ الميناء، أم في أكواخ القشّ في باوْدرز مِل، متكدّسين مثل طيورٍ حبيسة، تلفحهُم الرّياح وتلوحّهم الشمس، وأثر الصّخور السّوداء مطبوعٌ على أجسادهم؟

لا أعرف أين هم، أمّا نحن على جزيرة بلات، فقد عشنا بصحبة الموتى، رمادُ المحارق في أفواهنا، منثوراً على ملابسنا وشعرنا. وهذي العينُ التي لا يُطبقُ لها جفنٌ ولا تتوقّف أبداً عن اختراقنا بنظرتها الغريبة الممتزجة بالضوء، نظرةِ الطيور التي تمسح الأفق، وعينُ الريح على الصخور، وحديثُ الرّيح والبحر، ورعشةُ الموج الطويلةُ التي تولَد في الطّرف الآخر من المحيط، وهذا الاهتزاز الذي لا يتوقّف.

التحقَت بي سورياڤاتي عند نهاية الشاطئ. عانقتَني فشعرتُ بدفء أنفاسها في اللّيل. عدنا متهاديَين إلى مكاننا على المنصّة. وجاء أناس آخرون وجلسوا قرب نارنا، زوجان مهاجران. المرأة فتاةٌ في مُقتبل العمر، تكاد تكون طفلة. كانت عيناها تتقدّانِ ببريق معدنيٍّ في وهج الجمر. وحين وقفَت لحظةَ وصولنا، رأيت أنّها حامل، وستضع حملها عمّا قريب. كانت سوريا تعاملها بلطفٍ شديد، تتحدّثُ إليها، وتناولها الشاي، وتُعينها على الجلوس إلى الأرض، في الموضع الألطف جوّاً،

حيث مجرى الريح.

وكانت سوريا تحدّثني أنا أيضاً، ربّما بصوتٍ داخليّ، أشبهَ بوشوشةٍ، أو تهويدة. كانت تقصُّ عليّ حكايات طفولتها التي كانت تحكيها لها أنانتا، وأسطورةَ الملكة لاكشميباي.

استلقيتُ بدوري على الأرض أتأمّل النّار والسّماء السوداء حيث تحوم الخفافيش. لم تعد تراودني رغبة في الانتقام. فكلّ ما قسا وتصلّب فيّ من ذكرياتٍ وأحلامٍ خلال أعوام الانتظار في نزل لوبير، في روي ماليزون، حتّى باتَ كحجارةٍ في صدري، ها هو يتفتّت الآن ويتلاشى.

أيّ ليلٍ طويلٍ ينضاف إلى كلّ الليّالي، إلى توالي الأيام على الجُزر الحجريّة، وتتابع الأمواج في عرض البحر، وأنا آخذٌ في الابتعاد عن تلك النّار التي كانت تحرّقني وتحصّن قلبي.

حين غادر جاك روي ماليزون متوجهاً إلى إنجلترا، ظننتُ أنّني سأموت بسبب ذلك، ولمّا رأيته مرّةً أخرى في الصيف التّالي، لم أعرفه بذلك الوجه الغريب، وجهِ شابٍّ راشدٍ، وتلك النّظارات الصغيرة ذات الإطار الفولاذيّ التي ينظر من خلالها إلى العالم كمن ينظرُ من عدسةٍ مكبّرة. أردتُ أن أموت في تلكَ اللّيلة، لحظةَ غادرتُ المهجع بمنامتي، ومشيت بين أكوام الثّلج في فناء المدرسة، ثمّ تسمّرتُ أمام السّور إلى أنْ سقطتُ أرضاً، وكان فليشو يناديني فزعاً. كنت أسمع وشوشةَ البحر الخفيفةَ من عزبة آنّا، وهديرَ الأمواج الذي عَبَرَ اليابسة كلّها وبلاط الساحةِ حتّى وصلَ إليّ، كي يحملَني ويعيدَني.

لم يعد عندي أدنى رغبةٍ في الانتقام. فما همّني ألكسندر أرشمبو؟ ما همّني ما سيفعله بي كبارُ العائلةِ، الأعضاء البارزون في الحكومةِ الجماعيّة

بشعارهم المتغطرس «**نظام، قوّة، تقدُّم**»؟ الآن فهمت: ما كان لهم أنْ يحتلّوا حياتيَ أكثر من ذلك. فها هي الرّياح الآتية من الطّرف الآخر من الأرض تهبّ عليهم وتمحوهم، وهدير المحيط يغطّي على أصواتهم. فالحقيقة بسيطةٌ وجميلة، إنّها في الضوء المتلألئ على رصيف البازلت، وفي عظمةِ البحر، وفي هذا اللّيل المُضاء على طول خليج باليساد مثل مرآةٍ للمطلق. الحقيقيّ هو وجه هذه السيّدة، وجهها العتيق الشديدُ العذوبة، ولطف إيماءات الرّجل الذي إلى جانبها، وطفلهما الذي سيولد قريباً؛ هو حبّ سوريا، وأنفاسُها الهادئة على صدري، والدّمُ النّابضُ في صدرها، وطعمُ الرّماد على شعرها وشفتيها، وصوتُها حين تنطق اسمي، حميماً هادئاً مثل أغنية، بْهايْ، أخي؛ هو **يامونا** التي تحملها بداخلها- النهر الذي وُلدت فيه أنانتا- وشقيقها ياما ابن الشمس، مَن تضَع علامته على جبينها بقطرةٍ من خشب الصندل كأنّها عينْ الذاكرة. وهذه الأغنية التي تُدندِنها الآن قبل أن تغفوَ، لي أو للطّفل الذي تحمله في رحمها، وعيناها مفتوحتان في ضوء النّار إذ تخبو رويداً رويداً: **لابي** أغنية **كالا** الذي دخل البيت بهدوء، وخلع نعلَيه وأشعل قنديله وقال لمساعده هامساً: **ليتارا**، راقبْ ولا تنسَ رميَ كرة الطين إذا استشعرت خطراً... **كاجا شاما**، أحد الزُّط يراقبك! **ثيب جا**! اختبئ! **لابي لوغ غايا**! **شورم**! **كالا لوغ غايا**، سرِقتُكَ انتهت، ومات اللّصّ!

خبَت نارُنا ولم تعد سوى كومةٍ من جمْرٍ أحمر. وسادت سكينةٌ عظيمةٌ على الشاطئ كأنّها الهدوءُ بعد العاصفة. وكان البحر ينساب مَهيباً.

عـاد البعـوض بعـد أنْ تلاشـى الدّخـان. تدثّـرت سـوريا بشـالها الأحمـر الكبـير، وأخـذ الشّـابُّ الهنـديّ الجالـس عـلى الطـرف الآخـر مـن الجمـر يُهَـويّ عـلى زوجتـه أثنـاء نومهـا بطـرف قميصـه.

تمـدّدتُ ملتصقـاً بسـوريا كـي أشـعر بـدفء جسـدها وبأنفاسـها في تجويـف كتفـي، وانسـبنا معـاً عـبر البحـر حتّـى آخـر الزمـن. إنّنـي لم أعِـش ليـلاً قبـلَ هـذا اللّيـلِ. كان ليـلاً أطـول مـن عمـري كلّـه، وكلّ مـا كان قبلـه لم يكـن سـوى حلـم.

مكتبة
t.me/soramnqraa

لقـدَ رحَلتـا، ولسـوف تختفيـان. أودّ أن أراهمـا وأسـتبقيهما لحظةً أخرى، كما همـا، أنانتا وجيريبالا، جالسـتَين على رصيف الميناء، بين جذور الأشـجار العظيمـة في مقـرّ إدارة المـؤن، ومن حولهـا كثيرٌ من المهاجريـن، بعضهـم جالـسٌ في الظّـلّ وصررهـم أمامهـم، وآخـرون يروحون ويجيئون في ملابسـهم الغريبـة، وفي ملامحهـم علامات الترقّـب والخوف، والنسـاء يرتدين السـاري الـورديّ، وأسـاورَ كبيرةً مـن نحـاسٍ، وخلاخـل، والزّمـامُ يـبرق في فتحـة أنوفهـنّ مثـل قطـرةٍ من ذهـب. والرّجـال نحيلون لوّحتهـم الشـمس، وجوههـم أعتمتهـا اللّحـى، وعيونهـم تلمع مثـل بلّـورات الغالينا[1].

عـلى الأرصفـة، تحـت أشّـعة الشّـمس، ينتظـر الـسّردارات لحظـةَ الرّحيـل، مرتديـن سـتراتٍ عسـكريّةً إنجليزيّـةً مسـتعملةً وعمائـم، وفي أيديهـم عـصيّ الأبنـوس الطويلـة.

في وقـتٍ مبكّـرٍ مـن صبـاح ذلـك اليـوم، جمّـعَ وكيـل شركـة بـيرد وشركاه- واسـمه لينـدزاي، وكان يرتـدي بذلـة سـوداء مثاليّـةً وقبعـة «هِلمـت»-، جمّـعَ العـمّال حسـب أسـماء مصانـع السّـكّر في سـهول فيلهلـم، ومـوكا، وريفيـير

(1) معدن كبريتيد الرّصاص الثنائيّ، الذي يتبلور في أشكالٍ ثُمانيّة الأسطح.

نـوار. ذهبَتْ أنانتـا وجيريبـالا للجلـوس تحـت الأشـجار مـع المهاجريـن إلى مـوكا، فيـما توجّهَـت مـاني مـع ابنهـا إلى الطّـرف الآخـر مـن رصيـف الميـنـاء. وكانـت الخيـول مربوطـةً عـلى طـول الطريـق اسـتعداداً للرّحيـل الوشـيك.

لم تـترك أنانتـا يـد جيريبـالا، كانـت تشـدّ عليهـا بقـوّة، كـما في اليـوم الـذي عبرتـا فيـه السـلّم للصّعـود إلى القـارب في بهوانيبـور. أرادت أنْ تتحـدّث، وتسـأل والدتهـا، لكـنّ صدرَهـا كان منقبضـاً. وكان صمـتٌ هائـلٌ يخيّـمُ فـوق المرفـأ كأنّ شـيئاً مـا عـلى وشـك الحـدوث. حتّـى الطيـور عـلى الأشـجار قـد كفّـت عـن التغريـد.

بـدأ الرّحيـل أخـيراً عنـد السّـاعة العـاشرة صباحـاً. غـادرت فِـرقُ العـمال أوّلاً سـيراً عـلى الأقـدام باتجـاه **غرانـد ريفيـير أو كامـب بينـوا أو بـو باسـان**. اصطفّـوا أزواجـاً مثـل السـجناء، حفـاةً في معظمهـم، ورؤوسـهم ملتفّـةٌ بقطعـةِ قـماش، يعلّقـون أمتعتهـم عـلى أكتافهـم.

ثـمّ نـادى الوكيـل مـن أجـل الانطـلاق إلى **ريفيـير نـوار**. لمحـت أنانتـا طيـف مـاني النّحيـل في البعيـد. وتقدّمـت مـع الآخريـن، وصعـدَت دون أن تنظـر إلى الـوراء، وشرع الحـوذيّ يسـوط

الخيـول فابتعـدت العربـة عـلى طـول الطريـق وتـوارت خلـف البيـوت. ومـا هـي إلّا لحظـاتٌ حتّـى نـودي اسـمُ ألمـا، فانضّمـت جيريبـالا وأنانتـا إلى المهاجريـن الذيـن سيسـتقلّون العربـة المتّجهـةَ إلى هنـاك. جلسَـت جيريبـالا في آخـر مقعـدٍ وأنانتـا عنـد قدميهـا. وانطلقـت العربـات واحـدةً تلـو الأخـرى تجرّهـا الخيـول المُنهَكـة، وعجلاتُهـا تـصِر عـلى الرصيـف. كان الحـرّ شـديداً حتّـى في ذلـك الوقـت المبكّـر، فأخـذت النسـاء يروّحـن عـلى أنفسـهن بسـعف نخيـل الرّافيَـة. وكان الغبـار يتسـلّل إلى الداخـل عـبر السّـتارة المشـمّعة، رماديّـاً في البدايـةِ، ثـمّ صـار أحمـرَ مـا إنْ غـادرت العربـاتُ المدينـة مجتـازةً الحقـول نحـو جبـل سـينيو في بـور لويـس.

التفّت جيريبالا بشالها، لكنّ أنانتا لم تستطع إلّا أنْ تنظر عبر فتحةِ السّتارة لترى بيوتَ المدينة التي كانـت ملامُحها تختفي فـي سحابة الغبار، وحـوضَ الميناءِ الأزرق الكبير حيـث ما زالـت تُلمَح صواري السفن. كان هذا كلّه يمضي بعيداً، وبات ينتمي سلفاً إلى عالمٍ آخر.

كان الغبـار في قريـة بـاْيْ يتسـلّل إلى العربـة بقـوّةٍ، حتّـى أنّ الصغـيرة بـدأت تسـعل، لكنّهـا

دفعت بعيداً يد أمّها التي حاولت أنْ تحميَها تحت شالها، فقد أرادت أن ترى كلّ تفصيل على الطريقِ، كلّ كوخ وغيْضة. كانت صخرةُ جبل أوري الداكنة تُلمَحُ من كثب، ونصفها متوارٍ في العتمة. وعلى الجانب الآخر، تمتدّ الوديان الحمراء التي تنحدر صوب نهر موكا، والتّلالُ الكثيفة، والحدائق، وبوّابات المستعمرات الزراعيّة الكبيرة: **باغاتيل، وبوكاج، وأوريكا**. ثمّ ينعطف الطريق دائراً حول الجبل، حيث يقلّ الغبار. وكانت تهبُّ أحياناً نسمةٌ عليلة، وتَسمع أنانتا خرير المياه المتدفّقة بين الصّخور السوداء، وتشاهد تحليقَ الفراشات وطيور الشحرور، وطيوراً أخرى حمراء.

توقّفت العربات عند معبر سوياك حيث فكّ الحوذيّون الخيول لسقيِها، فاستغلّ المهاجرون الفرصة للنّزول وإراحة سيقانهم. ابتعدت النساء خلف الدّغل لقضاء حاجتهنّ، وجلس الرّجال على ضفّة النّهر المحفوفةِ بأشجارٍ يُلمحُ من بينها الماء الذي بلون السّماء، ومنها أشجار المانجا. وقد أخذ الأطفال يرشقونها بالحجارة على أمل أنْ

يسقطوا ثمارها. لكنّ النساء صحنَ عليهم في قلق. إذ ما زالت تُتَناقل أسطورةُ الهاربَين، راسيتاتتان وسكالافو العظيم اللّذين فرّا إلى الجبال في مرتفعات بوس، أو في مضائق نهر بروفوند، وصارا يهاجمان قوافل العمّال، ويخطفان الأطفال.

وحين همّوا بربطِ الخيولِ ثانيةً، دقّت بحوافرها الأرض مُتململِةً. ثمّ انطلقت مجموعةُ العربات مرّةً أخرى متدحرجةً على الممرّ البازلتيّ، وهبطت السّهل نحو حقول القصب الشّاسعة المتماوجة مع الرّيح، ونحو بيل روز وأغريمون، حيث أطيافُ مصانع السّكّر العاليةُ التي تبدو عائمةً وسْطَ البحر الزمرديّ مثل بواخرَ ضخمة، مون ديزير، وسيركونستاس، وبار لو دوك، وصولاً إلى أخفضِ بقعةٍ، قرب أحد السّدود، حيث عزبة ألما.

لا بدّ أنّها كانت الواحدة ظهراً عندما وصل الموكب قريباً من ألما. توقّفت العربات عند مفترق الطرق، وبدأ المهاجرون يسيرون تحت أشّعة الشمس نحو بوّابةِ العزبة. ثمّ استأنفت العربات طريقها وسط الغبار،

صـوب الأراضي الشرقيّـة، بـون فين، إسـبيرانس، وكامـب دو ماسـك.

سـار العـمّال بالترتيـب تحت قيـادةِ السـّردار. وكانـت سـيقان القصـب عاليـةً جـدّاً فلم تسـتطِع أنانتـا رؤيـة أيّ شيء آخـر، حتّـى وإنْ وثَبَـت. لكنّهـا لمحـتْ في نهايـة الحقـول قمّـة ميليـو متواريـةً في غيمـة. مشـت رافعـةَ رأسـها، والسـماءُ مـن فوقهـا جميلـةٌ شـديدة الزّرقـة، تتخلّلهـا هنـا وهنـاك غيـومٌ بيضـاء. وكانـت أوراق القصـب تلتمـع بضـوء الشّـمس، وفي الأجـواء تنتـشرُ رائحـةٌ قويّـة غريبـة، رائحـةُ عصـير القصـب العـذب، والأوراق المتخمّـرة.

وصلـت الجماعـة الصغـيرة أمـام مدينـةِ ألمـا، بـل هـي بالأحـرى قريـةٌ لفحتهـا الشّـمس، لا تجِـد فيهـا ركنـاً ظليـلاً، وبهـا بيـوتٌ متشـابهةٌ مـن جـدرانٍ مطليّـة بالجـير، وسـقوفٍ مـن ورق الشـجر. ولا أحـد كان في اسـتقبالهم. فـكلّ الرّجـال كانـوا يعملـون في الحقـول.

توقّـف المهاجـرون للحظـةٍ وكأنّهـم يـتردّدون في الدخـول. أمسـكَت أنانتـا بيـد جيريبـالا مـن جديـدٍ، وقـد انتابهـا القلـقُ ذاتـه الـذي شـعرت بـه يـوم الرّحيـل، يـوم اسـتقلّت القـارب الرماديّ

الكبير. كان كلبٌ يمشي في ساحة ألما متثاقلاً من الجوع. وعلى مبعدةٍ، كانت تنتصب شجرةٌ عملاقةٌ، تينةٌ مزيّنة بأكاليل، كأنّها إله.

دخلوا المدينة واحداً تلو الآخر مُقتفين طيفَ السّردار الطويل. وتناهى إلى أنانتا للمرّة الأولى من بعيدٍ صخب الطاحونة المدوّي محمولاً مع عصفاتِ الرّيح الحارّة، شبيهاً بهدير البحر على الشّعاب المرجانيّة.

لاحت بوادرُ الفجرِ على الطّرف الآخر من الجزيرة، بقعةُ نورٍ تخترقُ العتمَ في البدايةِ، وسرعان ما ظهرت الغيوم الرّماديّة الخفيفة، ريشاتٍ طويلةً ساكنةً، فوق الأرض التي غامت معالمها. وعادت كتلةُ البركان السوداء لتصبح مرئيّةً. نهضت سوريا لتتأمّلَ المشهد، وكانت ترتجف قليلاً. قالت بشيءٍ من الثّقةِ «إنّه مثل نهاية العالم». «عندما ينتهي العالم، سيكون هذا اللّون، ذلك أنّ الهواء سيترك الأرض ويذهب بعيداً جدّاً، صوب الشمس».

سِرنا على الشّاطئ بين الناس المستغرقين بعدُ في نومهم. كانت الحرائق قد خلّفت دوائر سوداء في الرمل، فنثرت الرّيحُ الرّماد على الأجساد النّائمة.

وكانت سوريافاتي تمشي أمامي حاثّةً الخطى لتكون أوّل الواصلين إلى النّبع عند سفح البركان. كانت صخور البازلت لا تزال باردةً، تتلألأ بذرّاتِ النّدى الناعمة. وحين بلغنا أوّل الأحواض، طارت الطيور بعيداً وسُمع حفيف ريشاتها القويّ: البلشون الأبيض والمكاو وطيورٌ صغيرةٌ أخرى مثل العصفور البنغاليّ. كان الماء بارداً، متشرّباً بعدُ باللّيل. غسلت سوريا وجهها وذراعَيها، وشربت طويلاً، ثمّ مرّرت يدها على شعرها لتنعّمه. وفي الأسفل، على حافة الشاطئ، كان رجالٌ يقفون قرب الجدول الذي يختلط بالبحر، يؤدّون صلاتهم. فيما أتى آخرون كي يملؤوا قِرب الماء من أجل الشاي. فغسلوا الأباريق والأكواب، وعادوا إلى النيران الموقدة حديثاً.

ولمّا طلع ضوءُ النهار، خِلتُ أنّني سمعت صوتَ انعكاسه على أوراق النبّات، وعلى الأرض، وفي موج البحر، كأنّه نفَسٌ عَظيم. وفي اللّحظة

ذاتها، سمعتُ صوت المؤذّن يتردّد في عمق الخليج، من مكان ما على الشاطئ. كان الصّوت يرتفع مرتعشاً قليلاً، فتُبعده الرّيح وتقرّبه، كأنّه أنينٌ متّصلٌ لطائرٍ يحلّقُ مدوّماً. ثمّ خيّم الصّمت من جديد.

وأُشعِلت النيران ثانيةً على طول الشاطئ. إذ وجدَ الرجال تحت الرّمادِ القديم جمراً متّقداً، فألقموه أعواداً جديدةً وطحالبَ جافّة. وعادت رائحة الدخان تنتشرُ فوق باليساد، وانهمكَ أحدهم في إعداد الأرزّ وفطائر الدولبوري، فملأت رائحة الطعام الخليج وحلّقت في السماء. إنّها لنْ تكون نهايةَ العالم إذن.

وصل المركب الشراعيّ، فأخذ المهاجرون يجتازون تباعاً جسر الحبال في البحر السّاجي، تحتَ سماءٍ صافية. كانت حُزمٌ كبيرةٌ من الضّوء تعبرُ أحياناً فوق البحر والزّبد، فتحرّق أكتافنا. وعند الساعةِ الحادية عشرة ظهرَ قاربٌ ثانٍ، مركبٌ قديمٌ بصاريينَ، وبحمولةِ مئة طنّ، أشرعته المربّعة الشكل منتفخةٌ في الرّيح الشرقيّة.

لم أستطع إلّا أنْ أفكّر في مركب **ليسبيرانس** الذي وصل على متنه جدّ جدّي إلياسان إلى إيل دو فرانس قبل مئة عام، بعد أن غادر مسقط رأسه في سان مالو وأتمّ رحلته حول رأس الرّجاء الصالح.

تقدّم القارب وئيداً، منحرفاً إلى اليسار، ثمّ أنزل أشرعته ورسا أمام القناة، إلى الخلف قليلاً من مركب **لودالوزي** البخاريّ. ولمحتُ على متنه البحّارة المسلّحين بالبنادق.

كنّا أنا وسوريا آخر من استقلّ المركب الشراعيّ. وفيما كنّا نصعد إلى مؤخرة الزّورق الذي سيحملنا إليه، التفتُّ لألقيَ نظرة على شاطئ

باليساد حيث ينتظر المائة عاملٍ المتبقّين المركبَ التّالي. وعلى مبعدةٍ يسيرةٍ، قرب الرّصيف غيرِ المكتمل، رأيت طيف الشّيخ حسين، بردائه الذي يرفرف في الريح، يقفُ بمهابةٍ مُصالباً ذراعيه. أغلب الظّنّ أنّه قرّر البقاء حتّى النهاية، وأنْ يكون آخر رجلٍ يغادر جزيرة بلات. صعد راماساومي قبلنا بمساعدة الشبّان. وفي الزّورق، تقاطعت نظراتنا، تفحّصني لثانية واحدة، كما لو كان يريد أن يخبرني أنّه عَرفني. كان التّعب قد نال من ملامحه، وبدا هزيلاً جدّاً، لكنّ نظرته كانت تُشعّ بالطّاقة نفسها، والابتسامةُ لا تفارقُ شفتَيه.

كانت سوريا متعبةً أيضاً. أسندت رأسها إلى كتفي، واستسلمت لترنّح الزورق. وقبل أن ننطلق في البحر، وضعَت حول عنقي كتعويذةٍ القلادةَ التي تحمل رقم التسجيل، وكانت جدّتها قد أعطتها لأنانتا قبل أن تغادرا بهوانيبور. الآن صار ليَ اسمٌ وعائلةٌ، وصار في وسعي دخول موريشيوس.

جلس المهاجرون تحت برجِ المركب الشراعيّ القديم المتهالك، محتمين من الرّيح، تلفّهم حلقات الدخان المنبعثة من المدخنة. وجدنا مكاناً بجوار الزوجَين الشابيّن اللّذين تقاسمنا معهما نارنا في تلك اللّيلة، فجلسنا هناك في صَمت. وسرعان ما تحرّك لودالوزي، دون إعطاء إشارةٍ، ودون رفع الأشرعة، وسط هدير محرّكاته القويّ. كانت زرقةُ البحر في ظلّ البركان من خلفنا داكنةً ضاربةً إلى البنفسجيّ. وقد عادَ خليجُ باليساد ليكون مجرّدَ تجويفٍ مكسوٍّ بالزّبد على طول السّاحل، حيث أشجار النخيل تتثنّى مع الرّيح. انعطف المركب الشراعيّ وئيداً، وفي الأمام مباشرةً، تحت مقدّمِه الذي يضرب الموْج، لاحت صخرة كوان دو مير، وخطّ موريشيوس الطويل، حيث الجبال الفاتنةُ محتجبةٌ خلف الغيوم.

آنّـــا

أغسطس 1980

كانت تمطرُ خفيفاً على الطّريق المؤدّية إلى روز بيل. توقّفت الحافلةُ وسط ازدحام مروريّ، فرأيْت زوجَين يسيران على قارعةِ الطّريق، بمحاذاة البيوت الخشبيّةٍ المتداعية التي تتسرّب من مزاريبها المياه. ولا أعرف لماذا جذبا انتباهي. لم يكن فيهما شيء استثنائيّ، عدا شبابهما ربّما. كانا هنديّين كلاهما، الرّجل ذو بشرة شديد السّمرة، يخطّ شفتَه شاربٌ أسودُ رفيع. وكلاهما يرتدي ثياب الفقراء، ثيابَ عمّال المزارع، وقد بلّلهما المطر النّاعم الذي ما برح يتساقطُ منذ ساعاتٍ. كانت المرأة تحمل طفلاً رضيعاً، يقارب عمره ثلاثة أشهر. وعلى الرغم من العتمة، لمحتُ رأسه الأصلع وعينَيه المتورّمتين من النّعاس. كانت أمّه تلفّه في شالها الكبير، لكنّ هبّةً من ريحٍ فتحت هذا الملاذ، فبلّل المطرُ الطّفل. وكانت الشّابةُ هي من استرعت انتباهي على وجه الخصوص. كانت فائقةَ الجمال على الرغم من فَقْرِ مظهرها، فوجهها لا يزال وجه فتاةٍ يافعةٍ، حيث العينان، في ظلّ الرّموش الكثيفةِ، وتحتَ قوسِ الحاجبينِ، تتّقدان ببريق الكهرمان. وتحت الشّال الباهت المزركش بكلّ الألوان، لمحتُ، في ثانيةٍ، شعرَها الأسود مفروقاً بخطٍّ صُبِغَ باللّون الأحمر. وكان في منتصف جبينها، أعلى الحاجبَين، قطرةٌ باللّون نفسه لم يمحُها المطر.

وما أذهلني فيها بالأخصّ مشيتُها التي تنمُّ عن قوّتها وثقتها. كانت الحافلة تشقّ طريقها ببطءٍ بمحاذاة البيوت، وكانت هي تسير بالإيقاعِ نفسه، يفصلها عنيّ الزّجاج الذي تسيل عليه قطرات المطر، والرّجل بجانبها في الظلّ. كانا يسيران معاً على حافة الطريق، متعثّرَين بالمواضع الوعرةِ فيها ومتجاوزَين عن برك الوحل. لم يكن أحدهما يلمس الآخر لكنّهما كانا يسيران جنباً إلى جنب بالخطوة ذاتها، على أنّها هي من توجّه السير.

كان الرّجل يحمل في يده اليمنى ما يشبه حقيبةً بلاستيكية بنّيةً، وقميصه ملطّخ بالطّين وملتصق بجسده، وكان ينتعل خُفّاً بلا جوارب. أمّا هي فترتدي شالها القديم وساريَها الأخضر المائيّ، وتنتعل صندلاً بلاستيكيّاً بكعب لم تُوثَق جميع أربطته (ربّما يكون الإبزيم مكسوراً)، منحنيةً قليلاً اتّقاء المطر، وضامّةً حِمْلها الثمين إلى صدرها، دون أنْ يخفيَ ذلك هيئتها الرّشيقة اللّينة، وحيويّة شبابها ومَلاحَته. وفي لحظةٍ ما، التفتتْ إلى الحافلة، فعبرتْ نظرتُها الثّاقبة زجاج النافذة واخترقتْني. وعلى الرّغم من هطول المطر وقطرات الماء المنهمرة على الزجاج، فقد انتابني شعورٌ بأنّها عنَتني حقّاً بتلك النظرة الشّفيفة التي لا تعرف الخوف. ثمّ انفتح تقاطُع روز بيل، وانطلقت الحافلة بعيداً. ولمّا التفتُّ، رأيت عبر المرآة الخلفيّة الزوجَين واقفَين على حافة الرّصيف الذي تضيئه واجهةُ متجرٍ صينيٍّ مليءٍ بآنيةِ الزّنك، وحيث لفّاتٌ من حبال اللّيف تتمايل مع الريح. كانا شديدَي اللّطف كلاهما، يقفانَ معاً باستقامةٍ على الرّصيف الضّيق في ضباب المطر، في ريعانِ شبابهما، متّحدَين جدّاً،

ماضيَين إلى حيث لا أدري، بحثاً عن سقف لطفلهما ربّما، أو عن وظيفة، أو حظٍّ سعيد.

خشيتُ أن أضيّعهما إلى الأبد، كِدت أصيحُ في السائق «توقف!» وأَنزلُ هناك لألحقَ بهما.

وماذا كنت لِأقول لهما؟ ماذا كنت لأفعل من أجلهما؟ إنّنا لا نعيش في العالم نفسه، بل إنّنا غرباء تماماً بعضنا عن بعض. ومع ذلك، فقد بدا لي أنّني ما أتيت إلى موريشيوس، بعد كلّ هذه الأعوام الطويلة، وبعد أجيالٍ متتاليةٍ في المنفى، إلّا من أجلهما.

الآنَ وقد تحرّرت الحافلةُ من أزمةِ المرور، تحرّكَت بأقصى سرعةٍ على الطريق المفضي إلى كوربيب، وكاتر بورن. والحقيقةُ أنّني جئت باحثاً عن صورة فقطْ، مثل السيّاح في سوق بور لويس الذين يفتشون عن تذكاراتهم بعنايةٍ، كمن يفتّشُ عن إبرةٍ في كومةِ قشّ. فمن أبحث عنهما منذ وصولي إلى موريشيوس لا وجه لهما: ليون وسورياڤاتي، هل يعني هذان الاسمان شيئاً؟ مَن أبحث عنهما ليس لهما اسمٌ في الحقيقة، إنّهما محضُ ظلَّين، أشبهُ بشبحَين، وخُطاهما لا تنتمي إلّا إلى دروب الأحلام.

لقد أتيت إلى هنا كي أرى آنّا، لا بل «الآنّتين». أولاً، منزل العزبة قرب المدينة، وطَللُ مصنع السّكّر الأسودِ الأشبه بحطام سفينةٍ وسْط حقول القصب، ثمّ آنّا الأخرى، آخِرُ أفراد عائلة أرشمبو، ابنةُ كلود كانوت وحفيدةُ كبير العائلة.[1] هي أسماءٌ أُعطيتُها لمّا وُلِدتُ، مثلما

(1) كان الكاتب قد ذكر في فصلٍ سابقٍ آنّا بصفتها «ابنة لويس، حفيدة كبير العائلة»، والآن =

يُمنَحُ آخـرون ألقـاب النبـلاء أو يَرثـون أسـهماً في سـوق الأوراق الماليّـة، إنْ جـاز التعبير، بـما فيهـا اسـم ليـون الـذي أحملـه تخليـداً لذكـرى المفقـود، أو ربّـما لمـلء الفـراغ الـذي خلّفـه اختفـاؤه. فمنـذ طفولتـي وهـذا الفـراغ مطبـوعٌ في داخـلي، مثـل العلامـة التـي يتركهـا إصبـعٌ قـد ضغـط بشـدّةٍ عـلى الجلـد.

ربّـما انتظـرتُ أكثـرَ ممـا ينبغـي. كان علـيّ أن آتيَ إلى هنـا وأنـا في الثامنـة عـشرة مـن عمـري، حـينَ كان أبي مـا يـزال حيّـاً، وآنّـا لا تـزال في السّـابعة والستين مـن عمرهـا، وتقيـم بعـدُ في كاتـر بـورن، في ذلـك البيـت الكريـوليّ القديـم الـذي رأيتـه البارحـة أثنـاء عبـوري، مائـلاً قليـلاً عـلى جانـب الطريـق مثـل قـاربٍ جانـح. كان مُحتفظـاً بعـدُ بجميـع الأثـاث المـوروث عـن كبـير العائلـة، والأمتعـة القديمـة التّابعـة لشركـة كومبـاني ديزآنـد، ومكتبـات جنـاح الشّـهاب، حيـث علـب الأحذيـة الكرتونيّـة المليئـةُ بكتـبٍ غامضـة، وصـورٍ مصفـرّة، وكلّ مـا شـابه ذلـك مـن «خليـطٍ عديـم القيمة»، كـما وصفَتـه في رسـالتها إلى أبي. وحـين ترَكـت البيـت الـذي لم تعـد تقـوى عـلى العنايـة بـه وحدهـا، وذهبَـت لتسـتقرّ في ديـر ماهيبـورغ، أحرقـت مُبتهجـةً الأوراق والصّـور جميعهـا، ويبـدو أنّهـا رقصـت أمـام النّـار التـي أخـذت تلتهـم ذاكـرة آل أرشـمبو وهـي تضحـك مثـل سـاحرة، عـلى نحـو أفـزع الجـيران. أعطـت الأثـاث لصيـاد كريـوليٍّ مـن فيـل نـوار، والآنيـةً

= يقدّمها باعتبارها «ابنة كلود كانوت وحفيدة كبير العائلة»، ما قد يفصح عن نسيان أو لبس بسيط، إلّا إذا كان «كلود كانوت» اسمَ أمّها. وبالفعل فإنّ الاسم الشخصيّ Claude يُعطى في الفرنسية للذّكور والإناث. هي بأيّ حالٍ عمّة ليون الشابّ، سُمّيت باسم عزبة العائلة، حيث وُلِدتْ، وهي الشّخص الوحيد الذي يلقاه ليون حيّاً من آل أرشمبو عندما يزور موريشيوس بحثاً عن ماضي أسْرته. (المُراجِع)

الفخاريّة التي تحمل علامة كومباني ديزآند للرّاهبات اللّوريتانيّات، من أجل دار الأيتام، وباعت كلّ ما أمكنها بيعه: الكتب المُجلّدة والمحابر، وساعة الحائط الكبيرة، واللّوحات، وحتّى قبو النبيذ في مركب ليرونديل الموروث عن قرصانٍ قديم من عائلة أرشمبو، كان يقيم في سان مالو. وحينَ أتيْت على ذكر القارب أمامها، لمع في عينَيها ذلك الوميض الشرّير وأجابت قائلةً: «كان ينبغي صُنع النّار بكلّ ما توفّر من خشب![1]» لم تكذب الأسطورةُ، فقد كانت آنّا حفيدةً تليق بألكسندر، لكنّها تقف ببساطة على الطرف النقيض، فهي تمثّل التجرّد والرّفض وفرادةَ الطّبع.

الحَرّ في ماهيبورغ شديدٌ خانقٌ. فرياح الصّابياتِ التي تهبُّ من الشمال الشرقيّ تتكسّرُ على جبل بامبو. أمّا على طول الشاطئ المفضي إليها، من جهة جُزر لاباس الصغيرةِ، فالهواء منعشٌ، وكلّ شيء جميل، البحر بزرقته البهيّة، وخطّ الجبال المعتمُ الذي يُطلق عليه **عنق الأسد**.

ولكنْ ما إن يتوغّل المرء مسافةَ شارعَين في عمقِ المدينةِ حتّى تبدأ الجحيم. تقول آنّا إنّ الحرّ يشتدّ كثيراً في أبريل حتّى أنّها تنام مباشرةً على البلاط. آنّا طويلةُ القامة نحيلةٌ، وجهها كثير التّجاعيد بلون الجلد المدبوغ، وشعرها رماديّ قصير، تجعّده بنفسها بمكواة الشّعر، وهي علامة تأنّقها الوحيدة. أمّا عيناها فحجران أخضران لامعان، بحدقتَين حادّتَين خطيرتَين. حين رأتني أوّل مرّة، تفحّصتني طويلاً،

(1) توظّف الشخصيّة هنا هذه العبارة المَسكوكة بمعنيَيها، الحرفيّ الوارد أعلاه، والمجازيّ الشائع: استخدام كلّ الوسائل المتاحة لبلوغ الهدف.

دون أنْ تنبس بكلمة. فشعرتُ بنظرتِها تخترقني مثل شعاعٍ فاحص، ثمّ قالت لي: «لا يبدو عليك أنّك في الأربعين، إنّك أرشمبو حقيقيّ. فأبناء العائلة يبدون شيوخاً، وكلما شاخوا بدوا أصغر سناً». ثمّ أردفت: «لكن لا تظنّ أنّ هذا من باب المجاملة». كانت هذه المرّةَ الوحيدة التي حدّثتني فيها عن العائلة. لكنّها على أيّ حالٍ، تحدّثت مرّةً عن جدّي وجدّتي سوزان قائلةً: «أمّا هذان الاثنان، فكانا جميلَين حقّاً».

لم أسألها عن المفقود ولا عن سوريافاتي، فمنذ وقتٍ طويل لم يعد أحدٌ يتحدّث عنهما. كما لو أنّهما لم يكونا أصلاً، أو بالأحرى، كما قلت آنفاً، صارا أشبه بأثر إصبع على الخدّ. ومع ذلك، فإنّ آنّا تعلم جيّداً أنّني من أجلهما أتيت إلى هنا، وأنّني أريد أنْ أعثر على آثارهما، وأتبعَ بخطواتي دربهما، وألمس ماضيهما، وأرى ما رأت عيونهما، وأدخلَ في أحلامهما. لكنّ هذا شأني وحدي وآنّا لن تساعدني، هذا ما أفهمتني إيّاه.

آنّا هي الوحيدة والأخيرة، وهي تحمل بداخلها كلّ شيء. لمّا وُلِدَت، كانت عزبة آنّا -التي تحمل هي اسمَها- لا تزال قائمة، بحقولها الشّاسعة، ومدْخنة مصنع السّكّر، وقمائن الجير، ومراجل تُفْل القصب، والاصطبلات، وأكواخ العبيد القديمة. كان الطريق الذي يربطُ عزبة آنّا ببور لويس عبرَ غراند ريفير وكامب بينوا وبامبو بديعاً، مغطّى بالحصى المرجانيّ، تجتازه دوماً عرباتٌ تجرّها الثّيران أو الخيول. وكانت القطارات تصل إلى كلّ مكان، إلى بامبليموس، ونهر الرومبار، أو جنوباً إلى ماهيبورغ. أمّا اليوم فقد مُهّدت خطوط السّكك الحديديّة بالأسفلت.

في طريق العودة من الدّير استقللْتُ من كوربيب حافلةً أسرعَت بي على طريق ديسيك، طريق السّكّر الضيّق والمتعرّج الذي يمرّ عبر المساكن القديمة.

استأجرتُ في ماهيبورغ سيارةً من صينيٍّ اسمه تشونغ لي، كي أذهب بها إلى المدينة، وهو من أجّرني أيضاً مكاناً للمبيت. كانت السّيارة من طراز «بلوبيرد»، قديمةً متهالكة، صفراءَ بلون القشّ، ومقاعدها من فرْو الخُلد الذي بدا كأنّه لُمِّع بزيت المحرّكات. تعطّلت في الحال مسّاحاتها فكان عليّ من حينٍ إلى حين أنْ أمسح زجاجها الأماميّ بمنشفتي. لم أجد صعوبةً في تعوّد أُسلوب القيادة في موريشيوس، حيث نصف الجسد يَبرز من النّافذة المفتوحة، والمنشفةُ ملتفّة حول العنق مثل وشاحٍ من زمنٍ غابر.

وبالطّبعِ، فقد رفضت آنّا مرافقتي قائلةً: «وماذا سأفعل هناك؟ إنّها حتّى ليست بالمكان الجميل». تحدَّثَت عن الحمّى التي تزور المدينة كلّ شهر، وعن الأطفال الكريوليّين ذوي البطون المنتفخة وبريق العيون المفرط. وعن الأعاصيرِ التي ينتظرونها، والمصاريع والأبواب المنيعة، والفرُش المطويّة والمرصوصة على الجدران، وذلك الخوف الذي يبلغ حدّ الغثيان.

حين غادر جاك وسوزان موريشيوس إلى الأبد، كان أبي وآنّا لا يزالان طفلَين. الآن أبي متوفّى، وآنّا لم تعد لزيارةِ البيت ولو لمرّةٍ واحدة منذ سبعةٍ وستّين عاماً.

«بصراحة، لا أعرف لماذا تكلّف نفسك عناء هذه الرّحلة كلّها. لم يبق شيءٌ هناك! مجرّد كومةٍ من الحجارة!»

اصطحبتُ معي لِيلي، ابنة ماري نويل. حين أتت ماري نويل لتقومَ بأعمال التّنظيف (ضمن خدماتِ المبيت)، حضرت ليلي معها. ظلّت تنتظر في الخارج جالسةً تحت أشجار الترنوفوريّة. ليلي في السابعةَ عشرة من عمرها، عيناها سوداوان واسعتان وبشرتُها بلون كعكة الزّنجبيل. تتحدّث الكريوليّة والفرنسيّة، لكنها تفضل التحدّث معي بالإنجليزية. حينَ رأت سيّارة البلوبيرد الصّفراء، لمعت عيناها وطلبت منّي أن أصطحبها. لم تعترض ماري نويل. لا بدّ أنّها فكّرت أنّ مرافقتي، أنا ابن أرشمبو، تظلّ خيراً لها على كلّ حالٍ من التسكّع مع السيّاح الألمان والأفريقيّين الجنوبيّين المخيّمين في بلو باي، علاوةً على أنّ العمّة آنّا كانت ضامِني الأخلاقيّ.

وبالطّبع فقد أصابت آنّا. ففي المدينة، سلكتُ طريق القصب إلى العقار القديم. ثمّة عددٌ قليلٌ من الأكواخ من ألواحٍ خشبيّةٍ وصفيح يشغلها عمّال المزارع، ثمّ يصبح الدّرب شديد الوعورة، مغموراً بالمياه ومهدّماً، ومحفوفاً بسياجٍ أخضر من القصب النّاضج على الجانبَين، وقد سُدَّ في نهايته بالكتلِ الصخريّة والأجمات. لم ترغب لِيلي في المُضيّ أبعدَ بسبب غزارة المطر. فانتظرَت في السيّارة وأبقت المذياع مشتعلاً. واصلتُ السّير على قدمَيّ إلى مدخنة مصنع السّكّر القديم البيضاء التي انهار جزؤها العلويّ. كانت الأجمات ونباتات الحشف المقوّس قد غزت الأطلال. ذرعْتُ محيط المصنع، ولكن دون جدوى، فلم أعثر على أدنى أثرٍ لبيت عزبة آنّا أو جناح الشّهاب. ولا وجود حتّى لكومةِ حجارة! لا بدّ أنّ سكّان المنطقة المحليّين استخدموا الحجارة لبناء البيوت الصغيرة التي رأيتها في المدينة عند مدخل الطريق.

كانت الرّيح تهبّ فوقَ القصب، محدثة صوتاً أشبه بهدير البحر، وشكّلت الغيوم قبّةً معتمةً معلّقةً فوق قمّتي **كور دو غارد وتروا ماميل**. كان يسود جوٌّ من الغرابة والوحشة، وكأنّ أشكال الحياة كلّها في هذا المكان قد توقّفت بموت كبير العائلة.

راودَتني في لحظةٍ فكرةُ المُضيّ حتّى البحر، حيث تضرب الأمواج في السّاحل، وحيث ركض جدّي ثمّ أبي في طفولتهما، في حياةٍ أخرى، وعالم آخر.

استيقظ اليمام مطلقاً الصّيحات، مثلما كان يفعل، لا بدّ، حين كان أبي وجدّي يشقّان دربهما بين الأجمات، فتُجرّح أقدامَهما بالأشواك. لكنني لم أجرؤ على المغامرة والذّهاب أبعد من ذلك. كنت أحسّ بشيء معتم مُطبقٍ يلتفّ حول ساقَيّ فيعوقني عن المضيّ قدماً، شيءٍ أشبه بسرٍّ أو أمرٍ محظورٍ لم أفهم قطّ ما هو، كأنّه سحرٌ أو طاقةٌ خفيّة.

كانت لِيلي تنتظر في البلوبيرد دون أنْ يعيل صبرها. فقد أمضت الوقت في طلاء أظافرها باللّون الأحمر القرمزيّ. لم تسأل أيّة أسئلة. فما أهميّة ذلك عندها، المدينة، وعزبة آنّا؟ إنّهما ليسا أكثر من اسمين، مكانين مثل غيرهما من الأمْكنة، منسيَّين قليلاً، ضائعَين في أعماق الحقول. ليس لدى ليلي سوى الزّمن المضارع، ولهذا فإنّ كلّ الأشياء مِلكها، ولا يمكن أنْ تكون قد فقدت شيئاً. إنّها ليست في حاجةٍ إلى أسماء تسكنها، وإنّما تحتاج فقط إلى مكانٍ للإقامة ووجبةٍ وبعض النّقود لشراء طلاء أظافرها، وقمصانها. كان المذياع يبثّ أغنيةَ تي فرير[1] «**أنيتا، فلتبقي عندنا، أنيتا**». هل يرقصون على

(1) Ti Frère (Jean Alphonse Ravaton): جون ألفونس رفاتون الملقّب بـ«تي فرير»، يعدّ ملك موسيقى السيغا الموريشوسيّة وهذه واحدة من أشهر أغانيه (1900–1992).

أنغـام هـذه الموسـيقى عـلى شـاطئ تامـارن الأسـود، عندمـا ينتهون مـن قطع القصـب؟ رمقَتْنـي لِيـلي بطـرف عينها. فقـد رأت أنّنـا مكثنا أطول مـن اللّازم في هـذا المـكان المشـؤوم. قالـت لي: «والآن عُـد بنـا! مـن فضلـك!». عـادت بلوبـيرد العجـوز إلى الطريـق الرئيـسيّ وهـي تـصِرّ وتهتـزّ. كنت أنـوي العودة عـلى طريـق السـاحل مـارّاً بلومورن وسـوياك، لزيـارة بيـت الشّـاعر روبرت إدوارد هـارت دو كيتنـغ[1]. لكـنّ الوقـت كان قـد تأخّـر، وبـدا أنّ المطـر لـن يتوقّف.

في طريـقِ عـودتي عابـراً ثانيـةً مـن بـور لويـس، عرّجـتُ عـلى متجـر (لا فلـور موريشْـينِ) لـشراء علبـةٍ مـن حلـوى نابوليتـان للعمّـة آنّـا، وهـي الحلـوى المرتبطـة بذكريـات شـبابها. اختـارت ليـلي فطـيرةً بالزّبـدة أكَلتهـا واقفـةً وهـي تلعـق أصابعهـا، مثـل فتـاةٍ صغـيرةٍ شَرهـة. وانطلقنـا ثانيـةً حتّـى بلغنـا لسـان إسـني البحـريّ، مـع حلـول اللّيـل.

كانـت آنّـا في الثالثـة والعشريـن مـن عمرهـا عندمـا تـوفُّي كبـير العائلـة بعـد احتضـارٍ مريـرٍ دام أسـابيع وأشـهراً. كان جسـده يتعفّـن في مكانـه، فقـد عـاش في عزبـة آنّـا وحيـداً، إذ كان عـلى قطيعـةٍ مـع ابنـه، مكروهـاً مـن العائلـة بأكملهـا، وقـد هجـره جميـع أفرادهـا، ولم يبـقَ عنـده سـوى رجـلٍ أسـود مُسـنّ، عبـدٍ سـابق يُدعـى توبـسي، ومربّيـةِ حفيدتـه؛ يايـا العجـوز. ولم يكـن أحـدٌ يـزوره، حيـث هجـره أيضـاً رفاقـه في الحكومـة واحـداً تلـو الآخـر، لقسـوته وغطرسـته.

---

(1) Robert-Edward Hart de Keating: شاعر موريشوسي، لُقِّب بأمير الشّعراء الموريشوسيّين (1891– 1954).

وكان كلّما حضر جاك لرؤيته، في البدايات، طرده ناعتاً إيّاه بالدّجال والمتطفّل. ولم يكن يتقبّل سوى سوزان، ربّما لأنّها عاشت في باريس وليس لها أيّ صلةٍ بأسرته. زد على ذلك أنّها جميلة. وقد قال عنها ذات مرّة: «إنّ لها ملامحَ المرأة الباريسيّة المثاليّة: الأنف الأخنس، والفم الصغير، والعنق الأجيَد». كان جاك هو من روى ذلك لأبي، وهو يحدّثه عن الرّجل الذي دمّر حياته. كنت في التّاسعة أو العاشرة من عمري، وأتذكر جيّداً نبرة صوته الشجيّة حين كان يتحدّث في ذلك اليوم بعد العشاء، فيما أنا أتخيّل هذا الوحش وهو يصف هيئة جدّتي سوزان، محبوساً في بيته، كما لو كان في قصرٍ ملعون.

دُفن ألكسندر في كوربيب بمقبرة **حديقة النبات** حيث كان قد اشترى قطعة أرضٍ بعد وفاة زوجته. ذهبتُ لزيارةِ المكان في صبيحةٍ ماطرة، بدافع الفضول لا الورَع. إذ إنّني لم أحبّ المقابر يوماً، ما عدا مقابر المسلمين، حيث لا تَرى شيئاً سوى كومةٍ صغيرة من التّراب وحجر أبيض. بدا لي ضريح ألكسندر وجولي أرشمبو مُريعاً، بغرفته الكبيرة من الرّخام الأسود المستورد من الهند، والاسمَين المحفورَين بأحرفَ كبيرةٍ مذهّبةٍ اكتسَت مِسحةً من زِنجار. قرأتُ الأسماء على شواهد القبور المحيطة فلم أعرف أيّاً منها. فحتّى في موته، بقي كبير العائلة وحيداً، بلا أقارب ولا أصدقاء.

مَن أبحث عنه، لن أعثر عليه هنا. أقلّني دُني، زوج ماري نويل، وهو صيّاد من فيل نوار، في زورقه إلى المقبرة القديمة عند عاليةِ نهر لاشو. في الموضع الذي ينعطف فيه النهر، يصعد دربٌ موحلٌ إلى أعلى التّلة. مكث دُني بالقرب من الزورق، كي يراقبَ، على حدّ قوله.

لكنّني أعتقد أنه لم يرغب في زيارة السّادة البيض الذين دفنوا هنا. المقابر هنا أكثر تواضعاً، مبنيّةٌ من حجارة الحمم البركانية المتآكلة بفعل العوامل الجويّة. تعذّر عليّ قراءة الأسماء، باستثناء اسم العائلة «بيتو» ربّما، والاسم «بيير». ما أودّ رؤيته هو المحارق القديمة، في كوربيب وبور لويس، وفي وادي بريتر، ولومورن، وغران باي. لكنّ الجزيرة بأكملها ليست سوى حقل سُحقت فيه جثث العمّال، فعلى هذ التّراب الأحمر حيث ينمو القصب، وهذه الدروب حيث يمشي اليمام، وهذه الشّواطئ، والتلال، والحدائق وحتّى شوارع المدن الجديدة، وفي كلّ مكان هنا، تدوس الأقدام رماد العمّال الهنود.

من أجل هذا بقيَتْ آنّا. لم ترغب في الرّحيل وترْك الموتى. بقيتْ حيث وُلِدَت، لم تتزوّج، ولم ترغب في العيش مثل غيرها من الناس. ورفضَت كلّ شيء، لا سيّما النسيان. ذهب الجميع. ذهبوا للبحث عن الثّراء في مكانٍ آخر، في كيب تاون وديربان، وفي أستراليا وأمريكا. فبعد موت كانوت، وانهيار بيت أرشمبو، لم يصمدوا. كانوا يخشون الفقر، والاضطرار إلى التّخلي عن المجد والامتيازات. حتّى جاك قد رحل، فمن عساه يحتاج إلى طبيبٍ من آل أرشمبو؟ لم يكن له مكانٌ في عالمٍ ينهار فيه كلّ شيء. وتبخّر حلم جدّتي سوزان بإنشاء مستوصفٍ في المدينة، والعمل على تحسين ظروف عيش العمّال المهاجرين، فلا شيء من هذا استطاع أن يصمدَ في وجه التّآمر والوشاية والنيّات الخبيثة. كان أبي في الرّابعة عشرة من عمره عندما سُوّيت الحسابات، فقرّر جدّي الرّحيل عن موريشيوس إلى الأبد، معتمداً على نصيبه الذي حصّله من ممتلكات عزبة آنّا، واستقرّ طبيباً في ضواحي باريس، في

غارش. وصار يداوي الناس بلا مقابل، محقّقاً جزءاً من رغبة جدّتي سوزان. أمّا هي، فكانت تعطي دروساً في الفرنسيّة في مدرسةٍ للبنات. ربّى جاك نويل على كراهية كلّ ما له علاقةٌ بقصب السّكّر. «اللّعنة عليّ إنْ جعلتُ من ابني صانع سكّر». كان جاك يقول «صانع سكّر» كأنّه يقول «تاجر رقيق». وأنا، ليون أرشمبو، الأخيرُ من نوعي (وفقاً للشّعار الفخور الذي ابتكره جاك في صباه)، أصبحتُ طبيباً أيضاً، طبيباً بلا مرضى، بلا عملٍ، يهيم على وجهه قبل أنْ يرحل إلى أقصى المعمورة.

بعد ظهر كلّ يوم، عند الواحدة، أذهب إلى حديقة الدّير وأجلس في ظلّ شجرة ماغنوليا كبيرة، في انتظار أن تنضم إليّ آنّا. وحين تقبِلُ مترنّحةً في مِشيتها قليلاً، عند باب جناحها (كانت تمنعني منعاً باتّاً من أنْ أتلفّظَ بكلمة «bungalow»[1] الإنجليزية) أتفاجأ في كلّ مرّة بهشاشتها ونحولها.

قادتني إلى غرفتها الغارقة في العتمة. وكانت على الرّغم من الحرّ الخانق ترتدي ثوباً رمادياً مزرّراً بإحكام حتّى العنق، فبدت به، وبحذائها الجلديّ وشعرها القصير، مثل راهبة.

على طاولة مطبخها، غزا النّمل طبقاً مليئاً ببقايا طعامها من اللّحم المفروم والأرزّ. كانت قد أعدّت كريات لحمٍ متناسقة الحجم. ولمّا وصلْتُ، أسرعَت لتغطيتها بمنشفةٍ بيضاء ربطّتها من زواياها الأربع. لم أسألها عن شيء. لكنّ هذا ليس سرّاً يخفى على أحدٍ هنا في

(1) أي بيت أرضيّ أو مقرّ.

ماهيبورغ. إنّه الصينيّ تشونغ لي، صاحب المحلّ في الشارع الرئيسي، مَن يعطيها مسحوق الإستركنين الأبيض الذي تخلطه مع كريات اللّحم. كانت تنفق كلّ مصروف جيبها على شراء السّم: المال الذي يرسله إليه أبناء عمومتها، والمال الذي أُرسله لها بانتظامٍ من فرنسا، كما كان يفعل أبي من قبلي.

كانت تنتظرني بفارغ الصّبر. وضعت قبّعتها القماشيّة القديمة التي تتدلّى على عينها المصابة بالسّاد، ثمّ غادرْنا.

كانت الشمس لاهبةً في الخارج. في ساعة الغداء تخلو شوارع ماهيبورغ من المارّة، ولكن عند هبوطنا إلى السّوق غدت حركة المرور أكثر ازدحاماً. كانت الحافلات تهتزّ في طريقها إلى الموقفِ المغبرّ، وتنتشر في كل مكان درّاجاتٌ من طراز فلاينغ بيجن سوداء كبيرة، يركبها الشبّان الهنود مطلقين الأبواق على نحوٍ محموم. إنّه وقت آنّا الأثير، ففي ساعات العصر، يفرغ السّوق تدريجياً من البشر، وتحضر الكلاب.

توقّفَت عن الكلام. كانت تمشي متصلّبةً، ووجهها متشنّجٌ من الألم. كان طبيب الدير، الدكتور موغرو، قد أخبرني عن تعطّل مفاصل آنّا، عن ركبتيها المتشنّجتين من التهاب المفاصل، وكذا وركيها، وعظام ترقوَتها. وكان ثمّة نبرة إعجابٍ في تعليقه على وضعها الصحّي: «في حالتها هذه، ينبغي أن تظلّ قابعةً في كرسيّ. إنّها لا تمشي إلّا بقوّة إرادتها». حينَ ترجّلت من السّيارة، قطّبت وجهها من الألم. فأوضحَت مازحةً: «كما ترى يا ليون، فأنا مثل حوريّة البحر في حكايات أندرسن، ينبغي أن أتعذّب ليكون لي ساقان».

في اليـوم الـذي لـن تقـوى فيـه آنـّا عـلى الخـروج، ستموت. لقد قـرّرتْ ذلـك. ليـس عليهـا أن تـصرّح بـه. أتُراهـا متغطرسـة، مثـل جدّهـا؟ إنّهـا لم تـدِن بـأيّ شيء لأحـدٍ قـطّ، وعاشـت دومـاً في هـذه العزلـةِ الشـديدة. أتأمّـل ملامحهـا الحـادّة، ملامـحَ هنديّـةٍ عجـوز، بتلـك التّجاعيـد العميقـة حـول عينَيهـا، ووضعيّـة رأسـها وعنقهـا النّحيـل حيـث يـبرز شريانـان مشـدودان، فتخطـر في بـالي تلقائيّـاً الصّـورة الوحيـدة التـي رأيتهـا للعـم ألكسـندر، أيّـام كان يتحكّـم بمفـرده بعزبـة آنـّا. الشّـبه واضح.

سرنـا متمهّلَـين عـلى طـول الأزقّـة ذات البلاطـاتِ المتكسّرة، بـين الـبرك الآسـنة. لم يكـن السّـوق قـد أُغلـق تمامـاً. إذ ظلّـت هنـاك أكشـاكُ فاكهـةٍ مظلّلـةٌ بالشّـادر الممـزّق: المـوز «الزينـزي» والجوّافـة، والبابايـا المفتوحـة التـي تظهـر بذورهـا السـوداء، والمانغـو القاسـية أو «المـاف»[1]، كـما اعتـاد أبي أن يسـمّيها، وخـضرواتٌ أخـرى ليسـت طازجـة. وفي نهايـة الزقّـاق، كان هنـديٌّ يـوزع اللّبـن الرائـب مـن جـرّة كبـيرة. فعلّقـت آنـّا قائلـة: «أتـرى ذلـك، إنّـه فظيـع». كان أبي أيضـاً يكـره اللّبـن الرائـب كرهـاً شـديداً، والحليـب، عمومـاً، بجميـع أشـكاله.

كنـت الأوروبيَّ الوحيـدَ في هـذا الجمْـع. أمّـا آنـّا، فـلا يمكـن أن تنتسِـب إلى هـذه المجموعـة الإثنيّـة، فهـي هنديّـةٌ بلـون بشرتهـا ونحـول قامتهـا، والطريقـة التـي تسـند بهـا رأسـها، وكريوليّـةٌ في مِشـيتها وحديثهـا. حـينَ تمـرّ، يحيّيهـا النـاس، ويقولـون لهـا بضـع كلـمات، فتسـتمع إليهـم، ورأسـها مائـلٌ قليـلاً، وتجيـب بالكريوليّـة، ويمازحونهـا. يعلـم الجميـع مـا تـأتي مـن

(1) كلمة كريوليّة من أصلٍ ملغاشيّ.

أجله هنا. ولا أحد يلومها على ذلك. هذا هو دورها في العالم. وحين ترحل، لن يكون هناك من ينهض به مكانها. سيكون دورها قد انتهى، وهذا كلّ ما في الأمر.

لحِق بنا للحظةٍ أطفالٌ مشاكسون. أحدهم شبهُ عارٍ، سوى من مئزرٍ ملطّخٍ بالوحل، نحيفٌ ببشرةٍ ذهبيّة وعينَين واسعتَين داكنتَين، يحمل بيده مزماراً صغيراً من الخيزران، ويركض على طول أزقّة السوق وهو ينفخُ في مزماره مصدراً أصواتاً حادّة، فيُخيّلُ إليّ أنّي أرى كريشنا الصّغير على ضفاف نهر يامونا، لكنّ المقارنة تنتهي عند هذا الحدّ، فنهر لاشو قد طاله الخراب، وضفافه مغطاةٌ بالقاذورات، وماهيبورغ ليست ماثورا[1].

اصطحبتني آنّا إلى ركن الجزّارين. كانت كِلابٌ تتجمّع عند كتف الطريق الموحل الذي ينحدر نحو الماء، وكانت كثيرةً بقدر ما هم البشر، هزيلةً متيبّسةَ الفرو، وبطونها مطبقةٌ على ظهورها. كانت مجموعةٌ منها تتعارك حول جيفة، حيث أقوى اثنين بينها يمسكان بطرفَي الجيفةِ ويزمجران من غير أنْ يفتح أحدهما فكّيه حين تدنو منهما الكلاب الأخرى.

وعلى مبعدةٍ يسيرة، كان زوجان منها يتسافدان رغم الجوع، ويسيران متلاصقَين مائلَين مثل سلطعونٍ مضحك.

وقفَت آنّا أمام تلك البقعةِ من الأرض. لم تقل شيئاً. كانت تنظر، وعلى وجهها ذلك التعبير القاسي، وتلك الحدّة التي تعلو ملامحها في

(1) ماثورا: مدينة هندية تقع قرب نيو دلهي، وتشكّل مركزاً اقتصاديّاً مهمّاً ومدينة نامية. (المُراجِع)

مواقف كهذه. تركَت ذراعي، وسارت وحدها إلى آخر الساحة. كَانت تترنّح وتوشك أنْ تسقط في كل لحظة، لكنّني بقيت في الخلف. فقد كانتْ تلكَ مهمّةً تريد أنْ تنجزها بمفردها.

في منتصف الساحةِ، كان الكلبان الشرّيران منقضَّين على الجيفة. كانت فريستهما كلباً مات جوعاً، أو ربّما دهسَته حافلة. وكان المشهد فظيعاً، لا يطاق.

لكنّ آنّا لم تأتِ إلى هنا من أجلهما، بل كانت نظرتها تجول حول طاولات الجزّارين، وأكوام القمامة الملقاة في الأزقّة.

سارت على مهلٍ، باستقامة تامّة، وكيسُها مفتوح بيدها. رأيتها ترمي كريات اللّحم على الأرض في الظلّ. هذا هو المكان الذي تختبئ فيه الجراء المفطومةُ حديثاً، والمهجورة. تبدو هياكل عظميّةً بلا شعرٍ، هشّةً حتّى أنّها لا تكاد تحتمل ثقلَ رؤوسها الضخمة ذات العيون البارزة، كانت تترنّح في مكانها، ولا تقوى على مغادرة مخابئِها. اقتربتُ في صمت، فسمعتُ آنّا تتحدّث إليها بهدوء، وبصوت غريبٍ عليّ. قالت: «أحبّتي المساكين» وهمسَت لها بكلماتٍ قليلةٍ بالكريوليّة، كأنّها تكلّم أطفالاً، فزحفت الجراء وخرجت قليلاً من مخابئها الشّبيهة بجحور حيوانات بريّة.

لقد انجذبَت إلى صوت آنّا، إلى تلك النّبرة الغريبة الناعمة مثل مداعَبة. ورأيت أمامها كريات اللّحم المسمومة التي نثرتها آنّا. وبدأت الجراء تأكل منها. كانت عشْرة، وربّما أكثر. وعمّا قريب لن يبقَ شيءٌ منها على الأرض. ولم يلبث مفعول الإستركنين أنْ سرى في الجراء، فتراجعت ودارت حول نفسها كما لو كانت ثمِلة، ثمّ ماتت

من فورها. وتمدّدت أجسامُها الصغيرةُ على جُنوبها في العتمة، وسرعانَ ما غطّت الرّيح جلدها الورديّ المسودّ بالغبار، وحامَ الذباب حول رؤوسها.

دارت آنّا دون أن تنبس بكلمة، وقطعةُ القماش الفارغة تتدلّى من يدها مثل منديلٍ كبير. كان وجهها الذي بلون الخشب المحروق جامداً يخلو من أيّ تعبير، سوى من لمعةِ حدقتَيها الفاتحتَين.

سرنا معاً تحت أشّعة الشّمس الحارقة، على طول الأزقّة التي تقودنا إلى الشارع الرئيسيّ. بدأت الحافلات في الموقفِ تتحرّك وسط سحابةٍ من الغبار. كان الناس يغادرون إلى بلين مانييه وروز بيل وكوربيب، وصولاً إلى بور لويس. ثمّة حركةٌ نشطةٌ في المكان. فقد دبّت الحياة في المحلّات التجارية بالشارع الرئيسيّ، ومحلّات أشرطة الموسيقى والأفلام والأقمشة. أخذ الباعةُ ينادونني: «تذكار؟ هديّة؟» اتّكأَت آنّا على ذراعي، فتراجعوا وسمحوا لنا بالمرور.

شعرتُ بتعبها. كانت ذراعها ترتجف قليلاً، أعتقد أنّها كانت تكابد ألماً شديداً. فقد خرّت جالسةً في مقعد سيارة البلوبيرد وكادت تندّ عنها صرخةٌ قصيرة، لكنّها كتمَتها في تنهيدة.

«لقد كبرتُ على فعل هذا. يمكنك القول إنّها ستكون المرّةَ الأخيرة». لكنه ليسَ تعباً فحسب. وإنّما شيء آخر، ينهشها ويستنزف أعماقها. ثمّ هذا الهاجس الذي يؤرّقها على مدى أعوام، كلّ يوم، بل كلّ لحظةٍ ربّما، هاجسُ الكلاب الضالّةِ في الشوارع والأسواق، تقتلها السيّارات، وتلتهم بعضها بعضاً، وتلك الجراءِ التي تموت جوعاً في جحورها.

في جناحها الواقع في نهاية حديقة الدّير، استلقت آنّا على سريرها البسيطِ في الغرفة الشديدة الحرّ، دون أن تخلع حذاءها الجلديّ. بدت في غبش العتمة شاحبة، مزرقّةً أو تكاد. ولمّا رأيتها هكذا، لا أعرف لماذا فكّرت في رامبو على فراش الموت في مشفى لا كونسيبسيون. فهو أيضاً كان يسمّم الكلاب في هرَر- ليس للأسباب نفسها على الأغلب - ولكن من يدري؟

«كنت قويّةً فيما مضى. وقد فعلتُ أشياء فظيعة، كنت أجرؤ على حملها بينَ يديّ فأخدّرها بالإثير، وأُغرقها في بركة البيت في كاتر بورن». كانت تتحدّث ببطء، كأنّها شاردة الذّهن. في الخارج، على طول الفيراندا، كانت سيّدةٌ مجنونة تمشي متسلّلة، وتصرخ بقوّة. وفجأة فتحَت البابَ، وظلّت واقفةً على العتبة وضوءُ النهار من خلفها. كان وجهها مائلاً إلى السواد وعيناها تلمعان ببريقٍ غريبٍ أشبه بلهبٍ أخضر. نظرت إلى آنّا وشتمتها بالكريوليّة وبالفرنسيّة. لم أفهم ما قالت، لكنّي أدركتُ الغضب الذي شوّه الأصوات في فمها الرّخو. سمعتُ: «ابنة أرشمبو! القذرة»! أمّا ما تبقّى فقد التبس عليّ.

قالت آنّا بهدوء دون أن ترفع صوتها:

- انصرفي! عودي من حيث أتيتِ. ترين جيّداً أنّ لديّ ضيفاً.

ابتعدت المجنونة، تاركة وراءها رائحةً قاتلة.

-عمّتي، ألا تخافين؟

استنكرَت سؤالي بحركةٍ من ظاهر يدها:

- وممّ أخاف يا عزيزي! إنّها مجرّد مجنونةٍ مسكينة، أقلّ خطورةً من كثير من العقلاء.

باستثناء الخروج إلى السّوق لتوليّ أمرِ الجراء، أو الذهابِ إلى الكنيسة من أجل حضور القدّاس والإصغاء إلى ترانيم الفتيات الصغيرات، فإنّ آنّا لم تكن تغادر جناحها. الدّير هو ملجأ الفتيات الضّائعات، الكريوليّات الصّغيرات ذوات العيون المخمليّة، اللاّتي يشتهيهنّ السيّاح الألمان والأفريقيّون الجنوبيّون، ويشترونهنّ مقدّماً من **منظّمي الرحلات السياحيّة**، كجزءٍ من تكلفة الرّحلة، مع خدمةِ التخييم على الشاطئ وقضاء نصفِ نهارٍ في صيد سمك السّيف. لقد رأيتهنّ، منذ وصولي، في حانات الفنادق وبرك السباحة وعلى الشواطئ، شقيقات ليلي وصديقتِها باميلا. أمّا من يمرضنَ من بينهنّ، أو تستردهنّ عائلاتهنّ، فيأتين إلى هنا، إلى الدّير، ويمكثن فترة، ثمّ يغادرن. وكثير منهنّ يختفين ولا يعدن أبداً. يستصدرن أوراقاً مزوّرة، ويستقلْن الطائرات إلى دول بعيدة، دولٍ خطرة لا يعُدن منها؛ الكويت وجنوب أفريقيا وسويسرا.

تُحبّ آنّا كثيراً الفتاة التي تقدّم لها الشّاي كلّ عصر على الفيراندا. كانت ترتدي زيّ الدّير المحتشم، تنورةً كحليّةً وقميصاً أبيض، وتغرز في تجعيدات شعرها النّحاسيّ الدّاكن زهرةَ الخطميّة، كانت آنّا قد التقطتها من أجلها. «زهرة مدام لانغليه»، هكذا تسميّ آنّا الزهرة، في إشارةٍ إلى خاصيّتها المُليّنة.

قالت آنّا:

– هذه عزيزتي كريستينا.

أمسكَت بيدها للحظة، فرأيت للمرّة الأولى ابتسامةً رقيقةً على وجهها الشبيه بوجهِ هنديّة عجوز.

ثمّ أردفت:

- بما أنك تحبُّ القراءة كثيراً، سأعطيك شيئاً.

مضت وعادت بكرّاسٍ مدرسيّ قديم:

- وجدتُـه في قـاع صنـدوقِ أمتعتـي، كتبتُـه وأنـا في الثامنـة عـشرة مـن عمـري، كنـت سـأرميه. لم يخطـر لي أنّـه قـد يكـون مفيـداً يومـاً مـا، عـلى كلّ حـالٍ، لـن أنتظـر حتّـى أمـوت كـي أعطيَـك إيـاه.

ثمّ أردفَت قائلةً:

- لكنّي أمنعك من قراءته قبل أنْ ترحل عن هنا.

وأضافت هذه الكلمات التي تليق بحفيدةِ كبير العائلة:

- كنت سأخاف كثيراً لو وقع هذا في يد عدوّ.

في الصّفحـة الأولى مـن الكـرّاس، وبخـطّ يدهـا المائـل الحـالِم، كتُـبِ الاسـم التّـالي:

سيتا

اسـتعنتُ بـدُني، زوج مـاري نويـل، ليصطحبنـي إلى جزيـرة بـلات لقـاء 600 روبيّـة. ولكيـلا أعقّـد المسـألةَ، أخبرتُـه أنّنـي أقصـد الجزيـرة مـن أجـل الصيّـد. وأحـضرتُ معـي القنـاع والزّعانـف، وقوسـاً ونبلـةً قديمَـين كانـا لي أيّـام كنـت أعيـش عـلى ضفـاف الأنهـار في بنـما.

كان علــيّ أنْ ألتقــيَ بــدُني عــلى الشّــاطئ في غــران بــاي، حيــث كان أحدهــم ســيُعيره زورقــاً. جــاءت لِيــلي مــع زوج أمّهــا. ومثــل غاليّــة

الفتيات الكريوليّات، لم تُرد الظهور بملابس السباحة. كانت ترتدي قميصاً طُبعت عليه صورة «الرولينغ ستونز» أو «البيتش بويز»، أو لا أدري ماذا، وبنطالاً نصفيّاً أحمر. كانت صامتةً على الدّوام، ولربّما خائفة. ثمّةَ شاغلٌ يُقلقها، متعلّقٌ على الأرجح بصديقتها باميلا التي جرّتها إلى الفنادق. هي أيضاً مستعدّةٌ للذّهاب إلى أيّ مكان، ومع أيٍّ كان، هرباً من الفقر ورتابة حياتها. استقرّت على مقدّم القارب في وجه الريح. كانت تجلسُ باستقامةٍ وساقاها مثنيّتان تحتها. المياه في غران باي ذاتُ زرقةٍ زمرّديّة ساحِرة، حيث تُلمَحُ مستعمرات المرجان والسّليلة. اجتاز الزّورق لا بوانت أو كانونييه، كانت أشجار جوز الهند ترتسم ريشاتٍ خفيفةً في سماء الفجر الورديّة. وبعد عبور هذا الجانب، ضربت الأمواج جؤجؤ الزّورق، فأصدر المحرّك الدّاخليّ هديراً بطيئاً كأنّه من طائرة مائيّة. أسند دُني ساعده على الدّفة، وكان ينظر أمامه غيرَ مبالٍ. كنّا في السّابعة صباحاً، وكانت الشمس لاهبةً حتّى في ذلك الوقت المبكّر.

وفيما كنت أنتظر دُني، قُبيلَ ذلك، مشيت إلى طرف جزيرة غران باي. في موقعِ الكرنتينة التي أنشئت لمرضى الكوليرا- حيث أُنزِلَ المهاجرون الهنود، وأُمِروا بالاستحمام، وحُرِقت ملابسهم على الشّاطئ- ثمّة الآن مخيّمات فاخرة، بحدائق جميلة من النخيل والخطميّة. حاولتُ العثور على الثّغرة والجدار المزدوج اللّذين يفصلان بين الكرنتينة القديمة وعزبة وِيست لكنّ كلّ شيء قد اختفى. إذ سويّت تلك المعالم كلّها بالأرض. وقد رأيت جرّافةً تعمل بالضّبط حيث كانت بيوت المهاجرين. كانت شفرتها تقتلع الشّجيرات، وتقلِب الأرض الرّمادية،

علـى الأرجـح مـن أجـل وضـع أساسـات فنـدقٍ فخـم بمسـبح.

اجتـاز الـزّورق كاب مالـورو، فرأيـت أمامـي صخـرة كـوان دو مـير الشّـبيهةَ بمكـواةٍ حديديّـة صدِئـةٍ. أصبـح المـوج عاتيـاً في تلـك اللّحظـة، فرفَـعَ مقدّمَـةَ الـزورق. تراجعـت ليـلي قليـلاً حتّـى لا يغمرهـا عجـاجُ البحـر، وعقـدَت طـرفَي قميصهـا الفضفـاض حـول بطنهـا، فلمحـتُ زغـبَ خاصرتَيهـا المقشـعرّتين.

أخـذَت الأمـواج تـضرب في جـدار كـوان دو مـير، وبـدت الميـاهُ بعيـدةَ الغـور. كانـت الطيـور تحلّـق مدومّـة، وقـد أراني دُني الصّخـرة المثقوبـة التـي تحمـل اسـماً صريحـاً «تـرو مـدام»[1].

صـارت جزيـرة بـلات أمامنـا، غريبـةً معتمـة. ثمّـةَ، في الجـزء العلـويّ مـن فوّهـة الـبركان، منـارةٌ في حالـةٍ جيّـدة، هـي الأثـر البـشريّ الوحيـد المرئـيّ. وبقيّـة الجزيـرة أرضٌ بريّـة. يحيـط ببـلات مـن جهـةِ اليمـين صخـرةٌ، هـي جزيـرة غابريـال الصّغـيرة. عنـد العـاشرة صباحـاً، دفـع دُني الـزّورق إلى داخـل القنـاة بـين بـلات وغابريـال. كان البحـر سـاكناً، فبـدأت الأعـماق تتجـلّى. ولـمّـا دخلنـا البحـيرة، أمسـكت لِيـلي بالمُـرديّ، وفصـلَ دُني المحـرّك. انسَـبْنا بصمـتٍ عـلى الميـاه النّاعمـة نحـو شـاطئ غابريـال الأبيـض. كان قطمـرانٌ[2] يرسـو وسـط البحـيرة، لا أعـرف مـن عـلى متْنـه، عـلى الأرجـح سـيّاحٌ جـاءوا لممارسـة الصيـد بالرّمـح تحـت المـاء.

ولتسـويغ الرّحلـة، غطسـتُ أنـا أيضـاً والقـوسُ في يـدي. الأعـماق رائعـةٌ مضـاءةٌ بأشـعّة الشـمس. هنـاك شـعابٌ مرجانيّـة، وأسـماك الإبـرة

---

(1) أيّ «ثقب السيّدة».

(2) قاربٌ شراعيٌّ بهيكلَين متّصلَين.

البحريّة، وأسماك الصّندوق، لكنّني بعد ساعة عُدت إلى الشاطئ خاليَ الوفاض تماماً. وهو ما لم يُفاجئ دُني، فقد شرح لي أن الصّيد بالدّيناميت قد دمّر القيعان.

كانت ماري نويل قد أعدّت للرّحلة كما ينبغي. أخرجت لِيلي من سلّة النزهة طبقاً كبيراً من الأرزّ والسّمك، ونثرت فوقها قطعاً من أطراف الأخطبوط المجفّفة، وكستناء حلوة. وكلٌّ أكَلَ على حدة. كانت لِيلي تمضغُ الطّعام موارِيةً فمها خلف يدها، وفقاً لقواعد التّهذيب عند الفتيات الكريوليّات. ثمّ ذهب دُني ليحتميَ من الشمس في ظلّ شجرة تورنفوريّة ويدخّنَ سيجارةً إنجليزيّة.

جُلتُ في جزيرة غابريال بحثاً عن آثارٍ، عن قبور. أمسكَت ليلي بحربة (قضيبٍ حديديّ بسيط مشحوذٍ من أحد طرفَيه) ورأيتها تمضي نحو الشّعابِ المرجانيّة كي تصطاد الأخطبوط الشائع (Octopus vulgaris).

الجزيرة مُقفِرة، خاليةٌ من الآثار، إلّا من نصُبٍ تذكاريٍّ شُيّدَ من حجرٍ بركانيّ مدعّم بالإسمنت، يمثل قبر شخصٍ يُدعى هوراس لازار بيغرد، توفّي بالجدري في عام 1887 عن عمرٍ يناهز السابعة عشرة. أمّا مِن جميعِ المهاجرين الآخرين الذين وصلوا على متن **ليداريه**، أو **فوتيه مبارك**، وهُجِروا على الجزيرة، فلم يبق أيّ أثرٍ. إذ محَت الرياح والأمطار والشمس وعجاج البحر كلّ شيء. وفيما كنت أتسلّق القمّة المركزيّة حيث غُرسِ قديماً عمود الإشارة، الوسيلةُ الوحيدة للتواصل مع موريشيوس، سمِعتُ للمرّة الأولى صرخاتِ طيور رئيس البحر (Phaeton) rubricauda المبحوحة. فقد تنبّهَت لوجودي وأخذَت تحوم حول القمّة كي تحميَ أعشاشها.

ثّمـة شيءٌ غريبٌ هنـا، شيءٌ يتسـلّل إليّ رويداً رويـداً، دون أن أفهم. ظننتُ أنّنـي قـادمٌ إلى هاتَـين الجزيرتَـين كزائرٍ فضـوليّ مجهـول. وأنّـى لي أنْ أكون غير ذلـك؟ فهـذا الجَـدّ الـذي أعـرف القليل عنـه، وجـدّتي سـوزان، القريبـةُ جدّاً بقـدر مـا هـي بعيـدة، هـذه السـيّدة العجـوز ذات الشَّـعر القصـير والنظـرة السـاخرة التـي كانت تـروي ليَ القصص وتتلو علـيّ أبيات **المركب السّكران** وقصائـد لونغفيلـو- كيـف لي أن أتخيّلها هنـا، في حياة أخرى مختلفة، عاشـاها قبـل أنْ أولـد؟ وهـذا الغريـب الـذي أحمل اسـمه، مَن رحـل إلى الأبـد، وتخلّى عـن كلّ شيء مـن أجـل امـرأة، ولـن يتسـنّى لي أبـداً معرفـة أيّ شيء عنـه، كما لـو كان ينتمـي إلى بقايـا حلـم، ولعلّـه قد رحـل إلى الجـزر البعيـدة، **أغاليغا أو ألدابـرا أو خـوان دو نوفـا** في قَنـاة موزمبيق.

ومـع ذلـك، يـراودني انطبـاعٌ أنّهـم مـا زالـوا هنـا، أُحـسّ بنظراتهـم مصوّبـةً نحـوي، مثـل نظـرات الطّيـور التـي تحـوم حـول القمّـة. إنّ كلّ حجّـرٍ وشـجيرةٍ هنـا تحمـل حضورهـم، وصـدى صوتهـم، وأثر أجسـادهم. إنّهـا رعشـةٌ، هـزّةٌ بطيئـةٌ خفيفـة. وقـد اسـتلقيْتُ عـلى الأرض السـوداء، بـين كتـل البازلـت، كـي أحـسّ بهـا مِـن كثـب.

عـلى الشـاطئ، بـدأ صـبر دُني ينفـد. سـيهبط المـوج، وفي غضـون لحظـاتٍ قليلـةٍ سيسـتحيل علينـا الاقـترابُ مـن رصيـف جزيـرة بـلات. ولكـي يعـبرَ القنـاة، أدار المحـرّك للحظـاتٍ، وانسـاب القـارب بـما بقـيَ لـه مـن سرعـةٍ بعـد توقّـف المحـرّك. كانـت ليـلي تقـف في مقدّمِـه. إنّهـا ابنـةُ صيّـاد حقيقيّـة، كانـت تضغـط عـلى المُـرديّ الطويـل وأصابـعُ قدميهـا المتباعـدةُ المنبسـطة تتشـبّث بالحـواف. في قعـر الـزّورق، كانـت أسـماك الأخطبـوط المقلوبـةُ تلتمـع في ضـوء الشـمس.

جرّ دُني طَرف الزّورق إلى الشاطئ على يسار الرّصيف، ومضى يبحث عن موضع يستظلّ به كي يدخّن سيجارةً أخرى. إنّه لا يسأل عن شيءٍ أبداً. فلا بدّ أنّه اعتاد مزاجيّة السّادة البيض والسيّاح.

سارت لِيلي معي على الدّرب الضيّق المفضي إلى البركان. مرّ الوقت بسرعةٍ كبيرة، وانتابني إحساسٌ أنّنا دخلنا ساعةَ الزّوال. كانت الشمس نصفَ محتجبةٍ، فاكتست البحيرة لوناً كئيباً.

لن يسعفَنا الوقت للوصول إلى البركان. بلغنا المقبرةَ المهجورة الواقعة فوق خليج باركلي. هنا أيضاً، محَت الرّيح والملح كلّ شيء، وتبعثرت المقابر هنا وهناك بين الأجمات ونبتات الحشف المقوّس والديداء الشهيرة (البطاطس الحلوة ذات الزهرة الحمراء). كانت ليلي تتقافز مثل قطّةٍ من قبرٍ إلى قبر. هي أيضاً لا تبالي بهؤلاء السّادة البيض الذين يسافرون إلى الطّرف الآخر من العالم، لا لشيءٍ إلّا ليتمشّوا على جزرٍ لا شيء فيها.

وفي أعلى المنحدر، في ظلّ فوّهةِ البركان، رأيت خليج باليساد حيث أقيمَ مخيّمُ العمّال. كانت الأمواج تتحطّم فوق بلاطات البازلت، وكان المكان وما حوله فارغاً تماماً، سوى من بعضِ الأجمات الجافّة وغابة الكزورينة التي نجت من الحرائق. وفي وسط الخليج، لمحتُ بقايا السدّ الذي دُفِنَ نصفُه في الرّمل، تكسوه طبقةٌ من الزّبد المتلألئ.

أسرعتُ إلى الطّرف الآخر من الجزيرة لأرى أنقاض الكرنتينة قبل مغادرتنا. لا بدّ أنّ زمناً طويلاً قد مرّ حتّى تنهار الأسقف على هذا النحو، إذ لم يبقَ سوى جدران الحجارة البركانيّة، وقد غزَتها الشّجيرات.

شقَقْنا طريقنا بين النباتات. جلسَت ليلي في فتحة النّافذة داخل

الغرفـةِ الكـبرى، هنالـك حيـث جلـس جـاك وليـون، ربّـما، قبـل تسـعين عامــاً. التقطــتُ بآلــةِ تصويــري القديمــة مــن نــوع «بنتاكــس» صــوراً تذكاريّــة، ليــس مــن أجـل الأطــلال بقــدر مــا هــو للاحتفــاظ بصــورةٍ لليـلي، رفيقـةِ صيفـي الوحشـيّة الطّبـاع، التـي لـن أراهـا بعـد ذلـك أبـداً. شـعّ الضّـوء الذهبـيّ عـلى وجههـا النّاعـم، وفي شـعرها المجعّـد، ومنـح بريقاً سـاحراً لحدقتَيهـا العسـليّتَين. لقـد وقعـتُ في غرامهـا، لكنّنـي لم أصارحهـا، فقــد بلغــتُ مــن الكِــبرَ مــا لا يســمح لي بذلــك، وليــسَ في عالمــي الــذي أنتمـي إليـه الآن مـا يصلـحُ لهـا.

ومـا أهميّـة الصّوَر؟ فذاكرتي ليسـت هنـا أو هناك بـين هذه الأنقـاض. إنّها في كلّ مـكان، في الصخـور، وفي منحنـى الـبركان الأسـود، وأريـج الحشـف الـلّاذع، وحفيـف الريـح، وفي بيـاض الزّبد على بلاطـات البازلـت. أردتُ أن أرى جزيـرتَي بـلات وغابريـال مُدركاً أنّني لـن أجد ضالّتي. ومـع ذلك، فإنّني أشـعر الآن، بـين تلك الجدران المعتمـة التي بلاهـا الزّمن، أن عقـدةً ما بداخلي قـد انفكّـت، كـما لو أنّنـي تحـرّرتُ وتنفّسـت الصّعـداء. فطالما اعتقـدتُ أنّني بـلا بلـد ولا وطـن، بسـبب كبـير العائلـة، وأنّنـا كنّـا منفيّـين إلى الأبـد. لكنْ، في حـين كان الـزّورق يعـبر القنـاةَ ويمـضي بعيـداً نحـو موريشـيوس، ويشـتدّ صريـر محرّكِـه كلّـما عـلا المـوج، أدركـتُ أخـيراً أنّنـي إلى هنـا أنتمـي، إلى هذه الصخـور السـوداء المنبجسـةِ مـن قلـب المحيـط، وهـذه الكرنتينة، كما لـو أنّها مسـقطُ رأسي. لم أتـرك شـيئاً في المـكان، ولم أحمـل منه شـيئاً. ومع ذلك، أشـعرُ الآن أنّنـي إنسـانٌ آخر.

حـينَ صعـدتُ إلى الـزّورق، أعطتنـي ليـلي شـيئاً، قطعـةً قديمـةً مـن الحديـد الصّـدئ التقطَتهـا هنـاك مـن البيـت المُنهـار. وضعَتْهـا في يـدي

وأغلَقت أصابعي عليها بصمت، كأنّها لي، كأنّها شيءٌ ثمينٌ كنت قد نسيته منذ زمنٍ طويل، وعدتُ لأعثرَ عليه أخيراً.

لم يبقَ لي سوى القليل من الوقت كي أفهم. أريد أن أستغلّ كلّ لحظة قربَ آنّا. والوقت بين دخولي حديقة الدّير ووجبةِ العشاء في السّادسة مساءً قصيرٌ جدّاً! لذا لا أريد حتّى الذّهاب إلى الشّاطئ أو التنزّه في بور لويس. سأباشر عملي في مختبر «فانسين» في فرنسا بعد أسبوعين. تُرى هل تنتظرني حياةٌ جديدة في الأربعين! ثمّ هنالك أمّي التي لم تتعافَ بعدُ من حزنها على وفاة أبي. وحتّى لو أردتُ البقاء، فليس لي مكانٌ أقيم فيه. فغرفة المبيت التي استأجرتُها من تشونغ لي سيعاد تأجيرها في 15 أغسطس لطيّار في الخطوط الجويّة الفرنسية يأتي إلى هنا كلّ عام. في وسعي العثورُ على بديل، أنْ أنزل مثلاً في فندقٍ في بلو باي يتردّد إليه موظّفو البنوك الإنجليز الحُمر الوجوه. لكنّي لا أجد ما يكفي من عزيمةٍ لمثلِ هذه الأمور. وموريشيوس آخرُ مكانٍ في العالم يمكنني أنْ أسيح فيه.

حتّى آنّا نفسها قد قرّرت سلفاً أنّني سأغادر. قالتْ مرّةً: «بعد أنْ تعود إلى فرنسا...» أو، كما في ذلك اليوم: «يا للخسارة! لقد مرّت اللّحظاتُ الجميلة سريعاً».

أتراني أتعبتُها؟ فقد أجبرتها على رؤيتي كلّ يوم، هي التي لا ترى أحداً وتعيش فقط من أجل تلك النزهات إلى سوق ماهيبورغ، حيث توزّع الموت على الجراء المهجورة، ودفعتُها إلى الكلامِ والتعبير عن المشاعر، والنّدم، واجترار الذّكريات، وهذا غير منصفٍ إطلاقاً. إنّها في

حاجـة إلى أنْ تسـتجمع قواهـا لتنغلـق عـلى نفسـها، وتعـودَ مـن جديـدٍ تلـك المحاربـةَ العجـوز الوحيـدة، المسـلّحة بنظرتهـا التـي لا تعـرفُ الضّعـف، مَـن لا تخـدع نفسـها بالـكلام الجميـل، بعكـس السّـادة البيـض الذيـن يبرعـون في ذلـك: كبريـاء آل أرشـمبو التـي لا تُكـسر، والشـعارُ الـذي اخترعـه جـاك مـن أجـل ليـون، أيّـام نـزل لوبـير في روي مالميـزون: الـ«**أفانابتيركس**» Aphanapteryx آخـر طائـرٍ مـن فصيلـة **مرْعـةِ المـاء** الموريشوسـيّة، المنتصـب عاليـاً عـلى رجليـه، دائـم القلـق، الـذي قـال جـاك إنّ جميـع أفـراد عائلتنـا يشـبهونه، والحامـلُ بمنقـاره الطويـل رايـةً تقـول: Ultimus mei generis[1] (الأخـير مـن نوعـي).

لمـاذا تقبّلتنـي آنّـا دون الآخريـن؟ حـين أخـبرتُ ابنـةَ عمّـي القاطنـةَ في لنـدن أنّنـي ذاهـبٌ إلى موريشـيوس لمقابلة العمّة آنّـا، صاحـت قائلةً: «آنّـا؟ إنّهـا حتّـى لـن تسـتقَبلك!» قالـت إنّهـا أصيبـت بالجنـون، ولا تـترك الدّيْـر إلا لتسـمّم كلاب الحـيّ. وإنّهـا لـو لم تكـن حفيـدةَ كبـير العائلـة، لَسُـجِنت منـذ زمـنٍ بعيـد.

كنـت عـلى علـمٍ بـما يُشـاع عـن كونهـا مجنونـة. وقـد حدّثنـي أبي عـن واقعـة دعوتهـا إلى حفـل اسـتقبالٍ في **ريـدوي** تكريـماً لأمـيرةٍ مـن العائلـة الملكيّـة الإنجليزيّـة. قالـت آنّـا في ردّهـا عـلى الدّعـوةِ إنّـه حتّـى لـو جـاءت الأمـيرة إلى بيتهـا في كاتـر بـورن، فلـن يكـون لديهـا، عـلى الأرجـح، وقـتٌ لاسـتقبالها. هكـذا ردّت حفيـدة رئيـس الحكومـةِ الجماعيّـة- مَـن رفَعَـه الملـكُ إلى طبقـة النّبـلاء، وأُطلِـقَ اسـمُه عـلى أحـد الشـوارع في كوربيـب-

(1) باللّاتينيّة في الأصل.

على دعوة رسمية! لقد أضحكتهم هذه الواقعة، لكنّهم لم يغفروا لآنّا.

لم تسألني عن شيء. إنّها، بالتّأكيد، على درايةٍ بكلّ ما يخصّني، دراستي للطّب وزواجي من أندريا ثمّ أزمة طلاقي، حياتي هذه التي هي إبحارٌ عكس التيار، في باريس وأفريقيا وأمريكا الوسطى. كان أبي يكتب لها كلّ شهر رسالة طويلة على الآلة الكاتبة، وكانت تردّ عليه دوماً، بالمظروف الجويّ حصريّاً، لأنّها كانت تخشى أن تُنزع الطوابع وتُسرق. ولمّا تُوفيّ أبي قبل عامَين، أرسلَت إلى أمّي واحدةً من تلك الرّسائل أخفت فيها ألَمها بروح الدّعابة. ثمّ توقفَت عن إرسال صحيفة لوسيرنيان، التي كانت تؤشّر فيها على أحداثٍ تعدّها ذات أهميّة. وبانقطاعها كأنّما انقطع آخر الرّوابط بيني وبين موريشيوس.

في الرّابعة عصراً، أحضرتْ كريستينا الشاي إلى الفيراندا. واحتفاءً بي، أخرجت طقم الشاي الصينيّ، آخرَ ذكرى من بيت عزبة آنّا، وهو صندوقٌ من الخوص مبطّن بالسّاتان الأحمر رُتّب فيه إبريق شاي صنبورُه على شكل عنق بجعة، وأكوابٌ من خزف سكسونيا القديم المزخرف برسمة التّنين. أشارت آنّا إلى أنّ صنبور إبريق الشّاي قد انكسر في موضعَين وأعيد لحمُه ببراعة: «حدث ذلك قبل وصولك بقليل». فتظاهرتُ بأنّني لم ألحظ شيئاً.

الشاي مركّزٌ لاذع، بلون الحبر، ومن دون رائحة الفانيليا التي يضيفونها إليه في الفنادق كي تكسبه مذاقاً غريباً. وحين سألتُ آنّا عن اسم هذه النوعيّة، قالت بسخريتها المعتادة: «اسمه ديتيه[1]. أذهب إلى الصينيّ، وأقول له: أعطِني علبةً من الـ «ديتيه»».

(1) بالكريوليّة في الأصل. وكلمة dité تعني شاي. وهي تحريفٌ للكلمة الفرنسيّة du thé.

أعلـم أنّهـا تحـبُّ هـذه اللّحظـات، حـينَ تغـرب الشـمس، وترتـدي الفتيـات الصغـيرات مـآزر وقبّعـاتٍ مـن القـشّ لـريّ الحديقـة. يقـع جنـاح آنـّا في نهايـة أرض الدّيـر، في جهـة شروق الشـمس. وقـد بنـاه جدّهـا ليكون ملجـأ للمربّيـة يايـا العجـوز، والآن صـارت آنـّا هـي مـن تشـغله. وبعـد وفاتهـا، سَـتُنقل ملكيّتـه إلى الرّاهبـات.

تحدّثَـت قليـلاً عـن الأيّـام الخـوالي في المدينـة، عن ذكريـاتٍ من زمـنٍ بعيدٍ جـدّاً حتّـى بـدت لي كأنّها حدثت في عـالم آخر، في قلب الهنـد أو الصين. حكت عـن رحـلات الصّيد مـع أبي في خليج تماران عـلى ضفاف نهـر الرومبار، حيث الفتيـان والفتيـات ينزلـون في المـاء حتّـى منتصـف الفخـذ، والفتيـات يرفعـن ثيابهـّن الطويلة لتصبح شـبكةً لصيد القريـدس. «لن تصدّقنـي إذا قلتُ لك إنّ أبـاك كان حـذِراً وخائفـاً مثل فتاة، كنت أرشـقه بالمـاء فينفجر باكياً!» عاشـت آنـّا في جنـاح الشّـهاب مـع أبيهـا والمربّيـة. وماتـت أمّهـا بالتهابٍ رئـويّ مثل جـدّتي الكـبرى أماليـا، وآنـّا لا تـزال رضيعـةً، فكانـت يايـا العجـوز هي من ربّتهـا. لم يكـن كبير العائلة يـأتي كثيراً لزيارتهـا. كان يمكث في بـور لويس، في مكتبـه في شـارع الرومبـار، حيث يدير مصنع السّـكّر ويتولّى شـؤونه التجاريّة. ضَمّـن الأرض كلّهـا، وصـار يحصـل عـلى نصـف الدّخـل بعد موسـم حصاد القصـب، مقابـل تقديمه لخدمة الطاحونـة. كان يدفع التكاليـف كلّها: الأيدي العاملـة والأكيـاس والنّقـل إلى أرصفـة الميـناء، والتخزيـن. ولكـي يضمن ألّا تعـود أرضُـه أبداً إلى نسـل أنطـوان، رَهَـنَ كلّ شيء: الحقـولَ والمصنـعَ وحتّى بيت عزبة آنـّا.

وهكـذا حُجِـزَت العزبـة ذات يـوم وبيعـت للبنـك الـذي كان هـو المسـاهم الرئيسـيّ فيـه، بـشرط أن يحـقَّ لـه العيـش في بيـت العزبـة حتّـى

وفاتـه. ولم يكـن مصـير ابنـه ومصـير آنّـا يعنيانـه في شيء. وكأنّـه أراد أنْ يتوقّـف العـالمُ مـن بعـده.

لم تحدّثني آنّـا عـن هـذا كلّـه قـطّ. فهـو ينتمـي إلى التّاريـخ القديـم. لكن لّما تـوفي أبي، وَجـدتُ بـين رسـائله تلـك الرسـالة التـي قصّـت عليـه فيهـا رحيلهـم مـن عزبـة آنـّا. في ذلـكَ الصيـف، عشـيّة الإعصـار، وتحـت سـماءٍ بلـون الحـبر، حمّـل جـدّي وأبي أمتعتهـما في العربـة، إذ لم يعـودا يملـكان حتّـى سـيّارة. كانـت سـوزان قـد سـبقتهما إلى بيـت فلوريـال، وأخـذت تنتظـر في الفيرانـدا في حـرّ العاصفـة الشـديد. كان الطريـق مـن المدينـة إلى فلوريـال طويـلاً، حيـث الخيـول تكافـح لتتسـلق الـدّرب الصاعـد نحـو بوسـونج، والرّيـحُ تمـاوج سـيقان القصـبِ الغـضّ، فهيّـئ إليهـما أنّهـما لـن يصـلا أبـداً. كانـت قمـم تـروا ماميـل أشـبه بأنيـاب سـوداء مغروسـةٍ في كتلـة مـن الغيم، والأفـقُ محـزّزاً بالـبرق، فبـدا وكأن اللّيـل قـد حـلّ قبـل الأوان. كانت آنـّا في صحبتهـما، فقـد مـرض والدُهـا، وظـلّ حبيـس بيتـه في فلوريـال. وكان أبي وآنـّا يجلسـان متعانقَـين، كأنّهـما شـقيقان، وقـد انضـاف خوفـه إلى خوفهـا. وفي الرّسـالة كتبـت لـه: «أتَذْكُـر؟ كنـا نظـنّ أنّنـا بلغنـا الجحيـم».

الآن، لم يبـق شيءٌ مـن هـذا كلّـه. لقـد أصبـح مجـرّد شيءٍ متحجّـرٍ، مثـل عقـدةٍ في الأحشـاء، مثـل جلـدٍ يغطّـي جرحـاً قديـماً. شيءٍ مـا على وجه آنـّا، وجـهِ هنديّـةٍ عجـوز، وفي أخـضر حدقتيَهـا المائـيّ، وفي تلـك السـخريّة المـرّة في كلامهـا حـين أخبرتُهـا بأنّنـي ذاهـبٌ إلى المدينـة: «لم يبـق شيء هنـاك!»

تحبّـذ آنـّا الحديـث عـن معاصريهـا. فـتروي بالتفصيـل عاداتهـم السـيّئة وعيوبَهـم، وجنـونَ عظمتهـم. كان لـدى آل أرشـمبو العديـد مـن الرّذائـل،

لكنْ ليس من بينها شراءُ لقب نبيل! فقد عرض أحدهم على العمّ المُسنّ (بعد أنْ منحه الملك إدوارد السابع لقب سير) أنْ يشتريَ لقب نبيل، وبهذا يضيفُ اسم «دو جاردان»[1] إلى اسم عائلته، فهزِئ العمّ من ذلك قائلاً: ولِمَ لا تكون عائلةَ «الإصطبل»، أو «الحظيرة»!

لدى آنا طريقتُها الخاصّة في تلخيص أصل غالبيّة النّبلاء الصّغار في موريشيوس. فلمّا جاءوا لتدوين أسمائهم في سجلاّت الشركة في لوريان، كانوا يسألونهم: «اسمك من فضلِك؟» - نيكولا. - مسقط رأسك؟ - كيرباسكان. فيكتب المدوّن في السّجل: نيكولا دو كيرباسكان.

وكانت تسخر من قصورهم وحفلاتهم، وخدمهم الكريوليّين المتنكّرين في زيّ خدمِ لويس الخامس عشر، بقفّازاتهم البيضاء وشعورهم المستعارة، وتهزأ من أمسياتهم الرّاقصة، ومن نزهاتهم وتخييمهم، وجولات صيدهم التي تسمّيها «مجازرهم».

ولديها طرفةٌ مضحكةٌ ترويها عن كلٍّ منهم. فلمّا علِمَت بنيّتي زيارة متحف المرجان الذي كان من قبلُ بيت الشّاعر روبرت إدوارد هايت، حدّثتني عن لقائها مع الشاعر وهي في العشرين من عمرها. ذات يوم، في القطار المتجّه إلى بور لويس، جلس أمامها رجلٌ بدينٌ نوعاً ما، وقدّم نفسه، وبدأ يتودّد إليها. فأوقفَته آنّا فوراً: «سيّدي، لا داعي لهذا. فلتعلمْ أنّي لن أتزوّجك أبداً».

علاوة على ذلك، فإنّها لا تُقدّر الرّجال العظماء، بل إنّهم يثيرون استياءها، باستثناء الأب دوفال الذي أنقذ العبيد، والمهاتما غاندي الذي ندمت على عدم لقائه حينَ قدِمَ إلى موريشيوس في عام 1903

(1) jardin: حديقة.

(وإنْ لم يتجاوز عمرها الثانيةَ عشرة آنذاك!)، وكان متخفّياً في زيّ عمّال مصانع السّكّر. لكنّ الإنجليز هم من حرِصوا على سريّة زيارته، كي يحرموا أهالي موريشيوس من رؤيته.

وهذا هو موضوعها الأثير الثاني، الإنجليز. فآنّا تكنّ لهم كراهيةً عميقةً، لا تخضع للعقل، ولا شفاء منها. فلمّا نفد ماء الدّير، اتّضح أنّ الجار الإنجليزيّ هو من فتح صمّامات حمّام السباحة في بيته. ثمّ إنّ ارتفاع سعر السّكّر، والبؤس، والآفاتِ التي جلبتها السياحةُ، والجفاف والأعاصير، وكلَّ المصائب سببها الإنجليز. «إنّهم متعجرفون، يستخفّون بالآخرين، ووقحون. يأتون إلى موريشيوس، ويدّعون أنّهم لا يفهمون الفرنسيّة، فنُجبرُ على التحدّث إليهم بالإنجليزيّة. وما زالوا يظنّون أنّهم سادة الكوْن».

كانت امرأةٌ إنجليزيّةٌ واحدةٌ تستحقّ الاحترام في نظرها، وهي فلورنس نايتنغيل. وقد قرأت آنّا جميع رسائلها. «إنّها الوحيدة التي تجرّأت على الوقوف في وجه فيكتوريا، وفضحت الثّمن الباهظ الذي كبّدته إنجلترا للهند من أجل بناء السّكك الحديديّة، والملايين التي فُرِضت على حكومة الهند، بينما الناس يموتون من الجوع والأوبئة».

ومن طُرَفها الأثيرةِ عن كبار القوم تلك الخاصّةِ بإعلان اليابان نيّتَها غزو موريشيوس خلال الحرب الأخيرة: فحتّى ذلك الحين، كانت الحرب محضَ خرافة. فهي تحدث في أماكن أخرى، حتّى وإن اختُلف حولَها، فأبدى بعضهم استياءه وتظاهر آخرون بالرّغبة في التطوّع لخوضها. ثمّ جاءت الأخبار: اليابانيّون قادمون! أخذ بعضُهم يكدّسُ مؤناً من الأرزّ والدّقيق في البيوت بعد أن سمّروا مصاريع

النوافذ، وانخرط آخرون في تنظيم المقاومة السلميّة. بل إنّ آنّا زعمت أنّ بعضهم أخذ يتدرّب على كلمات التّرحيب اليابانية. وحدهم العامّة من الناس من واصلوا أعمالهم لا مبالين. فهُم على كلّ حالٍ يعيشون في ضيقٍ، بحرب أو من دون حرب.

لم يصل اليابانيون قطّ، لكنّ نهاية الحرب تزامنت مع وباء الإنفلونزا الإسبانية والسّعال الديكيّ الذي قتل أعداداً كبيرة. وكان آنذاك أنْ تُوفيّت يايا العجوز، ودُفِنت في حديقة الدير، غير بعيدٍ عن البيت الذي بناه لها كبير العائلة.

لا أتخلّف أبداً عن موعدي عصرَ كلّ يوم. أنسى كلّ شيءٍ آخر، البحثَ الذي جئت إلى موريشيوس من أجله، والسعي وراء آثار ليون. ولعلّي لم آتِ هنا إلّا من أجل آنّا، دون أن أعيَ ذلك.

كنت أريد العثور على أثر المُختفيَين، ليون، ومَن أُسمّيها سوريافاتي. أردتُ أن أرى بأمّ عيني ما رأياه، **المدينة** وعزبة آنّا وماهيبورغ وفيل نوار، وكذلك جزيرتَي بلات وغابريال. الآن أدركُ أنّ هذا كلّه لا يزال حيّاً في أعماق آنّا. لقد نجت من ذلك الزّمن، وظلّ كلّ شيء حاضراً الآنَ في نظرتها وصوتها واعتدال قامتها، ووجهها الحنطيّ المليء بالتجاعيد، والمرفوع عالياً على عنقها النّحيل كرقبة سلحفاة.

بين الحين والحين كانت نساءٌ هنديّاتٌ يُقبِلنَ متهادياتٍ مثل ملِكاتٍ في أثواب السّاري الزّاهية، ويتحدّثن إلى آنّا بالكريوليّة، والبوجبوريّة[1]،

(1) اللّغة البوجبوريّة: لغة إقليميّة محكيّة في أجزاء من شمال الهند الأوسط وشرقها.

ويمكُثْـن بعــض الوقــت، حيــث يجلســنَ عــلى كــراسيّ الحديقــة التــي تُحضرهـا كريستينا مـع الشـاي. يأتـين للدرّدشـة، وأحيانـاً لطلـب المسـاعدة، أو القليـل مـن المـال.

كتبَـت آنّــا رسـالةً بخـطّ يدهـا مـن أجـل امـرأةٍ في سـنّ الخمسـين، تواجههـا مشـكلاتٌ مـع الإدارة: «هـذا سـيّدي المدير، سـأكون ممتنّـة جـدّاً إذا تكرّمـتَ...» إنّهـا تعـرف كيـف تَسـتخدم هـذه العبـارات المواربـة دون أنْ تثقـل عـلى الآخريـن. ثـمّ إنّهـا تحمـل اسـم أرشـمبو، بـما لـه مـن مكانـة: «عـلى أيّ حـالٍ، فـإنّ هـذا الاسـم قـد ينفـع في شيءٍ مـا، عـلى الأقـلّ».

كان في هـذه الزيـارات مِسـحةٌ مـن جـلال المـاضي، فهـي تحمـلُ شـيئاً مـن زمـن عزبـة آنّـا، قبـل أنْ يُدمّـر كبـير العائلـة كلّ شيء، وحـينَ كان طيـف السّـعادة الدافـئ التـي كنّـا نظنّهـا أبديّـة ماثـلاً بعـدُ عـلى هـذا الطّـرف مـن الجزيـرة. خفَـق قلبـي بقـوّة، كـما هـو الحـال عندمـا صعـدتُ منحـدر الـبركان في بـلات ورأيـت خليـج باليسـاد يتكشّـف أمامـي. هـذا مـا جئـت باحثـاً عنـه في موريشـيوس. وهـا أنـا، بفضـلِ آنّـا، ألمـسُ أخـيراً ذكـرى الكرنتينـة، ذكـرى اللّحظـة التـي رحـل فيهـا جـاك وسـوزان، وظـلّ ليـون وسـوريا عـلى الشـاطئ.

كان النّهـار إلى زوالٍ، والحديقـة مغمـورةٌ بنـورٍ ذهبـيّ. هـذا هـو وقـت آنّـا الأثـير مـن اليـوم. تسـمّيه «نُثارَهـا الذهبـيّ»، «تِبْرَهـا». في المدينـة، في عزبـة آنّـا، كان لـكلّ شيءٍ هـذا اللّـون، وللجبـال ظـلالٌ أرجوانيّـة. وكان جـاك يضـع منصـبَ الرّسـم قبالـة الرّومبـار[1]، ويرسـم بالألـوان المائيّـة،

(1) Le Rempart، ومعناها المتراس أو السّور، اسم منطقة في جزيرة موريشيوس يجري فيها نهر يحمل الاسم ذاته. (المُراجِع)

فيأتي نويل وآنّا ليشاهدا، فيشرح لهما جاك: «إذا لم تكونا واثقَين من اللّون، فاطرفا بأعينكما، وستريان اللّون الذهبيّ، والظلّ الأرجوانيّ».

احتفظتُ بلوحةٍ واحدةٍ فقط، تلك التي كانت جدّتي سوزان تعلّقها في غرفتها، فوق سريرها، وتصوّر جانباً من النّهر قرب بوسونج، حيث خطٌّ قمم تروا ماميل في العمق. وفي الأمام، طيفا طفلَين بلباسَين طويلَين متطابقين، وقبعتَين مستديرتَين متماثلتَين، كما لو كانا توأمين. أحدهما نويل، أبي، والآخر آنّا. أبي بشعره الأشقر بلون القشّ، وآنّا بكتلةِ شعرها الأسود، مثل هنديّة.

كانت تلك هي السّاعة التي تسبق انتشار البعوض. رفعت آنّا يدها فجأة: «أصْغ!». في البعيد، من فوق سور الدّير وشوارع ماهيبورغ العاجّة بالنّاس، سمعتُ صوت المؤذّن محمولاً مع نسمةِ الغروب، يدعو المؤمنين للصّلاة.

همسَت آنّا: «لن أستطيع العيش أبداً في مكان لا أسمع فيه هذا الصوت». كان وجهها يخلو من أيّ تعبير، لكنّ نظرتها سرحت في البعيد حالمةً، تأثّراً بالعاطفةِ التي كان يبثّها صوت المؤذّن الرقيق. «أسمعه مذ كنت طفلةً في المدينة. كان رجلٌ مسنٌّ يصعد إلى سطح مصنع السّكّر، فيصدح بصوتٍ شديد الصّفاءِ يصلُ إلى كلّ مكانٍ في الحقول، وفي القرية، بل حتّى إلى بيتنا. وكنت أحبّ أذان العشاء خاصّةً. كان فائق العذوبةِ، تسمعه فتشعر أنّك أحسن حالاً، وتعلم أنّ الله يَسمع أيضاً».

لمحتُ في عمق الحديقة، بين أشجار الموز العملاقة، طيف المرأة المجنونة. كانت تراقبنا وهي تمشي دائسةً سيقان النبات. لاحظتُ أنّ آنّا قد ارتعدت. أتُراها تخاف حقّاً، خلافاً لما تقول؟ وحينَ أوشكتُ

على المغادرة، تقدّمت المجنونة غاضبةً، ومرّت من خلف آنّا، سمعتُ شتائمها التي تتدفق من فمها الرّخو. والعبارةَ نفسها دوماً: «أرشمبو، القذرة».

كيف كان لي أنْ أعيش من دون آنّا؟ كيف كان لي أنْ أنجوَ؟

ففي ذلك المساء، وخلافاً لوصيّتها، فتحتُ الكرّاس القديم حيث كتبَت قصّة سيتا بخط يدها المائل قليلاً.

الحبر باهتٌ في بعض الأماكن، والورق مصفرّ، وهو من نوع الورق الذي كان يُصنَع من القشّ المتقصّف في مطلع القرن، ويتفتّت تحت الأصابع. ويا لها من معجزةٍ أنّ الكرّاس لا يزال موجوداً!

فمَن هي سيتا؟ لا تكتب آنّا مثلما تتحدّث. فلا شيء يجرح أو يُدمّرُ في هذه الصفحات. إنّها قصّةٌ بسيطةٌ عن فتاةٍ نشأت في المدينة، كانت الأثيرةَ عندها، صديقتها الوحيدة، وسرَّها.

تبدأ القصة هكذا، بهذه الكلمات التي لا تزال عالقة في ذهني مثل العبارة الأولى من رواية لم تكتبْها: «كان لي صديقةٌ سريّة».

لم تخبر آنّا أحداً بذلك على الإطلاق: بعد المدرسة ثمّ الدّرس الدينيّ الذي كانت تتلقّاه على يد مدرّسةٍ فرنسيّة من بوردو، في عزبة آنّا، كانت تعبرُ حقول قصب السّكّر وصولاً إلى مكانِ التقائهما.

ومع أنّ سيتا في مِثلِ عمرها، أيّ في الثالثةَ عشرة، فقد كادت تكون امرأةً، وكانت جميلةً، وقد بهرت آنّا، فأرادت أنْ تصادقها لجمالها قبل كلّ شيء. في أوقاتِ العصر، تكون سيتا قد انتهت من أعمالها الشّاقة في المزرعة، فيتسنّى لها الجلوس في ظلّ نخلةِ الأريكا الصفراء الضّخمة،

قريباً من مصنع السّكّر. هكذا لم تعُد آنّا البنتَ الوحيدة البريّة، سجينةَ ذلك البيت الواسع وقتَ اقتراب العاصفة، وحيث بدأ التهديد بالطّرد بعد تسوية الحسابات.

فالآن، برفقةِ سيتا، في وسعها أنْ تنسى كلّ شيء. كانتا تثرثران لساعات، عن كلّ شيء ولا شيء، كما لو أنّهما تربّيتا معاً، وكأنّما عثرت كلّ منهما على نصفها الآخر.

وكانتا تعيشانِ أيضاً لحظاتٍ من صمتٍ طويل، تستلقيان فيها على العشب بين الأجمات، وتحدّقان في السّماء ذات الزرقةِ الحادّة حيث تنساب الغيوم ناعمةً كالرّيش. وأثناء الشتاء، كانتا تظلّان معاً في الخارج. تمشيان على طول الدروب، بين القصب الذي يتجاوزهما طولاً، حتّى إذا جاء موسم الحصاد، لجأتا إلى أطلال قمين الجير قريباً من البحر، حيث تتمشّيان يداً بيد، وتُريها سيتا كيف ترقص باستخدام حركات الذراعَين، وتحريك العينَين، وضرب الأرض بالقدمينَ الحافيتَين، وتُعلّمها الأغاني الهنديّة القديمة، التي هي نفسُها لا تفهمها. وكانت سيتا تكحّلُ عينَيها الواسعتَين بخطٍّ أسودَ رفيع، وتبيّن لآنّا كيف يُصنَع الصِّباغ من مسحوق خشب الصندل الممزوج بالطين. ذات يوم، رسَمت على جبين صديقتها القطرة السحريّة التي وضعتها الإلهة يامونا على جبين شقيقها ياما كي تعبّر له عن محبتها الأبديّة. وكان لسيتا عينان واسعتان، وحدقتان من مزيج الذّهب والغيم، وكانت آنّا تقول إنّه يمكن للمرء أنْ يسافر فيهما.

ظلّتا تلتقيان في موسم المطر، في يناير من ذلك العام. لكنّه كان أيضاً العام الذي شهد المآسي كلّها. فقد حاك كبير العائلة خيوط

المؤامرة لطرد جميع سكّان عزبة آنّا، بمن فيهم ابنه. باع البيتَين وحقول القصب والطّاحونة. كانت سيتا تأتي إلى موعدها عصر كلّ يوم محتميةً من سوء الطّقسِ بمظلّة سوداء كبيرةٍ أحضرتها لها خالتها من بونديشيري. كانتا تسيران معاً، متلاصقتَين تحت المظلّة، حافيتَين في برك الماء، أو تجلسان تحت نخلةِ الأريكا الصفراء، أو تحت أشجار التورنفوريّة على الشاطئ.

وحينَ رحلوا عن البيت، ارتأَت آنّا أن ترى سيتا مرّة أو مرّتين في الأسبوع فقط. فكانت أحياناً تستقلُّ العربة التي تهبط إلى المدينة، أو تأتي سيتا بدورها إلى فلوريال. كان ظرفاً معقّداً، لكنّه مثيرٌ في الوقت ذاته. إذ كانت الصديقتان تتجوّلان في طرقات المدينة، وتذهبان لتناول كعكة الفلفل الحارّ في المطعم الصينيّ في كاتر بورن، وقد بات لديهما الكثير لتتحدّثا فيه!

ذات يوم، وصلت سيتا إلى الموعد لاهثةً. كانت تحمل أخباراً رائعة: فبعد أنْ تُوفّي والدها، قرّرت والدَتها الاستقرار في كاتر بورن. الآن تستطيعان أنْ تلتقيا من جديد كلّ يوم بعد المدرسة. ووقع اختيارهما على مكانٍ في منتصف الطريق، عند فوينيكس، قريباً من خط السكّة الحديديّة، حيث سيكون على كلٍّ منهما أنْ تسير مدّة نصف ساعةٍ للوصول إليه. هناك، ثمّةَ جذع شجرة كبيرةٍ كسرتها العاصفة ملقىً على المنحدر، يصلح لأن يُتّخذَ مقعداً. وفي حال هطل المطر، ستلجآن إلى حديقة ديْر بون تير.

عاد الشّتاء. وغدت سيتا الآن شابّةً، تبدو بقامتها الرشيقة وذراعَيها الطويلتين النحاسيّتَين، وصدرها، وشعرِها الغزير الملموم في عقصة،

كأميرةٍ هنديّة، فتدير أعناق الرّجال جميعاً. وقد كبُرت آنّا أيضاً، لكنّها ظلّت نحيفةً جدّاً وشاحبةً. قصّت شعرها الأسود الجميل، فبرزت ملامُحها الحادّةُ الذكيّة. ولكي تُخفي نهدَيها، كانت تشدّ صدرها بمشدّاتٍ من الكتّان تحت فستانها الرماديّ. إذ كانت لا تحبّ الطريقة التي ينظر بها الفتيان إلى سيتا، وكانتا تسخران معاً منهم، وتهربان ضاحكتَين عبر الدرب وصولاً إلى الشّجرة الكبيرة المقطوعة.

ذات أحدٍ، لم تأت سيتا إلى الموعد بعد الظّهيرة. كانت تُمطر بغزارة، وانتظرت آنّا طويلاً بجوار الشّجرة تحت المطر البارد والسماء المكفهرّة. ولّما رأت اللّيل مقبلاً، ركضت إلى فلوريال لاهثةً.

كانت تلك أوّلَ مرّة تقدمُ فيها على فعل كهذا، فعنّفها والدها بشدّة. ولعدّة أيّام، ظلّت محبوسةً في غرفتها، تراقب المطر المتساقط فوق نباتات الحديقة. ثمّ مرضت على إثر البرد الذي أصابها في ذلك اليوم من طول الانتظار تحت المطر.

ولما تعافت، أحسّت بخواءٍ شديد. بدت الأيّام طويلةً من دون سيتا. فبعد درس الدّين، لم يكن لديها ما تفعله. فضلاً عن ذلك، فإنّ الأمور لم تكن على ما يرام في البيت. كان والدها مريضاً ومُنهاراً. وقد استقرّ كبير العائلة مكانهم في عزبة آنّا ومنع الزيارات. قالت يايا العجوز إنّه قطع كلّ النخيل الكرنبيّ، وسمّر المصاريع السفليّة خوفاً من اللّصوص. وبعد القطيعةِ مع ابنه، طرد جميع حلفائه، وحلّ حزب **النّظامَ الأخلاقيّ**، وأعلن نهاية حلم الحكومة الجماعيّة. وبات جليّاً أنْ لا عودةَ أبداً إلى عزبة آنّا.

ولكن ذات يوم، فيما كان والدها يغطّ في النّوم، رأت آنّا سيتا مرّة

أخرى. كانت تقف في الشارع أمام البيت تحت مظلّتها السوداء الكبيرة. هُرِعَت آنّا إلى الخارج بقلب يغمره الفرح، فتعانقت الصديقتان طويلاً. لكنّ أنا لاحظت أن شيئاً ما قد تغيّر، ظلّت عينا سيتا محتفظتَين بلمعانهما، غيرَ أنَّ ملامحها كانت جامدة، وبشرتَها شاحبة. وصار عنقُها أكثر امتلاءً، وفي منتصف جبهتها، كان الخطّ الذي يفرق شعرها مصبوغاً باللّون الأحمر الدّاكن.

وبعد العناقِ، تراجعت سيتا خطوةً إلى الوراء. حدّقت في آنّا للحظة دون أن تقول شيئاً، وكأنّها تبحث عن كلماتها. ثمّ اكتفت بالقول: «لن يعود في وسعنا أنْ نلتقيَ بعد الآن. فقد تزوّجت، وجئت لأقول لك وداعاً». تساقطت الأمطار الغزيرة على المظلّة السوداء، وكانت قطراته تسيلُ ثمّ تتّحِد وتسقط ثقيلةً من حواف المظلّة. أخذت آنّا تتأمّل قطرات المطر دون أنْ تقوى على الكلام. وفي الشارع، كان الناس يهرولون، والنساء العائدات من الحقول ملتفّاتٍ بأردية الخيش، ومعاولُهنّ مثبّتةٌ على رؤوسهنّ. وكانت السّماء الخفيضة تتكئ على قمم الأشجار.

شعرَت آنّا بالغثيان، وبقشعريرة الحمّى تسري في ظهرها وكتفيها. وفي لحظةٍ ما ظهر والدها عند مدخل الحديقة، فأخفضت سيتا مظلّتها، ووضعت جزءاً من شالها الأحمر على فمها، ربّما لحماية نفسها من البرد، ومشت سريعاً إلى نهايةِ الشارع، نحو خطّ السكّة الحديديّة، في طريقها إلى **فاكواس**.

ولمّا دخلت البيت، كان والدها يحملُ منشفةً على كتفه، سألها: من هذه؟ فأجابت آنّا: «لا شيء... لا أحد».

لم ترَ سيتا بعد ذلك اليوم قطّ. ظلّت الشجرة زمناً طويلاً في مكانها على الطريق، قرب خطّ السكّة الحديدية. ثمّ في أحد الأيام، قطّعها مرمّمو الطرق بالمنشار وأخذوا القطع.

غادرتُ موريشيوس دون أن أعرف إنْ كنت سأعود إليها، وليسَ في يدي شيءٌ مما أتيت باحثاً عنه. وعلى الرغم من مرور الزّمن - ما يقرب من مائة عام - فلا شيء مما دمّره كبير العائلة يمكن إصلاحه. إنّه هو من انتصر، ومازال منتصراً حتّى وهو في ضريحه الرّخاميّ الأسود في مقبرة حديقة النبات.

لم يبق شيءٌ من الماضي، ولعلّ هذا خيرٌ. إذ كيف يمكن العيشُ مع ذكرى الدّم المسفوح والمنفى، وذكرى رجالٍ قُدّموا قرابين لمولوخ[1] قصب السّكّر؟ فما محاه ألكسندر أرشمبو عن وجه الأرض بكبريائه لم يكن ذا قيمةٍ في نهايةِ الأمر: البيوتَ الاستعماريّة، وزهْوَ الباحات ذات الأعمدة، وشعارَ الشّهاب على واجهة البيت، والشرفاتِ الخاملةَ حيث كانت تجول الحمّى، وبرك المياه التي غزاها ياسنت الماء، وحيث يُسمع كلّ ليلةٍ نقيقُ الضّفادع المتعاقب. ثمّ كلّ هذي الأسماء والألقاب، والشّعارات البرّاقة والذكريات المخترعة، كلّ هذا التّبرْ الزّائف، وكلّ هذا الذّرّ للرّمادِ في العيونِ، وهذه الأقنعة.

وفي المقابل، فإنّ أولئك الذين ينبغي عدم نسيانهم أبداً هم المهاجرون الأوائل من إقليم بروتاني، الفارّون من المجاعة والظلم

(1) إشارة إلى الإله الكنعانيّ مولوخ، الذي كانت تُقدّم له الأضاحي من الأطفال حسب العهد القديم.

بحثاً عن جنّة عدنٍ جديدة، قادمين من مدن **سان مالو وفان ولوريان وبيمبون، وبونتيفي ومور دو بروتاني**، كلّ أولئك الذين أذلّتهم الشركةُ الأشدّ قسوةً في العالم وتخلّت عنهم في الجزر البعيدة، وكانت تُحصّل أرطالها من اللّحم كلّ عامٍ من أجسادهم.

من ينبغي عدم نسيانهم هم تجّار الرّقيق بأسماء بواخرهم المُرعبة، **فينيكس، وأوراكل، وأنتينور، ولوبرنس نوار**، كلٌّ منها محمّلةٌ بخمسمئة من الرجال والنساء والأطفال، أُسِروا على سواحل موزمبيق وزنجبار ومدغشقر، وقيّدوا بالسلاسل اثنين اثنين، وزُجّ بهم في قعر السفّن في مساحةٍ لا تتجاوز خمسة أقدام وخمسَ بوصاتٍ في خمس عشرة بوصة، وارتفاع قدمَين وست بوصاتٍ. وينبغي ألّا يُنسى اسم القبطان **لارالد**، من مدينة **نانت**، الذي جمع ثروته من حصوله على نسبة خمسة في المائة من سعر كلّ عبدٍ يباع في **بوربون وإيل دو فرانس**. ولا أنْ يُنسى أبداً العمّالُ الهنود، «البيادق» الذين استُدرجوا إلى متن القوارب في **كلكتّا ومَدْراس، وفيساخابتنام**، الشبّان الذين اختطفهم متعهدو العمّال والعُرَفاء والمتنفّذون من قراهم، وبيعوا لوكلاء شركات السّكّر، وكُدّسوا في المعسكرات، دون رعايةٍ ولا صرفٍ صحيّ، وبلا طعامٍ أو باليسير جدّاً منه، وحُمّلوا على متن سفن العبيد الجديدة: **ريغات وغوناما وتانجور**، في رحلةٍ لا عودة منها. وألّا ننسى **ألفونسين وصوفي وإيسترن إمبيرَ وبونغولا**، ولا السّفينة **ليداريه** التي غادرت كلكتّا في يناير عام 1856 محمّلةً بالمهاجرين من ولاية عوَض وبوجبور، الهاربين من المجاعة والحرب والقمع الإنجليزيّ ضدّ متمرّدي السيبوي، ثمّ تخلّت عنهم وتركتهم لشهورٍ على صخور بلات وغابريال الجرداء.

كلّ ذلك وأنصارُ الحكومةِ الجماعيّة، والأعضاءُ البارزون من حزب مُلاّك المزارع في موريشيوس- الذين كانوا يكتبون المقالات في صحيفة ألكسندر أرشمبو تحت عنوانٍ طنّان أجوف: «**نظام، قوّة، تقدّم**»-، يتظاهرون بأنّهم لا يسمعون ولا يرون.

كيف لم يسمعوا نداءات الاستغاثة؟ ولَمْ يروا النيران المُستنجِدةَ، موقَدَةً كلّ ليلةٍ على قمّة البركان أسفل جدار المنارة العبثيّة المتهالك؟ لا بدّ أنّهم كانوا يشتمّون أحياناً، حين تهبّ رياح الشمال، رائحةَ النار والمحارقِ التي تلتهم جثث المهاجرين، رائحةَ الموت القاسية تلك. في ذلك العام عقبَ عواصف فبراير، ساد هدوءٌ رائعٌ، فغدت مرآة البحر مصقولةً، وزرقةُ السّماء حارقةً. أكانت الشمسُ مبهرةً إلى حدٍّ منعهم من إلقاء نظرةٍ صوبَ الجزيرتَين الصغيرتَين قبالة كاب مالورو، ذيْنك الطّوفين الأسودين حيث عاش المهاجرون مثل ناجين من الغرق؟ أمْ كانوا في بور لويس فاقدي الذّاكرة فلم يرتَفِع صوتٌ واحدٌ من بينهم يطالب بإرسال المساعدة، وإنزالِ مركبٍ شراعيّ في البحر لتحرير سجناء الكرنتينة؟ ولمّا وصل مركب خفر السواحل التّابع للخدمات الصحيّة إلى الجزيرة في يونيو أخيراً، بعد خمسة أشهر من النسيان، لم يكن قد بقي من العمّال الثمانمائة سوى بضع عشراتٍ على قيد الحياة. كانت آثار المحارق الجنائزيّة في كلّ مكان، على الشواطئ في خليج باليساد وخليج باركلي، وعلى شاطئ جزيرة غابريال. وقد عبثَت الطيور البحريّة ببقايا البشر بين الصخور والشجيرات، وتراكمت الجثث بين القبور، إذ لم يتوفّر ما يكفي من وقودٍ لحرقها، أو لأنّه لم يعد في استطاعةِ أحدٍ الاعتناء بموتاه ودفنهم. ومضى النّاجون القلائل يتجوّلون في أنحاء الجزيرتَين هائمين على وجوههم، تبهرهم أشعّةُ الشمس ويدوّخهم هدير البحر.

لم أجد مَن أتيت باحثاً عنه. ربّما صارت حياتُه أسطورتَه، مثل حياة رامبو، الذي أردتُ أنْ يشبِهَه. ثمّة صورةٌ في ألبوم جدّتي سوزان كنت أتأمّلها كثيراً في طفولتي وتجذبني أكثر من غيرها. صورةٌ بألوان السيبيا، محاطةٌ بإطارٍ من الأرابيسك، لصبيّ يافعٍ نحيلٍ وأسمر، له هيئةُ غجريٍّ، بشعرٍ أسود كثيف، وعينَين واسعتَين مُتعبتَين قليلاً، وظِلّ شاربٍ على الشّفة. لم يُكتَب أيّ اسم ولا تاريخ أسفل الصّورة، وطالما أنكَرتْ سوزان أنّها صورة ليون. كانت تقول إنّها بالأحرى لفردٍ من عائلة وليام، صِهرٍ مجهولٍ. لكنّني لم أشأ الإقرار بتفسيراتها.

لا بدّ أنّ الصورة قد التُقِطت في باريس، في العام الذي غادر فيه جاك إلى لندن لدراسة الطّب. حينها، كان ليون لا يزالُ نزيلاً عند مدام لوبير في روي ماليزون. هكذا تخيّلتُه أثناءَ استعدادِ جاك للرّحيل الكبير إلى موريشيوس، وهكذا تخيّلتُ أنّ رامبو قد رآه في غرفة المشفى الحكوميّ في عدن. دخل جاك الغرفة الضيّقة الخانقة، يغمرها الضوء الأحمر المنعكس من رمال الصّحراء، فيما ظلّ ليون على عتبة الباب متسمّراً، وقد هاله منظرُ ذلك الرجل المُحتضَر. ولطالما تأمّلتُ هذه الصّورة في ألبوم جدّتي. تأمّلتُها إلى حدٍّ كنت أنسى معه أحياناً من أكون، كأنّني قد بدّلت جسدي ووجهي، فصرت ليون، ليون الآخر، ذلك الذي قطع كلّ الأواصر وغيّر كلّ شيء حتّى اسمه، كي يرحل مع المرأة التي أحبّ. وذات يوم اختفت الصورة من الألبوم دون أن أعرف ما حلّ بها.

هكذا فإنّ كلّ شيءٍ مختلَقٌ ووهميّ، مثل الحياة التي تغيّر مسارها على الدّوام في حلم يتتابع ليلةً بعد ليلة. مات أبي، ومات جدّي جاك وجدّتي سوزان، ولا أحتفظ منهم سوى بكلماتٍ وأسماء غريبةٍ غير

واقعيّـة، صـوتِ أسـطورةٍ بـدأت في جزيـرتَي بـلات وغابريـال، حيـث تشـظّى كلّ شيءٍ إلى الأبـد.

عرفـتُ دومـاً أنّنـي كنـت أحمـل هـذا الـشّرخ داخـلي. لقـد وُهِـب لي عنـد الـولادة، مثـل علامـة، مثـل طعـم الانتقـام. وحـين غـادر أبي عزبـة آنّـا، وكان في الثانيـة عـشرة مـن عمـره، اسـتقرّ هـذا الـشّرخ القديـم فيـه، ودام وامتـدّ عامـاً بعـد آخـر حتّـى تسـلّل إليّ. هكـذا أصبحـتُ ليـون الآخـر، الـذي اختفـى، وأدار ظهـرَه للعـالم، عـلى أمـل أن يعـود يومـاً، ويقـفَ مبتهجاً عـلى خرائـب مـن طـردوه. فأنـا مثـل ليـون سـاكنِ النـزّل القـارسِ الـبردِ في روي ماليـزون، أحلـم بالبحـر المُبهـر، وبهديـره عـلى الصّخـور السّـوداء في محيـط عزبـة آنّـا. يومـاً مـا سـأعود، وسـيعود كلّ شيء مـرّة أخـرى، كأنّ الزّمـنَ لم يمـرّ. سـأعود، ولـن يكـون ذلـك مـن أجـل أنْ أمتلـك ثـروة صانعـي السّـكّر ولا الأراضي، وإنّـما مـن أجـل جمـعِ مـا تشـتّتَ، ولمّ شـملِ مـن تفرّقـا، الشّـقيقين جـاك وليـون، ولكـي يتّحـدَ فيَّ، مـن جديـدٍ، ذانـكَ الجـدّان اللّـذان لا ينفصـلان، البروتـانيّ والهنديّـة، المقيـم في أرضـه والرّحالـة، حليفـاي اللّـذان يعيشـان في دمـي، بـكلّ مـا كانـا يحملانـه مـن حـبٍّ وطاقـة حيـاة.

أجـل، إنّ سـوريا وليـون همـا مـن أفكّـر فيهـما الآن. يشـقّ علـيّ أنْ أتخيّلهـما شـائخَين، مريضَـين ومنهكَـين مـن الفاقـةِ والكـدّ في الحقـول. سـوريا! هـل صـارت سـيدةً عجـوزاً ممشـوقةً مثـل أمّهـا الإنجليزيّـة، محتفظـةً بعـدُ بذلـك البريـق الشّـفيف في عينَيهـا، كأنّـه انعـكاس المـاء؟ أم هـل غـدت «سـاحرةً» مداويـةً، خبيرةً بمنافـع ورق الشـجر وبالمسـح

علـى رؤوس الأطفـال وطـردِ الأرواح الشرّيـرة التـي تسـعى دومـاً إلى اختـراق قلـوب البـشر؟ أم أنّهـا تقـصّ حكايـاتٍ لا تنتهـي عـلى أحفادهـا، وأسـطورةَ لاكشـميباي، ملكـة جانـسي، أو تغنّـي لهـم أغنيـة اللّـص بلغـة الـدّوم المعكوسـة؟ وهـو، هـل أصبـح نحيفـاً ونحيـلاً مثـل آل أرشـمبو؟ هـل صـار يرتـدي مئـزراً فقـط، مثـل حكيـم مُسـنٍّ مـن الهنـد، هـل يطيـلُ لحيـةً ويشـذّبها بمقـصٍّ مثـل جـدّي حـين كان في الثّمانـين؟ لكـنْ مـن الأكيـدِ أنّـه احتفـظ حتّـى في شـيخوخته، بعينَيـه الشّـديدتَي السّـواد والعذوبـة، عينَـي أمّـه الأوراسيّة، التـي كانـت آنّـا سـتقول عنهـا: عينَـي ظبيـة.

وأُحـبّ أن أتخيّـل أنّـه كان يشـبه ذلـك الفتـى الـذي التقـاه جـاك في طفولتـه، شـقيَّ حانـة سـان سـولبيس، ذا النظـرة الثّملـة الطافحـة كراهيـةً وكحـولاً، مـن كان يجيـد كتابـة الكلـمات الرّشـيقة. لـذا فمثلُـه مثـل المسـافرِ الأبـديّ، مُسَـمِّمِ الـكلاب في هـرَر، مـا كان لـه أنْ يشـيخ. كان لا بـدّ أن يبقـى أبـداً شـاباً بهيّـاً، مُتّقـداً بلهـبٍ لا ينطفـئ. في التاسـع والعشريـن مـن أبريـل 1892، اجتـاح موريشـيوس واحـدٌ مـن أفظـع الأعاصـير عـلى مـرّ الأزمـان، حيـث سـجّل مقيـاسُ سرعـة الريـاح، قبـل أنْ يتحطّـم، سرعـةً بلغـت ثلاثمائـة كيلومـترٍ في السّـاعة. وقـد دُمّـرت كلّيـاً منـارة بـلات التـي كان قـد أُعيـد بناؤهـا حديثـاً، وتهـدّم السّـدُّ الـذي بنـاه المهاجـرون في خليـج باليسـاد في سـاعات قليلـةٍ، فلـم يبـق منـه سـوى الجَـذْع الـذي ظـلّ قائـماً حتّـى اليـوم.

وسـقطَ كثـيرٌ مـن الضّحايـا عـلى السّـاحل الغـربيّ لموريشـيوس، دُفنـوا تحـت الأنقـاض، أو سـحقتهم جـذوع الأشـجار المُقتلَعـة، وغـرق الكثـير مـن

قوارب الصيد، أو لُفِظت على الشاطئ، وقد وصل بعضها إلى مسافة مائة مترٍ في اليابسةِ بسبب المدّ العالي.

إنّه الإعصار الذي تزامنَ مع أفولِ عزبة آنّا، وجنون كبير العائلةِ المدّمر، وبداية احتضاره البطيء. ويحلو لي أحياناً تخيُّلُ أنّ ليون وسوريافاتي- (هذا هو على كلّ حالٍ الاسم الذي اخترته لها، تخليداً لذكرى أميرة كشمير التي كتب سوماديفا من أجلها **محيطَ الحكايات**، الصيغةَ الأولى من ألف ليلة وليلة) - قد اختفيا إلى الأبد في غضبةِ السّماء والبحر تلك، وأنّها أعادتهما بطريقةٍ أو بأخرى إلى عزلة البحيرة في جزيرة غابريال، حيث التقيا للمرّة الأولى.

ثمّ إنّني أفكّر في الطّفل الذي حملتْ به سوريافاتي، الجنين الذي تكوّن في رحمها في الجزيرة، وولِد في العام نفسه الذي ولد فيه كلّ من آنّا ونويل. أفكّر به كأنّه صورةٌ منسيّةٌ من بين صور العائلة، طيفٌ، أخٌ مجهولٌ أو أخت. وبسبب هذا الطّفل، لا يمكنني الإقرار باختفاء ليون وسوريا في الإعصار. ويبدو لي أنّني يوماً ما، في صدفةٍ من صدف الحياةِ، سأقابل ذرّيته. وسأعرفهم.

ويخطرُ لي أيضاً الطّفل الذي رأيته من نافذة الحافلة عند مفترق طرق روز بيل في اليومِ التالي لوصولي، بين ذراعَي والدته وهي تمضي مع والده تحت المطر بحثاً عن ملاذ ليليّ، أو وظيفة، أو حظّ سعيد.

وفيما كنت أنظر إلى الكرّاس المُصفرّ الذي أعطتني إيّاه آنّا، في الطائرة التي كانت تحلّق بي فوق المحيط، جاءني فجأةً هذا اليقين: سيتا، الفتاة الهنديّة الشّابة التي أحبّتها آنّا، وخرجت يوماً من حياتها بلا رجعة، هي ابنة سوريا وليون التي حمَلت بها سوريا في

صحراء جزيرة غابريال. لم يكن لقاء سيتا وآنّا من قبيل الصدفة. بل كان مقدّراً منذ ولادتها. ربّما لم تبوحا بذلك، لكنّ سيتا كانت تعرفه، ولهذا كان عليها ألّا ترى آنّا بعد زواجها. فهل عرفت آنّا بالأمر هي الأخرى؟ هل خمّنت ذلك؟ وإلّا فلماذا احتفظت بكرّاس يوميّاتها ذاك طيلة حياتها، بوصفه أثمن ذكرياتها؟ ولماذا أعطتني إيّاه؟ فهي بإعطائي هذا الكرّاس، قد وضعت بين يديّ، بأسلوبها السّاخر العميق، الإجابة عن كلّ ما جئت أسأل عنه في موريشيوس.

لا نعرف كالكي[1] بعد، لكنّه آتٍ لا بدّ.

سيكون أوّلاً بالا كريشنا[2]، الطفلَ الذي ما زال يحبو، ويلهو على الأرض زاحفاً على أربع، وفي يده كرةٌ من الزّبدة الفاسدة.

لا أحد يعرف متى سيأتي، أو مَن سيكون، ولكنْ بات جليّاً أكثر فأكثر أن مجيئَه وشيك، وأنّه سيقيم مملكته قريباً. أحلم أحياناً بهذا الطّفل الأسمر ذي العينَين العذبتَين، يجلس على الأرض، أو ربّما في السّوق في ماهيبورغ، ثمّ ينقلب على ظهره ويمصّ إصبع قدمه الكبيرة، ويتوّهج مثل شمسٍ في ليل الأحلام.

---

(1) كالكي هو التجّسد العاشر والأخير لفيشنو الحافظ، الذي سيأتي لإنهاء عصر الظلام والدّمار، وفقاً للمعتقد الهندوسيّ.

(2) إشارة إلى تفاصيل الصورة التي تجسّد عادةً بالا كريشنا، أيْ الطفل الإله كريشنا، في الهندوسيّة.

هل كنت أطارد وهماً؟ ها أنا اليوم، في نهاية هذه الرحلة، بقيت خاليَ الوفاض، كما كنت من قبل. فليست جزيرة بلات سوى صخرةٍ مهجورةٍ برصيفٍ متهالك، تتناثر فيها قبورٌ بلا شواهد، وحيث البحيرةُ التي يجلب إليها الصيادون سيّاحاً من الفنادق لقضاءِ يوم روبنسينيٍّ. ما زالت المياه الصافية تتدفّق مع كلّ جَزْرٍ هابطٍ فوق الهياكل المرجانيّة الغائرة في عمق البحيرة، وظِلّ التازور المشؤومة الشبيهة بكلب الحراسة يظهر معترضاً طريق البشرِ من وقتٍ إلى آخر. وما زالت طيور البحر تحوم في حلقاتٍ بطيئة حول عمود الإشارة لتحرس أعشاشها.

أُثقِلت آخرُ أيّام آنّا بحزنها لغياب كريستينا، «داليتها النّحاسية» الجميلة التي كانت تقطف من أجلها أزهار الخطميّة؛ «زهرة مدام لانغليه». غادرت كريستينا الدّير، وقد أغوتها الحياة السّهلة، ومرايا الحانات الصّاخبة في الفنادق الكبيرة حيث تلتهم الذّئاب الشّريرة لحم الفتيات الصغيرات.

وبعد أسابيع قليلة فقط من افتراقنا، سقطَت آنّا على أرضيّة غرفتها، مثل العديد من كبارِ السّنّ، فأصيبت بكسرٍ في عُنق عظمة الفخذ. كانت المجنونة هي من عثرَت عليها، وضغطَت على جرس الإنذار. ويبدو أنّها لم تبكِ يوماً في حياتها مثلما بكت في ذلك اليوم. فلمّا حُمِلت آنّا، تشبّثت بالنقّالة وهي تصرخ قائلةً: «أمّي».

وكتب لي الدكتور موغرو - وكنت العنوانَ الوحيد الذي أعطته له- مُلخّصاً بدقّةٍ نهايتها:

رفضَت آنّا كلّ علاج. توقّفت عن الأكل، ورغم كلّ محاولاتنا، لم نُفلح في ثنيَها عن قرارها. وبعد ثلاثة أسابيع، ماتت بهدوءٍ في عتمةِ اللّيل، عن تسعةٍ وثمانين عاماً.

مرسيليا نهاية أغسطس 1980

إنّه هو من لا أزال أفكّر به. أتذكّر ذلك: كنت في العاشرة أو الحادية عشرة من عمري، أخبرتني جدّتي بما حدث في ذلك المساء، في حانة سان سولبيس، وقرأَت لي مقاطع من المركب السّكران، فسألتها: «هل رامبو هذا، في مقام عمٍّ لي؟». كنت أعتقد أنّهم أخفوا أمره وطردوه، لا لشيءٍ إلّا لأنّه كان شَقيّاً، ولأنّه رحل وترك الجميع وراءه، مثل ليون.

من أجل هذا أردت أن أذهب إلى آخرِ مكانٍ عاش فيه، مثلَ من يزور قبو العائلة، كي أرى ما رآه، وأشعرَ بما شعر به. كان الصّيف في ذروته في مرسيليا. ولمّا نزلت من القطار، لفح الهواء وجهي، وكان الجوّ مغموراً بما يشبه رائحةَ حريق.

لم أرغب في ركوب سيارّة أجرة. حاولتُ مستعيناً بالخريطة أن أتتبّع الطريق الذي سلكه في عربة الخيلِ من محطّة سان شارل إلى مشفى لا كونسيبسيون. ثمّة الآن طرقٌ واسعةٌ وأنفاق، ولا شيءَ من هذه المعالم كان موجوداً آنذاك.

سلكتُ شارع سان بيير الطويل الذي يمرّ عبر ما تركه الألمان قائماً في مرسيليا القديمة: مبانٍ متداعيةٌ من ثلاثة طوابق بنوافذَ

مُسيّجةٍ وبواباتٍ عريضة، وحاناتٌ معتمةٌ ينبعث منها أريج اليانسون والموسيقى الشرقية. بدا لي وأنا أمرّ بمحاذاة البيوت أنّني أسمع ضربَ حوافر الحصان وهو يجرّ العربة ذات الستائر المنسدلة نحو المشفى. ربّما كان فاقداً للوعي. إنّه يعرف هذا الطريق جيّداً، وهذه ثالث مرّة يسلكه فيها. كانت المرّةَ الأولى عندما نزل من السّفينة **الأمازون**، يوم الجمعة 20 مايو، ثمّ عاد إليها بعد شهرَين بالضبط، كي يستقلّ قطار الشّمال. والآن... ها أنذا أمشي على طول الشارع الضّيق، كما لو كنت أقترب من هدفي، كما لو أنّ كلَّ شيءٍ على وشك أن يتّضح، كما لو كنت سأعثر على **المفقود**، على أثرٍ له أو علامةٍ؛ زهرةٍ ترتعش في هواء باحةٍ ما، أو شجرةٍ استَظلَّ بها، أو اسمٍ محفورٍ على حجر. فكلّ البيوت والنّوافذ والأبواب تشهد عليه.

وفي نهاية الشارع، بجوار سجن الأشغال الشاقّة الذي تحوّل إلى مقرٍّ للأرشيف أو متحف، تنتصب جدران المشفى الخرسانيّةُ البيضاء الكبيرة، بين الحطام والغبار. لم يبق شيءٌ من المشفى القديم. جُلْتُ بلا هدفٍ بين الممرّات، وفي ما تبقّى من الحديقة بين موقفَي السّيارات. قرأتُ النقش: «**هنا...أنهى الشاعر مغامرته على الأرض**»- **مدرج آرتور رامبو**. في قاعةِ الخطوات التّائهةِ تلك، كان عربيٌّ يستمع إلى مذياعه الصغير، مرتدياً بذلةَ ركضٍ وقدماه عاريتان في حذاءٍ رياضيّ أبيض. وجهه هزيل منهكٌ من المعاناة، وله، هو أيضاً، شاربٌ صغيرٌ، وشعره قصيرٌ جدّاً مثل محكومٍ بالأشغال الشاقّة. كان يستمع إلى موسيقاه بنظرةٍ وديعة حالمةٍ، كما لو كانَ بعيداً جدّاً، في جبال الأوراس ربّما. «الله كريم!»(1).

(1) يُروى، وفقاً لبعض المصادر، أنّ الشّاعر آرتور رامبو كان يردّد وهو على سرير الموت هذه العبارة باللّغة العربية.

والآخر، ماذا عنه؟ هل صعد هو أيضاً متوكّئاً على عكّازه حتّى بلغ أشجار الدّلب الكبيرة عند المدخل، كي ينعمَ بظلّها المنعش؟ هل مشى إلى آخر الحديقة مُستنداً إلى ذراع إيزابيل - عاضّاً على شفته حتّى لا يصرخ -، كي يتأمّل من بعيد، ما بين سطوح المدينةِ والتّلال، البحرَ الملتحمَ بصفحة السّماء البيضاء؟

لقد كان في الصّيف نفسه، قبل تسعةٍ وثمانين عاماً، أنْ امّحى ليون وسوريافاتي من ذاكرة آل أرشمبو، كما لو أنّهما دخلا عالماً آخر، من الطرف الآخر للحياة، يفصلُهما عنّي ستارٌ بالغ الرقّة يجعلهما غير مرئيَّين. وها هما الآن قد باتا أقرب إليّ من أيّ وقتٍ مضى.

كنت جائعاً. وكنت أشْعر بأنّني حُرّ. تنفّستُ الهواء الحارّ، ونعِمْتُ بفيء أشجار الدّلب العظيمة التي عمرها مائة عام. ولمّا غادرت المشفى، اشتريت رغيف خبزٍ من متجر بانيول، وهبطتُ ثانيةً الشّارع الطويل المُفضي إلى محطّة القطّار.

مكتبة
t.me/soramnqraa

مكتبة
t.me/soramnqraa

الكرنتينة

وما أهميّة الصّوَر؟ فذاكرتي ليست هنا أو هناك بين هذه الأنقاض. إنّها في كلّ مكان، في الصخور، وفي منحنى البركان الأسود، وأريج الحشف اللاّذع، وحفيف الريح، وفي بياض الزّبد على بلاطات البازلت. أردتُ أن أرى جزيرتَي بلات وغابريال مُدركاً أنّني لن أجد ضالّتي. ومع ذلك، فإنّني أشعر الآن، بين تلك الجدران المعتمة التي بلاها الزّمن، أن عقدةً ما بداخلي قد انفكّت، كما لو أنّني تحرّرتُ وتنفّست الصّعداء. فطالما اعتقدتُ أنّني بلا بلدٍ ولا وطنٍ، بسبب كبير العائلة، وأنّنا كنّا منفيّين إلى الأبد. لكنْ، في حين كان الزّورق يعبر القناةَ ويمضي بعيداً نحو موريشيوس، ويشتدّ صرير محرّكِه كلّما علا الموج، أدركتُ أخيراً أنّني إلى هنا أنتمي، إلى هذه الصخور السّوداء المنبجسة من قلب المحيط، وهذه الكرنتينة، كما لو أنّها مسقطُ رأسي. لم أترك شيئاً في المكان، ولم أحمل منه شيئاً. ومع ذلك، أشعرُ الآن أنّني إنسانٌ آخر.

من الرّواية

المعارف العامة
الفلسفة وعلم النفس
الديانات
العلوم الاجتماعية
اللغات
العلوم الطبيعية والدقيقة/التطبيقية
الفنون والألعاب الرياضية
الأدب
التاريخ والجغرافيا وكتب السيرة
أطفال وناشئة

مركز أبوظبي للغة العربية
Abu Dhabi Arabic Language Centre

كلمة
KALIMA

السعر 50 درهماً

9 789948 040613